أليكسي فاسيلييف

تاريخ العربية السعودية

من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين



الطبعة الرابعة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

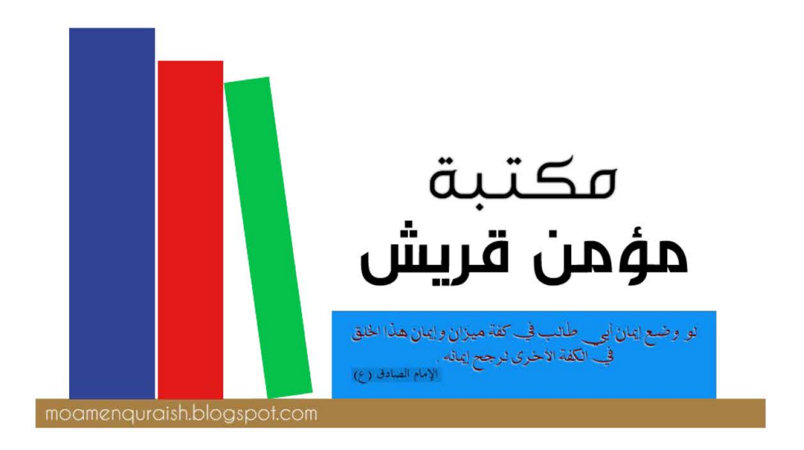
تاريخ العربية السعودية

أليكسي فاسيلييف

أليكسي فاسيلييف

تاريخ العربية السعودية

من القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن العشرين









الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الرابعة ٢٠١٣
ISBN: 978-9953-88-391-5

صورة الغلاف: Photograph FDR-PHOCO-A- 491642008 (256)
National Archives and Records Administration- Washington DC.

تصميم الغلاف: داني عوّاد
الإخراج الفني: تركيه التالي

المقدمة

تتمتع العربية السعودية في العالم المعاصر بنفوذ أكبر بكثير مما يفترضه عدد سكانها الأصليين، وهو حوالى ١٢ مليون نسمة في أواسط التسعينيات.

فهي تمتلك حوالى ثلث موارد النفط المكتشفة خارج إطار روسيا وآسيا الوسطى والصين. وقد غدت أكبر منتج للنفط وأول مصدّر له. وعندما وجدت الطبقة الحاكمة السعودية نفسها عاجزة عن استثمار العائدات الخيالية من هذه المادة الخام في داخل البلاد صارت من أكبر مصدري الرأسمال أيضًا. وتفوّق الملوك والأمراء من آل سعود على أغنى طواغيت المال في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا من حيث الأحجام المطلقة لثرواتهم. إن القرارات التي تتخذ في الرياض، بالرغم من أنها ليست مستقلة دومًا وغالبًا ما تكون اضطرارية ومفروضة من القوى الخارجية، إنما تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على ميزان المدفوعات في الولايات المتحدة الأميركية والكثير من الدول الأخرى، وعلى وتائر تطورها الاقتصادي ومستوى التضخم النقدي ومستقبل الدولار، وعلى سير النزاع العربي الإسرائيلي ونتائجه، وعلى استقرار بعض أنظمة الحكم في البلدان النامية.

وكان السبب في أكبر صدام مسلح بعد انتهاء «الحرب الباردة»، ونعني به حرب الخليج، لا يقتصر على غزو العراق للكويت، بل ينطوي على خطر احتلال العربية السعودية وتجزئتها.

ويضاف إلى العوامل الاقتصادية والمالية الفريدة دور العربية السعودية بوصفها مهد الإسلام. ففي أراضيها الحرمان الشريفان الرئيسان في الإسلام: مكة المكرمة وفيها الكعبة التي يتجه المسلمون نحوها أثناء أداء فريضة الصلاة ويتوجهون إليها

لأداء فريضة الحج، والمدينة المنورة وفيها قبر الرسول. إن تصاعد الصراع بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية وتعمق الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي يضفيان صبغةً دينيةً على الكثير من النزاعات السياسية والاجتماعية الجارية فيه وكذلك على الحزازات والعنعنات القومية والخلافات الدولية. ولذا تزداد في العالم الإسلامي أهمية العربية السعودية، سادن الحرمين الشريفين.

لقد تعرّضت البنية الاجتماعية والاقتصادية في العربية السعودية لتغيرات سريعة في غضون حياة جيل أو جيلين. فقد التصق الاقتصاد الرأسمالي السوقي الدخيل بالمجتمع العشائري الإقطاعي التقليدي الذي لم يكن متهيئًا للتحوّلات ولم تكن لديه لا الكوادر ولا المؤسسات الحكومية والاجتماعية ولا النظام الحقوقي المناسب لهذا الغرض. وبدأ في العربية السعودية، التي يحكمها واحد من أعتق الأنظمة في المعمورة، انفصام ممض في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والقانون والسيكولوجيا الاجتماعية، فثمة مجتمع جديد ناشئ يعجز التصنيف المعتاد عن وضعه في الخانة التي تناسبه.

وبديهي أن تقترن زيادة الاهتمام بهذا البلد بزيادة المطبوعات المكرّسة له.

فخلال الأعوام العشرين الأخيرة ظهرت في روسيا (والاتحاد السوفييتي سابقًا) كتابات كثيرة عن العربية السعودية في مؤلفات مستقلة وفي الصحف والمجلات، وهي مذكورة بالتفصيل في الطبعة الأولى من كتابنا «ببليوغرافيا العربية السعودية» وفي طبعته الثانية التي ستصدر قريبًا. ولكن منذ صدور الطبعة الأولى «لتاريخ العربية السعودية» لم تظهر مؤلفات جديدة في تاريخ المملكة، شأن كتابنا هذا، تطور البلد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي منذ تأسيسه في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حتى تسعينيات القرن العشرين.

والطبعة الحالية مزيدة ومنقحة وتتناول الأحداث حتى بداية التسعينيات حيث عاد الاستقرار إلى المملكة بعد هزات حرب الخليج. ولعل مرحلة التسعينيات تشكل ميدانًا للبحث أمام الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والساسة والصحفيين أوسع منه

أمام المؤرخين، وذلك لأن أحداث الأعوام الأخيرة لم تترسب وتتبلور بالقدر الكافي لبحث تاريخي صرف.

لقد اعتمدنا في إعداد هذا الكتاب على عدة مجموعات من المصادر. وفي مقدمتها مصنّفات تاريخية عربية وضعها مؤلفون من أنصار آل سعود والوهابية، وكذلك مؤلفون معادون لهم ومراقبون محايدون. ونستدرك هنا فنقول إننا استخدمنا مصطلح «الوهابية» كما جرت العادة في الدراسات الغربية للدلالة على الحركة الدينية السياسية التي نشأت بالجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، علمًا بأن المصطلح المذكور لم يلقَ انتشارًا في العربية السعودية نفسها.

ثم تأتي مؤلفات ابن عبد الوهاب وأتباعه وأبرز فقهاء الجزيرة العربية. وتتكون المجموعة التالية من المصادر من مذكرات الرحّالة الأوروبيين والدبلوماسيين والعلماء ورجال المخابرات الذين زاروا الجزيرة العربية والأقطار المجاورة لها في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. وتلقي وثائق الإدارة البريطانية ـ الهندية الأضواء على بعض قضايا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتتضمن المطبوعات السعودية الرسمية معلومات عن الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والنظام الحقوقي في البلاد. ويمكن اعتبار بعض المطبوعات الأميركية التي تحوي معطيات اجتماعية عن العربية السعودية في عداد المراجع. كما اعتمدنا على الوثائق التي تحتوي على معلومات عن العربية السعودية والمحفوظة في إرشيف السياسة الخارجية لروسيا وإرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي السابق.

المصنّفات العربية

لا يوجد بين المصنّفات المعروفة لدينا إلا كتاب واحد ألّفه شخص تابع تطور الحركة الوهابية ودولة السعوديين منذ السنوات الأولى لنشوئهما. ونعني كتاب «تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام مرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام» لمؤلفه حسين بن غنام. وهو فقيه من الأحساء توفى عام ١٨١١. في الجزء الأول يستعرض ابن غنام بعض مؤلفات محمد بن عبد الوهاب. وفي

الجزء الثاني يسرد تاريخ حروب الوهابيين خلال نصف قرن، من عام ١٧٤٦ حتى عام ١٧٩٦.

كان ابن غنام من أنصار تعاليم ابن عبد الوهاب. وهو يعتقد أن الله ألهم الوهابيين للقيام بأعمالهم، وأن الشيطان كان وراء خصومهم. ويضطر المرء إلى جمع المعلومات عن البنية الاجتماعية والسياسية للدولة السعودية الأولى حبّةً حبة. ومع ذلك فإن مصنّف ابن غنام يعتبر مرجعًا فائق الأهمية. فالمادة التي يحتويها هي حصيلة متابعة شخصية للمؤلف أو مستقاة من منابعها الأولى. والمصنّف الثاني هو «عنوان المجد في تاريخ نجد» من تأليف المؤرخ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي، وهو من فقهاء واحة شقراء في منطقة الوشم والمعروفين في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. لقد عايش الكثير من أحداث الجزيرة بعد الفترة التي توقف عندها مصنّف ابن غنام. وقد توفى ابن بشر في ١٨٧١ ـ ١٨٧٢.

كان ابن بشر متمسكًا هو الآخر بالوهابية، لكنه تميز عن سابقه بسعة آرائه. فقد أدرج ابن بشر في مصنّفه وقائع قيّمة عن بنية الدولة السعودية الأولى وعن الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. والتاريخ الذي يستعرضه ابتداء من عام ١٧٤٥ يقترن بجولات إلى فترات تاريخية أقدم. ويختتم ابن بشر مؤلفه بوصف أحداث عام ١٨٥٤.

وتتوافق التواريخ التي يوردها ابن بشر في أمور كثيرة مع تواريخ ابن غنام. ويسجل ابن بشر النص الكامل لقصيدة سلفه بمناسبة وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتي وردت في «تاريخ نجد». إلا أنهما يقدمان في بعض الأحيان وصفًا متباينًا لوقائع بعينها، ويركزان على أحداث مختلفة لا تتوافق تواريخها وأرقامها على الدوام. وربما لم يكن ابن بشر مطلعًا على مؤلف ابن غنام. وعلى أي حال فهو لا يذكر في المقدمة اسمه بين المؤرخين الذين يعرفهم. وعندما يورد خبر وفاة ابن غنام يعدّد مزاياه كفقيه وشاعر، دون أن يذكر كلمة واحدة عن مؤلفاته التاريخية.

ويمكن تدقيق صحة معلومات ابن غنام وابن بشر بمقارنتها مع الوقائع التي أوردها الأوروبيون. ولم يطلع المؤرخون العرب والأوروبيون على هذين المصنّفين إلا في القرن العشرين.

ومما يثير الاستغراب أن المستشرقين الذين كتبوا عن جزيرة العرب لم يلتفتوا إلى وقائع تاريخ الدولة السعودية التي أوردها المؤرخ الفرنسي ف. منجين في ملحق كتابه «تاريخ مصر في عهد محمد علي». وكان منجين قد وضع تلك الوقائع استنادًا إلى معلومات حصل عليها من حفيد ابن عبد الوهاب، الذي نُفي إلى مصر بعد خراب الدرعية عام ١٨١٨ ، وعلى ما يبدو، من وهابيين آخرين.

ويتضمّن مؤلف ف. منجين «تاريخ مصر» معلومات قيّمة عن مجتمع الجزيرة، وهي معلومات مستقاة من تقارير الإدارة المصرية في نجد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر. وخلال السنوات الأخيرة لفت انتباه المستشرقين وبعض المؤرخين العرب كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» ومخطوطته الأصلية محفوظة في المتحف البريطاني. وتعتبر أغلبية الباحثين ان هذا الكتاب مغفلًا. وهو عبارة عن سجل في ٧٦٤ صفحة يشمل فترة من تاريخ الجزيرة العربية تبدأ على وجه التقريب من العقد الرابع للقرن الثامن عشر وتنقطع فجأة عند أحداث كانون الأول/ ديسمبر ١٨١٧. ويعبر واضع السجل عن احترامه لابن عبد الوهاب، ولكنه يعتبر مذهبه بدعة، وقد استند في ذلك إلى رأي شيوخ من البصرة والزبير.

يتكوّن «لمع الشهاب» من رؤوس أقلام ولمحات كتبت استنادًا إلى روايات أشخاص شاركوا في الأحداث وإلى شائعات وخرافات. ولكن ذلك لا يحرم هذا المصنّف من جملة مزايا لا جدال فيها، وهي مزايا تجعله يحتل مرتبته بين المصادر العربية الثلاثة لتلك الحقبة، ونعني كتابي ابن غنام وابن بشر وعرض منجين لسجل الوهابيين. فهذا المصنّف الذي وضعه شخص غير متفق مع الوهابيين، ولكنه موضوعي لدرجة كافية، يعتبر قيّمًا بسبب استقلاليته وخلوّه من الصبغة الرسمية. ويتضمّن «لمع الشهاب» معلومات إضافية حول طائفة من القضايا: طابع العلاقات الإقطاعية والقبلية في الجزيرة، والتجارة والصنائع في نجد، وأشكال الشريعة عند القبائل البدوية، وتنظيم السلطة وجهاز جباية الضرائب والنظام القضائي، والقوات في الدولة السعودية الأولى.

ومما لاشك فيه أن مؤلفات ابن عبد الوهاب المخطوطة من أقدم المصادر التي

ظلّت محفوظة حتى الآن. اثنان منها ـ «كتاب التوحيد» و«كتاب كشف الشبهات في التوحيد» ـ يتفقان من حيث أحكامهما الأساسية مع ما نشر مؤخرًا من مطبوعات. إلا أن مؤلفات ابن عبد الوهاب التي صدرت في القرن العشرين قد تعرّضت لتعديلات كبيرة من المحققين والمراجعين أو طُبِعت استنادًا إلى صياغات أخرى لهذه المؤلفات نفسها.

ويمكن الحصول على معلومات إضافية عن الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى وعلى مواد للتثبت من صحة الوقائع المعروفة من مؤلفات المؤرخين الحجازي أحمد بن زيني دحلان، واليماني محمد بن علي الشوكاني، والعماني سليل بن رزيق، والمؤرخ المصري الشهير عبد الرحمن الجبرتي، والبحراني محمد بن خليفة النبهاني، والعراقي عثمان بن سند البصري، وكذلك إبراهيم الحيدري البغدادي.

وبعد ابن بشر واصل تسجيل التواريخ النجدية إبراهيم بن صالح بن عيسى الذي وُلِد في شقراء عام ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤. فإن مصنّفه «عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر» يتناول الأحداث المنتهية عام ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ ، ولكنه كتبه أو أنجزه في عهد مؤسس العربية السعودية المعاصرة عبد العزيز (ابن سعود) الذي يمتدحه في مدخل الكتاب. ولم نتمكن من العثور على هذا المصنّف. لذا اعتمدنا على كتابة «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد».

وهناك مصنّف أحدث هو «عنوان السعادة والمجد فيما اسُتظرِف من أخبار الحجاز ونجد» لمؤلفه عبد الرحمن بن الناصر. ويتناول الأحداث حتى منتصف ثلاثينيات القرن العشرين. وقد استخدمنا هذا المرجع بصورة غير مباشرة، عن طريق عرض مضمونه الذي قدمه المستشرق الإنجليزي فيلبي وبعض المؤرخين العرب.

ومن المصادر الهامة مصنّف ضاري بن فهيد بن رشد، فهو يعبر عن وجهة نظر شمر بشأن الأحداث في نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. و«تاريخ ملوك آل سعود» في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لمؤلفه الأمير سعود بن هذلول أحد أفخاذ آل سعود.

وخلال السنوات الأخيرة بدأ استخدام عدة مصنّفات مخطوطة واحدها بقلم البسام استندنا إليها عند إعداد المواد المكرّسة لتأسيس المملكة العربية السعودية في الثلث الأول من القرن العشرين.

وتشكل مؤلفات محمد بن عبد الوهاب وأتباعه مجموعة من المراجع الهامة جدًا لدراسة المذهب الوهابي، وقد وصلتنا في العديد من المستنسخات التي يُحفظ بعضها في مكتبات ومتاحف أوروبا الغربية. وقد ورد عند ابن غنام أو ابن بشر أو كليهما ذكر المؤلفات التي تعبر عن جوهر الوهابية: «كتاب التوحيد» (وهو أقدم تلك المؤلفات، وُضِع في ثلاثينيات القرن الثامن عشر) و«كتاب كشف الشبهات في التوحيد» و«كتاب الكبائر» و«مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية» و«مختصر سيرة الرسول». أما مؤلفات ابن عبد الوهاب الأخرى، ومنها «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» و«أصول الإيمان» و«فضل الإسلام» و«نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين» و«الأصول الثلاثة وأدلتها» و«الرسائل»، فهي عديدة وقد أدرجها كارل بروكلمان في مراجع كتابه «تاريخ الأدب العربي».

وقد طبعت مؤلفات ابن عبد الوهاب استنادًا إلى المستنسخات المبكرة العائدة إلى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، مع أنها، على ما يبدو، قد روجعت فيما بعد. ثم إن المعلومات التي جمعها المستشرقون الأوروبيون عن مذهب الوهابيين تطابق على العموم الأصول المعروضة في هذه المراجع.

وقد اشتهر عبد الله، وهو ابن مؤسس الوهابية، بتأليف كتب في الفقه أيضًا. ومنها «الرسالة» التي نُشرِت في الترجمة الإنجليزية لأول مرة نقلًا عن مخطوطة عربية عام ١٨٧٤ في «مجلة جمعية البنغال الآسيوية» (المجلد ٤٣، الجزء الأول، ص ٦٨ ـ ٨٢)(وذكرت المجلة، خطأ هنا، ان المؤلف هو حفيد محمد بن عبد الوهاب). ثم نشرت في مجموعة «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية» التي صدرت عام ١٩٢٣/ ١٩٢٤. وتعتبر«الرسالة» ذات قيمة لأنها غير مثقلة بالاستشهادات والأحاديث والتعليقات وتعبر بدقة عن بعض أصول الوهابية.

وكتب عبد الرحمن بن حسن، حفيد محمد بن عبد الوهاب، في أمور فقهية

كثيرة. فكان مؤلفه «فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد» عبارة عن تعليق ضاف على مؤلف ابن عبد الوهاب «كتاب التوحيد». وتتجاوب مع تعاليم الوهابية أيضًا «رسالة» الفقيه النجدي، أحمد بن ناصر بن عثمان، من أعيان آل معمر.

إن العثور على مؤلفات خصوم الوهابية الآن أصعب بكثير مما في السابق. وبالإضافة إلى مؤلفات ابن زيني دحلان وابن رزيق، تجدر الإشارة إلى مخطوطتين في المسائل الأصولية محفوظتين في مكتبة توبينغين في ألمانيا الاتحادية. وهما «رسالة في رد ابن عبد الوهاب» لمحمد بن عفالق الحنبلي الأحسائي و«المشكلات المضية ردًا على الوهابية» لابن السويدي.

كتابات الأوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية والبلدان المجاورة في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر:

كان الرحّالة الدانمركي نيبور أول من حمل أنباء الوهابيين إلى أوروبا قبل أكثر من مائتي عام.

وفي سبعينيات القرن الثامن عشر زار الرحّالة والعالم الموسوعي فولني الشام وفلسطين، ولكنه لم يصل إلى الجزيرة العربية. ومع ذلك تتميز كتاباته عن البدو الأعراب المترحلين على مقربة من غزة وأحاديثه عن قبائل الجزيرة بدقة الملاحظة والأحكام.

وفي عام ١٨٠٧ زار الحجاز ومكة مخبر نابليون، وهو إسباني اسمه باديا أي ليبليخ انتحل لنفسه أثناء تجواله اسم علي بك.

ويحتل بوركهاردت مكانًا بارزًا بين الرحالة. وهو سويسري الأصل يحمل الجنسية البريطانية، وكان مندفعًا برغبة عارمة في التجوال. وكانت الحجاز التي وصلها عام ١٨١٤ ـ ١٨١٥ مجرد مرحلة في تجواله. وقد جمع معلومات كثيرة جدًا عن الجزيرة العربية وعن حياة العرب مستندًا إلى أحاديثه الشخصية مع الحجازيين والنجديين. ولم يكتف بوركهاردت بدراسة تاريخ الوهابيين ومذهبهم وتركيب الدولة السعودية الأولى، بل تناول كذلك العلاقات الاجتماعية والشريعة عند البدو والحضر

على حد سواء، كما اهتم بأشكال الأسرة والملكية وجباية الضرائب. وكانت الثقافة الواسعة التي يتحلّى بها هذا الرحّالة وسعة افقه إلى جانب النزاهة العلمية قد ساعدته في تأليف كتب لولاها لبقيت معلوماتنا عن الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شحيحة للغاية. ويجدر بنا أن نذكر بين مزايا بوركهاردت الكثيرة أسلوبه الممتع الذي لا يترك سبيلًا أمام الضجر المرهق في مطالعة الكثير مما كتبه الرحّالة الأوروبيون.

وفي عام ١٨١٩ عبر الضابط البريطاني ج. سادلر شبه جزيرة العرب من القطيف إلى ينبع.

وكتب الأوروبيون عن الجزيرة العربية من البلدان المجاورة أيضًا. ويحتل مرتبة الصدارة بين هذا النوع من المؤلفات «تاريخ الوهابيين» الذي أصدره عام ١٨١٠ ل. كورانسيز القنصل الفرنسي في حلب. وكان كورانسيز قد شارك مع مجموعة من العلماء في حملة نابليون على مصر ثم استقر في حلب، حيث عاش ثماني سنوات. ويتضمّن كتابه معلومات غير قليلة عن التاريخ السياسي لدولة السعوديين وبنيتها ومذهبها. إلا أن كتاب كورانسيز «تاريخ الوهابيين» لا يخلو من الأخطاء والأحكام غير الموزونة.

وجمع المدفعي الفرنسي ج. رايمون الذي كان في خدمة والي بغداد مواد في العراق وضمنها تقريرًا بعث به إلى وزارة الخارجية الفرنسية.

وكان بريجيز، المعتمد السياسي لشركة الهند الشرقية في البصرة (اعتبارًا من عام ١٧٨٤) ثم في بغداد، قد نشر مذكراته بعد مرور عدة عقود على عودته من الأقطار العربية.

وقد وصلت إلى الصحافة الروسية معلومات عن الوهابيين بالأساس عن طريق أوروبا الغربية. ومن أقدم الكتابات التي تم العثور عليها (بعد طبع «رحلة» فولني) ما نشرته مجلة «بشير أوروبا» (فينسك يفروبي) بالروسية عام ١٨٠٣: «قدر للجزيرة العربية ان تكون مهد الثورات الاسيوية. الإمام الجديد هناك عبد الوهاب لديه الآن...

قوات غفيرة وهو يقترب من مكة». وفيما بعد نشرت «مجلة المنوعات الأدبية» (١٨٠٥)ومجلة «بشير أوروبا» (١٨١٩) مقالات ألقت الأضواء على الأحداث في الجزيرة العربية.

ويقدم الرحّالة الأوروبيون الذين زاروا شبه جزيرة العرب بعد ج. سادلر في القرن التاسع عشر مادة غنية ممتازة لإيضاح حياتها الاجتماعية والسياسية. فهم يضيفون إلى ما كتبه بوركهاردت وفولني ونيبور والمؤرخون العرب ويثبتون شيئًا فيه أو ينفون شيئًا آخر فيساعدون على دراسة مجتمع الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وفي ثلاثينيات القرن الماضي زار الضابط البريطاني د. ولستيد عمان وجاب ساحل الجزيرة. وفي الوقت نفسه تقريبًا زار الفرنسي م. تاميزيه الحجاز وعسير، وفي الأربعينيات تجول العالم الفنلندي فالين في ربوع الحجاز وشمال الجزيرة، وزار الإنجليزي ر. بارتون في الخمسينيات الحجاز وبادية الشام. وفي عام ١٨٥٤ زار الفرنسي ش. ديديه مكة. وفي عام١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ تسلّل عضو سلك الجزويتيين (اليسوعيين) المخبر الفرنسي و. بلغريف إلى أواسط نجد وزار عاصمة الدولة الوهابية الجديدة، الرياض، وكذلك القصيم والأحساء. وقد أبديت الشكوك مرارًا في حقيقة رحلة بلغريف، وذلك بسبب عدم دقته، ولكن هذه الرحلة تأكدت الآن بالفعل.

وكان ل. بيلي المقيم البريطاني في بوشهر قد زار الرياض عام ١٨٦٤ ــ ١٨٦٥. وفي ذلك الوقت تقريبًا زار الإيطالي ك. غوارماني شمال نجد.

وتجول العالم الأثري والكاتب الإنجليزي دوتي في شمال نجد والحجاز عام ١٨٧٦ ــ ١٨٧٨. ويعتبر مؤلفه تحفة في أدب الرحلات الإنجليزي. والمعلومات التي يوردها دوتي غنية جدًا.

وتجدر الإشارة إلى الرحّالة الفرنسي يوبير الذي زار شمال نجد والحجاز عام ١٨٧٨ ــ وعام ١٨٨٣ ــ ١٨٨٤ وقتل هناك، وإلى الرحّالة الإنجليزي بلانت وعقيلته اللذين زارا بادية الشام وجبل شمر عام ١٨٧٨ ــ ١٨٧٩ وعام١٨٨١،

ومربي الخيول الروسي ستروغونوف وشرباتون وعقيلته الذين قاموا برحلتين إلى بادية الشام في ١٨٨٨ و١٨٩٠، والضابط الروسي دافليتشن الذي زار الحجاز في أواخر السبعينيات.

ومن بين المؤلفات المكرّسة لبدو الجزيرة الرحّل نشير إلى كتابات المستعرب والمخبر الألماني فون أوبينهايم الذي تجوّل في بادية الشام في تسعينيات القرن التاسع عشر، ولكن مؤلفه عن البدو بمجلداته الثلاثة لم يصدر إلا بعد عدة عقود.

واستمرت الدراسات الأوروبية للجزيرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

ويبرز خصيصًا بين جميع الباحثين فيلبي وديكسون. فقد صرف كلاهما قسمًا كبيرًا من حياته في الجزيرة العربية ودرساها من النواحي الجغرافية والاجتماعية والإثنوغرافية. كان فيلبي ضابطًا في الجيش البريطاني الهندي، واعتبارًا من عام ١٩١٧ عمل في الفيلق البريطاني في العراق، وفي العام نفسه صار ممثلًا سياسيًا لبريطانيا عند ابن سعود. وفي بداية العشرينيات عين مندوبًا سياسيًا لبريطانيا في شرق الأردن. وفي عام ١٩٢٥ ترك الخدمة الرسمية في الجيش البريطاني وأقام في العربية السعودية واعتنق الإسلام بعد بضع سنوات. وفي فترة معينة مارس تجارة سيارات فورد. وكان واحدًا من الوسطاء لدى توقيع اتفاقية امتياز شركة «ستاندارد أوبل أوف كاليفورنيا» التي أرست بداية شركة أرامكو الجبارة التي هي أول منتج للنفط في العالم. وقام فيلبي بدراسة عدد من مناطق العربية السعودية وخلف مذكرات كثيرة عن رحلاته.

أما نطاق رحلات ديكسون فهو أضيق من ذلك. لقد كان ممثلًا سياسيًا لبريطانيا في إمارات شرق الجزيرة ثم مقيمًا سياسيًا في الكويت. وقد زار المناطق الوسطى من شبه جزيرة العرب. ويتضمّن كتاباه «عرب البادية» و«الكويت وجاراتها» وصفًا هامًا، فريدًا من نوعه أحيانًا، لحياة القبائل البدوية ونشاطها الاقتصادي وبنيتها الاجتماعية، وكذلك طائفة من المعلومات الهامة عن تاريخ العربية السعودية والكويت.

أما لورنس فانه يشغل مكانة خاصة، لقد كان ضابطًا للاتصال عند شريف مكة

إبّان انتفاضة عرب الحجاز ضد الأتراك. وبعد الحرب العالمية الأولى احتاجت الدعاية البريطانية الرسمية إلى ابطال فجعلت من لورنس واحدًا منهم. وزادت من أمجاده مؤلفاته التي كتبها بومضات أدبية لاجدال في قيمتها. ولكن تلك لم تكن مؤلفات عن جزيرة العرب والانتفاضة العربية ضد الأتراك بقدر ما كانت مؤلفات بقلم لورنس عن دوره شخصيًا في هذه الانتفاضة، وليس دوره الفعلي طبعًا، بل الصورة التي تخيّلها عبر منظار الغرور الذي كان يعاني منه. لذا، لم تكن لمؤلفاته أهمية علمية كبرى.

وكثيرًا ما طاف العالم التشيكي، أ. موسيل، في شمال الجزيرة العربية والأقطار المجاورة لها اعتبارًا من أواخر التسعينيات وحتى عام ١٩١٧. وإبّان الحرب العالمية الأولى، كان يؤدي مهمات الأركان العامة النمساوية ـ المجرية في جبل شمر. وقد نشر عدة مؤلفات بعضها ذو طابع إثنوغرافي.

وتجدر الإشارة إلى دراسة أ. جوسان المكرّسة لبدو شمال الجزيرة، وكذلك إلى مؤلفات ر. مونتان.

وترك تسجيلات بمختلف الصياغات العالم الطبيعي د. كاروتيرز الذي عمل في شمال غربي الجزيرة وبادية النفوذ عام ١٩٠٩ والباحث الدانمركي ب. راونكيار الذي زار نجد عام ١٩١٢ والباحث الألماني ك. راسوان الذي عمل في بادية الشام في الفترة ١٩١١ ـ ١٩١٤ وفي مطلع العشرينيات، وكذلك الباحثون الإنجليز س. باتلر وج. ليشمان ور. شيزمان.

وألّفت المخبرة البريطانية والمستعربة الكبيرة هيرترودا بيل عدة كتب. وكتب ب. توماس وصفًا لرحلاته إلى شمال الجزيرة في العشرينيات ودراسات عن وسطها وجنوبها.

ويهيئ مؤلفون آخرون في هذه الفترة الإمكانية لإدراك الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لشبه جزيرة العرب في الثلاثينيات والأربعينيات بشكل أفضل. ومن هؤلاء المؤلفين الرحّالة الإنجليزي و.سيبروك والقنصل الهولندي في جدة فإن دير ميولين وقائد السلك العربي في الأردن والكاتب الثر فيما بعد حول القضايا العربية ج. غلوب وغيرهم.

وثمة طائفة من الكتب التي ترد فيها أحيانًا بعض الوقائع الجديدة، وربما القليلة الاهمية، عن مجتمع الجزيرة. وهي من تأليف أوروبيين وأميركيين زاروا جزيرة العرب في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، ومنهم ك. نالينو وج. ديغوري وأ. زيشكه وج. خيرالله وف يلزان. وغ. آرمسترونغ ود. هاورز وأ. راتر وف. توميشا وك. تويتشل وأ. فالك وم. شيني ور. سانجر وب. هاريسون. وتساعدنا معلوماتهم في الحكم بمزيد من الوضوح على التبدلات التي جرت في الجزيرة خلال عدد من العقود الأخيرة، كما تساعدنا في الدراسة الأفضل للأنظمة الاجتماعية المعروفة هنا طوال القرون والتي ظلّت باقية حتى الآونة الأخيرة تقريبًا.

ونجد معلومات تفصيلية عن الباحثين الأوروبيين الذين درسوا الجزيرة العربية في كتب أ. زيهمه وأ. رالي وس. زويمير ود. هوغارت وف. بارتولد ور. كيرنان وج. بيرين.

وتشكل وثائق ومطبوعات الإدارة البريطانية الهندية مجموعة مهمة من المراجع والمصادر التي لم يبدأ استخدامها في البحث العلمي إلا في العقدين الأخيرين. ومن أبرزها مجموعة الاتفاقيات بين الهند والبلدان المجاورة، وهي المجموعة التي أعدها ك. إيتشيسون في أواخر القرن التاسع عشر ونشرت لأول مرة في كلكتا عام ١٨٩٢. وصدرت الطبعة الثانية المزيدة من هذه المجموعة في دلهي عام ١٩٣٣.

وفي الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩١٥ نشر ج. لوريمير، وهو موظف في الإدارة البريطانية الهندية، مؤلفًا ضخمًا بعنوان «سجل الأحداث في الخليج وعمان ووسط الجزيرة». يحتوي هذا المؤلف على بضعة آلاف من الصفحات من القطع الكبير. وكان مخصصًا خلال فترة طويلة للاستخدام الإداري. ولم يتمكن علماء البلدان الأخرى من الاطلاع عليه إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وتكمن قيمته في كونه يجسد وجهة نظر الإدارة البريطانية الهندية بخصوص الأوضاع في بلدان الخليج ومجموع المعلومات التي كانت في حوزتها عن هذه المنطقة ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين. أما عيب مؤلف لوريمير هذا فهو قلة الإشارة إلى المراجع. ويصعب القول

على وجه التحديد هل استقى لوريمير معلوماته من مؤلفات بوركهاردت وكورانسيز ومنجين وبريجيز وغيرهم أم من اخباريات رجال المخابرات البريطانية.

وتتميز بقيمة كبيرة من هذه الناحية منشورات ج. سالدانا المكرّسة لمنطقة الخليج في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي استند فيها إلى مواد الأرشيفات البريطانية الهندية. ولكننا لم نتمكن من الحصول عليها، واكتفينا بالاستفادة من استشهادات ر. ويندير الكثيرة بها في مؤلفه «تاريخ العربية السعودية في القرن التاسع عشر».

المطبوعات السعودية الرسمية

نشرت إحصائيات سعودية هامة، بما فيها إحصائيات عن قوام المجتمع السعودي، في «الكتاب الإحصائي السنوي». كما أن مجاميع الوثائق والبيانات السعودية تتميز بأهمية معينة.

لقد أسفر النزاع السعودي البريطاني بسبب واحات البريمي عن ظهور «مذكرة حكومة العربية السعودية» بثلاثة مجلدات و«مذكرة» الحكومة البريطانية بمجلدين. وكانت الطبعة السعودية تستهدف إثبات عائدية الأراضي المتنازع عليها إلى العربية السعودية، ولكنها تضمنت في الوقت نفسه طائفة من المواد الجديدة عن جباية الضرائب وعن القبائل.

وفي القرن العشرين ظهر بين المراجع العربية التي ألّفها أشخاص ساهموا في الأحداث مرجع يمكن أن يقارن، من حيث أهميته لدراسة مجتمع العربية السعودية في القرن الحالي بكتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» و«لمع الشهاب» بالنسبة للقرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ونعني به كتاب خير الدين الزركلي بأربعة مجلدات: «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز». بديهي ان هذا الكتاب يدافع دون تحفظ عن مؤسس العربية السعودية وعن آل سعود وعن النظام السعودي عمومًا. ولكن إلى جانب ذلك فهو عبارة عن مجموعة غنية من المعلومات الواقعية المتنوعة عن البلاد، من النشوء حتى تشكيل الجيش النظامي، ومن النظام

القضائي والحقوقي حتى الإثنوغرافيا، ومن الاقتصاد حتى التفاصيل الفكاهية لحياة البلاط الملكي. وكان الزركلي، الذي خدم مدة طويلة في وزارة الخارجية، قد أدرج ضمن كتابه عدة وثائق قيمة من موجودات الدبلوماسية السعودية. ولكن من عيوب الكتاب عدم الإشارة إلى الكثير من المراجع.

وترك لنا حافظ وهبه المصري الذي خدم زهاء خمسين عامًا عند الملوك السعوديين مذكرات تزيد من معلوماتنا عن تطور المجتمع السعودي. فقد كان ابن سعود يأتمنه في المباحثات الدبلوماسية، كما شغل وهبه مناصب إدارية مهمة في الحجاز بعد فتحه وترأس ديوان التربية وعمل سفيرًا للسعودية في لندن، وخلف عدة مؤلفات. ويتحدث وهبه عن النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي للحضر والبدو في وسط الجزيرة قبل ظهور الصناعة النفطية وعن حركة الإخوان.

وألف فؤاد حمزة السوري الذي كان في خدمة الملوك السعوديين أيضًا عدة كتب، تتضمن في ما تتضمن، معلومات ذات طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي عن العربية السعودية قبل عصر النفط. إن مطبوعات المعارضة السعودية، بما فيها اليسارية المتطرفة، قليلة ولكنها قيمة لأنها تكشف عن توجهات المنظمات التي تعارض النظام السعودي.

وإلى جانب المئات من المؤلفات السطحية التي لا تتسم في الواقع بأهمية علمية، أخذت تظهر بين المطبوعات العربية في الثلاثينيات حتى السبعينيات مؤلفات جادة، ومنها دراسة التطورات الاجتماعية والاقتصادية في منطقة القصيم النجدية والتي أعدها الباحث السعودي عبد الرحمن الشريف في أواسط الستينيات. وفي عام ١٩٦٥ أصدرت جامعة الدول العربية كتابًا عن البدو الرحّل في الأقطار العربية، بما فيها جزيرة العرب.

وقدم نزار الكيالي شرحًا ضافيًا لقوانين العمل. ويتناول محمد صادق (ولعله مصري) تطور الجهاز الإداري السعودي.

إن المؤلفات العربية في تاريخ العربية السعودية تستند بالأساس إلى مصنّفات

الجزيرة، ولا تستخدم كثيرًا المراجع والمطبوعات الأوروبية. ثم إن المؤلفين العرب يقتصرون، عادة، على سرد الأحداث التاريخية دون أن يمحصوا مضامينها السياسية، ناهيك عن مضامينها الاجتماعية. ونلاحظ ذلك حتى عند أفضل الباحثين، من أمثال محمود شكري الألوسي وأمين الريحاني وأحمد علي وأمين سعيد وصلاح الدين المختار وأحمد عبد الغفور ومحمد عبد الله وراغب حراز ومنير العجلاني. ويهتم خصوصًا بعرض المذهب الوهابي عبد الله القاسمي وأحمد أمين ومحمد حميد الفقيه وعباس محمود العقاد وكذلك محمد رشيد رضا أحد زعماء الحركة الإصلاحية الإسلامية في مصر. وتتناول مؤلفات محمد المدني وحسين ناصيف نشأة العربية السعودية.

ويتميز بمستوى أعلى بعض الشيء كتاب الباحث الحجازي عبد الحميد الخطيب «الامام العادل» الذي يتحدث عن عهد عبد العزيز. وهو يحتوي على طائفة من الوقائع التاريخية المجهولة أو غير المعروفة كثيرًا. وكان مؤلفه من خصوم السعوديين سابقًا ومن مؤسسي الحزب الحجازي اللبرالي. وبعد تدمير الحزب عفا ابن سعود عن زعمائه واعيد إليهم اعتبارهم بعد فترة من الزمن. وكرّس عبد الله عبد الجبار وفهد المارك دراسات للفكر والأدب في العربية السعودية في القرن العشرين.

ويتناول الحقوقي صبحي المحمصاني بالتفصيل النظام الحقوقي والشريعة في العربية السعودية.

وأورد عبد الرحمن عبد الرحيم بعض المواد الجديدة من الأرشيفات المصرية وغيرها عن تاريخ الدولة السعودية الأولى، كما اورد عبد الفتاح أبو علية معلومات مماثلة عن الدولة السعودية الثانية.

ثم ان الكتب الجديدة المدافعة عن الوهابية والتي ألّفها سليمان بن سحمان تتضمن، بالإضافة إلى الأصول الوهابية، مقتطفات من مؤلفات خصوم الوهابية.

وفي «عصر البترول» ازداد مرارًا عدد المؤلفات الأوروبية الغربية والأميركية

الخاصة بالعربية السعودية. وبديهي ان رحالة أوروبيين كثيرين تناولوا التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويضاف إلى ذلك عدد من المؤلفات الهامة.

في بداية الخمسينيات أجرى ف. فايدال، بتكليف من إدارة أرامكو. دراسة ميدانية لواحات الأحساء، وجمع طائفة من المعلومات الجديدة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها.

وفي أواخر الستينيات أعدت الباحثة اليابانية موتوكو كاتاكورا دراسة ميدانية مختصة إثنوغرافية واجتماعية واقتصادية في وادي فاطمة بين مكة والمدينة. وكانت هذه الدراسة ذات قيمة لانها تتضمن وصفًا لسكنى الحضر والروابط بينهم وبين قبائل البدو، والصلات الاجتماعية التقليدية واستخدام العلاقات البضاعية النقدية.

وأجرى و. راو الذي كان مديرًا لمكتب الاستعلامات في السفارة الأميركية في الرياض تحليلًا لنظام التعليم في العربية السعودية ودوره في المجتمع. وجمع معلومات قيمة مع أن طريقته في تصنيف الناس ضمن «صفوف» طبقًا لتحصيلهم العلمي لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد.

وهناك طائفة من الكتب الأميركية الضخمة حول العربية السعودية لا يمكن ادراجها رسميًا في عداد المراجع ولكنها تعتبر مراجع على أي حال. ومنها كتاب «جزيرة ابن سعود» بقلم موظفي أرامكو ليبكتشر ورينتز وستينيكه، وقد نشر عام ١٩٥٢، وكتاب «العربية السعودية: سكانها ومجتمعها وثقافتها» بقلم ج. ليبسكي وآخرين، وقد صدر عام ١٩٥٩، وطبعتان صدرتا عن وزارة العمل الأميركية بعنوان «قوانين العمل والتطبيق في العربية السعودية» وكتاب شبه سري بعنوان «الدليل الإقليمي للعربية السعودية»، وقد صدرت منه عدة طبعات مزيدة.

إن هذه الكتب موضوعة على أساس المواد التي جمعت في العربية السعودية مباشرة، بما فيها الدراسات الميدانية الإثنوغرافية والأنثروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية. فقد استخدم واضعو «الدليل الإقليمي»، مثلًا، تقارير ودراسات المخابرات الأميركية والسفارة الأميركية وعدد من دوائر أرامكو. وكانت في متناول

أيديهم مواد الأرشيفات وبعض التقارير الإحصائية الأصلية لمختلف الدواوين السعودية. وهذه الكتب غير مخصصة للجمهور الواسع، فهي تعني بالدرجة الأولى الخبراء والأشخاص المرتبطين بالعربية السعودية مباشرة: رجال الأعمال والمهندسين والدبلوماسيين والصحفيين. لذا فهي غاصّة بكثير من الوقائع والأرقام وتحتوي على بعض التقييمات الموضوعية. إلا أن نقطة الضعف المشتركة بينها، شأن كل المطبوعات الأميركية بخصوص العربية السعودية، هي طابعها المتحيز للسياسة الأميركية ونشاط أرامكو. وإن تقييماتها للنظام السعودي على أكبر قدر من الحذر، فهي أقرب إلى التزلف مما هي إلى التحليل العلمي. ولكن بوسع الباحث أن يغترف من هذه المطبوعات معلومات عن طابع علاقات الأرض واستثمارها والتغيرات في الزراعة وخصائص نشوء الطبقة العاملة والبرجوازية، والتطورات في المجتمع السعودي وإصلاح جهاز الحكم وتطور النظام الحقوقي.

ألف ر. كناويرهيز كتابًا قيّمًا في الاقتصاد السعودي في أواسط السبعينيات أورد فيه الكثير من الوقائع والأرقام المستقاة مباشرة من مصادر سعودية.

ومن المؤلفات ذات الطابع السياسي بل الصحافي على الأغلب، والتي تتضمن تفاصيل مهمة عن الأوضاع في العربية السعودية، كتاب« الجزيرة العربية بلا سلاطين» بقلم الكاتب الإنجليزي ف. هولدي، وكتابان ألفهما بصورة مشتركة الباحثان الفرنسيان ل. شامبينوا وج. ل. سوليه. وتعتبر مقالات ب. بونينغان من الكتابات الصحفية الجادة. وفي السنوات الأخيرة صدرت كتب في الاقتصاد السعودي استخدم مؤلفوها الطرائق العصرية في البحث الإحصائي الاقتصادي استنادًا إلى مادة معلوماتية غنية. ومنها كتب ر. كراين وب. لوني وف. الفارسي.

واشتهر بين المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن القضايا النفطية في الشرقين الأدنى والأوسط كل من س. لونغريغ وب. شفادران وش. كليبانوف وف. روحاني وج. م . شفاليه وش. علي، واضعي دليل أرامكو وأدلة أوبيك وأوابيك.

وتتناول طائفة مهمة من المؤلفات الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الراهنة في العربية السعودية، ومنها مؤلف ج. بيركز وك. سنكلير حول نزوح السكان وكتاب ج.

كارتر وبحث إبراهيم سعد الدين وكذلك كتاب «الدولة والمجتمع والاقتصاد في العربية السعودية» لجماعة من المؤلفين.

وحلّل ج. بارودي النظام الحقوقي في السعودية. وأبدى مؤلفو كتاب «المملكة العربية السعودية» الصادر في لندن ب. هوبدي وأ. كيليدار ود. لونغ اهتمامًا كبيرًا بالقضايا الاجتماعية والسياسية، بما فيها تركيب السلطة والقانون.

وفي الثمانينيات والتسعينيات في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية ازداد الاهتمام بالعربية السعودية. ومن المستحيل الإشارة إلى كل المؤلفات الصادرة في هذا التقديم الموجز. ولا نذكر سوى المطبوعات بقلم الباحث الأميركي نداف سفران التي أثارت رد فعل سلبي في الدوائر الرسمية في الرياض وكتاب باشراف «تيم نبيلوك» من بريطانيا العظمى.

وخلال السنوات العشر الأخيرة نشرت الحوليات والدوريات الغربية والعربية الكثير من المقالات عن العربية السعودية.

ان المطبوعات الأوروبية الغربية والروسية الصادرة قبل ثورة أكتوبر/تشرين الأول حول تاريخ العربية السعودية تتميز، أساسًا، بطريقتها الوصفية التي تتجاهل الجانب الاجتماعي من الأحداث، كما تتميز بملاحظات سطحية عن الدوافع السياسية لتلك الأحداث، ولا تعترف أكثرية المستشرقين الأوروبيين بوجود أي تطور في مجتمع الجزيرة حتى القرن العشرين. ولا يختلف عن ذلك كتاب المستشرق الروسي أ. كريمسكي «تاريخ العرب والأدب العربي» بجزءين (١٩١١ ـ ١٩١٢).

والمؤلف الأوروبي الوحيد الذي يتناول بتفصيل كبير تاريخ السعودية كله هو كتاب فيلبي «العربية السعودية» الصادر عام ١٩٥٥ والذي سبق ان أشرنا إليه. وهو عبارة عن صيغة موسعة لكتابه الأسبق «الجزيرة العربية» الذي صدر عام ١٩٣٠. واعتمد فيلبي في سرد الأحداث كليًا على مصنّفات مؤلفي الجزيرة ابتداء من ابن غنام وحتى ابن هذلول، وكان أول أوروبي قام بهذا العمل. ولكنه يتحاشى الاعتماد على المراجع الأوروبية في تاريخ الجزيرة ويبدي أدنى قدر من الاهتمام

بتطور البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصاد. ولا يمكن أن تُنسب إليه فضيلة الموضوعية وعدم التحيّز في عرض الوقائع التاريخية. كما أنه كان مولعًا بشخصية ابن سعود، فأضفى صبغة مثالية على نشاط آل سعود. بيد أن المؤرخ الذي يتناول دراسة العربية السعودية لا يحق له أن يتجاهل كتب فيلبي في أدب الرحلات ولا مؤلفاته التاريخية، وذلك لأن صاحبها أوروبي مطلع عن كثب على خفايا الحياة في الجزيرة العربية، لذا فهو قادر على الالتفات إلى نقاط خفية يمكن أن يمر بها الباحثون الأكاديميون مرور الكرام.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث التشيكي أ. موسيل استخدم هو الآخر المصنّفات العربية.

ومن بين المؤلفات الأميركية المنشورة والمخصصة لفترات معينة في تاريخ الجزيرة يبرز كتاب ر. ويندير الآنف الذكر: «العربية السعودية في القرن التاسع عشر»، وكتاب ج. ترولير «ميلاد العربية السعودية الحديثة» المكرّس للعقدين الأول والثاني من القرن العشرين. وكلا الكتابين يعتمدان على مراجع كثيرة متنوعة، إلا أنهما يقتصران بالأساس على سرد الأحداث السياسية.

إن بعض المستشرقين الأوروبيين، مثل العالم المجري أ. غولدزيهير، يستعرضون بشكل صائب، على العموم، الجانب العقائدي الأصولي للوهابية ويشيرون إلى السمات الخاصة للمذهب الوهابي. ونجد عرضًا تفصيليًا للأصول الوهابية في مقالة مارغوليوس المنشورة في الطبعة الأولى « لدائرة المعارف الإسلامية» بأربعة مجلدات. وكتب المستشرق الفرنسي أ. لياوست عدة دراسات مهمة مكرّسة لابن تيمية، سلف الوهابيين، وتأثير مذهبه على معتقدات الطبقة الحاكمة في المجتمع السعودي. كما أن لهذا المستشرق مقالة عن محمد بن الوهاب في الطبعة الجديدة من «دائرة المعارف الإسلامية».

وفي الفترة من أواخر السبعينيات حتى مطلع التسعينيات صدرت عدة مؤلفات مكرّسة للصحوة الإسلامية وتنشط الحركات الدينية في الشرق، وتتناول الإسلام في العربية السعودية. ومنها كتاب ي. مورتيمير وكتابا «الإسلام في السياسة الخارجية»

و«الشيعة والرفض الاجتماعي» لجماعة من المؤلفين، بالإضافة إلى كثير من المقالات في الصحف والمجلات.

وفي المطبوعات السوفييتية كان م. تومارا أول من تناول موضوع الوهابية وتاريخ الدولة السعودية. ويعود له الفضل في طرح الجذور الاجتماعية للوهابية. إلا أن استنتاجاته غدت عتيقة في الوقت الحاضر.

وكتب أ. بيرشيتس عدة دراسات عن الجزيرة العربية ونظامها الاجتماعي والسياسي وإثنوغرافيتها. وعرض حصيلة دراسات استغرقت سنوات طويلة في كتاب جيد بعنوان «الاقتصاد والنظام الاجتماعي والسياسي في شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين». وقد اعتمدنا عليه في إعداد الفصل الأول من بحثنا هذا. وهو يتضمن كمية كبيرة من الوقائع المصنّفة والمقتبسة من أغلبية الرحّالة الأوروبيين الذين طافوا الجزيرة العربية. كما يحتوي على تحليل لمجتمع الجزيرة. وساعد كتاب بيرشيتس على الاستيعاب الأفضل لمجموعة المصادر الأوروبية المدونة. إلا أن بعض أحكام المؤلف قابلة للجدل. وقد استكمل بيرشيتس آراءه وطورها بقدر معين، الأمر الذي انعكس في مقالته التي ظهرت فيما بعد بعنوان «بعض خصائص نشوء الطبقات والعلاقات الطبقية المبكرة عند الرعاة الرحّل».

ونشر م. شوراكوف كتابًا بعنوان «تاريخ نجد الحديث» لخّص فيه كتاب أمين الريحاني الذي يصف الأحداث حتى أواسط القرن التاسع عشر كما جاءت عند ابن بشر. وشدد شوراكوف على النقاط الهامة في دراسة الإثنوغرافيا والعلاقات الاجتماعية في أواسط الجزيرة.

ويتيح كتاب ي. بيلايف «العرب والإسلام والخلافة في أوائل القرون الوسطى» إمكانية التعمق التاريخي في دراسة مجتمع الجزيرة العربية ومعتقداته على امتداد القرون. كما أن مؤلفات ن. إيفانوف عن القبائل العربية في شمال إفريقيا وتاريخ المغرب والمجتمع العربي والعثماني وكذلك كتابات الباحثة أ. سميليانسكايا عن آسيا الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لدارسي الجزيرة العربية تهيىء مجالًا للمقارنات الاجتماعية والتاريخية الهامة.

وألف ن. بروشين بحثًا بعنوان «العربية السعودية» أهم ما في جزئه التاريخي سرد أحداث الأربعينيات والخمسينيات ومطلع الستينيات. ويستعرض الكتاب بشيء من التفصيل انتفاضة الإخوان في العشرينيات. وهو أول محاولة في روسيا لتحليل منشأ الرأسمالية السعودية وظهور وتطور العلاقات الرأسمالية ونشوء الطبقة العاملة في العربية السعودية.

وأصدر ف. أوزولينغ ثلاثة كتب قيمة عن العربية السعودية، وهي مكرّسة بالدرجة الأولى لاقتصاد هذا البلد، ولكنها تحتوي في الوقت نفسه على مادة جيدة عن مجتمعه وعن تطور الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. وقد استعنا بتحليلات أوزولينغ الاقتصادية أثناء الحديث عن البنية الاجتماعية والسياسية للعربية السعودية في فصل «عصر البترول».

وألّفت الباحثة الروسية ل. فالكوفا كتابًا عن السياسة الخارجية للعربية السعودية في الستينيات والسبعينيات أساسًا. ويتضمّن الكتاب مادة وفيرة في هذا الموضوع. كما أصدرت المؤلفة كتابًا آخر بعنوان «العربية السعودية: النفط والإسلام والسياسة».

وقد وضع أ. ياكوفليف كتابين وسلسلة مقالات معظمها مكرس لقضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي في العربية السعودية والعلاقات المتبادلة بينها وبين البلدان الغربية. وللباحث ياكوفليف بالاشتراك مع ف. ميشين كتاب عن دور الخليج في سياسة الولايات المتحدة وأقطار أوروبا الغربية. وحظيت قضايا السياسة الخارجية للعربية السعودية بالتحليل في كتابات ر. بوريسوف ول. ميدفيدكو وي. بريماكوف ور. توروسونوف، وكذلك في بحث «السياسة الخارجية لأقطار الشرقين الأدنى والأوسط» بقلم جماعة من المؤلفين.

ويتضمّن دليل «العربية السعودية» الصادر عام ١٩٨٠ مادة غنية عن المملكة.

وكرّس غ. بونداريفسكي كتابًا للأوضاع في حوض الخليج على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. ويلقي المؤلف الأضواء على بعض قضايا تاريخ الجزيرة

خلال تلك الحقبة. ويمكن تتبع سير الحرب العالمية الأولى بالنسبة للجزيرة العربية في كتاب م. لازاريف «سقوط السيطرة العثمانية في العالم العربي».

ونجد توضيحات لبعض المسائل الحقوقية في المواد المخصصة لبناء نظام الدولة السعودية في كتاب «دساتير دول الشرقين الأدنى والأوسط» مع أن ترجمة بعض النصوص تحتاج إلى تدقيق. وقام س. كامينسكي بتحليل الأنظمة الملكية في العالم العربي، كما عالج ل. سوكياينين في كتاب «الشريعة الإسلامية» القضايا المتعلقة بالفقه والشريعة في النظام الحقوقي السعودي.

وشهدت الثمانينيات ومطالع التسعينيات بحوثًا إسلامية تناولت بهذا القدر أو ذاك قضايا الإسلام وأحواله الراهنة في العربية السعودية. ومن تلك البحوث «الإسلام في السياسة الراهنة لبلدان الشرق» و«العامل الإسلامي في العلاقات الدولية في آسيا» بقلم جماعة من المؤلفين والدليل الموسوعي «الإسلام» وكذلك دراسات الباحثين أ. كودربافتسيف ود. ماليشيفا وغ. ميلوسلافسكي ور. شريفوفا. كما كرس ف. شيستوبالوف بحثًا لقضايا تحديد الجرف القاري في الخليج العربي. ثم نشر كتبًا عن العربية السعودية كل من أ. بيليايف وف. بوديانسكي وم. لازاريف وو. غيراسيموف. وظهرت في عدة مجلات روسية مقالات تناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية في العربية السعودية.

ويبدي الباحثون في روسيا اهتمامًا كبيرًا بقضايا النفط ودور الصناعة النفطية في مجتمع بلدان الشرق الأوسط، ومنها العربية السعودية. وفي مقدمة أولئك الباحثين ر. أندياسيان وب. راتشكوف وأ. مكسيموف وأ. بيوتروفسكايا وأ. بريماكوف وأ. سيف الملوكوف.

في الختام تجدر الإشارة إلى الفهارس الخاصة بالعربية السعودية والتي وضعها ر. ماكرو وهيورت دون وج. ستيفينس ور. كينغ والباحثان السعوديان يحيى محمود ساعاتي وعبد الله القحطاني، وكذلك الدليل الذي صدر في واشنطن عام ١٩٥١ وقائمة المؤلفات الخاصة بالجزيرة العربية والمحفوظة في المكتبة الوطنية بالقاهرة، وكتاب «الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز. قائمة بيبليوغرافية مختارة عن حياته

وأعماله». وفي عام ١٩٩٤ أصدر الباحث الأستاذ فهد السماري من الرياض القائمة المفصّلة للكتب المكرّسة لعهد الملك عبد العزيز آل سعود. وتتضمن «بيبليوغرافيا العربية السعودية» (من وضع كاتب السطور) أكثر من أربعة آلاف عنوان كمؤلفات عن المملكة بالروسية والعربية وبلغات أوروبية. ويضاف إليها سجل «بيبليوغرافيا بلدان جنوب وشرقي الجزيرة العربية» من وضع أ. شفاكوف. ومن أكمل السجلات في هذا المجال «بيبليوغرافيا» هانس يورغين فيليب التي صدرت في ألمانيا عام ١٩٨٤.

وفي عام ١٩٨٩م صدر المجلد الثاني للبيبليوغرافيا للمؤلف نفسه. وللأسف لم يدمج «فيليب» في هذين المجلدين الكتب لا باللغة العربية ولا بغيرها من اللغات الشرقية ولا باللغة الروسية واللغات الشرق أوروبية الأخرى. وقد زاد عدد المؤلفات البيبليوغرافية البحتة التي تخص العربية السعودية على أكثر من ١٠٠ كتاب.

الجزء الأول

الفصل الأول

الجزيرة العربية قبيل ظهور الوهابية
الاقتصاد والمجتمع والسياسة

ظهرت دولة السعوديين في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي على أساس حركة المصلحين الإسلاميين الوهابيين. بديهي أن دراسة مجتمع الجزيرة العربية بالدرجة الأولى يمكن أن تقدم لنا مفتاح فهم المذهب الوهابي وأسباب تأسيس وتطور واندثار وبعث الدولة التي تحمل اليوم اسم العربية السعودية. ونستدرك هنا فنقول إن اهتمامنا منصب على المناطق الوسطى والشمالية والشرقية من شبه جزيرة العرب، على نجد والأحساء. أما اليمن وعمان فلا نتناولهما بالدراسة. والسبب في ذلك لا ينحصر في كونهما قد احتفظتا باستقلالهما عن العربية السعودية، بل يكمن بالدرجة الأولى في احتفاظهما بالخصائص المتميزة تمامًا (الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسكانية والمذهبية) التي تقدم المبررات لاعتبار سكانهما شعبين مستقلين لهما مصيرهما وتركيبهما الاجتماعي والسياسي. لقد كان من الصعب على الحجاز أن يحتفظ باستقلاله لأن الحرمين في مكة والمدينة كانا يستثيران شهية جميع الأمبراطوريات في الشرق الأوسط. وكان النظام الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي في الحجاز مشابها تقريبًا للنظام في نجد التي لم تشهد في الواقع السيطرة الأجنبية. إلا أن مكانة الحجاز كولاية للخلافة الأموية أو العباسية، لمصر أو الأمبراطورية العثمانية، وكذلك الحج والتجارة والنشاطات الأخرى المرتبطة به، قد جعلته يختلف عن جيرانه. ولذلك

فعندما نتكلم عن «مجتمع» نعني بالدرجة الأولى نجد، مهد الوهابية ودولة السعوديين، والمناطق المتاخمة لها من الشمال والشرق.

بحران من الرمال ـ صحراء النفود الكبرى في الشمال والربع الخالي في الجنوب ـ يرسمان على وجه التقريب حدود نجد الشمالية والجنوبية. وتنبسط نجد من الغرب إلى الشرق من جبال الحجاز حتى الخط الساحلي على الخليج. ويمتد الانحدار العام لأراضي البلاد من الغرب إلى الشرق. ويتميز الطقس بتذبذب منتظم لدرجات الحرارة ـ من القيظ الساخن الجاف في الصيف إلى البرد الشديد نسبيًا في الشتاء. وغالبًا ما تصادف سنوات جفاف مطبق. ولكن عندما تهطل الأمطار تعتبر خيرًا مخلوطًا ببعض الشرور. فالسيول العارمة التي تجتاح الوديان تسفر عن كوارث في بعض الأحيان. أشهر هذه الوديان وادي الرمة الذي يبدأ في الحجاز، شمال شرقي خيبر، ويتجه إلى الشرق على مسافة ٣٦٠ كيلومترًا تقريبًا ثم يلتف نحو الشمال الشرقي ويضيع بين الرمال ثم يظهر باسم آخر هو الباطن وينتهي قرب البصرة في العراق على مسافة ألف كيلومتر تقريبًا من «منبعه». ومن الوديان الشهيرة الأخرى وادي حنيفة ووادي الدواسر ووادي نجران. والمياه الجوفية في الوديان أقرب إلى سطح الأرض. مما يوفر أسباب الحياة هناك. وفي وادي حنيفة بالذات ظهرت عدة واحات كبيرة صارت مهدًا للوهابية وآل سعود.

وتقع في وادي الرمة المدينتان الرئيسيتان في منطقة القصيم، وهما بريدة وعنيزة.

إن نجد مقسمة إلى مناطق ذات حدود مائعة. إلا أن تلك المناطق نشأت تاريخيًا ويتميز كل منها بوحدة جغرافية معينة. وأهمها منطقة العارض التي يقطعها وادي حنيفة والتي تقع فيها الرياض العاصمة، ومناطق المحمل وسدير والوشم. وأهم مناطق الجنوب الخرج المعروفة بآبارها العميقة وأحواضها، والأفلاج التي ظلّت باقية فيها قنوات الري الجوفية القديمة، ووادي الدواسر، وفي الشمال تقع منطقتان هامتان هما القصيم وجبل شمر. في القصيم توجد المدينتان المتنافستان بريدة وعنيزة الواقعتان على الطريق من البصرة إلى المدينة المنورة، لذا كانتا على الدوام مركزين تجاريين

هامين. وتقع منطقة جبل شمر جنوبي صحراء النفود الكبرى، وهي أبعد قسم شمالي من أقسام نجد.

لقد حملت إلينا مراجع القرن الثامن عشر مشاهد متفرقة من الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. لكن المعلومات الأحدث تمكننا من تصور اللوحة كاملة وإن بالخطوط العامة. إن تباطؤ تطور القوى المنتجة وثبات البنيات الاجتماعية طوال القرون يهيئان لنا فرصة «سحب» خصائص العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين على القرون السابقة.

كانت حياة السواد الأعظم من سكان نجد والأحساء وكذلك الحجاز مرتبطة أساسًا بنوعين من النشاط الاقتصادي ـ الزراعة السيحية أو الإروائية في الواحات والرعي البدوي.

الزراعة الإروائية

إن الطقس الجاف شبه الاستوائي في السطح الأكبر من الجزيرة يستدعي ضرورة الإرواء الاصطناعي في الزراعة. وتنبجس إلى السطح مياه جوفية وفيرة بهذا القدر أو ذاك في المناطق الشرقية من الجزيرة فقط. أما أغلبية المناطق الأخرى فالإرواء ممكن بواسطة الآبار، وفي حالات نادرة تستخدم مياه الأمطار أو السيول. في بعض الأحيان تبعد منابع المياه عشرات بل مئات الكيلومترات بعضها عن بعض. ولكننا نصادف عددًا كبيرًا نسبيًا من الواحات في نجد حيث توجد الطبقات الحاوية للمياه على مقربة من سطح الأرض. وكذلك في الأحساء.

وتطلب حفر الآبار جهدًا كبيرًا وأموالًا طائلة. وكانت الوسائل البدائية لرفع المياه تديرها الجمال والبغال والحمير. بديهي أن ذلك يحدد الأراضي الزراعية المروية وحجم الإنتاج الزراعي. فقد كانوا يروون فدانا واحدًا على وجه التقريب (خمس الهكتار) من بئر عادية بعمق عشرة أمتار تقريبًا ترفع مياهها بواسطة شادوف أو ناعور أو غيره[1].

وكانت النخيل هي المزروعات الرئيسية في المناطق الشمالية والوسطى من الجزيرة. ويستخدم التمر طعامًا بمختلف الأشكال، وكان يمثل المحصول الزراعي الهام الوحيد الذي يسد حاجات الحضر والبدو على نحو ما في سنوات «الرخاء».

وتأتي الحبوب ـ الشعير والدخن والقمح والهرطمان ـ في المرتبة الثانية بعد التمور. ومعروف أن كمية معينة من الحبوب كانت تنقل من نجد إلى الحجاز في بعض السنوات. وكانوا في بعض الأماكن يزرعون الأرز والقطن والخضر والفواكه.

وكانوا يجنون في الأراضي المروية محاصيل كبيرة نسبيًا، إلا أن الحجم الإجمالي للمحاصيل غير كبير بسبب محدودية الأراضي المفلوحة وقلة الأسمدة وبدائية الطرائق الزراعية. إن الجفاف المتواصل الذي كتب مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوروبيون عن مصائبه يعني استحالة ضمان جني محاصيل ثابتة حتى في الأراضي المروية. وفي فترات الجفاف الطويل الأمد تجف بعض الآبار نهائيًا. وعند ذاك تهلك المزروعات وتتقلص مساحات الأراضي المفلوحة وتذبل حتى النخيل وتغدو عقيمة ويعاني السكان من المجاعة فيموتون أو يرحلون عن ديارهم زرافاتٍ ووحدانًا. وعندما تهطل الأمطار من جديد يستأنف الفلاحون البذار ويشرعون برعاية ما تبقى من نخيل، ولكن بعض الواحات يكون قد اختفى إلى الأبد.

وليس الجفاف وحده من خصوم المزارعين. فإن هطول الأمطار الغزيرة على ندرته يشكل خطرًا عليهم أيضًا. فيحدث ان تقشط السيول العارمة الطبقة العليا من تربة الحقول مع بذارها وزرعها، وتدمر المساكن وتتلف ثمار جهد السنين. كما أن الجراد غالبًا ما كان يلتهم كل النباتات فيحرم الناس من أسباب العيش. وفي الغالب لا تكفي المواد الغذائية أهالي الواحات حتى موسم الحصاد الجديد.

وكانت الأوبئة المتفشية (الكوليرا والطاعون) تجهز على قرى بكاملها.

إن ضيق القاعدة الإنتاجية والعوامل الطبيعية الضارة بالزراعة (ناهيك عن العوامل الاجتماعية التي سنتناولها فيما بعد) والطرائق الزراعية البدائية وانعزال

الواحات بعضها عن بعض ـ كل ذلك أدّى إلى تباطؤ شديد جدًا في تطور الاقتصاد. وان إمكانية تجديد الإنتاج الموسع المنتظم كانت ضئيلة وغالبًا ما يلغيها التراجع إلى الوراء.

كانت الزراعة في الواحات تتميز ليس بلم الجهود الاقتصادية بل بتشتيتها، وكان يسودها نشاط جماعات صغيرة من الفلاحين أو عوائل منفصلة. ولم تكن هناك منشآت ري كبرى أو مساحات زراعية إروائية واسعة من شأنها أن تفرض على مجتمع الجزيرة في القرون الوسطى ضرورة التنظيم المركزي. ولم يكن تشتت الواحات يتطلب توحيد المزارعين تحت لواء قيادة مركزية لأجل ممارسة النشاط الاقتصادي المشترك.

الرعي البدوي وشبه البدوي

كان الرعي عند بدو الجزيرة يقسم إلى نوعين:

فالأعراب «الحقيقيون» هم البدو الرحّل الذين يمارسون في الغالب أو بالأساس تربية الإبل التي تكاد تكون الماشية الأكثر شمولًا وإحاطة بين سائر المواشي والدواب. فإن لبن الإبل الطازج أو المخمّر والجبن والزبدة تستخدم في الطعام. وغالبًا ما يعيش البدوي أسابيع طويلة على اللبن ومشتقاته فقط. وفي حالات خاصة كانوا ينحرون الناقة ويأكلون لحمها وشحمها. ويصنعون الأنسجة من وبر الإبل، ويستخدمون جلودها لمختلف الأغراض، كما يستخدمون بعرها وقودًا وبولها للغسل والعلاج. وكان الجمل الصبور المتحمل بشكل مدهش هو وسيلة النقل التي لا يُستغنى عنها إطلاقًا في اجتياز البوادي القاحلة. فالجمل في الصحراء، كما يقول فولني بحق، مهم لدرجة تجعل اختفاءه منها يؤدي إلى اختفاء سكانها جميعًا[٢].

بيد أن قول المستشرق النمساوي شبرينغير: «البدوي طفيلي على الجمل» قد انتشر على سبيل النكتة لا غير. إن عمل البدو من مربي الإبل عمل مرهق يتطلب مهارة وقدرة، ويتوجب عليهم أن يعرفوا جيدًا ويستخدموا المراعي ويقتادوا الإبل

ويعالجوها ويحلبوها ويجزوا وبرها. وكانوا يعلّمون صغار الإبل على أداء مختلف الأعمال وعلى الانصياع للركوب والأحمال. وكان البدو يحفرون الآبار ويعتنون بها، فالمسافات التي تقطعها القوافل كانت تبلغ آلاف الكيلومترات.

وكانت حياتهم غاصّة بالحرمان. ففي الشتاء القارس أحيانًا تهلك صغار الإبل وتجوع الماشية وتجف ضروع النوق. وكان الحرمان والمخاطر يتربصان بالبدوي في الصيف القائظ أيضًا، بحيث تنفد حتى الاحتياطيات الشحيحة من التمر والحبوب فيقتات فقراء البدو على الجذور والثمار البرية، ويهلك الكثيرون بسبب الجوع. وكانت المقابر تقع عادة قرب مواقف البدو الصيفية[٣].

إن الخيول العربية الشهيرة التي هي موضع افتخار لدى أصحابها وحسد لدى سواهم، كانت تُستخدم للأغراض الحربية فقط وللاستعراضات. وفي رحلات القوافل الطويلة الأمد كانوا يأخذون دومًا احتياطيًا من المياه لأجل الخيول أو يسقونها لبن الإبل.

أما الرعاة الذين يمارسون في الغالب أو بصورة أساسية تربية الأغنام والماعز فلم تكن لديهم إمكانية كبيرة للترحل في الأماكن الخالية من المياه، ولذا كان ترحالهم لا يتجاوز بضع مئات من الكيلومترات. وكان من اللزوم أن يعثروا على مصادر للمياه قرب المراعي.

إن المسافات غير البعيدة نسبيًا للترحال في الأماكن التي توجد فيها مصادر مائية ثابتة قد مكنت رعاة الضأن من ممارسة الزراعة. فكانوا يقطعون الترحال في شهور الأعمال الزراعية لكي يعتنوا بالنخيل أو بحقول الحبوب. وغدا العمل الزراعي رئيسيًا بالنسبة لقسم من رعاة الضأن.

ونجد عند غ. فالين وصفًا لهذا النوع من اقتران العمل الزراعي بالرعي البدوي في شمال نجد: «بسبب العرى الوثقى التي تربط بين فخذي الشمريين نجد أن سكان القرى ما يزالون يتشبّثون لدرجة معينة بعادات الحياة البدوية وتقاليدها، في حين يزاول البدو أعمالًا تعتبر عادة أمورًا غير لائقة بهم. فإن قسمًا كبيرًا من الأولين

يترحلون في الربيع مع خيولهم وقطعانهم في البادية ويعيشون بعض الوقت في بيوت الشعر، في حين تمتلك عوائل بدوية كثيرة بساتين النخيل وحقول الحبوب... التي تفلحها بنفسها»[٤].

ويقول أ. بوركهاردت إن أحد أفخاذ قبيلة حرب الحجازية «يمتلك عدة مشارب متواجدة في بقعة خصبة يزرعون فيها الهرطمان والشعير. ولكنهم يعيشون في بيوت الشعر ويقضون أكبر قسم من العام في البادية»[٥].

ولم تكن توجد بين رعاة الإبل الرحّل، ورعاة الضأن شبه الرحّل، والحضر، حدود معينة فيما يخص النشاط الاقتصادي عادة. فالكثيرون من البدو رعاة الإبل بدأوا بممارسة تربية الضأن. واستقر قسم من البدو الرحّل فصاروا حضرًا. وفي الوقت نفسه جرت عملية معاكسة هي تحوّل الحضر إلى بدو. إن التوازن غير المستقر بين البدو والحضر كان يتوقف على الظروف الطبيعية والتاريخية في الجزيرة العربية، وما كان بوسعه أن يتجاوز أطرًا معينة. وكان فائض السكان الرحّل ينتقل إلى الشمال. وإذا استقر هناك فهو يقطع الصلة نهائيًا، على الأكثر، بماضيه البدوي. وليس من قبيل الصدفة أن يُقال إن العراق قبر الأعراب[٦]. ويشمل هذا القول سورية بقدرٍ ما. لذلك ففي إطار الجزيرة العربية كان هناك توازن تلقائي بين التحضّر والبداوة.

يمكن لتقسيم سكان الجزيرة إلى بدوٍ من رعاة الإبل وشبه بدوٍ من رعاة الضأن أن يتوافق مع تقسيمهم إلى قبائل. وفي بعض الأحيان يمارس فخذ من القبيلة تربية الإبل، ويمارس فخذ آخر تربية الضأن والماعز، بينما يمارس الفخذ الثالث الزراعة كالحضر.

وكان الاقتصاد البدوي يعتمد على هطول الأمطار أكثر من اعتماد الاقتصاد الحضري عليه. فعندما تتساقط الأمطار بعد فترة تكتسي السهب والبوادي بأعشاب ريانة وتسمن القطعان وتزدهر حياة البدو الرحّل. أما جفاف الصيف وبرد الشتاء والأوبئة الحيوانية فتؤدي إلى هلاك أعداد كبيرة من الماشية وإلى المجاعة وانقراض البدو. وإمكانيات تجديد الإنتاج الموسع والحصول على منتوج زائد أضيق في الرعي البدوي مما هي في الواحات.

الحرف والتجارة

كانت الحرف والصنائع المنزلية عند الفلاحين الحضر تسد حاجاتهم المحدودة جدًا. لقد كانوا يضفرون السلال والأكياس والحصر من سعف النخيل ويفتلون من أليافها الحبال والأعنّة، ويستخدمون جذوعها في صنع الأدوات الزراعية وفي بناء المساكن، وكانوا يصنعون الأواني الخزفية البدائية والأنسجة الصوفية والقطنية.

وفي الوقت نفسه يصل إلى السوق قسم كبير من منتوج البدو الحرفي الأقل تطورًا (الأنسجة الصوفية الخشنة والمصنوعات الجلدية).

وفي الواحات الكبيرة تطورت بعض الشيء الصنائع الحرفية المختصة. وكان بين الصنّاع حدادون ونحاسون ولحامون وصاغة ونجارون وصنّاع سلاح واسطوات في صنع التحف الخشبية وبناة وعمال طلاء وأخصائيون في صنع العجلات للنواعير وإسكافيون وخياطون ومطرّزون ومفصّلون وصنّاع هواوين المرمر لدق القهوة وضافرو الحصر[٧]. وكان الصفارون وصنّاع الأسلحة أكبر فئة من الحرفيين. وقد أطلق لفظ «الصنّاع» بالمعني الضيق للكلمة عليهم بالذات. وبالمناسبة فإن صنّاع الأسلحة كانوا يمارسون في الغالب تصليح الأسلحة المستوردة. ونشأ تخصّص معين لدرجة ما في الإنتاج ببعض المناطق. إلا أن من الصعب تحديد ملامح هذا التخصّص قبل القرن الثامن عشر. ومن المعروف، مثلًا، أن الناس «في نجد كانوا ينسجون الأقمشة القطنية التي تُستخدم في خياطة ألبسة السكان وفي مبادلتها بالأصواف والماشية مع القبائل»[٨]. وفي بعض المناطق تطور صنع الأنسجة الصوفية وخياطة العباءات منها (اشتهرت الأحساء بها خصوصًا) وكذلك أقمشة بيوت الشعر.

ولم يصادف وجود ورشات ضخمة في الجزيرة العربية. وفي حالات نادرة فقط شكل الصنّاع ما يشبه التنظيمات الحرفية.

كان قسم من الصنّاع يترحّل مع قبائل البدو. فكان بعضهم يصنع حدوات الخيل ويصلح السلاح أو الأدوات المنزلية وبعضهم يعالج الماشية إذا مرضت، وكان الصنّاع الرحّل أنفسهم يمارسون تربية الماشية.

كان من الصعب العثور في الجزيرة العربية على مدينة بالمعنى الكامل للكلمة حيث لا تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي لمعيشة أغلبية سكانها[٩]. وكانت مكة تمثل استثناءً واضحًا من القاعدة. وفي أغلب الأحوال كان مفهوم «الواحة الكبيرة» ومفهوم «المدينة» متطابقين في الجزيرة العربية. وكانت عاصمة الدولة السعودية المرتقبة «الدرعية» مكونة من عدة قرى متقاربة.

ولم تكن الصنائع تحدد ملامح الحياة الاقتصادية في المدن ـ الواحات في الجزيرة العربية. وكان دورها الهام في حياة مجتمع الجزيرة مرتبطًا بالتبادل التجاري المكثف ونابعًا من التقسيم العميق للعمل بين الزرّاع والرعاة والرحّل.

وكان اقتصاد البدو الرحّل يتميز بطابع يعوزه الاكتفاء الذاتي، وكان اقتصاد الزرّاع أفضل قليلًا من هذه الناحية. ومع أن بعض البدو غالبًا ما كانوا مضطرين إلى أن يقتاتوا أساسًا على لبن الإبل، فإن السواد الأعظم منهم ما كان قادرًا على الاستغناء عن المنتجات الزراعية والتمور والحبوب، كما كانوا بحاجة إلى المصنوعات الحرفية.. وقد وزع بوركهاردت مصروفات البدوي الموسر بالشكل التالي: أربعة أحمال من القمح ـ ٢٠٠ قرش، شعير للفرس ـ ١٠٠ قرش، ألبسة ـ ٢٠٠ قرش، بن وتبغ وحلويات ولحم غنم ـ ٢٠٠ قرش. ويشكل ذلك بمجمله ما يعادل ٣٥ـ٤٠ جنيها استرلينيًا[١٠]. ويبدو أن عدم ذكر التمور في هذه القائمة يعود إلى أن البدو الأثرياء يمكن أن يحصلوا عليها ليس عن طريق التبادل التجاري، بل بشكل إتاوة من الزرّاع الخاضعين لهم. ويبدو أن البدو البسطاء كانوا يقتنون أيضًا الكثير من البضائع التي ذكرها بوركهاردت وإن بكميات أقل.

وفي الصيف كان البدو يتقاطرون على الواحات الكبيرة والمراكز التجارية فيعرضون الماشية والأصواف والسمن والجبن لمبادلتها بالتمر والحبوب والأقمشة والحصر والحدوات والأسلحة والبارود والرصاص والمواد الطبية والبن والتبغ. وكان قسم من التجارة يجري عن طريق التبادل العيني. إلا أن مؤرخي الجزيرة يذكرون على الدوام أسعارًا بالتعبير النقدي لمختلف البضائع، مما يدل على تطور التداول النقدي

في الجزيرة العربية آنذاك. إن نزوح البدو الرحّل الصيفي إلى المراكز التجارية يعتبر بالنسبة لهم وللحضر أعظم أحداث السنة[١١]. ففي الأسواق الصيفية كان يجري الجزء الأساسي من تبادل البضاعة بين البدو والحضر.

ولم يكن البدو يتاجرون في الواحات القريبة فقط، بل كان نطاق صلاتهم التجارية أوسع بكثير، ويتجاوز إطار شبه جزيرة العرب. كانت الإبل في تلك الحقبة الباب الأساسي في صادرات الجزيرة حيث كانت تحظى بطلب واسع. كانت الإبل تستخدم كوسائط للنقل ليس بالنسبة للجزيرة وحدها، بل للبلدان الأخرى في الشرق الأوسط. وكانت الجزيرة تصدّر الأصواف والسمن والجلود والخيول الأصيلة أيضًا. وساعدت التجارة الخارجية، بقدر أكبر من التجارة الداخلية، على تطوير العلاقات البضاعية النقدية في شبه جزيرة العرب.

وكان يصل إلى شمال ووسط الجزيرة، وخصوصًا إلى الحجاز، الأرز المصري والهندي والقمح والشعير من مصر واليمن. وكانوا يستوردون البن من اليمن والتوابل من الهند والفواكه المجفّفة من سورياَ والسكر من مصر كما كانوا يستوردون الأسلحة والحديد والنحاس والرصاص لصنع الخراطيش والكبريت لصنع البارود[١٢].

ويتحدث مؤلف «لمع الشهاب» فيقول: «الكفية (الكوفية) وصنّاعها في نفس نجد قليلون بل أكثر ما يلفيهم منها من جانب العراق ومن الأحساء والقطيف... والعباة تصنع في بلدان نجد لكن قليلًا وأكثر مجيها من ملك العراق ومن الأحساء... وقد تلبس نساء الأغنياء منهم الحرير الهندي الذي يبلغ كل ثوب منه قيمة عشرين ريالًا وأكثر بألوانٍ عديدةٍ من أحمر وأصفر وأخضر... فتلبسه نساء المتمولين. وأما صيغهم في أمر حلى النساء فذاك شيء لا يضبط بالعدد لأنهم يبالغون في ذلك جدًا حتى الفقراء منهم لا بد أن يصيغوا شيئًا من الزينة الذهبية لنسائهم قطعًا... وأما الرجال فيزينون سيوفهم بكثير من الفضة وكذا بنادقهم يلبسونها من أطواق الفضة كثيرًا وهكذا خناجرهم ورماحهم يطيّبونها بالفضة...»[١٣].

ويضيف المؤرخ قائلًا: «ومن صفات أهل نجد التجارة. فإن كثيرًا منهم تجار

يسافرون إلى أطراف الروم وبقية جزيرة العرب ولم يذهبوا بسلعةٍ من نفس نجد إلى ملك الروم وإنما يحملون معهم الدراهم النقدية خاصة ويأتون من حلب أو الشام بالبز الحرير وغيره وكذا بالنحاس ظروفًا وغيرها والحديد والرصاص... وقد يسرون أهل نجد بخيل عناف إلى أطراف ملك الروم بالتجارة لأن خيولهم مرغوب فيها عند الأروام لشدّ علوها وهكذا يجلب أعراب نجد إبلًا كثيرة إلى حلب والشام للبيع.

وقد قال لي بعض الناس أنا شاهدت تجار وأهل نجد وأهل القصيم منهم يبيعون تمرًا في دمشق الشام وعرفت أنهم يجلبونه من بلادهم. وقد يسافر أهل نجد إلى أرض مصر لكنهم لم يشتروا منها إلا السلاح والمرجان. واعلم أن تجارتهم في بقية بلاد العرب كذلك غالبًا ما يذهبون به إلى هذه النواحي هو الدراهم ويأتون من اليمن بالقهوة كثيرًا وبالورس والميعة واللبان. واعلم أن ليس لأجل تجار أهل نجد خانات معينة للبيع والشراء بل جميع أموال التاجر في بيته... وأما أهل بيع القليل منهم فلهم دكاكين وليس سوقهم مسقوفًا مثل سوق أهل فارس ولا ضيّقًا كضيقه بل سوقهم مكشوف لا سقف له وواسع الطريق جدًا بحيث تمر القوافل محملةً فيه. واعلم أن أجناس الهند من سكر وبلوج وهيل وقرنفل وقرفة وفلفل وكركم ونحو ذلك الأجناس كلها مرغوبة عند أهل نجد، وأكثر هذه يجلبونها من بنادر اليمن وقلما يأتون به من ساحل عمان، ويأتيهم من طريق القطيف والبحرين شيء كثير..

ولهم اشتياق عظيم للسفر وهمة غريبة وطاقة عجيبة بحيث يمكن الشخص منهم أن يتغرّب عن أهله ووطنه مدة عشرين سنة أو أكثر وأن يسافر عن بيته إلى ملك الصين مثلًا كما ان كثيرًا من تجارهم اليوم جلوس ونزول في حلب وفي دمشق الشام ومنهم من هو في مصر... وأيضًا من جملة أحوال أهل نجد الحضر منهم أنهم يتعاطون الزروع كثيرًا ويستعملون غرس الأشجار والنخيل ويتعبون أنفسهم عليها جدًا. وكذلك لأهل الحضر منهم غنم وبقر وإبل وإن لم تكن كثيرة لكن لا بد لهم منها بقدر ما يسع المعاش لأجل الحليب واللحم والركوب.

وأما أحوال بدو نجد فإنهم أهل بيت شعر خاصة ولا لهم غير المواشي شيء

ولا يردون بأهاليهم البلاد أصلًا وما يأتي الرجال منهم لأجل التجارة قحطوا فإنهم يدخلون المدن والقرى بأهاليهم...»[١٤].

وكان البدو يقدمون الإبل والادلّاء لأجل القوافل التجارية في الجزيرة العربية ويشاركون في تكوين القوافل خارج الجزيرة. وكانت توجد في شمال الجزيرة اتحادات تجار الإبل وادلّاء القوافل المنتسبين إلى قبيلة بني عقيل. وقد استقروا في مختلف أرجاء نجد، إلا أن بعضهم أقام في العراق. وفي أواخر القرن الثامن عشر كانوا وحدهم يتمتعون بحق تشكيل القوافل التي تعبر بادية الشام وقيادتها وحمايتها[١٥].

وكان التجار قد جمعوا ثرواتٍ طائلة. صحيح أن البيوتات التجارية في نجد كانت أقل شأنًا من تجار الجملة الحجازيين. ففي جدة بلغت رساميل تجار البن والبضائع الهندية ما يعادل عشرات بل مئات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية.

واتسم الحج إلى مكة والمدينة بأهمية فائقة للجزيرة العربية عمومًا وللحجاز خصوصًا. وكانت قوافل الحجاج الرئيسية تمر من شمال الحجاز قادمةً من مصر والشام عبر المناطق الشمالية من نجد مع ميلان نحو الشمال أو الجنوب، وعلى اختلاف السنين يمتد طريق الحج الإيراني العراقي مع أن أهميته كانت أقل من أهمية طريقي مصر والشام. والطريق الرابع يأتي من موانئ الخليج ومن عمان عبر وسط نجد والحجاز، أما الطريق الخامس فيأتي من اليمن إلى مكة. ويقترن الحج بالتجارة، فقد كان الحجاج يجلبون مختلف أنواع البضائع. وقد أمن نقل الحجاج أسباب العيش للكثير من البدو.

عناصر العلاقات القبلية العشائرية في الواحات

كان قسم كبير من السكان الحضر في الجزيرة العربية يعتبرون أنفسهم من هذه الأفخاذ والقبائل أو تلك. وكان أبناء القبيلة الواحدة من بدو وحضر على ارتباط وثيق في ما بينهم يمكن أن يظل قائمًا طوال حياة أجيال عديدة. وفي بعض الأحيان كان أبناء القبائل المختلفة يعيشون في أحياء منفصلة في الواحات نفسها.

وكان الفلاحون وأهل المدن الأصليون يعتقدون ان أنسابهم تغوص عميقًا في أنساب العرب.

وتشكل عدة عوائل كبيرة أو صغيرة جماعة تسمى الحمولة. وكتب دوتي يقول: «إن الجماعة تحالف طبيعي لاستثمارات تربط بين أفرادها صلات القربى ولهم جد واحد. وهم متوحّدون في ما بينهم تحت راية عمدتهم ورب الأسرة كله الذي يرث سلطة مؤسس الجماعة. وفي إطار هذه الأواصر والتقسيمات العائلية يمكن وجود الحياة المترابطة الآمنة في بلد خاوٍ أو خالٍ من السلطة. ويعتبر الغرباء المنتسبون إلى الجماعة حلفاء لأصدقائهم. ويعتبر المعتوقون زبائن للعائلة السائدة...وكلهم من «أبناء عمومة» الجماعة المعنية... إن الجماعات في الواحات هي روابط يقطن أفرادها في عدة أحياء أو حارات. وعندما يتشاجر أبناء المدن من جماعات مختلفة يحاول زعماؤهم المصالحة فيما بينهم، مع أن أبناء المدن في الواحات الكبيرة ذات التسيير الذاتي، مثل عنيزة، يراجعون الأمير المتربع في المجلس لأجل حل الخلافات بينهم... وقبل أن تهيئ السلطة الوهابية الوثام المدني كان سكان المراكز الكبيرة في باطن الجزيرة في نزاع دائم: جماعةً ضد جماعة وسوقًا ضد سوق»[١٦]. والشخص الذي يعيش خارج الجماعة وحيدًا لا نسب له إنما يعاني من صعوبات كبيرة، فلا جماعة تحميه من التطاولات على حياته وأمواله.

وكانت عوائل الأمراء والشيوخ تتميز بصلات القربى الوثقى خصوصًا، مما يمنحها وزنًا ونفوذًا كبيرين. وغالبًا ما توحّد بينها الملكية المشتركة للأرض والعائدات.

وقد ضعف التنظيم القبلي العشائري لدرجة كبيرة لدى السكان الحضر ما عدا قسم منهم ممن انتقلوا إلى حياة الاستقرار الحضرية مؤخرًا ولم يقطعوا الصلات القديمة بالكامل. والشيء الوحيد الباقي فعلًا هو العائلة الكبيرة والمجموعة غير الكبيرة نسبيًا من ذوي القربى والتي تمثل الخلية القبلية المتبقية التي غالبًا ما تُنعت في مطبوعاتنا الإثنوغرافية بالخلية الأبوية (العشائرية).

وكانت العائلة الكبيرة تمتلك الأرض والأموال الأخرى بصورة مشتركة وتمارس تسيير استثمارة غير موزعة وذلك بإشراف الأب. وبعد وفاة الأب يجري تقسيم التركة. وكان للابن البكر حقوق تفضيلية في الميراث.

وظلت باقية في بعض مناطق الجزيرة العربية أشكال مختلفة للملكية المشاعة لأراضي أفخاذ معينة. وفي الأماكن التي يجري الإرواء فيها من مصادر مائية كبيرة يمتلكون المياه ويستخدمونها بصورة مشتركة. وفي بعض الأحيان كانت المراعي من الملكية المشاعة للحضر. وإذا لم يكن سكان الواحات يمتلكون مراعي خاصة بهم فهم مضطرون إلى رعي الماشية في الأراضي العائدة لقبائل البدو الرحّل [١٧].

إن عادات التعاضد العشائري كانت موجودة بقدر ما عند السكان الحضر. وكان المزارعون ينفقون بصورة مشتركة على رعاة ماشيتهم وحراسها ويلتزمون بعادة كرم الضيافة. وظلت باقيةً تقاليدُ عونة الجيران. ويصادف أن لا يحصد مالكو الحقول السنابل الساقطة إذ يتركونها للفقراء. وفي بعض الأحيان يخصص للفقراء قسم غير محصود من الحقل أو عدد من النخيل المثمرة[١٨]. إلا أن العلاقات الاجتماعية في الواحات لا تضبطها هذه الروابط العشائرية.

التقسيم الطبقي في الواحات

بنتيجة عملية طويلة معقدة في المجتمع الزراعي في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر وقع قسم من الأراضي في حوزة الوجهاء من بين البدو وكذلك الذين تحوّلوا إلى حضر من زمان في الواحات. مثلًا، كان حاكم واحة العيينة في النصف الأول من القرن الثامن عشر، يمتلك أرضًا في الأحساء ويستلم منها عائدات[١٩]. وكانت بساتين النخيل والجنائن والحقول ملكًا للفقهاء أيضًا. والمثال على ذلك أملاك مؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب [٢٠] ولكننا لا نجد عند مؤرخي الجزيرة والرحالة الأوروبيين إشارة إلى أن الملكية العقارية الكبيرة كانت سائدة أو منتشرة في نجد والحجاز والأحساء. فقد أشار بلغريف في أواسط القرن التاسع عشر تقريبًا إلى

أن الأرض «نادرًا ما كانت في حوزة الملاك العقاريين الكبار مثل الإقطاعيين الهنود وكبار المزارعين الإنجليز»(٢١).

ان المزارعين الصغار المكبلين بالديون كانوا يفقدون ملكية الأرض التي تنتقل إلى المرابين الأثرياء والتجار. وكتب دوتي عن الفلاحين: «ان الدائنين الأثرياء كانوا يلتهمون الفلاحين مع حصتهم من الأرض (بقدر لا يكاد يقل عما في مصر والشام)، ويكبلونهم لأمد طويل بالديون الربوية الجائرة»(٢٢). ويبدو أن هذه الظاهرة كانت منتشرة كذلك عشية ظهور حركة الوهابيين في القرن الثامن عشر، ولعل ذلك هو سبب إصرارهم على شجب الفوائد الربوية.

وكان الملاك العقاريون يقدمون قطع الأراضي إلى الفلاحين على سبيل الإيجار بمختلف الشروط. وكان الطريق الرئيسي للحصول على الريع هو المحاصّة العينية التي تُحدّد مقاديرها بموجب العادات والتقاليد.

وكان الاستيلاء على مصادر المياه الكبيرة والصغيرة قد مكّن أصحابها من بيع الماء وبالتالي الحصول على حصة من ريع الأراضي المروية. ولم تكن لدى الكثير من الفلاحين دواب عمل ولم يكن بوسعهم الاستفادة من الآبار أو المصادر العامة وفلاحة الأرض بصورة مستقلة، فكانوا مضطرين إلى استئجار الدواب.

وكانت مختلف الإتاوات المفروضة على السكان تعود بمداخيل كبيرة على الوجهاء. ومن المعروف، مثلًا، أن الأمير الذي يتمتع بالسلطة السياسية كان في أواسط القرن الثامن عشر يجبي ضريبةً ما من السكان(٢٣). وكانت الرسوم المفروضة على القوافل التجارية قد أدّت كذلك إلى إثراء الوجهاء بالدرجة الأولى. لقد كان حكام الحضر الأقوياء يملأون خزائنهم أثناء الغزوات الناجحة على الواحات المجاورة وعلى قبائل البدو الرحّل وشبه الرحّل، ما جعل الغزوات المصدر الرئيسي للمداخيل بالنسبة للعديد من الإقطاعيين.

وتبين عائدات شريف مكة أساليب إثراء الوجهاء من حكام الواحات. فقد كانت

الرسوم الجمركية في جدة تعود عليه بأكبر المداخيل، وكان يشارك في التجارة المربحة التي تمر عبر هذه المدينة، كما كان يمتلك سفنًا بحرية ويبيع المواد الغذائية إلى الحجاج. وقد فرض ضريبة نفوس كبيرة على الحجاج الفرس، وكان يستلم الهدايا والهبات من الحجاج السنة الأثرياء. وكان يستحوذ على قسم من النقود التي تأتي من الآستانة إلى مكة بمثابة هدية من السلطان العثماني لأهالي مكة المكرمة. وترد إلى خزينة الشريف عائدات الملكية العقارية من الطائف والواحات الأخرى، وكذلك من الدور العائدة له. ويعتقد بور كهاردت أن الدخل السنوي لشريف مكة كان يعادل ٣٥٠ ألف جنيه استرليني[٢٤]. بديهي أن الشريف كانت له مكانة خاصة في الجزيرة العربية إلا أن الأمراء الآخرين كانت لهم بعض أبواب الدخل المذكورة أعلاه وإن بقدرٍ أقل.

ولم تتطور في الجزيرة أشكال ربط الفلاح الأعرابي بالأرض مباشرة. فقد أشار نيبور إلى «أن الفلاح المتذمر من سيده كان حرًا في تركه والانتقال إلى مكانٍ آخر»[٢٥]. إلا أن عدم إمكان الاستغناء عن حماية شخص قوي أو فخذ قبلي في ظروف انعدام الأمان قد أدّى إلى ظهور تبعية الفلاح شخصيًا لأمير الواحة مع أن هذه التبعية كانت ضعيفة جدًا.

وكانت توجد في واحات الجزيرة دون شك، في الحقبة موضوع البحث، علاقات طبقية من طراز ما قبل الرأسمالية، ويبدو أنها نشأت لقرون عديدة قبل القرن الثامن عشر. ولكننا عندما نقول إنها علاقات «إقطاعية» علينا أن نستدرك ونذكر أن البنية الاجتماعية للسكان الزراعيين في الجزيرة التي هي على العموم من الأطراف المتخلفة في الشرقين الأدنى والأوسط، كانت تكرر بشكل بدائي العناصر الأساسية للتنظيم الاجتماعي في البلدان الأكثر تطورًا في هذه المنطقة. لذلك فعندما نستخدم مصطلح «الإقطاعية» في تحليل مجتمع الجزيرة نعني بها الإقطاعية الملازمة لبلدان الشرق الأوسط.

العلاقات القبلية العشائرية داخل قبائل البدو الرحّل

ورد في «لمع الشهاب» تعداد لقبائل البدو الرحّل في وسط وشرق وشمال وغرب الجزيرة في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر[٢٦]، الأمر الذي لا نجده في المصنّفات التاريخية الوهابية في تلك الحقبة. ويرى مؤلف «لمع الشهاب» ان أكبر قبيلة عربية (تذكرنا باتحاد القبائل) هي قبيلة عنزة التي تضم ثلاث مجموعات في كل منها حوالى ٦٠ ألف رجل. ويقصد مؤلف الكتاب بهذا الرقم الخيّالة القادرين على حمل السلاح. (وذكر منجين أن نسبة الخيّالة إلى النساء والأطفال والعجزة والشيوخ هي الثلث[٢٧]، وذلك يمكننا من تقدير العدد الإجمالي لأفراد عنزة بأنه حوالى نصف مليون نسمة). واشتهرت عنزة بفن الفروسية. وكانت تقاليد العونة والنخوة والتعاضد عندها أقوى مما عند القبائل الأخرى. وعندما يرتحل قسم من عنزة أثناء الجفاف من نجد إلى المناطق شبه الصحراوية في الشام فإن أبناء هذه القبيلة المقيمين هناك يساعدون القادمين.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» إن القسم الأكبر من عنزة خضع للسعوديين بدون حرب. وذلك أمر كبير الدلالة. فإن الجهود التوحيدية المركزية لأمراء الدرعية كانت، على ما يبدو، تستجيب لمصالح هذه القبيلة المنتشرة في قسم كبير من شبه جزيرة العرب.

وكان لدى قبيلة شمر التي تقطن شمال نجد وتعتبر نفسها من أبناء قحطان ومن قبائل طي عشرون ألف فارس. وكان لدى قبيلة حرب الحجازية ٤٠ ألف رجل مسلح من البدو والحضر.

وكان لدى قبيلة مطير النجدية التي اشتهرت بفرسانها وحماسها ١٤ ألف فارس، ولدى قبيلة عتيبة (من القحطانيين) التي قطنت نجد والحجاز ٤٠ ألفًا، ولدى قبيلة البقوم ٤ آلاف ولدى قبيلة سبيع المخلصة للسعوديين كل الإخلاص ١٢ ألفًا، ولدى قبيلة السهول ١٠ آلاف.

وفي جنوب نجد كان لدى قبيلة الجبارة قحطان ٥٠ ألف فارس، فلم يتجرأ أحد

على التحرّش بها. وانضم القحطانيون إلى السعوديين بشرط تأييد الدرعية لغزواتهم على تهامة ومرتفعات اليمن وحضرموت.

وكان لدى قبيلة العجمان خمسة آلاف فارس. وكانت هذه القبيلة قد ارتحلت في القرن الثامن عشر من منطقة نجران إلى الشمال فازداد تعدادها وتقوّت على ما يبدو. وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر قدمت إلى ساحات القتال في شرق الجزيرة آلاف عديدة من المحاربين.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» إن بني مرة أو آل مرة الذين كانوا يقطنون أطراف الربع الخالي يشكلون ألفي بدوي أو يزيد. وكانت ظروف معيشتهم الصعبة قد أدهشت هذا المؤرخ العربي فلم يجد بدًا من القول إنهم كانوا قادرين على أن يقتاتوا بلبن الإبل وحده ويشربوا الماء المالح تقريبًا.

وأخيرًا نجد ٣٠ ألف فارس عند بني خالد أسياد شرق الجزيرة في أواسط القرن الثامن عشر ومنافسي إمارة الدرعية في عهد نهوضها.

ومما لا ريب فيه أن هذه الأرقام تقريبية بعيدة عن الدقة. ولم يبدِ المؤرخ اهتمامًا بالقبائل غير الكريمة المحتد ولا المملوكين والمعتوقين والصنّاع الذين سنتحدث عنهم فيما بعد. إلا أن تعداد القبائل يقدم لنا لوحة إحصائية، وإنْ افتراضية، لمجتمع البدو في الجزيرة العربية آنذاك (ماعدا اليمن وعمان). وقد بلغ العدد الإجمالي للخيالة البدو حوالى ٤٠٠ ألف شخص، الأمر الذي يشير إلى أن عدد البدو الرحّل في الجزيرة يكاد يكون ١,٢ ـ ١,٥ مليون شخص.

كانت العائلة هي أصغر خلية في القبيلة. وفي بعض الأحيان كانت مجموعة من ثلاث أو أربع عوائل مترابطة بصلة القربى تمتلك «أموالًا غير مجزأة بهذا القدر أو ذاك»[٢٨]. ولكن هذه الظاهرة كانت نادرة. فإن حاجات حياة الترحّل ورعاية الماشية ورعيها لم تكن تستدعي في ظروف الجزيرة توحيد جماعات كبيرة من الناس لأجل العمل المشترك.

وكانت عدة عوائل من ذوي القربى الحميمة أو البعيدة، الذين يتذكرون أو يعرفون جدًا مشتركاً لهم، تشكل جماعة قبلية صغيرة.

وكانت الجماعة القبلية الكبيرة تشمل عوائل متوحدة بصلة قربى متباعدة. وأكثر أسماء تلك الجماعة انتشارًا العشيرة. كان أفراد العشيرة مترابطين فيما بينهم بالتزامات وحقوق صارمة للتعاضد والمسؤولية المتبادلة. ويرأس العشيرة شيخ أو قائد عسكري، أحيانًا عقيد. وكان للعشيرة كذلك عارف ومفسر لأصول العادات والأعراف. ولدى كل عشيرة اسمها الخاص وطمغتها وصيحتها في الحرب وأحيانًا مقبرة خاصة بها. ويمكن للعشيرة أن تقبل انتساب بعض الغرباء إليها.

وبعد ذلك يأتي الفخذ أو البطن وهو مجموعة من العشائر المترابطة بعلاقات نسب مفتعلة أو حقيقية، وبتحالفٍ سياسي أو حربي.

والدرجة التالية من البنية الاجتماعية للبدو الرحّل هي القبيلة التي لها أراضيها وبعض خصائص اللهجة في لغتها وسمات معينة لحياتها المعيشية وثقافتها ومعتقداتها، كما لها طمغتها وصيحتها. وكان أبناء القبيلة يعتبرون أنفسهم أقرباء متحدرين من جد أو سلفٍ واحد. ويترأس القبيلة شيخ وفيها أيضًا عقيد وعدد من العرّاف المتضلّعين في معرفة العادات والتقاليد.

وكان تكتل القبائل يجري حسب صلة القربى وكذلك لاعتبارات سياسية. كما كانت العلاقات بين القبائل المترابطة بصلة القربى تُضبط حسب العرف [٢٩].

وظلت الظواهر الفعلية الملازمة للمجتمع العشائري باقية داخل قبائل البدو الرحّل. وفي مقدمتها ملكية القبيلة الجماعية للمراعي (الديرة). وكانت حدود الأراضي العائدة للقبيلة مرسومة بتنشينٍ دقيق. ويقول فولني «إن كل قبيلة من هذه القبائل تستأثر بمنطقة معينة تصبح ملكًا لها. وتختلف القبائل من هذه الناحية عن الشعوب الزراعية بأن أراضيها يجب أن تكون أوسع بكثير لكي تؤمن العلف للقطعان طوال العام. وتشكل كل من هذه القبائل مخيمًا أو عدة مخيمات موزعة على المنطقة.

وتستبدل مواقفها على الدوام في هذه المنطقة حالما تلتهم القطعان الكلأ حول المخيمات» [٣٠].

كان قسم كبير من الآبار وأحواض المياه في السهوب ملكًا لقبائل البدو. ويقول بور كهاردت «إن أغلبية الآبار في أعماق البادية وخصوصًا في نجد ملك مطلق لقبيلة ما أو لأشخاص حفر أجدادهم تلك الآبار... وعندما تنفد مياه الأمطار في البادية تنصب القبيلة خيامها قرب بئرها ولا يسمح لأي بدو آخرين بإرواء إبلهم هنا»[٣١].

ويمكن للقبائل والأفخاذ والبطون أن تمتلك بصورة جماعية الأراضي المفلوحة في الواحات [٣٢]. وكان البدو يقدمون تلك الأراضي على سبيل الإيجار إلى الزنوج المعتوقين أو الفلاحين العرب ويستلمون لقاء ذلك حصة من الغلة ويوزعونها على العوائل[٣٣]. وكان قسم كبير من جياد الأنسال ملكًا عامًا للقبيلة، ولكن الأفراس تعتبر على الدوام ملكية خاصة لأصحابها[٣٤].

وكانت لدى البدو الرحّل عناصر كثيرة من التعاضد العشائري في الأمور الاقتصادية، مثل جز الأغنام الذي يتم تقديم الطعام أثناءه. وكان أبناء القبيلة الواحدة يساعدون بعضهم بعضًا في المناسبات العائلية: الزفاف والختان واستقبال الضيوف.

واشتهرالبدو بكرم الضيافة. وكانوا يعتبرون الاستهانة بهذه العادات عيبًا شنيعًا. وكتب فولني يقول: «إذا لمس الغريب، وحتى العدو، خيمة البدوي يحصل على الحصانة الشخصية، إن صح القول. وحتى أخذ الثأر المستحق يعتبر عارًا لا يُمحى إذا جرى على حساب حسن الضيافة. وإذا وافق البدوي على اقتسام رغيف العيش مع الضيف فما من قوة في العالم ترغمه على خيانة ضيفه»[٣٥].

وتتسم بأهمية بالغة المعونة المادية التي يقدمها أبناء القبيلة لمن تهلك قطعانه بسبب الجفاف أو الأمراض ولمن يفقد أمواله أثناء غزوات النهب.فالأموال المضيعة يعوض عنها بالماشية والنقود والأدوات المنزلية أو مستلزمات الخيام. والعوائل التي تُصاب بكارثة تتلقى المعونة من أقربائها، بينما تتلقى القبيلة المتضررة المعونة من

أفرادها أو من القبائل الأخرى المتحالفة معها. وكتب دوتي يقول: مهما كان الشخص الذي تنهب أمواله فإن ذلك يعتبر «مصيبة عامة للقبيلة كلها، ولا ينبغي ان يظل أحد ممن فقد ماشيته فقيرًا معوزًا. والشيخ الحاكم يلزم جميع أفراد القبيلة بأن يعوضوا للمتضررين في غضون يوم أو يومين عن كل الماشية التي فقدوها»[٣٦].

وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن التعويض عن الخسائر بالشكل الكامل لم يكن ممكنًا في أغلب الأحيان رغم متانة أواصر التضامن العشائري. فإذا فقدت القبيلة قسمًا كبيرًا من قطعانها بعد هزيمةٍ حربيةٍ ماحقةٍ فإن عادة التعويض عن الخسائر لن تعود سارية المفعول في الواقع. ويتعرّض الفقراء في مثل هذه الأحوال للموت جوعًا. ويحدث الشيء نفسه أثناء الجفاف الفظيع أو انتشار الأوبئة. فالخسائر آنذاك تصيب بهذا القدر أو ذاك كل أفراد القبيلة، وفي تلك الحالة لا يعودون قادرين في الغالب على نجدة الأكثر تضررًا. إن عادة التعويض عن الخسائر لم تكن شيئًا وهميًا، ولكن أطرها مقيّدة بالإمكانيات الفعلية.

وكانت العلاقات بين مختلف القبائل تضبط في المقام الأول بأهم عنصر في الأعراف القبلية وهو الثأر[٣٧]. ويقول فولني: «إن مصالح الأمان المشترك قد أوجدت عند العرب منذ القدم قانونًا يتطلب غسل عار مقتل أي شخص بالثأر له من القاتل. ويأخذ الثأر أقرب أقرباء القتيل، لأن شرفه قد تلوث في أنظار سائر الأعراب لدرجة لا يمكن معها أن يستهين بواجب الثأر، وإلا سيبقى شرفه ملوثًا إلى أبد الآبدين. لذا ينتهز الفرصة السانحة ليثأر للقتيل. وإذا مات عدوه لسبب آخر يبقى غير راضٍ إطلاقًا ويأخذ ثأره من أقرب أقرباء القاتل. وتنتقل هذه الأحقاد بالوراثة من الأب إلى أبنائه ولا تختفي إلا باختفاء أحد الفخذين إذا لم تتفق العائلتان على تسليم المذنب أو دفع تعويض بالنقود أو الماشية»[٣٨].

وكان الثأر عند البدو يشمل عادة الأقرباء من خامس ظهر. وفي الغالب تترك كل الجماعة التي يشملها الثأر قبيلتها وتبحث عن ملجأ وحماية عند شيخ قوي لقبيلة أخرى. وبعد ذلك تحاول تلك الجماعة البحث عن وسيلة الاتفاق بشأن دفع

التعويض. وإذا كان القتيل من غير الوجهاء فإن أقرباءه يوافقون على التعويض. ومقادير التعويض تختلف باختلاف المناطق والقبائل، ولكنها مقادير كبيرة. ويشارك جميع أقرباء القاتل في تسديد التعويض. أما الشيوخ فلا يقبلون إلا بالقتل ثأرًا للقتيل[٣٩].

وتشارك القبيلة كلها في دفع التعويض لإطلاق سراح أبنائها من الأسر[٤٠]. وكان البدو الأثرياء يساعدون الفقراء عند الاقتضاء. كما كانوا يقدمون إلى أقربائهم الفقراء هدايا من أطعمة وألبسة وماشية. وبهذه الصورة يحصلون على شعبية. وكان من العيب على أبناء الوجهاء أن يُتّهموا بالبخل، في حين يعتبر السخاء أسمى فضيلة[٤١].

ولم يكن البدو يعرفون الضرائب المنتظمة. وكانوا يعتبرون «دفع الضرائب إهانة»[٤٢]. وإن انعدام الضرائب داخل القبيلة من أهم الأدلة على متانة العلاقات العشائرية.

ومع ذلك فحتى المراقبون المعجبون بتضامن البدو الرحّل وتعاضدهم قد عثروا في القبائل على ظواهر بعيدة عن المثاليات العشائرية.

عناصر التفاوت داخل القبائل البدوية

في أواخر عام ١٧٨٤ عندما زار فولني شيخ قبيلة كانت تترحّل في منطقة غزة، رأى أن مقارنة رفاه ممثل الوجهاء العشائريين هذا، على الرغم من أنه لا يعتبر غنيًا بالمقاييس الأوروبية، مع حالة البدوي العادي، تكشف عن أمور كثيرة.

«كانوا يعتبرون الشيخ أغنى الجميع في المنطقة. ولكنه خُيّل إليّ أن نفقاته لا تزيد على نفقات تاجر عادي ثري. وأمواله المنقولة المكونة من الألبسة والبسط والسلاح والخيول والإبل لا تتجاوز ٥٠ ألف ليرة. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك يشمل أربع أفراس أصيلة بستة آلاف ليرة... ولذا فإذا تحدثنا عن البدو لا ينبغي لنا ان نضمن الكلمات مفاهيمنا المعتادة لمصطلح «السيد». ان الشيخ الذي يقود مفرزة من ٥٠ خيالًا لا يستنكف من إسراج حصانه بنفسه ومن تقديم الشعير والقش له. وفي بيت الشعر تعد زوجته القهوة وتعجن العجين بنفسها وتطبخ اللحم. وتغسل بناته

وقريباته البياضات ويتوجهن محجبات إلى البئر لإحضار الماء بأباريق يحملنها على رؤوسهن. وهذه اللوحة تشبه بالضبط ما وصفه هوميروس أو «كتاب الوجود» في قصة إبراهيم الخليل...

إن بساطة البدو أو فقرهم، إن صح القول، من بساطة ظروف حياة شيوخهم. فإن ملكية العائلة كلها تتكون من أموال أوردها هنا بالشكل الكامل تقريبًا: عدد من الجمال والنوق والماعز وبضع دجاجات، وفرس مع عدتها وبيت شعر ورمح طوله ١٢ قدمًا وسيف منحنٍ وبندقية صدئة، وغليون ورحى وإبريق ودلو جلدي ومقلاة لتحميص البن وحصير وبعض الألبسة وعباءة صوفية سوداء وأخيرًا، وبدلًا من كل الحلي الثمينة، عدة أساور وخلاخيل زجاجية أو فضية ترتديها المرأة في قدميها أو معصميها. وإذا كان ذلك كله متوفرًا فإن العائلة تعتبر غنية»(٤٣).

إن أوصاف فولني هذه تصطبغ بالصبغة السياسية أكثر من الإثنوغرافية. ومع أن هذا الرحّالة يضفي طابعًا مثاليًا على بساطة حياة الشيخ البدوي، فإن الفارق في الحالة المالية للشيخ كبير جدًا إذا ما قارناه ببدوي يمتلك حصانًا. أما البدو الفقراء فكانوا يعيشون في ضنك أكبر بكثير.

ويقول فولني: «لاحظت أن الشيوخ، أي الأثرياء، وخدمهم، على العموم أطول قامة وأكثر اكتنازًا من سائر أبناء القبائل... ولا يفسر ذلك إلا بطعامهم الأوفر مما لدى باقي الناس. ويمكن القول إن البدوي البسيط يعيش دومًا في عز ويعاني من الجوع طوال الوقت... إن طعام اليوم الواحد للسواد الأعظم منهم لا يتجاوز ست أوقيات. وفي قبائل نجد والحجاز يصل الاعتدال في الطعام إلى حده الأقصى. فإن وجبة البدوي لليوم الواحد تتكون من ست تمرات أو سبع منقعة في سمن ذائبة وقليل من اللبن الطازج أو المخمّر. والبدوي يعتبر نفسه سعيدًا إذا استطاع أن يضيف إلى ذلك حفنة من الدقيق الخشن أو قليلًا من الأرز. والبدو لا يأكلون اللحم إلا في أكبر الأعياد. ففي حفلات الزفاف أو المآتم ينحرون معزةً صغيرة. ولا ينحر صغار الإبل ويأكل الأرز مع اللحم إلا الشيوخ الأثرياء وقادة العساكر»(٤٤).

وقد تجلى التفاوت في الأموال لدى قبائل البدو الرحّل بشكل ملحوظ خصوصًا

في ملكية الماشية. فلئن كان الواحد من فقراء قبيلة عنزة لا يكاد يمتلك في مطلع القرن التاسع عشر عشرة جمال، فإن قطعان البدو الأغنى كانت تضم زهاء خمسين جملًا، في حين أن عائلة الشيخ تمتلك عدة مئات من الإبل [٤٥]. وكان الشيوخ الأكثر قوة وثراء يمتلكون عدة آلاف من الإبل.

إن وجهاء القبائل الذين يضبطون الترحال الموسمي ويشاركون في توزيع المراعي صاروا يكتسبون حقوق الأسبقية للتصرف بالأراضي مع أن تعسفهم كان مقيّدًا بالعادات العشائرية. لقد كانت القطعان التابعة للشيوخ تحصل على المراعي الأفضل. وكان هناك منذ القدم حمى لهذه القطعان، وغدا قسم من موارد المياه ملكا لوجهاء البدو الرحّل.

ومن نظام التعاضد القبلي ظهر استغلال البدو أثناء تسليمهم الماشية لأجل رعيها. في بادئ الأمر كان تسليم الماشية يبدو بمثابة سلفةٍ مؤقتةٍ عبارةٍ عن عدد من رؤوس الماشية تقدم إلى ابن القبيلة الذي أصابه الإملاق[٤٦]. وقد انتشرت هذه الظاهرة عند بدو الجزيرة ومكّنت كبار ملاك الماشية من صيانة قطعانهم ومضاعفتها.

والدرجة التالية في الاستغلال هي تسليم الماشية على سبيل المحاصّة إلى الفقراء المعدمين وغير المعدمين، حيث يستلم الملاك جزءًا من النسل والمحاصيل الحيوانية[٤٧].

وكان تسليم الأغنام لأجل الرعي أكثر انتشارا. مثلًا فإن رعاة الإبل لم يكن بوسعهم أن يأخذوا معهم الماشية الصغيرة أثناء الترحال الطويل الأمد. لذا كانوا يتركون الأغنام عند رعاة الغنم من أبناء الأفخاذ الأخرى أو القبائل الغريبة بغية رعيها. وفي هذه الحالة كان الاستغلال أكثر وضوحًا وغير مموّهٍ بالأشكال العشائرية. وإذا لم تتمكن عوائل الوجهاء من رعاية قطعان إبلها فهي تستخدم الرقيق أو أبناء القبائل الأخرى. ونادرًا ما تستخدم أبناء قبيلتها.

وتحولت الإتاوات الخاصة بالصرف على كرم الضيافة إلى واحد من أساليب استغلال البدو من قبل الوجهاء. وقال بوركهاردت: «عندما يأتي الضيوف ويتعين

نحر كبش من أجلهم فإن الأعراب يحضرون هذا الكبش عادةً إلى خيمة الشيخ. وفي بعض القبائل لا يسمح الأعراب بأن ينحر شيخهم كبشه، ولذا يزودون خيمته باللحوم حسب الدور»[٤٨]. ولما كان الشيخ «مضطرًا إلى استقبال الضيوف كان يأخذ جملًا أو خروفًا من هذا أو ذاك، وكان الناس يقدمونهما له بطيبة خاطر، وذلك لأنهم لا ينذر ان يأكلوا لحمهما عنده بعد الضيوف». بهذه الصورة أوضحوا للرحالة موسيل طبيعة هذه الإتاوات حتى في مطلع القرن العشرين [٤٩].

وكانت القبيلة تساعد الشيخ في اقتناء حصان. وعندما يتناقص قطيعه بسبب غزوات النهب يحاول أبناء القبيلة التعويض عن كل خسائره. وفي الحالات المماثلة لا يعوضون للبدوي العادي إلا عن جزء من خسائره كما يقول بور كهاردت[٥٠].

وكان الشيوخ والعرّاف في القبائل يستلمون مكافأة على الفصل في النزاعات القضائية.

وفي بعض الأحيان يقع البدو البسطاء في تبعية شخصية بقدرٍ ما للوجهاء. وساعد على ذلك نظام التجاء البدو إلى شيخ قوي من قبيلتهم أو من غير قبيلتهم (الدخلة) من أجل حمايتهم. وكانت تلتف حول هذا الشيخ «عوائل صغيرة لا تقوى بالقدر الكافي على الحياة المستقلة، بل هي بحاجة إلى الحماية والتحالف»[٥١].

وكانت الوصاية من أشكال التبعية الأكثر تطورًا. فالفقراء في هذه الحالة ينشدون حماية الشيخ لقاء مدفوعات معينة. وانتشر على نطاق واسع لجوء جماعات بكاملها إلى وصاية الشيوخ طلبًا للحماية. فالأشخاص الذين يخشون الثأر من جانب أهل القتيل يسعون إلى الحصول على حماية الوجهاء من قبيلة أخرى. وعلى البدو أن يتحملوا مقابل ذلك بعض الواجبات، ومنها واجبات اقتصادية. وإن الحرية الشخصية لمثل هؤلاء الناس تكون مقيّدة بعض الشيء[٥٢].

ويدل على ضعف الأواصر العشائرية كذلك واقع أن المدين داخل القبيلة ملزم بأن يسدد الدين بنفسه إلى الدائن، ولا أحد يساعده في ذلك، خلافًا لممارسة التعاضد وتسديد الدين لدائنٍ غريب.

ويتبادر إلى الذهن سؤال: هل وصل تحلّل الأواصر العشائرية داخل قبائل البدو إلى درجة تجعلها تتحول إلى علاقات طبقية إذا استخدمنا المصطلح الماركسي المعهود؟ إن تحليل طابع ملكية أراضي المراعي والآبار يساعدنا في الجواب على هذا السؤال.

كتب كارل ماركس يقول: «إن الملكية العقارية تفترض احتكار أشخاص معينين لتصرفٍ بقطعٍ معينةٍ من الأراضي بوصفها ميادين استثنائية لإرادتهم الشخصية خاضعة لهم وحدهم»[٥٣]. فهل كان شيخ قبيلة ما أو جماعة من الوجهاء يتمتعان بحق التصرّف بالمراعي «بوصفها ميادين استثنائية لإرادتهما الشخصية خاضعة لهما وحدهما» مع أن أشكال الملكية في القرون الوسطى لم تكن ناجزةً لا جدال فيها؟ وهل يمكن، والحال هذه، الكلام عن ملكية شيخ ما أو جماعةٍ من الوجهاء لقطع من أراضي المراعي؟ وهل يعني ذلك أنهما، مثلًا، يتمكنان من بيع مراعي القبيلة للغرباء؟ أو تأجيرها والاستئثار بكل عائداتها؟ وهل يستبدلانها بأخرى، في الواحة مثلًا؟ والأمر الأهم هو: هل يستطيعان أن يحرما أبناء قبيلتهما من حق الانتفاع بالمراعي؟ في ظروف الجزيرة العربية قبل القرن العشرين لم تكن هذه التصرّفات ممكنة، أو أنها كانت تمثل حالات استثنائية نادرة وغير معروفة لدينا. كان حق الشيوخ والوجهاء في التصرّف بالمراعي مقيّدًا، على الأقل، بانتمائهم إلى قبيلتهم، أي أنهم كانوا ينتفعون بالأراضي المشاعية بسبب كونهم من أبناء تلك القبيلة، وإن كانوا وجهاء وأثرياء يتمتعون بالامتيازات. وهذا طبعًا يقيد حقهم في التصرّف بالأراضي ويقيد إمكانيات الطريقة الإقطاعية في تسيير الاقتصاد، كما يقلّل من الاستغلال الإقطاعي داخل القبيلة [٥٤].

وفي بعض القبائل المترحّلة المنفردة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يمكن ملاحظة مجرد اتجاه نحو العلاقات الإقطاعية، وليس شيوع تلك العلاقات. فإن تصفية الملكية المشاعية القبلية للمراعي في العربية السعودية لم تنجز ولم تكتمل حتى الآن.

وتدل وقائع كثيرة على أن العائدات التي يستلمها الوجهاء في قبيلتهم لم تكن كبيرة، وفي بعض الأحيان لا تسد النفقات المرتبطة بتقاليد التضامن والتعاضد العشائريين. وانتشرت عند قبائل البدو، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أي حال، العلاقات العشائرية المستندة إلى الملكية المشاعية للمراعي ومنابع المياه وإلى أواصر القربى المتينة وإلى تقاليد التعاضد والتضامن. إن عملية تشديد استغلال البدو البسطاء من قبل الوجهاء، وهو الاستغلال المستند إلى التفاوت في الأموال، كانت جارية ولكنها لم تبلغ بعد مرحلة شق قبائل البدو الرحّل وتقسيمها إلى طبقات.

ونعتقد ان أسباب ذلك تكمن في صفوف القوى المنتجة البدوية وشحّة المنتوج الفائض، وكذلك في استقرار الأحوال النفسية الاجتماعية للبدو والأحرار. وما كان بوسع وجهاء البدو أن يشددوا استغلال أبناء قبائلهم أكثر من الحد الأدنى المعين.

إن بقاء فئة كبيرة بل وغالبة من البدو «المتوسطين» أو الفقراء الذين يمارسون شؤونا اقتصادية مستقلة في قبائل البدو لهو دليل قاطع على عدم وجود العلاقات الاستغلالية الناجزة هنا. ولا يذكر الرحّالة الأوروبيون شيئًا عن بدوٍ تعرّضوا للاستغلال داخل القبائل المترحّلة. ويفترض ذلك ان أغلبية البدو تمتلك ماشية خاصة بها وترعاها في المراعي العامة.

ولكننا، عندما نقوّم طابع العلاقات الاجتماعية عند قبائل البدو الرحّل، لا يجدر بنا أن نتناولها بمعزل عن مجتمع الجزيرة عمومًا، وذلك لأن مثل هذا الأسلوب يشوّه اللوحة الفعلية. لأن سكان الجزيرة العربية البدو الرحّل وشبه الرحّل والحضر كانوا يمثلون كيانًا اجتماعيًا مترابطًا واحدًا وإن دراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف جماعات السكان في الجزيرة العربية، ودراسة الكثير من السمات الخاصة بالحياة في الجزيرة إنما تتميز بأهمية خاصة وتقدم تحليلًا للقبيلة البدوية وللمجتمع كله.

الغزوات

كان البدو، في ظل انعدام السلطة المركزية القوية،يقومون بالغزوات دومًا. وكانت

الماشية في الغالب عرضةً للنهب، ويشمل النهب أدوات بيوت الشعر والأسلحة والألبسة والعبيد. وكانت سلع التجار تسلب منهم، كا تسلب من الحضر مختلف المحاصيل والأدوات الزراعية. وكان هناك فارق بين الغزوات وبين الحرب الحقيقية بسبب المراعي والآبار. إلا أن هذين النوعين من العمليات الحربية كانا متشابكين دومًا.

كتب بور كهاردت يقول: «إن القبائل العربية في حالة حرب دائمة تقريبًا فيما بينها، ونادرًا ما يحدث أن تتمتع قبيلة ما بلحظة من السلام المشترك مع سائر جيرانها. إلا أن الحرب بين قبيلتين نادرًا ما تستمر طويلًا، فالصلح يُعقد بسهولة، ولكنه يُخرق لأتفه الأسباب. وإن أسلوب خوض الحرب هو أسلوب الأنصار، فالمعارك الشاملة نادرة، والهدف الرئيسي لكلا الطرفين المتحاربين هو مباغتة العدو بهجوم غير متوقع ونهب مخيمه. لذا فإن حروبهم عادة لا تُراق فيها الدماء. ويهاجمون العدو، بقوات متفوقة عدديًا فيتنازل لهم دون قتال. ثم إن عواقب الثأر الفظيعة تدرأ الكثير من النزاعات الدموية»[٥٥].

وكتب فولني عن غزوات البدو يقول: «لما كان الأعرابي نهّابًا أكثر مما هو محارب فهو لا يسعى إلى إراقة الدماء. إنه يهاجم فقط من أجل النهب والسلب، وإذا قوبل بمقاومة فهو يعتقد بأن الغنيمة الزهيدة لا تستحق المجازفة بحياته. وبغية إثارة غضبه لا بد من محاولة إراقة دمه، وعند ذاك يكون مصرًا على الثأر والانتقام بقدر ما كان حذرًا يتحاشى المخاطر. غالبًا ما يلومون الأعراب على ميلهم إلى النهب والسلب، ولكن اللائمين الذين لا يريدون تبرير هذا الميل لم يلتفتوا بالقدر الكافي إلى أن الميل إلى النهب والسلب موجّه ضد الغريب الذي يعتبره الأعراب عدوًا، ولذا يستند هذا الميل إلى أعراف أغلبية الشعوب»[٥٦].

كان الغزو يُعتبر عملًا نبيلًا جدًا، وكانت الرغبة في النهب تثير دومًا حماس البدو، وكانت المشاركة في الغزوات طوعية، ولكن المحاربين في الواقع، وخصوصًا الشبان، ما كان بوسعهم رفضها. فالامتناع عنها ينطوي على خطر الاتهام بالجبن وتضييع الاحترام لدى الأقرباء وأبناء القبيلة. وكتب نيبور: «يُقال إن الفتى لا يستطيع

أن يتزوج ما لم يجترح عدة مآثر» [٥٧]. وكانت أسماء أبرز المشاركين في الغزوات تتناقلها الألسن ويتغنّى بها الشعراء. وحتى في القرن العشرين يعدد المؤلفون أسماء الأبطال الأماجد في الفروسية البدوية.

وبنتيجة الغزوات يستطيع البدوي الفقير بعد غارة موفقة واحدةٍ أن يصلح أحواله المالية بل ويمكن أن يغدو موسرًا. ومما لا شك فيه أن الغزوات كانت واحدًا من أسباب بقاء فئة البدو الرحّل المستقلين.

وكانت الغزوات مصدرًا لأثرياء وجهاء القبائل. فإليهم يرد أكبر جزء من الغنائم وأفضلها[٥٨]. ويتزعّم الغزوات الشيوخ أو العقداء. و«تفرد» للشيخ حصة حتى ولو لم يشارك في الغزوات. وليس من قبيل الصدفة أن غنائم الغزوات تعتبر من أهم مداخيل وجهاء البدو.

بديهي أن السلب والنهب المتواصلين في الجزيرة العربية قد ألحقا ضررًا بالاقتصاد والقوى المنتجة. ويصادف أن الغزوات لا تمر دون إراقة دماء، بل وتؤدي إلى حروب إبادة قاسية. وبنتيجة المداهمات يمكن أن تهلك أو تنقرض أفخاذ وقبائل عن بكرة أبيها. ويقول فولني «في بعض الأحيان ترتقي قبيلة ضعيفة، وينتشر نفوذها، بينما يصيب الركود، وحتى الإبادة، قبيلة أخرى كانت قوية في ما سبق»[٥٩]. ولاحظ جوسان مثل هذه الظاهرة بعد أكثر من مائة عام: «يمكن للقبيلة أن تختفي من البلاد بأساليب عديدة، وفي مقدمتها بالنزوح بسبب النزاعات الكبيرة أو المجاعة المتواصلة في المنطقة... والسبب الآخر الأكثر انتشارًا لإبادة هذه القبائل يكمن في الحروب والغزوات الدائمة. فيكفي يوم منحوس واحد لإبادة قبيلة بكاملها: الرجال جثث في ساحة القتال والنساء يتوزّعن على القبائل المجاورة أو...يهلكن من الجوع»[٦٠]. ويمكن أن تنهار القبائل القوية في ما مضى، وتفقد أبناءها وماشيتها ومراعيها وتخضع لقبائل أخرى وتندمج معها أحيانًا.

ولكن هل هناك سنّة معينة في انتصارات القبائل وهزائمها؟

كانت القوات المقاتلة لمختلف القبائل والأفخاذ غالبًا ما تتوقف على طابع

أعمالها الاقتصادية، وليس فقط على بسالة المقاتلين وموهبة القائد وشجاعته. وإن رعاة الإبل بالذات، أي البدو الرحّل الحقيقيين، هم الذين كانوا يمتلكون أكبر قدرة حربية. فالإبل تمكنهم من التنقّل بسرعة ولمسافات طويلة في البوادي الخالية من المياه، وتحشيد القوات وتسديد الضربات المباغتة، والتخلّص، عند الاقتضاء، من الملاحقة واللجوء إلى البادية التي لا يطالها العدو. وكان رعاة الإبل قد قاموا بأكثر الغزوات توفيقًا وغالبًا ما كانوا يخرجون من المعارك الكبرى ظافرين، ولا أحد ينافسهم إلا أمثالهم من رعاة الإبل. إن القبائل والأفخاذ من رعاة الإبل هي بالذات الرابحة في الميزان العام للخسائر والغنائم بعد الغزوات، أما رعاة الغنم شبه الرحّل فكانوا الخاسرين. وفي ساحات القتال المكشوفة كان الحضر أيضًا يهابون البدو الحقيقيين في الغالب. فإن سلامة روابطهم التجارية وماشيتهم التي ترعى في السهوب أو أشباه البوادي، وسلامة مزارعهم وبساتين نخيلهم غير المحمية بأسوار كانت تتوقف على العلاقات المتبادلة مع البدو.

وكانت قبائل البدو القوية من رعاة الإبل تفرض الإتاوات على القبائل الأضعف، وخصوصًا رعاة الغنم والحضر. وكانت الغزوات واحدة من طرق الاكراه وتبعية الجزية والخراج وأحيانًا تبعية الخدم والحشم.

الخوة أو الخاوة

كانت الخوّة التي يدفعها السكان الحضر وشبه الرحّل إلى البدو ترتدي منذ القدم لبوسًا عشائريًا وكأنها مكافأة على الحماية والوصاية. ولذلك اشتق اسمها من لفظ الأخوة. كتب بور كهاردت يقول: «تدفع الخوّة عادة إلى الشيخ أو أحد أبناء القبيلة الذين يتمتعون باحترام كبير. وحالما تتفق الجماعة مع أعرابي ما بشأن الخوّة يطالب هذا الأخير فورًا بجزء من المبلغ السنوي المتفق عليه. ويشتري به بعض الاحتياطيات ويتقاسمها مع أصدقائه لكي يكونوا، بعد تناول جزء من الخوّة، شهود عيان على الاتفاق»[٦١].

ويقول فالين إن الخوّة تدفع ليس فقط إلى حامي دافعيها «شيخ المشايخ، بل

كذلك إلى كل شخص متنفذ في مختلف الأفخاذ»[٦٢]. ويستقر قسم كبير من الخوّة في جيوب وجهاء القبيلة، ومع ذلك فإن حصةً منها تبقى عند أبناء القبيلة البسطاء. وكان الحضر والبدو شبه الرحّل يدفعون الخوّة إلى عدة قبائل بدوية في وقت معًا، علمًا أن هذه القبائل تجمع الخوّة بدورها من مختلف الواحات وقبائل رعاة الغنم[٦٣]. وفي بعض الأحيان يقوم البدو شبه الرحّل الذين يدفعون الخوّة لمن هو أقوى منهم بجباية الجزية من القبائل أو الواحات الأضعف.

وخلق ذلك كله أشكالًا معقدة من التبعية ولكن جوهر القضية لم يتغير، وهو ابتزاز قسم كبير من المنتوج الفائض، وأحيانًا قسم من المنتوج الضروري، من الحضر والبدو شبه الرحّل إلى البدو الأكثر جبروتًا. وكانت الخوّة مصدرًا لعائدات كبيرة على وجهاء البدو الرحّل وسائر البدو. وكانت قبائل البدو تتنازع على حق جباية الخوة. وأثناء تلك المنازعات يهلك دافعو الخوّة أيضًا. ولم يكن بالإمكان التخلص من نير جباة الخوّة إلا بالمقاومة المسلحة.

وتتحول علاقات الخوّة أحيانًا إلى علاقات تبعية الخدم والحشم، وعند ذاك تشارك القبائل الخاضعة في الغزوات الحربية لأسيادها، أي أنها تدفع جزية الدم. ويقدم الشيخ التابع آيات التكريم الظاهري للشيخ المتبوع. وكانت تبعية بعض القبائل قد بلغت حدًا جعل ديكسون، مثلًا، ينعت قبيلة الرشايدة «بالأقنان» لقبيلة مطير، وينعت قبيلة العوازم «بالخدم» لقبيلة العجمان[٦٤]. صحيح أن هذا القول يخص القرن العشرين، ولكن مثل هذه العلاقات كانت، على ما يبدو، موجودة في السابق أيضًا.

وكان البدو قد فرضوا رسومًا على قوافل التجار والحجّاج وأطلقوا عليها كذلك اسم «الخوّة»[٦٥]. واستخدم ابن بشر للدلالة على هذه الرسوم كلمة من نفس الأصل «خاوى» وقد وردت عند ابن خلدون أيضًا. وجمع ثروة كبيرة خصوصًا وجهاء القبائل المسيطرة على طرق الحج.

وكان الباب العالي يدفع إلى البدو مبالغ كبيرة لقاء مرور قوافل الحجاج العثمانيين إلى مكة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقدر بوركهاردت تلك المبالغ في بداية القرن التاسع عشر بـ ٦٠,٥٠ ألف جنيه استرليني سنويًا[٦٦]. وفي عام ١٧٥٦ تلكأ والي دمشق العثماني في دفع النقود وأعدم شيوخ البدو الذين جاؤوا لاستلام المبالغ المقررة، ولكن قبائل البدو توحّدت بعد عامين وسحقت حرس الحجاج ونهبت القافلة وأرغمت السلطات العثمانية من جديد على دفع هذه الضريبة[٦٧].

وكان وجهاء البدو يستلمون كذلك مدفوعات تحددها الأعراف لقاء «حماية» الصنّاع والباعة المتجولين[٦٨].

القبائل «الوضيعة» ـ العبيد والمعتوقون

ومن بين دافعي الجزية لقبائل البدو القوية كذلك من يسمون بالقبائل الوضيعة في الجزيرة العربية: الصلبة وهتيم والشرارات وفروعها. فبنتيجة التطور التاريخي الخاص غدت هذه القبائل مجزأة إلى عدة أفخاذ هائمة في شبه الجزيرة كلها بشكل جماعات غير كبيرة وليس لها أرض خاصة بها، الأمر الذي كان سببًا في ضعفها. وكان أغلبها يترحّل في أراضي الغير مع أصحاب تلك الأراضي. وكتب بوركهاردت يقول: «بين القبائل الكثيرة جدًا التي تقطن بوادي الجزيرة لا توجد قبيلة أكثر تشتتًا وتواجدًا في جميع أرجاء هذا البلد من قبيلة هتيم. فيمكن للمرء أن يصادف خيام هذه القبيلة في سوريا وفي صعيد مصر والدلتا ونجد وبلاد الرافدين... وفي كل مكان تقريبًا نجدها مضطرة إلى دفع الإتاوات للقبائل المجاورة لقاء رعي الماشية»[٦٩].

وكانت واسطة النقل الرئيسية عند الصلبة هي الحمير وليس الإبل. ولم يكن الرعي عادة بقادر على إطعام هذه القبيلة، ولذا اضطرت إلى ممارسة نشاط يُعتبر مهينًا في مجتمع الجزيرة، مثل بعض الصنائع. وصار البعض موسيقيين محترفين وراقصين ومطببين. وخدموا عند الوجهاء في هذه المهن[٧٠]. وكانوا يتكّهنون باحتمالات الطقس ويشيرون إلى مواقع المراعي الأفضل ويتلقون الهبات في مقابل ذلك [٧١].

وغدا أفراد القبائل «الوضيعة» مادة للاستغلال والابتزاز بلا رحمة من قبل البدو الأقوياء. وأورد دوتي مثالًا فقال: «وصل عدد من أبناء عنزة إلى الواحة وهم يقتادون في الدرب شخصًا عاريًا يثير الشفقة والحبل في عنقه. كان ذلك من أبناء هتيم. وكان البدو يصرخون كالمسعورين متهمين إياه بتأخير تسديد الخوّة وقدرها عشرة ريالات. اقتادوه لكي يروا ما إذا كان هناك شخص في خيبر يدفع الخوّة بدلًا عنه كما وعدهم، وإذا لم يجدوا ذلك الشخص فسيسحبون هذا المسكين إلى خارج المدينة ويقتلونه»[٧٢]. إن هذه الواقعة وحدها تبين مدى الهوة العميقة التي تفصل بين البدو الأحرار وبين أفراد القبائل «الوضيعة»، ومدى قساوة أشكال استغلال بعضهم لبعضهم الآخر.

وقد ظلّت العبودية (الرقيق) في الجزيرة العربية قائمة طوال قرون[٧٣]. وكان العبيد ينقلون إلى شبه الجزيرة في الغالب من شرق ووسط أفريقيا. كانت هناك حملات خاصة لتجارة العبيد تستولي عليهم أو تشتريهم خصيصًا، كما أن بعض الحجاج كانوا يبيعونهم بغية تغطية نفقاتهم على زيارة الحرمين. كانت تجارة العبيد متركزة في مكة على الأغلب، ولكنها كانت تجري أيضًا في مدن أخرى، مثل الهفوف ومسقط. ويبدو أن عدة آلاف من العبيد كانت ترد إلى الجزيرة سنويًا. وفي حالات استثنائية كان الأعراب يتحولون إلى عبيد.

وكان أكبر عدد من العبيد موجودًا في مركز تجارة العبيد ـ الحجاز، حيث كانت كل أسرة مستقلة بهذا القدر أو ذاك تسعى إلى شراء الرقيق. أما خارج الحجاز فقد كانت العوائل الغنية فقط هي التي تمتلك عبيدًا. كتب بلغريف: «صادفنا أحيانًا في الجزيرة العربية زنوجًا، في الجوف وجبل شمر والقصيم وسدير. ولكننا رأيناهم فقط يؤدون أدوار العبيد، ونادرًا ما صادفناهم في منازل غير منازل أكثر الناس ثروة»[٧٤]. ويقول الرحّالة إن عدد الزنوج والمولدين في جنوب نجد كان في ازدياد، وكانوا في بعض الواحات يشكلون أغلبية السكان. «في الرياض كثير من الزنوج، وعددهم أكثر في منفوحة والسلمية وغالبًا ما نصادفهم في الخرج ووادي الدواسر وأطرافهما»[٧٥].

وكان وجهاء البدو يمتلكون العبيد أيضًا. كتب بور كهاردت عن عنزة يقول: «كل شيخ قوي يقتني سنويًا خمسة عبيد أو ستة وعددًا من الإماء...»[٧٦]. وكانت الحال كذلك في القبائل البدوية الأخرى.

وكان العبيد يؤدون أصعب وأقذر الأعمال. كانوا في القبائل المترحّلة يرعون الماشية وينقلون الماء وينصبون الخيام ويرفعونها ويجمعون الأحطاب والوقود. وكان عمل العبيد يستخدم كذلك في الزراعة والصنائع، ولكن بقدر محدود جدًا... ولكن الميدان الأساسي لاستخدامه هو الشؤون المنزلية حيث يؤدي العبيد واجبات الخدم والحراس ومدبري المنزل.

وتجدر الإشارة إلى بعض الخصائص الجوهرية لأوضاع العبيد في الجزيرة العربية. فالعبودية هنا كانت تتميز بطابع عشائري. وهذا هو السبب في المعاملة الطيبة نسبيًا للعبيد. فالعبيد وخصوصًا المولدون كأنما يغدون أفرادًا غير كاملي الحقوق في عائلة سيدهم. وفي بعض الأحيان يغدون ورثة لأملاك سيدهم. وكانت الإماء، عند وجهاء المدن خصوصًا، تستخدم كجوارٍ ويغدو أبناؤهن أحرارًا عادة، ويصبحن هن حرائر بعد وفاة أسيادهن. كان العبيد محرومين ومهانين من الناحية الاجتماعية، ولكنهم من الناحية الاقتصادية يعيشون أفضل من البدو الرحّل أو الفلاحين شبه الجياع. فقد كانوا يتمتعون بقسم من عائدت الوجهاء.

وكان كثيرون من العبيد في الجزيرة قد حصلوا على الحرية وأصبحوا معتوقين ولكنهم ظلوا يسمون بالعبيد أيضًا. ولم يكن ذلك يشمل الجواري وأبناءهن فقط. إن عدد العبيد «الموروثين» لم يكن كبيرًا في الجزيرة العربية.

وكانت عملية عتق العبيد في القبائل البدوية أشد مما عند الحضر. فبعد مضي فترة معينة كان البدو دومًا يمنحون الحرية للعبيد ويزوجونهم من نساء من بشرتهم. وقال بور كهاردت: «أبناء عنزة لا يعاشرون الإماء أبدًا، ولكنهم بعد بضع سنوات من الخدمة يمنحونهن الحرية ويزوجونهن من العبيد أو أبناء العبيد المتبقين في القبيلة»[٧٧]. وكان المعتوقون يمارسون البيع والشراء والصنائع ويعملون خدمًا في منازل الأثرياء.

وكان تحرير العبيد في ظروف الجزيرة العربية يتسم كذلك بمغزى آخر. فإن أحد شيوخ عنزة مثلًا «يمتلك أكثر من خمسين عائلة من أناس كانوا في زمن ما عبيدًا له، وهم مدينون لسخاء هذا الشيخ بكل ما يملكون. ولا يحق له الآن أن يستحصل منهم الجزية السنوية، لأنهم صاروا يعتبرون من الأعراب الأحرار، ولكنه يزوج بناتهم من عبيده الجدد ومن المعتوقين، وعندما يستولي ذوو البشرة السوداء هؤلاء على غنائم كبيرة أثناء الحروب بوسع الشيخ أن يأخذ منهم ناقة جيدة، وهم لا يرفضون ذلك أبدًا»[٧٨]. وقد توحّد بعض المعتوقين حسب السمة القبلية السكانية، إلا أن منزلة هذه القبائل الجديدة أوطأ من منزلة قبائل الأعراب الأقحاح. وكان المعتوقون في تبعية مالية وشخصية لوجهاء البدو.

كان السواد الأعظم من المعتوقين يمارس الزراعة. كانوا محرومين من الأراضي، ولذلك صاروا يستأجرونها بالمحاصّة من وجهاء الحضر والبدو في الغالب (وأحيانًا من قبائل البدو الرحّل بكاملها). وكان المستأجرون المعتوقون يتعرّضون لاستغلال بشع.يقول فالين: «إنهم نادرًا ما يبلغون الثروة والرفاه»[٧٩]. وظلت باقية كذلك تبعية المستأجرين المعتوقين الشخصية بقدرٍ كبيرٍ لمالكي العبيد السابقين. وبالإضافة إلى ذلك كان على المعتوق، في عدة حالات، أن يعيد إلى سيده، قبل مغادرته، الأموال التي استلمها أثناء التحرير[٨٠]، الأمر الذي لم يكن ممكنًا على الدوام. وكان المستأجَرون المعتوقون يرتبطون بالأرض بقدرٍ ما، فضلًا عن الريع الإقطاعي الذي يسددونه. ولذلك فإن أحوالهم أقرب إلى أحوال الأقنان مما هي إلى سائر فئات سكان الجزيرة.

كان استغلالهم من قبل وجهاء الحضر نوعًا خاصًا من الاستغلال الإقطاعي للأعراب المحاصّين. وكانت عائدات الأراضي التي يفلحها المعتوقون واحدًا من أهم مصادر الدخل الخارجية (خارج القبيلة) لوجهاء البدو.

تنظيم السلطة وطابعها في القبائل البدوية

إذا كانت تسود بين الوجهاء وبسطاء البدو داخل القبيلة المترحّلة علاقات لم

تصبح طبقية بعد، فإن وجهاء البدو خارج القبيلة صاروا استغلاليين طبقيين. فهم يستلمون حصة الأسد من المداخيل بشكل جزء من غنائم الغزوات وخوّة وجزية من الحضر وأشباه البدو والقبائل «الوضيعة» والصنّاع والباعة والحجّاج وريع إقطاعي من الأراضي السيحية المقدمة على سبيل الإيجار[٨١]. كان وجهاء البدو، كما أسلفنا، يستلمون من أبناء قبائلهم قسمًا ضئيلًا من المنتوج الفائض لعملهم. إلا أن الزراعة أمنّت إنتاجية أعلى وساعدت على استغلال الفلاحين بقدر أكبر. زِدْ على ذلك أن الوجهاء كانوا يسمحون لأنفسهم، خارج القبيلة، بأن يستأثروا بشكل جزية، ليس بالمنتوج الفائض فقط، بل بقسم من المنتوج الضروري أيضًا فيحمون على دافعي الجزية بالحرمان والجوع.

ان المداخيل الخارجية الواردة على القبيلة تغني الوجهاء وتشدد التفاوت في الأموال. إلا أن قسمًا من هذه المداخيل يصل إلى أبناء القبيلة البسطاء، الأمر الذي ساعد على بقاء فئة البدو المستقلين وطمس التفاوت.

إن الطابع المزدوج لوجهاء القبائل بوصفهم من أبناء القبيلة الأكثر ثراء وجاها وبوصفهم مستغلين للسكان خارج قبيلتهم قد حدد خاصية السلطة السياسية عند البدو الرحّل وفي مجتمع الجزيرة عمومًا.

فقد كان الشيخ داخل القبيلة بالدرجة الأولى رئيسًا عشائريًا للجماعة ومتصرفًا بالنشاط الاقتصادي. كان يتزعم الرحلات الأساسية للقبيلة ويشرف على توزيع المراعي والآبار ويختار مكان نصب المخيّم ومدة المكوث فيه. وكان بوسع الشيخ أن يضطلع بدور القاضي أو الحكم في النزاعات التي تنشأ داخل القبيلة واختلاف الآراء والشكاوى في مسائل الأسرة والزواج والمعيشة، وكان يتابع الالتزام بالعادات القبلية وخصوصًا المرتبطة بأخذ الثأر ويراقب استعادة الأموال المسروقة. وكان يمثل القبيلة في العلاقات مع العالم الخارجي. وبوسع الشيخ أن يغدو قائدًا في الحرب وأن يعلن الحرب ويعقد الصلح[٨٢].

وكان الشيخ يتخذ أهم القرارات بعد التشاور مع وجهاء القبيلة أو مجلسها[٨٣] الذي

احتفظ بسمات التنظيم الديمقراطي للمجتمع العشائري. ويقول الرحّالة الإنجليزي دوتي: في المجلس «يتكلم من يشاء، ويرتفع هنا صوت أبسط أبناء القبيلة لأنه من أبنائها»[٨٤]. ولا يستطيع الشيخ أن يعلن الحرب أو يعقد الصلح بدون تشاور مبدئي مع أبناء القبيلة المسموعي الكلمة. وإذا أراد أن ينصب مخيمًا فعليه أن يستطلع آراءهم[٨٥].

ويقول دوتي إن المجلس كذلك «شورى للشيوخ ومحكمة اجتماعية، ويراجعه أبناء القبيلة في أي وقت للنظر في شؤونهم... ويتشاور الشيخ مع الشيوخ الآخرين والوجهاء والأشخاص الأرفع منزلة. ويصدر القرار دومًا دون تحيز ودون أي ارتشاء. وهو قرار نهائي»[٨٦]. وبالإضافة إلى ذلك يمارس العرّاف النظر في الدعاوى القضائية. وإذا اعترض المحكوم عليه بالغرامة المالية على القرار يضطر إلى ترك القبيلة.

ويتجلّى الطابع العسكري الديمقراطي للتنظيم القبلي في تقسيم السلطة في الفخذ والقبيلة في عدة حالات إلى سلطة «مدنية» (الشيخ) و«عسكرية» (العقيد). ويقول بور كهاردت: «لكل قبيلة عقيد، إضافة إلى الشيخ، ويندر أن يتسلم شخص واحد كلا هذين المنصبين. فأنا، على أي حال، لا أعرف مثالًا على ذلك، مع أن بعض الأعراب يقولون إنهم رأوا شيخًا كان بين أعراب منطقة البصرة عقيدًا أيضًا... وإذا شارك الشيخ في الحملة فهو يخضع، كسائر أبناء القبيلة، للعقيد الذي لا تنتهي صلاحياته إلا عندما يعود المحاربون إلى ديارهم. وعند ذاك يعود الشيخ إلى منصبه»[٨٧]. ويفيد مؤرخو الجزيرة والمعلومات الأحدث بأن توافق سلطة الشيخ والعقيد كان ظاهرة أكثر حدوثًا مما يعتقد بور كهاردت. ويمكن أن يغدو عقيدًا ابن الشيخ أو أحد أقربائه. ولا يندر أن تربط أواصر القربى بين عائلتي الشيخ والعقيد.

ولم تكن لدى زعيم القبيلة، عادة، شارات ظاهرية للسلطة ولم يكن يلتزم بمراسيم خاصة في معاملة أبناء قبيلته. فالبدو البسطاء يتعاملون معه كما لو كان في منزلتهم.

وفي حالة وفاة أو عجز الشيخ يختارون شخصًا آخر بدلًا عنه. ومن السجايا التي

يجب توفرها في زعيم القبيلة السخاء والشجاعة والذكاء والحكمة والثروة (الماشية والأرض). وينبغي أن يكون له أنصار كثيرون من الأقرباء والخدم[٨٨]. وإليكم ما كتبه فولني عن شيخ قبيلة بدوية: «حقًا، فإن شيخ المشايخ في كل قبيلة يضطلع بواجب الإنفاق على القادمين والذاهبين، وهو الذي يستقبل الحلفاء وكل من يأتي إليه في حاجةٍ ما. وقرب خيمته ينصب بيت شعر كبير هو ملجأ لكل الغرباء والقادمين. وهنا بالذات تُعقد الاجتماعات الكثيرة للشيوخ والوجهاء لانتقاء مواقف المخيمات أو لشدّ الرحال، وللنظر في مسائل الحرب والصلح والمنازعات مع الولاة العثمانيين أو القرى، وللنظر في الشكاوى والنزاعات بين الأفراد. ويجب إطعام جميع هؤلاء الأشخاص الذين لا ينقطع سيلهم بالرغيف المخبوز على الرماد وبالأرز ولحم الماعز أو الجمال المشوي أحيانًا والقهوة ـ وباختصار يتعين على الشيخ أن يتحلّى بكرم الضيافة»[٨٩]. وفي أغلب الأحوال يظل لقب الشيخ محصورًا في عائلةٍ واحدةٍ من الأعيان والوجهاء طوال عقود وأحيانًا طوال قرون. ويؤكد دوتي: «لا يستطيع أن يكون زعيمًا لعشيرة البدو أي بدوي بسيط أو أي شخص من غير تلك العشيرة وإن كان يتفوق على الجميع من حيث الثروة والجاه والمواهب»[٩٠].

وغالبًا ما تنتقل السلطة من الأب إلى الابن، ولكنه في حال عدم توفر الخصال اللازمة عند المرشح للسلطة تُحال إلى شخص آخر من الوجهاء. وتلك هي أيضًا حال سلطة العقيد. كان الشيخ والعقيد يتنافسان في القبيلة، وفي بعض الأحيان كان العقداء يستولون على منصب الزعيم المدني. ويجري داخل الفئة الحاكمة في القبيلة أحيانًا صراع طاحن من أجل السلطة، وترافق ذلك دسائس وقتل وانشقاق في القبيلة.

وكان من بين الوجهاء الحاكمين أيضًا عرّاف العادات والتقاليد في القبيلة [٩١].

إن تركّز أهم المناصب الاجتماعية في القبيلة البدوية بأيدي كبار الوجهاء يدل على أن السلطة أخذت تفقد سماتها العشائرية. ولكن هل كانت لدى الشيخ مستلزمات السلطة الطبقية؟ وبعبارة أخرى، هل كانت وظائفه العشائرية الخارجية تكتسب

مضمونًا آخر؟ نعم، بقدرٍ معين. فمما لا شك فيه أن الشيخ يخدم بالدرجة الأولى مصالح وجهاء البدو. فالوجهاء يستلمون بمساعدته أفضل المراعي وأفضل موارد المياه وحصة كبيرة من غنائم الحرب. وكان الشيخ لا يكتفي، لكي يفرض إرادته، باستخدام السخاء والمنزلة الشخصية الرفيعة، بل يعتمد كذلك على قوة الفخذ الغفير وعلى الأنصار وعلى مفرزته المكونة من العبيد والمعتوقين. ولكنه رغم الاتجاهات الواضحة نحو تحوّل سلطة الشيوخ داخل القبيلة إلى سلطة من النمط الإقطاعي، فإنها، على ما نعتقد، لم تتحول بعد إلى سلطة إقطاعية في تلك الحقبة.

وبغية إيضاح هذه المسألة يجدر بنا أن نتأكد مما إذا كان لدى وجهاء البدو جهاز خاص يوجد فوق المجتمع وما إذا كانوا يستطيعون استخدام العنف بانتظام لفرض إرادتهم.

يقول فولني: «إن نمط إدارة هذا المجتمع خليط، فهو في الوقت نفسه جمهوري وأرستقراطي وحتى طغياني دون أن يكون دقيقًا في أي صفة من هذه الصفات. فهو جمهوري لأن الشعب في هذا المجتمع يتمتع بالنفوذ الأول في كل الشؤون، ولا يجري أي شيء بدون موافقة الأغلبية. وهو أرستقراطي لأن عوائل الشيوخ تتمتع بطائفة من الامتيازات الناجمة عن القوة في كل مكان. وأخيرًا فهو طغياني لأن سلطة شيخ المشايخ غير محدودة ومطلقة تقريبًا. وعندما تكون طباع الشيخ شديدة فيمكن أن يستفيد من سلطته إلى حد سوء التصرّف، ولكن هناك حدودًا ضيقة نسبيًا حتى لسوء التصرّف هذا. حقًا، فإذا اقترف الشيخ ظلمًا كبيرًا، إذا قتل أعرابيًا مثلًا، فلا يستطيع تقريبًا أن يتحاشى العقاب، فإن غضب الذين أهانهم لا يجعلهم يعيرون اهتمامًا للقبه، ولذا يتعرّض للثأر، وإذا لم يدفع لقاء الدم الذي أراقه فسيقتل من كل بُد...

واذا أثقل على رعيته بقساوته فإنهم يتركونه وينتقلون إلى قبيلة أخرى. ويستفيد أقرباؤه من أخطائه بغية تنحيته والحلول محله. ولا يستطيع استخدام قوات أجنبية ضدهم. وإن رعيته يتفاهمون فيما بينهم بسهولة لا تمكنه من التفرقة بينهم وتشكيل

كتلة كبيرة مؤيدة له. ثم كيف يستطيع شراء ذمم هذه الكتلة إذا كان لا يستلم من القبيلة أي ضرائب عندما يضطر القسم الأكبر من رعيته إلى الاكتفاء بالضروريات وإذا كانت ملكيته ضئيلة ومثقلة بنفقات كبيرة؟» (٩٢).

ولاحظ بوركهاردت «إن الشيخ ليست لديه سلطة فعلية على أبناء قبيلته. ولكنه يستطيع أن يحظى بنفوذٍ واسعٍ عن طريق خصاله الشخصية. وهو لا يتمكن من إصدار الأوامر ولكنه يقدم النصائح... وإذا حدث خلاف بين اثنين من أبناء القبيلة فالشيخ يحاول تسويته بالنصح والإرشاد، وليس بوسعه أن يصر على رأيه. ولا يتمكن أقوى زعيم لقبيلة عنزة من فرض أبسط عقوبة على واحد من أكثر أبناء قبيلته فقرًا دون أن يجازف بالتعرّض للثأر من قبل هذا الشخص وأقربائه. والعقوبة الوحيدة المعروفة في هذه القبيلة هي الغرامة المالية...» (٩٣).

كان جهاز العنف الطبقي عند البدو الرحّل في طور الظهور. ولم تكن مقوماته الأساسية ـ الجيش والشرطة والسجون والآلة الإدارية والمحاكم الطبقية ـ موجودة عمليًا في القبيلة. وإن المفرزة الشخصية للشيخ والمكونة من العبيد يواجهها التنظيم العسكري الديمقراطي للقبيلة، وهو تنظيم أقوى منها بكثير. والحالات التي نعرفها لاستخدام العنف داخل القبيلة تعود إلى مطلع القرن العشرين، مع أنها يمكن أن تحدث أيضًا في وقت أسبق (٩٤).

وفي ظل البنية التي كانت قائمة في مجتمع الجزيرة عمومًا لم تكن لوجهاء البدو الرحّل موضوعيًا مصلحة في تحطيم التنظيم العشائري واستبداله بنوع من أنواع آلة الدولة. فبالاعتماد على القدرة الحربية للقبيلة وعلى التنظيم القبلي فقط كان وجهاء البدو يمارسون سيطرتهم الطبقية على مجاميع السكان الموجودين خارج القبيلة.

الطابع الإقطاعي للسلطة في الواحات

لاحظت الباحثة والرحّالة الإنجليزية بلانت الطابع المزدوج للسلطة البدوية. وكتبت بلانت تقول: «المدن تطلب حماية شيخ مشايخ البدو في المنطقة، وهو

يؤمن، لقاء جزية سنوية، سلامة سكان المدن خارج أسوارها فيمكنهم من الترحال دون عائق على طول المسافة التي تشملها سلطته، وهي، إذا كنا نقصد شيخ قبيلة قوية، سلطة تشمل مئات الأميال ومدنًا كثيرة. وعند ذاك يقال إن المدن «عائدة» لهذه القبيلة أو تلك، ويغدو الشيخ البدوي وصيًا عليها أو حاميها الرئيسي...

ثم يستمر التطور، فالشيخ البدوي الذي يثرى على حساب الجزية من عدة مدن يبني لنفسه قلعة قرب إحدى تلك المدن ويقضي أشهر الصيف فيها. ثم يغدو بسرعة حاكمًا للمدينة في الواقع بفضل مكانته (لأن أصله البدوي ما يزال يعتبر هو الأنقى) وبالاعتماد على سيطرته في البادية، يتحول الشيخ من وصيٍ على سكان المدينة إلى سيد لهم. وعند ذاك يمنحونه لقب الأمير، فيغدو ملكًا لجميع المدن التي تدفع له الجزية مع بقائه شيخًا للبدو.

ومن جهة أخرى فإن الرأي العام في المدينة يقيد الأمير البدوي بقدر أكبر، مع أنه يمكن أن يكون طاغية... فالأمير وإن كان حرًا في تصرفاته الفردية ولكنه يعرف جيدًا بأنه لا يمكن أن يخرق قانون الجزيرة التقليدي غير المدون ويبقى بدون عقاب»[٩٥].

كانت عملية تحوّل وجهاء البدو إلى طبقة مسيطرة على الحضر في الجزيرة العربية قد جرت بالتدريج. علمًا بأنه يمكننا ملاحظة الأشكال المتنوعة في العلاقات المتبادلة بين الوجهاء وبين القبيلة والسكان الحضر ونمط الحياة المتباين والسلوك المختلف في الحياة المعيشية. وإن شيوخ القبائل الأقوياء أو شيوخ اتحادات القبائل كان بوسعهم أن يفرضوا السيطرة على الواحات أو على مجموعة منها. ولكن وجهاء القبائل يصادف أن يحافظوا على نمط الحياة البدوي ويظلوا شيوخًا بدويين في الغالب. والمثال على ذلك هو أبناء آل حميد من قبيلة بني خالد الذين سيطروا في القرنين السابع عشر والثامن عشر على منطقة الأحساء الزراعية الغنية، ولكنهم فضّلوا، مثل الأمويين الأوائل، البقاء في قبيلتهم المترحّلة. ولم يكن ذلك يمنعهم من الاحتفاظ بحاميات في الواحات الأساسية.

وبعد الاستيلاء على السلطة في الواحات كان أبناء وجهاء البدو ينفصلون عن قبائلهم ويتحولون إلى حكام إقطاعيين حضر. علمًا أن مطامعهم الاستغلالية إزاء سكانهم الزراعيين كانت تتعارض مع مصالح البدو الذين يشاركونهم في استلام الإتاوات. وبعد أن يتحول شيوخ البدو السابقون إلى قسم من وجهاء الحضر يقومون بالدفاع عن ممتلكاتهم ومداخيلهم دون اعتداءات البدو الرحّل. ومن هذا الأصل يتحدر أمراء الدرعية السعوديون وحكام حائل الرشيديون.

وأخيرًا يقوم الحاكم الحضري القوي، بالتحالف مع بعض القبائل البدوية أو بصورة مستقلة بغزوات على البدو المجاورين فينهبهم ويرغمهم أحيانًا على دفع الإتاوات.

لم تكن السلطة في الواحات متركزة دومًا في أيدي أشخاص بعينهم. ففي بعض الأحيان كان المزارعون المتحدرون من قبائل مختلفة يتنازعون فيما بينهم ولا يخضعون لحاكم واحد، إذ أن لديهم شيوخهم وأمراءهم.

كانت سلطة الأمير الحضري تختلف اختلافًا جوهريًا عن سلطة الشيخ البدوي. فالحاكم في الواحة لا يواجهه تنظيم عسكري ديمقراطي عشائري. وكان المزارعون الذين ضعفت روابطهم العشائرية رازحين تحت تبعية لوجهائهم أكبر بكثير من تبعية البدو. لذلك فلا يثير الدهشة أن ينعت مؤرخو الجزيرة سكان الواحات بالرعية. وكان الأمير الإقطاعي يعتمد من جهة على وجهاء الواحة الذين تربطة بالكثيرين منهم صلة القربى، ومن جهة أخرى يعتمد على مفرزته الخاصة المكونة من العبيد والمعتوقين والجنود المرتزقة. وكان النظام القضائي في الواحات مبنيًا، عادة، على أساس الشريعة الإسلامية. ويمارس الأمير شخصيًا أمور القضاء إلى جانب القاضي الذي يتحلّى بإعداد حقوقي وفقهي.

إن التركيب السياسي لإمارة جبل شعر التي وصفها الرحّالة في أواسط القرن التاسع عشر والنصف الثاني منه يمكن أن يعتبر تكرارًا لسمات تنظيم السلطة في الدويلات ـ الواحات في وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر. كان أمراء حائل يديرون

الدولة بمساعدة أقربائهم، وبصورة رئيسية بمساعدة العبيد والمعتوقين الذين يتمتعون بثقة الحاكم بقدر أكبر مما يتمتع به أقرباؤه، علمًا أن مشايخ آل رشيد اعتمدوا على مفارز من العبيد والمرتزقة. وكان زعماء العبيد الذين يسمون بزلم الشيوخ يتسلمون أهم المناصب في البلاط ومناصب الموظفين في جهاز الدولة الناشئ، وكانوا ولاةً أو عمالًا في الواحات. وكانت أهم الدعاوى القضائية وبعض القضايا المدنية ينظر فيها في مجلس الأمير الذي يعقد جلساته أمام الملأ، ويشارك فيه ممثلو وجهاء حائل وكبار علماء الدين. وكان حرس الحاكم نفسه يضطلع بدور الشرطة في إمارة مشايخ آل رشيد. كما كان هناك سجن في حائل. وكانت العقوبات على الجرائم هي مصادرة الأموال والضرب بالعصي وقطع اليد(٩٦).

إلا أن نظام الدولة في الواحات الأخرى كان أقل تطورًا. فإن دوتي الذي زار عنيزة، المركز التجاري الكبير في القصيم، لم يجد هناك سجنًا (٩٧).

ومن السهل أن نلاحظ أن سند السلطة الإقطاعية في الواحات هو حرس العبيد. فهذا الحرس المعتمد كليًا على سيده وغير المرتبط بالسكان المحليين، وسيلة ناجحة للسيطرة السياسية علمًا بأن العبيد ـ المحاربين والشرطة والموظفين والعمال ـ كانوا يتمتعون بمكانة متميزة ويحصلون على مداخيل كبيرة، وقد تحولوا في الواقع إلى جزء من الطبقة الحاكمة، مع أنه جزء خاص ذو حقوق مبتورة. وكانت فئة العبيد هذه قد حصلت في بعض الحالات على وزن ونفوذ كبيرين فادّعت أحيانًا بالسلطة العليا واستولت عليها. وحدث ذلك، مثلًا، في الرياض في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكذلك في مكة في أواخر الثمانينيات من القرن المذكور(٩٨). وتجلّى تأثير القوة العسكرية لمفارز العبيد بقدر ما على مشايخ البدو أيضًا. إلا أن إمكانية تحوّل العبيد إلى طبقة حاكمة في الجزيرة العربية لم تتحقق في سياق التطور التاريخي. ولكن الحرس التركي في عهد العباسيين والمماليك في مصر دليل على مدى الشوط البعيد الذي يمكن أن تقطعه مثل هذه الاتجاهات في المجتمع.

الفئات والمراتب في مجتمع الجزيرة

إن البنية المتعددة الجوانب لمجتمع الجزيرة قد تعقّدت بقدر أكبر بسبب عناصر التقسيم الفئوي والعادات والتصورات المرتبطة بها. وكانت هذه العناصر نابعة بالأساس من النشاط الاقتصادي والعلاقات العشائرية والتقسيم الطبقي والخصائص النفسانية.

كان البدو، من رعاة الإبل بالذات، يُعتبرون في الجزيرة من أنبل ممثلي النوع البشري. وكانوا هم أنفسهم على اعتقاد راسخ بتفوقهم على الحضر وأشباه البدو. وكانوا يعتبرون العمل الوحيد اللائق بهم هو الغزو وتربية الإبل والقوافل وأحيانًا التجارة. وكان رعاة الغنم في القبائل البدوية الكريمة المحتد يشغلون مرتبة وضيعة ولا يتمتعون بالاحترام. وإن تحوّل البدوي من راع للإبل إلى راع للغنم أو مزارع يهبط به من منزلته «الرفيعة» لدرجة تجعل من الصعب عليه العودة إلى حظيرة البدو الأقحاح [٩٩]. وكان البدو يبرّرون رفعة منزلتهم بانتسابهم إلى أصول تغوص في أعماق القرون [١٠٠].

ويقف في الدرجة التالية من سلم المراتب رعاة الغنم الذين ينظرون إلى الحضر باستعلاء. ويأتي بعدهم الزرّاع إذا تهيأت لهم إمكانية الوصول بأنسابهم إلى أجداد كريمي المحتد. إن التفاوت في مراتب هذه الفئات من السكان يعززه عدم وجود علاقات متينة للتزاوج فيما بينها. ومن النادر أن يوافق البدوي المعدم على تزويج ابنته من فلاح موسر.

وكان الوجهاء يحتلون منزلةً أعلى من هذه الفئات الثلاث من سكان الجزيرة العربية والتي تتميز بدرجات مختلفة من المحتد الكريم. وكان الوجهاء يعتبرون أنفسهم أرقى من سائر البدو الرحّل بقدر ما يعتبر هؤلاء أنفسهم أنبل من الزرّاع. وإن بيوتات شيوخ مشايخ القبيلة، خلافًا لسائر أبناء القبيلة الذين يعتبرون أنفسهم خلفًا لجد واحد، غالبًا ما تدعي بأصول تختلف عن الأصول النبيلة الخاصة بالقبيلة كلها. إن دم أفراد عائلة الشيخ (عند البدو) يفوق التقدير أو إنه (عند أشباه البدو) أغلى

من دم سائر أبناء القبيلة. وكان الشيوخ يخرقون أصول الزواج العشائري المرسومة بالعادات والتقاليد فيزوجون بناتهم من شيوخ قبائل أخرى ولا يتزوجون هم إلا من بنات الشيوخ، علمًا بأن المهر المتعارف عليه بين الشيوخ أعلى بكثير من المهر العادي. ونعت دوتي وجهاء القبائل «بالأرستقراطية من حيث الدم والأصل (الجد المشترك)»[١٠١]. وكان هذا أيضًا هو رأي فولني، حيث يقول: «تضم كل قبيلة عائلة أو عدة عوائل رئيسية يحمل أبناؤها لقب الشيوخ. وهذه العوائل تماثل عوائل الأعيان في روما والنبلاء في أوروبا» [١٠٢].

وكان الإقطاعيون الحضر يتباهون بتحدّرهم من وجهاء البدو. وفي بعض الأحيان حاولوا الحفاظ على نمط الحياة البدوي واحتفظوا بأواصر القربى مع وجهاء البادية.

وكانت القبائل «الوضيعة» (هتيم وغيرها) منبوذة في مجتمع الجزيرة. وإذا نُعِت شخص ما من قبيلةٍ باسم تلك القبائل فهو يعتبر ذلك إهانة بالغة. وكان على أبناء القبائل «الوضيعة» ان يقدموا آيات التبجيل للأعراب الكريمي المحتد. والذين تجري الدماء الطاهرة في عروقهم لا يتزوجون أبدًا من بنات القبائل «الوضيعة»[١٠٣]. وتتحدث عن أصول هذه القبائل حكايات وأساطير تحط من سمعتها. ولكن ذلك لم يمنع شباب عوائل الوجهاء من الاستفادة من التسيّب الخلقي في القبائل «الوضيعة» وإقامة علاقات غرامية مع المحظيّات منها. والشعر البدوي الشفهي مليء بالأمثلة من هذا النوع[١٠٤].

ويعتقد بعض الباحثين في العلم المعاصر أن أصول بعض القبائل «الوضيعة» تعود إلى ما قبل العرب بل وحتى إلى ما قبل الساميين[١٠٥]. ويرى آخرون أنها ظهرت في الجزيرة بعد ظهور العرب[١٠٦].

كان الصنّاع في مجتمع الجزيرة أكثر احتقارًا من القبائل «الوضيعة»، وكان احتراف الصنائع، وخصوصًا النسيج، أحط عمل يمكن أن يمارسه الأعرابي. وكانت كلمة «الصانع» تطلق للإهانة والتحقير. وحتى أبناء القبائل «الوضيعة» كانوا يستنكفون من الدخول في علاقات زواج مع الصنّاع. وقد شكل بعض الصنّاع

(وخصوصًا الحدادون) طائفةً منعزلةً منتشرةً في أرجاء شبه الجزيرة كافة وكانوا يعتبرون أنفسهم أبناء قبيلة واحدة [١٠٧]. ولم يكن تنظيمهم يشمل الصنّاع من بين المعتوقين والأجانب.

وعلى أوطأ درجة من السلم الاجتماعي في الجزيرة العربية يوجد العبيد والمعتوقون. فهم وحدهم يقدمون على الزواج من بنات القبائل «الوضيعة» والصنّاع. ولا يستبعد أن يكون ذلك بالذات هو السبب في التفرّد الإثنوغرافي للقبائل «الوضيعة» والصنّاع.

إن تقسيم مجتمع الجزيرة إلى فئات ومراتب غالبًا ما لا يتوافق مع تقسيمه إلى استغلاليين ومستغلين. فلدى كل فئة «منبوذة» من فئات السكان ـ القبائل «الوضيعة» والصنّاع والعبيد ـ نخبة من أبنائها. وفي بعض الأحيان تتجاوز ثروة هذه النخبة ليس ثروة البدو العاديين فحسب، بل ايضًا بعض وجهاء البدو. فالعبيد (من موظفي كبار الإقطاعيين) تفوّقوا أحيانًا على الكثير من وجهاء الحضر والبدو. إلا أن أكثر البدو فقرًا كان ينظر باستعلاء إلى العامل أو الوالي الزنجي المتنفّذ، وما كان يوافق على تزويجه من ابنته في أي حال.

مجتمع الجزيرة من خلال تطوّره

مما لا شك فيه أن المجتمع الطبقي الاستغلالي كان موجودًا في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إلا أن الحدود الطبقية فيه تمتد بخطوط متعرّجة ليس فقط بين الأغنياء والفقراء، وبين الوجهاء والرعية، بل كذلك بين البدو من رعاة الإبل والسكان شبه الرحّل والحضر، وبين القبائل الكريمة المحتد والقبائل «الوضيعة»، وبين الأحرار والعبيد. وفي بعض الحالات تطمس هذه الحدود في غمار العلاقات العشائرية والفوارق الفئوية.

فهل يجوز القول إن النظام الاجتماعي موضوع البحث قد نشأ في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر فقط؟ كلا، بالطبع. صحيح إن قضية تحديد الأطر الزمنية لوجوده تتطلب دراسة خاصة. إلا أن بعض معلومات الأوروبيين، عن الحياة

في الجزيرة خلال القرون الوسطى لا تتعارض مع المعلومات الأحدث. ومما يعزز وجهة النظر هذه ما كتبه ابن خلدون عن مجتمع شمال إفريقيا في القرن الرابع عشر، في المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية، والذي يتميز بكثير من السمات المشتركة مع مجتمع الجزيرة العربية، حيث انتقلت العلاقات الاجتماعية للقبائل العربية دون شك، مع ترحالها إلى شمال أفريقيا. فإن سمات النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل الحمية والدخلة واستبدال التعويض بالثأر وحرس العبيد في مكة، كانت معروفة في الجزيرة منذ فجر الإسلام[١٠٨]، مع أنه لا يستبعد أن مضمون بعض الأنظمة اتسم خلال القرون العديدة بصبغة طبقية لدرجة أكبر. إن الصعاليك من شعراء الجاهلية يشبهون كثيرًا فقراء البدو في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في حين كان نعت ممثلي وجهاء القبائل في القرنين السادس والسابع هو «أصحاب المئات» (المقصود مئات الإبل)[١٠٩]. ونظرًا لعدم حدوث أي تغيرات ثورية في تطور القوى المنتجة في الجزيرة خلال القرون الأخيرة حتى حلول القرن العشرين، يمكن الافتراض أن مثل هذا النظام الاجتماعي ظل باقيًا أمدًا طويلًا مع بعض التعديلات والتعمّق التدريجي للفوارق الطبقية.

ومنذ عهد النبي وحتى ظهور الوهابية لم تشهد الجزيرة العربية السلطة الموحدة والاستقرار والوئام. وطوال القرون ظلّت مجزأة في الغالب إلى دويلات ـ واحات صغيرة أو اتحادات لتلك الدويلات وإلى قبائل مترحّلة أو اتحادات لتلك القبائل. وكان التشتّت الاقتصادي للواحات والقبائل التي هي وحدات اقتصادية مستقلة، وكذلك نطاق البادية الخالية في الجزيرة حيث كانت جزائر الحياة البشرية متباعدة بعضها عن بعض لمئات الكيلومترات، بمثابة عوامل للامركزية. ومما أعاق التوحيد كذلك الفوارق القبلية والمحلية بين سكان الجزيرة ولهجاتهم وتنوّع المذاهب والمعتقدات الدينية وتناقضها.

وكانت لوجهاء القبائل والحضر مصلحة في توسيع حدود سلطتهم من أجل زيادة مصادر الإثراء. واصطدمت مطامح كل من كتل وجهاء القبائل والحضر بمصالح جيرانهم المماثلة. واستنزفت القوى في الصراع بينهم. ولكن صادف أن هذه الكتلة أو تلك من الوجهاء تنشر سيطرتها على نطاقٍ واسع بالاعتماد على القدرة العسكرية

للبدو والحضر وبزعامة قائد موهوب. وبالنتيجة نشأت دول على مساحاتٍ واسعةٍ نسبيًا. وكان التوسّع المشترك الذي يؤمن غنائم الحرب حافزًا رئيسيًا للتوحيد. وكانت في الجزيرة العربية مناطق شاسعة اختلطت فيها قوى الفوضى العشائرية اللامركزية بالقوى التوحيدية المركزية. وتلك المناطق هي الحجاز ونجد والأحساء واليمن وعمان.

وبنتيجة إحلال الأمن وتقاطر الثروات من الخارج كان من الممكن في أراضي الاتحادات الكبيرة على صعيد الدولة أن يجري تطور القوى المنتجة بوتائر أسرع بعض الشيء. ولكن الحماس الحثيث كان يستنفذ فيما بعد، ويؤدي الصراع الداخلي والتنافس إلى تفتت متانة السلطة، ويشدد الوجهاء استغلال السكان الخاضعين لهم فيسبّبون بظهور مقدمات التذمّر الداخلي، وتتفوق القوى اللامركزية الطاردة وتنهار الدول. وكانت هذه العملية تسير بسرعة في حالة الكوارث الطبيعية أو تفشّي الأوبئة.

ولذلك يمكن القول إن قوى التوحيد الكامنة كانت موجودة طوال القرون في الجزيرة العربية المجزأة، وإن مفعول قوى التحلّل الجبارة كان يبدأ في أي دولة مركزية تنشأ هناك.

ولا تُستثنى من ذلك الدولة السعودية الأولى في الجزيرة العربية. ولكنها بلغت قوةً واتساعًا لم يسبق لهما مثيل منذ فجر الإسلام، في حين ترك العصر اثره في طابعها وقرر مصيرها.

الأمبراطورية العثمانية والجزيرة العربية. ضعف النفوذ الأجنبي في الجزيرة عند أواسط القرن الثامن عشر

كانت الدول الإسلامية الكبرى التي نشأت وسقطت في الشرقين الأدنى والأوسط قد أثرت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الجزيرة العربية. واعتبارًا من القرن السادس عشر صار الأتراك العثمانيون عاملًا دائمًا للسياسة في الجزيرة. فعلى أثر احتلالهم لمصر جاء دور الحجاز ثم اليمن والأحساء وسائر مناطق الجزيرة العربية. وعين الباب العالي واليًا له في جدة، البوابة البحرية لمكة. ورابطت حاميات تركية

غير كبيرة بين فترة وأخرى في مكة والمدينة وجدة وبعض المناطق الأخرى. وأرسلت الآستانة بعض الموظفين إلى مكة والمدينة. ومع ذلك كانت سلطة العثمانيين في الحجاز اسمية، وكان الحكام المحليون يتمتعون باستقلالٍ كبير.

كانت السلطة في مكة بأيدي عوائل الأشراف المتنافسة التي كانت تبعث إلى والي مصر والسلطان العثماني نقودًا وهدايا ثمينة. إلا أن مكة كانت مدينة متميزة تعيش على الحج والتبرعات الخيرية من العالم الإسلامي كله. وكان السلاطين الجبابرة والمسلمون الأطهار يتبرّعون بالأموال لترميم الكعبة والمساجد والإنفاق عليها ولشق القنوات. وكان قسم من هذه الأموال يبقى في المدينة ولا يندر أن تستقر في خزنة الشريف. كانت مكة منطقة مهمة للعثمانيين، ولكنها بعيدة جدًا فلم يستطيعوا أن يقيموا سيطرتهم المباشرة عليها، وفضّلوا الإبقاء على حكامها المحليين. وكانت عوائل الأشراف المقيمة في الآستانة مستعدة دومًا للمشاركة في دسائس الباب العالي السياسية (١١٠).

وعلى تخوم القرنين السادس عشر والسابع عشر، في فترة الفتن والقلاقل التي اجتاحت الأمبراطورية العثمانية، اكتسب وسط وشرق الجزيرة العربية الاستقلال الفعلي عن العثمانيين مع أن والي بغداد ووالي البصرة ظلا حتى أواخر القرن السابع عشر يؤثران على سير الأحداث في الأحساء ونجد.

وفي مطلع القرن الثامن عشر دخلت الأمبراطورية العثمانية مرحلة الأفول بعد هزيمة معركة فيينا عام ١٦٨٣. ومع أن العثمانيين استطاعوا في العقود الأولى من القرن الثامن عشر أن ينتصروا على الفرس في الشرق فإن ذلك لم يغير شيئًا في سير الأمور. كانت الأمبراطورية العثمانية ما تزال تمتلك مساحات شاسعة في أوروبا وآسيا وإفريقيا حيث تركزت الثروات الطبيعية والموارد البشرية. إلا أن أساس الجبروت العثماني ـ النظام العسكري الإقطاعي ـ أخذ يتفتت دون رجعة. وتدهورت القدرة الكفاحية للإنكشارية الذين أسسوا عوائل ومارسوا الحرف والصنائع والتجارة. وحلّ التسيّب والفساد محل الانضباط السابق لدى جنود وموظفي الأمبراطورية العثمانية.

وبنتيجة الهزائم الحربية انتفى أهم مصدر لعائدات الطبقة الحاكمة ـ نهب

المغلوبين عسكريًا. فأخذ الولاة والموظفون العثمانيون ينهبون دون رحمة سكان الأمبراطورية الكادحين وبالدرجة الأولى الفلاحين. وجرى بوتائر سريعة خراب الزراعة التي هي أساس اقتصاد الأمبراطورية العثمانية.

ولم تكن الحياة ولا الملكية مضمونة في الأمبراطورية العثمانية. وكان السلطان وولاة الأقاليم والإقطاعيون والموظفون الأصغر غالبًا ما يعدمون الناس لسبب واحد هو مصادرة أموالهم فيما بعد. ولم يتمتع بالأمان الشخصي وحصانة الملكية إلا علماء الدين. وبغية تحاشي المصادرة كان أصحاب المقاطعات المدمرون وصغار المالكين يحيلون مزارعهم ودورهم إلى الأوقاف ويستخدمونها على سبل الإيجار.

وحصلت أقاليم الأمبراطورية العثمانية على المزيد من الاستقلال ووقعت تحت سلطة الكتل الإقطاعية الضارية شبه التابعة. ولا يثير الدهشة أن يفقد الباب العالي السلطة في هذه الظروف على أراضي الجزيرة العربية أيضًا.

صار أشراف مكة يتصرّفون بمزيدٍ من الاستقلال ولا يعيرون اهتمامًا كبيرًا للعثمانيين. وصار السلاطين يمنحون لقب والي جدة إلى أشخاص لا يظهرون في الحجاز على الأغلب، وأخذ أشراف مكة يستأثرون بحصة متزايدة من مداخيل جمارك جدة، وقبائل البدو تسيطر على طرق الحج الأخرى. وكانت متانة موقع الباب العالي في الحجاز آنذاك تحددها ليس قوته العسكرية بقدر ما تحددها مصلحة وجهاء الحجاز والسكان جميعًا بمداخيل الحجاج القادمين بالأساس من الأمبراطورية العثمانية، وبالهدايا الثمينة من السلاطين العثمانيين [١١١]. أما اليمن فقد أحرزت الاستقلال الرسمي والفعلي بعد الغزو العثماني في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

في سبعينيات القرن السابع عشر لمَّ المدعو براك، وهو شيخ أحد أفخاذ قبيلة بني خالد، شمل القبيلة كلها وطرد المفارز العثمانية الصغيرة من واحات الأحساء وحمى شرق الجزيرة حتى من شبح السيطرة العثمانية [١١٢].

وكان تضاؤل التدخل الأجنبي في شؤون الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في

الضعف التدريجي الذي أصاب مواقع البرتغال على سواحل الخليج العربي. وفي أواسط القرن السابع عشر طُرِد البرتغاليون من عمان بعد أن استولوا عليها في القرن السادس عشر. أما الإنجليز والفرنسيون فإن توسّعهم الاستعماري في الجزيرة العربية يعود على الأكثر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان اقتحام الفرس للمدن الساحلية في شرق الجزيرة في مطلع القرن الثامن عشر يجري عرضًا ولم يؤدّ إلى تثبيت أقدامهم في هذه المنطقة من الجزيرة العربية.

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابيين متروكةً لحالها بقدرٍ كبيرٍ طوال عدة عقود من السنين.

نجد والحجاز والأحساء في النصف الأول من القرن الثامن عشر

تعرّض وسط الجزيرة في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر لغزوات جيرانه من الشرق والغرب، مع أن ذلك لم يستبعد بعض الحملات الموفقة التي قامت بها القبائل النجدية على واحات وقبائل الحجاز والأحساء. كان الحجازيون قد هاجموا تقريبًا كل مناطق نجد، وبالدرجة الأولى القصيم، كما هاجموا القبائل البدوية في وسط الجزيرة: عنزة ومطير والظفير. وكان بعض قبائل وواحات وسط الجزيرة: تدفع الإتاوات لحكام مكة. ويذكر ابن بشر بعض الأشخاص من وجهاء الحجاز وينعتهم بأشراف نجد(١١٣).

وفي بداية القرن الثامن عشر تدهورت الحالة الاقتصادية في الحجاز. وبنتيجة المجاعة المرعبة خلت مكة من أهلها (١١٤)، واشتد فيها الصراع من أجل السلطة والنزاعات الداخلية حتى لم يعد بمقدور الحجازيين القيام بحملات على باطن الجزيرة. وكانت آخر الحملات الكبرى على نجد قد قامت في أواسط عشرينيات القرن الثامن عشر(١١٥).

كان براك شيخ بني خالد قد بدأ، بعد أن سيطر على شرقي الجزيرة، بغزوات على البدو المترحّلين بين الأحساء ونجد، ثم بغزوات على نجد. وواصل خلفاؤه

توسّعهم. وتعرّضت الخرج وسدير وثادق والعارض لغزوات الأحسائيين. وفي عام ١٧٢٢ ـ١٧٢٣ توفى زعيم بني خالد بن سعدون عريعر[١١٦]. وأدّت الحزازات التي أعقبت ذلك إلى إضعاف الوحدة لدرجة كبيرة.

ولم تكن في نجد اتحادات كبيرة تلعب دور القوة المسيطرة. فقد احتفظت بعض الواحات والقبائل باستقلالها. وحتى الواحات ـ المدن، مثل العيينة والدرعية والرياض، التي كان مقدرًا لها أن تلعب دورًا مهمًا في الصراع من أجل الزعامة في نجد، لم تكن ترتفع إلى أعلى من المستوى المتوسط. وكانت مزيتها تكمن في أنها جميعًا واقعة في منطقة العارض، وهي المنطقة الوسطى في نجد، حيث تلتقي كل الطرق التجارية. إلا أن الموقع الجغرافي وحده لا يعطي مبررًا للاعتقاد بأنها بالذات كانت تستطيع أن تغدو مركزًا للدولة الموحدة لعموم نجد ناهيك عن عموم الجزيرة.

ومن المستبعد إمكان الموافقة على تأكيد فيلبي من أن الدرعية كانت في مطلع القرن الثامن عشر إحدى المدن التي تدعي السيطرة، ليس في نجد وحدها فحسب، بل أيضًا في الجزيرة العربية كلها[١١٧]. فقد قال مؤلف «لمع الشهاب» إنه لم يكن في نجد «رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم بل كان كل من الحكام حاكم بلده، مدينة كانت أو قرية، وفي بدوها كذلك كل طائفة منهم لها شيخ وكبير يرجع أمرهم إليه... والبلدة إذًا قبائل شتى يرعون البراري والقفار، ويشربون المناهل والآبار وحكومة كل شيخ في قبيلته برضاها فكل من تقدم كرمًا وشجاعة رضوا به كبيرًا لهم. وفيهم مشايخ صغار في القبيلة الواحدة نفسها يخالفون رأي المشايخ الكبار... وكان أهل المدن في نجد دائمًا بعضهم يحارب بعضًا»[١١٨].

كان الوضع في القسم الأوسط من نجد في العقود الأولى من القرن الثامن عشر يتميز بتوازن القوى بين الخصوم الرئيسيين. فقد اجتازت الدرعية توًا مرحلة القلاقل والفتن الداخلية والصراع من أجل السلطة بين الوجهاء الحاكمين. وكان القتل والخيانات تتوالى الواحدة تلو الأخرى، إلى أن صار مؤسس سلالة السعوديين،

سعود بن محمد بن مقرن أميرًا للواحة في العقد الثاني. ويعتبر بعض السعوديين أنفسهم من قبيلة بني حنيفة، بينما يعود بعضهم الآخر بنسبهم إلى عنزة أكبر وأقوى قبيلة في وسط وشمال الجزيرة [١١٩].

لم يكن عهد سعود طويلًا. فقد توفي في حزيران (يونيو) ١٧٢٥[١٢٠]، وبعد وفاته تنافس على رئاسة الواحة عدة أشخاص تنافسًا مستميتًا. واقترن الصراع بينهم بخيانات متبادلة وقتل عدة أشخاص لبعضهم بعضًا. وأخيرًا شغل مكان سعود ابن عمه زيد[١٢١].

كان حكام العيينة في تلك السنوات مشغولين بالحروب ضد جيرانهم في منفوحة وثادق، وكذلك ضد القبائل البدوية في أطرافهما. ولم تتجاوز العمليات الحربية نطاق الحملات المحلية. وفي عام ١٧٢٥ ـ ١٧٢٦ اجتاح العيينة وباء الكوليرا [١٢٢]. وكانت الضربة التي تلقتها شديدة لدرجة جعلتها تخرج لسنواتٍ طويلةٍ من الصراع في سبيل السيطرة على وسط نجد.

وانتهز زيد هذه الفرصة فهاجم الواحة الخالية في العام التالي. وأعرب أمير العيينة محمد بن معمر عن استعداده للخضوع له، ولكنه استدرج الدرعيين إلى منزله وقتل زيدًا. وتمكن محمد بن سعود من الفرار مع جماعة من المحاربين. فصار أميرًا للدرعية[١٢٣].

وفي أواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات استولى على السلطة في الرياض دهام بن دواس وهو رجل همام نشيط ظل طوال عدة عقود من أشد خصوم الدرعية تصلبًا. وإليكم قصة توليه السلطة كما كتبها ابن غنام: «كان أبوه رئيسًا في بلد منفوحة متغلبًا عليها فقتل أناسًا من جماعته من المزاريع ظلمًا وعدوانًا، وبقي بعد ذلك زمانًا ثم مات. وتولى بعده ابنه محمد، فقام عليه ابن عمه زامل بن فارس، هو وبعض أهل منفوحة فقتلوه وأجلوا إخوانه، ومن جملتهم دهام وإخوته، فاستوطنوا الرياض وكان واليها إذ ذاك زيد بن موسى أبا زرعة. فلما قتل زيد المذكور على غير سبب مأثور، وكان الذي قتله أحد أبناء عمه، وكان معتوه العقل صعد إليه وهو نائم في علية له

فذبحه بسكين معه. فلما قتله جاءه عبد لزيد يقال له خميس فقتله... فتغلب العبد المذكور على بلد الرياض، وكان أولاد زيد إذ ذاك صغارًا وزعم أنه قابض لهم حتى يتأهلوا لذلك. فأقام واليًا عليها مدة يسيرة نحو ثلاث سنوات ثم هرب خميس من الرياض خوفًا من أهلها لأمور جرت منه فأقام في الحاير مدة ثم أتى منفوحة فأقام بها مدة، ثم عدا عليه رجل من أهلها كان قتل أباه زمن رياسته على الرياض فقتله ثم بقيت الرياض مدة يسيرة بلا رئيس، وكان دهام بن دواس مدة تغلب خميس على الرياض خادمًا له. فلما بقيت الرياض بعد هروب خميس بلا رئيس ترأس فيها دهام بشبهة أن ابن زيد أبا زرعة هو ابن أخت دهام، فزعم أنه يكون نائبًا عنه في ذلك حتى يكبر ويعقل ثم بعد ذلك يتخلى له عن الولاية فأجلاه عن البلاد. كرهه أهل الرياض وسعوا في عزله إذ لم يكن لهم حيلة إلى قتله، فاجتمعوا عليه واحاطوا بقصره وحصروه فيه، وكانوا عامة وغوغاء ليس لهم رئيس. فأرسل أخاه مشلبًا راكبًا فرسًا إلى محمد بن سعود أمير الدرعية يطلب منه النجدة والنصرة على تلك الرعية... فقام له محمد بالنصرة أتم قيام، وأرسل إليه من الجنود فئام ورئيسهم مشاري بن سعود، فبلغ دهام بمجيئهم المرام والمقصود، فخرج من قصره مع تلك الجنود وقتلوا من أهل الرياض ثلاثة أو أربعة رجالٍ ثم فروا بلا توانٍ ولا إمهالٍ، فبعدها قر ملكه فيها وأقام رئيسها وواليها وأقام مشاري عنده شهورًا، ولم يتوقع ما صدر من الخبيث الشرور، فاستفحل أمره وتعاظم فجره ونكره وتزايد على الرعية شره وتوالى عليهم ضره وتظاهر بأمور وأعلن بفجور تحاكي الأفعال النمرودية والقضايا الفرعونية: فمنها أنه غضب يومًا على امرأة فأمر بفمها أن يُخاط... ومنها أنه غضب يومًا على رجل فقطع من فخذه قطعة وقال: لا بد أن يسيغها مضغةً مضغة. فحاول الرجل المعذّب بعد أن لم يجد له مهربًا أن يأكلها بعد أن تُشوى فلم يسعفه بذلك أكلها، نعوذ بالله من البلوى. ومنها أنه غضب يومًا على رجل مسجون ذكر له أنه فك بأسنانه الحديد، فأمر بمقمعة من حديد فضُرِبت بها أسنانه... ومنها أنه غضب على رجل آخر فأمر بقطع لسانه فقطعه بعض أعوانه، وله قضايا مثل هذه كثيرة»[١٢٤].

هذا المقتطف من ابن غنام عن تولي دهام بن دواس السلطة، وكذلك المواد

الخاصة بتطور الأحداث في الدرعية والعيينة، إنما تكشف عن الصراع من أجل السلطة والنزاعات الضارية والغزوات المدمرة المتبادلة والنهب والسلب، مما صار من أصول الحياة السياسية في نجد في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ومما ساعد على تزعزع الحكم عدم الوضوح والدقة في حق الميراث. فلا يندر أن يهب إخوة الحاكم المتوفى وأبناء عمومته ضد أبنائه. ولا يمكن تفسير استيلاء عبد على السلطة في الرياض في تلك الحقبة إلا بتزعزع نظام الإدارة الإقطاعية في الواحات.

وقد بلغ تعسّف الوجهاء وطغيانهم في الواحات أقصى الحدود، واتخذ الاستغلال طابعًا وحشيًا. وهناك مبررات للقول بأن اشتداد استغلال المزارعين من قبل الإقطاعيين آنذاك قد أدّى إلى اشتداد الصراع الطبقي. فقد كتب ابن غنام عن انتفاضة السكان المتذمرين من دهام إلى حد الغليان، ويمكن اعتبار إرسال ابن سعود أخاه لنجدة دهام مظهرًا للتضامن الطبقي بين الإقطاعيين. ويبدو أن بعث الوهابيين للأصول الإسلامية القديمة التي تحرم الفوائد الربوية كان رد فعل على تعسّف المرابين القاسي.

وفي القرن الثامن عشر تدهور الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. وكان الركود الاقتصادي في الأمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر ودمار القوى المنتجة وتقلص التجارة كل ذلك قد أدّى في بعض الأحيان إلى تقلص مشتريات واسطة النقل الرئيسية؛ الإبل. وتدهورت التجارة مع الهند عبر الحجاز[١٢٥]. وكانت النزاعات والحزازات في الأمبراطورية العثمانية والخراب الذي أصاب السكان قد أدّت إلى تقلص الحج. وكانت لذلك كله آثار أليمة على بدو الجزيرة.

ويمكن الافتراض بأن الحروب العثمانية الفارسية المدمرة في مطلع القرن الثامن عشر قد تركت أثرًا فتاكاً على الحج من إيران والعراق، الأمر الذي انعكس على مداخيل سكان نجد. وفي هذه الظروف، على ما يبدو، شدّد البدو من نهب السكان الحضر المحليين والقوافل النادرة.

وما كان بالإمكان تحقيق الاستقرار السياسي ووقف النهب البدوي وتأمين سلامة الروابط التجارية إلا في ظل دولة مركزية. وكان بوسع سياسة التخفيف من الظلم الذي تعرّض له السواد الأعظم من السكان، أن تؤمن لمثل هذه الدولة دعمًا جماهيريًا. ولكن كان من اللازم العثور على مصادر خارجية، أي على غنائم الحرب، لأثرياء الوجهاء وعدم الإضرار بمصالحهم. وفي هذه الفترة وُلِدت في نجد حركة دينية جبارة نشأت على أساسها دولة مركزية كبرى.

الفصل الثاني

محمد بن عبد الوهاب ومذهبه

حياة مؤسس الوهابية قبل بدء نشاطه السياسي

كتبت «مجلة المنوعات الأدبية» الروسية في عام ١٨٠٥ تقول «قبل حوالى نصف قرن أسّس هذه الطائفة ـ المقصود الوهابية ـ شيخ عربي اسمه محمد. ويؤكد الوهابيون انه ابن عبد الوهاب بن سليمان. وتقول روايةٍ قديمةٍ إن سليمان هذا، وهو اعرابي فقير من قبيلة نجدية صغيرة، قد رأى في المنام أَن لهباً اندلع من بدنه وانتشر في البراري على مسافات بعيدة ملتهمًا في طريقه الخيام في البوادي والمنازل في المدن. ارتعب سليمان من هذا الحلم وطلب له تفسيرًا من شيوخ قبيلته الذين اعتبروه بشير خير، وأخبروه بأن ابنه سيكون مؤسسا لمذهب جديد يعتنقه أعراب البادية وأن هؤلاء الأعراب سيخضعون سكان المدن. وقد تحقق هذا الحلم ليس بشخص ابن سليمان عبد الوهاب، بل بشخص حفيده الشيخ محمد[١]. هذه الرواية تجسد جيدًا نفح تلك الحقبة، مع أن جفاف الوقائع التاريخية يخلع عما كتبته المجلة هالة الغيبية.

ولد مؤسس التيار الديني والاجتماعي والسياسي الذي يسمى بالوهابية في الجزيرة العربية عام ١٧٠٣-١٧٠٤ في عائلة دينية في العيينة[٢]. كان والده عبد الوهاب بن سليمان قاضيًا شرعيًا. وكان هو المعلم الأول لابنه. وكان أخوه سليمان بن عبد الوهاب قد ذكر للمؤرخ ابن غنام ان مؤسس الحركة الإسلامية الجديدة المرتقب قد كشف في طفولته عن مواهب كبيرة وحفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة من العمر. واطلع الصبي على تفسير القرآن والحديث وسيرة النبي. وفي الثانية عشرة بلغ محمد سن الرشد فزوجه أبوه.

بعد الزواج أدّى فريضة الحج بموافقة أبيه. وفيما بعد قضى شهرين في المدينة المنورة ثم عاد إلى أهله. وطاف كثيرًا في الأقطار المجاورة وزار الحجاز والبصرة مرارًا ثم عاش في الأحساء[٣].

وتعلم في المدينة على يد شخص يدعى عبد الله بن إبراهيم بن سيف، وهو من وجهاء واحة المجمعة في سدير. وتحدث الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيما بعد قائلًا: «كنت عنده يومًا فقال لي: تريد ان أريك سلاحًا أعددته للمجمعة؟ قلت: نعم. فأدخلني منزلًا عنده فيه كتب كثيرة. وقال: هذا الذي اعددنا لها...»[٤]. ولمح ابن عبد الوهاب بذلك إلى أن معلمه في المدينة كان يعد «سلاحًا فكريًا» لمحاربة المعتقدات السائدة في واحته.

وعندما كان ابن عبد الوهاب في البصرة دعا للعودة إلى أصول التوحيد الحقيقي في الإسلام. «وتجمع عليه أناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الاذى وأخرجوه منها»[٥]. وفي الطريق من البصرة إلى الزبير كاد يموت عطشًا، إلا أن أحد سكان الزبير أنقذه [٦].

وبعد ذلك عاش ابن عبد الوهاب بعض الوقت في الأحساء عند العالم الديني عبد الله بن عبد اللطيف. ثم توجه إلى واحة حريملا في نجد. وفي عام ١٧٢٦-١٧٢٧ انتقل إلى هذه الواحة أبوه عبد الوهاب بسبب خلافه مع حاكم العيينة الجديد الذي استولى على السلطة بعد وفاة الأمير السابق حامي العلماء[٧]. وفي حريملا أخذ محمد بن عبد الوهاب يبشر بأفكاره بنشاط جديد، حتى أنه كان يتجادل مع أبيه. وأمضى في هذه الواحة عدة سنوات، وفي هذه الفترة ألف «كتاب التوحيد». ويقول ابن غنام عنه: «اشتهر حاله في جميع بلدان العارض في... العيينة والدرعية ومنفوحة... وكان الناس عند ذلك حزبين وانقسموا فيه فريقين فريق أحبه وما دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه وفريق أنكر ذلك عليه»[٨].

وفي عام ١٧٤٠- ١٧٤١ توفى عبد الوهاب فصار محمد، على ما يبدو، قاضيًا بدل أبيه. وكانت حريملا آنذاك مقسمة بين فخذين ربما كانا مستقلين إحداهما عن

الأخرى. وأثارت دعوة محمد بن عبد الوهاب تذمر بعض سكان الواحة. ويقول ابن بشر: «وكان في البلد عبيد لإحدى القبيلتين يقال لهم الحميان كثير تعديهم وفسقهم، فاراد الشيخ أن يمنعوا عن الفساد وينفذ فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهمّ العبيد ان يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سرا»[٩]. ونجا ابن عبد الوهاب بالصدفة واضطر للفرار إلى العيينة[١٠].

وكتب المستشرقون الأوروبيون عن رحلات ابن عبد الوهاب إلى بغداد وبعض المدن الإيرانية ودمشق. وانعكست هذه المعلومات كذلك في «دائرة المعارف الإسلامية». وفي عام ١٩٣٣ كتب المستشرق المعروف مارغوليوث عن هذه الرحلات في مقالة بعنوان «الوهابية»اعتمد فيها على مصنّف «لمع الشهاب».

ويفيد «لمع الشهاب»ان ابن عبد الوهاب توجه في رحلته وهو في السابعة والثلاثين من العمر، أمضى ست سنوات تقريبًا في البصرة، وخمس سنوات في بغداد وحوالى السنة في كردستان وسنتين في همدان (إيران). وفي بداية عهد نادر شاه انتقل إلى أصفهان حيث أمضى سبع سنوات، وعاش في قم ومدن إيرانية أخرى، وقضى ستة أشهر في حلب وسنة في دمشق وبعض الوقت في القدس وسنتين في القاهرة، ثم وصل إلى مكة وعاد إلى نجد، وأمضى سنة ونصفًا أو سنتين في اليمامة، وفي سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧ـ ١٧٣٨ ميلادية) استقر في العيينة. وتوفى في سنة ١٢١٢ (١٧٩٧ـ ١٧٩٨) كما يقول صاحب «لمع الشهاب». ويؤكد مؤلف هذا الكتاب ان محمد بن عبد الوهاب كان يغير اسمه طوال الوقت. ففي البصرة اسمه عبد الله، وفي بغداد أحمد وفي كردستان محمد وفي همدان يوسف[١١]. وتبين عملية جمع بسيطة ان ابن عبد الوهاب، كما يقول صاحب «لمع الشهاب» ، كان يجب أن يقضي في أصفهان وقم وحلب ودمشق والقدس والقاهرة ما لايقل عن ١١-١٢ عامًا. وهذا يجعل عودته إلى نجد تتم في أواخر الأربعينيات، الأمر الذي يتعارض حتى مع التاريخ الوارد في «لمع الشهاب»بعد سطرين من ذلك.

وينسب مؤرخو الوهابية ومنجين عودة ابن عبد الوهاب إلى نجد إلى الثلاثينيات.

ويؤكد أخبارهم كذلك المؤرخ الحجازي في القرن التاسع عشر ابن زيني دحلان. فقد كتب ان ابن عبد الوهاب بدأ يبشر بمذهبه في نجد عام ١٧٣٠-١٧٣١[١٢].

وغدت مصنّفات الوهابيين معروفة لدى أغلبية المستشرقين الأوروبيين على أثر صدور «دائرة المعارف الإسلامية». ونجد في طبعتها الجديدة مقالة أ. لياوست المكرّسة لمحمد بن عبد الوهاب والمعتمدة على ابن غنام وابن بشر[١٣].

إن الزعم بأن محمد بن عبد الوهاب صار حنبليًا أثناء رحلاته، ولا سيما في قم التي هي أحد مراكز الشيعة، لا يصمد للنقد، وذلك على الأقل لأن أغلب علماء واحات نجد، ومنهم أسلاف ابن عبد الوهاب كانوا حنبليين. زد على ذلك أن مؤلفاته ليس فيها ما يدل على اطلاعه على أرسطو ولا على دراسة الصوفية.

كان مؤلف مخطوطة «لمع الشهاب»من خصوم الوهابيين. ولذلك يمكن الافتراض بأنه لم يكن قد حضر مجالس محمد بن عبد الوهاب وإن كان معاصرا له، وأن معلوماته عن حياته ليست من مصدرها الأول.

إلا أن ما كتبه مؤرخو نجد عن مكوث محمد بن عبد الوهاب في جنوب العراق وشرقي الجزيرة كان شحيحًا جدًا. ولا يستبعد ان العالم الديني الشاب النشيط النابه استطاع ان يصل مع القوافل إلى بغداد وإلى المدن الإيرانية القريبة وإلى الشام. وقد كتب عن هذه الإمكانية، مثلًا، المؤرخ الدقيق للدولة السعودية الأولى منير العجلاني[١٤].

وقد أثرت رحلات محمد بن عبد الوهاب الطويلة وإقباله ومثابرته على دراسة الفقه تأثيرًا حاسمًا على تكوين مذهبه. فقد تهيأت له إمكانية الاطلاع على المذاهب والمعتقدات الدينية في الجزيرة والبلدان المجاورة وتحديد موقفه منها ودراسة العلوم الدينية وتفسير القرآن والحديث وشروحه وجمع الحجج اللازمة لوضع مذهبه. وأخذ هذا المذهب يعبر عن خط معين في تطور الإسلام بالاستناد إلى الظروف الملموسة للحياة الاجتماعية والسياسية والروحية في الشرقين الأدنى والأوسط عمومًا وفي وسط الجزيرة العربية خصوصًا.

السنة والبدع في تاريخ الإسلام

كان الدين في القرون الوسطى هو الشكل السائد للمعتقدات الايديولوجية. وكانت التيارات السياسية والاجتماعية تتخذ أشكالًا دينية أو تتستر بزي ديني. وكان البحث عن أشكال ايديولوجية جديدة ولبوس ايديولوجي جديد للتعبير عن المضمون الاجتماعي الجديد قضية معقدة وطويلة الأمد وغير محمودة العاقبة. وكان ذلك يحدث عادة مع أكبر الانقلابات التاريخية فقط. فالحركات الاجتماعية والسياسية الصغيرة كانت مضطرة إلى الاكتفاء بالأزياء الايديولوجية القديمة. وغالبًا ما كانت تستخدم المذاهب الدينية السائدة. وهذا أمر يلازم تاريخ الأقطار الإسلامية بقدر أكبر مما يلازم تاريخ البلدان المسيحية.

ظهر الإسلام في المجتمع الحجازي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي، وقد جسد، فيما جسد، التمايز الاجتماعي البدائي. ولذا لم يستطع النظام الديني للعرب المتجلي في القرآن وحده في بادىء الأمر ان يلبي بالكامل متطلبات المجتمع الأكثر تطورًا في البلدان الأخرى التي فتحوها. ودعت الحاجة إلى إضفاء طابع على الإسلام يستجيب بقدر أكبر لذلك المجتمع الإقطاعي ولمصالح طبقته الحاكمة. وهذا هو منشأ الكثير من الأحاديث عن سيرة النبي ونشاطه. وغدت تلك الأحاديث بمثابة مجموعة قوانين السلوك والاراء المعتمدة على سلوك وآراء الرسول لأحوال الحياة كافة. وأطلق على هذه القوانين اسم «السنة».

وانتهى وضع الأحاديث على وجه التقريب في مطلع القرن العاشر الميلادي، أي بعد حوالى ثلاثمائة عام من ظهور الإسلام.

كان عدد الأحاديث ضخمًا جدًا. وهي حتى بالشكل الذي جمعت فيه واقرت حسب الأصول الإسلامية تتضمن الكثير من الغموض والمتناقضات. وحتى الأحاديث الواضحة كانت تفسر بأشكال مختلفة لصالح مختلف الفئات والجماعات، وبموجب ظروف المكان والزمان. وفيما بعد أخذ كل تيار ديني يجد لنفسه احاديث تبرر توجهاته. واستخدم تفسير القرآن على هذا النحو أيضًا. لذا يمكن بخصوص تطور

الفقه تكرار ما قاله الباحث المجري أ. غولدزيهير: «إن تاريخ الدين... هو في الوقت ذاته تاريخ تفسير التنزيل»[١٥].

وتجسدت في السنة التقاليد الثابتة. إلا أن تغير ظروف الحياة استوجب تغيير العادات وتغيير التقاليد على أثرها. ويجري تكيف الإسلام للواقع المتغير عن طريق تبريك التقاليد الجديدة واثبات مطابقتها للسنة. ويتحقق ذلك بواسطة اجماع الفقهاء أو بواسطة القياس.

أما المستجدات التي لم يرد ذكرها في الأحاديث الصحاح فتنعت بالبدع. وتبقى البدعة على طرفي نقيض مع السنة ما لم يتم الاجماع عليها. وتعني البدعة رأيًا أو شيئًا أو عملًا لم يكن معروفًا في السابق أو لم تجر العادة على ممارسته.

وهكذا كان تبريك البدعة وتحويلها إلى حديث هو جواب الدين الإسلامي على تغير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحيه وهو رد فعل الإسلام على الواقع المحيط به وتكيفه لمتطلبات المكان والزمان.

وفيما يخص مسألة فهم السنة، والموقف من البدع بالأساس، نشأت في الأصولية الإسلامية (السنية) أربعة مذاهب، وأكثرها مرونة بهذا الخصوص المذهب الحنفي وأكثرها تشددًا الحنبلي الذي رفض البدع رفضًا باتًا. وتعتقد الحنبلية ان ما ينص عليه القرآن والسنة فقط، وبالشكل الذي ينصان عليه فقط، هو الشرعي من وجهة نظر الممارسة الدينية. بديهي أن الحنبلية تتناول طائفة واسعة من المسائل داخل الإسلام، وان اختلافها مع المذاهب الأخرى يشمل ميادين متفرقة، إلا أن ما يميزها هو رفض البدع.

ولكن من الصعب جدًا البقاء على هذه المواقف المتشددة التي ترفض كليًا إمكانية تكيف الإسلام لمتطلبات الحياة. ولذا اضطرت الوهابية فيما بعد (وهي، كما سنرى، شكل متطرف للحنبلية) إلى استحسان الإذاعة والتلفون والتلفزيون وقوانين العمل والضمان الاجتماعي. بيد أن رفض البدع حول الحنبلية مع ذلك إلى المذهب الأكثر تشددًا من المذاهب الإسلامية، مما أدّى إلى ضيق انتشاره وظل الحنبليون

المتشددون يشكلون طائفة صغيرة في مواجهة المذاهب الإسلامية الأخرى لأنهم انطلقوا من مواقف الأصولية المتناهية. في حين كانت تعاليم الطائفية والشرك بمثابة النوافذ التي يتسرب منها التذمر. ولا يندر ان تنضوي حركات المظلومين تحت راية معتقدات الطوائف.

وكان من البدع التي دخلت الإسلام تقديس الأولياء. وإذا كان الرومان يدرجون في عداد آلتهم آلهة المناطق التي يلحقونها بامبراطوريتهم من أجل تقوية التأثير الايديولوجي على المؤمنين في تلك المناطق، فإن المسيحية سلكت لهذا الغرض طريق عبادة الأولياء المحليين. وحلّ محل عبادة الآلهة المحليين تقديس القديسين المسيحيين الذي تشبع بالعبادات السابقة بعد تغييرها بالشكل المناسب. وسار الإسلام على طريق مماثل. إن تقديس الأولياء في الإسلام ذو أصل محلي جاهلي بالأساس. ولكن الأولياء وأنصار النبي وأبرز الفقهاء أزالوا أصنام الجاهلية والقديسين المسيحيين وحلّوا محلهم. وبعد أن تشرب الإسلام بتلك العبادات غدا دينا شاملًا عزيزا على جماعات واسعة في مختلف المناطق والأصقاع.

وكان انتشار تقديس الأولياء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنشاط متصوفي الإسلام. فقد نسبوا إلى الأولياء القدرة على اجتراح المعجزات مجتذبين جماهير المؤمنين. وقال المتصوفة ان بلوغ الحقيقة الإلهية غير ممكن إلا بالحدس والإشراق الذي يتحقق بمختلف الوسائل. والإنسان يلتزم بالتقشف كي يندمج بالخالق. وأبدى المتصوفة، وخصوصًا في الفترة المبكرة، ازدراء باعتبارات المجتمع القائم واستهانوا بالشعائر الإسلامية المقننة.

في القرن الحادي عشر أدخل الغزالي، الذي هو بمثابة توماس الاكويني في المسيحية بعض عناصر التصوف إلى الأصولية الإسلامية، ومنها الحب الغيبي للخالق. وفي الوقت نفسه أدرج الغزالي في الإسلام بعض الأفكار العقلانية التي قال بها الأشعري فقيه القرن العاشر الميلادي. وهكذا نشأ بالخطوط العريضة مذهب سني شامل يضم ليس فقط الجانب الديني الشعائري، بل وكذلك الفلسفة والقانون والشريعة، والمبادىء السياسية والأصول المعيشية وآداب السلوك.

وكان من ممثلي الاتجاه المتطرف في الحنبلية الفقيه الشامي تفي الدين بن تيمية (القرن الرابع عشر). وهو من أهم الشخصيات وأكثرها تناقضا في الفقه والفكر الفلسفي الإسلامي.

ففي الفقه كان في خطبه ومؤلفاته ينادي بتغيير أشكال الأصولية الإسلامية القائمة آنذاك ويضع السنة والبدع على طرفي نقيض بشكل قاطع. وقد عارض كل البدع التي تبتعد عن أصول الإسلام في النظرية والتطبيق. كما عارض ابن تيمية إدراج آراء العشرين الفلسفية في الإسلام. وعارض المتصوفة كما رفض تقديس الأولياء والرسول. وشجب زيارة قبر الرسول في المدينة المنورة قائلًا بأنها لا تطابق الإسلام، مع أنها صارت تعتبر منذ سنوات طويلة عملًا متممًا لحج بيت الله.

ورفض ابن تيمية آراء العلماء الذين استخدموا الاجماع ليضفوا طابعًا شرعيًا على مثل هذا التقديس. واستند إلى السنة وحدها. وصار عماد الدين الحنيف، الغزالي، هدفًا للحنبليين «الجدد»من أتباع ابن تيمية. وكان من شدة تطرف ابن تيمية انه اختلف في بعض المسائل حتى مع الحنبليين.

ولم يحظ هذا الفقيه الشامي بالاعتراف في حينه، فقد كانوا يجرجرونه من محكمة دينية إلى أخرى حتى مات في السجن عام ١٣٢٨ بعد أن ترك حوالى ٥٠٠ مؤلف. وكانت جماعة صغيرة من أتباعه، واولهم وابرزهم ابن القيم، قد أحاطت اسمه بهالة من التقديس. ويقول غولدزيهير «إن تأثيره فيما بعد استمر بصورة خفية طوال أربعة قرون. وكانت مؤلفاته موضع بحث دقيق وقد لعبت في الأوساط الإسلامية دور القوة الصامتة التي تفجر العداء للبدع من حين لآخر»(١٦).

الإسلام في الأمبراطورية العثمانية

أصبحت الحنفية المذهب الرسمي للإسلام في الأمبراطورية العثمانية. وهي أكثر المذاهب الأربعة مرونة، مع أن المذاهب الأخرى كانت تحظى بالاعتراف. وتعود الصياغة النهائية للنظام الديني هنا إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واتخذ السلطان العثماني لنفسه لقب خليفة المسلمين ليعزز مكانته بذلك.

كان علماء الدين من أكثر جماعات السكان نفوذًا في الأمبراطورية. وكان على رأس علماء الدين هناك مفتي الآستانة شيخ الإسلام الذي يضاهي منصبه منصب الوزير الأول. ويأتي بعده قاضيان ثم سائر علماء الدين الكبار. وحاول الباب العالي ان يشرف على العلماء عن طريق المصادقة على تعيين القضاة المحليين الذين يمارسون الرقابة على الشؤون الحقوقية والإدارية والمحتسبين الذين يتابعون التزام المؤمنين بمبادىء الأخلاق ويراقبون المنظمات الحرفية للصناع والتجار.

وكان الانحلال العام في الأمبراطورية العثمانية قد أصاب علماء الدين المسلمين أيضًا. وان فساد العلماء وجشعهم وظلمهم قد ألب السكان عليهم.

وكان شيوخ المتصوفة الذين تخلوا في القرن الثامن عشر عن الكثير من مواقفهم المعارضة للسنة قد اقتسموا الجاه والمال مع علماء الدين في الأمبراطورية العثمانية في القرن المذكور. وغطت الأمبراطورية شبكة من جماعات الدراويش المتصوفة. وازداد عدد الدراويش كثيرًا آنذاك، وارتبط بجماعاتهم كثير من المنظمات الحرفية والمهنية وسكان بعض الأماكن. وقد اشتهرت على نطاق واسع، مثلًا، صلات جماعة الدراويش البكتاشيين مع الانكشارية.

وكان المتصوفة ما يزالون كالسابق يعلقون أهمية استثنائية على تقديس الأولياء الذين يضمون، عندهم، كل الأنبياء من آدم حتى محمد وكثيرًا من الصوفيين المشهورين. وكان هناك أولياء على قيد الحياة. وأيد علماء الدين السنة كذلك تقديس الأولياء، وكل من عارض ذلك كان يجازف بالوقوع ضحية في أيدي المتعصبين. وكان المتصوفة ينشدون الأغاني ويعزفون على الآلات الموسيقية. وكان بعضهم يتعاطى المشروبات الكحولية ويدخن السجائر والممخدرات. كما كانوا يمارسون علم التنجيم والسحر وقراءة الفال.

كانت للجزيرة العربية علاقات واسعة في ميدان الفكر والثقافة، فضلًا عن العلاقات الاقتصادية والسياسية، مع البلدان الأكثر تطورًا في الشرقين الأدنى والأوسط. ومع ذلك فإن بعض العزلة لهذه الجزيرة الشاسعة وخصائص نظامها الاجتماعي قد ولدت الكثير من الأشكال الخاصة للحياة الروحية هناك.

المعتقدات والعبادات في الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابية

مما يثير الانتباه انتشار الحنبلية في واحات نجد، وكان ذلك ظاهرة فريدة بالنسبة للعالم الإسلامي. وعندما يذكر مؤرخو الوهابية وفاة الأشخاص المشهورين في عصرهم لا ينسون العلماء الحنبليين. فما هي أسباب بقاء الحنبلية في هذه الأرجاء؟

ان وسط الجزيرة المعزول بحكم طائفة من الملابسات عن المناطق الأخرى الأكثر تطورًا في الشرق الأوسط لم يبتعد كثيرًا عن مستوى النظام الاجتماعي الذي كان قد بلغه الحجاز في فجر الإسلام، أي مستوى المجتمع البدائي لدرجة كبيرة.

وفي العقائد الإسلامية المبكرة التي وضعت في القرون الأولى لنشوء الإسلام كثير من الأشكال الفكرية للعلاقات الاجتماعية للحجاز في فجر الإسلام، ومن أعراف وعادات مكة والمدينة التي باركتها الأحاديث. ولما كانت الحنبلية تعترف من حيث المبدأ بالإسلام المبكر فقط فقد كانت على العموم تستجيب لحاجات مجتمع وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر.

كان وسط وشرق الجزيرة مهملين دومًا من الأمبراطوريات الإسلامية في الشرق الأوسط. وقد حافظا على أصالتهما. لذا كانت هناك ظروف ملائمة لمختلف تيارات «الزندقة» مثل الخوارج والأباضية. وخلال حقبة طويلة ظلّت قائمة في الأحساء دولة القرامطة القوية ذات التركيب الاجتماعي الفريد.

أما بخصوص المناطق الأخرى في الجزيرة فإن قسمًا كبيرًا من سكان عمان كانوا ينتمون إلى الطائفة الأباضية، وفي اليمن كانوا ينتمون إلى الطائفة الزيدية الشيعية المعتدلة. وفي المناطق الشرقية والشمالية الشرقية للجزيرة والمرتبطة مع جنوب العراق ومع إيران كان الكثير من العرب من الشيعة. وفي بعض مناطق اليمن ونجران كان يقطن اليهود[١٧]. ويقول نيبور إنه يصادف وجود صائبة في الأحساء[١٨].

إن الأغلبية في مدن وواحات الحجاز تتكون من المسلمين من مختلف المذاهب الأصولية.

وكانت جميع المذاهب الإسلامية في الجزيرة تتعايش بوئام مع عبادة الأولياء المنتشرة على نطاق واسع في الجزيرة كلها، بل حتى مع بقايا عبادة الأوثان. وقد ترك لنا ابن غنام وصفًا مفصلًا لمعتقدات سكان الجزيرة العربية[١٩]. فقد كتب عن الفترة التي ظهر فيها محمد بن عبد الوهاب يقول: «كان غالب الناس في زمانه متضمخين بالأرجاس متلطخين بالأنجاس... فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين...«وكانوا يترددون على الأولياء أو على أضرحتهم طالبين منهم عمل الصالحات أو تخليصهم من المصائب والخائبات، ويرجون ذلك من الأحياء والأموات. وكثير منهم «يعتقد النفع والأضرار في الجمادات كالأحجار والأشجار... ولعب بعقولهم الشيطان... وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه إلى سواه وزادوا على أهل الجاهلية».

«وكان في بلدان نجد من ذلك أمر عظيم والكل على تلك الأحوال مقيم». وفي وادي حنيفة كان هناك ضريح زيد بن الخطاب. وكانوا يترددون عليه راجين تخليصهم من المصائب والنكبات. وفي الجبيلة والدرعية كانوا يقدسون قبورًا دفن فيها، كما يقال، بعض أنصار الرسول. وفي منطقة الفدا كانت تنمو نخلة يأتي إليها الرجال والنساء يطلبون التبريك ويقومون «بأقبح الأفعال». وتتقاطر على النخلة النساء العانسات وكل منهن تصيح «أريد زوجًا...». وكان الناس يلتفون حول النخلة ويعلقون عليها الزينة.

وعلى مقربة من الدرعية كان هناك غار مقدس يسمى غار بنت الأمير يتركون فيه الخبز واللحم. ويقال إن بعض الارجاس ارادوا ذات مرة ان يوقعوا ببنت الأمير، فاستعانت بالله وانفتح الجبل أمامها عن الغار الذي صار محجة للعباد. وفي الخرج على مقربة من الدرعية، كان يعيش ولي اسمه تاج. وكانوا يتوجهون إليه طلبًا للتبريك ويرجونه تحقيق المعجزات وإزالة الغمة. وكانوا يدفعون له لقاء ذلك. اشتهر الولي بأنه اعمى ولكنه يسير من غير قائد يقوده. وكان الحكام المحليون يخافونه.

وفي مكة يوجد ضريح أبي طالب وقبر ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وقبر

خديجة وغيرهما. وكان الرجال والنساء يخاطبون هذه القبور بصيحات عالية طالبين منها العون. وكان الشيء نفسه يجري عند قبر عبد الله بن عباس في الطائف. ويقال إن «قبر حوى» موجود في جدة. وانشىء هناك معبد يأوي إليه المفلسون والمدينون واللصوص. وحتى الشريف لا يستطيع إخراجهم منه. ففي عام ١٧٩٦/١٧٩٥ التجأ إلى هذا المعبد تاجر بلغت ديونه ٧٠ ألف ريال، وبذلك أرغم دائنيه على تأجيل الدفع.

وكانت القرابين تذبح عند قبور الأولياء.

وفي اليمن كانت تجري مواكب يطعن المشاركون فيها أنفسهم بالسكاكين.

وسمع ابن غنام عن عبادة الأولياء خارج الجزيرة أيضًا. ففي الشام ومصر الأمثلة على ذلك كثيرة حتى أن المؤرخ لم يذكرها. وأعرب عن استيائه كذلك من عبادة ضريح الإمام علي في العراق. وكتب يقول إن الشيعة كأنما يعتقدون بأن زيارة هذا الضريح أفضل من سبعين حجة. ويذكر ابن غنام الأضرحة والمساجد الكثيرة حول قبور الأولياء في البصرة والساحل الشرقي من الجزيرة العربية والبحرين.

وتوجد معطيات تفيد بوجود المتنبئين في بعض الأماكن. وقد شجعهم محمد ابن عبد الوهاب بحزم[٢٠].

وقال عبد الرحمن بن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب ان الأعراب كانوا آنذاك ينحرون القرابين للجن ويطلبون منها أن تشفيهم من الأمراض[٢١]. وكتب بلغريف يقول: «قبل ظهور الوهابية كان سكان الجوف (في شمال الجزيرة)، شأنهم شأن جميع سكان الجزيرة، قد انهمكوا في عبادة شبه وثنية وراحوا يقدسون الجني المحلي». وحتى بعد مرور أكثر من مائة عام على ظهور الوهابية كان سكان الجوف، كما لاحظ بلغريف، «شأن أغلبية اشقائهم قد استبدلوا من زمان المحمدية بالصنمية المحلية والعبادة شبه السبائية والابتهالات الموجهة إلى الشمس ونحر القرابين للموتى»[٢٢].

البدو والإسلام

يشير جميع دارسي الجزيرة العربية إلى أن الإسلام يغرس بصعوبة بين البدو. وقد أشار فولني في حينه إلى موقف البدو اللامبالي من الفرائض الإسلامية. «فالبدو القاطنون على الحدود مع العثمانيين يتظاهرون بأنهم مسلمون لاعتبارات سياسية، ولكنهم ضعيفو الإيمان وتدينهم ضعيف إلى درجة يعتبرون معها كفرة ليس لديهم نبي ولا قانون. وهم بأنفسهم يعترفون بأن دين محمد فوق مستواهم. فكيف نقوم بالوضوء إذا كنا لا نمتلك ماء؟ وكيف نقدم الصدقة إذا كنا لسنا أغنياء؟ وما حاجتنا إلى الصيام في شهر رمضان إذا كنا صائمين طوال العام؟ ولماذا نذهب إلى مكة إذا كان الله موجودًا في كل مكان؟» [٢٣].

ويقول بوركهاردت ان البدو قبل الوهابية غالبًا ما كانوا لا يعرفون الإسلام عموما[٢٤].

ويؤكد يلغريف «إن دين محمد لم يحدث طوال ١٢ قرنًا إلا تأثيرًا ضعيفًا أو لم يحدث أي تأثير بين جماهير البدو الرحّل... وفي الوقت نفسه فإن البدو المحاطين بمسلمين صادقين بل متعصبين والمعتمدين عليهم أحيانًا كانوا يعتقدون في بعض الأوقات ان من الحكمة القول بأنهم مسلمون»[٢٥].

ويقول مونتان ان البدو الذين يهتدون بالاجرام السماوية في تجوالهم قد ابتدعوا عبادة الشمس والقمر والنجوم[٢٦]. واستنادًا إلى مراقبة قبائل شمال الجزيرة استنتج بلغريف «إن الاله بالنسبة للبدو هو زعيم يقيم أساسًا، كما يخيل إلينا، على الشمس وهم يجسدونه بالشمس بمعنى ما»[٢٧].

وهذا ما التفت إليه أيضًا الرحّالة الفنلندي فالين الذي طاف الجزيرة العربية في منتصف القرن التاسع عشر. فقد كتب يقول «إن قبيلة «معزة» ، شأن أغلبية القبائل التي لم ترغم على تبني تعاليم الطائفة الوهابية الإصلاحية في فترة تصاعد سلطتها في الجزيرة، لا تعرف إطلاقًا الدين الذي تعتنقه. وبالكاد اتذكر اني صادفت أحدًا من أفراد القبيلة الذين كانوا يؤدون الفرائض الإسلامية أو لديهم أبسط فكرة عن

أصول الإسلام وأركانه الأساسية. ويمكن في الوقت نفسه قول العكس بدرجة معينة عن البدو الذين صاروا من الوهابيين أو كانوا منهم في السابق» [٢٨].

وبعد عدة عقود من رحلات فالين كتب دافليتشين وهو أحد ضباط الأركان العامة في جيش روسيا القيصرية: «إن أعراب البادية لا يتميزون بالتدين إطلاقًا، وهم يخلطون مع الدين كثيرًا من العادات والأساطير الفريدة التي تتعارض تمامًا مع التعاليم الإسلامية»[٢٩].

وظلت باقية عند البدو عبادة الأجداد. فقد كتب جوسان ان البدو كانوا يقدمون القرابين للأجداد أو لله عن طريق الأجداد. ويجري ذلك بفخفخة كبيرة بعد الانتصار في الغزو. ولا يفوت الرولة أي مناسبة لنحر ناقة على قبر جدهم احياء لذكراه[٣٠].

ويرتبط بعبادة الأجداد وجود «المركب»عند البدو، وهو عبارة عن هودج خاص على ظهر الجمل يعتقدون بأنه ملجأ لروح جدهم، ولذا يقدمون له القرابين. ويجلس فيه الحادي وهو عبد أو غلام، وأحيانًا بنت الشيخ أو اجمل فتاة في القبيلة تستحث المحاربين في القتال[٣١]. ولا بد ان نتذكر بهذا الخصوص كاهنات الجاهلية اللواتي كن يمتطين الإبل ويستحثثن البدو في القتال. وهكذا كانت في الجزيرة العربية قبيل ظهور الوهابية طائفة واسعة من المذاهب والاتجاهات الإسلامية ابتداء من الحنبليين وسائر مذاهب السنة وانتهاء بالزيدية والشيعة والأباضية. كما انتشرت على نطاق واسع عبادة الأولياء والصالحين، واختلطت بالإسلام أو حلت محله المعتقدات والعبادات الجاهلية كالسحر والوثنية وعبادة الشمس والأرواح والجمادات وعبادة الأجداد. تلك هي التركة الروحية التي نشأت على أساسها اراء محمد بن عبد الوهاب، وتلك هي البيئة التي عاش فيها.

التوحيد وشجب عبادة الأولياء هما أساس مذهب الوهابية

إن الطريق الذي قطعه محمد بن عبد الوهاب في تكوين مذهبه يتلخص، على ما نعتقد، في الدراسة المثابرة منذ الطفولة للفقه الإسلامي والطموح إلى معالجة

الدين وتغيير الحياة الاجتماعية طبقًا للمثل العليا للإسلام بعد تفسيرها وفهمها بشكل متميز. ويمكن أن نتصور كيف أوضح ابن عبد الوهاب لنفسه الخلل والاضطراب والتشويش في العالم المحيط به: فقد نسي الناس الإسلام الحقيقي وذلك هو سبب الانحطاط الخلقي العام الذي تنجم عنه المشاكل السياسية والفوضى الاقتصادية والركود والخراب. وبغية إنقاذ العالم الغارق في الآثام لا بد من تنقية الدين واستعادة الشكل الذي كان عليه في القرون الثلاثة الأولى من نشوئه.

ان أهم فكرة كانت تدور في بال ابن عبد الوهاب أثناء رحلاته ودراسته للفقه هي التوحيد الذي هو المحور الرئيسي للإسلام. وهو يعتقد أن التوحيد يعني الاعتقاد بأن الله وحده خالق العالم وسيده الذي يمنحه القوانين. ولا أحد ولا شيء مما خلقه بقادر على الخلق مثله(٣٢). والله ليس بحاجة إلى معونة من أحد مهما كان عزيزا عليه. والله على كل شيء قدير. وما من أحد غيره يستحق التبجيل والاجلال والتقدير(٣٣).

إلا أن العالم الإسلامي في رأي الوهابيين ابتعد عن مبادىء التوحيد. فالناس ينساقون وراء البدع التي هي أم الكبائر(٣٤). ويمنحون ما خلقه الله صفات الخالق وقدراته. فهم يؤمون اضرحة الأولياء والصالحين ويقدمون لهم النذور والقرابين ويطلبون العون منهم معتقدين بأنهم قادرون على عمل المعروف والنهي عن المنكر(٣٥). ويطلقون نعوت الله حتى على النباتات والأحجار، الأمر الذي يتعارض مع التوحيد الحقيقي(٣٦).

وطالما لا يجوز «الإشراك بالله»(٣٧) أو إطلاق نعوته على ما خلق فينبغي تحديد وضبط الشعائر، إذ ان البدع لا تجوز فيها أيضًا.

ويقول الوهابيون: لا يجوز تقديم القرابين إلا لوجه الله. ولا يجوز طلب المعونة إلا من عند الله. ولا يجوز الاستجارة إلا بالله(٣٨). فالملائكة والرسل والأولياء والصالحون لا يمكن أن يشفعوا للمسلمين أمام الله على آثامهم(٣٩). ولا يجوز تقديم النذور إلا لوجه الله(٤٠). ولا يجوز الإفراط في تبجيل الصالحين وأنصار الرسول والأولياء. ولا يجوز بناء الحضرات حول قبورهم، ولا يجوز الإفراط في

العناية بقبورهم وتحويل أضرحتها إلى أصنام. يجب احترام الأولياء وتقديرهم ولكن لا تجوز عبادتهم[٤١].

وكان للوهابيين موقف خاص من النبي محمد. فقد كانوا يعتبرونه إنسانا من البشر اختاره الله لأداء رسالة النبوة. ولكن لا يجوز تأليهه وعبادته ولا يجوز طلب شيء منه. كما لا يجوز تقديس قبره ولكن يمكن زيارته دون طلب شيء منه أو الاستنجاد والاستغاثه به. إلا أنه سيشفع للمسلمين أمام الله في يوم القيامة. ولا يجوز عبادة الأماكن المرتبطة بحياته[٤٢].

واعتبر الوهابيون جميع أنواع العبادات والمعتقدات التي تتعارض مع هذه المبادىء «شركاً».

ودعا محمد بن عبد الوهاب إلى مكافحة السحر والشعوذة[٤٣] وقراءة الفأل مع أنه لم يركز على ذلك. وشجب كذلك بقايا الوثنية مثل التعويذ والرقي والطلاسم[٤٤].

إن مصدر الإسلام في رأي الوهابيين هو الكتاب والسنة فقط. وكانوا يعترفون بالائمة الأربعة مؤسسي المذاهب السنية[٤٥]، وكذلك بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية وابن القيّم. (القرن الرابع عشر). ولكنهم رفضوا في الواقع نظريات وممارسات جميع الأجيال اللاحقة. وقد أخطأ بعض الرحّالة والباحثين عندما قالوا إن الوهابيين يرفضون السنة كلها ولا يعترفون إلا بالقرآن وحده[٤٦].

إن «الوهابية» تسمية اطلقها على هذه الحركة خصومها أو الناس من غير أبناء الجزيرة. وقد ترسخت هذه التسمية في مطبوعات المستشرقين. أما أتباع محمد بن عبد الوهاب فكانوا يسمون أنفسهم بالتوحيديين أو المسلمين فقط، ولا يسمون بالوهابيين إطلاقًا.

وقد اقتبس الوهابيون تشكيلة حججهم وتهجمهم الشديد على عبادة الأولياء وعلى البدع من ابن تيمية وابن القيّم. صحيح ان الوهابيين لم يتعمقوا في القضايا الدينية والفلسفية المعقدة كما فعل ابن تيمية. وأعلنوا انهم يختلفون مع هذا الفقيه في

بعض المسائل الشعائرية والمعيشية الطفيفة[٤٧]. إلا أن مؤلفات ومؤلفات ابن القيم كانت في الواقع ملازمة لهم. وقد استشهد محمد بن عبد الوهاب مرارًا بمقتطفات من ابن تيمية وابن القيم. وظلت محفوظة بعض مؤلفات ابن تيمية منسوخة بخط محمد بن عبد الوهاب[٤٨]. واستشهد بفقيهي القرن الرابع عشر كذلك مؤرخ الوهابيين ابن غنام[٤٩]. وكتب عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب يقول: «وعندنا ان الإمام ابن القيم وشيخه (يقصد ابن تيمية) أما ما حق من أهل السنة وكتبهما عندنا من أعز الكتب»[٥٠].

لقد بعثت الوهابية في الإسلام النهج المتشدد الذي يرفض كل البدع ويدعو للعودة إلى الكتاب والسنة غير المشوهة.

ومن ناحية الأصول الإسلامية يبدو الوهابيون من أنصار الاستقامة في الدين الحنيف. وهذا هو رأيهم ورأي أغلبية الباحثين الموضوعيين من عرب وغيرهم، من معاصري حركتهم في بدايتها ومن أبناء الأجيال اللاحقة.

ويقول بوركهاردت ان فقهاء القاهرة المعارضين للوهابية عمومًا قد أعلنوا أنهم لم يعثروا على أثر للزندقة في تعاليمها، ولما كان هذا التصريح قد أدلى به اصحابه على مضض فهو لا يثير الكثير من الشكوك. وبعد أن قرأ العديد من فقهاء القاهرة كتابًا ألفه محمد بن عبد الوهاب أعلنوا بالإجماع انه إذا كان هذا هو رأي الوهابيين فانهم، أي الفقهاء، يؤيدون هذه العقيدة دون قيد أو شرط[٥١].

واكد الفقيه الجزائري الناصري ان معتقدات الوهابيين صائبة تماما[٥٢]. وأشار المؤرخ البصري ابن سند إلى أن الوهابيين هم حنبليو الأزمان السالفة[٥٣]. ويعتقد ل. كورانسيز أن الوهابية هي الإسلام في نقاوته الأولى[٥٤].

وفي العصر الحديث كتب طه حسين يقول ان هذا المذهب... «ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من شوائب الشرك والوثنية»[٥٥].

إلا أن الوهابيين الأوائل، كما نعتقد، طائفيون لأنهم عارضوا المذهب السنّي

بشكله الذي كان سائدا آنذاك وان كانت معارضتهم منطلقة من مواقع تنقية هذا المذهب. واعتمدوا على ابن تيمية في نضالهم ضد السنة القويمين (وشيخهم الغزالي). وكان النضال ضد المعتقدات السائدة انطلاقًا من النزعة القويمة الأكثر تشددًا يتسم بطابع طائفي مثل محاولات تحطيم أو تحديد أو تغيير بعض أسسها. وفي القرن العشرين فقط، عندما ذابت أو امحت المظاهر المتعصبة جدًا في الوهابية فقدت الحركة نفسها شكلها الطائفي المتشدد.

وقد انتشر على نطاق واسع في المطبوعات الأوروبية والعربية نعت الوهابيين بالصفاء والنقاوة وبأنهم «بروتستانت الإسلام». وكان كورانسيز أول من استخدم هذا النعت[٥٦] وكرره بعده بوركهاردت[٥٧]. وتلك مقارنة للوهابيين بالتيارات الأوروبية في الحركة الإصلاحية في القرون الوسطى حسب سمة شكلية صرف، أي حسب الطموح الظاهري الى«تنقية» الدين الأول «الحقيقي»من الشوائب التي علقت به فيما بعد. ومن هذه الناحية فقط يمكن الكلام عن التشابه الخارجي بين ظاهرتين مختلفتين تمام الاختلاف من حيث مضمونهما الاجتماعي والسياسي، بل حتى الفقهي واللاهوتي. لقد ظهرت الوهابية في ظل انفصام نفساني خطير وفي ظروف عدم الرضا عن حالة الحياة الروحية آنذاك، وكانت بمثابة رد فعل على الأزمة الروحية في مجتمع الجزيرة العربية، وخصوصًا مجتمع نجد، الذي كانت تهوم فيه، ربما بصورة غير واعية، مطامح تبتغي مثلًا عليا جديدة.

ولم يكن محمد بن عبد الوهاب الشخص الوحيد الذي شعر بحاجة إلى تجديد الإسلام في الجزيرة العربية ذلك العصر. فليس من قبيل الصدفة ان معلمه في المدينة المنورة عبد الله بن إبراهيم بن سيف كان يعد «سلاحًا فكريًا» لتغيير الدين. وكان فقيه صنعاء محمد بن إسماعيل (توفى عام ١٧٦٩/١٧٦٨) قد دافع في مؤلفاته عن الدين الخالص. وعندما سمع بدعوة محمد بن عبد الوهاب ألف قصيدة في مدحه[٥٨]. وكان في اليمن فقيه اسمه محمد المرتضى (توفى عام ١٧٩٠) وكان يستنكر سلوك الدراويش [٥٩]. وفيما بعد نشط في اليمن فقيه آخر لقبه الشوكاني (توفى عام ١٨٣٤)، ألف كتبًا ووضع شروحًا لمؤلفات ابن تيمية. وفي تلك الكتب

والشروح رفض زيارة القبور وعبادة الأصنام معتبرًا ذلك اشراكاً بـالله. وربما كانت له صلة بابن عبد الوهاب في نجد(٦٠).

ولا يستبعد ان هذه الاسماء ليست كل ما في قائمة الأشخاص الذين صاروا وهابيين فيما بعد وصاغوا تعاليم الوهابية. وكما هو الحال أثناء الانعطافات الاجتماعية والسياسية الكبيرة الشأن بهذا القدر أو ذاك يظل تعليلها الفكري «معلقًا في الهواء» ان صح القول. ووقعت بذور الدعاية الوهابية في تربة كانت معدة بهذا القدر أو ذاك لتقبل المذهب الجديد ونمت حيثما توفرت الظروف الأكثر ملاءمة لتحقيق الأفكار الاجتماعية والسياسية التي طرحها الوهابيون.

إن التعاليم الوهابية تتناول بقدر كبير ميدان علم أصول الدين، ولكن لها من الناحية الاجتماعية والسياسية مضمونًا اصيلًا لا جدال فيه. ولا يغير من جوهر الأمر ان مؤلفات محمد بن عبد الوهاب تتكون بنسبة ٩٥,٩٠٪ من مقتطفات مأخوذة عن فقهاء القرون الأولى من نشوء الإسلام ومن الأحاديث الصحاح.

المضمون الاجتماعي للوهابية

تتضمن مؤلفات مؤسس الوهابية أحكامًا لا لبس فيها وهي تجسد مصالح الوجهاء ضد الفقراء. وتهدف إلى تأمين الاستقرار الاجتماعي. فالعامة يجب أن تخضع لأصحاب السلطة(٦١)، كما يؤكد طبقًا لأصول الإسلام. وان عذاب الجحيم من نصيب كل متمرد على الأمراء(٦٢).

واعتبرت الوهابية دفع الزكاة واجبًا وليس مطلبًا طوعيًا، وبذلك جعلت عائدات السلطة من جميع الفئات للسكان، بمن فيهم البدو، مبدأ دينيًا لا مناص منه(٦٣).

إن الأشخاص الذين يعتنقون الوهابية لا يعفون من واجباتهم إزاء أسيادهم أو دائنيهم. وقال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ان خصوم الوهابية يكذبون عندما يزعمون «بأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون»(٦٤).

ومع ذلك دعا الوهابيون إلى العناية بالعبيد والخدم والأجراء(٦٥). وكانوا يغازلون

مشاعر الفقراء بمدح الفقر وذم الجشع زاعمين بأن الفقير يدخل الجنة بصورة أسهل[٦٦]. ولاحق الوهابيون في التطبيق نشاط المرابين[٦٧].

وكانت التعاليم الوهابية تدعو إلى الوئام الاجتماعي: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: فالامام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٦٨].

وكان ذلك، وان بصورة جزئية، هو هدف تقوية التبشير «باخوة» المسلمين[٦٩]. وبعد حوالى مائة وخمسين عامًا من ذلك استخدمت فكرة «الاخوة» بشكل مكيف بعض الشيء في حركة الإخوان. وأكد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قائلًا: «والعرب اكفاء بعضهم لبعض، فما اعتيد في بعض البلاد من المنع دليل التكبر وطلب التعظيم، وقد يحصل بسبب ذلك فساد كبير»[٧٠].

بديهي ان المذهب الوهابي ينطوي على طائفة من الأصول الأخلاقية الصالحة لمختلف فئات السكان. فقد أوصت الوهابية الناس بالطيبة والحرص[٧١] وتنفيذ الوعود التي يقطعونها على أنفسهم[٧٢] وبالصبر[٧٣] والصدق ومساعدة الضرير وعدم ممارسة الافتراء والنميمة والثرثرة. وأدانت الوهابية البخل والحسد وشهادة الزور والجبن[٧٤]. وحددت الوهابية ادق تفاصيل السلوك البشري. وقدمت النصائح فيما يخص كيفية الضحك والعطاس والتثاؤب والمعانقة والمصافحة والتنكيت وهلمجرا[٧٥].

ومما لا جدال فيه ان الوهابية كانت بقدر ما تتميز بالسمات الملازمة للحركات الشعبية التعادلية الموجهة ضد الظلم الطبقي المفرط. مع أن الفلاحين الذين يتعرّضون للاستغلال قبل غيرهم لم يواجهوا ذلك باللامبالاة. فالفلاحون يلتزمون دومًا جانب دعاة تخفيف أو «تنظيم» الاستغلال. ولذلك حظي الوهابيون لدرجة كبيرة بتعاطف فلاحي نجد في أواسط القرن الثامن عشر.

ومع ذلك كان مركز ثقل المذهب الوهابي متواجدًا في الميدان السياسي أكثر مما في الميدان الاجتماعي.

التعصب والجهاد

كان الوهابيون يعتبرون جميع المسلمين المعاصرين لهم والذين لا يؤمنون بتعاليمهم أكثر شركاً من الجاهليين في الجزيرة العربية[٧٦].

وكان سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب قد تزعم لأمد طويل الحركات المناوئة للوهابية في العديد من واحات نجد. وقد أشار إلى أن التعصب من السمات الملازمة للوهابية. وكتب المؤرخ الحجازي ابن زيني دحلان «وقال له أخوه سليمان يومًا كم أركان الإسلام يا محمد بن عبد الوهاب فقال خمسة فقال بل أنت جعلتها ستة السادس من لم يتبعك فليس بمسلم هذا ركن سادس عندك للإسلام»[٧٧].

وكتب عن هذه الآراء المتطرفة أيضًا ابن سند: «واعلم ان أتباع ابن سعود عندما قتل طُعَيس العبد الأسود ثوينيا (شيخ المنتفق في الفرات الأوسط) مدحوه وحمدوه بقتل ثويني لكونهم يعتقدون كفر ثويني بل كفر جميع من على وجه الأرض من المسلمين الذين لم يعتقدوا معتقدهم...»[٧٨].

ان الوهابيين عندما عارضوا الشكل السائد للإسلام آنذاك قد ساروا إلى أبعد من الطائفيين العاديين. ويعتقد بيلايف «أن أتباع جميع الاتجاهات والتيارات والطوائف في الإسلام يعتبرون مسلمين بموجب التصورات الراسخة لدى المسلمين أنفسهم»[٧٩]. أما الوهابيون فلا يعتبرون خصومهم مسلمين بل مشركين وكانوا يعتقدون أن جميع الذين سمعوا دعوتهم ولم يتبعوها كفرة. وفيما بعد، كان موقف الوهابيين حتى من «أهل الكتاب» أخف من موقفهم من المسلمين غير الوهابيين. فقد سمحوا لليهود والنصارى بالصلاة في المنازل وفرضوا جزية طفيفة على كل واحد منهم[٨٠].

وعندما كان الوهابيون يحتلون واحة أو مدينة يحطمون الشواهد والأضرحة على قبور الأولياء والصالحين ويحرقون كتب الفقهاء الذين يختلفون معهم[٨١].

وربما كانت الممارسات الدينية للوهابيين تختلف عن مذهب ابن عبد الوهاب ووصاياه الرسمية. وقد اتهم فقهاء كثيرون الوهابيين بعدم احترام الرسول. وينكر المؤلفون الوهابيون المحدثون جميعًا هذا الاتهام بغضب شديد. ولعل الرغبة في

التقليل من مكانة النبي محمد بوصفه «خليل الله» قد أدّت عمليًا إلى التقليل من دوره في الإسلام وتجلت في «عدم الاحترام» المذكور.

وانتشر على نطاق واسع الرأي القائل بأن الوهابيين قد منعوا تعاطي القهوة[٨٢]. إلا أن الوقائع تدحض هذه الاقوال، ولكنه لا يستبعد أن بعض المتعصبين جدًا قد رفضوا هذا الشراب. واتخذ التعصب بين الوهابيين أشكالًا متطرفة جامحة. فإن اعتقادهم بأن خصومهم كفرة ومشركون صار مبررًا للقساوة ضدهم. وفي الوقت نفسه صار التعصب وسيلة لتلاحم وانضباط الوهابيين حيث يستحثهم على تحقيق المآثر الحربية والقيام بالحملات والغزوات على المشركين. وهكذا تهيأت المقدمات الفكرية لاعلان الجهاد ضد جميع المختلفين مع الوهابيين.

فهل من داع للكلام عن المزايا التي يوفرها المذهب الوهابي للأمير الذي يتسلح بهذا المذهب؟ فهو يتحول من زعيم لغزوة عادية على جيرانه إلى مناضل في سبيل الدين النقي، أما خصومه فيصبحون من خدم الشيطان وعبدة الأوثان والمشركين. وعندما اعتبرت الوهابية الجهاد من أهم مسلماتها صارت منذ ظهورها ايديولوجية للتوسع الحربي.

الاتجاهات التوحيدية

لم تكن الوهابية مجرد راية لحروب الغزو والفتح، بل كانت تبريرًا فكريًا للاتجاهات التوحيدية في الجزيرة العربية. إن معارضة عبادة الأولياء وتحطيم اضرحة الصالحين وقطع الأشجار المقدسة ـ كل ذلك كان يعني في ظروف الجزيرة العربية تحطيم السند الفكري والروحي للتجزئة الإجتماعية. وإن وجهاء واحة ما عندما ظلوا بدون ولي خاص بهم قد فقدوا حقهم بالتفوق والأصالة كما فقدوا عائدات زيارة ضريح هذا الولي.

وأكد الوهابيون ان على الناس البسطاء ان يطيعوا حاكمهم، إلا إذا أمر بمعصية[٨٣]. وكان المناضلون في سبيل التوحيد، وعلى رأسهم ابن عبد الوهاب، هم أعلى جهة يرجع إليها الناس في تحديد المعصية. وان أي عمل يقوم به الحكام ضد أمير الدرعية يعفي الرعية من واجب الانصياع لهم ويحطم سند سلطة الحكام المحليين.

وكانت الوهابية تنطوي بالدرجة الأولى على أفكار توحيد نجد ووجهائها في الصراع ضد خصومهم التقليديين أشراف الحجاز. لقد منعت الوهابية زيارة العتبات المقدسة في مكة والمدينة (ما عدا الكعبة) ومنها قبر الرسول، الأمر الذي كان سيحرم الحجازيين من قسم كبير من عائداتهم. وفي تلك الظروف التاريخية كان الحجازيون يتعاطفون مع الصيغة الرسمية للإسلام في الأمبراطورية العثمانية التي هي المصدر الرئيسي للحجاج. وكان فقهاء الحجاز يخشون من تضييع منزلتهم ومعها امتيازاتهم وعائداتهم في حالة انتصار الوهابيين. ولذا فمن الطبيعي ان علماء الحرمين لم يوافقوا على أن يقوم أحد النجديين بتعليمهم الإسلام «الحقيقي».

ويتضح من أحكام وممارسات الوهابية اتجاهها المحدد تمامًا والمناهض للصوفية، وعلى وجه الدقة شجبها للصوفية بالشكل الذي انتشرت به في الأمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر. صحيح ان تعاليم الوهابيين لم تتضمن تهجمات سافرة على هذا التيار في الإسلام. حتى أن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قال ذات مرة انه ليس ضد الصوفية(٨٤). إلا أن هذا القول، على ما يبدو، مجرد استدراك تكتيكي. فمن وجهة نظر الوهابية الحقيقية المعتمدة على الكتاب والسنة وتعاليم فقهاء القرون الثلاثة الأولى للإسلام انها تعتبر الصوفية بدعة وواحد من أمهات الكبائر. وان شجب عبادة الأولياء ورفض السحر والشعوذة موجهان في الواقع ضد الدراويش المتصوفة. ولا يغيبنَّ عن البال ان منع التبغ والأفيون(٨٥) والمسبحة والموسيقى والانشاد الصاخب وحلقات الذكر والرقص واحد من أهم محرمات الوهابية الثابتة(٨٦). وكان هذا المنع يشمل على الأكثر الممارسات الفعلية، ففي مؤلفات الوهابيين نجد الاهتمام به أقل مما في كتابات الرحّالة الأوروبيين.

وعندما عارض الوهابيون البدع من حيث المبدأ وساروا بأحكام الحنبلية إلى حدها الأقصى رفضوا في الواقع المذهب السني الرسمي للأمبراطورية العثمانية، أي الحنفية. ولذلك يمكن القول إن الوهابيين عارضوا الإسلام بالشكل الذي كان قائمًا به في الأمبراطورية العثمانية.

إن حظر التبغ والألبسة الحريرية والاحتفالات الصاخبة لم يكن يمثل مجرد موقف من البدع يطبق عمليًا. فقد كان رد فعل لسكان نجد على المظاهر الخارجية لنمط حياة الوجهاء العثمانيين. وكتب بوركهاردت «إن الوهابيين يحتقرون الفخفخة في اردية الحجاج الأتراك»(٨٧). وقال ان أعراب الجزيرة متذمرون من المحاكم الفاسدة والتعسف في الأمبراطورية العثمانية ومن لجاجة الأتراك ومن الشذوذ الجنسي الذي يمارسونه على المكشوف(٨٨). وأشار ج. رايمون، وهو مدفعي فرنسي كان يعمل في خدمة والي بغداد، إلى أن الميول المعادية للأتراك كانت منتشرة على نطاق واسع في الجزيرة العربية. وقال له أحد الأعراب: سيأتي اليوم الذى نرى فيه العربي جالسًا على عرش الخلافة. فقد مر علينا زمان طويل ونحن تحت نير مغتصبي السلطة (٨٩).

إن تمرد الوهابيين على الإسلام العثماني، كما بينت الأحداث، قد تجاوز كثيرًا الإطار الديني واتسم بطابع سياسي وعسكري. لقد كان ذلك صدامًا بين نظام الدولة العربي في الجزيرة وبين الأمبراطورية العثمانية. وصارت راية للحركة الوطنية العربية ضد النفوذ العثماني في الجزيرة.

وكان اتجاه الوهابيين المستشرس ضد الشيعة ينطوي كذلك على جنين أفكار النضال ضد الفرس بوصفهم من غلاة الشيعة، إلا أن ذلك لم يظهر خلال الأحداث اللاحقة على نطاق واسع من الناحيتين العسكرية والسياسية.

***

كان مذهب الوهابية نتيجة لازمة روحية خطيرة في الجزيرة العربية أساسها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وقد شكل هذا المذهب جناحا متطرفا للحنبلية، إذ رفض كل البدع في الفرائض والعبادات وطالب بالعودة إلى الكتاب والسنة فقط.

ومن الناحية الاجتماعية كانت الوهابية تخدم مصالح الوجهاء، لكنها طالبت بمعاملة العامة بالعدل والإحسان. وكانت في الوقت نفسه تنطوي على عناصر ملازمة لحركات المساواة التعادلية.

وعندما وضع مذهب محمد عبد الوهاب الوهابيين على طرفي نقيض مع سائر المسلمين حولهم إلى طائفة متراصة واجج التعصب لديهم. وكانت ضرورة الجهاد ضد المشركين التي أعلنها مذهب الوهابية قد جعلت منه راية لحروب الفتح والغزوات. وصارت الوهابية سلاحًا فكريًا لحركة التوحيد المركزية في شبه الجزيرة العربية.

وقد باركت الوهابية نضال وجهاء نجد السياسي والعسكري من أجل السيطرة في الجزيرة العربية ضد الحجازيين بالدرجة الأولى.

وعندما عارضت الوهابية شكل الإسلام السائد في الأمبراطورية العثمانية تحولت إلى صيغة فكرية للحركة الوطنية لعرب الجزيرة ضد الأتراك.

ووجد الوهابيون تربة صالحة في الواحات. فمع ان الكثير من توجهات الوهابية، وبالدرجة الأولى تسديد الزكاة، قد نفر البدو، وخصوصًا أبناء القبائل الكريمة المحتد، ناهيك عن عدم مطابقة الكثير من التصورات الإسلامية لمعتقدات وعبادات البدو الرحّل. إلا أن أفكار الجهاد التي اعلنتها الوهابية، أي الغزو تحت راية الإسلام، تنطوي على سمة جذابة بالنسبة للبدو. وعلى هذا الأساس كان بالإمكان انضمام البدو إلى الوهابيين والتحالف بين وجهاء الحضر ووجهاء البدو في ظروف معينة ولفترة زمنية محددة.

محمد بن عبد الوهاب وخطواته الأولى في السياسة

عندما انتقل محمد بن عبد الوهاب إلى العيينة سارع إلى كسب رضا الأمير عثمان بن حمد بن معمر. وقال له حسبما رواه المؤرخون: «إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن ينصرك الله تعالى وتملك نجدًا واعرابها». وكان هذا الاقتراح يناسب الأمير. وسرعان ما ربطت أواصر القربى بين عائلتي محمد بن عبد الوهاب وحاكم العيينة[٩٠].

وبغية تحقيق أحكام الوهابية شرعا بتدمير الأضرحة المحلية. وقطع محمد بن عبد الوهاب شخصيًا الشجرة التي كان سكان تلك المنطقة يقدسونها[٩١].

ثم جاء دور ضريح أحد الصحابة وهو زيد بن الخطاب المدفون في الجبيلة. وكان ذلك ضريحًا محليًا يتوارد عليه الزوار. أراد سكان الواحة ان يقاوموا تدمير ضريح وليهم، ولكن عثمان ومعه ستمائة محارب كان يحمي محمد بن عبد الوهاب الذي حطم شاهد القبر بنفسه[٩٢].

وبعد ذلك جرى في الواحة رجم امرأة اقترفت إثمًا. وطبق ابن عبد الوهاب أحكام الشريعة حرفيًا فأمر برجمها بالأحجار[٩٣]. ويقول ابن غنام: «فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان أول من رجمها عثمان المذكور، فلما ماتت أمر أن يغسلوها وأن تكفن ويصلى عليها[٩٤]. وشاع نبأ هذا الحادث في الأرجاء مثيرًا الرعب في قلوب الذين انحرفوا عن الإسلام الحقيقي، كما يقول ابن غنام[٩٥]. وأعلنت الوهابية عن نيتها في تطبيق مبادئها دون رحمة.

وبلغ نبأ هذه الجريمة اسماع حاكم الأحساء والقطيف وبدو أطرافهما سليمان بن محمد بن غرير الحميدي، الذي كانت العيينة تعتمد عليه بقدر ما. ولما كان جزء من تجارتها يمر عبر مرافئ الأحساء، زد على ذلك ان أمير العيينة كانت له في الأحساء بساتين نخيل وأملاك أخرى يستلم منها عائدات، أمر سليمان الحميدي عثمان بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهدده، إن لم يفعل، بقطع مؤن الأغذية والألبسة عنه وحرمانه من العائدات[٩٦].

ولعل أسباب تصرف سليمان الحميدي هذا تعود إلى الضغط الذي مارسه عليه العلماء المحليون المستاؤون من انتشار المذهب الجديد الذي ينسف مواقعهم. زد على ذلك ان زعيم بني خالد كان، على ما يبدو، يخشى من تزايد قوة الوهابيين الذين اعتبرهم خطرًا على سلطته.

إلا أن أمير العيينة لم يتجرأ أو ربما لم يرغب في قتل الشيخ المتنفّذ فنفاه[٩٧]. ولا يستبعد ان عثمان بن معمر كان يريد الانتظار بعض الوقت ليعيد الفقيه الذي لا يقر له قرار. واستقر محمد بن عبد الوهاب في الدرعية عام ١٧٤٤ ـ ١٧٤٥ [٩٨]. وكانت عنده في هذه الواحة جماعة من الاتباع ومنهم اثنان من اخوان أميرها محمد

بن سعود وكذلك زوجة الأمير. ونزل محمد بن عبد الوهاب عند أحد تلاميذه وشرع حالًا بالاتصال بحاكم الدرعية وساعد شقيقا الأمير وزوجته على التقارب بينهما وكان محمد بن سعود الذي يعد خططًا حربية طموحة مطلعًا على مذهب الفقيه المشهور، لذا قدر آفاق الوهابية حق قدرها [٩٩].

وتوافقت رغبة محمد بن عبد الوهاب الذي ينشد الدعم العسكري ورغبة الأمير الطموح الذي ينشد الدعم الديني في توحيد جهودهما وتم التحالف المنشود. وطلب ابن سعود من محمد بن عبد الوهاب ان لا يغادر الدرعية وسعى إلى جعله يوافق على الضرائب السابقة المفروضة على سكان الواحة. وقال له الأمير «إن لي على الدرعية قانونًا آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئا». إلا أن محمد بن عبد الوهاب وافق على الشرط الأول ورفض الثاني ووعد ابن سعود بأن غنائمه من الغزوات والجهاد ستكون أكبر من هذه الضريبة[١٠٠].

ويبين ذلك أن أمير الدرعية حاول أن يحتفظ بحق رعيته، وهو أمر مرفوض على ما يبدو، من وجهة نظر الشريعة الإسلامية. إلا أن محمد بن عبد الوهاب الأبعد نظرًا اقترح على ابن سعود أن يتخلى عن تلك الضريبة وذلك بغية تحقيق هدفين، هما الحفاظ على نقاوة المذهب وكسب تأييد السكان المحليين الذين خفت أعباؤهم في الحال. وكان محمد بن عبد الوهاب يرى أن ذلك كله يمكن التعويض عنه، وقد تم التعويض عنه فعلًا بالغنائم الحربية الهائلة.

بهذا تنتهي المرحلة الأولى من تاريخ الوهابية، وهي، أن صح القول، مرحلة التطور الجنيني والتجريب والإخفاقات والصياغة السياسية. ومنذ الانتقال إلى الدرعية ارتبطت حياة محمد بن عبد الوهاب ارتباطًا لا ينفصم بمصير إمارة الدرعية والدولة السعودية.

الفصل الثالث

قيام الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥ ـ ١٨١١)

على أثر انتقال محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية لحق به الكثير من أتباعه من العيينة وسائر واحات نجد.

كانت عاصمة الدولة السعودية الشاسعة آنذاك تعيش حياة البؤس. ولم يتمكن ابن سعود حتى من تأمين الأغذية لأعز تلاميذ محمد بن عبد الوهاب الذي كان يمارس تأثيره بقوة الإقناع فقط[١].

واطلع محمد بن عبد الوهاب أتباعه وأنصاره على مبادىء مذهبه وأوحى لهم فكرة ضرورة الجهاد ضد الكفرة[٢].

وبعد أولى غزوات الدرعيين على جيرانهم وزعت الغنائم بالعدل طبقًا لأحكام الوهابية: الخمس لابن سعود والباقي للجند: ثلث للمشاة وثلثان للخيالة. وكان التمسك بالوهابية يكافأ ماديًا. وإذا كان الغزو السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحوّل الآن إلى انتزاع أموال المشركين واحالتها إلى المسلمين الحقيقيين.

ولم تكن عمليات الوهابية الحربية تختلف عن النزاعات العادية بين الدويلات ـ الواحات. غارة سريعة وكمين تنصبه بضع عشرات من المحاربين وبضع عشرات من الإبل أو الأغنام التي يتم الاستيلاء عليها في حالة الانتصار وأشجار نخيل مقطوعة وحقل منهوب أو عدة منازل منهوبة ـ تلك هي «منجزات» الدرعيين في السنوات الأولى بعد مجيء محمد بن عبد الوهاب إليهم.

إلا أن راية تجديد الدين منحت أمير الدرعية وزنًا ومنزلة. وأخذ مؤرخو نجد يلقبونه بالامام. وصار يعتبر أميرًا للمؤمنين، أي لجميع المنضمين إلى الوهابية. وأثناء الصلاة كان في مقدمة جمهور المصلين.

فرض زعامة الدرعية في وسط نجد

كان المحاربون من العيينة بزعامة عثمان بن معمر أنصارًا ثابتين للدرعيين، حتى أن أميرًا من العيينة قاد القوات التي توحّدت في السنوات الأولى[٣]. وارتبط عثمان بن معمر بالسعوديين بصلة قربى حيث زوّج ابنته من عبد العزيز بن محمد. وفي عام ١٧٤٨ ولد ابنهما سعود الذي بلغ الوهابيون أوج قوتهم في عهده[٤]. إلا أن العداء حتى الموت بين الأقرباء كان ظاهرة عادية تمامًا في الجزيرة العربية، فلا داعي للدهشة من تطور الأحداث لاحقا. وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب، الذي لم ينس أن أمير العيينة نفاه منها، أهمية حاسمة في التنافس بين حكام الدرعية والعيينة.

واتهموا أمير العيينة كذلك بأنه أجرى مراسلات سرية مع حاكم الأحساء محمد بن عفالق وأعد العدة للخيانة. وفي حزيران (يونيو) ١٧٥٠ قتله الوهابيون من أبناء واحته بعد صلاة الجمعة. وصار حاكمًا للواحة قريبه مشاري بن إبراهيم بن معمر المعتمد على الدرعية[٥]. وبعد عشر سنوات فقدت العيينة استقلالها نهائيًا. فقد نحى محمد بن عبد الوهاب مشاري واسكنه الدرعية مع عائلته وعين بدلًا منه شخصًا خاضعًا للسعوديين كليًا. ووصل محمد بن عبد الوهاب شخصيًا إلى العيينة وأمر بتدمير قصر آل معمر[٦].

وبعد خمس سنوات من التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود كانت سلطة أمير الدرعية ما تزال موضعًا للشك والمجادلة حتى في أقرب الواحات. وفي ١٧٥٠ - ١٧٥٣ حاولت إمارات منفوحة وحريملا وضرمى، التي كانت بين أوائل الذين تحالفوا مع الوهابيين، ان تفصم عرى التبعية للدرعية[٧]. وشجع الانتفاضة في حريملا سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب. وبعث إلى أرجاء نجد كافة رسائل

شجب فيها تعاليم اخيه. وبتأثير الدعاية المناهضة للوهابية بدأت القلاقل حتى في العيينة[٨]. إلا أن عبد العزيز استطاع مع ٨٠٠ من المشاة و ٢٠ من الخيّالة الاستيلاء على حريملا في عام ١٧٥٥، وفر سليمان إلى سدير[٩].

وظل أمير الرياض دهام بن دواس المنافس الرئيسي للسعوديين. وكانت الغزوات من الدرعية والرياض على بعضهم بعضًا تجري كل عام تقريبًا. وقاتل مع دهام على التوالي سكان مناطق وواحات الوشم وسدير وثادق وحريملا، إلا أن الوهابيين كانوا، في الغالب، هم الجانب المهاجم. وعلى مسرح الأحداث في نجد ظهر الأحسائيون من جديد في أواخر الخمسينيات، وقد قادهم خلال بضع سنوات حتى ذلك الحين زعيم نشيط هو عريعر أبن دجين. فقد قاموا بحملة على وسط الجزيرة، ولكنهم لم يوفقوا فيها. وانتقلت المبادرة مرة أخرى إلى الدرعية.

وفي أواخر عام ١٧٦٤ قام زعيم القبائل البدوية في منطقة نجران الحسن بن هبة الله بحملة على الدرعية. ودحر قوات عبد العزيز عن آخرها، حيث كبدها حوالى ٥٠٠ قتيل و٢٠٠ أسير. وأبدى محمد بن عبد الوهاب دهاء دبلوماسيا كبيرًا فسارع لعقد الصلح على أساس دفع تعويضات الحرب وتبادل الأسرى. وانسحب النجرانيون دون أن ينتظروا وصول عريعر من الأحساء[١٠].

ووصلت قوات عريعر المسلحة بالمدافع إلى ضواحي الدرعية في بداية عام ١٧٦٥. وانضم إليها الكثير من النجديين، بمن فيهم دهام أمير الرياض وزيد بن زامل أمير الخرج. إلا أن حصار الدرعية اخفق[١١].

وفي ذلك العام توفى محمد بن سعود. وخلفه عبد العزيز. ويشير ابن غنام وابن بشر إلى أن عبد العزيز لم يكن ولي العرش فقط، بل كان إمامًا للوهابيين.

وبعد الهزة التي نجمت عن الهزيمة امام النجرانيين وغزو الإحسائيين تماثلت إمارة السعوديين للشفاء بسرعة. واستمر توسعها بوتائر متسارعة، وفي أواخر الستينيات اخضع الوهابيون كليًا الوشم وسدير وهاجموا واحة الزلفى الواقعة شمال شرقي مقاطعة القصيم النجدية الغنية وشنوا حملات ناجحة على البدو جنوبي وشرقي

نجد. وخضعت مفارز من قبائل سبيع والظفير للوهابيين. وفي عام ١٧٦٩ ـ ١٧٧٠ أقسم القسم الأكبر من القصيم يمين الولاء للوهابية والسعوديين[١٢].

وفي هذه الظروف غدا وضع الرياض المطوقة من جميع الجهات باتباع أو حلفاء الوهابيين ميؤوسًا منه. وفي إحدى المناوشات قتل الدرعيون اثنين من أبناء دهام. وتدهورت معنويات أمير الرياض العجوز. وعندما وصل الوهابيون في صيف ١٧٧٣ إلى الرياض رأوا ان المدينة خالية من سكانها. وفر أمير الرياض مع عائلته. وحذت حذوه أغلبية السكان الذين كانوا يخشون، وليس بدون حق، من ثأر خصومهم القدامى. وهلك كثير من سكان الرياض في الطريق بسبب الحر والعطش، كما سقط الكثيرون بسيوف الوهابيين[١٣]. وانتهى الصراع من أجل السيطرة في وسط نجد بعد أن استغرق حوالى ربع قرن. ولكنه لم يخرج عن نطاق النزاع القبلي. وتفيد حسابات المؤرخين، التي هي ربما أقل مما في الواقع، ان عدد القتلى بلغ ٤ ـ ٥ آلاف شخص يشكل أتباع دهام أكثر من نصفهم. ويمكن أن نوافق على رأي فيلبي الذي كتب يقول: «حتى ذلك الحين كان عبد العزيز يتربع منذ ثماني سنوات على عرش الدرعية التي كانت أكبر شأنًا بقليل من سائر (primus inter pares) الدويلات العديدة في الجزيزة العربية[١٤]. إلا أن الوهابيين حصلوا على قاعدة متينة لمواصلة توسيع دولتهم.

كانت سلطة السعوديين قائمة ليس فقط على قوة السلاح. فكل واحة تضم إلى الدولة يصلها من الدرعية علماء وهابيون يدعون إلى التوحيد الحقيقي. وأخذ قسم من سكان نجد يعتبر الدرعية لا مجرد عاصمة لإمارة قوية بل مركزًا روحيًا، ويعتبر حكام الدرعية ليسوا مجرد أمراء أقوياء بل مناضلين في سبيل نقاوة الدين. ولا يغيبن عن البال أن العلماء وأنصار الوهابيين في الإمارات المعادية للدرعية كانوا يفتتون المقاومة من الداخل.

على العموم لقد تمكن السعوديون بصعوبة كبيرة، رغم الجهود الهائلة، من قهر مقاومة الأمراء المستقلين. وكان واضحًا أثر قوى التجزئة واللامركزية والفوضى

القبلية. لذا تعين مرور عشرة أو اثني عشر عامًا على سقوط الرياض لتقع نجد بكاملها تحت سيطرة الدرعية.

توحيد وسط الجزيرة العربية

بعد ضم الرياض صار الخصم الرئيسي للسعوديين في نجد، زيد بن زامل، الأمير الداهية الشجاع وحاكم الدلم ومنطقة الخرج كلها. وقد حاول من جديد اجتذاب قبائل نجران للمشاركة في مكافحة الوهابيين. ولهذا الغرض توجه بطلب إلى أمير نجران ليرسل محاربين لنجدته ووعده بمكافأة معينة. ووصل أبناء نجران ولكنهم بدلًا من تقديم النجدة أخذوا يبتزون النقود وينهبون سكان الخرج. فأخفق التحالف المنشود.

وفي منتصف السبعينيات دخل محاربو بني خالد وعلى رأسهم عريعر نجد قادمين من الأحساء واحتلوا بريدة في القصيم ونهبوها بوحشية. وكان العديد من حكام واحات نجد المتذمرين من سلطة السعوديين مستعدين لدعم الإحسائيين، ولكن عريعر توفى بغتة. وبدأ عند بني خالد صراع من أجل الرئاسة. وفاز في هذا الصراع مؤقتًا أحد أبناء عريعر وهو سعدون، إلا أن أمراء الدرعية أخذوا يحرضون إخوانه ضده[١٥].

وخلال السنوات القليلة التالية كان الأحسائيون يظهرون في نجد كل عام تقريبًا. وشاركت مع بني خالد في الغزوات قبائل سبيع والظفير. وكان عدد من واحات نجد تارة ينضم إلى الوهابيين وتارة ينفصل عنهم ويعمل بصورة مستقلة وتارة يتحالف مع أعداء الدرعية.

ويبين مشهد هام ذكره منجين سير العمليات الحربية آنذاك. فقد أنشأ الوهابيون قرب الدلم قلعة للتضييق على عمليات مفارز زيد بن زامل. وكانت مشارف القلعة صعبة المنال وقد وقفت في حمايتها عساكر وهابية مختارة. وبغية إخراج العدو من القلعة أنشأ أهل الدمل، بإشراف أحد الفرس القاطنين في الواحة، برجًا متنقلًا على

أربع عجلات ولبسوه بالرصاص لحمايته من النار. ودخله محاربون ودحرجه آخرون نحو القلعة. إلا أنه تلكأ عند مشارفها، ولم ينقذ المحاربين القابعين في البرج المتنقل إلا عملية مستميتة لمفرزة من شجعان الدلم[١٦].

ورغم المقاومة وسعت الدولة السعودية نفوذها وأراضيها بالتدريج. وبعد احتلال الوهابيين لواحة المجمعة توقف عمل أنشط الدعاة المعادين للوهابية، ونعني سليمان بن عبد الوهاب. فقد نقل مع عائلته إلى الدرعية حيث ظل حتى وفاته[١٧].

وفي مطلع الثمانينيات تقرر مصير القصيم نهائيًا، فطوال عدة سنوات استمرت القلاقل والنزاعات التي تخللتها عمليات ضد الدرعية. ولم يخفت أوار العداء القديم، وظل باقيًا مفعول علاقات التحالف والترابط والنفور والتضاد السابقة. وفي عام ١٧٨٢ دخل القصيم سعدون بن عريعر على رأس قوات بدوية من بني خالد وشمر والظفير. وكان مصممًا على طرد الوهابيين. وانضم إليه زيد بن زامل وقواته. وطوال عدة أسابيع حاصروا بريدة التي ظلّت موالية للوهابيين، ولكن دون جدوى هذه المرة. وانحل الائتلاف المعادي للوهابيين وغادر الأحسائيون نجد[١٨].

وفي عام ١٧٨٣ قتل زيد بن زامل. وتزعم الدلم ابنه براك. إلا أن مكانة الأمير الجديد كانت مضعضعة بسبب التنافس داخل الأسرة الحاكمة [١٩].

وفي الفترة ١٧٨٣ ـ ١٧٨٦ أصاب نجد جفاف مرعب وتفشت المجاعة. وغدت حالة الخرج التي حاصرها الوهابيون ميؤوسًا منها. وفي عام ١٧٨٥ تم احتلال الدلم بهجوم سريع، وقتل الأمير وبعض أنصاره. واقسمت منطقة الخرج كلها يمين الولاء للسعوديين. وعين القائد العسكري الوهابي سليمان بن عفيصان حاكمًا للدلم[٢٠].

وفي تلك السنوات على وجة التقريب خضعت للدرعية الافلاج والدواسر، مع أن الانتفاضات ضد الوهابيين استمرت أمدًا طويلًا في الدواسر[٢١].

وشعرت أقوى القبائل البدوية في الجزيرة العربية بثقل قبضة حكام الدرعية. وعندما دحر الوهابيون بدو الظفير في عام ١٧٨١ انتزعوا منهم كل ما يملكون:

أدوات المخيمات و ١٧ ألف نعجة وماعز و٥ آلاف جمل و١٥ حصانًا[٢٢] وقام الوهابيون كذلك بغزوات على آل مرة وقحطان وسبيع وبني خالد. وتوغلوا في الشمال وأخضعوا جبل شمر في النصف الثاني من الثمانينيات[٢٣].

واكتمل التفاف أراضي وسط الجزيرة حول الدرعية. ومع أن بعض العمليات كانت ما تزال جارية في بعض المناطق ضد السعوديين فلم يعد جائزا اعتبار الأمراء المحليين من منافسيهم. وفي أفضل الأحوال كانوا شبه تابعين لهم، وفي الغالب كانوا صنائع مباشرين للدرعية يؤدون دور الولاة[٢٤].

وأدّى تعزز سلطة آل سعود ونفوذهم عمومًا إلى جعل عبد العزيز ومحمد بن عبد الوهاب يقدمان في عام ١٧٨٨ على خطوة هامة. فقد امنا لسعود حق ولي العرش بالوراثة والإمام عبد العزيز ما يزال على قيد الحياة. وأخذ محمد بن عبد الوهاب على عاتقه مهمة جعل مدن ومناطق الدولة تقسم يمين الولاء. وكان سعود قد حظي أصلًا بشعبية واسعة بفضل بسالته وانتصاراته الحربية ومشاركته في تصريف شؤون الدولة[٢٥]. وكان الاعلان عن ولي العهد قد عزز أسرة آل سعود لأنه أمن انتقال السلطة بصورة أسهل نسبيًا من الأمير إلى ابنه.

ان وراثة الابن لأبيه شيء معتاد في الجزيرة العربية ولكنه غير الزامي. فالسلطة كانت تنتقل حسب الأقدمية في العمر داخل الفخذ وحسب السجايا الشخصية لأقرب الأقرباء. وتعود الكلمة الحاسمة في اختيار الأمير الجديد إلى كبار الوجهاء. وان اصرار المؤرخ الوهابي ابن غنام على تبرير شرعية يمين الولاء لسعود يشير إلى أن فكرة لزوم انتقال السلطة من الأب إلى ابنه صادفت، على الأرجح، بعض المقاومة والاعتراض.

وبالاعتماد على موارد وسط الجزيرة بدأ الوهابيون تقدمًا ناجحًا في جميع الاتجاهات: نحو الشرق والشمال الشرقي ـ إلى الأحساء وجنوب العراق، ونحو الغرب ـ إلى الحجاز، ونحو الجنوب الغربي ـ إلى اليمن، ونحو الجنوب الشرقي ـ إلى عمان، ونحو الشمال إلى حدود الشام.

الوهابيون في شرقي الجزيرة

مما سهل هجوم الوهابيين على الأحساء النزاعات الداخلية في هذه المنطقة الغنية. وفي عام ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦ دبر أقرب أقرباء سعدون بن عريعر مؤامرة ضده. وطلبوا من شيخ المنتفق ثويني بن عبد الله ان يؤيدهم. فبدأت العمليات الحربية.

مُني سعدون بالهزيمة في الاشتباك الحاسم وولى هاربًا. وطلب من الدرعية ان تمنحه اللجوء فاستقبلته بحفاوة. وتفيد بعض المعلومات انه سرعان ما توفى بعد ذلك. وصار دويحس، لبعض الوقت، حاكمًا للأحساء(٢٦).

وخف ضغط الوهابيين على الأحساء فترة قصيرة بسبب الغارة غير المتوقعة التي قام بها شيخ المنتفق ثويني على القصيم في ١٧٨٦ـ ١٧٨٧ . فقد جمع قوات كبيرة مزودة بالمدفعية. وشاركت معه في هذه الغزوة بعض قبائل شمر وكذلك سكان الزبير. وحطمت قوات ثويني عدة قرى في القصيم ولكنها ردت على أعقابها(٢٧).

وبعد أن عاد ثويني إلى منطقة قبائل المنتفق أراد ان يستولي على البصرة ويعلن نفسه حاكمًا لها. إلا أن والي بغداد سليمان باشا، المستقل في الواقع عن الباب العالي، هجم ثويني في خريف ١٧٨٧ وهزمه قرب مدينة سوق الشيوخ، ثم أمر فيما بعد برصف ثلاثة ابراج من جماجم قتلاه. وفر ثويني وصار حمود بن ثامر شيخًا للمنتفق(٢٨).

وكثيرًا ما نصادف في كتابات مؤرخي الجزيرة، التي تتناول بداية نشاط الدولة الوهابية، معلومات عن الاشتباكات بين قوات السعوديين والبدو. ولكنه في أواخر الثمانينيات نلاحظ مشاركة متزايدة من بدو بعض القبائل في الحملات التي يشنها الوهابيون أنفسهم. وقد كرر ابن بشر الإشارة إلى ذلك مرارًا.

وكان الوهابيون يقومون سنويًا بحملات على أعماق الأحساء حتى بلغوا سواحل الخليج. ولم يكتف الوهابيون بغزو واحات شرق الجزيرة وقبائل بني خالد، بل هاجموا كذلك قبيلة المنتفق شمالي الأحساء(٢٩).

وقمع الوهابيون المقاومة بمنتهى القسوة. فقد كتب ابن غنام ان الوهابيين عندما

عادوا ذات مرة من الواحات وجدوا «أكثر الرجال... في بيت من البيوت، وكانوا ثلاثمائة نفس فقتلوا جميعًا»[٣٠].

وفي خريف ١٧٨٨ صار بعض أفخاذ قبيلة بني خالد يقاتل في صف الوهابيين. ونصبت الدرعية زيد بن عريعر شيخًا لمشايخ بني خالد. إلا أن الأحساء كانت ما تزال غير راضخة بعد[٣١]. فإن المقاومة اللاحقة التي أبداها سكانها وانتفاضاتهم المتكررة تدل على أن الميول المعادية للوهابية كانت قوية هنا. وربما يعزى ذلك إلى وجود عناصر شيعية قوية في الأحساء، وإلى كون وجهائها الذين تعودوا على اعتبار النجديين جهة لهجماتهم لم يستطيعوا الرضوخ لدور الخضوع.

وفي ١٧٩١ ـ ١٩٧٢ اجتاح سعود بالحديد والنار واحات شرقي الجزيرة فاحتل القطيف. وفي تلك الأثناء قام سليمان بن عفيصان بغزوة على قطر[٣٢]. إلا أن الأحساء كلها سرعان ما هبت في انتفاضة عارمة. ودحر بنو خالد صنيعة الوهابيين، وصار شيخًا للأحساء، براك بن عبد المحسن، الذي بدأ غزواته فورًا على البدو والواحات الخاضعة للسعوديين إلا أن بني خالد اندحروا في إحدى المعارك ففقدوا أكثر من ألف شخص. وأعربت واحات الأحساء عن خضوعها لسعود. وظل الوهابيون شهرًا في هذه المنطقة فدمروا قباب الأضرحة وجميع العتبات المقدسة للشيعة. وتوجه العلماء الوهابيون إلى المدن والواحات هناك [٣٣].

وفي معمعان إخضاع الأحساء، في عام ١٧٩٢، توفى مؤسس الحركة الوهابية محمد بن عبد الوهاب[٣٤]. وكان شخصية بارزة بالنسبة لعصره ومجتمعه وطبقته. وكان يتحلّى ببسالة وحماسة متناهيتين. فإن تحدي النظام الديني في الجزيرة العربية آنذاك ومواجهة حماة القديم الهائجين يتطلبان بسالة منقطعة النظير. وتعرّضت حياته للخطر مرارًا، وقد أجلى ثلاث مرات، ولكن ذلك لم يثنِ عزيمته. وساعد محمد بن عبد الوهاب لدرجة كبيرة، بخطبه الحماسية وبلاغته، على نجاح الحركة الدينية التي بدأها وعلى توسيع الدولة السعودية. وكتب ابن بشر عنه أنه نشر «راية الجهاد بعد أن كانت فتنًا وقتالًا»[٣٥]. ويقول منجين: «كان يتحلّى بأكبر قدر من فن الإقناع ويخلب الألباب بخطبه...»[٣٦].

ويشير مؤلف «لمع الشهاب» إلى نقطة مهمة أخرى وهي ان محمد بن عبد الوهاب بالذات علم سكان الدرعية، كما يزعمون، على صنع واستخدام السلاح الناري[٣٧]. وإذا كان قد اضطلع بهذا الدور الذي لا يميز الفقهاء فيمكن الافتراض بأن مكانته في تأسيس إمارة الدرعية وانتصاراتها الحربية كانت أكبر مما يشير إليه مؤرخو نجد.

كان محمد بن عبد الوهاب يتحلّى بهمة حياتية فائقة. ويقول منجين انه «كان يهوى النساء وله عشرون زوجة أنجب منهن ١٨ طفلًا»[٣٨] ولعل في ذلك شيء من المبالغة. وقد غدا خمسة من أبنائه وكثير من أحفاده فقهاء معروفين.

وترك محمد بن عبد الوهاب لورثته أرضًا فيها نخيل وأشجار فاكهة وحقول تبلغ عائداتها ٥٠ ألف درهم ذهبي سنويًا، بالإضافة إلى مكتبة تضم بضع مئات من الكتب. وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب صار ابنه حسين، وهو ضرير تقريبًا، مفتيًا للدرعية، وبعده شغل أخوه هذا المنصب. ان أسرة الفقهاء التي صارت تسمى آل الشيخ قد احتفظت بوزنها ونفوذها ومكانتها في الدولة السعودية حتى اليوم، ولكن أحدًا من أحفاد محمد بن عبد الوهاب لم يرتفع إلى منزلة مؤسس الوهابية في إمارة الدرعية.

وفي تلك الأثناء بدأت في الأحساء من جديد انتفاضة ضد سلطة النجديين. فقد قتل سكان الهفوف ثلاثين من ممثلي الدرعية - الحاكم والموظفين والعلماء الوهابيين وسحلوا جثثهم في شوارع المدينة ومثلوا بها على رؤوس الأشهاد. وأيدّت الهفوف عدة واحات أخرى. وكان صنيعة الوهابيين زيد بن عريعر، زعيم بني خالد، قد خان أسياده وشارك في الانتفاضة.

وفي خريف ١٧٩٣ توجه سعود مع قوات كبيرة إلى الأحساء. ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور ورعت الماشية في الحقول. وكان منافس زيد بن عريعر وخصم الوهابيين سابقًا، براك بن عبد المحسن، قد انتقل إلى جانبهم. وأعربت الأحساء كلها عن خضوعها لهم. وعين براك بن عبد المحسن أميرًا للأحساء[٣٩]، ولكنه حاول في ربيع ١٧٩٦ ان يتخلص من سلطة الوهابيين الذين

انشغلوا بعمليات حربية غربي وجنوب غربي نجد[٤٠]. وبعد عدة أشهر وصل سعود مع جيش قوي إلى الأحساء وقمع الحركة فيه من جديد[٤١].

وكتب ابن بشر في وصف إخضاع الأحساء يقول: «فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح فلما استووا (يقصد الوهابيين) على ركائبهم وساروا ثوروا بنادقهم دفعة واحدة. فاظلمت السماء وارجفت الأرض وتأرجح الدخان في الجو واجهضت الكثيرات من النساء الحوامل في الأحساء. ثم نزل سعود... وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته. وأمرهم بالخروج إليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله، ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغورًا ويهدم دورًا، وضرب عليهم الوفا من الدراهم وقبضها منهم. وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمين، وجرهم الأعداء عليهم. وأكثر فيهم سعود القتل. فكان مع ناجم بن دهينيم عدة من الرجال يتخطفون في الأسواق لأهل الفسوق ونقاض العهد... فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه إلى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود، حتى أفناهم إلا قليلًا. وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يعد ولا يحصى. فلما أراد سعود الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهلها... وظهر بهم إلى الدرعية واسكنهم فيها واستعمل في الأحساء أميرًا ناجم المذكور، وهو رجل من عامتهم»[٤٢].

هكذا تم إخضاع شرق الجزيرة العربية للوهابيين وصارت تابعة للسعوديين الممتلكات العائدة في الجزء القاري لأسرة آل خليفة الحاكمة في البحرين[٤٣].

وفي بداية التسعينيات كانت على أشدها أيضًا العمليات الحربية غربي نجد.

إمارة السعوديين والحجاز قبل عام ١٨٠٢

بعد بدء الحركة الوهابية وتوسع إمارة السعوديين لم تنشب أي صدامات حربية بين حكام الدرعية ووجهاء الحجاز.

ولم تكن سلطة شريف مكة مساعد الذي حكمها من ١٧٥٢ حتى ١٧٧٠ متينة.

ففي نهاية حكمه خيم على مكة خطر فقدان الاستقلال الواسع الذي كانت تتمتع به في الأمبراطورية العثمانية. وفي عام ١٧٦٩ أعلن حاكم القاهرة علي بك استقلال مصر عن الباب العالي. وضم الحجاز إلى ممتلكاته بيد أن محاولة علي بك لتأسيس دولة عربية مستقلة لم تكلل بالنجاح. فتخلص الحجاز من حكم المصريين[٤٤].

ويقول مؤرخو الجزيرة أن السعوديين ومحمد بن عبد الوهاب أقاموا مع حكام مكة علاقات ودية. وعلى أثر انتقال محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وصل إلى مكة ثلاثون فقيهًا وهابيًا للحصول على موافقة بالحج وإجراء حوار مع فقهاء مكة. واعتبر فقهاء مكة كما يفيد دحلان تعاليم الوهابيين زندقة فظيعة وكفرًا. وأمر شريف مكة بأن تنشر في كل مكان رسائل فيها أدلة تثبت كفر الوهابيين وبأن يقيد هؤلاء الكفرة بالسلاسل ويزج بهم في السجن. وتمكن قسم منهم من الفرار فحملوا إلى الدرعية أخبار ما حدث[٤٥].

وفي مطلع السبعينيات أجرى محمد عبد بن الوهاب وعبد العزيز مراسلات مع شريف مكة وتبادلوا الهدايا. وفي تلك السنوات كان الأشراف يسمحون أحيانًا بالحج للوهابيين. وعندما صار سرور حاكمًا لمكة عام ١٧٧٣ بعث إليه عبد العزيز هدايا ثمينة ليعرب له عن مودته[٤٦].

ويبدو أن حكام مكة والدرعية كانوا يقيمون علاقات ودية معتدلة فيما بينهم طالما ان مصالح النجدين والحجازيين لم تتصادم مباشرة وطالما أن الحجازيين يخشون تدخل المصريين أو الأتراك في شؤونهم. أما تعاليم الوهابيين فإن علماء الحجاز ووجهاءه كانوا، على الأرجح، قد استقبلوها بالعداء منذ البداية.

وتمكن حاكم مكة، سرور، من التخفيف من غلواء عوائل الأشراف وتعزيز مواقعه في الحجاز[٤٧]. ولكنه على أثر وفاة سرور صار غالب بن مساعد شريفًا لمكة في عام ١٧٨٨، وهو فتى لا يمتلك سلطة فعلية فظل لبعض الوقت أداة في أيدي عبيد ومملوكي الأمير السابق الذين أخذوا يضيقون على السكان المحليين فصاروا يضمرون لهم حقدًا. وهذا ما ساعد غالب في القريب العاجل على التخلص من العاصين وتعزيز منزلته.وكان غالب محاربًا شجاعًا وسياسيًا نافذ البصيرة. فاستطاع ان يقيم علاقات طيبة مع القبائل البدوية المجاورة لمكة، وقام بالغزوات معتمدًا

على هذه القبائل وعلى حرس العبيد المكون من بضع مئات من الأشخاص بعد تجديده[٤٨].

وفي عام ١٧٩٠ ـ ١٧٩١ أعد شريف مكة حملة على نجد من قوات بعشرة آلاف محارب و ٢٠ مدفعًا. إلا أن محاولاته في السيطرة على واحات نجد المحصنة قد اخفقت، فتركه حلفاؤه من بعض قبائل البدو. وعاد إلى مكة مع النواة الأساسية لقواته. وفي صيف ١٧٩١ ألحق سعود هزيمة ماحقة بحلفاء الشريف في منطقة جبل شمر بعد أن شاركوا في حملاته، ونعني بدو شمر ومطير. وفر البدو تاركين للوهابيين غنائم وفيرة جدًا ـ حوالى مائة ألف من الغنم والماعز وبضعة آلاف من الإبل[٤٩].

وبدأت فصائل الوهابيين غزوات على المناطق الواقعة بين نجد والحجاز وعلى الواحات والقبائل الخاضعة لشريف مكة. وفي أيار (مايو) ١٧٩٥ حاصر سعود تربة التي كانت مركز استراتيجي هام على مشارف الحجاز[٥٠].

وفي صيف العام نفسه وردًا على هجوم الوهابيين قام الحجازيون بغزوة على نجد. وتشجع غالب بنجاح هذه الغزوة فجهز في شتاء ١٧٩٥ ـ ١٧٩٦ قوات كبيرة جديدة مزودة بالمدافع للقيام بحملة في أعماق الجزيرة العربية. وقد أُبيدت هذه الحملة عن آخرها على يد القوات الموحدة التابعة للدرعية والمكونة من بدو مطير وسبيع والسهول والدواسر والعجمان وبعض من قبائل عتيبة على ما يبدو. ويؤكد ابن غنام ان غنائم الوهابيين بلغت ٣٠ ألف من الإبل و ٢٠٠ ألف من الغنم والماعز[٥١].

وأرغمت الهزيمة الماحقة غالب على توقيع الصلح[٥٢]. وكان واضحًا ان النجديين متفوقون في القوات. فقد واصلوا تقدمهم نحو الجنوب حتى وصلوا نجران والحدود الشمالية لليمن[٥٣]. ويبدو أن اتصالاتهم مع سكان عسير تعود إلى تلك الفترة.

كانت قبيلة عتيبة الجبارة الخاضعة في السابق لاشراف مكة قد انضمت إلى إمارة الدرعية في ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨. ووافق البدو على تنفيذ كل أحكام الوهابية وتسديد الزكاة ودفع تعويضات الحرب لقاء العمليات العدائية السابقة. ويقول منجين إن البدو

دفعوا من كل عائلة أربعة ريالات، ومن كل فخذ كمية معينة من السلاح والخيل والإبل(٥٤).

وفي عام ١٧٩٨ حاول غالب الذي ضمت قواته مرتزقة من الأتراك والمصريين والمغاربة ان يتقدم مرارًا نحو الحرمة وبيشة، ولكنه دحر. وسيطر أمير الدرعية على بيشة. وأقدم شريف مكة من جديد على الصلح وسمح للوهابيين بالحج(٥٥). وبعد عامين، كما يقول ابن بشر، أدّى سعود وعائلته وبعض قواته فريضة الحج لأول مرة، وفي السنة التالية قام بالحج للمرة الثانية. وقدم هناك الهدايا بسخاء وحصل على أنصار(٥٦). وفي هذا الوقت بالذات أقام عثمان المضافي، وهو من أقرباء شريف مكة، ارتباطًا معه وعرض عليه خدماته(٥٧).

وغدا واضحًا ان الوهابيين يكادون يخضعون الحجاز بالكامل.

فشل حملتي والي بغداد على الأحساء

في الفترة نفسها لغزو الأحساء، وخصوصًا بعد اخضاعها، قامت فصائل الوهابيين بحملات على المناطق الواقعة شماليها. فقد تعرّضت لهجماتهم قبائل وقرى جنوب العراق. واستعد والي بغداد الذي دفعه الباب العالي لمحاربة الوهابيين.

كان والي بغداد آنذاك يتمتع بحظوة خاصة عند الأمبراطورية العثمانية. فبعد الحروب التركية الفارسية المدمرة وبعد الفتن والنزاعات الداخلية استولى المماليك على السلطة في بغداد. واعتبارًا من عام ١٧٨٠ حكم بغداد بصورة مستقلة في الواقع سليمان باشا، وهو مملوك جورجي لوالي بغداد السابق. واضطرت الآستانة إلى الموافقة على تسنمه لهذا المنصب.

كان توسع إمارة الدرعية في هذه المنطقة يستهدف الشمال الشرقي. وفي هذا الاتجاه كانت القبائل العربية تنزح عمومًا طوال القرون. فمن المعروف، مثلًا، ان قبائل شمر في القرن الثامن عشر تغلغلت في أعماق العراق بعيدًا حتى انها انتقلت إلى ما وراء دجلة(٥٨). وأثناء القحط الفظيع في وسط الجزيرة في الستينيات انتقل بعض سكان نجد إلى الزبير وشمالها(٥٩).

وكانت قبائل البدو المترحّلة في جنوب العراق قد أقامت علاقات وثقى مع مدن العراق وقراه. وكانت لحكام بغداد مصلحة في مساعدة البدو لأجل حماية الطرق التجارية والقرى والمدن، كما كان هؤلاء الحكام يشترون من البدو ماشية الحمل والركوب. وواصل ولاة بغداد تقاليد حكام ما بين النهرين منذ آلاف السنين فراحوا يمنحون الهدايا لشيوخ البدو، ويسلحونهم لكي يصدوا الحملات البدوية المنطلقة من مناطق وسط الجزيرة العربية. وكان استخدام قبائل المنتفق وغيرهم في محاولة لتقويض سلطة الوهابيين في الأحساء يستجيب كليًا لهذه السياسة.

وتزعم ثويني الحملة على الوهابيين. كان زعيم المنتفق السابق هذا قد طاف أمدًا طويلًا عندما اجلي بعد إخفاق محاولته لترسيخ أقدامه في البصرة حتى أنه حل بعض الوقت بمثابة ضيف كريم على الدرعية. ثم استولى على السلطة في قبيلته من جديد، كما تفيد بعض الروايات. وتوجه بطلب إلى سليمان باشا ليسلحه ضد الوهابيين(٦٠). وتقول رواية أخرى إن ثويني أقنع والي بغداد بأن يسلمه السلطة في المنتفق ووعده بالقيام بحملة على نجد ودحر الوهابيين، وعند ذاك نحي سليما باشا حمود بن ثامر عن رئاسة القبيلة وعين ثويني بدلًا منه(٦١).

وفي مطلع عام ١٧٩٧ بدأ ثويني حملته على الوهابيين. كان تحت قيادته جنود القوات النظامية بالإضافة إلى فصائل من البصرة والزبير. وانضمت إلى حملته بعض أفخاذ بني خالد برئاسة براك بن عبد المحسن الذي هرب من الأحساء.

وجمع عبد العزيز كل قواته مدركاً خطورة الموقف. وأمر البدو المخلصين له بأن يحتلوا أراضي قبيلة بني خالد التي يمكن أن تنضم إلى ثويني، كما أمرهم بحماية الآبار الرئيسية. وعلى أثر ذلك أرسلت إلى الأحساء أكثر قوات الوهابيين صمودًا، وهي مكونة من حضر العارض.

وبدأت في الأحساء معارك طاحنة بين قوات ثويني والوهابيين، إلا أن الحظ ابتسم لحاكم الدرعية فجأة. ففي معمعان الحملة قتل ثويني على يد عبده الأسود طعيس، وهو وهابي متعصب. وقد قطعوا عنق طعيس في الحال إلا أن مقتل ثويني قد قرر مآل النزاع، فانفصل بنو خالد بزعامة براك عن المنتفق، الأمر الذي جعل

الاضطراب يستولي على قوات ثويني. وذعرت فصائل البدو والترك وأخذت تنسحب على عجل إلى الشمال تاركة الأسلحة والذخيرة، مما أوقع معسكر ثويني كله ومدفعيته في أيدي الوهابيين في حزيران (يونيو) ١٧٩٧. وطاردت الفصائل الوهابية العدو حتى وصلت مشارف الفرات الأوسط[٦٢].

وفي العام التالي تغلغل الوهابيون في بادية الشام، كما وصلوا إلى مدينتي سوق الشيوخ والسماوة في العراق[٦٣].

في أواخر التسعينيات كان الباب العالي يبعث إلى والي بغداد بأوامر متواصلة للقضاء على الوهابيين. وعين علي باشا قائدًا للجيش. وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت الحملة العراقية على الأحساء. وبغية إيضاح التواريخ الفعلية يجدر بنا أن ننطلق من إفادة شاهد العيان بريجيز الذي وصل إلى بغداد بصفة مندوب سياسي بريطاني في لحظة قيام جيش علي بالحملة. تحركت قوات الجيش من بغداد نحو الفرات الأوسط بأحمال ثقيلة وأخذت تستوعب في الطريق المتطوعين من البدو. لذا لم يكن بوسعها ان تظهر في الأحساء قبل أواخر عام ١٧٩٨ وأوائل عام ١٧٩٩، وهذا يتفق مع ما أورده ابن بشر وابن سند ومنجين.

كان الجيش الذي بعثه والي بغداد يضم المشاة والخيالة وكذلك فصائل البدو غير النظامية من قبائل شمر والمنتفق والظفير. وتجاوز عدد أفراد تلك القوات عشرة آلاف شخص. وسلم سكان الهفوف والواحات الأخرى وصاروا تحت رحمة علي. وقاتل الوهابيون المتمركزون في الحصون فصدوا ببسالة كل الهجمات. ولم تفد المهاجمين في بعض المواقع لا المدافع ولا آلات الحصار ولا الحفر تحت الأسوار. وانهارت معنويات القوات الهاجمة وبدأت تنسحب والوهابيون يلاحقونها. وجرت مكاتبات بين علي وسعود وتم بينهما الاتفاق على الصلح[٦٤]. وكان السبب في إخفاق علي ضعف المعنويات عمومًا وصعوبات اجتياز الأماكن الخالية من مياه الشرب والتي يسيطر عليها الوهابيون. ثم ان حماس الهجوم عند الوهابيين لم يستنفد بعد، وقد حول التعصب الديني والانضباط النجديين إلى مقاتلين صامدين.

وفي عام ١٧٩٩ وصل إلى بغداد ممثل أمير الدرعية لأجل مصادقة الوالي على الاتفاق بين سعود وعلي. وترك لنا ح. بريجيز الذي حضر لقاء رسول الدرعية مع والي بغداد وصفًا طريفا لهذا اللقاء. فقد جرى في قصر الوالي الإعداد اللازم لترك انطباع لدى سكان البادية. فاستقبلت رسول الدرعية بطانة سليمان باشا مرتدين افخر الألبسة وقد ارتسمت إمارات الغضب على وجوههم. وكان الرسول الوهابي في لباس متواضع، وقد أبعد مستقبليه وتوجه رأسًا نحو سليمان باشا الذي كان يرتدي لباسًا من حرير وفرو مزينًا بأحجار كريمة. وجلس الرسول جنب الباشا وقال له ما فحواه: يا سليمان السلام على من اتبع الهدى. بعثني عبد العزيز لأسلمك هذه الرسالة واستلم منك تصديقا على الاتفاقية الموقعة بين ابنه سعود وخادمك علي، فليتم ذلك بسرعة وبالشكل الصحيح. ولعنة الله على من يخون. ثم اضاف بلهجة شديدة: إذا كنت تنشد النصح فاستنصح عبد العزيز. قال ذلك ملمحًا إلى أن الوهابيين يعتبرون سليمان من المشركين. ومد يده إلى الوالي بالاتفاقية المكتوبة على قصاصة من ورق[٦٥].

كان واضحًا ان حكام الدرعية لا يقيمون ثمنا للاتفاقية مع والي بغداد. وتوجه مبعوث خاص من سليمان باشا إلى الدرعية لأجل التفاوض مع سعود. وحاول ان يحصل على التزامات من الوهابيين بعدم مهاجمة العتبات الإسلامية في الفرات الأوسط، ولكن سعود قهقه وقال لرسول الوالي: «جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له...»[٦٦].

ومما شجع الوهابيين الأنباء التي وردت عن دخول جيش نابليون إلى مصر في عام ١٧٩٨ وعجز الباب العالي أمام الغازي الفرنسي.

في عام ١٨٠١ حل الإنجليز محل الفرنسيين في مصر. وغدت الجزيرة العربية طرفًا بعيدًا عن مسرح العمليات الحربية الرئيسي. وهذا ما أطلق أيدي الوهابيين في مواصلة توسّعهم.

تدمير كربلاء

اختمرت لدى أمراء الدرعية خطة الاستيلاء على كربلاء وفيها العتبات المقدسة

الشيعية التي يكرهونها، وخصوصًا ضريح الإمام الحسين حفيد النبي محمد. وحقق الوهابيون نواياهم في آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٨٠٢[٦٧].

اعتاد المستشرقون الأوروبيون والسوفييت على اعتبار نيسان ١٨٠١ تاريخا لتدمير كربلاء. وإذا تناولنا مصادر هذه المعلومات نجد ان هذا التاريخ قد ذكره ج. روسو[٦٨] ول. كورانسيز[٦٩] وبوركهاردت[٧٠] وف. منجين[٧١].

أما المراجع التاريخية العربية، ومعها من الأوروبيين فيلبي[٧٢]، فتنقل هذا الحادث إلى العام التالي: آذار ـ نيسان ١٨٠٢. والأساس المعتمد في ذلك هو مصنّف ابن بشر. ويؤيد هذا التاريخ ابن سند[٧٣] وج. رايمون[٧٤] و«مجلة المنوعات الأدبية»[٧٥]. وجميع هذه المصادر قريبة زمنيا من الأحداث.

والقول الفصل بهذا الخصوص، وهو لصالح عام ١٨٠٣، وارد في تقرير وصل من العراق إلى سفارة روسيا في الآستانة وكتب قبل صيف عام ١٨٠٣. فالشخص الذي عاش آنذاك في العراق وتحدث شخصيًا مع شهود عيان عن تدمير كربلاء من المستبعد ان يخطىء لعام كامل بخصوص تاريخ هذا الحادث الهام[٧٦]. وبالمناسبة فإن مقارنة ذلك بنص التقرير الوارد من العراق عن تدمير كربلاء على يد الوهابيين والذي تضمنه كتاب ج. ورسو بعد ست سنوات تدل على تماثلهما الحرفي تقريبًا. ومن الصعب القول كيف وصل تقرير القنصل الفرنسي في العراق إلى سفارة روسيا في الآستانة. أما تغيير تاريخ احتلال الوهابيين لكربلاء في كتاب روسو فلعله ناتج عن تهاون المؤلف أو سهو المطبعة.

ويبدو أن روسو وكورانسيز هما المصدر الأول للمعلومات غير الصحيحة بهذا الخصوص. فهما على العموم يتناولان التواريخ بشيء من التصرّف. أما بوركهاردت ومنجين المطلعان على مؤلفاتهما فقد أوردا هذا التاريخ دون تمحيص. وقد كتب المستشرق الفرنسي أ. دريو في مقدمته لتقرير رايمون المطبوع ان كورانسيز في مقالاته المبكرة اعتبر عام ١٨٠٢ أيضًا هو تاريخ تدمير كربلاء[٧٧].

ويقول كاتب التقرير: «رأينا مؤخرًا في المصير الرهيب الذي كان من نصيب

ضريح الإمام الحسين مثالًا مرعبًا على قساوة تعصب الوهابيين. فمن المعروف أن هذه المدينة قد تجمعت فيها ثروات لا تعد ولا تحصى وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي. لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا من الفضة والذهب والأحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة... وحتى تيمورلنك صفح عن هذه الحضرة، وكان الجميع يعرفون ان نادر شاه قد نقل إلى ضريح الإمام الحسين وضريح الإمام علي قسمًا كبيرًا من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدم معه ثروته الشخصية وها هي الثروات الهائلة التي تجمعت في الضريح الأول تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمد طويل. فقد كانوا دومًا يحلمون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجاحهم لدرجة ان دائنيهم حددوا موعد تسديد الديون في ذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه أحلامهم.

وأخيرًا، ها قد حل هذا اليوم، وهو ٢٠ نيسان (أبريل) ١٨٠٢. فقد هجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الإمام الحسين. وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات، تركوا كل ما تبقى للنار والسيف... وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعًا بسيوف هؤلاء البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء انهارًا... وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك أكثر من أربعة آلاف شخص... ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من أربعة آلاف جمل[٧٨].

وبعد النهب والقتل دمروا ضريح الإمام وحولوه إلى كومة من الأقذار والدماء. وحطموا المنائر والقباب خصوصًا لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب»[٧٩].

وبهذه الصبغة نفسها تقريبًا، يصف منجين تدمير كربلاء ولكنه يقول ان الوهابيين اقدموا على مجزرة في المدينة، غير انهم رأفوا بالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة. ودمروا قبة ضريح الحسين. وحصل الوهابيون على أغنى الغنائم، ومنها سيوف مرصعة بالأحجار الكريمة، ولؤلؤة هائلة بحجم بيضة الحمام. وقد استأثر سعود

شخصيًا بالسيوف واللؤلؤة. واستولوا كذلك على مزهريات وفوانيس من المعادن النفيسة وحلى ذهبية ملبسة على الجدران وسجاجيد فارسية ونحاس ملبّس بالذهب من السطوح. ووقعت في أيدي الوهابيين كذلك احتياطيات فوطات كشمير والأقمشة الهندية والفان من السيوف العادية وألفان وخمسمائة بندقية وعبيد سود ومبالغ طائلة من النقود المعدنية. واستمر النهب ثماني ساعات. وعند الظهر غادر الوهابيون كربلاء[٨٠].

وكتب المؤرخ الوهابي ابن بشر عن هذا الحادث يقول: «سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء... فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوا عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت. وهدموا القبة الموضوعة (بزعم من اعتقد فيها) على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبة وما حولها كما أخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا أيضًا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل»[٨١].

ولم يواجه الوهابيون أي مقاومة تقريبًا. ويعزى ذلك إلى أن قسمًا من السكان توجهوا للزيارة إلى النجف. ومن المحتمل أيضًا ان حاكم كربلاء، وهو سني متعصب، لم يتخذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن هذه المدينة[٨٢].

كان تدمير كربلاء افدح هزيمة لسليمان باشا العجوز. وكان السلطان يتحين الفرصة من زمان لتنحية هذا الوالي المستقل الذي كان له داخل العراق أيضًا، خصوم يتحلون بقدر كاف من الفتوة والنشاط. ومما زاد في تدهور وضع الوالي ان الشاه الفارسي فتح علي كان يلومه دومًا متهمًا إياه بالعجز عن تأمين حراسة العتبات الشيعية، ويهدده بإرسال قوات فارسية إلى كربلاء[٨٣]. وبالفعل، فبعد بضع سنوات من تدمير كربلاء بدأت فارس تحارب ولاية بغداد. إلا أن المسؤولين في بغداد كانوا يعتقدون بعدم

إمكان إلحاق الهزيمة بالوهابيين في أعماق الجزيرة العربية. لذا وجهوا جل اهتمامهم لتعزيز المدن وترميم كربلاء وضريح الحسين.

استيلاء الوهابيين على مكة مؤقتًا ورد فعل الباب العالي

بعد تدمير كربلاء غدا الحجاز مسرحًا رئيسيًا للعمليات الحربية. وحتى ذلك الحين أدّى سعود فريضة الحج مع قواته وعائلته مرتين ليستعرض قوته العسكرية ويتأكد من الموقف في الحجاز محليًا. وانضمت قبائل عسير إلى الوهابيين[٨٤].

كانت أحوال غالب في تلك الأثناء معقدة . وأثار ابتزازه وادارته المتعسفة استياء في مكة والمدن الأخرى. وكانت الرسوم المتزايدة دومًا في جدة قد حرمته من تعاطف التجار. ورجحت كفة النجديين، وصار الأشراف يطلبون السلاح من الآستانة. إلا أن الباب العالي كانت لديه آنذاك هموم أكثر خطورة من تهديد الوهابيين لمكة. وفي أواخر عام ١٧٩٨ وصل إلى مكة فرمان من السلطان تضمن طلبًا بتعزيز تحصينات المدن في الحجاز خوفًا من احتمال هجوم القوات الفرنسية. وجرى ترميم أسوار جدة وأخذ السكان يمارسون الاستعدادات الحربية[٨٥].

في عام ١٧٩٨، قصفت العمارة البريطانية بقيادة الأميرال بلانكيت مدينة السويس المحتلة من قبل الفرنسيين. وفي طريق العودة ألقت العمارة مراسيها في جدة. وطالب الإنجليز بوقف تجارة الحجاز مع مصر، فوافق الشريف على هذا الطلب شفويًا، ولكن التجارة استمرت، بل ان غالب أقام اتصالات مع الفرنسيين، ولكن لم يحل دون إرسال فصيلة من متطوعي الجزيرة الذين حاربوا ضد الفرنسيين في صعيد مصر[٨٦]. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها غالب لزيادة حرسه وفصائل المرتزقة فإن قواته العسكرية تقلصت بسبب انفصال بعض قبائل بدو الحجاز[٨٧]. إلا أن أكبر خسارة مؤلمة بالنسبة له كانت انتقال قريبه ومساعده المقرب عثمان الضايفي إلى صف الوهابيين، وقد بدأ هذا الأخير بجمع البدو الذين كانوا في السابق من أنصار غالب[٨٨].

بدأ المضايفي بهجوم نشيط على الحجاز. وفي عام ١٨٠٢، استولى بدون قتال تقريبًا على مدينة وواحة الطائف ونهبهما بلا رحمة. وقتل الوهابيون حوالى ٢٠٠ من السكان ودمروا عددًا من المنازل. وكان البدو يداهمون المدينة يوميًا وينهبون كل ثمين، كما اتلفوا آلاف الكتب[٨٩].

وكان تدمير كربلاء ما يزال عالقًا بالذاكرة في الآستانة، فصار المسؤولون هناك يخشون كثيرًا على مصير مكة وحاولوا اتخاذ بعض الإجراءات لمقاومة الوهابيين. وفي أواخر آذار (مارس) ١٨٠٣ كتب أ. ايتالينسكي، سفير روسيا في الآستانة، إلى بطرسبورغ يقول: «في ظروف الوضع الراهن يعتقد الباب العالي ان الخطر عليه نابع فقط من نوايا فرنسا ومن حركات التمرد لعدة قبائل عربية تسمى الوهابية وعدد العسكريين لديها زهاء ٦٠ ألف شخص. وهم يتوقون إلى الاستيلاء على ثروات الحرمين في مكة والمدينة وينوون معارضة المحمدية بمذهب التوحيد، وبغية جعلهم يحترمون القرآن أرسل إليهم من هنا عالم فقيه متبحر في هذا الكتاب، بينما تتخذ إجراءات أخرى، فقد عينت قوات يراد لها ان تهاجمهم من جهة الخط البادىء من البصرة إلى العريش في حين سيهاجمهم الشريف من جهة الحجاز»[٩٠].

إلا أن محاولات الحيلولة دون سقوط مكة قد اخفقت.

ففي أواخر آذار (مارس) ١٨٠٣، توجه سعود مع قوات الوهابيين الرئيسية إلى الحجاز. وفي تلك الأثناء كان في مكة حجاج مسلحون من الشام ومصر والمغرب ومسقط وبلدان أخرى. ولكنهم رفضوا المشاركة في العمليات الحربية ضد الوهابيين. أما الشريف الذي ظل مع قلة قليلة من المحاربين المخلصين له فقد فر إلى جدة وأخذ يعزز تحصيناتها على عجل. وبعث سعود إلى أهالي مكة رسالة عرض فيها آراء الوهابيين ووعد بالرأفة بمن ينصاع لهم.

وفي نيسان (أبريل) ١٨٠٣، دخل الوهابيون بانتظام إلى مكة[٩١]. وبعد أداء مراسيم الحج أخذوا يدمرون كل الأضرحة والمزارات ذات القباب والتي أنشئت تكريمًا لابطال فجر الإسلام. ومسحوا عن وجه الأرض كل المباني التي لا تناسب معتقداتهم. والزموا أهالي مكة بأداء الصلاة من دون ألبسة حريرية، كما الزموهم بعدم

التدخين بحضور الآخرين. وأحرقت أكوام الغلايين في الساحات، وحرم بيع التبغ. وألغيت الصلاة في المساجد تكريمًا للسلطان العثماني. وعين الوهابيون عبد المعين، شقيق غالب، حاكمًا لمكة. وبدلًا من القاضي التركي عين فقيه من الدرعية قاضيًا لمكة. وخلافًا لسابقه التركي ترك هذا القاضي انطباعًا وكأنه يحكم بالعدل[٩٢].

اثار نبأ احتلال مكة الذعر والهلع والاكتئاب في الآستانة. وسدد فقدان مكة اقسى ضربة إلى سمعة الخليفة العثماني ومكانته بوصفه حامي الحرمين والمدن المقدسة. فقد كان السلطان ـ الخليفة يسمي نفسه رسميًا على النحو التالي: «نحن خادم وحامي الحرمين في مكة والمدينة أنبل المدن وأقدس العتبات واللذين تيمّم جميع الأمم شطرهما أثناء الصلاة، وكذلك مدينة القدس الطاهرة. أنا الخليفة الأعلى والملك السعيد لممالك واقاليم ومدن لا تعد ولا تحصى تثير حسد ملوك العالم وتقع في آسيا وأوروبا وعلى البحرين الأبيض والاسود وفي الحجاز والعراق...»[٩٣] وغيرها وهكذا دواليك.

وجاء في «مذكرة أنباء الآستانة وأخبارها» التي أعدتها سفارة روسيا ما يلي: «إن الخلافات التي تنهش أحشاء الأمبراطورية التركية ونهب الوهابيين لمكة والإتاوات المتزايدة بلا انقطاع كل ذلك أثار عند رعاع هذه العاصمة استياء شاملًا من الحكومة»[٩٤].

كان ينبغي القيام بشيء إلا أن الآستانة عجزت عن إرسال قواتها لمحاربة الوهابيين، فطلبت المساعدة من عكا وبغداد.

ويقول إيتالينسكي: «القرار الذي اتخذه الديوان الوزاري الحاكم لاستخدام (والي عكا احمد) باشا الجزار ضد الوهابيين حظي بدعم هام... لسبب غير متوقع. فقد استلم الباب العالي رسائل مستعجلة من الجزار تتضمن أنباء غزوات عبد الوهاب وتقول بعدم وجود عوائق تحوّل دون تقدمه اللاحق وتشير إلى نيته في احتلال الشام... وأخيرًا يعرب الجزار عن استعداده للنهوض في وجه هذا العدو الخطر على الدين والعرش ويعد بالقضاء عليه وتشتيت قواته في غضون ستة أشهر وإعادة الممتلكات التي نهبها إلى الباب العالي»[٩٥].

وكتب والي بغداد إلى الباب العالي يقول إنه متوجه في حملة للبحث عنهم في عقر دارهم وانه ينوي ابادتهم ولديه من أجل ذلك خيالة بخمسة آلاف فارس ومشاة بـ ١٠ آلاف رجل و ٦٠ ألف جمل، ويأمل بأن تتم هذه الحملة في غضون ستة أشهر. وطلب من الباب العالي مدفعية وبارودًا وخيامًا.

وعندما استلم الباب العالي هذه المعلومات من حاكمي الشام والعراق «أخذ يعلل نفسه بالآمال بالتخلص من الخوف نهائيًا في القريب العاجل». إلا أن سفير روسيا يشك في قدرة بغداد على تسديد الضربة ويلاحظ بحق «ان الجزار يفكر بالاستيلاء على دمشق الشام أكثر مما يفكر بالحملة على الوهابيين»[٩٦].

ومع ذلك تمكن الباب العالي من إرسال فصيلة تركية غير كبيرة بقيادة شريف باشا إلى الحجاز. ولم يتمكن أمير الدرعية هذه المرة من تثبيت أقدامه في الحجاز لان عدد قواته تقلص كثيرًا بسبب الأمراض[٩٧]. وكتب روستي يقول: «إن الأمراض التي تفشت في جيش عبد الوهاب ارغمته على رفع الحصار عن جدة. والتقت قوات شريف باشا بقوات شريف (مكة) فتمكنت من دخولها»[٩٨].

وظلت، لبعض الوقت، قلعة المدينة، التي رابط فيها فصيل من الوهابيين، تبدي مقاومة إلى أن سقطت في تموز (يوليو) ١٨٠٣.

وكتب ايتالينسكي في ٢٥ آب ـ ٣ أيلول (أغسطس ـ سبتمبر) «إن الباب العالي استلم من المدينة المنورة تقارير من شريف باشا والي جدة وصلت بعد ٥٠ يومًا. وهي تؤكد الأنباء التي وصلت سابقًا عن الانتصار الذي تم على الوهابيين قرب جدة والمدينة وعن انسحابهم إلى عاصمتهم الدرعية»[٩٩].

وكان مقتل أمير الدرعية عبد العزيز ضربة جديدة للوهابيين. ففي خريف عام ١٨٠٣، قتل في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردي من إحدى قرى الموصل. كان هذا الدرويش قد حل ضيفا على البلاط. وعندما سجد عبد العزيز أثناء الصلاة في الصف الامامي من المسلمين هجم هذا الدرويش الذي كان في الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنة خنجر، ثم جرح

أخاه عبد الله. وعم المسجد هرج ومرج وتمكن الجريح عبد الله من ضرب الدرويش بالسيف، واجهز عليه الآخرون في الحال[١٠٠].

وتفيد بعض المعلومات ان قاتل عبد العزيز شيعي كان قد هلك كل أفراد عائلته أثناء غزو كربلاء[١٠١]. وكتب منجين ان عمامته احتوت على رسالة بنص مكتوب بالفارسية: «ربك ودينك يوجبان عليك قتل عبد العزيز. إذا تمكنت من الفرار ستحظى بمكافأة سخية وإذا مت فأبواب الجنة مفتوحة امامك»[١٠٢]. ان هذا يشبه لدرجة كبيرة تكتيك الاسماعيلية في القرون الوسطى والروايات المرتبطة بنشاطهم. وكان ابن بشر يشك في ان مقتل الإمام عبد العزيز كان ثأرًا لكربلاء، وذلك لان القاتل كردي والأكراد سنة كما هو معروف[١٠٣]. يؤكد مؤلف «لمع الشهاب» ان والي بغداد بعث عميلًا إلى الدرعية ودفع بسخاء لعائلته فيما بعد[١٠٤]. ومع ذلك يظل جواب السؤال عن هوية قاتل عبد العزيز ودوافع سلوكه في طي الافتراضات. فقد كان لدى الوهابيين عدد كبير من الأعداء الحاقدين عليهم.

أسرع سعود إلى الدرعية بعد مقتل ابيه، فبايعه سكانها في الحال، واعترفت كل المناطق بالأمير الجديد. وبعث سعود إلى حكام المناطق رسائل عاهدهم فيها على أن يلتزم بالعدل، ولكنه سينتقم بلا رحمة من العصاة والمتآمرين.

السيطرة على الحجاز

في العام التالي، أخذ الوهابيون من جديد يضيقون على خصومهم في الحجاز واستمرت طوال العام المعارك التي شارك فيها الأتراك إلى جانب قوات الشريف.

وفي عام ١٨٠٥، هاجمت قوات غالب، وعددها ١٠ آلاف شخص، اتحاد القبائل الموالية للوهابيين وعلى رأسها الأمير عبد الوهاب أبو نقطة وهو من شيوخ عسير، ومني الشريف غالب بهزيمة فقد فيها بضع مئات من القتلى، وأغلبهم من الأتراك[١٠٥]. ويبدو أن حلفاء غالب البدو قد تركوه، بينما دحرت نهائيًا الفصيلة التركية في قواته. وعلى أثر ذلك، طوق الوهابيون مكة واعاقوا الحج[١٠٦] وتأجج العداء من جديد بين الأتراك والشريف غالب آنذاك، فرفض الأتراك مساعدته.

وفي شتاء ١٨٠٥ - ١٨٠٦، عزم سعود على تسديد ضربة قاضية إلى غالب. وحاصر مكة بدو بزعامة عبد الوهاب أبي نقطة وعثمان المضايفي وسالم بن شكبان (أمير بيشة). وفي تلك الفترة (من ١٨٠٤ حتى ١٨٠٩) كانت الجزيرة العربية تعاني من قحط شديد. وبفضل طرق القوافل الآمنة كانت الأغذية تصل إلى نجد بانتظام، الأمر الذي خفف من أعباء أهاليه. إلا أن الوضع لم يعد يطاق في مكة المحاصرة. وصار الناس يأكلون الكلاب والجلود. ولم تنجح محاولة الانتقام من أنصار الصلح فطلب غالب ذلك الصلح. ودخلت القوات الوهابية مكة[١٠٧].

وسرعان ما اقتنع غالب بعدم جدوى مقاومته للوهابيين، فأعلن الخضوع لهم في عام ١٨٠٦. وفي العام نفسه وصلت إلى مكة جماعة من العلماء الوهابيين وعلى رأسهم الفقيه حميد بن ناصر للتبشير بأفكار تجديد الإسلام[١٠٨]. وكان نجاح الوهابيين في بسط سلطتهم شمالي مكة من الأسباب التي دفعت غالب للكف عن المقاومة.

فمنذ عام ١٨٠٣ تبنى عدد من مشايخ القبائل حرب المذهب الجديد ووصل دعاة الوهابية إليهم. ولم تتكلل بالنجاح محاولة احتلال المدينة المنورة رأسًا في عام ١٨٠٣. إلا أنها استسلمت عام ١٨٠٥ [١٠٩].

وفي الوقت نفسه، احتل الوهابيون ينبع الواقعة تحت سيطرة شريف مكة.

وجرى ضم الحجاز إلى دولة السعوديين. صحيح ان تبعيته للوهابيين كانت أقل من تبعية بعض مناطق نجد أو الأحساء، مثلًا. واحتفظ شريف مكة باستقلال كبير، فلم يدفع الضرائب لا هو ولا رعيته. إلا أن عائداته من الرسوم الجمركية في جدة تقلصت كثيرًا، لانه لم يعد باستطاعته ان يجبي تلك الرسوم من التجار الوهابيين. وتقلصت عائداته الأخرى أيضًا.

يقول بوركهاردت: «ظلت بيد الشريف سلطة كبيرة مع أن الحجاز قد احتل. فإن اسمه ومنصبه الرفيع وتأثيره الشخصي على الكثير من القبائل البدوية التي كانت ما تزال تقاوم سعود، وكذلك الهدايا الثمينة التي يقدمها لسعود عندما يزور هذا الأخير

مكة، كل ذلك جعل زعيم الوهابيين يتساهل بخصوص بعض تصرفات غالب»[١١٠]. كانت سلطة سعود في مكة متوازية مع نفوذ غالب، أما جدة فقد ظلّت بالأساس تحت سيطرة غالب. ولتحقيق المزيد من التوازن عين المضايفي حاكمًا للطائف وخضعت له بعض قبائل الأطراف.

توقف الحج من الأمبراطورية العثمانية

اعتبارًا من عام ١٨٠٧ أخذ سعود يؤدي فريضة الحج سنويًا على رأس قواته. وكان عادة يعين موضعًا قرب المدينة المنورة لتجمع الوهابيين ثم يتحرك نحو الجنوب. وفي الطريق تنضم إليه فصائل من عسير والطائف وبدو من مناطق الحدود بين الحجاز ونجد وعسير ومحاربون من مختلف مناطق نجد وجبل شمر بزعامة أمرائهم. وكان سعود كل مرة يوزع الصدقات في مكة ويتبادل الهدايا مع غالب ويحمل كسوة ثمينة للكعبة[١١١]. وقد شهد ابن بشر حج سعود ذات مرة وترك وصفًا تفصيليًا له[١١٢].

لقد أجلى سعود من الحجاز القضاة والموظفين العثمانيين الذين كانوا في مكة والمدينة. وكان يعزز دومًا تحصينات المدينة المنورة ويحتفظ بحامية قوية فيها يستبدلها كل عام.

واعتبارًا من عام ١٨٠٣، أخذ الوهابيون يعيقون بمختلف الوسائل قوافل الحجاج من أرجاء الأمبراطورية العثمانية، ومنها الشام ومصر. كانت قوافل الحجاج التي تتوارد على الحجاز سنويًا تحضر معها المحمل وهو عبارة عن هودج مزين بفخامة على ظهر جمل يحظى بالتقدير. وفي المحمل كسوة الكعبة أو نسخ من القرآن أو نفائس الأحجار الكريمة. ويسير مع الحجاج موسيقيون يعزفون على الطنبور والطبول وغيرها. وكان بعض الحجاج يحضرون معهم مشروبات وترافقهم محظيات. ولا بد أن يثير ذلك تذمر الوهابيين لانه يتعارض مع أصول الدين ومبادئهم الأخلاقية.

وطالب الوهابيون بأن تصل قوافل الحجاج إلى الحجاز بدون محمل وبدون آلات موسيقية. وأخذوا في الوقت نفسه يزيدون ضريبة الحج. وفي عام ١٨٠٣ دفع

كل حاج شامي إلى الوهابيين ٨ بيزات مقابل حق دخول مكة. وسرعان ما اضطر الحجاج إلى دفع ١٠ بيزات عن الشخص الواحد و١٠ بيزات عن كل من دواب الركوب و٧ بيزات عن كل قنطار من الأحمال و١٠٠ كيسة عن مرور القافلة كلها[١١٣]. وفي عام ١٨٠٥، أخذوا من القافلة الشامية ٢٠٠ كيسة ولكنهم سمحوا بالدخول لحجاج منفردين[١١٤]. ويقول كورانسيز إن الأتراك حاولوا في عام ١٨٠٦ شراء حق أداء فريضة الحج بمبلغ هائل هو ألفا كيسة (مليون بيزة) ولكن قافلة الشام لم تتمكن من دخول مكة مع ذلك[١١٥].

وبغية تأمين السماح بالحج تظاهر والي دمشق يوسف باشا بأنه يلتزم بكل فرائض الوهابية. فقد منع الخمر وأمر بغلق جميع الأسواق في دمشق أثناء الصلاة وفرض تقييدات مشينة على أهل الكتاب (زيًا خاصًا)، ومنع حلق اللحية أيضًا، وكتب بازيلي «إن الوهابيين طالبوا، وليس دون سبب، بعدم احتواء القافلة على غلمان أو حليقي اللحى عمومًا»[١١٦]. وفي عام ١٨٠٧ - ١٨٠٨، حاولت قافلة الشام ان تدخل مكة بدون محمل ولا سلاح ولا موسيقى ولكن دون جدوى[١١٧]. وتوقف في الواقع توارد وجبات كبيرة من الحجاج من الباب العالي.

بريطانيا والصراع من أجل عمان

لم يقتصر تقدم الوهابيين على العمليات الحربية في الحجاز وشمال شرقي الجزيرة العربية في بداية العقد الأول من القرن التاسع عشر. فقد تمكنوا من فرض سيطرتهم تدريجيًا على كل الساحل العربي للخليج بما فيه البحرين وتغلغلوا في أعماق عمان أكثر فأكثر.

كان سكان عمان مكونين من مجموعتين من القبائل: الأباضية الهناوية وسنة الغفري. وكان الصراع بين هاتين المجموعتين قد حدد تاريخ عمان طوال القرون. وهو الذي سهل تغلغل الوهابيين إلى هذه البقاع. ونشير، دون أن ندخل في التفاصيل، إلى أن سلطان، أحد أبناء أحمد بن سعيد، زعيم وإمام الأباضية الذي طرد الفرس من عمان في عام ١٧٤٤، صار حاكمًا لمسقط في عام ١٧٩٢. ولكن سلطان لم

يعتبر زعيمًا روحيًا (إمامًا)، ما أدّى ذلك إلى إضعاف سلطته. وعلى الساحل العماني من الخليج، وهو ساحل تخترقه الروافد والخلجان والمرافئ الملائمة، كانت تعيش قبائل أخرى تمارس التجارة البحرية والقرصنة وصيد اللؤلؤ والأسماك. كانوا من أهل السنة وكانوا منعزلين عن الهناوية وعن الغفري[١١٨]. وفي عام ١٨٠١ شن سلطان بن أحمد حملة على البحرين. وطلب سكان البحرين النجدة من الدرعية. وطرد الوهابيون المسقطيين وألحقوا بهم خسائر فادحة، ولكنهم جعلوا البحرين تابعة لدولة السعوديين[١١٩].

وقبل ذلك بقليل بعث عبد العزيز إلى عمان نسخة من مؤلف لمحمد بن عبد الوهاب، وطالب بتبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة الدرعية. وفهم العمانيون، وأغلبهم من الأباضية، مضمون الكتاب بشكل فريد. فقد كتب المؤرخ العماني ابن رزيق ما معناه ان هذا الكتاب يحلل قتل جميع المسلمين غير المتفقين مع محمد بن عبد الوهاب والاستيلاء على املاكهم واستعباد أبنائهم واستحلال نسائهم دون موافقة ازواجهن[١٢٠]. ورفض الأباضية مطالب الوهابيين[١٢١]، إلا أن الغفري تحالفوا مع امام الدرعية.

وورد في «لمع الشهاب» ان الوهابيين في العقد الأخير من القرن الثامن عشر بدأوا بالحملات على عمان بقيادة مطلق المطيري وإبراهيم بن عفيصان وحولوا مجموعة واحات البريمي إلى قاعدة لهم[١٢٢]. وقد كانت البريمي ملتقى لطرق القوافل المؤدية إلى شواطىء الخليج العربي وخليج عمان والجبل الاخضر.

وفي عام ١٨٠٠ - ١٨٠١ قام جيش الوهابيين بحملة موفقة على عمان قادها سلام الحرق أحد مملوكي عبد العزيز. واقسم صقر حاكم مدينة رأس الخيمة، التي هي مرفأ هام من الناحية الاستراتيجية ومركز لقبيلة القواسم، يمين الولاء للوهابيين[١٢٣]. ووقعت تحت سيطرتهم المشيخات والإمارات الصغيرة الأخرى على شاطىء الخليج العربي.

وغدا حاكم مسقط سلطان في تبعية للدرعية. حاول ان ينظم المقاومة ضد الوهابيين فصمم على تقوية الصلات مع والي بغداد الذي كان مبعوثوه يحرضونه من

زمان على محاربة العدو المشترك. وفي أواخر عام ١٨٠٤ توجه شخصيًا مع أسطول إلى البصرة. وفي طريق العودة إلى مسقط نشبت معركة مع أسطول رأس الخيمة قتل فيها سلطان[١٢٤].

وعاد إلى مسقط قريبه بدر الذي كان منفيًا إلى الدرعية مؤملًا بأن يركز أقدامه بمساعدة حماته الوهابيين. وبقي على دست الحكم عدة سنوات وحاول غرس المذهب الوهابي ولكن دون نجاح كبير[١٢٥]. لكن أبناء سلطان بن أحمد ثاروا في عام ١٨٠٧ وازاحوا بدر، وفي البداية التزم حاكم مسقط الجديد سالم ومن بعده أخوه سعيد بالخضوع للسعوديين، ولكنهما رفضًا فيما بعد دفع الإتاوات وأخذا يستعدان للعمليات الحربية[١٢٦]. وطلب سعيد النجدة من الشاه الفارسي فأرسل إليه هذا بضعة آلاف من الجنود[١٢٧]. وفي ١٨٠٨- ١٨٠٩ بدأ المسقطيون مع حلفائهم صحار العمليات الحربية ضد رأس الخيمة ولكنهم أعلنوا عن خضوعهم للسعوديين بعد أن فقدوا عدة آلاف من الأشخاص[١٢٨].

وغدا سكان الساحل العماني للخليج العربي، وخصوصًا قبيلة القواسم الذين توحدوا تحت سلطة السعوديين وكفوا عن الحزازات الداخلية، قوة كبيرة راح اسطولها المكون من بضع مئات من السفن الكبيرة والصغيرة يجوب الخليج سيدًا فيه. وفرضوا الرسوم والضرائب ونهبوا السفن التجارية العائدة لشركة الهند الشرقية والتي تمخر البحر بين بومباي والبصرة[١٢٩].

ونعيد إلى الأذهان ان المؤرخين الغربيين يركزون على «الطابع القرصني» المزعوم لسكان ساحل الخليج العربي. إلا أن الحقيقة هي انهم كانوا يعيشون بالدرجة الأولى على الملاحة البحرية التجارية (دون أن يستنكفوا عن القرصنة إذا سنحت الفرصة) وكانوا يعتبرون السفن البريطانية منافسة فتاكة لهم. وينبغي على الأغلب اعتبار «قرصنتهم» ضد السفن البريطانية حربًا ضد القادمين غير المرغوب فيهم.

وقد اصطدم توسع إمارة الدرعية في عمان وساحل الخليج العربي مع المصالح البريطانية الاستعمارية.

في أواخر القرن الثامن عشر، ترسخت سيطرة بريطانيا نهائيًا على الهند، حيث تمكنت بعد صراع دام قرنين تقريبًا من التفوق على سائر منافسيها الأوروبيين. وكان الإنجليز قد سعوا إلى الإبقاء على الخليج العربي مفتوحًا أمام تجارتهم وخاليًا من نفوذ أي دولة يمكن أن تهدد الهند. وظلت فرنسا أخطر دولة عليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لذا اعتبر الإنجليز المتمركزون في الهند حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ مظهرًا للخطر القديم. ولم يغير انهزام الفرنسيين في مصر فيما بعد خططهم (المشكوك في إمكان تحقيقها) الرامية إلى التقدم نحو الهند عن طريق الشام والعراق والخليج العربي مثلًا.

وعلى تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صار الوكلاء التجاريون البريطانيون في البلدان المرتبطة بالخليج العربي يتحولون الواحد تلو الآخر إلى ممثلين سياسيين. وفي عام ١٧٩٨، وقعت بريطانيا معاهدة مع حاكم مسقط موجهة ضد الفرنسيين، ولكنها أرست بداية تبعية مسقط لبريطانيا. وبعد عامين وصل ممثل بريطانيا إلى المدينة.

وحاولت بريطانيا ان تقيم علاقات ودية مع حكومة السعوديين التي كانت تتقوى آنذاك. فكانت وكالة شركة الهند الشرقية، التي كانت موجودة بالبصرة في أواخر القرن الثامن عشر، تبعث الهدايا دومًا إلى سعود[١٣٠]. وكانت للإنجليز مصلحة في دعم تجارتهم المنتعشة بين بومباي والبصرة، وكذلك في سلامة الطريق البريدي من الهند إلى الشام عبر البصرة. وحاولوا إقناع الوهابيين بعدم المساس بسعاة البريد من البصرة إلى حلب[١٣١].

بيد أن الإنجليز لم يكونوا يتورعون كذلك عن استخدام القوات العسكرية. فإن الفصيل الوهابي الذي اقترب في عام ١٧٩٨- ١٧٩٩ من الوكالة البريطانية المتواجدة آنذاك في أراضي الكويت الحالية قد تراجع أمام مدافع سفينة حربية بريطانية[١٣٢]. وبغية تسوية النزاع على نحو ما، وصل إلى الدرعية رينو، ممثل شركة الهند الشرقية[١٣٣]. وكان يريد الحصول من الوهابيين على ضمانات للمصالح البريطانية في الخليج العربي، ولكنه لم يبلغ مقصده. وحاول الإنجليز في عام

١٨٠٥ ان يفرضوا الحماية على الكويت إلا أن أميرها عبد الله الصباح فضل ان يبقى مستقلًا[١٣٤].

وفي العقد الأول من القرن التاسع عشر، شنت السفن الحربية البريطانية عمليات حربية مباشرة ضد أسطول عرب عمان، وفي عام ١٨٠٥، شنت أول حملة على القواسم[١٣٥]. وغدا المسقطيون حلفاء طبيعيين للإنجليز.

وفي عام ١٨٠٩، زحف سعيد بن سلطان بقواته واسطوله الذي قاده ضابط إنجليزي على رأس الخيمة. وتوجهت إليها عمارة حربية بريطانية. وقام الإنجليز بإنزال قواتهم بعد أن دحروا أسطول العمانيين الضعيف التسليح. وأزالوا المدينة عن سطح الأرض ودمروا كل المستودعات وأحواض بناء السفن وقتلوا السكان المحليين[١٣٦]. وكانت هزيمة حلفاء السعوديين وأتباعهم ضربة شديدة للدرعية.

وأخذ حاكما البحرين والزبارة من آل خليفة يبديان تذمرهما من سلطة الوهابيين فاقتيدا إلى الدرعية رهينتين. وهرب أبناؤهما إلى مسقط وطلبوا النجدة من الإنجليز. ودمرت السفن الحربية البريطانية حامية الوهابيين في الزبارة ثم في المنامة. وأخفقت محاولات الدرعية لاستعادة سلطتها في البحرين مع أن البحرانيين ظلوا يدفعون جزية ما إلى السعوديين[١٣٧].

وبعد جلاء الإنجليز من رأس الخيمة عمرها سكانها من جديد. وعلى الرغم من تدمير رأس الخيمة مجددًا في عام ١٨١٦، فقد تمكن القواسم في العام التالي من جمع قوات بحرية كبيرة نسبيًا وظهروا على بعد ٧٠ ميلا عن بومباي[١٣٨]. ولكن تلك الأحداث جرت فيما بعد.

في مطلع القرن التاسع عشر، سعى الإنجليز إلى فرض سيطرتهم على البحر في هذه المنطقة. ولم تكن سياستهم آنذاك تنص على تدخل نشيط في الأحداث بالجزيرة العربية. فلم تكن قوى الإنجليز كافية لهذا الغرض، ثم ان المكافأة التي يتوقعونها في صحارى الجزيرة ضئيلة للغاية. وكان خصومهم الفرنسيون قد ابعدوا عمومًا عن مسرح الجزيرة مع أن نابليون، كما يعتقد المؤرخ التركي المعروف أ.

جودت، كان بوسعه أن يقيم اتصالا مع السعوديين[١٣٩]. إلا أن فرنسا كانت مشغولة في مسارح العمليات الحربية الأوروبية، ثم ان الفرنسيين فقدوا في عام ١٨١٠ جزيرة موريشيس القاعدة الرئيسية لاسطولهم في المحيط الهندي.

وقد بلغ نفوذ الوهابيين في عمان أوجه في عهد القائد العسكري السعودي مطلق المطيري في بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من الدم البريطاني، فقد اضطر حاكم مسقط سعيد بن سلطان إلى دفع ٤٠ ألف ريال لأمير الدرعية [١٤٠]. ويبدو أن الوهابيين توغلوا في تلك الفترة نفسها إلى الجنوب الغربي، إلى ما وراء مسقط، واقتحموا حضرموت، حيث كان أوائل المبشرين الدرعيين قد وصلوا في عام ١٨٠٣ـ ١٨٠٤. ولم تكن جهودهم الدعائية موفقة آنذاك، إلا أن حضرموت دفعت هذه المرة الجزية إلى الدرعية[١٤١]. غير أن مطلق المطيري قتل في عام ١٨١٣ خلال مناوشة بسيطة. وفي تلك الأثناء، بدأ الغزو المصري للجزيرة، فأخذ الوهابيون يسحبون قواتهم من عمان. وكان بعد هذا البلد وعداء الأباضية للوهابية ومقتل القائد العسكري الموهوب مطلق وغزو المصريين للحجاز والإجراءات المضادة التي اتخذتها بريطانيا ـ كل تلك العوامل أعاقت توسع إمارة الدرعية في جنوب شرقي الجزيرة.

الزحف على عسير واليمن

على تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انضمت عسير إلى الوهابيين. وعلى أثرها رضخت إمارة أبو عريش للدرعية[١٤٢]. ويصعب القول ان سيطرة الوهابيين على المناطق الواقعة جنوبي مكة كانت سيطرة كاملة. فهناك على الأصح حلفاء للسعوديين بحقوق منقوصة، وليس رعية بالمعنى الكامل.

وفي الوقت الذي زحف فيه الوهابيون على اليمن، كان الوضع هناك ملائمًا لتوسّعهم. فالبلاد منقسمة على نفسها بسبب الخلافات الداخلية والفوضى العشائرية والإقطاعية. وفقد ائمة الزيدية سلطتهم على المنطقة الساحلية إلا أن التوسّع في اليمن لم يحقق نصرًا كاملًا. إن حملة قوات أمير الدرعية عام ١٨٠٥ـ ١٨٠٦ على

نجران لم تتكلل بانتصار حاسم مع أن حاميات وهابية ظلّت في قلاع تلك المنطقة. ووقعت الحديدة في أيدي الوهابيين مرارًا. وفي الواقع، ظلّت المنطقة الجبلية في اليمن مستقلة مع أن قوات السعوديين حاصرت صنعاء في عام ١٨٠٨ (١٤٣).

لقد مارس الوهابيون دعاية نشيطة في اليمن وكانوا يرسلون إليها كل عام تقريبًا جماعة من العلماء ولكن دون جدوى. وكان الشافعيون من سكان الساحل ـ تهامة اليمن ـ يتعاطفون مع المذهب الوهابي بسبب عدائهم لائمة صنعاء الزيديين. إلا أن الشافعيين ما كانوا راغبين بالتفريط في استقلالهم الفعلي والخضوع للسعوديين.

وكان حمود أبو مسمار صاحب أبي عريش الذي شملت سلطته جزءًا من تهامة اليمن قد انضم إلى الوهابيين، حتى أنه شارك، على ما يبدو، في العمليات الحربية ضد امام صنعاء(١٤٤). ولكن ما كان يقلقه هو ارتفاع نجم جاره ومنافسه حاكم عسير عبد الوهاب أبو نقطة تحت رعاية الوهابيين. ويقول ابن بشر إن سعود استدعى كلا الرجلين المتنافسين إلى الدرعية وحاول إصلاح ما بينهما ولكن دون جدوى. واحس سعود بأن روح التمرد تتصاعد عند أبي مسمار فأمره بشن حملة على صنعاء إلا أن صاحب أبي عريش رفض.

وبعد أن توافرت لدى سعود ادلة على عدم ولاء تابعه المشاكس هذا أخذ يجمع المحاربين من أرجاء الجزيرة كافة للقضاء عليه. وبلغ عدد القوات الوهابية حوالي ٥٠ ألف شخص، مع أن هذا الرقم قد تكون فيه مبالغة. وكان يقاتل إلى جانب أبي مسمار بدو من نجران واليمن. وفي أواخر عام ١٨٠٩، نشبت معركة ضارية قتل فيها أبو نقطة. ولكن قوات أبي مسمار منيت بالهزيمة، ففر من المعركة وراح يعزز مواقعه في عاصمته أبو عريش التي لم يتمكن الوهابيون من احتلالها. وبأمر من سعود شغل منصب أبي نقطة قريبه طامي بن شعيب(١٤٥).

غزو العراق والشام

إذا تناولنا من جديد الوضع في الحدود الشمالية الشرقية للدولة السعودية نرى للوهلة الأولى ان الأحداث تطورت بصورة ملائمة للوهابيين.

فما كاد سليمان باشا يقضي نحبه في آب (أغسطس) ١٨٠٣، حتى بدأ صراع مستميت من أجل السلطة شارك فيه الإنجليز والفرنسيون بشكل محموم. وتمكن كيخياه علي قريب سليمان من القضاء على منافسيه فصار واليًا على بغداد. واحتفظ بالسلطة خمس سنوات تقريبًا. كانت الولاية مضعضعة بسبب القلاقل الداخلية والانتفاضات الشعبية وبسبب نضالات الاكراد المتواصلة. وفي آب ١٨٠٧، ذبح علي في أحد المساجد. وبعد قليل استولى على منصبه كوجوك سليمان الذي ظل واليًا لمدة ثلاث سنوات وانشغل بالحرب ضد الأكراد والوهابيين حتى قتل في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨١٠. واستمرت الصدامات الحربية مع الفرس في النصف الثاني من العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وطوال السنوات التي أعقبت تدمير كربلاء، قام الوهابيون بغزوات عنيدة على العراق. ولكن حملاتهم التي استمرت حتى عام ١٨١٠ كانت محصورة في نهب القرى غير المحمية وفي نهب البدو. ورغم المشاكل الداخلية في العراق لم يتمكن الوهابيون من تحقيق نجاحات تضاهي غزو كربلاء.

ولم تسفر عن انتصارات حاسمة كذلك غزوات الوهابيين على الشام مع أن القبائل البدوية فيها أخذت تدفع الجزية لأمير الدرعية في مطلع القرن التاسع عشر[١٤٦]. وفي عام ١٨٠٨، بعث سعود رسالة إلى مشايخ دمشق وحلب ومدن الشام الأخرى طالبًا تبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة سعود ودفع الجزية. وساد الذعر والاضطراب ودمرت فصائل الوهابيين القرى في أطراف حلب، وتغلغلت في فلسطين في الوقت نفسه. وقد اتخذت إجراءات عاجلة لحماية المدن إلا أن الوهابيين لم يتجرأوا على اقتحامها[١٤٧].

وفي عام ١٨١٠، قام سعود مع بضعة آلاف من المقاتلين بغزوة جسورة على الشام ونهب بضع عشرات من القرى ووصل إلى دمشق تقريبًا[١٤٨]. وكانت تلك آخر حملة له في الاتجاه الشمالي.

لقد بلغت إمارة الدرعية أقصى حدود توسعها. وانتشرت سلطة السعوديين في شبه الجزيرة العربية كلها تقريبًا، ودفع لهم الجزية حتى سلطان مسقط وامام اليمن

وحكام حضرموت. وخضعت لأمير الدرعية القبائل القاطنة في البوادي والفيافي الممتدة حتى أراضي الهلال الخصيب. ويقدر مؤلف «لمع الشهاب» عدد السكان الخاضعين للسعوديين في نجد بـ ٣٠٠ ألف وفي الحجاز وتهامة ٤٠٠ ألف وفي اليمن ٤٠٠ ألف أو أكثر وفي شرقي اليمن ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف وفي شرقي الجزيرة ٤٠٠ ألف وفي القبائل المترحّلة، مثل عنزة، في البوادي بين المدينة المنورة والشام حوالى ٤٠٠ ألف، وفي عمان وسواحلها من بدو وحضر ٢٠٠ ألف[١٤٩]. وهكذا ضمت إمارة الدرعية عمومًا حوالى ٢,٤ مليون نسمة. وهذا الرقم يبدو واقعيًا، مع أن ما يخص اليمن قليل أو ربما لم يدرج المؤلف عمدا هذا البلد كله ضمن دولة السعوديين.

الفصل الرابع

النظام الاجتماعي والسياسي في إمارة الدرعية

لم تغير الوهابية النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية مع أن فئة الوجهاء والأعيان في إمارة الدرعية الشاسعة قد برزت من بين سواد السكان وكان نشاطها الإداري المبكر منظمًا بعض الشيء. ان عائدات الوجهاء الحاكمين من النهب والجزية ومصادرة الأموال وفرض الضرائب واستلام بدلات الإيجار قد اتسعت، ولكنها لم تكن تختلف من حيث الجوهر عن الممارسات السابقة.

النهب في الغزوات والغرامات الحربية

كانت حملات الوهابيين تحت راية تجديد الدين تستهدف تحقيق مهمات دنيوية بحتة تتلخص في زيادة ثروات حكام الدرعية ووجهاء الجزيرة المرتبطين بها (وجهاء نجد بالدرجة الأولى) وكذلك الجند المساهمين في الغزوات. ويدل ما كتبه مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوروبيون على أن الغزو ظل الطريق الرئيسي لحصول الوجهاء على الثروة. وكتب المؤرخ الوهابي ابن بشر يقول، بعد أن عدد الضرائب التي وردت إلى الدرعية: «وما ينقل إليها من الأخماس والغنائم اضعاف ذلك»[١]. ويعتقد بور كهاردت كذلك ان الأخماس تحتل المرتبة الأولى بين عائدات حاكم الدرعية[٢].

كانت غزوات الوهابيين الأولى تنتهي بالاستيلاء على بضع عشرات من الإبل والأغنام ونهب الحقول أو بساتين النخيل، أما في سنوات أوج قوتهم، فقد كانت

غنائمهم تبلغ عشرات الآلاف من رؤوس الماشية المنهوبة. وفي عام ١٧٩٦ بعد دحر قوات شريف مكة، وقع في أيدي الوهابيين ٣٠ ألفًا من الإبل و ٢٠٠ ألف من الأغنام والماعز[٣]، إذا لم تكن في ذلك مبالغة.

ويقول ابن بشر انه عندما جرى في عام ١٧٩٠ - ١٧٩١ دحر قبائل مطير وشمر حصل الوهابيون على «غنائم كثيرة من الإبل والغنم والأثاث والأمتعة». وسرعان ما تعرّض سائر البدو لمثل هذا المصير. فقد كان الوهابيون يطاردونهم يومين أو ثلاثة «ويأخذون منهم الأموال ويقتلون الرجال»[٤]. ان المصنّفات التاريخية العربية غاصّة بوقائع من هذا النوع.

وكما هو حال الغزوات البدوية كان النهب الوهابي يسفر عن تجريد القبائل المستضعفة ليس فقط من المنتوج الزائد، بل كذلك من قسم كبير من المنتوج الضروري، وغالبًا ما يحكم على السواد الأعظم من السكان المنهوبين بالموت جوعًا. ولم يقتصر النهب على البسطاء من أبناء القبائل أو سكان المدن، فقد تعرّض للنهب الوجهاء والأعيان أيضًا. إلا أن هؤلاء كانوا يعوضوا عن خسائرهم على حساب بسطاء البدو أو الفلاحين. وكان الوهابيون المنتصرون يرأفون عادة بحال الوجهاء، ويفضلون إقامة علاقات طيبة معهم. وكان الوجهاء المغلوبون يفقدون استقلاليتهم السابقة، ولكنهم يصبحون جزءًا من الطبقة الحاكمة في الدولة السعودية.

ويدل كبر حصة غنائم الحرب في مداخيل الدول الوهابية على طابعها الحربي التوسعي. فقد تعرّضت للنهب القبائل والمدن والواحات والمناطق غير المنضمة إليها أو التي حاولت التخلص من سلطة أمراء الدرعية. وكانت الحروب والغزوات والنهب والتوسع المتواصل من أهم شروط وجود الدولة السعودية.

وكان مستوى تطور القوى المنتجة في الجزيرة العربية ما يزال عاجزًا عن تمكين الوجهاء والأعيان الوهابيين من الاستئثار بمنتوج عمل السكان بواسطة الأنواع الأكثر تنظيمًا من الاستغلال بالمقادير نفسها التي يؤمنها النهب السافر. وبغية الحفاظ على مداخيل الطبقة الحاكمة تعين على إمارة الدرعية ان تتوسع بلا انقطاع. وفي حالة توقف التوسّع لن يتمكن الوجهاء الحضر، وخصوصًا وجهاء البدو، من استلام

المداخيل التي تعودوا على استلامها من السكان الخاضعين لهم. وفي تلك الحالة تنتفي دوافع توحيد الوجهاء والأعيان في إطار دولة موحدة. وفي ذلك يكمن التناقض الداخلي الرئيسي للدولة الوهابية الأولى التي كانت تحمل في احشائها منذ لحظة ظهورها جنين هلاكها وسقوطها.

وكان المصدر الآخر للإثراء هو الغرامات، وهي عبارة عن جزية نقدية أو عينية تفرض على القبائل أو الواحات الخاضعة للوهابيين أو المنضمة إليهم. وكانت الغرامات تفرض مرة واحدة، ولكن تسديدها قد يستمر عدة سنوات فيكتسب شكل الجزية أو الضريبة المتواصلة.

ففي عام ١٧٨٧- ١٧٨٨، فرضت على أهالي واحات وداي الدواسر الذين أخضعهم الوهابيون غرامات بمبلغ ألفي ريال كان يجب تسديد ألف منها فورا[٥].

وبعد أن مني أمير الأحساء عريعر بالهزيمة في هجومه على الوهابيين تهيأ أمير الدرعية للتنكيل بحلفائه الذين انتقلوا إلى صف الإحسائيين. وطلبت منه واحات المحمل وثادق ان يعفو عنها، فعفا عها، ولكنه فرض عليها، كعقوبة، غرامات «من ثمر الزرع والتمر»[٦].

وفي عام ١٧٦٧- ١٧٦٨، انضم إلى الوهابيين سكان الوشم وسدير و«بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة». والتزموا بأن يدفعوا للدرعية غرامات نقدية وعينية[٧].

وعندما اخضع أمير الدرعية سكان الحوطة والحريق واليمامة والسلمية وقسم من الخرج فرض عليهم جزية «بما شاء من النقود»[٨].

وفرض الوهابيون غرامات بشكل نقود وأسلحة وأفضل الخيول مع عدتها على قبائل البدو المجاورة لمكة[٩].

الاستيلاء على الملكية العقارية

لم يورد المؤرخون الوهابيون عن انتزاع الأراضي من الفلاحين وتحويلهم إلى مستأجرين إلا أنباء متفرقة وشحيحة.

عندما احتل عبد العزيز الرياض «ملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها»[10]. ويبدو أن مساكن أهل الرياض غدت ملكًا لأمير الدرعية. ولكن ماذا يستفيد من هذه الملكية إذا كان الكثير من سكان الرياض قد هربوا؟ وهل يستطيع الأمير ان يؤجر تلك الدور؟ لعل أمير الدرعية قد باع في أغلب الظن الأدوات المنزلية المنهوبة وليس واضحًا كذلك كيف جرى التصرّف بالنخيل. فمن الذي صار يسهر عليها؟ وما الذي يعنيه المؤرخ بقوله «إلا قليلها؟» ربما كانت هذه النخيل ملكًا لانصار الوهابيين من أهالي الرياض أو ان عبد العزيز وزعها على المقربين إليه.

ونجد معلومات أكثر تحديدًا عن بساتين النخيل في الخرمة. فقد احتل الوهابيون الواحة ووافق سكانها على إحالة النخيل إلى بيت المال[11]. أما باقي المزروعات المغروسة بين النخيل أو في الحقول الخالية من النخيل فلا نعرف عنها شيئا. (وبالمناسبة فإن شروط هذا الاتفاق لم تنفذ. فقد اعتبرها عبد العزيز سهلة جدًا، ولذا أمر بتدمير أسوار الواحة وتهديم قسم من الدور وطرد جماعة من السكان).

وفي معرض الحديث عن مداخيل الدولة السعودية أشار بور كهاردت إلى أن بيت المال (الخزينة) يقسم إلى قسمين أحدهما للامام والآخر للدولة. «ويتسلم زعيم الوهابيين القسم الأكبر من مداخيله من عائدات أملاكه الخاصة. وقد جرت العادة على أن ينهب إحدى مناطقه أو مدنه إذا كانت قد تمردت لأول مرة. وإذا تكرر التمرد لايكتفي بالنهب، بل يصادر كل أراضي السكان ويحيلها إلى بيت المال. ثم يهدي قسمًا منها إلى الغير، ولكنه يترك القسم الأكبر لأصحابها السابقين الذين يتحولون إلى مستأجرين ويجب عليهم أن يدفعوا له تبعًا للظروف ثلث المحصول أو نصفه. ان ملكية الأشخاص الذين شاركوا أنشط مشاركة في التمرد تحال إلى غيرهم. أما هم أنفسهم فيطردون أو يقتلون... وفي الوقت الحاضر يعود القسم الأكبر من الملكية العقارية في نجد إلى بيت المال أي خزينة الدولة. وان ملكية كل الأراضي في القصيم التي كان سكانها يتمردون دومًا قد تركت لهم على سبيل الإيجار. والكثير من القرى في الحجاز وفي الجبال الواقعة على جانب اليمن يعود إلى بيت المال أيضًا»[12].

ان نظام جباية المال من السكان الخاضعين الذين يتحدث عنهم المقتطف أعلاه يبدو على العموم ناجزًا وكاملًا، مع أن الكثير من جوانبه يبقى غامضًا، ومن ذلك، مثلًا، مسألة ما إذا كان بدل الإيجار يرد إلى بيت المال أو يوضع تحت تصرف أمير الدرعية شخصيًا. ومن يقصد بوركهاردت بكلمة «الغير»، هل يقصد الفلاحين الذين استقروا في المناطق التي استولى عليها الوهابيون أم يقصد ملاكا جدد يستأجر الملاك السابقون الأراضي منهم؟ سؤال تصعب الإجابة عنه.

ان معطيات هذا الرحّالة الأوروبي والمصنّفات العربية تكمل بعضها بعضًا، ولكنها متعارضة بعض الشيء. وهناك مبررات تجعلنا نصدق بقدر أكبر ما يقوله مؤرخو الجزيرة. فإن ابن بشر، مثلًا، كانت له علاقات مع موظفي المالية في البلاط وقد استقى معلوماته منهم شخصيًا. أما بوركهاردت، فكان يتناول الكثير من ظواهر الحياة في الجزيرة من مواقع الأوروبي المتحيزة دون قصد.

ان مؤرخي الجزيرة لا يتحدثون إلا نادرًا جدًا عن ملكية الأراضي المحالة إلى بيت المال. وهم يشيرون في عدة حالات فقط إلى وجود الخراج (ضريبة الأرض) في الدولة الوهابية، ولكنهم لا يحددون طابعه. وإذا كان الخراج هو إيجار الأرض الذي يقدم لقاء أراضي الدولة، فإن معطيات بوركهاردت تحصل على برهنة كافية إلى حد ما. وفي هذه الحالة يمكن الكلام عن إعادة توزيع مكثفة لملكية الأراضي في الدولة السعودية وعن التوافق بين ريع الأرض والخراج الذي يجبيه بيت المال.

وعندما أبدى حليف الوهابيين أمير حريملا مبارك بن عدوان تذمرًا اقترح عليه محمد بن عبد الوهاب وأمير الدرعية قائلين «خذ من نخيل حريملا ما تريد واجلس عندنا ولك الحشمة والوقار وخراجك علينا». وصار مبارك بن عدوان أسيرًا فخريًا عند الوهابيين[١٣]. ولكنه، على ما يبدو، احتفظ بريع بساتين النخيل.

الزكاة

من أهم المستحدثات في إمارة الدرعية فرض ضريبة مركزية منتظمة على جميع سكان الدولة بشكل الزكاة المنصوص عليها في القرآن لمساعدة الفقراء والمساكين والتي هي واحد من أركان الإسلام. ان الأهداف الدينية المتجسدة في بعث الزكاة

تستجيب بأفضل شكل لمتطلبات ومهمات الدولة السعودية الإقطاعية. وأشار ابن بشر وهو يتحدث عن استيفاء الزكاة إلى أن «الإسلام الحقيقي» انتشر في نجد وقال «بعثت العمال لقبض الزكاة وخراج الثمار بعد أن كانوا قبل ذلك يسمون عند الناس مكاسًا وعشارًا»[١٤].

ويقول هذا المؤرخ النجدي انه كانت تخرج من الدرعية سنويًا جماعات لقبض الزكاة من البدو. وكل جماعة تتكون من سبعة أشخاص تضم أميرًا وكاتبًا وحامل الدفتر وجابيًا لجمع النقود من بيع الإبل والغنم والماعز المخصصة لتسديد الزكاة، بالإضافة إلى ثلاثة حراس مسلحين يقومون بجمع القطعان واقتيادها وحراستها. وكان حكام الدرعية يرسلون إلى البدو أكثر من سبعين جماعة لقبض الزكاة. وكان هناك مخولون خاصون باستيفاء الزكاة من محاصيل المزارعين ومن القرى الصغيرة والكبيرة وموظفون لاستيفاء الزكاة من البضائع[١٥].

وكتب بور كهاردت يقول «كان جباة الزكاة يرسلون سنويًا من الدرعية إلى مختلف المناطق والقبائل. وهم يستلمون مبلغًا نقديًا معينًا مقابل عملهم وكذلك نفقات السفر»[١٦].

وتبين معلومات ابن بشر ان جماعات قبض الزكاة كانت تعيش على حساب الأشخاص الذين تستوفى عنهم الزكاة[١٧]. وهذا يهيىء الفرصة للفساد.

وتبلغ الزكاة عشر محصول الأراضي الديمية وخمس محصول الأراضي الإروائية وربع العشر من رأسمال التاجر[١٨]. ويقول بور كهاردت انهم كانوا يأخذون ريالًا من قبيلة عنزة لقاء كل خمسة جمال وثمن نعجة واحدة لقاء كل ٤٠ رأسًا من الغنم، وما يعادل ٧ شلنات على كل حصان[١٩]. ولكنه يمكن الافتراض بأن مبلغ الزكاة يختلف باختلاف المناطق.

ويصعب تحديد المبالغ الإجمالية للزكاة التي كانت ترد إلى الدرعية، مع أن ابن بشر قد اورد بعض الأرقام وكتب يقول: «وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي قال كنت كاتبا لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز. فكان ما حصل منهم من

الزكاة في سنة واحدة أحد عشر ألف ريال. قال وكان عمال بريه من مطير رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود. فكان ما جبى منهم اثني عشر ألف ريال. ومن هتيم سبعة آلاف ريال. وكانت زكاة مطير في تلك السنة ثلاثين ألف ريال. وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومَن في نجد من عنزة يبعث إليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة. وأخبرني من اثق به قال أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال بوادي الشام، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال. قلت ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة، ومن قحطان وبوادي حرب وعتبية وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز الحصر. وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيب من ابله أو غنمه شيئًا عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال»[٢٠].

ويبدو أن حجم واردات الزكاة في الدرعية قد ازداد بقدر أكبر في عهد سعود بن عبد العزيز.

فقد قال عنه ابن بشر ما يلي: «وأما عماله الذين يبعثهم لقبض زكاة الإبل والغنم في بوادي جزيرة العرب مما وراء الحرمين الشريفين وعمان واليمن والعراق والشام وما بين ذلك من بوادي نجد فذكر لي بعض خواص سعود ممن قد صار كاتبا عنده، قال: كان يبعث إلى تلك البوادي بضعًا وسبعين عاملة في كل منها سبعة رجال... وأخبرني ذلك الرجل ان سعودا بعث عماله لبوادي الغز المعروفين في ناحية مصر، وبعث عماله أيضًا لبوادي يام نجران وقبضوا من الجميع الزكاة وقال: آتوا عمال آل فدعان المعروفين من بوادي عنزة بزكاتهم بلغت أربعين ألف ريال من غير خرج العمال وثماني أفراس من الخيل الجياد. قال: وهذا أكثر ما تأتي به العاملة من تلك العمال كل سنة، وأقل ما تأتي به العاملة من أولئك العمال المذكورين ثلاثة آلاف ريال والفين ونصف، قال: والذي يأخذه سعود على بندر اللحية المعروفة في اليمن مائة وخمسون ألف ريال وهو لا يأخذ إلا ربع العشر، ومن بندر الحديدة نحو ذلك....

قلت : وأما غير ذلك مما يجيء إلى الدرعية من الأموال من القطيف والبحرين

وعمان واليمن وتهامة والحجاز وغير ذلك وزكاة ثمار نجد وعروضها وأثمانها لا يستطيع أحد عده ولا حصره...»[٢١].

ولم يذكر ابن بشر المبلغ الإجمالي لمداخيل أمراء الدرعية. وربما لا يعرف ذلك المبلغ الأمراء أنفسهم. وقد قدر بوركهاردت العائدات السنوية لبيت مال الوهابيين بمليون ريال، علمًا بأن أفضل الأعوام عاد عليهم بمليوني ريال[٢٢]. إلا أن الرحّالة لم يؤكد على ما إذا كان هذا الرقم يضم غنائم الحرب ومختلف أنواع الغرامات أم انه يضم الضرائب فقط.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» بأن العائدات الضرائبية السنوية لسعود في عز جبروته بلغت كما يلي: ٤٠٠ ألف ريال من سكان نجد البدو والحضر و ٥٠٠ ألف من بدو الشام واليمن وتهامة وعمان وحوالى ٤٠٠ ألف من الأحساء و ٢٠٠ ألف من القطيف و ٤٠ ألفًا من البحرين، و ٣٠٠ ألف من اليمن (من السكان الحضر على ما يبدو) و ٢٠٠ ألف من بدو الحجاز وبعض المناطق الأخرى و ١٢٠ ألفًا من رأس الخيمة (بما فيها حصة النهب) و ١٢٠ ألفًا من حضر وبدو(؟) عمان، فضلًا عن نفقات القوات الوهابية هناك. أما غنائم الغزوات فلا تعد ولا تحصى. وكان سعود شخصيًا يستلم مداخيل كبيرة بشكل هدايا من الحجاج الأثرياء،

وكانت الأراضي التي يملكها في نجد والأحساء تعود عليه بـ ٣٠٠ ألف ريال[٢٣] وهكذا يصل المبلغ الإجمالي لمداخيل أمير الدرعية بشكل ضرائب حسب معلومات «لمع الشهاب» إلى مليوني ريال تقريبًا. وهذا يتفق مع ما قاله بوركهاردت.

كانت عائدات الأمراء السعوديين هائلة بالنسبة للجزيرة العربية آنذاك. ولكنه ينبغي ان نأخذ في الاعتبار التذبذب الكبير في الأسعار من موسم لآخر أو من منطقة لأخرى. ويكفي القول ان حمل الحطب في الدرعية، كما يقول ابن بشر، يكلف ٥-٦ ريالات وان ثمن النخلة الواحدة يصل إلى ٥٠ ريالا[٢٤].

ان طابع الدولة السعودية التي كانت تخدم بالأساس مصالح وجهاء الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في ميدان التوزيع المركزي للثروات. ولكنه لا يمكن تحديد المبالغ المطلقة والنسبية لنفقات الدولة إلا بصورة تقريبية.

البلاط السعودي

ان الأموال التي تنفق على بلاط أمراء الدرعية وأسرة محمد بن عبد الوهاب تشكل واحدًا من أبواب الصرف الرئيسية. لقد تجمعت كملكية شخصية للسعوديين ثروات بشكل أراض في الواحات وماشية وأحجار كريمة ومجوهرات وأموال أخرى. وكتب ابن بشر يقول ان ثلث الضرائب المستحصلة في منطقة الأحساء ينفق على بلاط السعوديين وأسرة ابن عبد الوهاب والحاشية[٢٥].

ان عوائل الوجهاء العرب عمومًا كبيرة للغاية. فالأموال الكثيرة تمكن أبناء الوجهاء من التزوج من أربع نساء على الأقل كما ينص القرآن، بالإضافة إلى الجواري. وان التغذية الجيدة والظروف الصحية الأفضل بعض الشيء مما لدى باقي السكان تقلل من وفيات الأطفال في العوائل الموسرة. وكانت عائلة السعوديين كبيرة جدًا (الأمير وإخوانه وأولاده وأعمامه وأبناء عمومته وأبناؤهم). ويقول بوركهاردت انه كان لدى سعود عدة زوجات ووصايف حبشيات[٢٦].

ان أمراء الدرعية بعد أن انضووا تحت لواء الوهابية التي باركت سلطتهم والتي تدعو إلى البساطة والاعتدال صاروا يعيشون بقدر كبير من البذخ والفخفخة بالنسبة للجزيرة العربية. وأشار كورانسيز إلى «أن سعود ذاق طعم الترف وكان لا بد ان يتأثر به». ويضيف المؤرخ الفرنسي قائلًا: ذلك هو طريق جميع الطوائف التي «تبدأ بالبساطة والتقشف لتجتذب الجماهير وتنتهي بالترف للزعماء»[٢٧].

ونقرأ في «لمع الشهاب» عن سعود ما يلي: «وكان تحته أربع نسوة بالعقد وست جوار من القرج أرسل بعض الناس خفية إلى أطراف بلاد الروم فاشتروهن له بقيمة كبيرة قيل كل واحدة اشتراها بثلاثة آلاف ريال أو أكثر لأنهن متناهيات في حسن الصورة وأيضًا له عشر وصايف حبشيات بعضهن أهداه له الشريف حمود أبو مسمار صاحب أبي عريش وتهامة اليمن وبعضهن أتوه به القواسم أهل رأس الخيمة من ما اكتسب من الغنائم وقد غير بنيان البيت الذي كان لأبيه عبد العزيز فوسع عرصته وبنى غرفًا وخلوات وعين لكل امرأة موضعًا خاص هي وخدمها... وأما لباس نسائه فكان أطيب لباس وغالبه من الحرير الهندي المصنوع بالذهب

أحمر أو أصفر أو أخضر وغير ذلك من الألوان وكذلك يلبس من بز الشام الحرير العال المطرز بالذهب...

وقد جملهن من الحلي شيئًا عظيمًا من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة من الياقوت الأحمر وغيره كثيرًا... وكان يرسل بعض الناس إلى ملك فارس فيشترون له ذلك... وكان سعود يترف في المأكول كما يترف في الملبوس وغالب قوته وقوت عياله الأرز وصار أكل الحنطة لديهم قليلًا واتخذ له أناسًا من أهل الأحساء أو القطيف يصنعون له الأطعمة الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية والحلويات...»[٢٨].

وكتب رايمون «إن سعود يحب إبداء كل مظاهر الفخفخة. وكل شيء في قصره يدل على العظمة والبذخ و لايرفض أي شيء من أجل تزيين القصر. ولا يبخلون بالذهب واللؤلؤ وأغلى الأقمشة الهندية من أجل جعله أكثر روعة. ويقال ان عباءة سعود بديعة الصنع للغاية وقد كلفته ما لا يقل عن ٦٠ ألف بيزة»[٢٩].

في أقوال رايمون مبالغة. ولكن من الواضح ان أمراء الدرعية في تلك الأزمان الغابرة لم يبخلوا على أنفسهم بالترف الذي يقدرون عليه. وإلى جانب الماشية والأراضي والأحجار الكريمة والسلاح المزين بالنفائس والقصور والقلاع كانوا يمتلكون كذلك الخيول الأصيلة التي يعتز بها وجهاء الجزيرة كل الاعتزاز. ومن المعروف ان سعود بن عبد العزيز أنفق أموالًا طائلة على رعاية تلك الخيول. وبلغ عدد الخيول الأصيلة في قطعانه ٢,٥ ألف رأس[٣٠]. وخصص منها ٦٠٠ حصان لاشجع البدو والمماليك[٣١]. وكان لدى كل من أبناء سعود ١٠٠ ـ ١٥٠ حصانًا، وكان عند ولي العهد عبد الله ٣٠٠[٣٢]. كان أمراء الدرعية يستولون على الخيول في الغزوات ويستلمونها بشكل هدايا وزكاة وغرامات، ولايتورعون حتى عن ابتزازها. كتب بوركهاردت يقول «الأعراب يتشكون من انه عندما يمتلك أحد ما حصانًا جيدًا فإن سعود يجد ضده تهمة ما بخرق القانون أو بسوء السلوك لكي يبرر مصادرة ذلك الحصان»[٣٣].

وكانت أموال كبيرة تنفق على الضيافة التقليدية. ففي كل يوم يحل على سعود بضع مئات من الضيوف(٣٤). وكان سعود يخصص للضيوف سنويًا ٥٠٠ صاع من الأرز والقمح(٣٥). (يراوح الصاع في الجزيرة ما بين لتر واحد ولترين ونصف). وخلال يومين من ولائم زفاف أحد أبناء سعود التهم الضيوف ١٤٠ ناقة و ١٣٠٠ خروف(٣٦).

ان ضيوف سعود الكثيرين لم يكونوا من الفقراء عادة. وكان سخاء الأمير يعم الموسرين في الغالب. ثم ان الغذاء المقدم للضيوف يختلف. فالوجهاء يقدم لهم اللحم والأرز، والاقل منهم جاها يقدم لهم التمر والبرغل(٣٧).

وكان سعود يمتلك عددًا كبيرًا من العبيد. كتب ابن بشر يقول: «ومماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك وقال غيره: ستمائة الذكور وقال آخر أن مماليكه ألف الذكور أكثر من خمسمائة ومائتان الإناث والذي يظهر من القصر آخر رمضان ألف وثلثمائة فطرة عن خدمه وعبيده وما في قصره من الأيتام»(٣٨). وكان عبيد الأمير يتمتعون بالامتيازات بالمقارنة مع مجموع سكان الجزيرة الفقراء شبه الجياع. وكانوا يشكلون حرس البلاط. وحاشية شخصية للأمير. وقد ارتقى بعضهم إلى مناصب عليا في الدولة. فإن المملوك الخرق صار قائدًا للقوات الوهابية في المعارك(٣٩). وقد تم انعتاق الكثيرين من العبيد.

واحتفظ بلاط السعوديين، وخصوصًا في المراحل الأولى، ببساطة العادات و«بديمقراطيتها» إذا استخدمنا المصطلحات الحديثة. ولم يظهر بشكل واضح جدًا الانفصال الظاهري بين أصحاب السلطة والأمير الإقطاعي وبين جمهور السكان. ومن الناحية الظاهرية احتفظ أمير الدرعية ببعض التشابه مع شيوخ القبائل البدوية. فإن أبسط البدو كانوا يخاطبونه بدون رسميات: يا سعود، يا أبا عبد الله، يا أبا شوارب(٤٠). وكتب كورانسيز عن «بساطة وخشونة العادات»(٤١) في بلاط أمير الدرعية. كان مجلس سعود مفتوحًا للجميع. ويستطيع كل قادم ان يؤمل في كرمه وحسن ضيافته. وكان الأمير شخصيًا ينظر في شكاوى رعيته. وكان حكمه القضائي يتميز بالسمات العشائرية. وقد كتب بوركهاردت ان سعود بنفسه كان أحيانًا يجلد

الكاذب، ولكنه يأسف لذلك طويلًا فيما بعد، ويطلب من المحيطين به ان يخففوا من غضبه[٤٢].

وكان سكان الدرعية غالبًا ما يحضرون دروس الفقه التي يأتي إليها جميع الوجهاء وأبناء محمد بن عبد الوهاب وأبناء سعود واقاربه. وكان الأمير نفسه يحضرها. «فإذا اجتمع الناس خرج سعود من القصر ومعه دولة وجلبة عظيمة تسمع جلبتهم كأنها جلبة النار في الحطب اليابس من قرع السيوف بعضها بعضًا من شدة الازدحام، لا ترى فيهم الأبيض من الرجال إلا نادرًا، بل كل مماليكه عبيد سود ومعهم السيوف الثمينة المحلاة بالذهب والفضة، وهو بينهم كالقمر تبين في فتق سحاب. فإذا اقبل على ذلك قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد حتى يخلص إلى مكانه. فيسلم على الكافة ثم يجلس بجانب عبدالله ابن الشيخ وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس.. فإذا تكامل سعود جالسًا التفت للعلماء والرؤساء من المسلمين... ودخل القصر وجلس في منزل من منازله القريبة للناس ورفعوا إليه حوائجهم حتى يتعالى النهار ويصير وقت القيلولة فيدخل إلى حرمه... وكان من أحسن الناس كلامًا وأعذبهم لسانًا وأجودهم بيانًا فإذا سكت قام إليه أهل الحوائج من أهل الشكايات من البوادي وغيرهم وكان كاتبه على يساره فهذا قاض له حاجة وهذا كاتب له شكاية وهذا دافعه وخصمه إلى الشرع فيجلس في مكانه ذلك نحو ساعتين حتى ينقضي اكثرها، ثم ينهض قائمًا ويدخل القصر ويجلس في جلسة في المقصورة ويصعد إليه كاتبه ويكتب جوابات تلك الكتب التي رفعت إليه في ذلك المجلس».

كان الحراس يحيطون بسعود دومًا. وعندما يصلي في مسجد القصر يحرسه عبدان، وعندما يخرج إلى الصلاة مع الناس يرافقه ستة عبيد يحملون السيوف: اثنان امامه واثنان خلفه واثنان وراء الصف الثاني من المصلين[٤٣]. وقد اتخذت هذه الإجراءات تحوطًا للطوارىء بعد مقتل أبيه عبد العزيز في المسجد.

ويستنتج مما ذكره ابن بشر مع ذلك انه نشأت في بلاط السعوديين مراسم خاصة للفصل الظاهري بين الوجهاء والشعب والتأثير على بسطاء الناس عن طريق الابهة والفخفخة عند الحاشية والخدم وخصوصًا آداب السلوك.

نفقات الدولة خارج بلاط الأمير

كانت الهدايا التي يقدمها أمراء الدرعية إلى الوجهاء والأعيان بشكل عيني (خيول أصيلة وأسلحة وماشية) وبشكل مكافأة مالية واحدًا من أساليب إعادة توزيع الثروات المستحصلة داخل الطبقة الحاكمة. وكتب بوركهاردت ان أمير الدرعية كان يهدي لشيوخ البدو ما بين ٥٠ و ٣٠٠ ريال[٤٤]. وقال ابن بشر ان أمير الدرعية كان «كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء»[٤٥].

وتلقي المعلومات الخاصة بالميزانيات المحلية وميزانيات المناطق ضوءًا إضافيًا على طابع النفقات في الدولة الوهابية. ويتوقف بوركهاردت طويلًا عند هذه المسألة. صحيح ان ملاحظاته تنم عن رغبة غير متعمدة في تصوير جهاز الدولة الوهابية بصورة أكثر تنظيمًا مما كان عليه فعلًا.

ويقول بوركهاردت «إن جميع المداخيل، ما عدا زكاة البدو، ترد إلى بيت المال. ولكل مدينة أو قرية ذات شأن بيت مال محلي يدفع له السكان ما يترتب عليهم. وفي بيت المال كاتب يبعثه زعيم الوهابيين ويأمره بعدم السماح للشيخ المحلي باساءة التصرّف بالأموال بأي حال. ولا يسمح للشيوخ لا باستحصال النقود ولا بالتصرّف بما يتم جمعه منها.

فهذه الأموال مخصصة للخدمات العامة وهي تقسم إلى أربعة أقسام. يرسل ربع إلى بيت المال المركزي في الدرعية، ويخصص ربع للتخفيف من أعباء الفقراء... وهو ينفق على علماء الدين الذين يرشدون التلاميذ وعلى القضاة وعلى اعمار المساجد وصيانة الآبار العامة... ويخصص النصف للصرف على الجنود الفقراء الذين يزودون بالأغذية أثناء الحملات، ويزودون بناقة عند الاقتضاء، وكذلك على الضيوف. وان النقود المخصصة للضيوف تسلم إلى الشيوخ الذين يفتحون مضايف ليتوقف فيها الضيوف ويتغذون. وتخصص لهذا الغرض كذلك الضرائب العينية[٤٦].

ان هذا المقتطف لا يقدم جوابًا على أسئلة كثيرة. فليس واضحًا ما إذا كان بيت المال المحلي يستلم قسمًا من الزكاة أو انه يفرض ضرائب إضافية، وما إذا كان بيت

المال المركزي يساهم في النفقات المحلية. وكتب بور كهاردت ان المركز يعوض عن الخسائر الناجمة عن الكوارث الطبيعية وغزوات الأعداء[٤٧]. ولكن هل ان ذلك مشاركة من بيت المال المركزي في النفقات المحلية لمرة واحدة أو انه يجري على الدوام؟

وأورد ابن بشر تقسيما آخر للميزانية المحلية فقد كتب عن توزيع أمير الدرعية لأموال الأحساء يقول: «والذي يحصل من بيت مال الأحساء يقسم ثلاثًا، ثلث يدخره لثغوره وخراجًا لأهلها والمرابطة فيها، وثلث خراجًا لخيالته ورجاله ونوابه وما يخرجه لقصره وبيوت آل الشيخ وغيرهم في الدرعية، وثلث يباع بدراهم وتكون عند عماله لعطاياه وحوالاته... ويحصل بعد ذلك ثمانون ألف ريال تظهر للدرعية»[٤٨].

وهكذا كانت الأموال المحلية توزع في عدة اتجاهات أساسية. ينفق القسم الرئيسي منها على الأغراض الحربية ـ لتأمين حاجة الجنود الفقراء وتزويد الحاميات بالأغذية ودفع الرواتب والإنفاق على الخيّالة (أي الوجهاء المسلحين). والباب الهام الثاني للصرف هو الهدايا التي تقدم إلى الوجهاء المحليين الذين يحتلون أهم المناصب في الإدارة الوليدة ويتصرفون بجزء من النفقات، وليس بدون نفع شخصي طبعا. أما النفقات على «الفقراء» فتغطي حاجات علماء الدين والقضاة.

الأعمال الخيرية

يتحدث ابن بشر عن سجايا أمير الدرعية عبد العزيز فيقول: «وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يكتب إليه منه ومن امه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتابًا وحده، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالًا وأقل وأكثر. وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبد العزيز وابنه يستخلفونه فيعطيهم عطاء جزيلًا. وربما كتب لهم راتبا في الديوان... في كل وقت وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر... وأخبرني كاتبه قال ان عبد العزيز أخذه يومًا صداع فدعاني وقال اكتب صدقة لأهل النواحي فأملي علي لأهل منفوحة خمسمائة ريال. وأهل العيينة مثل ذلك. وأهل حريملا سبعمائة ريال. وأهل المحمل ألف ومائة ريال ولجميع

نواحي نجد على هذا المنوال. قال قيمتها تسعون ألف ريال. واتى إليه يومًا خمسة وعشرون حملا من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسيفه. وقال: اللهم سلطني عليها ولا تسلطها عليّ، ثم بدأ في تفريقها»[٤٩].

ووصف ابن غنام المجاعة المرعبة التي اجتاحت نجد في أواسط الثمانينيات من القرن الثامن عشر حيث ارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى أقصى حد وهلك الرجال والنساء ناهيك عن الشيوخ والأطفال. كان الناس يسقطون أثناء الصلاة بسبب الهزال. واستمرت المجاعة عدة سنوات. وعند ذاك بدأ عبد العزيز باطعام الأرامل والأيتام والضعفاء[٥٠].

وهكذا طبقت الدولة السعودية عمليًا واحدًا من المستحدثات العبقرية (أو على الأصح المكتسبات) التي جاء بها الإسلام، ونعني الأعمال الخيرية أو العمل بالمعروف. فهذا العمل الذي «يفتح» أمام القائمين به أبواب الجنة في الآخرة كان يحميهم في الدنيا ولو مؤقتًا من غضب الفقراء وانتفاضاتهم وتمرداتهم. وكانت الأعمال الخيرية تجرد الفقراء من سلاحهم الفكري وتوحي إليهم بأن خلاصهم من الجوع والحرمان والتخفيف من اعبائهم يتمان ليس بالكفاح الحازم، بل بصدقات الأثرياء والوجهاء. ولعبت أعمال السعوديين الخيرية دورًا سياسيًا لا يقل أهمية: فقد تحسنت الأوضاع المادية بعض الشيء لسكان المناطق الوسطى من الدولة الوهابية على حساب الأطراف، وأدّى ذلك إلى زيادة ولاء أولئك السكان لأمراء الدرعية. وكان قسم من الأموال المخصصة للأغراض الخيرية يقع في أيدي الوجهاء والأعيان المحليين أو يخدمهم بصورة غير مباشرة إذ يخلصهم من لزوم الإنفاق من جيوبهم على فقرائهم.

وكانت الأعمال الخيرية في إمارة الدرعية بمثابة ترجمة للتضامن العشائري في مواجهة الكوارث.

البنية السياسية للدولة وتنظيم السلطة

لقد توحّدت بقوة السلاح تحت سلطة أمير الدرعية مختلف المناطق والقبائل البدوية. وكانت درجة تبعيتها للدرعية متباينة.

ويقول ابن غنام ان القبائل أو الواحات عندما يجرى ضمها إلى الوهابيين تقسم امام الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير ابن سعود على خوض الجهاد ضد المشركين (أي غير الوهابيين) وتقديم العون للوهابيين[٥١]. وعندما انضم سكان الخرمة والمجمعة إلى الوهابيين بعثوا وفدًا إلى الشيخ وإلى عبد العزيز للأعراب عن رغبتهم في التمسك بالإسلام وأداء كل الفرائض بما فيها الزكاة، ولكنهم طلبوا السماح لهم بعدم المشاركة في الجهاد خلال عامين[٥٢].

فما الذي تعنيه مثل هذه الاتفاقيات؟ لقد كانت تلك، بالدرجة الأولى، تحالفات عسكرية التزم فيها الطرف المنضم إلى الوهابيين بشن العمليات الحربية ضد غير الوهابيين. وهذا هو الأمر الرئيسي. وليس من قبيل الصدفة ان تأجيل المشاركة في الجهاد عامين كان يعتبر استثناء من القاعدة.

لقد ألزم التحالف مع الوهابيين القبائل والواحات بأن تدفع ضريبة دائمة إلى بيت المال المركزي وقيد استقلالها بقدر كبير.

وفي عام ١٨٦٥، زار المندوب البريطاني ل.بيلي الدولة الوهابية التي بعثت مع عاصمتها الجديدة الرياض بعد تدميرها على يد المصريين. وأشار إلى مختلف أشكال تبعية القبائل التي انضمت أو ضمت إلى الوهابيين للرياض. ويمكن، ببعض التصرّف الحذر، تطبيق أقواله على الدولة الوهابية الأولى.

كانت بعض القبائل تدفع الضرائب وتشارك في الحملات الحربية وتؤدي مختلف الواجبات، بينما تقوم قبائل أخرى برعي الماشية في نجد وأطرافها وإذا تعرّضت لهجوم من طرف ثالث فإن الوهابيين لا يتدخلون. والمجموعة الأخرى من القبائل تلتزم بعدم الاعتداء على القبائل الخاضعة لأمير الرياض، مقابل التزام مماثل من جانب هذه القبائل الأخيرة. وتتكون المجموعة الرابعة والأخيرة من قبائل لا تعترف بسلطة أمير الرياض ولكنها تدفع الإتاوات له [٥٣].

وكانت السلطة المركزية تتخذ الإجراءات لإلغاء العادات العشائرية القديمة في حل النزاعات وتسعى إلى تسوية التناقضات المحلية في إطار الدولة الموحدة. وأفاد

بوركهاردت ان النزاعات القبلية في الدولة الوهابية تحل من قبل أمير الدرعية نفسه. وهو يعاقب بشدة المذنبين فيها(٥٤).

واستخدم السعوديون قسمًا من الوجهاء والأعيان المحليين الذين انضموا إليهم بمثابة سند وحليف لهم. وفي بعض الأحيان ظل الأمراء والشيوخ السابقون على دست الحكم في القبائل والواحات. ولكنه بقدر اتساع الدولة الوهابية وتعزز السلطة المركزية أخذت الدرعية تستبدل الحكام المحليين أكثر فأكثر بممثلي الأفخاذ والبطون المنافسين لهم أو أبناء الأسر التي لم يكن لها في الماضي أمل في الارتقاء.

ويقول بوركهاردت: «يعتقد الوهابيون أن من الضروري استبدال جميع الشيوخ تقريبًا في القبائل التي ضموها إليهم. ولم يتركوا السلطة في أيدي أبناء الشيخ بل أحالوها إلى أسر الأعيان المنافسة. وعندما احتل محمد علي الحجاز أعاد حقوق الشيوخ المحليين وأنشأ بذلك معقلًا ضد الوهابيين»(٥٥).

ومن الإجراءات التي اتخذها السعوديون لضمان ولاء القبائل والواحات للسلطة المركزية الإجراء المجرب في ممارسات الغزاة والفاتحين، ونعني أخذ الرهائن. وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون عددًا من الأعيان بمثابة رهائن بعد أداء يمين الولاء من قبل الواحة أو الفخذ(٥٦). وكان بعض الشيوخ المتمردين يقيمون بصورة دائمة في الدرعية، وقد عين بدلًا منهم أشخاص موالون للسلطة المركزية. وبغية إضعاف القدرة الكفاحية للبدو وتشويش تنظيمهم فرضت الإقامة في الدرعية على بعض عقداء القبائل(٥٧).

وهكذا، بدلًا من الشيوخ والأمراء السابقين المستقلين رسميًا وفعليًا ظهر أتباع لأمير الدرعية يكادون يكونون غير مستقلين أو صنائع سافرين له. وكتب بوركهاردت يقول«يتلقى كبار شيوخ البدو من الزعيم الوهابي لقبا تقديريا هو أمير الأمراء. ان سلطة هؤلاء الأمراء على الأعراب محدودة جدًا، ولا تزيد إلا قليلًا على السلطة التي يتمتع بها الشيخ البدوي المستقل، ما عدا كونه يستطيع أن يفرض الخضوع للقانون بحبس المخالف أو فرض غرامه عليه»(٥٨). إن هذا «القليل» هو أهم سمة تميز الشيخ

في الدولة السعودية عن زعيم القبيلة في عصر ما قبل الوهابية: أي تعزيز السلطة العامة (السجون والغرامات) وفصل السلطة العامة عن جمهور البدو.

كان أمراء المناطق من أتباع السعوديين يجمعون القوات ويساعدون جباة الضرائب. وسلطتهم يقيدها القضاة القادمون من المركز[٥٩].

وجاء في «لمع الشهاب»: كان شأن السعوديين حيث تولوا بلدًا كبيرة أو كورة بنوا حصنا في تلك البلد على حدة عن حصنها الأول ان كان لها حصن وبحثوا حوله خندقا ان كانت الأرض صلبة وأحكموا بنيان القلعة ورتبوا في الحصن قدر خمسمائة رجل عسكري أو ألف رجل على قدر البلاد لكن بشرط كشف حالهم عن الاستقامة التامة بحسب الاعتقاد بهذا الدين ويعينون لهؤلاء متاعًا كثيرًا ربما كفاية سنتين أو ثلاث سنين ويجعلون في الحصن أيضًا بنادق عديدة وبارودًا كذلك وربما جعلوا في بعض الحصون مدافع»[٦٠].

وعين الوهابيون المفتين والقضاة في الواحات. وفي القرى الصغيرة كانوا يعينون قضاة فقط كما يقول «لمع الشهاب». وكانت رواتبهم تأتي من بيت المال. وكانوا يبعثون قابضي الزكاة إلى كل واحة. وفي بعض الأماكن كان هناك أربعة جباة، وفي بعضها الآخر سبعة. وهم مستقلون عن الأمير ولكنه كان يساعدهم في قبض الزكاة. كما كان يعين محتسب وظيفته مراقبة أداء الشعائر الدينية وصواب عقد الصفقات التجارية ومراعاة المقاييس والأوزان وأداء القضاة لواجباتهم وقطع دابر الارتشاء[٦١].

وهكذا، يمثل السلطة المحلية الأمير قائد الحامية وكذلك القاضي (أو المفتي) وجباة الزكاة والمحتسب.

كان أمراء الدرعية يبتون في أهم شؤون الدولة بعد التشاور مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبنائه وأحفاده وعلماء الدين ووجهاء القبائل وأعيان الواحات وأفراد عائلة السعوديين.

ويقول ابن غنام انه عندما عاد سعود منتصرًا من الأحساء «قصد والده والأهل

والذرية، واستقر مجلسه مع والده وأعيان الرعية»[٦٢]. وتحدث ابن بشر عن سعود بمزيد من التحديد فقال: «ومع ذلك إذا اهمه وأراد انفاذ رأي أرسل إلى خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم فإذا أخذ رأيهم وخرجوا من عنده أرسل إلى خواصه أهل الرأي من أهل الدرعية ثم أخذ رأيهم. فإذا خرجوا أرسل إلى أبناء الشيخ وأهل العلم من أهل الدرعية واستشارهم. وكان رأيه يميل إلى رأيهم ويظهر لهم ما عنده من الرأي»[٦٣].

ولا توجد معطيات تفصيلية عن تنظيم السلطة المركزية في الدولة السعودية الأولى. وليس معروفًا ما إذا كان لدى أمراء الدرعية مجلس دائم من كبار الوجهاء والأعيان. فالمؤرخون الوهابيون يتحدثون عن وجود ديوان عند الأمير ولكنهم لا يحددون وظائفه. وعلى أي حال فقد كانت هناك دوائر أو مصالح مركزية.

علماء الدين والقضاة

قدم علماء الدين الوهابيون دعمًا كبيرًا للسياسة التوحيدية لأمراء الدرعية. وقد اوردنا أمثلة على مشاركتهم الواسعة المستمرة في أهم شؤون الدولة. وكان مؤسس الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتمتع بمنزلة رفيعة للغاية. وفي السنوات الأولى لتحالفه مع محمد بن سعود لم يكن مجرد عالم دين ومعلم ومفتٍ. فقد قام بتنظيم القوات ومارس الشؤون الداخلية والخارجية وأجرى المكاتبات والمراسلات مع علماء الدين في الجزيرة وبشر بتعاليمه ودعا إلى التمسك بالولاء لأمير الدرعية[٦٤]. وساهم مساهمة نشيطة في تأسيس وإدارة الدولة الوهابية. وكانت دعوة الشيخ قد ضبطت الوهابيين ورصت صفوفهم حول الأمير وأججت تعصبهم. وما كان عبد العزيز يوزع غنائم الحرب إلا بعد التشاور مع محمد بن عبد الوهاب.

كان محمد بن عبد الوهاب يحافظ على سمعته فلا يستأثر صراحة بدرهم واحد من غنائم الحرب. وبعد احتلال الرياض التي كانت الخصم الرئيسي للدرعية في نجد اعتزل محمد بن عبد الوهاب شؤون الدولة وأناط بعبد العزيز مراقبة بيت المال وكرّس نفسه لشؤون الدين والمذهب والدعوة[٦٥]. وانهمك أبناء الشيخ وأحفاده بتأليف كتب

الفقه استنادًا إلى تعاليمه وبتفسير مؤلفاته[٦٦]. وعلى هذا النحو نشأت مدرسة رجال الدين الوهابيين التي ظلّت سالمة بعد الغزو المصري.

وكتب ابن بشر عن أمير الدرعية يقول: «وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من... القضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد». وبعد إنهاء التعلم كان الشبان يحصلون على هدايا كبيرة[٦٧]. وكان بيت المال ينفق على تلاميذ أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٦٨]. وكانت النفقات على المساجد والقائمين على خدمتها تعتبر بالطبع من أسمى وأنبل نفقات بيت المال. ويقول منجين ان المساجد في الدولة السعودية، تعتمد ماليًا على جزء من العشر وعلى عائدات الأوقاف المخصصة لها. ويديرها مدير يعينه علماء الدين»[٦٩]. ومما يؤسف له اننا لم نعثر على معطيات أخرى تثبت وجود وانتشار أموال الأوقاف في الجزيرة العربية. ويقول مؤلف «لمع الشهاب» ان محمد بن عبد الوهاب وعائلته يمتلكان أراضي واسعة، وبالإضافة إلى ذلك كان يستلم مداخيل هائلة من بيت المال وهدايا من الأمراء التابعين[٧٠].

وكانت الدرعية ترسل علماء الدين إلى جميع الواحات والمدن والقبائل الهامة. وكانت مهمتهم تتلخص في توعية السكان دينيًا واجتثاث تمسكهم بالمذاهب الأخرى وفرض أصول الوهابية وإثارة الحماسة الحربية والولاء للدرعية. وقد افتتحت كتاتيب قام علماء الدين فيها بتعليم القراءة والكتابة وتجويد القرآن. ويقول بوركهاردت ان علماء الدين جمعوا مكتبات كبيرة في الدرعية. وقد كانت لدى سعود مكتبة كبيرة أيضًا[٧١].

وكان القضاة الوهابيون يمارسون القضاء مسترشدين بالكتاب والسنة[٧٢] على أساس المذهب الحنبلي. وكانت الشريعة تغرس بنجاح أكبر في الواحات التي تتسم بتمايز طبقي متطور.

أما البدو فإن الشريعة الإسلامية لا تطبق عندهم إلا قليلًا[٧٣]. ودخل النظام القضائي الوهابي في خلاف شديد مع العرف البدوي. وهناك مبررات للافتراض

بأن العرف هو الذي فاز مع أن ازدياد الوظائف الإدارية لأعيان القبائل البدوية قد وسع إمكانيات تطبيق الشريعة. وفي الوقت الحاضر شهد كاتب هذه السطور محاكمة في منطقة مأرب في اليمن الشمالي. فإن المحافظ نظر في النزاعات القبلية استنادًا إلى العرف وحده.

وحدثت بعض التغيرات في مطاردة المجرمين قضائيا وإنزال العقوبة بهم في الدولة الوهابية. وبموجب الشريعة كانوا يقطعون يد اللص أو يفرضون عليه غرامة حسب الظروف[٧٤].

وكما هو الحال في عهد النبي محمد سعى الوهابيون إلى تقييد الثأر فاستبدلوه بتعويض قدره ١٠٠ ناقة أو ٨٠٠ ريال. (أورد بوركهاردت هذه المعلومات دون أن يؤكد ما إذا كان ذلك يسري على جميع مناطق الجزيرة). ويبدو أن السعوديين تمكنوا من تضييق مفعول عادات الثأر بعض الشيء دون أن يقضوا عليها.

ولم يكن الوهابيون يعترفون بعادات الحماية التي يقدمها بعض أبناء القبائل للمجرمين.

الاقتصاد والتجارة (الجوانب الإيجابية للمركزية)

لأول مرة خلال قرون عديدة ساد الاستقرار الجزيرة العربية. وخصوصًا مناطقها الوسطى، وان بصورة مؤقتة. فقد اتخذ الأمراء إجراءات لا هوادة فيها لاحلال الأمن في الطرق وحماية التجارة الداخلية من النهب وحماية الملكية. وكتب المؤرخ البصري ابن سنة ان ضمان الأمن والسلامة في الطرق يكاد يكون واحدًا من الوصايا الأساسية للوهابيين[٧٥]. ويقول ابن بشر عن عبد العزيز «كان رحمه الله تعالى رافقًا بالرعية شديدًا على من جنى جناية من الأعراب أو قطع سبيلًا أو سرق شيئًا من مسافر بحيث من فعل شيئًا من ذلك أخذ ماله نكالًا أو بعض ماله أو شيئًا منه على حسب جنايته وأدبه غير ذلك أدبًا بليغًا...»[٧٦].

واستحدث أمراء الدرعية نظام المسؤولية المشتركة للقبائل عن الأمن في أراضيها.

كما ألغى الوهابيون الرسوم التي كانت تتقاضاها القبائل لقاء «حماية» و«مرافقة» القوافل ولقاء مرورها في أراضيها.

فالتجار والرحالة، كما يقول ابن بشر «لا يخشون أحدًا من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق. وليس يؤخذ منهم شيء من الاخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج. وبطل جميع الاخاوات والجوائز على الدروب التي للأعراب التي أحيوا بها سنن الجاهلية. يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام ولا يحمل سلاحًا بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء(٧٧)... وكانت الأقطار والرعية في زمنه (عبد العزيز) آمنة مطمئنة في عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه. لان الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء شتاء وصيفًا يمينًا وشمالًا شرقًا وغربًا في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك لا يخشى أحدًا إلا الله لا سارقًا ولا مكابرًا»(٧٨).

وقد استفاد السكان الحضر. سكان الواحات والمدن، من استتباب الأمن والاستقرار. فقد توقفت الغارات على نخيلهم وحقولهم(٧٩). وفي ظروف الدولة المركزية ما كان بوسع البدو ان يستحصلوا الاخاوات بالاعتماد على العنف الحربي أو التهديد باستخدامه وتهيأت مقدمات إلغاء علاقات الاتاوة. ويصعب القول إلى أي مدى سارت مثل هذه الاتجاهات.

وكتب ابن بشر يقول: «وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل الجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراع بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاج لها أهلها... وربما تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها، إلا الخيل الجياد، فإن لها من يتعاهدها في مفاليها لسقيها وحدها بالحديد.

وكانت إبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيبات أيام الربيع في الحمادة وفي اراط والعبلة، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور أهله ويرجع إليها وهي في

مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنها. وكذلك خيل أهل الوشم ونجائبهم. وهكذا يفعلون بها. وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة الموضع المعروف قرب بلد ضرمى، وفي الشعيب المعروف بقرى عبيد من وادي حنيفة وليس عندها إلا من يتعاهدها لمثل ما ذكرنا. وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك...

وكان في الدرعية راعية إبل كثيره وهي ضوال الإبل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعا أو فرادى، فمن وجدها من باد أو حاضر في جميع اقطار الجزيرة أتى بها إلى الدرعية خوفًا ان تعرف عندهم...وجعل عبد العزيز عليها رجلًا يقال له عبيد بن يعيش يحفظها ويجعل فيها رعاة ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها. فكانت تلك الإبل تتوالد وتتناسل وهي محفوظة. فكل من ضاع له شيء من الإبل من جميع البادية والحاضرة أتى إلى تلك الإبل. فإذا عرف ما له أتى بشاهدين أو شاهد ويمينه ثم يأخذه»[٨٠].

كان الواقع الاقتصادي للدولة الوهابية الأولى بعيدًا، طبعًا، عن الصورة الطوباوية التي رسمها ابن بشر. فقد حدث نهب في الطرق (والا لما عاقب أمراء الدرعية أحدًا) وحدث هجوم على بساتين وحقول السكان الحضر، وقامت انتفاضات متكررة للبدو وأهل الواحات.

وقد وصف المؤرخ الحجازي أحمد بن زيني دحلان النهب في الدروب عندما بدأ الوهابيون يستولون على الحجاز تدريجيًا، وكان أمير مكة هو الشريف عبد المعين الموالي لهم[٨١].

كانت إجراءات الوهابيين الرامية إلى إحلال الأمن في الطرق وإلغاء الرسوم «الجمركية» الداخلية وحماية الملكية قد هيأت إمكانيات ملائمة للتجارة داخل الجزيرة العربية. وتوفر حافز إضافي للتبادل في مجتمع الجزيرة، وهو تبادل متطور اصلا. ولكن المقصود، ونحن نؤكد على ذلك، هو التجارة الداخلية بالذات. فإن سياسة الوهابيين في ميدان التجارة الخارجية كانت تدميرية كما سنتأكد أدناه.

وقد أثرى البعض بقدر هائل بمقاييس الجزيرة من التجارة، وخصوصًا في سنوات

القحط عندما ارتفعت الأسعار لدرجة كبيرة جدًا. وكتب بوركهاردت يقول «في نجد كانوا يتاجرون أساسًا بالمواد الغذائية ـ وأكد منجين هذه المعلومات أيضًا[٨٢] ـ فالقبائل القادمة من أعماق البادية تشتري ما تحتاج إليه. وطالما ان سنوات القحط تتكرر فإن الأثرياء يكدسون كميات كبيرة من الحبوب. ولم يتدخل سعود في ذلك مطلقًا، وفي سنوات شحة الأغذية كان يسمح ببيع الحبوب بالأسعار التي يحددونها هم مهما كان ذلك صعبًا على الفقراء، وكان يقول إن النبي محمد لم يمنع أبدًا الحصول على أي ربح ممكن من الأموال»[٨٣]. وبالمناسبة فإن الوهابيين منعوا الربا طبقًا لأصول فجر الإسلام[٨٤].

لقد ساعد تطور التجارة داخل الجزيرة على ازدهار الدرعية عاصمة الدولة. وقد زارها ابن بشر في عهد سعود وترك لنا وصفًا للمدينة حيث كتب يقول: «ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود... وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب العمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان. ولقد نظرت إلى موسمها يومًا في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريف ومنازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ. ورأيت موسم الرجال في جانب... وموسم النساء في جانب وموسم اللحم في جانب وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام والبيع والشراء والاخذ والاعطاء وغير ذلك وهو مد البصر. ولا تسمع فيه إلا كدوي النحل من النجناج وقول بعت وشريت والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي، وفيها من الهدوم والسلاح والقماش...»[٨٥].

ويضيف ابن بشر «وكان قوة هذه البلد وعظم مبانيها وقوة أهلها وكثرة رجالها وأموالها لا يقدر الوصف صفتها...» فلو ذهبت أعد رجالها واقبالهم فيها وأدبارهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات وما يدخل على أهلها من احمال الأموال من سائر الأجناس التي لهم مع المسافرين من أهلها ومن أهل الأقطار لم يسعه كتاب...

وكان الداخل في موسمها لا يفقد أحدًا من أهل الآفاق من اليمن وتهامة

والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر واناس من حاضرتهم إلى غير ذلك من أهل الآفاق ممن يطول عدهم هذا الداخل فيها وهذا خارج منها وهذا مستوطن فيها.

وكانت الدور لا تباع فيها إلا نادرًا وأثمانها سبعة آلاف ريال وخمسة آلاف والداني بألف ريال وأقل وأكثر وكل شيء بقدره على هذا التقدير.

كروة الدكان الواحد في الشهر خمسة وأربعون ريالًا وسائر الدكاكين الواحد بريال في اليوم وشيء نصف ريال. وذكر لي ان القافلة من الهدم إذا اتت إليها بلغت كروة الدكان في اليوم الواحد أربعة ريالات.

وأراد رجل منهم ان يوسع بيته ويعمره فاشترى نخيلات تحت هذا البيت يريد قطعها وتعمير موضعها كل نخلة بأربعين ريالًا وخمسين ريالًا... وكان غلا الحطب فيها والخشب إلى حد الغاية حتى قيل إن حمل الحطب بلغ خمسة ريالات وستة والذراع من الخشبة الغليظة بريال»[٨٦].

لقد غدت الدرعية مركزًا تجاريًا كبيرًا للجزيرة العربية. فعندها تلتقي الطرق التجارية من أجزاء الجزيرة كافة . وكانت وفرة الثروات المنهوبة المتواردة على المدينة قد خلقت انتعاشًا مفتعلًا وتسببت في تجمهر أعداد غفيرة من الناس مما أدّى إلى ازدياد الغلاء. ولم تكن موجودة آنذاك المقدمات الاقتصادية الضرورية لإنشاء مراكز سكنية كبرى من هذا القبيل. وتدل على ذلك الأسعار الباهظة للاخشاب والنخيل والحطب. ومع ذلك اسفرت سلامة الطرق عن تعزز الصلات الاقتصادية داخل الجزيرة بقدر ما، وان بصورة مؤقتة.

وأدّت الإجراءات الاقتصادية والسياسية والفكرية لمركزية الدولة إلى ظواهر لم يشهدها وسط الجزيرة فيما مضى. فقد ظهر اتجاه نحو تكوين وحدة فوق القبائل. وكان ذلك أمرًا مدهشًا جعل المؤرخ الوهابي ابن بشر يهتف متعجبًا وان بشيء من المغالاة: «والرجل يأكل ويجلس مع قاتل أبيه واخيه كالإخوان»[٨٧]، ورغم المبالغة في هذا القول، فهو يدل على الاتجاه العام. وأشار ابن سند إلى أن الوهابيين أزالوا غارات البعض على البعض وصار جميع البدو رغم الفوارق بينهم، من حضرموت

إلى الشام إخوة وأبناء شخص واحد. وكان بالإمكان ان يرى المرء في بعض المناطق خيمة لعنزة وخيمة لعتيبة وخيمة لحرب وكانوا يعيشون بوئام(٨٨).

إلا أن العساكر ظلّت هي الأداة الرئيسية لسياسة المركزية ولرص صفوف مختلف المناطق والقبائل في إطار الدولة السعودية. وطالما ان العساكر قوية ومظفرة ظل وجود إمارة الدرعية مكفولا.

العساكر

كتب بوركهاردت يقول ان سعود وأباه لم يحتفظا بجيش نظامي قط ما عدا بضع مئات من الجنود المختارين كانت لهما في الدرعية(٨٩)، ولكن جميع الرجال ما بين الثامنة عشرة والستين كانوا يعتبرون ملزمين بالخدمة العسكرية(٩٠). وكان كل بدوي أو حضري صحيح الجسم وقوي يعتبر في الواقع محاربًا.

عندما ينوي أمير الدرعية القيام بغزوة يبعث رسولًا إلى شيوخ القبائل ويأمرهم بالحضور في يوم معين إلى منطقة بئر معين. ويقول ابن بشر «ولا يتخلف أحد عن ذلك الموعد حقير ولا جليل، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك». وإذا تخلف أحد تفرض عليه غرامة. وكان أشخاص مختصون يبعثهم الأمير فيأخذون الغرامة بشكل مختلف الأموال والجياد والإبل ويضربون المذنبين»... ويعذبون المجرم بأنواع العذاب... ولا يتجاسر أحد ان يقول لهم شيئًا، أو يشفع فيه بل كلهم طائعون مذعنون»(٩١).

وكتب المؤرخ البصري ابن سند يقول: «فاذا أراد ابن سعود قتال قرية أو قبيلة فأولًا يرسل إلى القرى التي اطاعته ويطلب من كل قرية مقدار العسكر المفروض على تلك القرية أو القبيلة فيأتي اليه...»(٩٢).

وكتب الرحّالة الاسباني باديا أي ليبليخ «عندما يحتاج أمير الوهابيين إلى العساكر يكتب إلى مختلف القبائل ويحدد عدد المحاربين الذين يتعين إرسالهم اليه»(٩٣).

وكتب منجين بهذا الخصوص: «قبيل بدء الحملة الحربية كان سعود يطلب من المناطق ان ترسل له العدد اللازم من العساكر. وكان الأمراء يصدرون الأوامر لمن هم تحت سلطتهم. وكان كل من وجهاء المدينة والمنطقة يقود محاربيه المسلحين بنفسه إلى المكان المخصص له ويبقى رئيسًا وقائدًا لهم طوال فترة الحرب.

وتتشكل في كل منطقة مفارز خاصة بقيادة أميرها، وفي كل مفرزة كاتبان وامام. وتتلخص وظيفة الإمام في أداء الصلاة في المعسكر، وهو في الوقت نفسه حكم في الخلافات التي يمكن أن تنشأ»[٩٤].

كانت أكبر قبائل وسط الجزيرة ـ عنزة وقحطان ومطير ـ تخضع لأوامر حكام الدرعية وان كانت تقيم بعيدًا عن مسرح العمليات الحربية[٩٥]. صحيح أن وصف الغزوات يبين ان القبائل القريبة فقط تشارك فيها بالقدر الكامل عادة.

وكتب منجين: «إن كل محارب يحمل معه سلاحه وطعامه وذخيرته. وكانوا يقدمون للمحاربين الفقراء مساعدة في التجهيز. والأثرياء يزودون أسرة الفقير بما تحتاج إليه. ويستطيع الشخص الذي يطلب منه الأمير المشاركة في الغزو ان يقدم شخصًا آخر بدلًا منه لهذا الغرض. وهو يزوده بكل ما يلزم أو يتعهد بمنحه جملًا أو حصانًا. ولم يكن الرجالة والهجانة على الجمال يستلمون أي أجور. أما الخيّالة فيستلمون علفا للحصان وراتبًا شهريًا»[٩٦].

ويقول بوركهاردت ان قوت الجندي يتكوّن من ١٠٠ أوقية من الدقيق و ٥٠ ـ ٦٠ أوقية من الثمر و ٢٠ أوقية من السمن وكيس من القمح أو الشعير للبعير وقربة ماء[٩٧].

بديهي ان هذه الاحتياطيات أقصى ما يمكن أن يأخذه المحارب، وان كميتها تختلف باختلاف مدة الغزوة. وقد أشار ابن سند إلى ذلك. فهو يقول ان ابن سعود نفسه يحدد مقدار الدواب أو الذخيرة التي يتعين على المشاركين في الغزوة ان يأخذوه معهم. ولكنه لم يكن يحب الغزوات التي تطول أكثر من شهر، كي لا يزود الجنود بالعتاد والأغذية بنفسه. ففي الغزوة التي لا تزيد على شهر يتزود المحاربون بما هو ضروري بأنفسهم، وإذا زادت الفترة على الشهر فإن أمير الدرعية يقدم لهم

جزء[98]. وإذا جاء المتطوعة سيئي التجهيز فإن الأمير الوهابي يعيدهم من حيث جاؤوا، ثم يعاقب الواحات أو القبائل التي أرسلتهم إليه بهذه الصورة.

إن المؤونة الشخصية التي يتزود بها المحاربون تعفي بيت المال من الاهتمام بتغذيتهم وتزيد من استقلالية العساكر في الحملات. إلا أن تجنيد المحاربين وتهيئة المؤونة لهم كانا عبئًا ثقيلًا على القسم الفقير من السكان. فهم لا يستطيعون، مثل الأغنياء، ان يقدموا البدل من الخدمة العسكرية، وكانوا يضيعون الأيدي العاملة، ولا يمكن لأي معونة ان تعوض عن فقدان المعيل. ولا يعول المحاربون البسطاء الذين يشاركون في الغزوات على شيء سوى حصة في الغنائم. ولذلك فإن سكان الواحات والبدو، كما يقول بوركهاردت كانوا كثيرًا ما يتهربون من المشاركة في الحملات[99].

وبعد اقتطاع خمس غنائم الحرب لصالح أمير الدرعية يقسم الباقي على المحاربين: ومن المقرر ان الفارس، أي ممثل الوجهاء والاعيان، يستلم بقدر حصتي الرجالة. وفي الواقع كان الوجهاء، على ما يبدو، يستأثرون بحصة الأسد. وأشار رايمون إلى أن الجند في عهد عبد العزيز كانوا يتشكون من الظلم في توزيع الغنائم، حيث يستلم قادتهم حصة الأسد. وكان يتعين على أمير الدرعية ان يتدخل ويحق الحق[100].

وكتب بوركهاردت ان حرس أمراء الدرعية يتكوّن من أفضل الجنود وعددهم ٣٠٠ شخص. وهذا الحرس هو الاحتياطي الرئيسي في ساحات القتال. وهم مسلحون جميعًا أفضل تسليح وينفق الأمير عليهم[101]. ولا يذكر المؤرخون النجديون شيئًا عن مثل هذا الحرس. فهم يتحدثون فقط عن العبيد المسلحين. ويبدو أن الحرس الشخصي للأمير يضم المماليك المسلحين والأحرار.

كان سعود منذ الطفولة وحتى الشيخوخة يحب الغزو والجهاد. وشارك معه في الغزوات علماء الدين من الدرعية والواحات القريبة. وكان يترك في العاصمة أحد أبنائه خليفة له، وهو عبد الله في أغلب الأحوال[102]. ويقول ابن بشر ان سعود يثير الرعب في الأعداء «فاذا سمعوا بمغزاه هرب كل مهنم وترك أخاه وأباه وماله وما حواه»[103].

ويقول منجين «خلال الحملات النهارية والليلية تخصّص مقدمة ومؤخرة. وتتقدم العساكر بطابور أو عدة طوابير تبعًا للملابسات. وكان الأمراء دومًا يقودون المحاربين الخاضعين لهم. وتسير الخيّالة والهجانة في مقدمة الطابور وفي مؤخرته. والوسط يخصص للمدفعية والرجالة الذين يمتطي كل اثنين منهم جملًا.

وأثناء الحملات يقتات الوهابيون على التمر مع لبن الإبل ونادرًا ما يتناولون الخبز واللحم.

ويدخل الوهابيون المعركة بشكل كتائب. ويترك الرجالة الجمال تحت رعاية الخدم[١٠٤]. وعندما يقترب العدو أو يتفوق تغدو الجمال بمثابة الدروع الواقية للمتحاربين. وتتكون كل كتيبة من سكان منطقة معينة يتزعمهم أمير أو وجيه قروي. صفوف المحاربين مزدوجة وعندما يتعب الصف الأول أو يتكبد خسائر كبيرة يحل محله الصف الثاني. وتنقل جثث القتلى من ساحة القتال ومن العيب عدم مواراتهم التراب. وفي حالة الهزيمة تنسحب العساكر بلا ذعر ولا اضطراب. وإذا مني العدو بالهزيمة فإن الرجالة لا تطارده، ولكن الخيّالة والهجانة تطارده لمسافة معينة»[١٠٥].

وفي المعسكر «يعرف كل فرد مكانه. والقائد في وسط المعسكر. والخيالة حول خيمته. وعلى مقربة من المعسكر مخافر الرجالة والخيالة. ويجري استبدال الخفراء كل أربع وعشرين ساعة. وفي النهار الجميع ينامون ولا ينهضون إلا لأداء الصلاة خمس مرات. وفي الليل يتجاذبون أطراف الحديث ويجودون القرآن ويحكون الحكايات والقصص.

كان الانضباط متشددًا عند الوهابيين. فالقائد الذي لا يؤدي واجباته أو الذي يبدر منه ما يثير الشكوى ينحى من منصبه. وأحيانًا تفرض عليه غرامة. وتجري معاقبة الجنود المذنبين بالجلد بالعصي. وإذا اقترف الجندي جريمة كبيرة تقطع رقبته. ويفعلون به الشيء نفسه إذا فر من العدو»[١٠٦].

وفي الواحات الكبيرة والمدن (في الأحساء والقصيم ومكة والمدينة) كانت لأمراء الدرعية حاميات من النجديين الموالين لهم[١٠٧].

كانت عساكر الجزيرة العربية مسلحة بالسيوف والحراب والخناجر والرماح القصيرة للرجالة والدروع والهراوات والبنادق الحارقة والمسدسات[١٠٨]. وكان الوهابيون يصنعون البارود بأنفسهم[١٠٩]. وأحيانًا كانوا يرتدون خوذًا وأردية حماية جلدية[١١٠]. وكانت لدى الوجهاء قمصان من زرد[١١١]. ولدى المحارب كذلك خنجر مشدود إلى حزامه وحقيبة مليئة بالخراطيش. وكان لدى البعض مسدسات[١١٢]. ولم تستخدم البنادق الحارقة كثيرًا، فلم تكن السلاح الرئيسي لدى العساكر. ويقول ابن بشر انه كان لدى سعود ٣٠ مدفعًا كبيرًا و ٣٠ مدفعًا صغيرًا[١١٣]. وقد تم الاستيلاء على أكثر هذه المدافع من العدو ولم تستخدم تقريبًا في القتال.

وبلغ عدد العساكر تحت رايات أمير الدرعية ٥٠ الفا[١١٤] وكان الأوروبيون ميالين إلى المبالغة، فيذكرون أرقامًا مثل ١٠٠ ألف و ١٢٠ ألفًا وحتى ٢٠٠ ألف[١١٥]. لم يكن للوهابيين نظير في شبه الجزيرة، ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا منتصرين دومًا.

مقدمات تحلل وسقوط الدولة السعودية الأولى

اتضح ان مهمة إخضاع شبه جزيرة العرب كلها كبيرة على أمراء الدرعية. فإن أراضي الجزيرة الشاسعة وسوء طرق المواصلات عبر البوادي القاحلة والجبال الوعرة جعلت المناطق منعزلة عن بعضها بعضًا وخلقت الصعوبات أمام الغزوات وتموين العساكر. ولم تكن الطاقات والعساكر كافية لأمراء الدرعية كي يخضعوا المناطق الجبلية في اليمن وحتى في الحجاز وساحل مسقط وحضرموت، وكي يثبتوا مواقعهم في تهامة ونجران. وكان ذلك يشكل تهديدًا متواصلا ومصدرا للاضطراب في أطراف الدولة وأرغم الوهابيين على تبديد قواهم وأموالهم على العمليات الحربية التي لم تنته دومًا بالعقوبة المثلى «للمشركين» وبثواب «الموحدين» بغنائم وفيرة.

ولم تكن العساكر الوهابية خارج شبه الجزيرة العربية وفي المناطق الصحراوية بقادرة على خوض معارك كبيرة ناجحة. فبعد غزو كربلاء، كما أسلفنا، لم تقع في أيدي الوهابيين أي مدينة محصنة وان كانت صغيرة في الشام أو العراق. كانت

عساكر السعوديين تحجم أمام المدن المحصنة والمحمية ببسالة وبمعرفة في الفن العسكري.

كانت حماسة الوهابيين في الهجوم تتسم بطابع حروب الغزو في القرون الوسطى. ومن الصعب التكهن بمصير دولتهم لو كانت قد ظهرت قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون. بيد أن سير التطور التاريخي لا يعترف بأي افتراضات. فعندما تجاوز الوهابيون إطار الجزيرة العربية التي كان مستواها هو مستوى القرون الوسطى اصطدموا بالقوات الأكثر تطورًا للأمبراطورية العثمانية والتي سبقتهم من حيث التطور بعدة قرون. في تلك الأثناء كانت بعض ولايات الأمبراطورية العثمانية تقوم بمحاولات مستميتة، وان دون جدوى حتى ذلك الحين، من أجل التحول إلى دولة عصرية. وتبنت بالدرجة الأولى التكتيك الحربي الأوروبي والتنظيم العسكري الأوروبي. ومني الوهابيون بالهزيمة في الصدام مع جيش مدرب ومسلح على الطريقة الأوروبية.

ويكمن في وقف التوسّع بحد ذاته خطر على وجود الدولة السعودية. فإن المشاركة في الغزوات الموفقة والنهب المشترك، كما أسلفنا، هما الأمر الرئيسي الذي وحد وجهاء وأعيان مختلف الواحات والقبائل. وعندما تباطأ التوسّع العسكري لإمارة الدرعية بعد أن بلغ حدوده الطبيعية، ثم توقف في الواقع فقد التوحيد كثيرًا من جاذبيته بالنسبة لوجهاء الجزيرة. وتقلص ورود الثروات المنهوبة. وصار بوسع الوجهاء الإقطاعيين ان يحصلوا على مداخيل أكثر عن طريق تطبيق سياسة مستقلة وممارسة الغزو التقليدي. وكانت القبائل البدوية الجبارة تشعر خصوصًا بثقل نير الدولة المركزية. فالكثير من البدو الذين لم يكونوا يعرفون الضرائب في السابق وأبدًا صاروا يسددون الزكاة الالزامية خوفًا من التنكيل الشديد، وكثيرًا ما أخذوا يتمردون. وكان البدو مستعدين دومًا للتخلص من نير الوهابية. ولم يكن اعترافهم بالوهابية إلا ظاهريًا كما يقول بوركهاردت[١١٦]. وكانت غنائم الحرب تعوض بشكل ما عن تسديد الزكاة وفقدان مداخيل مختلف أنواع الاخاوات، ولكنه في حالة توقف الغزوات الناجحة صار عبء الدولة المركزية عبئًا ثقيلًا لا يطاق.

كان الاستغلال الضرائبي والإتاوات والغرامات في بعض الحالات أثقل من

مزايا السلامة والأمن والاستقرار. وعند ذاك كانت قبائل ومناطق بكاملها ترفض دفع الإتاوات[١١٧]. وكان سعود يقوم سنويًا بعدة حملات ليس فقط على أطراف الجزيرة المتمردة أو ولايات الأمبراطورية العثمانية، بل كذلك على القبائل والمناطق المتمردة في دولته.

وسارت داخل الدولة السعودية عملية التعمق المتزايدة في فوارق الملكية والتناقضات الطبقية. وصار وجهاء وسط الجزيرة الذين أثروا من الغزوات يبتعدون أكثر فأكثر عن بسطاء البدو والفلاحين ويتذوقون طعم الترف والفخفخة. وتعمقت الهوة بين الدعوة الوهابية الموجهة إلى الرعية وبين نمط حياة الوجهاء والأعيان.

وكانت الحملات البعيدة تلهي فلاحي نجد عن الأعمال الزراعية دون أن تكافئهم دومًا بالغنائم. وكانت من أسباب تذمر قسم من السكان الحضر ضرورة تسديد بدل الإيجار للإقطاعيين أو للدولة بالإضافة إلى الزكاة.

إن تضاؤل مصلحة الوجهاء والأعيان في وجود الدولة المركزية بعد توقف التوسع، وتذمر البدو وأعيانهم من سلطة السعوديين، وخيبة أمل الفلاحين المزارعين في أمراء الدرعية والوهابية ـ كل ذلك كان مقدمات موضوعية، خارجة عن إرادة الأمراء، لتحلل الدولة المركزية في الجزيرة العربية. كانت تلك المقدمات موجودة بشكلها الكامن، ولكنها لم تظهر إلا بعد فترة زمنية طويلة نسبيًا. إلا أن بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية التي فرضها التعصب الضيق على أمراء الدرعية قد أدّت إلى تفاقم الصعوبات أمام الدولة وعجلت في تحللها.

وكان تعصب الوهابيين الشديد قد حملهم على قطع العلاقات التجارية مع «المشركين»، أي مع غير الوهابيين. وحتى عام ١٨١٠ ظلّت التجارة مع الشام والعراق محرمة[١١٨]. وكانوا إذا وجدوا تاجرًا في طريق يؤدي إلى «المشركين» صادروا بضاعته كلها[١١٩]. ومن السهل تصور الضربة الفظيعة التي تتلقاها الحياة الاقتصادية في بعض المناطق في حالة التطبيق الحرفي للأوامر المتعصبة.

بيد أن الحاجات الاقتصادية كانت أقوى من القرارات المتهورة والتعصب الأعمى. فقد تقلصت تجارة الجزيرة مع «المشركين» ولكنها ظلّت مستمرة. وفي فترة تأزم العلاقات مع مصر والعراق والشام لم تتوقف تجارة القمح(١٢٠). وكان الوهابيون أنفسهم يبيعون في الهند المجوهرات المنهوبة(١٢١). ان أمراء الدرعية عندما قاموا بمحاولة فاشلة لإقامة «الحصار الذاتي» على الجزيرة وعجزوا عن الاستغناء عن التجارة مع «المشركين» قد أساؤوا إلى سمعتهم هم.

وكانت سياسة الوهابيين تدميرية خصوصًا بالنسبة للحجاز. وكانت الضربة الأشد قد نجمت عن منع وصول أغلبية الحجاج من الأمبراطورية العثمانية. ولم يعد البدو يستلمون بدل مرور القوافل عبر أراضيهم ولا أجور دواب الحمل. وفقد عدد غفير من المتسولين المحترفين والادلّاء وسدنة العتبات المقدسة مداخيلهم. ولم تعد هدايا السلطان السنوية تصل إلى الحرمين(١٢٢). وبنتيجة ذلك، كما يقول الجبرتي، لم يعد سكان مكة والمدينة يستلمون ما يعيشون عليه: الصدقات والأغذية والنقود. فاخذوا نساءهم وأطفالهم وتركوا ديارهم ولم يبق هناك إلا الذين لم يكونوا يعتمدون على تلك المصادر للعيش. وتوجه أولئك الناس إلى مصر والشام وسافر قسم منهم إلى الآستانة(١٢٣).

وعندما اجتاحت المجاعة بسبب الجفاف المرعب الجزيرة العربية طوال خمس أو ست سنوات كانت الأغذية تصل إلى الحجاز مع ذلك من بلدان أخرى. بيد أن عمليًا الوساطة أو السمسرة وبيع البضائع من قبل الحجاج هي الأنوا ع الرئيسية للتجارة في الحجاز.وهي بالذات التي تضررت أكثر من غيرها. وتقلص مرور البضائع عبر جدة بسبب التقلص الشديد في عدد الحجاج الذين كان كثير من البضائع يجلب من اجلهم، في حين ان تجار البن والأقمشة الهندية لم يجرؤوا على الظهور في المرفأ، لأنهم يعاملون معاملة «المشركين». وأصاب الكساد التجارة مع مصر. وتجلّى الأثر السلبي لذلك كله ليس فقط عند التجار الأثرياء بل كذلك بسطاء الناس في جدة ومكة ومدن أخرى، لأنهم هم أيضًا مرتبطون بالتجارة. وأصاب الإفلاس كثيرين منهم، وخلت جدة من أهلها(١٢٤).

وألغى أمراء الدرعية مختلف الإتاوات الجائرة وحالوا دون الابتزاز من جانب شريف مكة أو آغا المدينة المنورة. ولكنهم فرضوا الزكاة الالزامية في المناطق غير الخاضعة للشريف مباشرة. ويمكن أن نتصور مشاعر البدو أو سكان المدينة المنورة الذين فقدوا مداخيلهم من الحج وصاروا مضطرين على تسديد الزكاة.

لقد تركت لشريف مكة مداخيله، ولكنها تقلصت كثيرًا بسبب تقلص توارد الحجاج وركود التجارة ومنع استحصال الرسوم من التجار الوهابيين، ناهيك عن الأثر الذي تركه فيه فقدان الاستقلال السياسي. ولم تكن المشاركة في الغزوات لتبشر سكان الحجاز عمومًا بخير، فقد تعودوا الحصول على أسباب العيش باساليب أسهل. ويكفي القول ان سكان المدينة المنورة الذين كانوا يمتلكون جيادا قد باعوها فورًا لتفادي الاستدعاء للخدمة في عساكر الوهابيين[١٢٥].

وكانت العادات الصارمة «النقية» التي استحدثت في مكة تتعارض مع عادات ومفاهيم سكانها. ان الانتماء إلى الحرم الشريف قد ولد لدى سكان مكة شعورًا بالتفوق على سائر المسلمين، الأمر الذي قدم لهم تبريرات جاهزة للتسيب[١٢٦]. وكانت الأنظمة الجديدة تحظى بتأييد علماء الدين الأتقياء والمؤمنين الصادقين، ولكنها كانت ثقيلة على أغلبية السكان. وكان ثقيلًا أيضًا الشعور بالإهانة بسبب الخضوع للنجديين لأول مرة بعد قرون عديدة.

إن كل هذه العوامل الاقتصادية والسياسية والسيكولوجية قد أثارت في الحجاز جو العداء والحقد على الوهابيين الذين كانت مكانتهم وسلطتهم تستندان إلى القوة العسكرية فقط. وكان بوسع أي دافع خارجي قوي ان يؤدي إلى بدء عملية تحلل الدولة السعودية الأولى، في حين ان التناقضات التي كانت تفتتها من الداخل ببطء قد اكتسبت طابعًا تدميريًا.

الفصل الخامس

دحر الوهابيين على أيدي المصريين (١٨١١-١٨١٨)

مقدمات لتوسع الحملة المصرية على الجزيرة العربية

كان احتلال الوهابيين لمكة والمدينة المنورة قد ألحق ضررًا هائلًا بسمعة السلطان العثماني سليم الثالث. فإن خليفة المسلمين وسادن الحرمين الشريفين لم يكن قادرًا على تأمين الحج لرعيته وهو واحد من أركان الإسلام الخمسة.

وبعد الإطاحة بالسلطان سليم الثالث حاول السلطان الجديد الذي كان في السابق لعبة في أيدي الانكشارية إعادة الحجاز مهما كلف الثمن إلى حظيرة الأمبراطورية العثمانية. واتضح انه لا أمل في محاولات دفع والي بغداد ووالي دمشق إلى العمليات النشيطة ضد الوهابيين.

وكانت الإمكانية الواقعية الوحيدة لدحر إمارة الدرعية هي استخدام قوات والي مصر الذي أخذ يتقوى.

وعندما ترسخت أقدام محمد علي في مصر وصار واليًا على القاهرة في عام ١٨٠٥، كلفه الباب العالي بمهمة استعادة الحرمين من الوهابيين. كان الوالي الجديد مشغولا بتعزيز سلطته ومكافحة منافسيه والمماليك والدفاع عن مصر دون الإنجليز ومهتما بالإصلاحات الداخلية فلم تكن لديه طوال عدة سنوات قوى كافية لمعالجة شؤون الجزيرة العربية. ولكنه اعتبارًا من نهاية عام ١٨٠٩ أخذ يبدي اهتمامًا جديًا بالتحضير للحملة[١].

ولم تكن رغبة الباب العالي السبب الرئيسي الوحيد الذي دفع حاكم مصر المستقل في الواقع للقيام بحملة طويلة الأمد وباهظة التكاليف على الجزيرة العربية. كان محمد علي يأمل من وراء تحرير الحرمين الشريفين بتقوية سمعته في الأمبراطورية العثمانية كلها وبكسب شعبية كبيرة. وكانت خطط والي القاهرة، مثل خطط علي بك في حينه، تستهدف السيطرة على تجارة السلع الهندية والبن اليمني التي تمر عبر جدة، ثم الاستيلاء على اليمن نفسه. وكان محمد علي ينوي كذلك، من وراء الشعارات النبيلة لتحرير مكة والمدينة المنورة، إخراج الجنود الذين نصبوه على دست الحكم في مصر ولكنهم تحولوا إلى قوة خطيرة للغاية وصاروا يقيدون أعماله. وأخيرًا فإن الباب العالي قد وعد، على ما يبدو، في مباحثات غير رسمية بتسليم ولاية دمشق إلى أحد أبناء محمد علي حالما يتم تحرير مكة والمدينة[٢].

كان بضع مئات من العمال يمارسون بناء السفن في السويس، وحتى آذار (مارس) ١٨١٠، كانت هناك تقريبًا عشرون سفينة جاهزة[٣].

ثم بنيت عدة سفن أخرى. وحول المصريون أحد مرافئ البحر الأحمر إلى قاعدة رئيسية لتموين الحملة وعززوا القلاع في القسم الشمالي من طريق قوافل الحجاج من مصر إلى الحجاز حيث أرسلوا إليها حاميات من الجنود المغاربة المرتزقة، ووزعوا الهدايا على القبائل البدوية[٤].

وفي الأول من آذار (مارس) ١٨١١، فتك والي مصر بالمماليك في قلعة القاهرة، ثم استمر قتلهم في المدينة كلها. تمت تصفية منافسي محمد علي الخطرين في الوجه البحري.

وكانت الحرب في أوروبا قد ازالت مؤقتًا خطر اقتحام دولة من الدول الأوروبية لمصر وساعدت على القيام بالحملة على الجزيرة العربية.

وعين لقيادة الحملة طوسون بن محمد علي وهو فتى شجاع كان ما يزال آنذاك في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر[٥].

وبغية الحصول على تأييد شريف مكة غالب بدأ محمد علي مراسلات سرية معه. ووعده الشريف بالتأييد. وكانت المعلومات التي حصل عليها رجال محمد

علي تبعث على الارتياح. فإن سكان الحجاز يكنون العداء للوهابيين وكأنما كانوا ينتظرون «الأتراك» كمخلصين لهم. (في بادئ الأمر دخل محمد علي الجزيرة العربية وكأنما نزولًا عند إرادة السلطان العثماني، لذا استقبل السكان جيشه بوصفه جيشا تركيا). وكانت مثل هذه المعلومات تتوارد على حاكم مصر من مصادر أخرى أيضًا، فقرر أن الوقت قد حان[٦].

هزيمة طوسون في وادي الصفراء

في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر لوحظ ضعف العمليات الهجومية لإمارة الدرعية. فبعد تدمير كربلاء والاستيلاء على الحجاز لم يحقق الوهابيون انتصارات كبيرة. فقد ألحق الإنجليز المتحالفون مع أهل مسقط عدة هزائم شديدة بالوهابيين في البر والبحر ومكنوا البحرين من الخروج على الدرعية. وقامت في عمان تمردات متواصلة على الوهابيين.

وأدّى الجفاف والقحط في الجزيرة العربية لسنوات عديدة وحتى عام ١٨٠٩ إلى إضعاف تحرك الدولة السعودية. ومما زاد في الطين بلة وباء الكوليرا الذي تفشى آنذاك. ففي الدرعية وحدها كان يموت يوميًا عشرات الأشخاص[٧].

وكانت الخلافات في الأسرة الحاكمة تفتت سلطة السعوديين من الداخل.

إلا أن الدولة السعودية احتفظت ببعض جوانبها القوية. فإن تعصب الوهابيين القتالي لم يستنفذ بعد. وكان أمراء الدرعية ما يزالون قادرين على الاعتماد على مفارز صلبة من حضر نجد وبعض القبائل البدوية. ثم إن الطبيعة الصعبة في الجزيرة أخيرًا كانت إلى جانب الوهابيين في الكفاح ضد العدو الخارجي.

كان الجيش المصري المكون من المرتزقة الأتراك والألبان والمغاربة مسلحًا بصورة جيدة، ولديه مدفعية. وكانت لدى العديد من قادته خبرة الحروب ضد الفرنسيين والإنجليز وكانوا مطلعين على التكتيك الحربي الأوروبي. بيد أن الانضباط والمعنويات عند الجيش لم تكن عالية آنذاك.

وفي آب (أغسطس) ١٨١١، أرسل قسم من القوات المصرية إلى الحجاز بحرًا للاستيلاء على ينبع بواسطة الانزال، بينما توجهت الخيّالة بقيادة طوسون إلى هناك برا. ويقول بوركهاردت انه أرسل عن طريق البحر ١٥٠٠ جندي، بينما وصل مع طوسون ٨٠٠ فارس (يذكر عبد الرحيم أ. عبد الرحيم، استنادًا إلى الأرشيفات المصرية، أن عدد الذين جاؤوا معه ثلاثة آلاف، بمن فيهم البدو). ووصل مع طوسون واحد من أفضل القادة العسكريين عند محمد علي وهو أحمد الملقب بونابرت، وكان بمثابة مستشار عسكري عنده، وكان هو القائد الفعلي.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه احتلت قوات الانزال البحري المصرية مدينة ينبع، ولم تكن فيها قوات وهابية، بل كانت هناك حامية صغيرة خاضعة لشريف مكة ولم تبد في الواقع أي مقاومة[٨]. ونهب الجنود كل ما كان في ينبع «من الودائع والأموال والأقمشة والبن وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر واخذوهن اسرى ويبيعونهن على بعضهم البعض»[٩]. ومن المستبعد ان يحظى سلوك الجنود هذا باستحسان السكان. بيد أن المهمة الرئيسية للمرحلة الأولى من الحملة قد نفذت فقد تم الاستيلاء على رأس جسر هام لمواصلة العمليات ضد الوهابيين.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) وصل طوسون وخيالته إلى ينبع. ويقول ابن بشر ان أكثر من ١٤ ألف شخص تحشدوا في ينبع[١٠]. وحتى لو أخذنا في الاعتبار أن بوركهاردت حاول التقليل بعض الشيء من تعداد القوات المصرية فإن عدم تطابق ارقامه مع أرقام المؤرخ النجدي يثير الدهشة. ويبدو أن حاميات أخرى أرسلها محمد علي سابقًا إلى القلاع على طريق القوافل قد التحقت بقوات طوسون في مسيرتها بالإضافة إلى بعض البدو[١١].

ظل طوسون عدة أسابيع في ينبع، وبعد أن وصلته إمدادات من مصر سار بقواته نحو المدينة المنورة.

كان سعود مطلعًا على استعدادات محمد علي الحربية، فقد أطلعه مخبروه في القاهرة على أنبائها. ويبدو أن ذلك هو سبب اهتمامه المتواصل بتعزيز المدينة

المنورة. وعندما احتل طوسون ينبع عبأ سعود أفضل قواته وأرسلها إلى الحجاز بقيادة ابنه عبد الله. وشغل ١٨ ألفًا من الوهابيين، بمن فيهم ٦٠٠ من الخيالة، مواقعهم عند وادي الصفراء على منتصف الطريق بين ينبع والمدينة[١٢].

ونشبت المعارك الحاسمة في كانون الأول (ديسمبر). كان جيش طوسون يلاحق قبيلة حرب التي لم يقم معها علاقات ودية فدخل في ممر جبلي ضيق قرب وادي الصفراء وتعرّض لضربات قوات الوهابيين المختارة التي لم يكن لطوسون أي علم بوصولها. وفر الجيش المصري البالغ تعداده ٨ آلاف شخص. ولم تنقذ الموقف بسالة طوسون شخصيًا. فقد دمرت قواته تدميرًا وفقدت نصف أفرادها. ولم ينقذ المصريين من الهلاك عن بكرة أبيهم إلا انشغال الوهابيين بنهب المعسكر الذي تركوه، فعادت إلى ينبع بقية ضئيلة من قوات طوسون إلا أن الوهابيين لم يهاجموا هذه المدينة. فظل المصريون يحتفظون بأهم رأس جسر[١٣].

ووصف الجبرتي سلوك جنود طوسون حالما لاحت أولى علامات الهزيمة: «فما يشعر السفلانيون إلا العساكر الذين في الأعالي هابطون منهزمون فانهزموا جميعًا وولوا الأدبار وطلبوا جميعًا الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله وأخذ دابته وساروا طالبين الوصول إلى السفائن بساحل البريك لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البريك من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا أن القوم في أثرهم والحال انه لم يتبعهم أحد لأنهم لا يذهبون خلف المدبر ولو تبعوهم ما بقي منهم شخص واحد فكانوا يصرخون على القطائر فتأتي إليهم القطيرة وهي لا تسع إلا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها فيصعد منهم الجماعة يمنعون البواقي من إخوانهم فإن لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص...»[١٤].

كان الجبرتي من الأزهريين المعارضين لمحمد علي. وقد قدم توضيحاته لأسباب هزيمة القوات المصرية: «وقد قال لي بعض أكابرهم الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبًا

وصحَبَتْنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم إذا دخل الوقت اذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلًا عن رؤيته وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط والشاربين الخمر والتاركين للصلاة الآكلين الربا القاتلين الأنفس المستحلين المحرمات»[١٥].

وبالإضافة إلى الأسباب العسكرية الصرف ـ عنصر المباغتة عند الوهابيين وسوء الموقع عند القوات المصرية، وتدهور معنويات جنود طوسون ـ لعب دورًا كبيرًا عجزه في تلك الفترة عن إقامة علاقات ودية مع القبائل البدوية المحلية. فإن قوات طوسون مرت بمناطق كان سكانها حلفاء للوهابيين ولم يقرروا بعد مهاجمتهم.

احتلال الحجاز

كان تصحيح الأوضاع قد تطلب استمالة شيوخ البدو المحليين. وتطلب ذلك أموالًا. وسرعان ما وصلت تلك الأموال من مصر.

كتب قنصل روسيا في مصر ش. روسيتي: يقول «إن استمرار تصدير الأطعمة من هنا (من الإسكندرية إلى مالطة وإسبانيا) يقدم له (لمحمد علي) وسيلة لسد العجز في خزينته ويمكنه من إنفاق الأموال على استئناف تحصين هذه المدينة... وعلى الاستعدادات الهامة للحملة على عبد الوهاب . والحال تصل من تركيا إلى الاسكندرية بلا انقطاع قوات جديدة يرسلها هو بفصائل صغيرة إلى ينبع عن طريق السويس. ويقال إن عبد الوهاب يتخذ من جانبه إجراءات نشيطة لمواجهة هذه الحملة الجديدة. ويوجد خلاف شديد بين عبد الوهاب المذكور وشريف مكة...»[١٦]. وكتب ش. ورسيتي كذلك عن الشائعات الدائرة عن الاستعداد للحرب بين فرنسا وروسيا. وكان ذلك قد ساعد والي القاهرة في العمل دون أن يعبأ كثيرًا بالدول الأوروبية.

ووصلت إلى ينبع إمدادات جديدة ومعدات حربية، واجتذب طوسون بالهدايا الكبيرة شيوخ قبائل جهينة وحرب وكثيرًا من الحضر. وخصص راتبًا شهريًا لكل شيخ من شيوخ القبائل[١٧]. كان التذمر من الوهابيين في الحجاز قد تحوّل من زمان إلى حقد، ولذلك أخذت سياسة طوسون هذه تعود بثمارها.

وفي خريف ١٨١٢، توجه طوسون على رأس قوات كبيرة نحو المدينة المنورة واقترب منها في تشرين الأول (أكتوبر) دون أن يواجه مقاومة في الطريق[١٨]. وكانت حامية من الوهابيين بسبعة آلاف شخص تدافع عن المدينة. إلا أن المرض، كما يقول ابن بشر، أصاب قسمًا كبيرًا من الجند. ولم يكن سكان المدينة راغبين في القتال إلى جانب الوهابيين.

واخذ طوسون يقصف المدينة بالمدفعية ففتحت الانفجارات ثغرات في اسوارها. واستسلمت المدينة المنورة. والتجأت حامية الوهابيين إلى قلعة المدينة، ولكن الجوع ارغمها على ترك القلعة بعد ثلاثة أسابيع في تشرين الثاني (نوفمبر). ووعد طوسون بالسماح بجلاء بقايا الحامية الوهابية بشروط مشرفة[١٩]. ويقول منجين ان جنود طوسون تصرفوا تصرفًا نبيلًا[٢٠]. إلا أن بوركهاردت المطلع عن كثب على سير الحملة يقول ان هؤلاء الجنود قتلوا ونهبوا في الطريق أغلبية الوهابيين[٢١]. وأرسلت إلى القاهرة ٤ آلاف أذن اقتطعت من الوهابيين وأعدت لإرسالها إلى الآستانة[٢٢]. وانتقل آغا المدينة المنورة حسن إلى صف المصريين ولكنه اعتقل ونفي إلى الآستانة حيث أعدم. وعين حاكمًا للمدينة بدلًا منه توماس قيس وهو اسكتلندي أسر في مصر واعتنق الإسلام[٢٣].

ولعب الشريف غالب على حبلين. فقد كان مسرورًا لهزيمة الوهابيين وكان يأمل في التخلص من ظلمهم بمساعدة المصريين. إلا أنه لم يكن راغبا في تقوي مواقع والي القاهرة في الحجاز لدرجة كبيرة. وكان أفضل ما يناسب غالب هو استنزاف القوات المصرية وقوات الوهابيين وعودة السلطة الفعلية في الحجاز إليه.

وها هو يقسم الولاء من جديد لسعود الذي أدّى فريضة الحج آخر مرة في نهاية عام ١٨١٢[٢٤]، ويستعد لتسليم مكة وجدة إلى قوات والي القاهرة. وفي تلك الفترة

كان معسكر قوات عبد الله يرابط ليس بعيدًا عن مكة. إلا أن مصنّفات ابن بشر والمصادر الأخرى لا تشير إلى قيام الوهابيين باستعدادات ما لعمليات حربية. ولم تكن سلبية سعود وابنه تعني بأنهما لم يفهما مدى الخطر الذي يتهددهما. ولا يمكن أن يفسر سكوتهما إلا بالحالة الداخلية للدولة الوهابية وعدم الاستقرار في المؤخرة وعدم امانة البدو.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨١٣، احتل فصيل مصري غير كبير مدينة جدة بلا قتال. وخوفًا من تلقي ضربة غادرة من غالب سحب عبد الله الحامية الوهابية من مكة وانسحب بجيشه كله إلى الخرمة. وفر عثمان المضايفي وعائلته من الطائف. وسقطت مكة، والطائف بعد بضعة أيام، ووقعتا في يد طوسون بلا قتال[٢٥]. وأعلن غالب، وعلى أثره قبائل الحجاز البدوية، الولاء للأسياد الجدد.

وانتزع المصريون الحجاز من الوهابيين بدون جهود حربية كبيرة رغم هزيمتهم الفادحة ولعب الدور الحاسم في انتصارهم عداء الحجازيين لأمير الدرعية وللوهابية وكذلك الذهب المصري الذي وزع بسخاء على وجهاء وأعيان البدو وعلى البدو أنفسهم، وأخيرًا انتقال شريف مكة إلى جانب والي القاهرة.

وبمناسبة احتلال المدينتين المقدستين أقيمت في القاهرة احتفالات صاخبة أطلقت فيها نيران المدافع وأجريت الألعاب النارية. وتوجه رسول من محمد علي إلى الآستانة يحمل مفاتيح مكة والمدينة المنورة وجدة. وكتبت السفارة الروسية من الآستانة تقول: «حضر جميع أعضاء الحكومة العثمانية لاستلام المفاتيح في مسجد أيوب، ومن هناك نقلت إلى السلطان في السراي. وفي ذلك اليوم دوت ثلاث مرات صليات المدفعية من جميع بطاريات المدينة والأسطول ومضيق البحر الأسود احتفالا بهذا الحادث. واستمرت الاحتفالات سبعة أيام»[٢٦]. وعين السلطان العثماني طوسون واليًا لجدة، واستلم محمد علي والشريف غالب هدايا ثمينة من السلطان[٢٧].

ولم تعد الأشهر التالية على المصريين بما يفرحهم. ففي ربيع وصيف ١٨١٣،

قام الوهابيون بغزوتين موفقتين على الحجاز. وظهر سعود بنفسه قرب المدينة المنورة مع أنه لم يتمكن من احتلالها. وهجم أهالي عسير الذين ظلوا موالين للوهابيين على الفصائل المصرية قرب أسوار مكة وجدة تقريبًا.

وفقد جيش الاحتلال المصري بسبب الارهاق والحر والأمراض المتواصلة الناجمة عن سوء التغذية وتلوث المياه عددًا من الجنود أكبر مما فقده في المعارك. ويقول منجين ان جيش والي القاهرة فقد خلال هذه الحملة ٨ آلاف شخص و٢٥ ألف جمل. وكان هلاك دواب الركوب والنقل قد حرم المصريين من إمكانية المناورة والمسيرات البعيدة وايصال العتاد والذخيرة والأغذية في الوقت اللازم. وبدأت آمال البدو في والي مصر تخيب، وصاروا يتعاونون مع قواته على مضض[٢٨].

وفي خريف ١٨١٣، ابتسم الحظ لطوسون من جديد. فقد قام القائد العسكري الوهابي عثمان المضايفي بغارة على الطائف ولكنه مني بالهزيمة وفر. وقبض عليه بدو عتيبة وسلموه إلى غالب[٢٩]. ثم أرسل إلى القاهرة ومنها إلى الآستانة حيث أعدم.

سياسة محمد علي في الحجاز

كان حاكم مصر يدرك أن الوهابيين لم ينتهوا رغم احتلال الحجاز. فقرر ان يتوجه شخصيًا إلى الجزيرة العربية ويدرس الموقف هناك، ويؤدي فريضة الحج في الوقت نفسه. وفي خريف ١٨١٣، وصل محمد علي مع بضعة آلاف من الجنود إلى جدة[٣٠]. واستقبله غالب. وعاهد أحدهما الآخر بالصداقة، واقسما على ذلك في الكعبة، إلا أن خلافًا جديًا كان يختمر بين الوالي والشريف.

كان مركز شريف مكة قويًا بحيث لا يسمح بالتطاول السافر على سلطته. وكان مبعث قوته وجود بضعة آلاف من العبيد المسلحين والجنود المرتزقة والحجازيين الموالين له وسيطرته على قلعة مكة[٣١]. إلا أن الوالي الداهية اعتقل غالب غدرا في أواخر عام ١٨١٣ بزعم ان السلطان طلب ذلك وأرغم محمد علي شريف مكة تحت تهديد الموت على أن يصدر أمره إلى أبنائه ليكفوا عن المقاومة، وبعد ذلك نفاه

مع عائلته كلها إلى القاهرة. وعين محمد علي بدلًا منه صنيعته يحيى بن سرور وهو من أقرباء الشريف غالب وصادر أموال الشريف من نقود واثاث وبضائع وبن وتوابل بلغت قيمتها ما يعادل ٢٥٠ ألف جنيه استرليني.

إلا أن السلطان أمر بإعادة قسم من تلك الأموال إلى الشريف غالب الذي أقام في سالونيكي وتوفى فيها بعد بضع سنوات[٣٢]. لقد فاز محمد علي دون شك من حيث الهدف البعيد الذي يتلخص في الحجاز بصورة تامة. فقد جرد شريف مكة من السلطة والنفوذ واستبعد احتمال انتقال غالب إلى صف الوهابيين. ووضع يده على مداخيل الشريف السابقة كلها تقريبًا وساعد ذلك على تمويل الحملة الباهظة. وأخيرًا حرم الباب العالي من إمكانية الاستفادة من التناقضات بينه وبين غالب.

إلا أن النتيجة المباشرة لغدر محمد علي تجلت في غضب سكان الحجاز، وخصوصًا البدو، ولجوء الكثير من عوائل الوجهاء إلى الوهابيين خوفًا من التنكيل ومشاركتها في الحرب إلى جانب الوهابيين. وكان من بين هؤلاء الشريف راجح وهو قائد عسكري شجاع. كما لجأ إلى الوهابيين جزء من حرس غالب[٣٣].

ومن الناحية العسكرية كان الإخفاق يلاحق محمد علي في بادىء الامر. ففي أواخر ١٨١٣ وأوائل ١٨١٤ منيت قواته بالهزيمة في تربة والقنفذة .

وعندما استولى الانزال البحري على مدينة القنفذة قتل الجنود كثيرًا من السكان العزل وقطعوا آذانهم لإرسالها إلى الآستانة كدليل على البسالة في القتال. وقال ج. فيناتي الذي شارك في هذا الانزال ان الجنود كانوا أحيانًا يقطعون آذان الأحياء لكي يحصلوا على المكافأة الموعودة[٣٤]. وتوحد السكان المحليون الغاضبون بسبب ذلك حول طامي أمير عسير الذي حاصر القنفذة وقطع عنها مياه الآبار الموجودة حولها ثم بدأ الهجوم بعد أن استنزف قوى المحاصرين. وفر الجنود إلى السفن في هرج ومرج. وقتل الكثيرون منهم وغرق آخرون أو هلكوا في الطريق بسبب العطش[٣٥].

كان محمد علي يدرك أنه إذا لم يحقق نصرًا حاسمًا في الجزيرة العربية فإن مكانته في مصر سوف تتزعزع، ولذا بدأ باتخاذ إجراءات عاجلة لمواصلة الحملة.

وفرضت ضرائب إضافية على الفلاحين المصريين، ووصلت إلى جدة إمدادات جديدة وذخيرة وعتاد وأغذية. فصارت المدينة بمثابة مستودع رئيسي. ووصلت عدة مئات من الخيّالة من بدو ليبيا الموالين لمحمد علي باشا. وكانوا سندًا ثمينًا له لأنهم متعودون على العمليات في الظروف الصحراوية. وازدادت وسائط النقل بآلاف الجمال التي اشترى محمد علي بعضها من الشام وجلب البدو الليبيون بعضها الآخر. واتفق محمد علي مع امام مسقط حول إرسال السفن لنقل القوات[٣٦].

واتخذت خطوات لتحسين العلاقات مع السكان المحليين. والغى محمد علي بعض الإتاوات المرهقة جدًا وقلص الرسوم الجمركية في جدة. ووزع النقود على المحتاجين ورمم الكعبة وقدم الهدايا لعلماء الدين وكشف خصيصًا عن ورعه وتدينه. وأمر جنوده بأن لا يمارسوا النهب والتنكيل وان يدفعوا ثمن ما يأخذونه من أغذية. وتغير موقف الحجازيين من قوات محمد علي نحو الأفضل[٣٧].

إلا أن الأمر الرئيسي يتلخص في استئناف الحج. فقد استلم البدو نقودًا من قافلة الشام بعد أن كانت السلطات العثمانية لا تدفع شيئًا منذ عشر سنوات. وأسفر توارد عشرات الآلاف من الحجاج عن ازدهار أحوال سكان الحجاز من جديد[٣٨].

وكانت وفاة إمام الدرعية سعود في ربيع ١٨١٤[٣٩] قد أفادت والي مصر. فإن موهبة سعود كقائد عسكري ورجل دولة معروفة للجميع. ولم يبخل ابن بشر بالكلمات في مدحه، فرسم له صورة الحاكم المثالي التي وردت أوصافها في الكثير من الروايات الشفهية وفي الأدب العربي. ويقول المؤرخ إن سعود كان محبوبًا عند الرعية. وكان جيد الاطلاع على الكتاب والسنة بفضل تعلمه على يد محمد بن عبد الوهاب. وقد كافح في سبيل الإسلام وخاض الجهاد ببسالة. وكتب وصايا للرعية أدهشت الجميع بعمق معرفة الفقه، ودلل على أفكاره بآيات من القرآن واقوال من الحديث ومقتطفات مما كتبه أشهر الفقهاء. ودعا إلى الامتناع عن المحظورات: الزنا والنميمة والافتراء والأكاذيب والربا. وكان متواضعًا ورعًا سخيًا وكان بسيطًا في معاملة المقربين إليه. كان فطينًا حاد الذكاء وقد حظي باعجاب كبير وشعبية واسعة[٤٠].

في فترة وفاة سعود كان الوهابيون قد فقدوا الحجاز كله وعمان والبحرين وقسما من تهامة. وتسلم ابنه عبد الله دولة انتابها الخراب. وبعد أن قهر مقاومة المتذمرين ثبت مركزه على العرش وأخذ يستعد لمواصلة الحرب ضد جيش محمد علي. وتشير أغلبية المؤرخين إلى أن عبد الله كان محاربًا شجاعًا، ولكنه أقل من والده من حيث الدهاء السياسي والمرونة وسائر خصال رجل الدولة. وربما كان في هذا القول بعض الحق. فالتاريخ يدين المغلوبين بوصفهم غير موهوبين، مع أن الملابسات كانت في كثير من الأحيان أقوى منهم.

انتصار المصريين في معركة بسل وتقدمهم نحو عسير

أخذت سياسة محمد علي في الحجاز تؤتى ببعض الثمار. فقد تمكن من تحسين العلاقات مع البدو. والدليل على ذلك ما قاله ابن بشر من أن عبد الله هاجم مرارًا القبائل البدوية الحجازية الموالية لمحمد علي. واضطر امام الدرعية إلى القيام بحملة تنكيلية ضد بدو مطير أيضًا[٤١]. وفي أواخر عام ١٨١٤، تمكن محمد علي من الاتصال مع الشريف راجح واقناعه بالعودة للخدمة عنده ودفع له مبلغًا ضخما.

وحتى ذلك الوقت، صارت لدى محمد علي قوات كافية. ويقدر بوركهاردت تلك القوات بـ ٥ آلاف شخص، ولكن محمد علي كان يعتقد بأن لديه ٢٠ ألفًا[٤٢]. ويبدو أن الرقم الحقيقي هو بين هذا وذاك.

وفي أواخر ١٨١٤ وبداية ١٨١٥، حشد الوهابيون في بسل، على مقربة من تربة، جيشا بلغ ٣٠ ألفًا كما يقول ابن بشر، و ٢٠ ألفًا كما يقول بور كهاردت. وأكثر من نصفه احضره طامي بن شعيب من عسير. وترأس تلك القوات الموحدة فيصل شقيق عبد الله. وفي كانون الثاني (يناير) ١٨١٥ نشبت معركة انتصرت فيها قوات محمد علي المتحالفة مع البدو. ودفع محمد علي ٦ ريالات مقابل كل قتيل من الأعداء. واحتفل محمد علي بالنصر حيث أعدم في مكة مئات الأسرى. وبلغت خسائر الوهابيين عدة الاف.

ثم احتلت قوات محمد علي تربة ورنية وبيشة. ووصل المصريون إلى ساحل

البحر الأحمر واستولوا على القنفذة. وجرى تسليم زعيم عسير طامي بن شعيب إلى محمد علي الذي أرسله إلى مصر ثم إلى الآستانة حيث أعدم. وكان محمد علي ينصب على القبائل البدوية في كل مكان أناسًا طائعين له[٤٣]. وبنتيجة العمليات الحازمة التي شنها محمد علي جرى دحر الوهابيين في عسير وفي المناطق الهامة من الناحية الاستراتيجية بين الحجاز ونجد وعسير.

وبعد عدة أشهر، عاد محمد علي إلى مصر حيث وصلته أنباء عن القلاقل. وبالإضافة إلى ذلك كان محمد علي، بعد احتلال الحلفاء لباريس، يخشى من انزال جديد يقوم به الإنجليز على مصر أو من هجوم الأتراك[٤٤].

دخول طوسون القصيم والصلح مع عبد الله

لم تكلل بالنجاح محاولة طوسون الأولى لدخول القصيم. فقد عاد أدراجه عندما علم بظهور عبد الله مع قوات كبيرة. إلا أن التذمر في القصيم من سلطة الوهابيين قد اشتد. واتصل وجهاء الرس بطوسون ووعدوه بالمساعدة إذا دخل القصيم. وتحرك طوسون بلا إبطاء.مع عدد غير كبير من القوات نحو مدينة الرس ودخلها. ودمر هنا قسمًا من التحصينات وفرض الضرائب على السكان ونصب معسكرًا على مقربة من المدينة مؤمنًا تزويد الجيش بالأغذية على حساب السكان المحليين. فلم يتمكن من تأمين المؤن من المدينة المنورة بصورة منتظمة.

وكانت قوات عبد الله مرابطة في عنيزة. وقام الوهابيون بهجمات متفرقة باتجاه الرس وكانوا يستولون على قسم من القوافل القادمة من المدينة المنورة. فقد وقع فصيل الإمدادات الذي قاده توماس قيس في كمين نصبه الوهابيون وأُبيد[٤٥]. واستمرت العمليات الحربية سجالًا طوال عدة أشهر حتى صيف ١٨١٥[٤٦].

غدت حالة طوسون عصبية للغاية. فإن ضغط الوهابيين الشديد كان يمكن أن يدمره. بيد أن قوى عبد الله لم تكن كافية على ما يبدو، ثم انه كان يخشى تمرد أهل القصيم في مؤخرته. وتم توقيع الصلح بشروط تعكس توازن القوى المترجرج هذا.

ونص الاتفاق على توقف العمليات الحربية. وترك جيش طوسون القصيم وكف المصريون عن التدخل في شؤون نجد. وتأكد ضمان حرية التجارة والحج للجميع. وأورد ابن بشر وبوركهاردت كلاهما هذه المعلومات عن الاتفاقية. إلا أن الرحّالة بور كهاردت اورد بضعة شروط أخرى من الاتفاقية: يجب أن تخضع لعبد الله كل القبائل المتواجدة شرقي الحناكية. ويقول بور كهاردت كذلك ان عبد الله وافق على اعتبار نفسه من رعية السلطان العثماني. ويؤكد المؤرخ المصري المعاصر أ. عبد الرحيم هذه الحقيقة استنادًا إلى وثائق من ارشيفات القاهرة[٤٧].

ووصل مبعوثو عبد الله مع طوسون إلى القاهرة، خريف ١٨١٥[٤٨].

وبعد انسحاب طوسون أخذ عبد الله ينحي أمراء القصيم الذين أبدوا ترددًا أثناء وجود الفصيل المصري في الرس، أو الذين تعاونوا مباشرة مع طوسون، وبدأ كذلك عمليات تأديبية ضد بدو حرب ومطير الذين خانوا العهد.

وإلى الجنوب من ذلك، في مناطق بيشة وتربة ورينة التي كانت، باعتقاد بوركهاردت، مستثناة من الاتفاقية بين عبد الله وطوسون، استمرت الصدامات بين الوهابيين والقوات المصرية [٤٩].

واثارت أعمال عبد الله التذمر في القصيم، ناهيك عن البدو، فأرسلت شكاوي إلى محمد علي. وفي المراسلات التي جرت بين عبد الله وبين محمد علي وابنه وردت إشارات متكررة إلى خرق الوهابيين لشروط الاتفاقية [٥٠].

ارتفعت منزلة محمد علي في الأمبراطورية العثمانية بفرض سيطرة مصر على الحجاز. وأخذ محمد علي يطالب الباب العالي بتسليمه الشام على سبيل المكافأة عن الانتصارات في الحجاز. ولذا أصبحت أكثر إلحاحًا بالنسبة له مهمة تثبيت أقدامه في الحجاز وفي الجزيرة العربية عمومًا بتقويض الدولة السعودية الأولى نهائيًا[٥١].

احتلال نجد من قبل إبراهيم باشا

عين إبراهيم الابن الأكبر لمحمد علي لقيادة الحملة هذه المرة. وظلت معروفة

إحدى الطرائف التي قيلت بمناسبة تعيين إبراهيم قائدًا للحملة الجديدة. يقال إن محمد علي جمع قواده العسكريين في القاهرة قبيل بدء الحملة ليناقش معهم خطة العمليات. ثم أشار محمد علي إلى تفاحة موجودة وسط سجادة كبيرة مفروشة في القاعة. وقال: من يحضر هذه التفاحة ويسلمها لي دون أن يمس السجادة برجليه سيقود القوات. انبطح المقربون إلى الوالي على الأرضية ولكنهم لم يبلغوا التفاحة. وعند ذاك اقترب ابنه إبراهيم، وهو قصير القامة، من السجادة فطواها وبلغ التفاحة وسلمها إلى أبيه. وهكذا لمح لأبيه، كما يقال، إن القوات المصرية تحت قيادته سوف تطوي «سجادة» بوادي الجزيرة في البداية بتأمين المواصلات والعلاقات الطيبة مع السكان المحليين[٥٢]

كانت مثل هذه المبادىء بالفعل أساسًا للسياسة المصرية في الجزيرة العربية أثناء حملة إبراهيم. فقد كان يفهم جيدًا ان التوغل في أعماق الجزيرة مستحيل بدون مساعدة البدو، لذا سعى إلى اجتذابهم. ولهذا الغرض ألغى إبراهيم الزكاة الوهابية على البدو، وراح يدفع المال نقدًا لقاء كل الخدمات. إلا أن فلاحي مصر هم الذين دفعوا ثمن انتصارات إبراهيم.

كان إبراهيم عارفا بمدى العداء الذي خلفته تصرفات وتعسف جنوده المتباينين في الحجاز، لذا حاول ان يترك انطباعًا طيبًا عند الأعراب بورعه وتقواه ونبله وايفائه بالوعد. وقد قطع بكل حزم دابر أي أعمال للعنف ضد السكان المحليين إلى أن تم تدمير الدرعية.

في تلك الأثناء أصاب الضعف دولة السعوديين. وكانت القبائل البدوية الرئيسية مستعدة في أي لحظة لتقلب لها ظهر المجن. وابتعد وجهاء وأعيان واحات وسط الجزيرة عن الوهابيين بسبب التوقف التام تقريبًا في مسيل الثروات المنهوبة. وكان السكان الحضر يتذمرون من الحروب المتواصلة الطويلة الأمد والإتاوات التي لا تنقطع. ولم تكن منزلة عبد الله رفيعة كمنزلة أبيه سعود. ولم يبق سندًا لأمراء الدرعية في كل مكان إلا علماء الدين الوهابيون.

وما كان بوسع المصريين ان يرسلوا إلى نجد قوات غفيرة. إلا أن جنودهم صاروا

يختلفون عن أولئك الذين قاموا بالانزال في الحجاز قبل ست سنوات. فهم الآن يجيدون تدبير حصار القلاع وبناء الطوابي الحامية من الهجمات المباغتة واستخدام المدفعية بمهارة ليست قليلة. وكان مع إبراهيم مدربون من جيش نابليون وأطباء أوروبيون(٥٣).

أما عساكر عبد الله فقد ظلّت على غرار المتطوعة العشائرية والحضرية كما كانت سابقًا. وكان الوهابيون متخلفين عن المصريين من حيث الإعداد الحربي. صحيح انهم كانوا يقاتلون في ظروف مناخية تعودوا عليها ويدافعون هذه المرة عن ديارهم ونخيلهم وحقولهم، إلا أن وطنيتهم النجدية لم تكن قوية، وكانت المشاعر التي يكنونها لآل سعود آنذاك متعارضة.

ويبدو أن عبد الله كان يدرك تعقد الموقف بالنسبة له. كان ينوي دحر المصريين في معركة مكشوفة، وفي حالة الإخفاق كان يريد ان يرغمهم على محاصرة واحة محصنة بعد أخرى وينسحب إلى وسط نجد. وكانت صعوبات الحملة وسط الجزيرة البعيد عن قواعد التموين لا بد أن ترغم المصريين، كما يعتقد على التخلي عن نيتهم في احتلال نجد.

وفي خريف ١٨١٦، وصل إبراهيم إلى المدينة المنورة مع قوات كبيرة. وجاءته من مصر قوات جديدة وأغذية ومعدات. واجتذب إبراهيم القبائل في ضواحي المدينة لعمل معه وبدأ زحفه البطيء على نجد. وبعد أن احتل الحناكية أنشأ فيها معسكرًا محصنا. ودعا إليها زعماء القبائل المجاورة وقدم لهم الهدايا واستعرض جيشه أمامهم. وفي تلك الأثناء وصل من الآستانة نبأ منحة لقب باشا. وكان ذلك بمثابة مغازلة لمشاعره لا اكثر، فهولا يعني أي دعم له.

وفي تلك الأثناء، كانت القبائل البدوية تبتعد عن عبد الله الواحدة تلو الأخرى. فإن زعيم مطير فيصل آل دويش، مثلًا، جاء إلى إبراهيم وعرض عليه خدماته مقابل تعيينه فيما بعد أميرًا للدرعية. ووصل عبد الله إلى القصيم وهاجم المصريين ولكنه مني بهزيمة. وقُتِل كثيرون من الوهابيين واقتطعت آذانهم وأُرسلت إلى القاهرة.

وفي صيف ١٨١٧، اقترب إبراهيم من الرس وبدأ حصارًا استمر عدة أشهر، ودافع المحاصرون عن أنفسهم ببسالة. ويمكن الافتراض من ضراوة المعركة ان عبد الله الذي يفهم الأهمية الاستراتيجية للرس قد ترك هناك أفضل ما كان متوفرًا لديه. وخلال الحصار الطويل لمدينة الرس كان عبد الله على مقربة منها دون أن يتمكن من نجدتها بشكل فعال. ولم تتمكن من دخول المدينة عبر المعارك إلا قافلتان وهابيتان.

وبلغت خسائر إبراهيم ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص، وأغلبهم بسبب الأمراض. فالحصار في أوج الصيف، مما زاد في الصعوبات أمام جيش إبراهيم. ولكنه كان يتمتع بمزايا المدفعية ومختلف آلات الحصار والقيادة الماهرة. والأمر الأهم انه استلم امدادات. فإن عبد الله لم يتمكن من قطع طرق التموين. وكان للذهب المصري الذي وزعه إبراهيم بسخاء ولإلغاء الزكاة على البدو أثر كبير بهذا الخصوص.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) استسلمت الرس بشروط مشرفة. والتحقت حامية الوهابيين المتبقية حاملة اسلحتها بقوات عبد الله[٥٤] وحسبما يقوله ج. سالير كان مصير الرس يختلف بعض الشيء. فالمدينة لم تستسلم، بل وعدت بالاستسلام للمصريين بعد أن يحتلوا عنيزة[٥٥].

كان يقود الدفاع عن عنيزة أشخاص من أقرباء امام الدرعية. وكانت حامية الوهابيين مزودة بالمؤن والذخيرة بصورة جيدة. ولكن المدينة احتلت بعد عدة أيام من الحصار، واستسلمت حاميتها بشروط مشرفة. والتحق المحاربون الوهابيون حاملين السلاح بعبد الله[٥٦].

ولم يحاول أمام الوهابيين إبداء مقاومة أكثر لجيش إبراهيم في ساحات مكشوفة. فإن احتياطات مصر تحمي ظهر إبراهيم. وكان هجومه بطيئًا، ولكنه لا مرد له. وبعد عنيزة استسلمت بريدة، وفي أواخر عام ١٨١٧ أعلنت القصيم كلها عن خضوعها لإبراهيم[٥٧]. وكتب إبراهيم باشا لأبيه ان كل سكان المنطقة يكرهون حجيلان أمير بريدة العجوز وكذلك عبد الله[٥٨].

في البداية انسحب عبد الله إلى شقراء حيث كان يجري على جناح السرعة بناء المنشآت الدفاعية، وبعد ذلك انسحب إلى الدرعية.

ظل إبراهيم في بريدة حوالى الشهرين لاستلام الإمدادات. ثم تحرك نحو شقراء. وذكر منجين ان عدد قوات إبراهيم قليل جدًا ألف جندي. ويبدو أن هذا الرقم أقل مما في الواقع. وبعد ذلك ذكر منجين الرقم ٤٥٠٠ جندي دون أن يوضح ما إذا كان البدو بضمنهم أم لا. ولكن الحقيقة هي أن إبراهيم تمكن من قهر نجد بقوات قليلة نسبيًا. إلا أن حملته على شقراء شارك فيها بدو مطير وحرب وعتيبة وبنو خالد. وكان أولئك من البدو الذين كانوا آخر من خضع للوهابيين وأول من قلب لهم ظهر المجن. وكتب ابن بشر بمرارة يقول انه سار مع إبراهيم كثير من زعماء القبائل ووجهاء الواحات في نجد بأمل الغنيمة والاستقلال المرتقب، ولكن آمالهم خابت بعد سقوط الدرعية أشد خيبة(٥٩). فعندما ترك إبراهيم المدن التي احتلها كان يدمر في البداية كل التحصينات ويأخذ رهائن معه(٦٠).

وفي كانون الثاني (يناير) وصل إبراهيم إلى ضواحي شقراء. وبعد القصف المدفعي بدأ اقتحام المدينة. وسقطت شقراء بعد عدة أيام. وأطلق سراح حاميتها بعد أن جرد أفرادها من السلاح ووعدوا بأنهم لن يشاركوا في الحرب. واستولى إبراهيم على الوشم كلها(٦١). ثم احتل سدير والمجمعة بلا قتال في الواقع ، وأعلنت حريملا والمحمل عن خضوعهما(٦٢).

وتحرك إبراهيم من شقراء إلى ضرمى التي كان يدافع عنها محاربون أشداء من الخرج. ورغم القصف المدفعي واستخدام تكنيك الحصار لم يتمكن إبراهيم باشا من إرغام الحامية على الاستسلام. إلا أن القوى لم تكن متعادلة. واقتحم جنود إبراهيم المدينة ونكلوا بأهلها جزاء لهم على المقاومة، وقطعوا آذان القتلى، كما هي العادة، وأرسلوها إلى القاهرة. ونهبوا المدينة عن آخرها. وجرى ذلك في شباط (فبراير) ـ آذار (مارس) ١٨١٨(٦٣). وبذلك فتح الطريق نحو الدرعية.

سقوط الدرعية

في نيسان (أبريل) جرى المشهد الأخير من فاجعة الدولة السعودية الأولى. فقد بدأت معركة الدرعية. ومع أن واحات ومدن نجد سقطت الواحدة تلو الأخرى في يد الغازي المصري، إلا أنه كان في كل منها وهابيون راسخو العقيدة رفضوا حتى فكرة التعايش سلميا مع «المشركين» وظلوا مخلصين حتى النهاية لآل سعود. وتقاطروا على الدرعية للمشاركة في المعركة الأخيرة.

وواجهت القوات المصرية فصائل من العاصمة والواحات الأخرى في وسط الجزيرة. وقاد هذه الفصائل ثلاثة من أشقاء عبد الله، وهم فيصل وإبراهيم وفهد. وكانت في الدرعية قوات من منفوحة بقيادة العقيد الشجاع عبد الله بن مزروع وكذلك فصائل من حريق وسدير. وكان كهول من سكان العاصمة يدافعون عن مراكز الاسناد الصغيرة. وكانت هناك مفارز تحت قيادة أبناء آل سعود وأفراد عائلة آل معمر وغيرهم من القادة البارزين[٦٤].

وكان تحت إمرة إبراهيم باشا حوالى ألفين من الخيّالة و ٤٣٠٠ من الجند الألبان والأتراك و ١٣٠٠ من الخيّالة المغاربة و ١٥٠ من المدفعيين ومعهم خمسة عشر مدفعا وكذلك ٢٠ من المختصين بالبنادق و١١ من المختصين بالقذائف[٦٥].

كانت واحة الدرعية تمتد لعدة كيلومترات بشكل خط على طول وادي حنيفة. وتتكون المدينة نفسها والواحة من عدة نزل متلاصقة. وتطل على المنطقة قلعة الطريف ومسجدها ومختلف المباني التابعة لها. وهي محمية بصخرة جبلية عالية من جهة وبقناة من الجهة الأخرى.

بدأ إبراهيم هجومه ببطء على طول الوادي. وبعد المناوشات الأولى مع العدو ترك المترددون عبد الله وانتقلوا إلى إبراهيم وزودوه بمعلومات عن الوضع في المدينة. وكان تفوق المصريين في المدفعية قد مكنهم من تدمير تحصينات الوهابيين، وكان المهاجمون يحمون أنفسهم من الهجمات المباغتة ببناء الطوابي على النمط الأوروبي هنا كما فعلوا في السابق. ومرت لحظة خيل فيها للوهابيين انهم

سينتزعون النصر. فقد انفجر مستودع البارود الرئيسي عند إبراهيم وتوجه الوهابيون في هجوم سريع ولكنه أخفق.

كان توارد الأغذية والذخيرة والامدادات على إبراهيم طوال الوقت قد أمن النجاح لزحفه البطيء. وكان المرضى والجرحى من قوات إبراهيم ينقلون إلى مستشفى أنشىء في شقراء. وكانوا يتماثلون إلى الشفاء هناك أحيانًا ويعودون إلى صف المقاتلين. وأرغم إبراهيم الأمراء الذين التحقوا به على أن يرسلوا إلى الدرعية محاربين يقاتلون تحت ألويته. وكان جنود جدد يحتلون مواقع الجنود القتلى من أفراد قوات إبراهيم في حين كانت صفوف المدافعين عن الدرعية تتضاءل. وكان من أسباب ذلك نقص الأغذية في الواحة [٦٦].

وغدت حالة الوهابيين ميؤوسًا منها. وتكررت حالات الفرار. وفي مطلع أيلول (سبتمبر) بدأ الهجوم العام على المدينة. واحتمى عبد الله وقسم من أقربائه في قلعة الطريف. وفي ٩ أيلول، أقدم عبد الله على المفاوضات بعد أن أدرك أن كل شيء قد ضاع. وتوجه إلى معسكر المصريين عمه عبد الله بن عبد العزيز وعلي ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك محمد بن مشاري بن معمر. وطالبهم إبراهيم باشا بالاستسلام. واتفق مبعوثو عبد الله معه على الاستسلام بشروط مشرفة لسكان واحة الدرعية الذين كانوا ما يزالون يقاومون. وقاتل عبد الله ومحاربوه المرابطون في القلعة قتالا باسلًا يومين آخرين. وأوصل إبراهيم إلى منطقة القلعة كل مدفعيته، وفي ١١ أيلول استسلم عبد الله.

وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة[٦٧]. وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من أقرباء الإمام بمن فيهم ثلاثة من إخوانه. وقدر ابن بشر الخسائر العامة للوهابيين برقم صغير يثير التساؤلات، وهو ١٣٠٠ شخص، بينما يقول ان خسائر إبراهيم في معركة الدرعية حوالى ١٠ آلاف[٦٨]. وأفاد إبراهيم في رسائله إلى القاهرة والآستانة بأن الوهابيين خسروا ١٤ ألفًا من القتلى و ٦ آلاف من الاسرى، ومن بين الغنائم ١٤١ مدفعا[٦٩].

وبمناسبة احتلال الدرعية جرت في القاهرة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨١٨

احتفالات بهيجة أطلقت فيها نيران المدافع وأجريت الألعاب النارية وكان الناس يسرحون ويمرحون[٧٠]. وعلى أثر ذلك أعرب السلطان عن ارتياحه العميق عندما بلغه نبأ هزيمة «أعداء الإسلام»[٧١] وأعرب شاه إيران في رسالة إلى محمد علي باشا عن تثمينه لدحر الوهابيين[٧٢].

نقل عبد الله عن طريق القاهرة إلى الآستانة بصحبة اثنين من المقربين إليه في مطلع كانون الأول (ديسمبر). وأفادت السفارة الروسية من الآستانة: «في الأسبوع الماضي قطعت رؤوس زعيم الوهابيين ووزيره وإمامه الذين أسروا في الدرعية ونقلوا إلى العاصمة مؤخرًا. وبغية إضفاء المزيد من الفخفخة على الانتصار على ألد أعداء المدينتين اللتين تعتبران مهد الإسلام أمر السلطان في هذا اليوم بعقد المجلس في القصر القديم في العاصمة. وأحضروا إلى القصر الأسرى الثلاثة مقيدين بسلاسل ثقيلة ومحاطين بجمهور من المتفرجين. وبعد المراسيم أمر السلطان بإعدامهم. قطعت رقبة الزعيم أمام البوابة الرئيسية للقديسة صوفيا، وقطعت رقبة الوزير أمام مدخل السراي وقطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسية في العاصمة. وعرضت جثثهم ورؤوسها تحت الإبط... وبعد ثلاثة أيام ألقوا بها إلى البحر.

وأمر صاحب الجلالة بأداء صلاة عمومية شكرًا لله على انتصار سلاح السلطان وعلى إبادة الطائفة التي خربت مكة والمدينة ونشرت الذعر في قلوب الحجاج المسلمين وعرضتهم للخطر[٧٣].

الوهابية خارج الجزيرة العربية

ان تعاليم محمد بن عبد الوهاب التي بدت وكأنها ظاهرة خاصة بالجزيرة العربية وحدها قد وجدت لها بغتة أنصارًا في بلدان أخرى تبعد عن الجزيرة آلاف الكيلومترات. لقد نشرها الحجاج الذين كانوا في مكة في مطلع القرن التاسع عشر. فقد وجد شجب الوثنية ورفض عبادة الأولياء ومكافحة البدع ونشر الجهاد ضد «الكفرة» و «المشركين» والجمع بين الشعارات الطبقية والتعادلية - معتقدات وممارسات الوهابيين - تربة صالحة في بلدان ذات أنظمة اجتماعية وسياسية متباينة بعد تكييف وتعديل مناسب. ووصلت الوهابية إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا.

وكان لتعاليم محمد بن عبد الوهاب تأثير كبير في الهند. فقد استخدم بعض أحكامه المصلح الإسلامي والسياسي الهندي سيد أحمد بارلوي، وهو من أتباع المفكر الإسلامي المعروف ولي الله شاه. وكان سيد أحمد قد باشر بدعوته في مطلع القرن التاسع عشر. وفي العشرينيات حج إلى مكة واطلع هناك على تعاليم محمد بن عبد الوهاب وتبناها. وعندما عاد إلى الهند اتخذ من باتنا مقرًا له وأخذت تتوارد عليه جموع الانصار.

وفي عام ١٨٢٤، أعلن سيد أحمد الجهاد ضد الكفار، ثم، في عام ١٨٢٦، اجتاحت قواته البنجاب وأخذت تفتك بالسيك. وفي عام ١٨٣٠، احتل الوهابيون بيشاوار وأسسوا دولة لهم حتى أنهم بدأوا بصك قطع نقدية تحمل اسم أحمد. ولكن امام الوهابيين قتل في العام التالي. ونشط أتباعه أعمالهم في المناطق الإسلامية من الهند، وخصوصًا في الشمال وفي البنغال الشرقية وأعلنوا الجهاد ضد المستعمرين الإنجليز.

وكتب مؤلف إنجليزي بمرارة في القرن التاسع عشر «كان المبشرون المتمردون الذين وعدوا المؤمنين بالخلاص أو الجنة قد أججوا الحقد على الإنجليز والذي كان يضمره بعض المسلمين الهنود. وكانت كل صلاة يؤدونها مفعمة بهذا الحقد»[٧٤]. كان نضال الوهابيين ضد السيطرة البريطانية قسطًا في حركة الشعب الهندي ضد الاستعمار. واستمر هذا النضال عدة عقود حيث كان يشتد تارة ويخفت تارة أخرى. ومعروف جيدًا دور الوهابيين الكبير في انتفاضة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ الشعبية ضد السيطرة البريطانية[٧٥].

وعلى الحدود الشمالية، في سيتان، صمد المركز الوهابي في وجه حوالى عشرين حملة من القوات الاستعمارية. ولم يندحر إلا في عام ١٨٦٣. إلا أن نشاط الوهابيين استمر بعد ذلك. وكانت السلطات البريطانية، كما يقول المؤرخ الإنجليزي و. هنتر، تعتبرهم «جماعة... تشكل، في رأي جميع الحكومات التي حلت محل بعضها بعضًا، مصدرًا لخطر دائم على الأمبراطورية الهندية»[٧٦].

ودفعت الوهابية بعض الحجاج الإندونيسيين الذين أمّوا مكة في العقد الأول

من القرن التاسع عشر إلى ممارسة النشاط الإصلاحي. ففي سومطرة بدأت حركة دينية سياسية استخدمت عددًا من الشعارات الوهابية. وكانت في البداية موجهة ضد السكان المحليين غير المسلمين، ثم اكتسبت طابعًا مناوئًا للهولنديين. وطوال حوالى خمسة عشر عاما، اعتبارًا من عام ١٨٢١، خاض المستعمرون الهولنديون الحرب ضد وهابيّي سومطرة.

ويرى بعض الباحثين ان الوهابية مارست تأثيرًا معينًا على حركة عثمان دان فوديو في غرب إفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر والتي أدّت إلى تأسيس دولة سوكوتو الشاسعة هناك، وكذلك على السنوسيين في ليبيا[٧٧].

وكان سلطان مراكش مولاي سليمان (١٧٩٢ - ١٨٢٢) الذي اشتهر بثقافته وورعه وحرصه على الإسلام قد استخدم الأفكار الوهابية في مكافحة التجزئة الإقطاعية والعشائرية في البلاد. وواجه نشاط المرابطين الانفصالي بمبدأ: سلطة واحدة ودين واحد ودولة واحدة. وتقليدا للوهابيين شجب السلطان الشعائر السنوية لتكريم الأولياء والغى مختلف الضرائب التي لا ينص عليها القرآن وأخذ يرسل إلى مناطق البربر قضاة مسلمين يعملون على نشر الشريعة واجتثاث العرف القبلي عند البربر. وكانت إصلاحات مولاي سليمان الوهابية تشكل خطرًا على المصالح المادية للجمعيات الدينية والمرابطين وسلطتهم بل حتى على وجودهم. فتوحدوا، إلا القليل منهم، ضد السياسة الوهابية للحكومة وألحقوا الهزيمة بالسلطان وأرغموه على التنازل عن العرش[٧٨].

الفصل السادس

من سقوط الدرعية حتى جلاء المصريين عن الجزيرة العربية (١٨١٨ ـ ١٨٤٠)

السياسة المصرية في الجزيرة العربية بعد دحر الوهابيين

بعد سقوط الدرعية لم يعد للدولة السعودية الأولى وجود وأصبح المصريون أسيادًا بالتمام والكمال في أواسط الجزيرة، وأخذوا يزيلون بالحديد والنار نفوذ آل سعود والوهابيين.

عذبوا الأمراء والعقداء والفقهاء وأطلقوا النار عليهم فرادى وجماعات وربطوهم إلى فوهات المدافع ومزقوهم بالقذائف تمزيقًا. وأرغموا سليمان بن عبد الله، حفيد محمد بن عبد الوهاب، على الاستماع إلى أنغام الربابة قبيل الإعدام ساخرين من مشاعره الدينية[١]. وفي مدن وواحات جبل شمر والقصيم والدلم قتلوا أفراد عوائل الوجهاء والأعيان والعقداء واستولوا على أموالهم[٢].

وأرسلوا أفراد عوائل آل سعود وآل الشيخ ووجهاء نجد (حوالى ٤٠٠ شخص مع النساء والأطفال) للإقامة في مصر. وتمكن بعضهم من الهرب فيما بعد، بينما ارتقى بعض قليل إلى مناصبعالية في مصر. وغدا أحد أحفاد محمد بن عبد الوهاب وهو عبد الرحمن بن عبد الله، محاضرًا للفقه الحنبلي في الأزهر[٣].

وكتب الكابتن ج. سادلر «إن تاريخ حملة إبراهيم باشا عمومًا يكشف عن سلسلة من أبشع القساوات الوحشية التي اقترفت خلافًا لأكثر الالتزامات قدسية. ففي بعض

الحالات اغتنى من نهب القبائل نفسها التي ساهمت بقسط في انتصاراته، وفي حالات أخرى ينتزع ثروات أعدائه المغلوبين أنفسهم الذين تمكنوا في وقت ما من تحاشي غضبه»(٤).

وبعث محمد علي إلى إبراهيم أمرًا بإزالة عاصمة الدولة الوهابية من الوجود. وقبيل تدمير المدينة ابتز المصريون النقود من أهلها ونهبوهم دون رحمة. ولم يستلم فيصل بن وطبان آل دويش منصب أمير الدرعية، بل طالبه المصريون بأن يسدد لهم الزكاة للسنوات الخمس التي كان مدينا بها للسعوديين. فرفض زعيم مطير تلبية هذا الطلب وارتحل إلى الفرات الأوسط(٥).

وانتهز عدد من أفراد عائلة آل عريعر فرصة سقوط الدولة السعودية فاستولوا على السلطة في الأحساء. إلا أن إبراهيم باشا طردهم من شرقي الجزيرة وصادر كل أموال آل سعود ونهب الواحات(٦).

وكانت بريطانيا التي تكره إمارة الدرعية تراقب بتذمر تعزز المصريين في الجزيرة العربية. وقامت عمارة بريطانية بإنزال في القطيف(٧). وكتب فيلبي يقول «يصعب الافتراض بأن انزال القوات البريطانية في القطيف في وقت احتلال المصريين للأحساء تقريبًا كان يمثل شيئًا غير استعراض العضلات ضد المصريين. فقد كان بسط نفوذهم على ساحل الأحساء تحديًا للمواقع البريطانية في ساحل الصلح البحري مع أن المصريين يمكن أن يعتبروا أنفسهم ورثة لسلطة الوهابيين في هذه المنطقة»(٨).

كان الإنجليز يريدون أن يعرفوا نوايا المصريين في الخليج. فأرسلوا ج. سادلر لمقابلة إبراهيم باشا. وكان ج. سادلر أول أوروبي اجتاز الجزيرة من شرقها إلى غربها وشاهد أنقاض الدرعية. إلا أن إبراهيم باشا غادر نجد في أواسط عام ١٨١٩ وتوجه إلى المدينة المنورة. ولم يكن للعمليات المشتركة التي اقترحها عليه سادلر ضد الوهابيين أي معنى. زد على ذلك أن مصر عمومًا كانت ذات وجهة مناوئة للإنجليز. ورفض إبراهيم اقتراح الإنجليز بشأن التعاون وطرد سادلر من جدة في خريف ١٨١٩. وسرعان ما غادر فصيل الاحتلال البريطاني القطيف بعد أن فقد كثيرًا من جنوده بسبب الأمراض(٩).

في أواخر عام ١٨١٩ دمر الإنجليز رأس الخيمة من جديد. ووضعت الإدارة الأنكلوهندية ما يسمى «بمعاهدة الصلح العامة» التي فرضت فيما بعد على جميع حكام الساحل والبحرين[١٠]. وكانت تلك في الواقع معاهدة الحماية التي اضيفت إليها بمر السنين مواد جديدة متزايدة.

وسرعان ما أدرك إبراهيم باشا أن عائدات البلد لا تسد نفقات احتلاله. فالقوات المصرية بعيدة عن القاهرة بآلاف الكيلومترات وبعيدة عن قاعدتها الرئيسية التعبوية في الحجاز بمئات الكيلومترات. وأخذ السكان، من بدو وحضر، يضمرون للغزاة عداء متزايدًا. ولم يكن عدد الجمال كافيًا. ولا يندر ان يستولي البدو على قوافل الأغذية. ويمكن تصور المجاعة التي اجتاحت نجد إذا علمنا أن في وقت ما حتى جنود إبراهيم كانوا يقتاتون على الاعشاب. وقامت تمردات في جيش الاحتلال[١١].

وأخيرًا قرر إبراهيم ان يجلي قسمًا كبيرًا من قواته من نجد ومن شرق الجزيرة، فهو يعرف ان أباه يسعى بالدرجة الأولى إلى السيطرة على حوض البحر الأحمر وليس على أواسط الجزيرة العربية. وحشد المصريون قواتهم في منطقة الرس.

وقبيل الانسحاب دمروا كل القلاع والتحصينات الدفاعية واقتادوا الماشية وقطعوا النخيل وخربوا الحقول. وكتب ج. سادلر: «كان سكان منفوحة آنذاك في حالة يرثى لها، في حالة اسوأ مما كانت في أي زمان في الماضي منذ ان قامت سلطة الوهابيين. فإن أسوار المدينة التي هي الحامي الرئيسي لملكيتهم قد أزيلت عن سطح الأرض وأخذ الأتراك محصول الموسم ولم يكن بالإمكان هنا لا شراء القمح ولا الشعير. ولم تبقَ في القرى ولا فرس واحد»[١٢].

وبعثت الخلافات القبلية والمحلية بتغاض سافر أو مستتر من جانب الأسياد الجدد، وبدأت النزاعات وأخذ البعض يغزو البعض الآخر. وتعرّضت طرق القوافل للخطر. وحتى في المدن لم يكن السكان يتجرأون على الخروج إلى الشارع بدون سلاح. ونشأ انطباع وكأن سياسة المصريين تتلخص في اغراق وسط الجزيرة في حالة الفوضى والركود والخراب وإلغاء احتمال انبعاثه[١٣]. وكانت الحاميات المصرية

الصغيرة لا تلعب دور العامل الإيجابي للمركزية وإحلال النظام، بل غدت مجرد أداة للنهب والدمار.

كانت الدولة السعودية تحت الأنقاض وقد قهرت عساكرها ودمرت إدارتها. وبدا وكأن قوى التشتّت والتجزئة التي انطلقت من عقالها بعد دحر الوهابيين قد مزقت التوحيد السابق شذر مذر.

ولكن بقيت داخل مجتمع أواسط الجزيرة القوى التي تمكنت قبل نصف قرن ونيف من رص صفوفها وتأسيس إمارة الدرعية.

بعد تصفية الدولة السعودية كان مزارعو نجد وتجارها وصنّاعها يتحسرون على العهود القديمة، عهود الاستقرار والسلامة الشخصية وسلامة الملكية والمداخيل. وكانت حروب السعوديين الموفقة التي عادت بغنائم وفيرة قد رسمت حولهم هالة في أنظار وجهاء نجد. وراح الفقهاء الوهابيون الذين سلموا بجلودهم يدعمون الذكريات ويتغنون بأمجاد السعوديين الغابرة.

وإلى جانب النزاعات القبلية الإقطاعية كان هناك تيار لرص الصفوف وسعى إلى توحيد نجد بغية طرد المحتلين الأجانب واستئناف الظروف الملائمة للحياة الطبيعية والنشاط الاقتصادي. وبين تطور الأحداث لاحقًا ان وجود الدويلات ـ الواحات الصغيرة والمتناهية في الصغر قد عفا عليه الزمن. فبعد بضع سنوات من سقوط إمارة الدرعية أسفرت الحركة الواسعة للأمة ضد الاحتلال الأجنبي عن بعث الدولة السعودية التي اختيرت الرياض هذه المرة عاصمة لها.

النزاعات القبلية الإقطاعية في ظل الاحتلال المصري

حل خليل باشا ابن اخت محمد علي محل إبراهيم باشا كحاكم للجزيرة العربية. إلا أن خليل باشا سرعان ما توفى وعين بدلًا عنه أخوه أحمد شكري يكن بك الذي ظل في الجزيرة باسم أحمد باشا حتى عام ١٨٢٩ حيث استدعاه محمد علي إلى القاهرة وعينه رئيسًا لحربيته[١٤].

وفي خريف ١٨١٩، عين محمد بن مشاري بن معمر حاكمًا لنجد. وهو من العائلة التي حكمت العيينة في فجر الحركة الوهابية. حاول ابن معمر ترميم أنقاض الدرعية، الأمر الذي واجهه السكان بالاستحسان. وأخذ أهالي مناطق الأطراف يبعثون الوفود إليه ليعبروا عن تأييدهم[١٥]. وأمنت الأمطار الوفيرة محصولًا لا بأس به وساعدت ابن معمر على التخفيف من المجاعة. ولكن مع ذلك فالأغذية لم تكن كافية.

وظهر منافسون لابن معمر. فقد بعث ماجد بن عريعر، وهو من شيوخ بني خالد، سلطته في شرقي الجزيرة. وحكم آل عريعر تلك الأنحاء حتى عام ١٨٣٠[١٦].

وظهر على مسرح الأحداث في نجد تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وهو ممثل فرع جانبي من آل سعود، وقد فر من المصريين بعد سقوط الدرعية. وكان لبعض الوقت يعمل إلى جانب ابن معمر[١٧].

وكان أحد اخوان آخر امام سعودي وهو مشاري بن سعود بن عبد العزيز، قد فر من الحرس المصري في الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع، ثم ظهر في سدير حيث أعلن نفسه اماما، وفي آذار (مارس) ١٨٢٠، استولى على الوشم. وحظي ببعض التأييد في القصيم وفي مناطق أخرى. بيد أن ابن معمر تمكن من الاعتماد على قبيلة مطير ودحر قوات مشاري وتأسيره[١٨].

ظلت سلطة ابن معمر مضعضعة. وأخذ المتذمرون يلتفون حول تركي بن عبد الله. واقتربت الصدامات الحاسمة بين المتنافسين. وأخيرًا استولى على الدرعية بسرعة كبيرة حتى تمكن من تناول الطعام في وليمة الغداء التي كان الأمير السابق قد أعدها لضيوفه. ثم تحرك نحو الرياض حيث قبض على ابن محمد بن معمر. وفي الأسر قتل ابن معمر مع ابنه[١٩]. كان حكم ابن معمر قد استمر عامًا واحدًا تقريبًا. وكان من أسباب سقوطه تلوث سمعته كعميل للمصريين وبقاء منزلة آل سعود رفيعة كالسابق.

وعندما بلغت أنباء الاضطرابات في نجد محمد علي قرر تعزيز الحاميات في أواسط الجزيرة. وفي خريف ١٨٢٠، وصل إلى القصيم حسين بك مع إمدادات وقرر التخلص من الأمير السعودي. وتحصن أنصار تركي في قلعة الرياض، ولكنهم بعد

حصار قصير من المصريين وافقوا على الاستسلام للأسر بشرط الحفاظ على حياتهم، إلا انهم فيما بعد قتلوا كلهم تقريبًا. وتمكن تركي من الهرب[٢٠].

وفي آذار ١٨٢١، أمر حسين بك جميع أهالي الدرعية الذين عادوا إليها بأن يجتمعوا واعدا إياهم بتوزيع الأراضي عليهم. وعندما جاء ٢٣٠ من أهالي الدرعية قتلهم الجنود المصريون. وكان القتل والسجن بلا محاكمة وتقطيع الأعضاء والتعذيب أمورًا معتادة في نجد. وكانت الحاميات في المدن تنهب الأهالي. ويقتطع الجنود النخيل ويخربون الحقول. وفر الكثير من السكان إلى البوادي أو غادروا نجد[٢١]. وكتب ابن بشر يقول «وترأس عليهم الشيطان»[٢٢]. وفي عام ١٨٢١ تفشى وباء الكوليرا فزاد في الطين بلة.

وقبيل العودة إلى مصر جمع حسين بك رهائن من مدن عديدة وحبسهم في الحصن الذي انشىء في ثرمداء[٢٣]. وظلوا هناك حتى وصل إلى نجد في ربيع ١٨٢٢ قائد مصري جديد هو حسن بك الذي انشغل بجمع الإتاوات والنهب. وأصبح الأمر لا يطاق، حتى أن انتفاضات كثيرة ومقاومة مسلحة قامت ضد المحتلين رغم الارهاب. ولم تكن لدى المصريين قوات كافية. فاكتفوا بإبقاء حاميات في عدة مدن مهمة ـ الرس وشقراء وبريدة وعنيزة وثرمداء والرياض[٢٤].

لقد أخفقت المحاولات الأولى لبعث السلطة المحلية من قبل ابن معمر في البداية ثم من قبل اثنين من أفراد العائلة السعودية. إلا أن الوهابية احتفظت بجذور عميقة بين أهالي نجد، في حين كانوا يتصورون ان العائلة السعودية هي منفذة المشيئة الإلهية على الأرض.

بعث سلطة السعوديين في عهد تركي

بعد ان وفق تركي في الهرب من المصريين عام ١٨٢٠، ظل متخفيًا طوال عدة سنوات، في المناطق الجنوبية على ما يبدو، ولكنه ظهر من جديد على مسرح الأحداث في نجد في أيار (مايو) أو حزيران (يونيو) ١٨٢٣، حيث يشير ابن بشر إلى عمليات فصيله الصغير في الحلوة[٢٥].

ووجد تركي حلفاء وانصارًا له من بينهم سويد حاكم مدينة جلاجل في سدير[٢٦]. ووصلت مع سويد فصائل من بعض المناطق الأخرى. فتشجع تركي وقام بغزوة على مدينتي منفوحة والرياض المتقاربتين وفيهما حاميات مصرية من ٦٠٠ شخص. ولم تكن جميع المناطق بعد تؤيد الأمير تركي. وعلى أي حال فإن ابن بشر ذكر ان ثرمداء وحريملا والخرج تعاديه وإن قسمًا كبيرًا من واحات الوشم وسدير فضل الانتظار[٢٧].

وفي تلك الأثناء بدأت في القصيم انتفاضة شاملة ضد المصريين سببها الإتاوات والابتزاز من جانب حسن بك. واضطر المصريون على الجلاء إلى الحجاز وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوحة فقط[٢٨].

وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصرية في نجد في عامي ١٨٢٣ - ١٨٢٤ فوسع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوحة وعزل الحاميتين المصريتين وأخضع سدير والمجمعة والوشم. وفي أواخر تموز (يوليو) ١٨٢٣ شدّد تركي الضغط على الرياض وثرمداء والخرج. وأجليت الحامية المصرية من منفوحة. وبعد عدة أشهر من الحصار سقطت الرياض على يد تركي وتم جلاء المصريين من الحجاز وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركي. وتم تطهير أواسط نجد كلها من المحتلين[٢٩].

استمر حكم تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود من عام ١٨١٣، عندما بدأ يحتل نجد، حتى مقتله في عام ١٨٢٤. ويرى الكثيرون من المؤرخين ان تركي هو مؤسس الدولة السعودية الثانية لأنه كان يحكم بصورة مستقلة رغم اعترافه بسلطة الأمبراطورية العثمانية شكليًا والمصريين فعليًا. ولكنه لا يمكن الكلام عن الاستقلال الحقيقي للإمارة الجديدة إلا بعد جلاء المصريين نهائيًا من الجزيرة العربية عام ١٨٤٠. كان الائمة السابقون يتحدورن من عبد العزيز بن محمد بن سعود، في حين ان تركي وجميع الحكام اللاحقين، بمن فيهم الملك الحالي فهد وهو من سلالة تركي كانوا يتحدرون من عبد الله بن محمد بن سعود.

وفي أواخر عام ١٨٢٤، استقر تركي في الرياض التي ظلّت عاصمة لنجد ثم

للعربية السعودية بأسرها حتى اليوم. وبدأ إنشاء المسجد والقصر والتحصينات وفي نيسان (أبريل) ـ أيار (مايو) ١٨٢٥، توجه أمير الرياض إلى منطقة الخرج واخضعها بعد معارك [٣٠].

وسيطر تركي على العارض والخرج والحوطة والمحمل وسدير والأفلاج والوشم. وفي منطقة القصيم خضعت له بعض الواحات فقط. وظلت منطقة جبل شمر في الواقع ليست في متناول يد الأمير. وربما كان تركي يدفع الحد الأدنى من الضريبة للسلطات العثمانية، أو على الأصح للمصريين مباشرة في الحجاز أو في القاهرة[٣١]، مع أن ابن بشر لا يشير إلى ذلك.

وكان بعض الفارين قد عادوا إلى نجد التي سادتها فترة من الاستقرار المؤقت. وكان من أبرز العائدين مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود الذي فر من مصر. وفي عام ١٨٢٥، عين حاكمًا للمنفوحة. وفيما بعد، قتل مشاري هذا الأمير تركي غدرًا. ووصل من المنفى أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو عبد الرحمن بن حسن الفقيه الكبير ومعلم جيل كامل من أفراد آل الشيخ الأصغر منه سنا[٣٢]. وقد بعث إلى أنحاء نجد على الفور رسائل طالب فيها الجميع، وخصوصًا الفقهاء والأمراء، بالعودة إلى «الإسلام الحقيقي» ورفض ممارسات المشركين من أدعياء الإسلام والخضوع لإمام المسلمين. واتخذ الشيخ عبد الرحمن سيرة جده الشهير مثالًا وقدوة لخدمة الدين الحقيقية[٣٣]. ويقول الرحّالة السويدي فالين ان عبد الرحمن كان قاضيًا في الرياض عام ١٨٤٥[٣٤]، أما بلغريف الذي زار الرياض عام ١٨٦٢ فيتحدث عنه بوصفه «الزعيم الروحي للبلاط»[٣٥]. وتعززت سلطة السعوديين الدنيوية من جديد بفضل تأثير الوهابية مع أنها لم تعد تتميز بالتعصب الذي كانت عليه في السابق.

بديهي أن تركي قد حاول تسديد الضربة إلى البدو، بعد أن احتل عدة مناطق ذات سكان حضر بكثافة كبيرة نسبيًا. وفي الفترة ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨، قام بغزوات على قبائل بني خالد وهتيم والدواسر وغيرها. وسرعان ما أرسل العديد من شيوخ قبائل سبيع والسهول والعجمان وقحطان وكذلك مطير (الأمر الذي أفرح الأمير تركي بخاصة)

أرسلوا وفودًا أعربت عن خضوع تلك القبائل له. وبالمناسبة فإن ذلك لم يمنعها من الحنث بالوعد والقيام بغزوات جديدة[٣٦].

وكان من الأحداث الهامة في ١٨٢٧ ـ ١٨٢٨ فرار فيصل، ابن تركي، من الأسر المصري[٣٧]. فقد كان مقدرًا له ان يحكم إمارة الرياض مرتين.

ان عدم وجود منافسين كبار وعدم تدخل المصريين أو الأتراك مؤقتًا في شؤون نجد قد مكّن الرياض من إخضاع القصيم وان بصورة غير كاملة[٣٨]. ثم جاء دور جبل شمر[٣٩].

وفي عام ١٨٢٧، قتل يحيى، شريف مكة، فعين محمد علي بدلًا منه محمد بن عبد المعين بن عون الذي ظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٥١. واتضح ان عسير كان عسيرا على محمد علي. فقد دحر أهل هذه المنطقة مرارًا في معارك مكشوفة ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها.

شرق وجنوب شرق الجزيرة في عهد تركي

لم تكن في شرقي نجد قوات تستطيع أن تهدد إمارة الرياض كالقوات المصرية في الحجاز. وبديهي ان تركي الذي عزز مواقعه في نجد قد بدأ غزوات على الشرق، على الأحساء. في تلك الأثناء كان محمد وماجد من آل عريعر قد حكما هذه المنطقة منذ عشر سنوات تقريبًا. وربما كانا قد عيّنا رسميًا من قبل محمد علي أو ربما كانا يدفعان له الاتاوة [٤٠].

وفي عام ١٨٣٠ اجتاح نجد تجمع بدوي كبير من بني خالد وسبيع وعنزة ومطير وبني حسين. وبالإضافة إلى حضر نجد الموالين لتركي التزم جانبه قسم من البدو من قبائل أخرى. ونشبت معركة استمرت عدة أيام بين أهل نجد وخصومهم، وانتهت بمقتل ماجد آل عريعر وتدمير بدوه. وتقررت في هذه المعركة مسألة من سيسيطر على شرق الجزيرة، هل هم آل سعود أم آل عريعر[٤١].

وسيطر تركي على الأحساء.

وخلافًا للأمراء السابقين واللاحقين طبق تركي وفيصل في الأحساء سياسة متسامحة[٤٢]، الأمر الذي ساعدهما في التمركز هنا. وتجدر الإشارة إلى أن أمراء الرياض رغم استخدامهم راية الوهابية السابقة، قد ابتعدوا عن التقوقع الطائفي والتعصب اللذين كانا ملازمين لسابقيهم. ومن الصعب اعتبار أنصارهم من أفراد الطائفة الوهابية. ولذا فسوف نستخدم مصطلح «الوهابيين» بصورة محدودة.

وفي أواخر عام ١٨٣٠ فرض تركي سلطة السعوديين على حاكم البحرين عبدالله بن أحمد آل خليفة (١٨١٦ ـ ١٨٤٣) الذي كان يسيطر كذلك على قسم كبير من قطر. وفي تلك الفترة توافقت مؤقتًا مصالح أمير الرياض وسلطان مسقط الموجهة ضد البحرين. وبعد ذلك اختلفا فيما بينهما. وبعد مرور أقل من ثلاث سنوات قطع حكام البحرين علاقات التبعية للرياض حتى الواهية منها. وفي عام ١٨٤٣، انتقل عبدالله آل خليفة إلى الهجوم وحاصر المرفأين السعوديين القطيف والعقير[٤٣].

وقبل فرض السيطرة السعودية على شرقي الجزيرة أخذ الأنصار القدامى للنجديين ينشطون في جنوب شرقي الجزيرة. ففي عام ١٨٢١، استولى سعد بن مطلق، وهو ابن حاكم البريمي السعودي السابق، على مجموعة واحات البريمي الهامة استراتيجيًا وأخضع قسمًا من عمان[٤٤]. وعندما ثبت تركي في عام ١٨٢٤ منصبه كحاكم للرياض أجرى معه مباحثات سلطان بن صقر، حاكم الشارجة، وراشد حميد من العجمان وكان قسم كبير من سكان الشارجة وعجمان يتعاطفون مع الوهابيين كالسابق[٤٥]. وفي الوقت نفسه أجرى حكام إمارات الساحل مفاوضات مع الإنجليز مؤملين بمساعدة منهم ضد خطر الوهابيين. إلا أن الإنجليز آنذاك كانوا متمسكين بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية[٤٦].

وفي عام ١٨٢٨، مهد أنصار الوهابيين على ساحل الخليج العربي وخليج عمان التربة لتدخل جديد من قبل القوات الموالية للرياض. وعين تركي أميرًا للبريمي عمر بن محمد بن عفيصان الذي بدأت غزواته للمناطق الداخلية من عمان ومنطقة الباطنة الساحلية[٤٧]. وفي عام ١٨٣٣، اعتدت قوات النجديين الكبيرة على عمان عبر البريمي. ووافق سلطان مسقط سعيد على دفع ٥ آلاف ريال لأمير الرياض. ثم

اتفقا على مساعدة بعضهما بعضًا في إخماد الانتفاضات في أراضيهم. واقتسما ساحل الجزيرة الجنوبي الشرقي[٤٨].

ويقول الدبلوماسي والمؤرخ الإنجليزي ولسون «إن ساحل الخليج العربي كله اعترف بسلطة الوهابيين منذ عام ١٨٣٣ وصار يدفع لهم الجزية»[٤٩].

الوضع في إمارة الرياض في عهد تركي

في مطلع الثلاثينيات كانت مكانة تركي في الرياض راسخة تمامًا. فإن نجد المخربة التي ارهقها نير الاحتلال كانت خاضعة لسلطة تركي. إلا أن خلافًا نشب في عائلة السعوديين. ففي عام ١٨٣١، تمرد مشاري بن عبد الرحمن حاكم منفوحة مع بعض أفخاذ قحطان على الأمير. ولكنه فر بسبب عدم حصوله على تأييد واسع. وفي عام ١٨٣٢، عاد إلى نجد بعد أن عفا عنه الأمير[٥٠].

كانت محدودية موارد الدولة الجديدة وعدم إمكان الحصول على غنائم وفيرة في الغزوات قد دفعا الوجهاء والأعيان إلى تشديد استغلال الرعية، وكان أمير الرياض يجد صعوبة كبيرة في فرض مبادىء معاملة السكان «بالعدل». وأورد ابن بشر حادثة ذات دلالة. ففي عام ١٨٣٢، عاد تركي من الهفوف إلى الرياض وعقد المجلس الكبير للأمراء وأخذ يلومهم بصرامة لأنهم يعاملون الناس بتعسف ويأخذون منهم ما ليس لهم حق به بموجب القانون. وقال في ما قال: «وإنكم إذا ورد أمري بالمغزا حملتموهم زيادة لكم وإياكم وذلك فانه ما منعني أن أجعل على أهل البلدان زيادة ركاب في غزوهم إلا الرفق بهم واني ما حملتهم إلا بعض ما حملهم الذين من قبلي... وإنه إذا ورد عليكم أمري فرحتم بذلك لتأكلوا في ضمنه وصرتم كراصد النخل يفرح بشدة الريح ليكثر الساقطة عليه واعلموا اني لا أبيحكم ان تأخذوا من الرعايا شيئًا ومن حدث منه منكم ظلم على رعيته فليس أدبه عزله بل أجليه عن وطنه. (ثم قال للرعايا) أيما أمير ظلمكم فاخبروني...»[٥١]

وأوصى الأمير تركي الرعية بأن يعرضوا تدينهم في الإيمان بالتوحيد وأداء الصلاة ودفع الزكاة. وشجب أمير الرياض الربا وحذر من محاولات الالتفاف على

منع ممارسته وأوصى جميع الحكام بأن يوحدوا الموازين والمكاييل في أقاليمهم وطالب بأن لا يحنث أحد بأي صفقة أو اتفاقية حتى إذا كانت معقودة مع أهل الذمة من يهود أو مسيحيين أو زرادشتيين وألزم الأمراء بأن يمنعوا التدخين ويشجعوا التعليم الديني ويبنوا المساجد(٥٢).

ورغم القحط المتوالي فإن الأوضاع الاقتصادية في أواسط الجزيرة إبّان حكم تركي قد استقرت بقدر ما بعد النهب والنزاعات والاقتتال. ولكن بعض الناس في سدير والقصيم ماتوا من المجاعة الناجمة عن الجفاف في ١٨٢٦ - ١٨٢٧ أيضًا. وفي مطلع الثلاثينيات، وبفضل المحصول المتوسط والاستقرار النسبي انخفضت الأسعار وتوقفت المجاعة(٥٣). إلا أن وباء الكوليرا تفشى في نجد في عهد تركي. ظهر هذا الوباء في ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ثم في ١٨٣٠ - ١٨٣٢. وفي نيسان (أبريل) أيار (مايو) ١٨٣١ انتشرت الكوليرا بين الحجاج في مكة، فتوفى حوالى ٢٠ ألفًا منهم. وهلك ثلث حجاج قافلة الشام، كما هلك نصف حجاج قافلة نجد. وفي العام التالي اجتاح الوباء نجد كلها. ووصف ابن بشر لوحة مرعبة حيث توفى عدد هائل من الناس ولم يبق من يتمكن من دفنهم. ولا أحد يحرس الأموال المتروكة. وكانت الماشية تنفق لان أحدًا لا يقدم لها العلف والماء. وتوفى كثير من الأطفال في المساجد لأن آباءهم عندما أصيبوا بالمرض تركوهم في المساجد على أمل أن يساعدهم أحد هناك. ولكن لم يبق أحد ليساعد أولئك الاطفال. فقد خلت الواحات من أهلها(٥٤).

مقتل تركي والفترة الأولى من حكم فيصل

لم تكن القبائل البدوية في أواسط الجزيرة تهتم كثيرًا بمنزلة أمير الرياض، فكانت تتصرف بصورة مستقلة.

وفي عام ١٨٣٣، بدأ حاكم البحرين عمليات حربية ضد أمير الرياض، وفي بداية عام ١٨٣٤، تعرّضت مرافىء الأحساء إلى ضربات البحرانيين الذين اعتمدوا على اسطولهم وعلى قلعة الدمام على ساحل الجزيرة العربية(٥٥). وحاصر فيصل بن تركي بلدة سيهات التي تمركز فيها أنصار البحرانيين. وفي تلك اللحظة وصل نبأ مقتل أبيه

في الرياض على أيدي مرتزقة مشاري بن عبد الرحمن الذي استولى على السلطة في العاصمة. رفع فيصل الحصار فورًا وأسرع إلى نجد.

يعتقد البعض ان مشاري فعل فعلته بتكليف من المصريين. ويعتقد البعض الآخر، ومنهم لوريمير ان لحاكم البحرين ضلعًا في قتل تركي[٥٦]. ولكن مطامح مشاري الشخصية هي التي لعبت، على ما يبدو، الدور الرئيسي. في التاسع من أيار (مايو) ١٨٣٤، خرج تركي من باب جانبي بعد صلاة الجمعة فأحاط به ثلاثة أشخاص، شهر إحدهم المسدس وأطلق النار على الإمام. وحاول عبد الإمام زويد أن يدافع عنه، فتمكن من إصابة أحد القتلة بجرح قبل أن يقبضوا عليه. وبعد ذلك فر إلى فيصل. وظهر مشاري في الحال شاهرًا سيفه وطالب السكان بأن يبايعوه[٥٧].

كان تركي حكيمًا. ولم يكن يستخدم القوة بلا رحمة إلا في حالة الضرورة. ومن الأدلة على عدم تمسكه بالثأر موقفه من مشاري، قاتله فيما بعد. وبالمناسبة فإن العفو عن الخصوم لم يكن ظاهرة استثنائية في الجزيرة العربية، بل كان دليلًا على ضرورة المساومات مع الاقرباء والشخصيات القوية. وكان تركي يتسم بالسخاء، شأنه شأن الحكام السعوديين الذين سبقوه، وحاول ان يحد من جشع وجهائه وأعيانه. وتجدر الإشارة إلى أنه درس في وقت ما التطبيب عند العوام واشتهر بأنه حكيم[٥٨].وكان بتصرفاته الذكية قد عجل في انسحاب المصريين من نجد. وكانت أواسط الجزيرة موحدة في عهده طوال أحد عشر عامًا.

وأسفر مقتل تركي عن نزاعات قبلية واضطرابات في نجد استمرت تسعة أعوام. وخلال هذه الفترة اعتلى عرش الرياض أربعة من آل سعود.

ولم يبقَ مشاري بن عبد الرحمن في السلطة غير شهر ونيف. فقد وصل فيصل وأنصاره العاصمة وباغتوا مشاري وقبضوا عليه. ففي ليلة ٢٨ أيار (مايو) ١٨٣٤، أرسل فيصل إلى الرياض محاربين من أبناء المدينة مؤملًا بأنهم سيواجهون بمقاومة أقل من أهلها. واصطدموا بجماعة من الحرس فعرفوهم ولكنهم تمكنوا من أن يتخذوا مواقع حول القلعة. وعندما سمع مشاري إطلاق النار نصب المتاريس في القلعة.

وفي صباح اليوم التالي، احتل فيصل المدينة وبدأ حصار القلعة. ثم اقتحم محاربوه القلعة، وتم القبض على مشاري وأُعدم[٥٩].

استلم فيصل زمام الحكم وهو في حوالى الأربعين من العمر في أوج نضوج قابلياته الجسمانية والروحية. وأسرع لتقبل البيعة من أهالي العاصمة واستدعى القضاة من مختلف المناطق إلى الرياض حيث حلوا ضيوفًا عليه طوال شهر تقريبًا ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن اغدق عليهم فيصل الهدايا. وبعد ذلك وجه الإمام إلى الواحات والبوادي رسالة دعا فيها الجميع للولاء له. وأخذ أمراء الواحات وشيوخ البدو يتقاطرون على الرياض ليعربوا عن ولائهم للحاكم الجديد. وبعد ذلك فقط أرسل فيصل عملاءه إلى البوادي لجمع الزكاة.

إلا أن مقتل تركي قد زعزع السلطة في إمارة الرياض. فقد وفض أهالي وادي الدواسر والأفلاج وقبيلة قحطان دفع الزكاة واضطر فيصل ان يرسل إليهم فصائل لإخماد القلاقل[٦٠].

وسرعان ما اضطرب شرقي الجزيرة، حيث نشبت معارك بين عساكر أمير الرياض التي قادها المملوك زويد وبين البحرانيين الذين حاصروا القطيف والعقير من جديد، ولكنهم واجهوا خطرًا آخر يتمثل في مطامع إيران. ووافق حاكم البحرين على دفع جزية رمزية مقدارها ألفا ريال، والتزم فيصل بحماية البحرين من العدوان الخارجي. ورفع الحصار عن القطيف والعقير[٦١].

كان نفوذ أمير الرياض في عمان كبيرًا في أواسط الثلاثينيات. وفي شتاء ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦ ، تأكد كولونيل الأسطول الأنكلوهندي ج. ويلستاد ورفيقه وايتلوك، وهما يتجولان في هذا البلد تحت حماية سلطان مسقط سعيد، من أن الوهابيين في عمان كانوا أحيانًا أقوى من السلطان[٦٢]. إلا أن عداء الأباضية ومعارضة الإنجليز جعلا مواقع النجديين هنا غير مأمونة إطلاقًا.

إلا أن فيصل كان قلقًا أشد القلق للأنباء الواردة من الحجاز، حيث تأكد له ان المصريين يستعدون لهجوم جديد على نجد.

فبعد الهزائم الجديدة في عسير ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤، حاول محمد علي مرة أخرى في عام ١٨٣٥ ان يستولي على هذا الإقليم الذي كان يعتبره مفتاح الجزيرة. إلا أن قواته مُنيت بالهزيمة من جديد.

وقبل ان ننتقل إلى الأحداث المرتبطة بالهجوم المصري الأخير على نجد من المناسب ان نتحدث عن إمارة جديدة لا يعرف عنها الكثير بعد، وقد شاركت في قصة الجزيرة العربية الفاجعة. ونعني إمارة جبل شمر التي قدر لها ان تلعب دورًا مهمًا في أواسط الجزيرة.

بعد سقوط إمارة الدرعية بدأت النزاعات في جبل شمر. فقد هب ضد الأمير محمد آل علي الحاكم هنا فخذ من قبيلته هو آل رشيد، ولكنه مني بالهزيمة. فقد طرد زعيم هذه الإمارة أسرة علي آل رشيد وأبناءه عبد الله وعبيد من حائل عاصمة الإمارة[٦٣]. وبعد عدة سنوات دخل عبد الله في خدمة تركي أمير الرياض وتصادق مع ابنه فيصل. وكان من بين العقداء الذين بايعوا فيصل بعد مقتل أبيه مباشرة.

كان فيصل ينتظر الفرصة ليشكر صديقه المخلص، فاستفاد من الشكاوى على حاكم حائل صالح بن عبد المحسن آل علي ونحاه من منصبه. وبعد إزاحة المنافسين أمسك الأخوان عبد الله وعبيد بزمام السلطة في جبل شمر وسرعان ما أخذا ينشآن قلعة في العاصمة في محلة البرزان التي غدت فيما بعد رمزًا لأمجاد وجبروت آل رشيد.

وأعرب الأخوان عبد الله وعبيد آل رشيد عن ولائهما للأمير فيصل ان يشارك الذي أكد تعيينهما لحكم جبل شمر وأرسل إلى حائل فقيهًا وهابيًا، ولكن الاخوين آل رشيد أخذا في الوقت نفسه يهيئان الجمال ويرسلانها إلى المصريين في المدينة المنورة[٦٤].

هزيمة فيصل

كان المصريون قد طلبوا من أمير الرياض فيصل أن يشارك في حملاتهم على

أهالي عسير الذين هم حلفاء له سرًا، أو ان يقدم الجمال للقوات المصرية. تملص فيصل بلباقة دون أن يلبي هذا الطلب ولكنه أرسل أخاه إلى مكة يحمل الهدايا لأحمد باشا[٦٥].

في عام ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦، لم تسقط الأمطار الموسمية في أواسط الجزيرة فبدأ القحط والمجاعة، ونزح قسم كبير من سكان نجد إلى منطقة البصرة والزبير. وأشار ابن بشر إلى ظهور مذنّب في كوكبة الدب الكبير واعتبر ذلك نذيرا بالقحط، وفسر القحط بدوره على انه عقاب على الخطايا التي اقترفت بمقتل الإمام تركي[٦٦]. ولكن إذا صدقنا التكهنات فإن المذنب والقحط كانا ينذران بمصائب أكبر بكثير. فقد عزم محمد علي على فرض سلطته على نجد ونصب هناك صنيعته خالد وهو ابن الإمام سعود الشهير. وكان هذا الأمير الشاب الذي قضى سنوات عديدة في بلاط محمد علي هو الاخ الأكبر من اخوان عبدالله الذين ظلوا على قيد الحياة بعد إعدامه في الآستانة.

وفي تموز (يوليو) ١٨٣٦، زحفت من القاهرة قوات بقيادة إسماعيل بك، وهو مدير سابق لشرطة القاهرة. وتتكون هذه القوات من أتراك وألبان ومغاربة وبدو مصريين، وهي معززة بالمدفعية.

وبعد أن نزل إسماعيل في ينبع واصل زحفه إلى المدينة ومن هناك إلى الحناكية. أما فيصل الذي يعرف أن التدخل سيجري عبر القصيم فقد شغل المنطقة ونصب معسكرًا في الرس التي هي بوابة القصيم من جهة الحجاز. إلا أن جنود فيصل كانت تعوزهم إرادة القتال وكانوا منسحقين بائسين، إذ ما يزالون يتذكرون جيدًا مصير إخوانهم الأكبر وأبائهم. وعندما بدأ فيصل في نيسان (أبريل) ١٨٣٧ سحب الاليات الثقيلة إلى عنيزة أصاب الذعر عساكره فاخذوا يتفرقون[٦٧].

وعاد فيصل مع جماعة من أتباعه المخلصين إلى الرياض واتضح له ان روح الهزيمة استولت على أهالي العاصمة الذين لا يريدون بأي حالة دعمه والتضحية بالنفس والأموال من أجله[٦٨]. وعندما أدرك فيصل ان الوضع في العاصمة غير مأمون توجه نحو الجنوب، إلى الخرج، ثم ذهب إلى الهفوف حيث وضع حاكمها الموالي

له، عمر بن عفيصان، قواته تحت تصرفه. وظل فيصل في الهفوف حتى تموز (يوليو) ١٨٣٧.

اعترفت القصيم بسلطة خالد بن سعود بدون مقاومة تقريبًا. وبعد ذلك أرسل المصريون فصيلًا نظاميًا ومتطوعة من القصيم للاستيلاء على جبل شمر. وأقنعهم عيسى آل علي، وهو أحد المرتدين من أفراد الأسرة التي أسقطت في حائل، بأن يعينوه أميرًا. ويبدو أن المصريين لم يكونوا يثقون بالاخوين من آل رشيد. وتم احتلال المدينة سلميا تقريبًا. وفر عبد الله وأخوه عبيد. وعاد قسم كبير من المصريين إلى القصيم بعد أن اكتفوا بغرامات حربية نقدية. إلا أن عيسى لم يتمكن من البقاء في حائل إلا بضعة أشهر. فإن ابتزاز وقساوة حماته المصريين جعلا الأهالي يهبون في وجه المحتلين وصنائعهم، ويحرضهم في ذلك الأخوان عبد الله وعبيد اللذان اختبأ في البادية. وأصبح الوضع عسيرا لا يطاق بالنسبة للمصريين، فأجلوا عن جبل شمر. وارتحل معهم عيسى بن علي. وعاد عبد الله بن رشيد حاكمًا لجبل شمر[٦٩].

وفي أيار (مايو) ١٨٣٧، دخل إسماعيل بك وخالد الرياض. وانتهت رسميًا الفترة الأولى من حكم فيصل (١٨٣٤ - ١٨٣٧).

وتعزى سرعة هزيمة أمير الرياض وسهولة احتلال المصريين لنجد إلى فظاعة شبح إبراهيم باشا وذكر احتلاله للبلد والمصائب التي لحقت به. فالنجديون يتذكرون تفوق المصريين في العساكر، وخصوصًا في المدفعية. وكانت أواسط الجزيرة كلها قد أضعفها القحط والمجاعة والأوبئة. ومما لا شك فيه ان ظهور خالد بن سعود قد ولد انقسامًا بين الموالين لآل سعود. وعلى أي حال فإن أهالي نجد لم يبدأوا بالتمرد على المحتلين إلا بعد أن أدركوا بأن الخضوع لن يحميهم من التعسف والنهب.

وبعد الاستيلاء على الرياض أرسل خالد رسالة إلى أمير الحريق تركي الهزاني يطالبه فيها بالخضوع، ولكنه استلم ردًا يكشف عن طبيعة الأمزجة في الواحات الجنوبية: «ان كان الأمر لك ولا يأتينا في ناحيتنا عسكر من الترك فنحن رعية لكم وان كان الأمر للترك فنحن لهم محاربون»[٧٠].

وفي تموز (يوليو) ١٨٣٧، توجه إسماعيل بك وحلفاؤه بقوات قدرها ٧آلاف شخص تقريبًا إلى الجنوب ولكن لحقت بهم هزيمة ماحقة في معركة الحلوة. وكانت الهزيمة شديدة لدرجة جعلت البدو، حلفاء المصريين، ينتزعون منهم الخيول ليهربوا عليها من ساحة المعركة بأسرع ما يمكن. وترك المصريون مدفعيتهم كلها. وفر خالد وإسماعيل بك وبعض الضباط المصريين مع فصيل صغير. وهكذا، ففي تموز١٨٣٧ تم دحر قسم كبير من قوات الاحتلال المصرية في نجد[٧١]. وحاول فيصل استعادة العاصمة، فحاصرها، ولكنه لم يتمكن من احتلالها بعد شهرين من الحصار.

وكانت قوات المتخاصمين متعادلة مؤقتًا، مع أن إمدادات مصرية وصلت إلى القصيم في بداية عام ١٨٣٨ وقد بعثها خورشيد باشا من المدينة. وتم بين فيصل والمصريين اتفاق نص على تقسيم نجد في الواقع إلى قسمين. ظل فيصل مسيطرًا على شرقي الجزيرة والبريمي وجزء من جنوب نجد. وكانت أواسط نجد خاضعة رسميًا لخالد[٧٢].

ولكن خورشيد باشا وصل شخصيًا إلى نجد في حزيران (يونيو) ١٨٣٨. وكانت من المهمات الرئيسية لحملته كالسابق جمع الجمال لإرسالها إلى الحجاز. وفي عنيزة جاء عبد الله إلى خورشيد باشا من حائل وأقنعه بالاعتراف به أميرًا لمنطقة جبل شمر الخاضعة للمصريين[٧٣].

وجاء شيوخ القبائل البدوية الكبرى ليعبروا عن خضوعهم لخورشيد باشا. وطوال عدة أشهر قام خورشيد باشا بتعزيز عنيزة كقاعدة رئيسية له وبنى فيها قلعة متينة.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣٨، توجه المصريون إلى الرياض وانضمت إليهم متطوعة بقيادة خالد بن سعود. وكان مجموع ما عند خورشيد من قوات ٤ آلاف مقاتل و ١٠ مدافع. وتحركت تلك القوات نحو الجنوب للقضاء على فيصل المتمركز في الدلم. وبعد حصار استمر أكثر من شهر سقطت الدلم في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٣٨ . وللمرة الثانية، اضطر فيصل للسفر إلى مصر بمثابة أسير. وللمرة الثانية سقطت أواسط الجزيرة مدمرة تحت أقدام المصريين[٧٤].

الفترة الأخيرة من الاحتلال المصري

استمر حكم خورشيد باشا كعامل لمحمد علي في نجد سنة ونصف. وكان المصريون هذه المرة يعتبرون نجد لا دولة معادية يجب تدميرها وتخريبها، بل جزءًا من ممتلكاتهم الدائمة. وكان خورشيد يأمل في بسط سلطته من أواسط الجزيرة إلى الأحساء وعمان[٧٥] وربما العراق أيضًا[٧٦]. وفر أمير الأحساء عمر بن عفيصان الموالي لفيصل وأعرب الباقون عن خضوعهم للمصريين الذين أرسلوا حامياتهم إلى مدن شرقي الجزيرة.

وحاول خورشيد باشا عبثًا ان يرغم حاكم البحرين على دفع الجزية مجددًا لصنيعة المصريين أمير نجد خالد ووضع جزيرة تاروت وقلعة الدمام تحت السيطرة المصرية وكذلك تسليم عمر بن عفيصان الذي فر إلى البحرين[٧٧]. وبدا القلق على الإنجليز.

ومنذ عام ١٨٣٨، كان القنصل البريطاني العام في القاهرة الكولونيل كامبيل قد حذر محمد علي من محاولات التمركز في منطقة الخليج، ومنها البحرين. وأصدرت السلطات البريطانية في الهند أمرًا إلى الأميرال ف. مايتلاند قائد العمارة البحرية في الخليج بأن يدافع عن البحرين عند الاقتضاء[٧٨].

وعندما سمع حاكم البحرين عبد الله آل خليفة أنباء انتصارات محمد علي في الشام والجزيرة العربية فضل دفع جزية رمزية إلى خورشيد بمبلغ ألفي ريال سنويًا مع أنه رفض أن يكون له ممثل في جزر البحرين.

وفي عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ظهر وجود مصري في الكويت أيضًا. فقد وصل مخبر من خورشيد باشا إلى المشيخة لشراء أغذية. وكتب لوريمير ان هذا المخبر كان على ما يبدو يؤدي وظائف سياسية وتجسسية فيما يخص نية خورشيد باشا لانتزاع العراق من الأتراك. وكان حاكم الكويت جابر الصباح يخشى المصريين لدرجة كبيرة، حتى أنه قدم للمندوب المصري مكان الشرف في مجلسه إلى جنبه. وكان رد فعل الإنجليز شديدًا جدًا بهذا الخصوص.

وفي الوقت نفسه أخذ خورشيد باشا يزحف نحو عمان. ونصب هناك صنيعته سعد بن مطلق الذي كان يخدمه مثلما يخدم الأمير السعودي فيصل. وأيدته أبو ظبي والشارجة، ولكن دبي وأم القيوين امتنعتا عن تأييد المصريين. وكان المقيم البريطاني الكابتن هانيل قد زار إمارات الساحل ووقع اتفاقيات مع أربعة من حكامها الذين وعدوا بتأييد الإنجليز. وكتب هانيل رسالة إلى سعد بن مطلق ينصحه فيها بالعودة إلى نجد، وأخذ يحرض قبائل عمان ضده.

كانت قوات محمد علي تحقق الانتصارات في المعارك في عسير ولكنها لم تتمكن من السيطرة على البلد. وفي أيلول (سبتمبر) ١٨٣٧، قام أهل عسير بانتفاضة جديدة. وتم إخماد الانتفاضة في أيار (مايو) ١٨٣٨، ولكن أحمد باشا المقيم في مكة وإبراهيم باشا كوجوك الموجود في الحديدة كانا في عام ١٨٤٠ ما يزالان يشنان حملة غير موفقة[٧٩].

ويعزى استيلاء بريطانيا على عدن في عام ١٨٤٠، إلى الرغبة في الحيلولة دون تقدم المصريين في عسير واليمن وإنشاء قاعدة بحرية بريطانية ومحطة للفحم في القسم الشمالي من المحيط الهندي.

في عام ١٨٤٠، انهارت أمبراطورية محمد علي. فأصدر أمره إلى قواته بالجلاء عن نجد واليمن في آذار (مارس) ١٨٤٠. وفي حزيران (يونيو) سار على قدم وساق انسحاب قوات خورشيد من نجد والمنطقة الشرقية وانسحاب قوات إبراهيم كوجوك من اليمن. كان محمد علي بحاجة إلى تحشيد قواته قريبًا من مصر تحوطًا لما إذا كانت ستنشب حرب كبرى بين مصر وفرنسا من جهة، وبين تركيا والإنجليز وحلفائهم من جهة أخرى.

وغادر المصريون أواسط الجزيرة العربية إلى الأبد. لكن أحدًا لم يكن يعرف ذلك آنذاك. فقد تركت في نجد حاميات رمزية من جنود مصريين. كان عليهم أن يرفعوا العلم ويدعموا خالد[٨٠].

الفصل السابع

الدولة السعودية الثانية (١٨٤٣ ـ ١٨٦٥)

في العقد الخامس من القرن التاسع عشر ازيحت مصر في الواقع من المسرح السياسي في الجزيرة العربية. ولم تكن لدى الباب العالي بعد إمكانية ورغبة في التدخل النشيط في شؤون نجد، وكان الإنجليز مشغولين بتعزيز مواقعهم على ساحل الخليج العربي وخليج عمان وفي عمان نفسها. ومن جديد تركت أواسط الجزيرة وشأنها وتهيأت فيها الظروف لبعث الدولة السعودية في أراضٍ محدودة.

من جلاء المصريين حتى عودة فيصل

لم يتمكن الأمير خالد من البقاء في دست الحكم بعد جلاء قوات خورشيد من أواسط الجزيرة إلا عامًا واحدًا وعندما استسلم محمد علي في عام ١٨٤٠، أبدى الباب العالي ادعاءه في نجد متحججًا بأن الذي احتلها كان واليًا للسلطان العثماني، ولذا يجب اعتبار خالد تابعًا للعثمانيين. وعلى أي حال، هذا ما قاله المؤرخ التركي المعروف جودت[١]. إلا أن مواقع خالد كانت تضعف وتتدهور. فقد كان مكروها من قبل الجميع بوصفه صنيعة للمصريين. وخلال فترة نفيه إلى مصر تكونت لديه فكرة ما عن التعليم الأوروبي، الأمر الذي اضر به في نجد، ولم يخدمه على ما يبدو. وكان قد انهمك في الملذات مما ألحق ضررًا كبيرًا بسمعته. أما الجنود المصريون المتبقون فقد انخرطوا في الابتزاز ولم يكونوا يستلمون رواتبهم[٢].وبدأت النزاعات القبلية الإقطاعية من جديد.

وعندما توجه خالد إلى خورشيد باشا في آب (أغسطس) ١٨٤١ لتوديعه رفع

راية الانتفاضة أحد أقربائه البعيدين وهو عبد الله بن ثنيان، ابن حفيد مؤسس الأسرة السعودية والممثل الوحيد لفرع آل ثنيان الذي حكم نجد في فترة ما. وكان ابن ثنيان قد فر في السابق إلى قبيلة المنتفق في جنوب العراق ثم ظهر في نجد وحظي بتأييد حاكم الحريق تركي الهزائي الحليف السابق للامام فيصل وآل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك قبائل سبيع وعجمان وآل مرة. وفي الخريف سحب خالد قواته إلى المنطقة الشرقية أما طلبًا للنجاة وأما آملًا في استجماع القوى. ولكنه لم يعد بعد ذلك إلى الرياض مطلقًا.

وبعد خروج خالد فرض ابن ثنيان سيطرته على نجد. وكانت لديه في البداية بضع مئات فقط من الاتباع، ولكن عددهم ازداد كثيرًا فيما بعد. وفي أواخر عام ١٨٤١ استولى ابن ثنيان على الرياض. وبعد أن وافقت الحامية المصرية في القلعة على الجلاء تحررت نجد بالكامل من القوات الأجنبية. ويبدو أن الحاميات المصرية الأخرى قد تفرقت. فنحن لا نعرف عنها شيئًا بعد الآن[٣].

حاول ابن ثنيان تعزيز مركزه كأمير للرياض، ولكن سلطته لم تشمل في الواقع القصيم وجبل شمر والمنطقة الشرقية. وقد وجه حملته الأولى إلى الأحساء عندما كان خالد ما يزال موجودًا فيها مع فصيل من المرتزقة المصريين. ومني خالد بهزيمة ففر إلى البحرين ثم إلى الكويت، ومن هناك إلى الحجاز حيث أقام وأخذ يستلم راتبا من محمد علي[٤].

وأرسل أمير نجد إلى الهفوف عمر بن عفيصان الذي تمكن بالتدريج من فرض سيطرة النجديين على هذه المنطقة واستطاع ان ينتزع العقير من البحرانيين.

كانت أساليب ابن ثنيان قاسية، وربما كانت موروثة عن الاحتلال المصري. فقد كان كثيرًا ما يفتك بخصومه، مثل آل سديري الذين عارضوه، وذلك خلافًا لتقاليد الجزيرة العربية التي تنص على العفو عند المقدرة. وكان الأهالي يكرهونه لأنه حاول على ما يبدو أن يجمع المزيد من الأموال بشكل زكاة من البلد المدقع. وكان المؤرخ الشمري ضاري بن الرشيد يعتبره رجلًا شجاعًا ولكنه أراق دماء كثيرة وقتل كثيرًا من المؤمنين. كان الناس يكرهونه ويحبون فيصل[٥].

هرب فيصل بن تركي من مصر في عام ١٨٣٤ بعد أن كان أسيرًا فيها منذ عام ١٨٣٨. ويعتقد بعض المؤرخين ان عباس باشا حفيد محمد علي ساعده على الفرار. والأغلب أن محمد علي وورثته أدركوا أن وجود إمارة مستقلة في أواسط الجزيرة العربية يجعلها خصمًا للأمبراطورية العثمانية[٦].

ووصل فيصل إلى جبل شمر حيث استقبله عبد الله آل رشيد وأخوه عبيد بالترحاب بوصفه صديقًا قديما. كانت سلطة عبد الله قد شملت كثيرًا من القبائل غير الشمرية. «كان جميع البدو من القصيم حتى حوران، ومن بلاد ابن سعود في شرقي نجد حتى جبال الحجاز، خاضعين وملزمين بالاعتراف بسلطة ابن رشيد حيث يدفعون له الزكاة»[٧]. وعندما اقتضت الحاجة الاختيار بين السيطرة المصرية والتبعية لفيصل اختار عبد الله التبعية، ولا سيما ان فيصل كان صديقه الشخصي، الأمر الذي يعتبر عاملًا سياسيًا ليس بقليل الأهمية في ظروف الجزيرة. وعرض حاكم حائل على الأمير فيصل رجالا ودوابا ونقودا، وعبأ ابن ثنيان أنصاره ولكن أفراد عساكره سرعان ما بدأوا يفرون. ومما أعاق خطط فيصل العداء بين أهالي جبل شمر والقصيم، وخصوصًا بين أهالي جبل شمر ومدينة بريدة. وكان متوقعا ان حاكم بريدة سيضمر العداء لفيصل لأن ابن رشيد صار من أنصاره. إلا أن مدينة عنيزة ربطت مصيرها بمنافسة ابن ثنيان.

وانتقلت نجد بالتدريج إلى جانب فيصل - في البداية انتقلت القصيم، ثم سدير والوشم. وفر ابن ثنيان إلى الرياض وحظي فيصل بتأييد قبائل سبيع والسهول والعجمان وكذلك مطير. وفي صيف ١٨٤٣، سقطت الرياض، وتم القبض على ابن ثنيان وتوفى في السجن في تموز (يوليو) من العام نفسه، ويعتقد المؤرخ ضاري بن الرشيد ان حرس السجن أعدموا الأمير المخلوع، فقد كان بينهم أشخاص قتل الأمير اقاربهم في حينه. وعندما سلم فيصل منافسه إلى هذا الحرس كان قد حكم عليه بالموت بهذه الطريقة[٨].

وبعثت الإمارة النجدية من جديد بعد تسع سنوات من الفوضى والصراع الداخلي والاحتلال الاجنبي. وصار فيصل سيدًا في دياره من جديد لمدة تقرب من عشرين

عامًا. كانت القوى المركزية تعمل بسرعة كبيرة على توحيد مناطق أواسط الجزيرة وشرقيها كلما ظهرت شخصية قوية وانعدم التدخل الخارجي المباشر.

ومما لا ريب فيه ان فيصل كان حاكمًا قويا. وكانت لديه خبرة الحياة في مصر الأكثر تطورًا وخبرة الحكم في ظروف الجزيرة العربية والقدرة على الجمع بين الشدة واللين والاستعداد للمساومة مع الاصرار. وكانت الصلات المتزايدة مع المصريين والأتراك والإنجليز قد حملت أمير الرياض على إبداء المزيد من الاعتبار للعالم الخارجي.

بعث إمارة السعوديين في الرياض

نشأت الدولة السعودية الجديدة على مساحة من الأراضي أقل من أراضي إمارة الدرعية. وكانت الحركة الانفصالة قوية فيها رغم الاستقرار المتزايد. ويقول فيلبي: سرعان ما استأنفت نجد في عهد فيصل «سير الأمور الطبيعي المعتاد، ولكن ذلك لم يكن على الاطلاق مرادفا للحياة في سلام ووئام وازدهار، لتلك الأمور التي كانت على الدوام ظواهر نادرة أو تتخللها ظواهر أخرى في البادية»[٩].

كانت المهمة الأولى للأمير بعد السيطرة على المناطق الوسطى في نجد استعادة المنطقة الشرقية. وفي خريف ١٨٤٣، حاصر مدينة الدمام التي يسيطر عليها البحرانيون. وفي تلك الأثناء نشب في جزر البحرين نزاع داخل الأسرة الحاكمة وفر الحاكم السابق إلى القسم القاري واستقر في الدمام. وفي الوقت نفسه سدد فيصل الضربة إلى قبائل المناصير وآل مرة وبني هاجر التي ساعدت على تموين القلعة.

وفي آذار (مارس) ١٨٤٤، استسلمت حامية البحرين. واستولت العساكر النجدية على غنائم كبيرة. وبدلًا من البحرانيين ترك أمير الرياض في القلعة حامية نجدية من مائة شخص. ووافق حاكم البحرين الجديد محمد بن خليفة على استئناف تسديد الإتاوات السنوية للرياض وتسديد الديون مقابل تصفية منافسه. وهكذا بدأ فيصل

مرحلة جديدة من حكمه حيث دمر قوات البحرانيين التي لم تكن كبيرة ولكنها كانت تقض مضجعه، واستأنف سيطرته على جزر البحرين[١٠].

واندلعت في المنطقة الشرقية انتفاضات مرتبطة بالصراع بين قبيلتي بني خالد والعجمان. كان بدو العجمان يسلكون الطريق المعتاد لنزوح قبائل الجزيرة ـ من الجنوب إلى الشمال أو من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكانوا قد نزحوا من نجران ضعفاء مشتتين. ولم تكن لدى النازحين الجدد مراعٍ خاصه بهم، فصاروا يعتمدون على القبائل الأخرى حيث تحولوا إلى زبائن لها غَير متكافئين. بيد أن الأمير التركي أخذ يدعمهم وهيأ لهم إمكانية الإقامة في المنطقة الشرقية، وهي منطقة عائدة تقليديًا. لبني خالد، ويبدو أن من أهداف هذه الإقامة إيجاد قوة توازن لمواجهة بني خالد ووجهائهم الذين كانوا يتمردون على الرياض بين الحين والآخر، وكانوا ينافسون أمراءها في وقت ما.

وصار العجمان أكثر قوة وجسارة.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٥، هجم عليهم فيصل بعساكر كبيرة، وفي عام ١٨٤٦ دمرهم عن بكرة ابيهم. وحضر صغار شيوخ العجمان وحلفاؤهم من سبيع إلى الإمام فيصل وأعلنوا عن خضوعهم له. وطوال خمسة عشر عامًا لم يسمع أحد شيئًا عن العجمان[١١].

وبعد أن فرض فيصل سيطرته على المنطقة الشرقية انشغل بالجنوب، بالافلاج ووادي الدواسر. ففي عام ١٨٤٥، أرسل قواته إلى الافلاج لإخماد القلاقل هناك[١٢]. وعندما كان أمير الرياض مشغولا باخماد حركة العجمان وإحلال النظام في المناطق الجنوبية من نجد اندلع من جديد العداء القديم بين القصيم وجبل شمر. وسدد عبيد ضربة شديدة إلى فصيل من عنيزة ونظم عبيد آل رشيد شعرا بخصوص انتصاره. وفيما بعد، عندما زار الجزيرة شارلز دوتي، وهو من أعظم الرحّالة الإنجليز، سمع ذلك الشعر تتناقله الألسن[١٣]. كانت قصيدة عبيد افتخارا عاديا بالنصر. فهو يتبجج بكونه قد قتل ٩٠ من الأعداء حتى تعبت يده من حمل السيف وتخثر دم الأعداء على ردنه. وواجه ابن رشيد صعوبة كبيرة في تهدئة فيصل الذي استشاط غضبًا بسبب

الحرب بين أتباعه. وبعث حاكم جبل شمر إلى أمير الرياض رسالة توضيحية منظومة، يقال انها أثرت في فيصل تأثيرًا حسنا[١٤].

وطالما كان عبد الله بن رشيد على قيد الحياة ظلّت العلاقات ودية بين حائل والرياض. واعتبر عبد الله نفسه تابعًا لفيصل، ولكنه احتفظ باستقلالية واسعة. وبالإضافة إلى الصداقة التي تربط بين الأميرين فقد ربطت بينهما صلة القربى، إذ تزوج عبد الله الابن الأكبر لفيصل من ابنة عبد الله بن رشيد، بينما تزوج طلال ابن حاكم حائل من ابنة فيصل[١٥]. وكان عبيد، شقيق حاكم حائل، يقضي كل سنة شهرين أو ثلاثة في الرياض حيث يحل ضيفا على فيصل. وقد توسعت منطقة جبل شمر إلى الشمال. ففي عام ١٨٣٨، مثلًا، انضمت إليها منطقة الجوف وهي واحة كبيرة تقع على بعد ٣٥٠ كيلومترًا تقريبًا شمال غربي حائل.

وفي أيار(مايو) - حزيران (يونيو) ١٨٣٧، توفى عبد الله وحلّ محله ابنه طلال البالغ الخامسة والعشرين من العمر، وبعث إلى الرياض إبلًا وخيلا بمثابة هدية تعبر عن استمرار تبعيته للحكومة المركزية[١٦].

مشكلة القصيم: الصراع مع العجمان.

لم يتمكن فيصل من فرض سيطرته بصورة تامة على القصيم. وكانت هذه المنطقة، كما تفيد حسابات يوبير الخاصة بالسبعينيات، تضم حوالى ٢٠ مدينة وقرية. وكان في بريدة التي تعيش بالأساس على تجارة الإبل والنقل بالقوافل حوالى ١٠ آلاف نسمة[١٧]. وقبل ستينيات القرن التاسع عشر حكمها أكبر إقطاعيي المنطقة - آل عليان. وكان عدد سكان عنيزة، حسب معطيات يوبير، ١٨ - ٢٠ ألفًا. وكان يعيش حوالى ألف شخص آخرين في القرى المحيطة بها[١٨]. وكان أمراء الأسرة الإقطاعية التي حكمت عنيزة، آل زامل، شأنهم شأن سائر الأمراء، ينتمون إلى وجهاء البدو الذين استقروا وتحولوا إلى حضر، ولكن سلطتهم على العكس، كانت مقيّدة كثيرًا. ونعت الرحّالة عنيزة بأنها «جمهورية مدنية»، ونعتوا أميرها بأنه «أول المتكافئين»، وقالوا عنه أيضًا أنه بمثابة «رئيس جمهورية منتخب»[١٩].

وكان القول الفصل في شؤون عنيزة يعود للأثرياء من أهاليها الذين يقدمون إلى المتطوعة جملًا أو جملين مع اثنين أو أربعة من الهجانة ويدفعون بدلًا دائمًا للصرف على الحراس والعبيد وتسديد أجور الرعاة وتكاليف الضيافة العامة. وكانوا يشاركون مع الأعيان والوجهاء الإقطاعيين في تصريف شؤون عنيزة عن طريق مجلس الإمارة[٢٠]. ويصادف ان تتوتر العلاقات بين الوجهاء الإقطاعيين والتجار وبين فقراء المدينة، الأمر الذي تدل عليه بصورة غير مباشرة ملاحظة دوتي: «... الكثير من الفقراء يعارضون زامل بغضب مكشوف ويلومونه وهو صبور حكيم»[٢١].

وفي عام ١٨٤٦ - ١٨٤٧، عندما غزا شريف مكة نجد أبدى أهالي القصيم استعدادهم للتعاون معه[٢٢]. وبعد انسحاب الحجازيين غيّر أمير الرياض حكام المدن الرئيسية. إلا أن شتاء وربيع ١٨٤٨ - ١٨٤٩ تصرما في إخماد انتفاضة جديدة في القصيم. فالوجهاء المحليون لم يعترفوا بالأمراء الذين عينتهم السلطة المركزية، إذ كانوا يؤيدون هذا الفرع من العوائل الحاكمة سابقًا أو ذاك. وكان القتل يعقب الخيانات، الخيانة تعقب فترات السلم، وكانت المبايعة تعقب العصيان المتكرر، ولكن المنطقة ظلّت غير خاضعة.

وكان أمير بريدة عبد العزيز آل عليان هو الزعيم المعترف به للمنطقة. وقد نحاه فيصل عدة مرات ولكنه كان يعينه من جديد كل مرة. وغدا عبد العزيز حاكمًا لبريدة من جديد في مطلع عام ١٨٥١. ويبدو أن أمير الرياض لم يتمكن من الحصول على تأييد وجهاء القصيم ولم يستغن عن المساومة مع زعيمها المعترف به[٢٣].

وفي السنوات الثلاث اللاحقة انصب اهتمام أمير الرياض على غزوات مختلف القبائل. ففي أيار (مايو) ١٨٥٤، تمردت عنيزة من جديد. ولم يكن وجهاؤها، وخصوصًا آل زامل، راضين عن حكم جلوى، عامل الأمير فيصل، في القصيم. ويقول دوتي ان حاكم القصيم هذا كان ينهب السكان ويستأثر بأموالهم[٢٤]. وبدأ التمرد.

وكانت مشاركة الفقراء في هذا التمرد قد اضفت عليه صبغة جديدة. فقد هب ضد مضايقات أمير الرياض القسم الأكثر فقرًا من السكان، في حين لم يؤيد التجار الأثرياء المتمردين. وعلى أثر جلوى فر من عنيزة الشيخ عبد الله أبو بطين الذي كان قاضيًا لهذه المدينة مدة طويلة واخلص الولاء للرياض. وصار عبد الله بن يحيى آل زامل الملقب سليم أميرًا لعنيزة.

وفي أواخر ١٨٥٥، انتهى التمرد صلحا. واضطر فيصل إلى تنحية حاكم المنطقة الذي عينه بنفسه، بينما ظل زعيم المتمردين عبد الله بن يحيى في منصبه[٢٥].

وفي أواسط الخمسينيات هطلت امطار غزيرة وكان المحصول جيدًا فهبطت الأسعار. إلا أن وباء الكوليرا تفشى في نجد آنذاك.

كان الوباء قد بدأ في الهند ونقل الحجاج عدواه إلى مكة في عام ١٨٤٦، وانتشر منها في أوروبا وأميركا.

وفي عام ١٨٦٠، واجه أمير الرياض تمردًا جديدًا من العجمان الذين صاروا أكثر جسارة. وأرسل الأمير قوات كبيرة بقيادة ابنه عبد الله إلى الشرق، حيث نشبت على مسافة ثلاثين كيلومترًا تقريبًا جنوبي مدينة الكويت في ٩ نيسان (أبريل) ١٨٦٠ معركة جديرة بالتقاليد البدوية الجاهلية. فقد اجلسوا الفتيات من قبيلة العجمان وبنات أو قريبات الشيوخ في هوادج خاصة على سبعة جمال. واسبلت سبع من اجمل بنات عوائل الوجهاء شعورهن وارتدين أفضل ملابسهن وظهرن في مقدمة البدو يطلقن صيحات الحرب. وكان المحاربون متحمسين إلى أقصى حد، لأنهم يرون بأم العين أنهم سيحاربون، فيما يحاربون، من أجل سلامة بناتهم الحسناوات اللواتي يمثلن شرف القبيلة. وكانت المعركة دموية لأن العجمان واجهوا قوات من أبناء المدن والحضر الأكثر تنظيمًا وانضباطا وهي قوات عززها محاربون من قبائل سبيع والسهول وقحطان ومطير. وقتل حوالى ٧٠٠ من العجمان ففروا تاركين الفتيات والجمال وكل ما يملكون. واختبأ في الكويت من ظل على قيد الحياة. وعمت البهجة والاحتفالات بهذا الحادث في

الرياض وكذلك في البصرة والزبير اللتين تضررتا من غزوات العجمان وارسلتا بعد النصر هدايا ثمينة إلى عبد الله[٢٦].

إلا أن النصر الحقيقي كان بعيدًا. فالعجمان احتفظوا بقوات كثيرة وتحالفوا مع قبيلة المنتفق القوية في جنوب العراق. وسرعان ما بدأت القبيلتان غزو أطراف البصرة والزبير والكويت.

وأعلن فيصل الجهاد. ونشبت معركة الجهراء في ٢٧ آذار (مارس) ١٨٦١، وتم من جديد دحر العجمان والمنتفق. وحاصر النجديون خصومهم ودفعوهم إلى مياه الخليج، وعندما ارتفع المد ابتلعت المياه ١٥٠٠ محارب ممن لم يكونوا مطلعين على هذا النوع من الأخطار. وأثار النصر موجة جديدة من الفرح في العراق وفي نجد على حد سواء[٢٧]. إلا أن انتصارات عبد الله الدموية على العجمان قد تركت لعشرات السنين حقدا عليه في هذه القبيلة، الأمر الذي كان فيما بعد من الأسباب التي حرمته عرشه.

وبعد النصر شرقًا توجه عبد الله إلى القصيم. وقرر عبد العزيز أمير بريدة الهرب خشية مواجهة مخاطر أكبر، فتوجه إلى عنيزة ومنها إلى مكة. إلا أن فصيلًا أرسله عبد الله بن فيصل اختطف عبد العزيز في الطريق وقتله مع ابنه. واختطف ابنًا آخر لحاكم بريدة ممن كانوا قد شاركوا في حملة عبد الله على العجمان وقتل في السجن[٢٨].

وعلى الرغم من الانتصارين الكبيرين في ١٨٦٠ - ١٨٦١ فقد واجهت إمارة فيصل خطرًا جديدًا. وكان مبعثه هذه المرة أيضًا هو القصيم، وخصوصًا عنيزة، كان أهالي عنيزة قد نعتوا تمردهم على الرياض في ١٨٥٤ - ١٨٥٥ بالحرب الأولى، أما العمليات الحربية التي بدأت في ١٨٦٢ فقد نعتوها بالحرب الثانية.

ظهر محاربون من عنيزة في ضواحي بريدة، ونشبت صدامات في المنطقة كلها. وأعلن فيصل الجهاد من جديد. ونشبت معركة كبرى في أطراف عنيزة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٢. وذكر دوتي تفاصيل تلك المعركة[٢٩]. ساعدت النساء رجال عنيزة بتزويدهم بالماء وحمل الجرحى. وكان رجال عنيزة مسلحين ببنادق الفتائل.

وقاتل محاربو أمير الرياض أساسًا بالرماح والسيوف. وفي معمعان المعركة هطلت الأمطار فتعطلت بنادق فصيل رجال عنيزة فاندحروا وابيدوا عن بكرة أبيهم تقريبًا. وقتل منهم حوالى ٢٠٠ شخص. وكانت عساكر أمير الرياض حوالى ألف محارب. ويتضح من ذلك نطاق العمليات الحربية.

واضطر أهالي عنيزة إلى الاحتماء باسوار مدينتهم. وفي بداية عام ١٨٦٣ استلمت عساكر أمير الرياض قرب عنيزة إمدادات من جبل شمر والمنطقة الشرقية. وكانت لدى قوات الحصار عدة مدافع. وطلب رجال عنيزة الصلح[٣٠]. ولما كان أمير الرياض عاجزًا عن تدمير عنيزة وافق من جديد على العفو عن أهالي المدينة وابقاء حكامهم السابقين[٣١].

علاقات نجد مع الحجاز والحكومة العثمانية في عهد فيصل

كانت علاقات نجد مع الحجاز معقدة دومًا. وظل الباشوات العثمانيون في جدة والمدينة وشريف مكة يدعون بحق التدخل في شؤون أواسط الجزيرة. وفي عام ١٨٤٦ شن الشريف محمد بن عون حملة على نجد متحججًا برفض فيصل دفع الإتاوات للباب العالي. وقد جرت العادة على أن يدفع أمير الرياض ١٠ آلاف ريال، وربما كان ذلك من شروط «فراره» من مصر[٣٢]. والحجة الأخرى لحملة الشريف هي القلاقل في القصيم التي جعلت حاكم مكة يأمل في الحصول على مساعدة فعالة في هذه المنطقة[٣٣].

كانت عساكر محمد بن عون تتكون من حوالى ألفي شخص، وهم بالأساس من البدو. ومعهم فصيل صغير من القوات التركية النظامية. وفي ربيع ١٨٤٧ وصل الشريف إلى القصيم دون أن يواجه مقاومة في الطريق. إلا أن فيصل كان يستعد بهمة للحرب.وكانت القوى متعادلة تقريبًا، فكان الطرفان يتحاشيان الاشتباك في معركة. وأرسل فيصل «هدية» إلى محمد بن عون، وهي في الواقع إتاوة لمرة واحدة بمبلغ ١٠ آلاف ريال ومعها خيول وابل[٣٤]. ويبدو أن الاتفاق نص من جديد على دفع ١٠

آلاف ريال سنويًا،ولكن من الصعب القول بكيفية تنفيذه. وفي عام ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ أثناء القلاقل في الحجاز تخلف فيصل عن إرسال الجزية[٣٥].

حاولت السلطات العثمانية ان تحقق في عسير واليمن ما لم يتمكن والي مصر من تحقيقه. وفي نيسان (أبريل) ١٨٤٩، قامت القوات التركية بإنزال من السفن الحربية في الحديدة. ووصل إلى الحديدة أيضًا فصيل بقيادة شريف مكة محمد بن عون. ووافق امام اليمن على وجود حامية عثمانية في صنعاء ودفع الإتاوات إلا أن الأتراك انهزموا في عسير واليمن عام ١٨٥١ ـ ١٨٥٢.

وعزز شريف مكة مواقعه وأقام علاقات طيبة مع قبائل عسير ومع قبيلة حرب الحجازية، كما أقام ارتباطًا مع عباس باشا والي مصر. إلا أن هذا السلوك بالذات أثار ارتياب السلطات العثمانية. وفي عام ١٨٤٩، وصل إلى والي جدة أمر بنفي الشريف محمد بن عون وابنيه الاكبرين إلى العاصمة العثمانية. وامكن القيام بذلك بخديعة غادرة. وعين المدعو عبد المطلب شريفًا لمكة[٣٦].

اجتاحت الحجاز في الخمسينيات قلاقل خطيرة كان من اسبابها تأخر دفع رواتب الجنود الأتراك سنة كاملة. وفي ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦ فقد الأتراك مؤقتًا السيطرة على مكة وتعين عليهم أن يبذلوا جهودًا كبيرة لاستعادة سلطتهم هناك بإعادة ابن عون الذي ورث ابنه عبد الله منصبه بعد عامين. وطرد أهالي عسير الحاميات العثمانية. ولم يتمكن الأتراك من إرسال القوات بانتظام إلى سواحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر واحتلال عسير من جديد في عام ١٨٧١ إلا بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩[٣٧].

في عام ١٨٥٨، قتل في جدة نائب القنصل البريطاني ونائب القنصل الفرنسي وأربعة عشر من الرعايا المسيحيين، ونهبت منازلهم. وفر الذين ظلوا على قيد الحياة إلى الفرقاطة البريطانية «سايكلوبس» التي قصفت المدينة وقامت بإنزال فصيل بريطاني غير كبير. وبحضور الإنجليز قطعت رقاب ١١ شخصًا، ثم جرى إعدام مدير الشرطة ورئيس الحضرميين والقائمقام[٣٨].

ومع أن إمارة الرياض، آنذاك، كانت في الواقع مستقلة عن الأمبراطورية العثمانية التزم فيصل بقدر كبير من الحذر وسعى إلى تحاشي الصدام مع الأتراك. لم يقم بغزوات على الشام والحجاز والعراق. وفي عام ١٨٥٥ وعام ١٩٦٠ أكد فيصل في مراسلاته مع الإنجليز بشأن الأوضاع في الخليج بأنه يعتبر نفسه تابعًا للباب العالي[٣٩]. وكان هذا التأكيد نافعا له في علاقاته مع الإنجليز. وكان الموظفون العثمانيون، عندما تقتضي مصالحهم، يتحدثون أيضًا عن السيادة العثمانية في أواسط الجزيرة.

التناقضات بين إمارة الرياض وبريطانيا في منطقة الخليج

كتب ج. لوريمير عن السياسة البريطانية إزاء إمارة الرياض يقول «انها عدم التدخل في إمارات الساحل والمقاومة المعتدلة في سلطنة عمان والمعارضة بلا هوادة في البحرين». وهو يرى ان هذه السياسة مبعثها «هجمات الوهابيين العدوانية المتواصلة على طول خط الساحل»[٤٠].

إلا أن أمير الرياض كان يعتبر المناطق الساحلية ملكًا له. فقد تحدث الأمير فيصل عن دولته إلى بيلي وقال له ما فحواه: انها تشمل أراضي الجزيرة العربية من الكويت عبر القطيف ورأس الخيمة وعمان ورأس الحد وكل ما يقع وراء ذلك. هذا ما وهبنا الله[٤١]. وأضاف فيما بعد: مسقط تابعة لنا. وقد أخذناها بقوة السلاح[٤٢]. ويرى أمير الرياض ان الإنجليز عندما يفرضون حمايتهم على حكام الساحل إنما يتدخلون فيما لا يعنيهم[٤٣]. ولكن فيصل يعرف قوة بريطانيا.

ظلت العلاقات بين فيصل وحاكم الكويت ودية[٤٤]. إلا أن حربًا طويلة الأمد كانت قائمة بين نجد والبحرين.

ولم تسفر الصدامات الجديدة بين إمارة الرياض والبحرين في عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ عن انتصار لأي من الطرفين. ولم يستمر الصلح طويلًا. ففي خريف ١٨٥٠ اندلعت الحرب من جديد بين نجد والبحرين. واحتلت عساكر فيصل قطر. وحظي أمير الرياض، بدعم من فرع انقلب على عائلة حكام البحرين، الأمر الذي ساعده

في تكوين أسطول له والتحضير لإنزال على جزر البحرين. إلا أن عمارة بريطانية أرسلت آنذاك للدفاع عن البحرين، فأنقذت حاكمها من الهزيمة. واضطر فيصل إلى الاتفاق بشأن الصلح مع البحرانيين، ولكنه تمكن من جعلهم يدفعون الإتاوات والديون السابقة. كما انه نصب في قلعة الدمام منافسي حكام البحرين[٤٥].

وفي عام ١٨٥٩، عندما تهيأ النجديون للهجوم من جديد على البحرين أبلغ المقيم البريطاني في منطقة الخليج، الكابتن جونس، الأمير فيصل بأن الحكومة البريطانية تعتبر البحرين «إمارة مستقلة» وهي مستعدة للدفاع عنها دون أي هجمات[٤٦].

وفي عام ١٨٦١، فرض الكابتن جونس بمدافع العمارة البريطانية على شيخ البحرين اتفاقية كالاتفاقيات التي اضطرت الإمارات الصغيرة على ساحل الصلح البحري ان تقبل بها في السابق. وغدت البحرين محمية بريطانية ولم تعد تتعرّض لادعاءات الحكام السعوديين. صحيح انها ظلّت تدفع الإتاوات لأمير الرياض لقاء ممتلكاتها في قطر.

وفي العام نفسه، حاول الإنجليز ان يخلصوا أنفسهم من التبدلات غير المتوقعة في العائلة الحاكمة البحرانية وبعثوا إنذارًا لفيصل يطالبونه فيه بطرد منافس حاكم البحرين من الدمام. وقصفت العمارة البريطانية الدمام دون أن تنتظر وصول الجواب. وفر من القلعة محمد بن عبد الله آل خليفة[٤٧].

وفي عام ١٨٦٧، نشبت من جديد معركة بين عساكر أمير المنطقة الشرقية والبحرانيين. ويقول النبهاني، مؤرخ البحرين، ان تلك كانت آخر معركة في البحرين لأن الإنجليز وصلوا بعد ذلك.

وكانت عمان أيضًا موضع تنافس بين النجديين والإنجليز. وبعد أن عاد فيصل إلى دست الحكم في عام ١٨٤٥ سرعان ما أرسل إلى البريمي قوات بقيادة سعد بن مطلق. وكان هذا العقيد حاكمًا للبحرين حوالى ثلاثين عامًا وخدم عند تركي ثم عند ابنه فيصل في العهد الأول من حكمه، وعند خورشيد باشا وخالد ثم عند فيصل من جديد، وكان مطلعًا اطلاعا ممتازا على شؤون عمان. وطلب الشيوخ المحليون

النجدة من الإنجليز، إلا أن هؤلاء كانوا ما يزالون يتحاشون التدخل المباشر في شؤون البر.

وعلى أثر وصول سعد بن مطلق إلى البريمي طالب عددًا من الحكام المحليين بدفع الإتاوات، ومنهم سلطان مسقط وحاكم الصحار. وعزز مطلبه بإرسال فصيل إلى مسقط. إلا أن الإنجليز أخذوا يمارسون الدوريات عند ساحل الباطنة، فانسحب سعد بن مطلق ووافق على استلام جزية سنوية من مسقط مقدارها ٧ آلاف ريال.

وفي عام ١٨٤٨، تمكن حاكم أبو ظبي من الاستيلاء على البريمي. إلا أن منافسيه من دبي والشارجة ساعدوا ابن مطلق على العودة بعد بضعة أشهر. ثم نحاه فيصل من منصبه عام ١٨٥٠ وسرعان ما توفى.

وفي آذار (مارس) ١٨٥٣، عندما تقلصت الحامية النجدية في البريمي إلى ٥٠ شخصًا، استولى حاكم أبو ظبي على البريمي من جديد. وفي عام ١٨٥٣ وصلت إلى هنا عساكر بقيادة عبد الله، ابن الإمام فيصل. وأسرع شيوخ العشائر وحكام إمارات الساحل للأعراب عن خضوعهم للرياض. فقد كان نفوذها كبيرًا آنذاك، إلا أن المعتمد البريطاني الكابتن كمبيل تمكن من مقابلة الحكام المحليين وإرغامهم على توقيع «معاهدة الصلح الدائمة». ووصلت عساكر النجديين إلى مسقط فأنقذتها العمارة البريطانية من جديد، إلا أن حاكمي الصحار ومسقط التزما بدفع ١٢ ألف ريال سنويًا إلى الرياض.

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٣، غادر عبد الله واحة البريمي بعد أن عين أحمد السديري حاكمًا لها، وظل هذا الأخير في منصبه حتى عام ١٨٥٧. ورغم التبعية للإنجليز ظلّت مسقط والصحار وإمارات الخليج تدفع الإتاوات لإمارة الرياض . ولم تكن الأراضي التي يشرف عليها النجديون محددة بدقة، فهي تتقلص تارة وتتسع تارة أخرى، مع أن لديهم أحيانًا عمال جباية الزكاة في قسم كبير من أراضي عمان. وورث منصب أحمد السديري ابنه تركي الذي ظل حاكمًا للبريمي من ١٨٥٧ حتى ١٨٦٩[٤٨].

النظام الاجتماعي السياسي والحياة الاقتصادية في الدولة السعودية الثانية

كان أمير الرياض، مثلما في الدولة السعودية الأولى، اماما للمسلمين، أي انه قائد عام وحاكم أعلى وكذلك رئيس السلطة التنفيذية. وكان يبت شخصيًا في أهم مسائل السياسة الداخلية والخارجية والقضايا المالية والحربية ويتخذ القرارات بشأن الغزوات أو الصلح ويشرف بنفسه على تنفيذها ويراقب استقبال وإرسال الممثلين الدبلوماسيين واستلام وإرسال الرسائل الرسمية، ويمارس الشؤون المتعلقة بالحلفاء والاتباع والجيران والقبائل البدوية.

ولم يكن بلاطه كبيرًا، كما لم يكن مثقلا بالرسميات وبالجهاز البيروقراطي. وفي أهم المسائل كان الأمير يتشاور مع أقرب أقربائه الذين يعتبر ولاءهم له أسمى من المصالح المحلية. ولعبت عائلة آل الشيخ كذلك دورًا مهمًا مع أن أحدًا منها لم يبلغ منزلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه[٤٩].

وكان توزيع المناصب المربحة والرفيعة قد ساعد على تلبية المطالب المتعارضة لأفراد العائلة. وأعلن فيصل ان عبد الله وريثه واشركه في الشؤون الحربية وفي حكم الرياض والمناطق الوسطى. ومنح فيصل ابنه الثاني سعود المنافس لعبد الله استقلالًا كبيرًا في حكم المناطق الجنوبية. وسلمت إلى محمد، الابن الثالث، المناطق الواقعة شمالي العاصمة. ومال محمد إلى عبد الله في خلافه مع سعود. وكان الابن الأصغر عبد الرحمن الذي كان سيغدو فيما بعد أب مؤسس الدولة السعودية الجديدة قد ولد في عام ١٨٥٠ وكان آنذاك صغير السن لا يصلح لوظيفة مستقلة[٥٠]. إلا أن تقسيم الإمارة بين أبناء فيصل ساعدهم على كسب أنصار في مناطقهم، الأمر الذي هيأ أساسًا للنزاعات المرتقبة التي أدّت إلى تمزيق الدولة السعودية الثانية.

وتدهورت صحة فيصل في السنوات الأخيرة من حياته. فعندما كان في مصر أُصيب بالرمد، وربما بالتراخوما، وغدا اعمى كليًا عندما قام العقيد ل. بيلي ممثل الإدارة الأنكلوهندية بزيارته الثانية إلى الرياض. وكان فيصل آنذاك في حوالى

السبعين من العمر فلم يتمكن من تصريف شؤون دولته بنشاط فسلم زمام الأمور إلى عبد الله. وكتب ر. ويندر يقول «إن عائلة السعوديين افرزت في اللحظات الحاسمة أقوى الأشخاص الذين يتمتعون بالفطنة وقوة الطباع والذين تمكنوا من السيطرة على مختلف العناصر الانفصالية في مملكتهم الشاسعة واستطاعوا ان يؤمنوا العدالة الصارمة»[٥١]. وكان من هؤلاء الرجال الاشداء فيصل بن تركي. ورغم موقف الإنجليز المعادي لإمارة السعوديين اعترف المقيم البريطاني ل. بيلي قائلًا: «ما كان بوسعي إلا أن الاحظ ان الأمير فيصل، في رأي الجميع، كان حاكمًا عادلا صارما وموفقا إلى أقصى حد في قمع العادات الوحشية للقبائل. وكان يريد أن يغرس بينها عادات أكثر تنظيمًا ويوجه اهتمامها إلى الزراعة والتجارة. وكان يخيل لي انه لا أحد يحب الأمير، ولكن الجميع معجبون به. وكانوا يتحدثون عنه برهبة اختلط فيها الاحترام بالكراهية على نحو طريف»[٥٢].

وبعد اللقاء الأول مع فيصل رسم بيلي صورته على النحو التالي: «وجدت الإمام جالسًا في الركن الابعد للغرفة على سجادة صغيرة جذابة متكئا بظهره إلى تكية ثقيلة... وعندما اقتربت منه نهض بصعوبة. أخذ يدي وتلمسها. كان ضريرا، إلا أن محياه رائع بتقاسيم معتدلة وتعلوه مسحة من الهدوء والصرامة والاطمئنان. كان يبدو في أكثر من السبعين، وملابسه فاخرة تنم عن ذوق رفيع. وعلى كوفيته عمامة من حرير اخضر. نبرات صوته عذبة وكلماته هادئة موزونة كانت هيئته تدل على الاعتزاز بالنفس وتكاد تتسم بالرقة. ولكن المرء يشعر بأنه يمكن أن يكون قاسيا دون رحمة»[٥٣].

ان درجة السيطرة المركزية القائمة في مختلف مناطق واقاليم الدولة السعودية الثانية، شأنها شأن الدولة السعودية الأولى، تختلف من منطقة لأخرى وتتقلص كلما ابتعدت المسافة عن الرياض. ويعود دور للوضع الداخلي في هذه المنطقة أو تلك ولوزنها النسبي وللمعتقدات الدينية عند أهلها. وكان حاكم الرياض يعين الأمراء وكذلك علماء الدين في المناطق الوسطى.

وكانت من أسباب القلاقل في القصيم محاولات أمير الرياض لتقوية سلطته هناك. وقد اضطر إلى ترك أبناء الوجهاء المحليين في اماكنهم. وكانت العلاقات مع جبل شمر معتدلة إلى حد مدهش، وذلك لأن الرياض لم تحاول بسط سيطرتها بصورة مباشرة على جبل شمر واكتفت بالتبعية الاسمية. وكانت هناك علاقات ودية بين الأسر الحاكمة وقد عززها التزاوج بينها. وكانت تلك الأسر بحاجة إلى مساعدة بعضها بعضًا عسكريًا.

وكان أمراء الهفوف يعينون دومًا من بين النجديين. ولم يكن سكان المنطقة الشرقية متعاطفين كثيرًا مع الرياض والوهابيين، إلا أن أهمية هذه المنطقة كبيرة لدرجة جعلت أمير الرياض يرى ضرورة الاحتفاظ بحاميات دائمية هناك.

وكانت للنجديين حامية في البريمي، كما عين لها أمير من الرياض. إلا أن مجموعة واحات البريمي احتفظت بسمات المنطقة الجبهوية أكثر من الهفوف.

وكما كان الحال في الأزمان السالفة ظل الاحتفاظ بالرهائن في العاصمة وسيلة لارغام المناطق والقبائل على الولاء. وعندما دعا فيصل بيلي لزيارة السجن قال له إنه سيرى هناك الآن حوالي سبعين من شيوخ العشائر[٥٤].

وكانت القبائل البدوية على درجات متباينة من التبعية لأمير الرياض، إلا أن فيصل لم يتمكن قط من السيطرة عليها بالشكل الذي كان في زمن الدولة السعودية الأولى. فقد شهدت سنوات حكمه الكثير من التمردات البدوية المتواصلة.

وكانت الوهابية في الدولة السعودية الثانية قد فقدت جزئيًا طابعها المتعصب المتشدد. ويبدو أن الخبرة الشخصية التي اكتسبها فيصل في مصر قد أوحت إليه ان المصريين والحكومة العثمانية أقوى بكثير من نجد وان استفزازهم بأبدًاء مظاهر التعصب الديني يعني جلب الهلاك لنجد. إلا أن المشاعر الدينية كانت تشتد في بعض الأحيان.

كان التنظيم العسكري لإمارة الرياض في عهد فيصل مثلما كان في عهد السعوديين الأوائل. فقد كان على كل مدينة أو قبيلة ان تقدم في حالة الاستدعاء

عددًا معينًا من المقاتلين والدواب. وكانت تلك الأرقام تدوّن في سجلات تعتبر كذلك أساسًا لجباية الزكاة. وعندما يصدر الأمير أمرًا بالتعبئة يخبر الحكام المحليين بعدد المحاربين الذين يحتاج اليهم، بينما يتحمل هؤلاء الحكام مسؤولية جمعهم وتموينهم. ويشمل الاستدعاء عادة نصف العدد الالزامي للمحاربين وفي الحالات الاستثنائية تستدعى كل القوات طبعا. وكان المحاربون يأتون مع سلاحهم الخاص وماشيتهم. وكانت الحكومة، من الناحية النظرية، تقدم العتاد اللازم. وكان الفرسان أكبر شأنا، لذا كانوا يتمتعون بالامتيازات.

كانت كل قبيلة أو مدينة تشكل في عساكر أمير الرياض وحدة خاصة لها رايتها. وعندما تنتهي الحملة الحربية يجري حل العساكر كلها. ولا تستلم المتطوعة رواتب منتظمة، إلا أن أربعة أخماس الغنائم تقسم بين المحاربين ـ حصة للمشاة أو الهجانة وحصتان للفرسان. ويحال إلى بيت المال خمس الغنيمة. ولدى الأمير فصيل من الحرس الشخصي مكون من حوالى ٢٠٠ عبد ومعتوق، كانوا عند الاقتضاء يمارسون وظيفة الشرطة. وكان السكان الحضر يشكلون نواة عساكر نجد[٥٥].

كانت لدى النجديين بضعة مدافع، ولكن من المشكوك فيه انهم استخدموها إلا في حالات نادرة جدًا. ولم يتخذ فيصل خطوات جدية لتشكيل أسطول حربي. فبدلًا من ذلك كان يعول على شبه الاتباع كالبحرين. وبديهي ان حكام السواحل كانوا يجدون الاعذار للتملص من تنفيذ مطالبه. زد على ذلك ان المعاهدات التي فرضها الإنجليز عليهم قيدت إمكانيات العمل بالاشتراك مع الرياض[٥٦].

ولم تكن الضرائب في عهد فيصل لتختلف عنها في ظل الدولة السعودية الأولى.. كان الزرّاع يدفعون زكاة الحبوب فقط والثمار القابلة للكيل والحفظ: ١٠٪ من محاصيل الأراضي الديمية و ٥٪ من محاصيل الأراضي السيحية. وكان البدو يدفعون زكاة الماشية في حدود ٢,٥ ـ ٥٪ من قيمة الذهب والفضة، وكذلك النسبة نفسها من قيمة بضائع التجار. ويمكن أن يعفى من الزكاة الذين يحصلون على دخل سنوي أقل من الحد المعين. إلا أن ضرائب إضافية تطبق في حالة الحرب[٥٧].

وكما كانت الحال سابقًا تتوارد على بيت المال مكوس الحج واتاوات مسقط والبحرين والإمارات الأخرى وعائدات ممتلكات حاكم الرياض.

ولا يمكن حساب المداخيل العامة للدولة على وجه التدقيق. وقدم العقيد بيلي أثناء زيارته للرياض جردا تقريبيا للسكان والمداخيل والعساكر. وتفيد حساباته ان سكان نجد والأحساء، والمقصود على ما يبدو الحضر فقط، بلغوا ١١٥ ألف نسمة، وان المداخيل ٦٩٢ ألف ريال وان عدد المحاربين ٧٩٠٠[٥٨]. أما البدو فقد حدد عددهم الإجمالي بـ ٢٠ ألفًا ومداخيلهم بـ ١١٤ ألف ريال. وهكذا بلغت مداخيل الدولة، في رأي بيلي، ٨٠٦ آلاف ريال. وهو يضيف إليها اتاوات مسقط وجبل شمر والبحرين والاقاليم الأخرى، وكذلك مليوني ريال تجبى من الحجاج[٥٩]. وربما كانت هناك مبالغة في أرقام العائدات، بينما قد يكون عدد الحضر والبدو أكثر من الرقم المذكور. وحتى بيلي أخذ في الحسبان الذكور الراشدين فقط.

وقدر بلغريف المداخيل العامة للدولة بما يعادل ١٦٠ ألف جنيه استرليني[٦٠].

والمعلومات المتوافرة عن نفقات الدولة السعودية الثانية أقل من تلك. وإذا اهملنا نفقات أسرة الأمير وبلاطه فإن نصف النفقات، على ما يبدو، يصرف على الأغراض الحربية، بينما يخصص الباقي للشؤون الاجتماعية - صيانة الآبار والمساجد وكذلك معونات المرضى والعجزة ورواتب الموظفين الذين تعينهم الحكومة المركزية ورجال الدين والمعونات المقدمة إلى الشيوخ المحليين وأمراء الاقاليم[٦١].

وكان قسم كبير من الزكاة يسدد عينا، ولكنه يدفع نقدًا في بعض المناطق.

وكانت العملة الرئيسية هي الريال الذهبي (ريال ماريا تيريزا)، ومع ذلك استخدم في التداول الشلن الإنجليزي والنقود العثمانية والفارسية الذهبية والفضية. وفي المنطقة الشرقية غالبًا ما كانت تستخدم النقود الهندية. وفي منطقة سواحل الخليج استخدم ما يسمى بالنقود الطويلة، وهي قطع نقدية معدنية مستطيلة تشبه الابزيم النسوي وعليها كتابة عربية. كانوا يصكونها من النحاس ويضيفون إليها قليلًا من الفضة. وكانت هناك نقود طويلة فضية[٦٢].

وفي عهد فيصل صار تصدير الخيول العربية الأصيلة بابا لعائدات ثابتة. وكانت خيول جبل شمر تصدر عبر الكويت، أما الخيول الأخرى فتصدر عبر القطيف والعقير. وفي عام ١٨٦٣، بيع عن طريق الكويت ٦٠٠ من الخيول العربية بسعر متوسط قدره ١٥٠ ريالًا للرأس الواحد. وأرسل عباس باشا من مصر عدة بعثات لشراء الخيول. وكان الرحالتان الاوروبيان المعروفان فالين وغوارماني قد زارا الجزيرة العربية بحجة شراء الخيول. إلا أن عدد الخيول المتبقية في عام ١٨٦٤ كان قليلًا جدًا، واتضح ان الخيول التي أرسلها فيصل إلى الآستانة سيئة للغاية مما أثار استياء الباب العالي الذي منع تصدير الخيول طوال أربعة أعوام. ولم يكن بالإمكان تطبيق هذا المنع عمليا[٦٣].

وقبل اكتشاف البترول كان صيد اللؤلؤ هو العمل الرئيسي لسكان سواحل الخليج. إلا أن الأحساء أقل شأنًا في صيد اللؤلؤ من البحرين وإمارات الصلح البحري وقطر. وكان لؤلؤ الخليج يرسل إلى بومباي، ومن هناك يباع إلى أوروبا. ونجد عند لوريمير وصفًا ضافيًا لصيد اللؤلؤ مع قواعده الاجتماعية والمالية الثابتة. ومع أن ما كتبه لوريمير يخص عام ١٩٠٦ إلا أن اللوحة التي رسمها من المستبعد ان تكون قد تغيرت منذ ستينيات وسبعينات القرن التاسع عشر. ولئن كان قد مارس صيد اللؤلؤ في سواحل إمارات الصلح البحري ٢٢ ألف شخص، وفي قطر ١٣ ألف شخص وفي البحرين ١٨ ألف شخص وفي الكويت ٩٢٠٠، ففي واحة القطيف مارسه حوالى ٣٤٠٠ شخص فقط[٦٤].

***

تمكنت الدولة السعودية الثانية من الانبعاث والنهوض بسبب توقف التدخل الخارجي في شؤون نجد. وكانت مصلحة قسم كبير من وجهاء وأعيان نجد وتجارها وصنّاعها وزراعها في التوحيد وتأييد الفقهاء الوهابيين وارتفاع منزلة آل سعود قد مكنت فيصل من بسط سيطرة الرياض على قسم كبير من أواسط الجزيرة وشرقيها. إلا أن علائم الضعف والخور، وأحيانًا عجز السلطة المركزية، والنزعة الانفصالية لدى

الإقطاعيين ونزوات القبائل البدوية كانت واضحة لدرجة كبيرة لا تجعل أحدًا من المعاصرين يتوقع لإمارة الرياض عمرًا مديدًا. وكان إقليم جبل شمر القوي حليفًا أكثر من كونه تابعًا طيعا. ودافعت القصيم عن استقلاليتها في تمردات متكررة. وكانت القبائل البدوية تتحدى فيصل المرة بعد المرة. وخيم ظل الأمبراطورية البريطانية من جهة الخليج وبحر العرب، وكانت قد ابتلعت في الواقع الإمارات الصغيرة على سواحل شبه الجزيرة. واضيف إلى ذلك كله تعمق الخلافات والانقسام داخل أسرة أمير الرياض.

الفصل الثامن

سقوط إمارة الرياض ونهوض إمارة جبل شمر

(١٨٦٥ ـ ١٩٠٢)

الانقسام في عائلة الأمراء. توفى فيصل بن تركي في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٥. وفي الحال بدأ الصراع من أجل السلطة بين أبنائه. وتسلم مقاليد الحكم ولي العهد عبد الله الذي حظي بتأييد سكان العارض وكذلك أخيه الأصغر محمد. وكان أخوه الآخر ـ سعود ـ منافسًا له. وأخذ الإنجليز الذين لهم مصلحة في إضعاف إمارة الرياض يشجعون مطامع سعود. كان عبد الله يسعى في إمارته الضعيفة غير المستقرة إلى تقوية المركزية فأثار بذلك استياء الوجهاء والأعيان في الأطراف[١].

ويقول بلغريف ان عبد الله كان رجلًا نشيطًا شجاعًا، ولكنه كان صارما قاسيا، الأمر الذي يروق لسكان المدن المحافظين. أما سعود فكان صريحًا سخيًا يحب الفخفخة، الأمر الذي يروق للبدو[٢].إن فيلبي متفق مع أقوال بلغريف هذه بالخطوط العريضة[٣].

كانت أم سعود وإحدى زوجاته من قبيلة العجمان الذين يكرهون عبد الله وصاروا من اخلص حلفاء سعود. أما قحطان فقد أيدوا عبد الله[٤].

وكان أول ما فعله عبد الله بعد أن تولى الحكم هو قضايا عمان وليس الصراع مع اخيه، فهذا الصراع سيأتي وقته. قبيل وفاة فيصل كان ابن قيس حاكم الرستاق في عمان، وهو من أبناء فرع جانبي للعائلة الحاكمة في مسقط، قد ثار على قريبه

ثويني سلطان مسقط وطلب المساعدة من تركي آل سديري حاكم البريمي. وتم في أواخر عام ١٨١٤ طرد قوات ثويني بمساعدة فيصل تركي آل سديري. وانتهز حاكم الرياض فيصل هذه الفرصة فحاول إرغام سلطان مسقط على دفع إتاوة له مقدارها ٤٠ ألف ريال بدلًا من ١٢ ألفًا، وعزز طلبه هذا بإرسال قوات إلى هناك(٥). إلا أن ثويني وافق، بنصيحة من الإنجليز، على دفع ١٢ ألفًا فقط. وفي العام نفسه استولى على مدينة صور ثوار ايدهم فصيل من النجديين بقيادة عبد العزيز بن مطلق، شقيق سعد بن مطلق الشهير. بديهي ان المدينة تعرّضت للنهب وكان بين المتضررين تجار هنود ورعايا بريطانيون. وعجز ثويني عن طرد النجديين فدفع لهم ١٠ آلاف ريال، ثم ٦ آلاف أخرى.

واخذ الإنجليز يساعدون ثويني وبعثوا باحتجاج إلى الرياض. ووافق عبد الله الذي أمسك بزمام الحكم في الإمارة على إطلاق سراح جميع الأسرى الذين تم القبض عليهم في صور وإعادة الأملاك ولكنه لم يقل شيئًا بخصوص التعويضات(٦).

وأوصى بيلي السلطات البريطانية في الهند بمساعدة سلطان مسقط(٧)، وسرعان ما أرسل إليه المدافع. وتلقى أمير الرياض في الوقت نفسه إنذارًا يطالب بتقديم الاعتذار والوعد بعدم تكرار مثل هذه الأعمال في المستقبل ودفع التعويضات، والا فالإنجليز يهددون بتدمير قلاع الأمير على الساحل والاستيلاء على سفنه. وانتقل الإنجليز من التهديدات إلى الأفعال. فقد أطلقت السفينة الحربية البريطانية «هاي فلاير» النار على عجمان التي كانت مرفأ للنجديين على ساحل عمان في الخليج. وفي بداية شباط (فبراير) ١٨٦٦، دمرت القلعة في القطيف وعدة سفن صغيرة في مرفئها وبعد محاولة فاشلة لإنزال قوات في الدمام أطلقت «هاي فلاير» النار عليها. ثم قصفت السفينة البريطانية صور المتمردة ودمرت فيها زوارق السكان. إلا أن السلطان ثويني قتل آنذاك على يد ابنه سالم، الأمر الذي خلق المصاعب أمام المناورات السياسية للإنجليز(٨).

وبدأت مراسلات بين عبد الله والمعتمد البريطاني بيلي. وسعى أمير الرياض إلى الحيلولة دون تدهور العلاقات وإلى تأمين اعتراف الإنجليز به حاكمًا للإمارة وإبعاد

الدسائس البريطانية المحتملة وتوجيهها صوب سعود، ولذلك اتفق عن طريق ممثله مع بيلي بشأن التسوية[٩].

كان عبد الله يدرك ان الإنجليز ضده، لذا لعب لعبة الضعيف فحاول ان يجد في الأتراك عونًا له على الإنجليز، الأمر الذي كلفه غاليًا في آخر المطاف.

وفي تلك الأثناء استجمع سعود القوات في مناطق جنوب نجد للصراع في سبيل عرش الرياض. وعزز عبد الله عاصمته[١٠]، وعبأ سكان المدن وبدو نجد ووجههم ضد أخيه المتمرد. وبعد أن أُصيب سعود بجراح ثخينة فر من ساحة المعركة إلى بدو آل مرة، ونكل أمير الرياض بانصار سعود وعاقب القبائل والواحات المتمردة في وادي الدواسر.

وبعد أن عالج سعود جراحه تحدى أخاه عبد الله من جديد بعد أربعة أعوام.

استمرار النزاعات

في أواخر الستينيات نشب في البحرين من جديد صراع داخل الأسرة الحاكمة، وأسفر هذا الصراع عن فرار أحد أفراد العائلة ولجوئه إلى السعوديين وشن غزوات متبادلة وتدخل الإنجليز الذين لم يسمحوا لأمير الرياض هذه المرة أيضًا بأن يبسط نفوذه على البحرين[١١].

اجتاحت القلاقل عمان بعد مقتل ثويني. وكان عهد حكم سالم الذي قتل أباه قصيرا. فقد انتهى بتمرد جديد قام به عزان بن قيس من الرستاق الذي استولى على مسقط في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٨. وقد رفع راية الأباضية المحافظة. واستمرت السلطة الجديدة في ساحل عمان حتى عام ١٨٧١ فقط، ولكنها ظلّت باقية عشرات السنين في المناطق الداخلية.

وفي عام ١٨٦٩، قتل أمير البريمي تركي آل سديري في الشارجة عندما حاول التدخل في النزاع المحلي. وفي حزيران (يونيو) ١٨٦٩، تمكنت القبائل المحلية بعد الاتفاق مع عزان من الاستيلاء على البريمي بمساعدته. وقد رفعت تلك القبائل رايات الأباضية وتوجهت ضد الوهابيين الذين تعتبرهم زنادقة[١٢].

في تلك الآونة اعترف الإنجليز بأن البريمي جزء من الدولة السعودية، وقد كتب المندوب البريطاني في مسقط المقدم ديزبرو في آب (أغسطس) ١٨٦٩ يقول: «إن عزان، حسب تقديراتي، قد استولى على البريمي ظلمًا وعدوانًا وبلا مبرر. ولا بد له من توقع انتقام الوهابيين»[١٣].

لم يكتف عزان بالاستيلاء على البريمي، بل رفض دفع الاتاوة للرياض. وكان رد فعل عبد الله حازمًا، إذ كتب إلى عزان بأنه ينوي التوجه نحوه بعشرين ألف محارب[١٤]. وفي تلك الأثناء كان سعود قد تحالف مع عزان. ونشأ ضد عبد الله ائتلاف بين سلطان مسقط الجديد عزان وحاكم أبو ظبي وسعود بن فيصل. وحاول شقيق عبد الله ان يقوم بهجوم على قطر، ولكنه هزم والتجأ إلى البحرين. وظهر تصور بأن الإنجليز يقفون من وراء ظهر سعود، وربما لم يكونوا يقدمون له مساعدة مباشرة، ولكنهم، على أي حال، لم يعترضوا على أعماله[١٥].

استمرار نهوض جبل شمر

في آذار (مارس) ١٨٦٨، انتحر حاكم حائل طلال آل رشيد، الأمر الذي يعتبر من اندر الظواهر في شبه الجزيرة. وأشار المؤرخ ابن عيسى إلى ذلك الحادث قائلًا ان طلال اختل عقله فانتحر[١٦].

ومع أن أمير حائل حكم المنطقة الواسعة بصورة مستقلة تقريبًا، فانه لم يعلن القطيعة أبدًا مع فيصل وابنه عبد الله، بل كان يقدم لهما مساعدة عسكرية كبيرة. وكانت وفاة طلال قد هيأت الإمكانية لإعادة النظر في العلاقات المتبادلة بين حكام حائل والرياض، وخصوصًا عندما توفى بعد عام واحد عبيد بن علي عم طلال العجوز والمتنفّذ في الوقت نفسه. كان عبيد من أنصار التعاون مع آل سعود. وقد نعته بلغريف بالتعصب[١٧] أما في رأي آن بلانت فهو «البطل الرئسي لتقاليد شمر»[١٨]، وهو شجاع كريم سخي. وكان تقدير دوتي لعبيد رفيعا أيضًا، حيث اعتبره عقيدًا وخصوصًا تتناقل الألسن قصائده[١٩].

كان طلال قد فرض سيطرته على خيبر وتيماء الواقعتين شمالي المدينة المنورة.

ومع أن حاكم حائل كان يتصرف بصورة مستقلة بقدر كاف، فمن المشكوك فيه انه كان يستطيع أن يجمع قوات شديدة البأس تكفي لتحدي حاكم الرياض.

كان أمير شمر يتميز بالتسامح الديني وقد سمح للشيعة واليهود بأن يقيموا ويتاجروا في حائل، وكان يجبي منهم ضرائب غير قليلة[٢٠]. وكتب بلغريف «إن التجار من البصرة ومشهد ـ علي وواسط والباعة من المدينة وحتى من اليمن كانوا يستقرون في سوق حائل الجديد بعد عروض مغرية. وقدم طلال لبعض منهم مقاولات رسمية، وهي نافعة لهم وله بقدر واحد. ومنح البعض الآخر امتيازات وتسهيلات، وكان يولي الجميع الدعم والحماية»[٢١]. وبالاموال الواردة إلى بيت المال من الغزوات والحج والتجارة أنجز طلال قلعة بارزان وأنشأ حول العاصمة سورا ارتفاعه سبعة امتار، وبنى حي السوق ومسجدا كبيرًا وكثيرًا من الآبار العامة[٢٢].

واذا كان الدين في جبل شمر لا يلعب دور القوة التوحيدية الأولى فإن التعاضد القبلي أدّى هذه الوظيفة. وحتى الحضر في حائل والمدن الأخرى كانوا يعتبرون أنفسهم من أبناء شمر بالدرجة الأولى، و«موحدين» بالدرجة الثانية. لقد لعب البدو في إمارة جبل شمر دورًا أكبر مما في إمارة الرياض. إلا أن سيطرة قبيلة واحدة كانت تؤمن استقرار السلطة في منطقة محدودة، ولكنها كانت عائقًا أمام توسيع إمارة جبل شمر، لانها تثير حفيظة القبائل القوية الأخرى.

كان طلال يدفع الإتاوات لفيصل وعبد الله بشكل خيول وحصة من الضريبة المفروضة في حائل على الحجاج الفرس وحصة من الغنائم. إلا أن نفوذ الرياض في أواسط الجزيرة أخذ يضعف، بينما صارت الراية الخضراء الحمراء لإمارة جبل شمر ترتفع. وكتب فالين بحق منذ عهد عبد الله بن الرشيد: «انني اعتبر أهالي شمر دون ريب من أنشط القبائل في الجزيرة حاليًا. وان سلطتهم ونفوذهم يشملان جيرانهم أكثر فأكثر من عام لآخر»[٢٣].

وورث متعب شقيق طلال العرش. وبعد عشرة أشهر قتل متعب في مجلسه بيد بندر الابن البكر لطلال، وصار بندر أميرًا، ولكنه ظهر لديه منافس خطر هو عمه محمد بن عبد الله آل رشيد، الابن الثالث لمؤسس السلالة. وقد قتل هذا بندر في عام ١٨٤٧،

مع علمه بأن الثأر ينتظره وأخذ الأمير الجديد يلاحق اخوان بندر الخمسة فانتقم من أربعة منهم. واعترفت جبل شمر بالأمير الجديد. ومع أن حكمه بدا بالانتقام الدموي من منافسيه، فانه دشن عهدًا من الازدهار والسلطة القوية في الإمارة[٢٤]. وكتب فيلبي يقول «لم تكن الحكومة فعالة أبدًا مثلما كانت في عهده»[٢٥]. وتعتبر كتابات ضاري بن رشيد التي استخدمها ويندير على نطاق واسع أهم مرجع في تاريخ آل الرشيد منذ وفاة طلال حتى استيلاء محمد على السلطة.

وخلال أمد طويل لم تخرج إمارة آل الرشيد عن إطار جبل شمر واقرب الواحات إليها خيبر وتيماء والجوف. وقدر الرحّالة عدد السكان الخاضعين لحائل في أواخر القرن التاسع عشر (قبل ضمها إلى نجد) ما بين ٢٠ و ٥٠ ألف نسمة من الحضر، ومثل هذا العدد تقريبًا من البدو. وتفيد معطيات أخرى ان عدد البدو يمكن أن يكون ضعف عدد الحضر[٢٦].

كان حاكم جبل شمر يلقب بالأمير أو شيخ المشايخ، أي انه ظل زعيمًا لاتحاد قبائل شمر التي يعتمد عليها[٢٧]. وكان آل رشيد يحكمون بمساعدة أقربائهم ومفارز خدمهم الشخصيين. وفي ظل الصراع المتواصل تقريبًا داخل الأسرة الحاكمة وعدم الثقة بالاقرباء كان الأمير يعتمد أكثر فأكثر على مفارز الخدم والمرتزقة المصريين والأتراك. وتفيد معطيات فالين ان مفرزة الأمير تتكون من ٢٠٠ شخص تقريبا[٢٨]، ويذكر رحالة الستينيات ـ الثمانينيات من القرن التاسع عشر الرقم ٥٠٠ ـ ٦٠٠. ومنهم ٢٠ شخصًا يشكلون حرس الأمير الأكثر اخلاصًا، وحوالي ٢٠٠ شخص كانوا في حائل أما الباقون فيرافقون التجار والحجّاج وجماعات جباة الزكاة ويؤدون حسب الدور الخدمة في الحاميات في المناطق الملحقة بالإمارة.

وكان بين أفراد مفارز الأمير محاربون بسطاء و«رجال شيخ المشايخ». وهذا المصطلح يطلق على كبار أفراد المفرزة وكذلك على المقربين إلى الأمير، وعموما على كل من يتمتع بثقة خاصة لديه. والكثيرون منهم متحدرون من العبيد. وكان «رجال الشيخ» يمثلون كبار الموظفين وقادة مفرزته والقائمين على أمور القصر

وحكام ممتلكات الأمير[٢٩]. وبعد أن تطورت الإمارة صاروا يترأسون مختلف اصعدة جهاز إدارة الدولة. واعتبارًا من سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر كان بين أكثر المتنفّذين في الإمارة، كما يقول الرحالة، صاحب المضايف في القصر وصاحب بيت المال والكاتب الأول وحامل الراية والجليس ووزير آل الرشيد[٣٠].

كان أمراء جبل شمر ملتزمين بتقاليد كرم الضيافة التي يرمز إليها القدر النحاسي الضخم الذي يحمله بصعوبة أربعة من الرجال الأشداء. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر كان القصر يستضيف يوميًا ١٥٠ ـ ٢٠٠ شخص، ويصل هذا العدد إلى ١٠٠٠ شخص أثناء مرور القوافل الكبيرة [٣١].

ومع تطور نظام الدولة طبقت الشريعة باتساع متزايد، مما ضيق على العرف والعادات. وهذا أمر أشار إليه الرحالة[٣٢]. وكان من بين العقوبات قطع الأيدي ومصادرة الأموال على العصيان ضد الأمير والسجن على السرقة وعلى رفض دفع الزكاة، والجلد بالعصي على الضرب والاصابة بجراح، والغرامات المالية[٣٣]. واستخدم مقر آل رشيد السابق بمثابة سجن، إلا أن الرهائن والسجناء الذين يتمتعون بمنزلة رفيعة صاروا منذ ستينيات القرن التاسع عشر يحتجزون في مضيف القصر الجديد[٣٤]. وكان لحائل عمالها المباشرون في الأطراف، ولكنهم في الغالب كانوا من الوجهاء المحليين. وظل شيوخ جميع قبائل البدو يحكمونها كالسابق.

ونظرًا لقلة التزام واخلاص الهجانة البدو أخذ آل الرشيد يعتمدون أكثر فأكثر على سكان المدن والواحات وعلى حرس من العبيد. وقدر غوارماني الحد الأقصى لعساكر جبل شمر في ستينيات القرن التاسع عشر بـ ٦,٥ آلاف شخص، وإذا اضيف إليها محاربو المناطق الملحقة يبلغ هذا العدد ٩ آلاف[٣٥]. ويقول نولدي ان الأمراء في التسعينيات كان بوسعهم أن يقدموا ٤٠ ألف محارب[٣٦]. وكان العساكر يمتطون ظهور الجمال، بينما كان الوجهاء يركبون الخيل. أما الأسلحة فكانت الرماح والسيوف، وأحيانًا السلاح الناري. كما كانت هناك عدة مدافع[٣٧].

وفي عهد محمد الرشيد (١٨٧١ ـ ١٨٩٧) بلغت إمارة جبل شمر أوج ازدهارها. ففي السبعينيات تم الاستيلاء على العال وقرى في وادي السرحان حتى حدود وادي

حوران. وكان استمرار ركود إمارة الرياض والتحالف مع الباب العالي قد مكنا محمد من بسط نفوذه على مدن القصيم في البداية، ثم في عام ١٨٨٤ على نجد كلها.

وما كان بإمكان إمارة جبل شمر ان تنهض إلا بتضعضع إمارة الرياض ذات الكثافة السكانية الأكبر والتي تمتلك قدرة عسكرية كبيرة دون شك. كانت حروب السعوديين في مطلع القرن وغزوات المصريين الفتاكة والنزاع القبلي المضني قد شملت جبل شمر بقدر أقل من أواسط نجد. واستفاد عدد من الحكام المحنكين من هذه الظروف الملائمة بالنسبة لهم فجعلوا من حائل لوقت قصير سيدة لأواسط الجزيرة كلها.

سقوط إمارة الرياض واستيلاء الأتراك على الأحساء

في خريف ١٨٧٠ عقد سعود بن فيصل من جديد تحالفًا مع قبائل العجمان وآل مرة ودخل العقير واستولى على الأحساء. وأرسل عبد الله أخاه محمد على رأس عساكر لاستعادة السيطرة على الأحساء وعاصمته الهفوف. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٠ نشبت في البادية معركة الجودة. وفي اللحظة الحاسمة التزم بدو سبيع الذين جاؤوا مع محمد جانب سعود فحقق هذا نصرًا تامًا. وتم القبض على محمد بن فيصل وزج به في سجن القطيف حيث ظل حتى أطلق الأتراك سراحه. وأعلن الإقليم الشرقي كله البيعة لسعود[٣٨]. وهذا ما أربك أمير الرياض عبد الله بن فيصل الذي يواجه الهزيمة وأدّى ذلك إلى ازدياد تدهور الأوضاع في إمارته. وفي تلك الأثناء حل جفاف مرعب، مما ادى، طبعًا، إلى قلاقل وفتن جديدة[٣٩].

وفي نيسان ـ أيار (أبريل ـ مايو) ١٨٧١ تحرك سعود، أخيرًا، نحو الرياض.

وعندما دخل العاصمة نهبت عساكره البدوية هذه المدينة وسكانها لدرجة جعلت الجميع يحقدون عليه. واندلعت النزاعات القبلية في نجد من جديد. وأشار ابن عيسى إلى أن السلطة الجديدة كانت ضعيفة فتشوشت الأمور لدرجة أكبر وتدهورت الأوضاع بسبب المجاعة وارتفاع الأسعار، وصار الناس يأكلون جيف الحمير، ومات الكثيرون بسبب الجوع، بعدما تركوا يواجهون الموت والمصائب والنهب والقتل والفساد[٤٠]. ولكنه ينبغي، كما يرى ر. ويندير، ان نأخذ في الاعتبار ان ابن عيسى

كان من أنصار عبد الله. وواجهت الإمارة المحتضرة خطرًا جديدًا. فإن والي بغداد مدحت باشا، وهو حاكم عثماني كبير معروف ومن أنصار السياسة النشيطة، قد قرر الاستفادة من الموقف بإضافة أراضٍ جديدة إلى الأمبراطورية العثمانية التي تقلصت أراضيها. وأسفرت أعماله في شرقي الجزيرة العربية عن نشوب أزمة دبلوماسية بين لندن والآستانة[٤١].

وادعى مدحت باشا بأن السيادة العثمانية تشمل نجد وبأن عبد الله بن فيصل كان مجرد قائمقام للأتراك. وكانت الحجة للتدخل هي «استعادة النظام ونجدة القائمقام المذكور ضد شقيقه العاصي»[٤٢].

وأرسل الأتراك اسطولهم لغزو الأحساء، وقد حصلوا من حاكم الكويت على حوالى ٣٠٠ سفينة أخرى. وكانت القوات النظامية مكونة من أربعة آلاف شخص، من المشاة بالأساس، وكذلك الفرسان والمدفعية. وأرسلت قبائل المنتفق عن طريق البر حوالى ثلاثة آلاف شخص. وفي أيار (مايو) ١٨٧١ نزلت القوات التركية في رأس تنورة وزحفت نحو القطيف دون أن تواجه مقاومة. وبعد معارك غير كبيرة احتل الأتراك المدن والقلاع الرئيسية في الإقليم كله. وهكذا فقد الأخوان السعوديان الإقليم الشرقي بسبب العداء العائلي. وفي الوقت نفسه تقريبًا فقد السعوديون واحات البريمي. وفي خريف العام نفسه زار مدحت باشا الأحساء، ولكن محاولة غزو الرياض أخفقت.

واستمر الصراع داخل أسرة آل سعود. وظهر عبد الله في الأراضي المحتلة من قبل الأتراك، في حين طرد سعود من الرياض مؤقتًا، وقد طرده عمه عبد الله بن تركي شقيق الأمير فيصل. واستجمع سعود حلفاءه من العجمان وآل مرة وأخذ يهاجم الحاميات التركية، ولكن دون جدوى[٤٣].

وفي أواخر ١٨٧١ ومطلع عام ١٨٧٢ عاد عبد الله من جديد إلى الرياض، إلا أن الوضع في الإمارة كان ميؤوسًا منه. فالمجاعة مستمرة، وكان الناس، كما يقول ابن عيسى، يأكلون الجيف والجلود وأوراق الشجر[٤٤]. وحاول الإخوان ان يتعاونوا ضد الأتراك، ولكن دون جدوى.

وفي آذار (مارس) ١٨٧٣، عاد سعود مجددًا إلى الرياض. واستمرت المعارك سجالًا بين الاخوين، واقترنت، كالعادة، بالنهب والقتل. ونظرًا لأن عبد الله بن فيصل أخذ يعتمد على الأتراك زاد الإنجليز من دعمهم لسعود حتى أنهم أرسلوا أغذية له[٤٥].

وفي منتصف السبعينيات ظهر على المسرح عبد الرحمن الابن الرابع للأمير فيصل. كان قد ولد في عام ١٨٥٠ على وجه التقريب. ويعتقد ر. ويندير أن عبد الرحمن يؤيد سعود، بينما يتصور فيلبي أن عبد الرحمن التزم جانب عبد الله[٤٦]. ولا يستبعد انه كان متذبذبًا في اختيار أحد الاخوين الأكبر.

وفي آذار (مارس) ١٨٧٤، تخلى الأتراك عن حكم الأحساء مباشرة لكي يقللوا النفقات. وصار زعيم بني خالد وهو من آل عريعر أداة لتنفيذ سياستهم. وكان ناصر باشا بن سعدون والي البصرة التي تشكلت إداريًا من جديد وزعيم قبيلة المنتفق قد عينه متصرفا. وتم سحب القوات النظامية التركية واستبدلت بمفرزة شرطة عثمانية.

وتزعم عبد الرحمن بن فيصل في عام ١٨٧٤ انتفاضة على الأتراك في الإقليم الشرقي. والتحق به قسم من قبائل العجمان وآل مرة وبدو آخرون. وأنزل ناصر باشا بن سعدون في العقير ٢٤٠٠ جندي من القوات النظامية مزودين بأربعة مدافع فتم دحر الثائرين. والتجأ عبد الرحمن إلى سعود في الرياض. وتعرّضت الهفوف لنهب من الغالبين استمر ثلاثة أيام. وترك ناصر باشا الإقليم في شباط (فبراير) ١٨٧٥ بعد أن عين متصرفًا فيه[٤٧].

وكانت سلطة سعود في نجد متضعضعة. ففي أواخر عهده لم تعد جبل شمر والقصيم تخضعان له. وصارت الرياض مركزًا لإمارة صغيرة مقطعة الأشلاء في أواسط الجزيرة. وانقطعت العائدات المنتظمة. ولما كان سعود يعتمد على بدو العجمان فإن سكان الواحات والمدن لم يكونوا راضين عنه.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٧٥، توفى سعود، وربما كانت وفاته بسبب الجدري، مع أن معطيات أخرى تفيد بأنه مات مسمومًا[٤٨].

وصار عبد الرحمن بن فيصل حاكمًا للرياض: وبدأ يخوض القتال ضد أشقائه الأكبر

وضد حلفائهم من البدو. وفي تلك الأثناء ثار عليه في العاصمة نفسها أولاد أخيه سعود الذي حل محله. وتوجه عبد الرحمن، خوفًا من أبناء اخيه، إلى عبد الله، فقرر الاخوة الثلاثة تشكيل جبهة موحدة بزعامة عبد الله ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع. ثم فر أولاد سعود واحتفظوا بحلفائهم في إقليم الخرج وفي الأحساء.

ودخل عبد الله الرياض من جديد. وخلال السنوات الإحدى عشرة التي مرت على وفاة فيصل تبدلت السلطة في المدينة للمرة الثامنة[٤٩].

وأورد فيلبي الجدول الزمني التالي للحكم في الرياض بعد وفاة فيصل[٥٠]:

عبد الله بن فيصل من ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٥ حتى ٩ نيسان/أبريل ١٨٧١.

سعود بن فيصل من ١٠ نيسان/أبريل ١٨٧١ حتى ١٥ آب/أغسطس١٨٧١ .

عبد الله بن تركي من ١٥ آب/أغسطس ١٨٧١ حتى ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٧١.

عبد الله بن فيصل من ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٧١ حتى ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٧٣.

سعود بن فيصل من ١٥ كانون الثاني/يناير ١٨٧٣ حتى ١٦كانون الثاني/ يناير ١٨٧٥.

عبد الرحمن بن فيصل من ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٨٧٥ حتى ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٨٧٦.

أولاد سعود بن فيصل من ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٨٧٦ حتى ٣١ آذار/ مارس ١٨٧٦.

عبد الله بن فيصل من ٣١ آذار/مارس ١٨٧٦.

وفي عام ١٨٧٨ قامت انتفاضة جديدة ضد الأتراك في الإقليم الشرقي، ولكنها أخمدت بعد انتصاراتها الأولى[٥١].

وكتب دوتي يقول: «الرياض وضواحيها هي كل ما تبقى من ممتلكات الوهابيين. وغدت الرياض إمارة صغيرة ضعيفة مثل بريدة. ان المدينة الكبيرة المبنية من الطوف والتي كانت في السابق عاصمة الأواسط الجزيرة غارقة في الصمت. ومضيفها الفسيح مهجور (قصر الأمير الوهابي المبني من الطوف أوسع من القصر في حائل). خدم ابن سعود يغادرون نجمه الذاوي ويتوجهون...إلى العمل عند محمد بن رشيد. ولا يخضع أحد من البدو للوهابيين. القرى الكبيرة في شرقي نجد طردت جامعي الزكاة التابعين لعبد الله»[٥٢].

وفي عام ١٨٨٠ ولد لعبد الرحمن وهو الابن الرابع لفيصل، طفل سماه عبد العزيز، وأمه سارة ابنة أحمد السديري[٥٣]. وعندما بلغ عبد العزيز السابعة من العمر عهدوا بتربيته إلى معلم هو قاضي الرياض.. إلا أن الصبي كان مهتمًا باللعب بالسيف والبندقية أكثر من اهتمامه بالدروس الدينية، مع أنه تمكن من قراءة القرآن في الحادية عشرة من العمر. وفي الرابعة عشرة عندما كان أبوه يقيم في المهجر في الكويت بدأ عبد العزيز، ملك العربية السعودية فيما بعد، دراسة الفقه والعلوم الدينية الأخرى بصورة جادة تحت إشراف عبد الله بن عبد اللطيف الذي أصبح فيما بعد القاضي الأول للرياض ومفتيها. كانت الأشهر التي قضتها أسرة عبد الرحمن في التجوال بين قبائل آل مرة قد هيأت للأمير الشاب إمكانية التضلع في العادات والأخلاق البدوية وأساليب وحيل العمليات الحربية للبدو الرحّل. وأخذ عبد العزيز، بصحبة أبيه أو لوحده، يتردد على مجالس شيخ الكويت ويطلع على تشابكات السياسة في الجزيرة العربية وعلى قرارات الأمير القضائية. وكانت الحالة المادية لعبد الرحمن بن فيصل في المهجر مزرية حتى أنه لم يتمكن من تزويج ابنه الأكبر إلا بمعونة الأصدقاء. وفي هذه الظروف اختمرت أحلام عبد العزيز الطموح إلى استعادة كرامة العائلة وممتلكات آل سعود وأمجادهم وثرواتهم[٥٤].

نهوض إمارة جبل شمر بعد سقوط إمارة السعوديين

أخذت الواحات والمناطق وقبائل البدو تنفصل الواحدة تلو الأخرى عن الرياض وتنتقل طوعًا أو كرهًا إلى حماية آل الرشيد وتدفع الإتاوات لهم. ولم توفق محاولات

عبد الله لابعاد قبضة آل الرشيد الثقيلة. وكان محمد بن الرشيد يلعب مع أمير الرياض لعبة القط والفأر.

واشتد التنافس في القصيم بين الأسرة الحاكمة سابقًا في بريدة آل عليان وبين الحكام الجدد من آل مهنا الذين ايدتهم حائل. وكان توزيع القوى على النحو التالي: الرياض تتعاون مع عنيزة وتعتمد على تأييد عتيبة ومطير، أما حائل فهي تؤيد بريدة وتتعاون مع قبيلة حرب[٥٥].

وفي تلك الأثناء حاول أولاد سعود بن فيصل أن يتحدوا ابن الرشيد. فجمعوا قسمًا من قبائل عتيبة وبعض سكان واحات العارض، ولكنهم اندحروا[٥٦]. إلا أن إمارة عبد الله الصغيرة كانت تتمزق مزقا[٥٧].

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٧، استولى أولاد سعود بن فيصل على الرياض والعارض وأسروا أمير الرياض. وتمكن الأمير قبل ذلك بقليل من طلب النجدة من حاكم حائل الذي لم يتردد في قطف الثمرة الناضجة. وكان طلب عبد الله حجة بيد محمد بن الرشيد «لانقاذه» ولبسط سلطة آل الرشيد على كل ممتلكاته. وتوجه ابن الرشيد إلى الرياض على رأس قوات كبيرة، ففر أولاد سعود إلى الخرج. وأطلق أمير جبل شمر سراح عبد الله من السجن ونقله إلى العاصمة حائل «حفاظًا على سلامته»، وترك واحدًا من أكثر القادة العسكريين اخلاصًا، وهو سالم آل سبهان الذي لا يعرف الرحمة، أميرًا للرياض[٥٨].

كان عبد العزيز الذي صار فيما بعد ملكًا للعربية السعودية يرى أن هناك ثلاثة أسباب لسقوط عمه الأمير عبد الله: «لم يستقم الأمر لعبد الله لثلاثة أسباب: «أولا وجود أبناء أخيه في الخرج يحرضون القبائل عليه، ثانيًا ـ مناصرته لآل عليان أمراء القصيم السابقين على أعدائهم آل مهنّا الأمراء الحاكمين في ذاك الحين. وكان هذا جهلًا من عبد الله في وقت ضعفه ليس من الحكمة ان يتحزب لبيت مغلوب فيضعضع نفوذه في القصيم. ثالثًا ـ ظهور محمد بن الرشيد الطامع بحكم نجد. فقد تحالف مع آل أبي الخيل... وكانوا كلهم يدًا واحدة على ابن سعود»[٥٩].

وانتهى وجود دولة السعوديين الثانية رسميًا في أواخر عام ١٨٨٧.

وفي آب (أغسطس) من العام التالي تمكن حاكم الرياض سالم آل سبهان من اللحاق بأولاد سعود. ويتضح النطاق الفعلي لقواتهم من عدد أفراد فصيل شمر الذي طاردهم - ٣٥ شخصًا لا غير. وقد قتل ثلاثة من أولاد سعود، وقتل الرابع قبل ذلك، أما الخامس فقد فر إلى حائل آملًا في العفو من ابن الرشيد. وتقول رواية أخرى ان الابن الأخير لسعود كان أسيرًا فخريًا في حائل[٦٠].

وفي شتاء ١٨٨٩/١٨٩٠، قام الشمريون بغزوة وصلوا فيها إلى الحجاز. وعندما عاد ابن الرشيد إلى العاصمة علم بأن ضيفه الأسير عبدالله بن فيصل مريض وان حالته خطرة. فسمح له بالعودة إلى الرياض مع أخيه عبد الرحمن بن فيصل. عاد عبد الله إلى عاصمته الخالية وتوفى في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٩[٦١]. وقبل ٢٤ عامًا من ذلك، عندما تربع على العرش، كانت إمارة الرياض تمتد من جبل شمر حتى المناطق الداخلية في عمان، ومن الخليج حتى الحجاز وحدود اليمن. وعندما توفى وهو تابع لحائل لم يكن عنده غير منطقة العارض وسيادة اسميه على الوشم وسدير. وكان ثلث تلك الفترة تقريبًا هاربًا مشردًا، بينما كان آخرون يحكمون الدولة المتداعية. ونعته فيلبي بالحاكم «غير القدير». إلا أن مجمل الملابسات غير الملائمة، وليس الضعف الشخصي، هي الأسباب الحاسمة في هلاك دولة السعوديين[٦٢].

وصار عبد الرحمن أميرًا للرياض. وقد اصطدم في عام ١٨٦٠ مع حاكمها الشمري سالم وأعلن الانتفاضة عليه. وحاصرت قوات ابن الرشيد الرياض، إلا أن المدينة كانت آنذاك قد تعززت كثيرًا. وأخفق الحصار، فعقد الطرفان هدنة. وظل عبد الرحمن حاكمًا للرياض وبعض المناطق المجاورة لها ولكن بصفة تابع في الواقع لمحمد بن الرشيد[٦٣].

وفي تلك الأثناء فضل أهالي عنيزة وبريدة في القصيم التحالف مع عبد الرحمن ضد جبل شمر بعد أن تأكد لهم ان سلطة الشمريين تتقوى عليهم وان الضرائب تزداد والامتيازات تتقلص.

وفي أواخر عام ١٨٩٠، تشكل ائتلاف واسع نسبيًا للعناصر المناهضة لآل الرشيد من بين أهالي القصيم وأنصار عبد الرحمن وقبائل مطير. وجمع ابن الرشيد كل قواته، بما فيها وحدات من قبائل شمر وكذلك من حلفائها من بدو الظفير وحرب والمنتفق. وكتب أ. موسيل يقول ان ابن الرشيد «بعث ٤٠ رسولًا على أربعين ناقة موشحة بستائر سوداء إلى مختلف أفخاذ وبطون شمر التي خيمت آنذاك بين كربلاء والبصرة. وكان يراد للستائر السوداء ان تبين بوضوح لجميع رعايا الأمير محمد بأن عارًا أسود سيلطخهم إذا لم يهبوا فورًا لنجدة زعيمهم»[٦٤]. ونشبت معركة كبيرة هي وقعة المليدة في القصيم اقتتلت فيها من الجانبين آلاف عديدة من المحاربين. وربما كانت تلك أكبر معركة منذ الغزو المصري.

واستمر القتال سجالًا طوال شهر. إلا أن عبد الرحمن، لسبب ما، لم يهب لنجدة حلفائه وتركهم وحيدين في مواجهة الشمريين.، وأخيرًا، في كانون الثاني (يناير) ١٨٩١، لجأ محمد بن الرشيد إلى الحيلة متظاهرًا بالانسحاب، ولكنه نظم بعد ذلك هجومًا مضادًا مباغتًا. جمع بضعة آلاف من الجمال في الوسط وحركها إلى الأمام بعد أن أطلق النار على القصيميين. وتقدم المشاة من وراء الجمال. وسدد الهجانة والفرسان في وقت واحد ضربات من الجناحين. وفقد القصيميون ما بين ٦٠٠ و ١٢٠٠ شخص، وفر الكثيرون إلى الكويت والعراق والشام[٦٥]. وعزز ابن رشيد لعشر سنوات تقريبًا مواقعه كحاكم بلا منازع لأواسط الجزيرة.

وعندما بلغ عبد الرحمن بن فيصل نبأ هزيمة حلفائه فر إلى البادية. وبعد تجوال طويل استقرت عائلته في عام ١٨٩٣ في الكويت تحت حماية شيخها محمد الصباح. وخصصت الحكومة العثمانية لعبد الرحمن معاشًا متواضعًا بستين ليرة ذهبية شهريًا[٦٦]. وانتقلت السلطة كاملة في الرياض إلى عجلان وهو من عبيد محمد بن الرشيد. وتم تقسيم نجد إلى عدة مناطق خاضعة لجبل شمر.

وغدا حاكم جبل شمر سيدًا لبلد مستنزف مخرب، ومحروم من منفذ إلى البحر. وكتب جميع الرحّالة الذين زاروا أواسط الجزيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن البساتين الذابلة والنخيل الميتة والآبار التي اجتاحتها الرمال والقرى

الموات. ولم تكن الدولة الخائرة قادرة على حماية الواحات من البدو. ونزح آلاف الناس إلى العراق أو إلى سواحل الخليج.

وتضررت التجارة. وكتب أمين الريحاني عن الأحوال العصيبة التي واجهها التجار آنذاك(٦٧). وأسفرت مخاطر نقل البضائع بطرق القوافل التجارية عن تذبذب في الأسعار ونسفت العلائق الاقتصادية وأدّت إلى إفلاس الصنّاع والتجار.

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر لم تحل دون الانتفاضات إلا القوة العسكرية لدى محمد بن الرشيد. ولكن القلاقل بدأت على أثر وفاته، وأخمدها بوحشية الأمير الجديد لجبل شمر عبد العزيز بن الرشيد. فقد نهب المدن والقرى بلا رحمة وخنقها بالغرامات الحربية. ولكنه تورط في صراع مع الكويت فعجز عن السيطرة على النزاعات القبلية الإقطاعية التي تصاعدت في كل مكان وعن الحيلولة دون نهب البدو للواحات. وقال موسيل: «كان الحضر جميعًا يحنون إلى سلطة قوية تحمي أموالهم وحياتهم»(٦٨).

آل الرشيد في أواخر القرن التاسع عشر

يقول المؤرخ خالد الفرج: «اعتمد محمد العبد الله الرشيد في تشييد إمارته على سياسة «فرق تسد» واتكأ على قوة عشيرته «شمر» وهي من كبريات القبائل المشهورة بالفروسية والشجاعة... وخص الأتراك بكثير من المجاملة والمسايرة لأن طرفي طريق الحجاج الذي يقوم آل رشيد على إيراده، وهما العراق والحرمان، في أيديهم، حتى أنه اعترف بخضوعه للسلطان عبد الحميد. وتعددت منه الرسل والهدايا إلى «الباب العالي» وحاز على النياشين الرفيعة وقبل المعتمدين المندوبين من الحكومة العثمانية. فصارت تعتمد عليه، وتعده من أكبر المخلصين لها، وتراه الوسيلة الفعالة التي قضت على آل سعود ومحت إمارتهم من الوجود، فاغدقوا عليه العطاء وخصوه بالمساعدات والتعضيد. وكان على الإجمال رجل وقته، إلى أن توفى سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) مريضًا بذات الجنب، عقيمًا لم يخلف ولدًا»(٦٩).

وورث الحكم عنه ابن اخته عبد العزيز المتعب الذي كان في حوالى الثلاثين من العمر، وكان محاربًا باسلًا ومغامرًا، ينساق للغضب والاستعجال في اتخاذ القرارات. كان يجيد استخدام السيف أكثر مما يجيد السياسة، وكان يفعل قبل أن يفكر[٧٠]. وفي غضون عشر سنوات بدد القسم الأكبر من الإرث الذي خلفه له خاله الجبار. ولم تستطع إمارة جبل شمر ان تلعب دور الدولة الموحدة المستقرة. فهي تستند إلى قبيلة شمر، لذا اعتبرها سائر السكان أداة سيطرة اتحاد قبلي واحد على القبائل الأخرى وليست سلطة لعموم الجزيرة العربية تتجاوز الأطر القبلية. وفي أواخر القرن التاسع عشر وقعت إمارة جبل شمر في تبعية متزايدة للأمبراطورية العثمانية فغدت وسيلة لنقل النفوذ العثماني إلى شبه الجزيرة، ولذلك فإن تذمر واستياء أعراب الجزيرة من حكم الأتراك شملا أمراء حائل أيضًا. وكانت بريطانيا قد عززت مواقعها على ساحل الخليج وأعاقت محاولات الأتراك لاستعادة مواقعهم، وأخذت تؤيد منافسي إمارة جبل شمر. وأخيرًا، بعد وفاة محمد الرشيد، لم تتمكن العائلة الحاكمة الغارقة في النزاعات من ترشيح أي حاكم بمنزلة عبد العزيز بن عبد الرحمن مؤسس العربية السعودية المرتقب. وكانت كل هذه العوامل التي اضيفت إليها فيما بعد المشاركة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الأتراك قد اسفرت عن غروب وسقوط إمارة جبل شمر القوية.

تنافس الدول على حوض الخليج في مطلع القرن العشرين والوضع في الجزيرة العربية

لقد بين تاريخ الدولتين السعوديتين الأولى والثانية بوضوح مد تشابك مصير الجزيرة العربية مع التطور العام للوضع في هذه المنطقة من العالم. فإن مستقبل الكيانات الدولية في الجزيرة حدده ليس فقط تناسب القوى في البادية، وأحيانًا ليس تناسب القوى فيها بالذات، بل كذلك القرارات المتخذة في لندن واسطنبول والقاهرة وبرلين وكذلك بطرسبورغ وباريس.

كانت بريطانيا أقوى دولة استعمارية في أواخر القرن التاسع، عشر فقد استولت،

بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩، على مصر عام ١٨٨٢ وسعت إلى السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على الجزيرة العربية كلها. وكانت الأمبراطورية الاستعمارية البريطانية في الهند قد شدت إليها بشكل أوثق سلطنة عمان وإمارات ساحل الصلح البحري وقطر والبحرين. وكان قد جاء دور الكويت التي كانت رسميًا تحت السيادة العثمانية.

ومع أن الخليج العربي كان من الناحية النظرية ممرًا مائيًا دوليًا، فقد غدا عمليًا بحيرة بريطانية. لقد كانت المواصلات البرقية الأمبراطورية تمر عبر الخليج العربي إلى الهند واستراليا. وكانت حصة بريطانيا العظمى والهند البريطانية في صادرات بلدان الخليج ٤٠٪، وفي وارداتها ٦٣٪. وكانت جميع البضائع تقريبًا تصدر وتستورد من هناك على سفن تحمل العلم البريطاني[٧١] كما ان الأسطول البحري الحربي البريطاني كان يسيطر على الخليج والمحيط الهندي.

وكان المندوب البريطاني السامي في منطقة الخليج يسمى «بالمعتمد السياسي لصاحب الجلالة في الخليج الفارسي والقنصل العام في فارس وخوزستان». وعلى حد تعبير نائب الملك في الهند كيرزون فقد كان «ملكًا غير متوج للخليج الفارسي»[٧٢]. وعلى الساحل العربي من الخليج كان لبريطانيا معتمدون سياسيون خاضعون لها في مسقط والكويت والبحرين. وكان المعتمد السياسي مسؤولا أمام الحكومة البريطانية الهندية، وكقنصل عام، كان خاضعا للسفير البريطاني في طهران.

لقد طرحت السياسة البريطانية في الخليج العربي مهمة مزدوجة هي السيطرة على طرق المواصلات البحرية وغيرها من الطرق المؤدية إلى الهند وإحلال «الوئام البريطاني» (Pax Britannica) في الخليج والذي يقصد به سيادة المصالح التجارية البريطانية وعدم السماح بدخول دول أخرى إليه.

وفي أواخر القرن التاسع عشر شمل تناحر الدول الكبرى وتوسعها الاستعماري حوض الخليج. وكانت الأمبراطورية الألمانية تبحث بشكل مسعور خصوصًا عن مكان لها تحت الشمس. وكانت حكومة غليوم الثاني التي أعلنت بأنها «حامية الإسلام» قد أخذت تتقارب أكثر فأكثر مع حكومة السلطان العثماني وتعزز بنشاط مواقعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الأمبراطورية العثمانية. واعتبارًا من

أواخر الثمانينيات ظهرت فكرة مد سكة حديد اسطنبول ـ بغداد وإيصالها إلى الخليج بغية التغلغل إلى هذه المنطقة بدون الطرق البحرية التي تسيطر عليها بريطانيا. وفي عام ١٨٩٩ حصل الألمان على امتياز أولي لمد السكة المذكورة مع إيصالها إلى الكويت. وظهر خطر نشوء خط استراتيجي مباشر بين برلين والخليج، الأمر الذي يهدد السيطرة البريطانية في الخليج والجزيرة العربية والشرق الأوسط كله. وفي غرب الجزيرة كان الألمان يساعدون الأتراك في مد سكة حديد الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة المنورة.

وكانت بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر تعتبر روسيا القيصرية التي تحالفت مع فرنسا منافسًا خطرًا أيضًا في هذه المنطقة. ونوقش في بطرسبورغ بصورة جدية مشروع الحصول على امتياز لمد سكة حديد عبر القفقاس إلى الخليج. وليس من قبيل الصدفة ان السلطات البريطانية في الهند اعتبرت زيارات السفن الحربية الروسية والفرنسية إلى موانىء الخليج «لعرض العلم» ومحاولاتها للعثور على مكان لمحطة فحمية تحديًا مباشرا(٧٣).

واشتدت التناقضات الأنكلوفرنسية بشأن مسقط التي حاول الفرنسيون في ١٨٩٩ ان ينشئوا محطة للفحم فيها. وفي عام ١٩٠٣، قامت السفن الروسية والفرنسية بزيارة مشتركة لموانىء الخليج والجزيرة العربية(٧٤).

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ تغيير في السياسة البريطانية التقليدية إزاء الأمبراطورية العثمانية. ففي السابق كانت لندن تسعى إلى الحفاظ على وحدة تلك الأمبراطورية مؤملة في إخضاعها بالكامل واستخدامها في الصراع ضد ورسيا. إلا أن مركز ثقل المصالح البريطانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وفي الشرق الأوسط انتقل تدريجيًا من القسطنطينية إلى مصر وبلاد الرافدين. ولعب ازدياد النفوذ الألماني في الأمبراطورية العثمانية دورًا غير ضئيل في تغيير تلك السياسة. وأخذ سولزبري الذي صار من جديد رئيسًا لوزراء بريطانيا عام ١٨٩٥ يتحدث عن اقتسام الأمبراطورية العثمانية. وكان المقصود ان تكون الجزيرة العربية وحوض دجلة

والفرات، شأن مصر والسودان، منطقة للسيطرة البريطانية. وفي سياق هذه الخطط كانت لندن تعتبر الاحتفاظ بالسيطرة على الخليج من أكبر المهمات.

وفي عام ١٩٠٣ زار أسطول بريطاني يحمل علم كيرزون نائب الملك في الهند موانىء الخليج العربي. وكان ذلك أكبر أسطول أجنبي في مياه الخليج منذ عهد العمارة البرتغالية البوكيركا عام ١٥١٥ . ودافع كيرزون في خطبه عن المواقع البريطانية بالأسلوب الملازم للعصر الاستعماري عصر «نير الإنسان الأبيض».

ومع أن ركود الأمبراطورية العثمانية استمر في أواخر القرن التاسع عشر إلا أن مواقعها في الجزيرة العربية تعززت بعض الشيء بسبب تقوية وتحسين الجيش وتطور المواصلات. وكان الأتراك، بعد الإنجليز، أهم عامل في شؤون الجزيرة.

وكان افتتاح قناة السويس قد غير بصورة جوهرية مكانة الأتراك في غربي الجزيرة. فلئن كانت تصل إلى هنا في السابق طوابير من الجنود المتعبين بعد مسير طويل عبر البادية وكان مجرد إرسالهم يكلف غاليًا، فقد صار الجنود يرسلون بحرًا عن طريق القناة. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر استطاع الأتراك ان يحتلوا اليمن وعسير من جديد[٧٥].

بديهي ان والي جدة وشريف مكة كانا في نزاع دائم فيما بينهما. وكانت العلاقات بين عون، والي جدة وحاكم مكة، الذي تسنم هذا المنصب اعتبارًا من عام ١٨٨٢ قد تأزمت في الثمانينيات. فقد بدأ الوالي بأداء أعمال عامة فحسن تزويد جدة بالمياه وأعاد بناء ترعة زبيدة وأنشأ مبنى جديدًا لحاكمية المدينة كما أنشأ عنابر ومباني للخفراء. وسمح الوالي العثماني لعون بأداء وظائفه القضائية ولكن فقط في المسائل المرتبطة بعشيرته والبدو والأشخاص من غير الأتراك والذين ولدوا في مكة نفسها. وأخذ الأتراك يشرفون على طرق القوافل ويقومون بحملات على قبيلة حرب بدون موافقة شريف مكة. وتقلصت عائدات عون من الرسوم الجمركية. وعند ذاك انتقل شريف مكة وقسم من أبرز أفراد عائلته مع الوجهاء والتجار ومفتي الشافعيين

والعلماء الآخرين إلى المدينة المنورة احتجاجًا على تصرفات الوالي حتى تمكنوا من إقناع السلطان بتنحيته[٧٦].

وكان الوالي الجديد جمال باشا أكثر حذرًا من سابقه. وازداد نفوذ شريف مكة بعض الشيء، إلا أن الصدام استمر بينه وبين الباشا. وتردى موقف العرب من الأتراك. وبعد وفاة عون في عام ١٩٠٥، تسلم منصب الشرافة على صنيعة الأتراك. وفي تلك الفترة اندلعت ثورة تركيا الفتاة، فنحي جمال باشا بوصفه من أنصار النظام السابق. وبعد فترة قصيرة من الغموض في الموقف عين لمنصب الشرافة في خريف ١٩٠٨ الزعيم المرتقب للانتفاضة العربية الحسين بن علي الذي كان أسيرًا فخريًا في الآستانة منذ عام ١٨٩٣ مع أولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل[٧٧].

وفي عام ١٩٠٨ نفسه افتتحت في الحجاز سكة حديد معان ـ المدينة المنورة. وأدّى مد هذه السكة إلى تحسن كبير في المواقع العسكرية الاستراتيجية للأتراك في غربي الجزيرة.

إلا أن الأمبراطورية العثمانية في شرقي الجزيرة لم تتمكن من تعزيز مواقعها بسبب مقاومة بريطانيا وبسبب تصاعد الميول المعادية للأتراك عند عرب الجزيرة.

وسعت الكويت التي غدت في أواخر القرن التاسع عشر مرفأ رئيسيًا لباطن الجزيرة ومركزًا تجاريًا مزدهرًا إلى التقليل من تبعيتها للأتراك، وهي تبعية شكلية اصلا. وأخذ شيخ الكويت محمد الصباح يتدخل على نحو نشيط في الصراع داخل الجزيرة، حيث كانت إمارة جبل شمر التابعة للعثمانيين تشكل خطرًا فعليًا عليه، ولذلك وفر الحماية لعبد الرحمن بن فيصل الذي يدعي بأحقيته في عرش الرياض. واحتفظ هذا الأمير الذي فر من الرياض بعلاقات مع واحات وقبائل أواسط الجزيرة فشجع الميول المناهضة للشمريين هناك.

وفي عام ١٨٩٦ قتل محمد الصباح وأخوه بيد أخيهم. الثالث مبارك الذي غدا شيخًا للمدينة ولقبائل أطرافها[٧٨]. وصار هذا الحاكم الجديد للكويت يمارس طوال عشرين عامًا تقريبًا تأثيرًا غير قليل على الأحداث في الجزيرة.

وكانت قبيلة المنتفق القوية وعلى رأسها فخذ آل سعدون في جنوب العراق عاملًا له شأنه في السياسة في أواسط الجزيرة. إلا أن المنتفق كانوا يعتبرون البادية مجرد جهة لغزوات النهب.

وفي تلك الأثناء كانت الحكومة البريطانية مشغولة البال بالخطط الألمانية التركية لاستعادة الكويت ووضعها تحت السيطرة العثمانية المباشرة وتأمين منفذ سكة حديد برلين بغداد إلى البحر[٧٩]. وحاول الأتراك مرارًا الاستيلاء على الكويت ونفي الشيخ مبارك إلى اسطنبول. ولأن مبارك يدرك ذلك كان يطلب الحماية من الإنجليز الذين كان في الماضي يتحاشى التعاون الوثيق معهم.

وفرضوا عليه معاهدة سرية غدت الكويت بموجبها محمية بريطانية. ووقعت في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٩. والتزم الشيخ، فيما التزم، بعدم تقديم امتيازات لاحد ما عدا بريطانيا[٨٠]. وعادت بخفي حنين البعثة الألمانية التي وصلت إلى الكويت في العام التالي للحصول على حق إيصال سكة حديد بغداد إلى الكويت[٨١].

وصار الإنجليز يشعرون بالقلق من إمارة حائل بوصفها تابعة مخلصة للأتراك. وكان السعي إلى إضعاف هذه الإمارة إحدى مهمات السياسة البريطانية في شبه الجزيرة، مع أن ذلك لم يكن يستبعد في بعض الحالات استخدام الإنجليز إمارة حائل لأغراضهم. وأخذوا يؤيدون خصوم الأتراك وجبل شمر في الجزيرة العربية، الأمر الذي كان له تأثير هام، ان لم نقل حاسم، على نجاح عودة آل سعود إلى السلطة في نجد.

الفصل التاسع

بعث إمارة الرياض
في مطلع القرن العشرين (١٩٠٢ ـ ١٩١٤)

في مطلع القرن العشرين نشأ في الجزيرة العربية من جديد وضع ملائم لبعث إمارة الرياض. فإن سلطة حائل كانت قائمة على القوة العسكرية لقبيلة شمر وحلفائها وعلى مساعدة الأتراك، ولكن تأييدها من جانب سكان نجد كان يتقلص باطراد. وأخذت بريطانيا تتدخل في شؤون الجزيرة سعيًا منها إلى إضعاف اعتماد الإمارات المحلية فيها على الباب العالي وإخضاعها للحماية البريطانية في آخر المطاف. وغدت عائلة آل سعود التي استقرت في الكويت مركز جذب طبيعيًا لجميع النجديين المتذمرين من حكم آل رشيد.

استيلاء الأمير الشاب عبد العزيز على الرياض والسيطرة على المناطق المجاورة لها

في خريف ١٩٠٠، تزعم عبد الرحمن بن فيصل غزوة موفقة على أحد بطون قحطان ووصل إلى مناطق السدير. وبعد أن عاد إلى الكويت أخذ يستعد لحملات عسكرية أكثر جدية واتساعًا على نجد[١].

واستنادًا للسياسة العامة الموجهة ضد آل رشيد تحالف شيخ الكويت مع زعيم المنتفق سعدون باشا أبو عجيمى[٢].

وفي أواخر ١٩٠٠ ـ أوائل ١٩٠١، جمع حاكم الكويت عساكره المكونة من البدو والحضر وتوجه إلى القصيم. والتحق به عبد الرحمن وبعض الأمراء السعوديين الآخرين الذين انضوت تحت رايتهم أقسام من قبائل العجمان ومطير[٣]. وكتب آداموف قنصل روسيا في البصرة: «حقق الجيش الكويتي نصرًا وتمكن من الاستيلاء على الرياض نفسها، ومن هناك تحرك مبارك ظافرًا نحو حائل عاصمة آل رشيد»[٤]. ويبدو أن مبارك بالغ في التباهي بانتصاراته الأولى. وتمكن عبد العزيز بن متعب من الحصول على أسلحة إضافية من الأتراك فعبأ كل قواته[٥] فدحر الكويتيين وحلفاءهم في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩٠١ على مقربة من واحة الصريف[٦].

وفي تلك الأثناء حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن ان يستولي على حصن المسمك في عاصمة أجداده الرياض. وتمكن فصيله مع الكويتيين من اقتحام المدينة، إلا أن الحاكم الشمري عجلان بن محمد تمركز في الحصن وتحمل الحصار. وعندما علم عبد العزيز بنتيجة معركة الصريف عجل في العودة إلى الكويت.

كانت بريطانيا تشجع أعمال الكويت وحلفائها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ويعتقد قنصل روسيا في البصرة آداموف ان بريطانيا التي لها مصلحة في إضعاف جبل شمر كانت تقف من وراء مبارك. واشترى شيخ الكويت كميات كبيرة من بنادق «مارتيني» الإنجليزية في البحرين[٧].

وأخذت السلطات العثمانية في العراق تحشد قواتها العسكرية لتسدد ضربة إلى الكويت بحجة «إحلال النظام»، ولكنها لم تتجرأ على القيام بذلك خشية الصدام مع الإنجليز[٨]. وبنتيجة صراع معقد تمكنت الدبلوماسية العثمانية بدعم من برلين من الاتفاق في أيلول (سبتمبر) ١٩٠١ على الاحتفاظ بالوضع القائم في الكويت ودرء احتلال القوات البريطانية لهذه المشيخة[٩]. وكانت روسيا في بداية القرن العشرين، كما جاء في توجيه سري إلى آداموف قنصلها في البصرة، كانت تسعى كذلك إلى الإبقاء على الوضع القائم في حوض الخليج كما هو[١٠].

وبعد الاتفاق مع الأتراك هجم حاكم حائل على المشيخة التي أصابها الضعف بعد هزيمة الصريف. وحاصر ابن متعب موقع الجهراء على ساحل الخليج. إلا أن

الإنجليز بعثوا سفينة حربية أطلقت النار على معسكر الشمريين. وأخذت الأسلحة الإنجليزية تتوارد على المشيخة، بينما احتج القائم بالأعمال البريطاني في اسطنبول في لقاء مع السلطان على أعمال الشمريين. وبعد أسبوعين أو ثلاثة من حصار ميؤوس منه عاد ابن متعب إلى حائل بامر من السلطان.

وأقنع عبد العزيز أباه بأن يسمح له مرة أخرى ان يجرب حظه في الرياض. فتوجه في حملة على رأس أربعين محاربًا فقط كما تفيد أغلبية المراجع، وكان بينهم شقيقه محمد بن عبد الرحمن وابن عمه عبد الله بن جلوى. وفي تشرين الثاني - كانون الأول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٠١، توجهوا عبر الأحساء نحو الجنوب إلى الربع الخالي. وفي الطريق اجتذب هذا الفصيل محاربين من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول. وتحول الفصيل إلى قوات من عدة آلاف شخص. وأخذ عبد العزيز يغزو بهذه القوات القبائل المعادية وقرى نجد التي ظلّت موالية لآل الرشيد.

وعندما علم ابن متعب بأعماله بعث برسائل إلى السلطات العثمانية في بغداد والبصرة طالبًا إبعاد عبد العزيز عن الأحساء. وعلم البدو بذلك فتركوا الأمير الشاب خشية بطش الأتراك. فظل عبد العزيز مع جماعته الأولى التي لا يتجاوز عددها الأربعين شخصًا. وأدرك عبد الرحمن ان أعمال ابنه تتحول إلى مغامرة خطرة فطلب منه العودة إلى الكويت والتخلي عن خطة الاستيلاء على الرياض. وأرغمت السلطات التركية في الأحساء فصيله على ترك المنطقة. وقضى عبد العزيز شهر رمضان في واحة يبرين[١١].

يبدو ان ابن متعب لم يعر اهتمامًا كبيرًا لهجمات الأمير الشاب، مما أفاد هذا الأخير. وقرر عبد العزيز المجازفة مرة أخرى رغم ممانعة أبيه. وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢، ظهر في أطراف عاصمة السعوديين السابقة.

وبعد أن أخذ قسطًا من الراحة في واحة صغيرة ترك فيها جماعة من أفراده مع الإبل والخيل وأوصاهم بالفرار إذا لم يعد في الفجر. أما الباقون فتوجهوا إلى أسوار المدينة. وفي ظلام الليل اجتاز المحاربون وعلى رأسهم عبد العزيز سور المدينة في منطقة «الشمسية»، وتركوا احتياطًا عشرة رجال وتوجهوا إلى صاحبهم جويسر الذي

كان يعيش قرب منزل الحاكم الشمري عجلان بن محمد. كان عجلان متزوجًا من إحدى نساء الرياض وكان يعودها نهارًا، ويفضّل قضاء الليل مع الحامية التي يوجد فيها زهاء ٨٠ شخصًا في حصن المسمك. أطعم جويسر عبد العزيز ورجاله ثم تسللوا إلى منزل زوجة عجلان. لم يجدوا عجلان فيه، ولكنهم حبسوا زوجته وامرأة أخرى في إحدى الغرف. واستدعى عبد العزيز شقيقه محمد مع الرجال العشرة الذين تركهم وراء سور المدينة. واجتمع الفصيل كله في منزل عجلان. وقالت زوجته انه يمكن أن يأتي إليها بعد صلاة الصبح فقرروا الانتظار. وبلغ التوتر أوجه عند هذه الجماعة الصغيرة التي كانت تشعر تمامًا بالصبغة المغامرة لأعمالها.

حل صباح ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢. وأخيرًا ظهر من بوابة الحصن عجلان مع حرس غير كبير. فاطلق عبد العزيز ورجاله النار وهرعوا إلى عجلان. حاول الشمريون الهرب. وفي اللحظة الأخيرة فقط قتل عبد الله بن جلوى عجلان عند باب الحصن.

لقد استفاد رجال عبد العزيز من عنصر المباغتة فانتقموا من الحامية الشمرية الموجودة في الحصن، ثم قتلوا من كان في المدينة. وأطلق سراح عشرين من الشمريين بكلمة شرف بعد أن اعتصموا في البرج. وكانت خسائر الأمير الشاب هي قتيلان وثلاثة جرحى لا غير. وكان انتصاره الرائع غير المتوقع قد خلب ألباب أهالي نجد بالطبع، وفيما بعد صار الشعراء والرواة يتغنون به في روايات وقصائد كثيرة[١٢].

واقسم أهل الرياض يمين الولاء لعبد العزيز الذي بدأ على الفور بتحصين أسوار المدينة. وعندما علم ابن متعب بنبأ سقوط الرياض استولى عليه الهياج واقسم بأن يثأر من أعدائه التقليديين. ونزح من الفرات الأوسط إلى حائل ليجمع العساكر ويتوجه إلى الرياض، إلا أن الاستعدادات استغرقت عدة أشهر[١٣].

وفي تلك الأثناء وصلت إمدادات إلى عبد العزيز من الكويت ـ سبعون مقاتلًا وعلى رأسهم أخوه سعد. وتمكن الشاب من القيام بحملة على الجنوب واحتلال الخرج قبل وصول الشمريين.

وفي أيار (مايو) ١٩٠٢ وصل أبوه عبد الرحمن إلى الرياض. ويجمع المؤرخون العرب والأوروبيون على أن الأب والابن كانا يفهمان أحدهما الآخر جيدًا، وكانت الثقة بينهما قد ساعدت على استقرار الدولة الجديدة. فالأمير العجوز كان، كما يبدو، يقدر قابليات ابنه تقديرًا واقعيًا. وعندما جمع عبد العزيز العلماء ووجهاء الرياض وطالبهم بأداء يمين الولاء لأبيه رفض عبد الرحمن هذا التكريم وأعلن ان ابنه هو الأمير، وصار عبد العزيز حاكمًا للرياض وهو في الثانية والعشرين. وظل أبوه مستشارًا رئيسيًا له واماما للمسلمين[١٤].

أثبتت جسارة عبد العزيز في الاستيلاء على الرياض انه يتحلّى بخصال الشيخ والأمير: البسالة والمهارة في القيادة والموفقية. وأثبتت الأحداث اللاحقة ان عبد العزيز كان شخصية بارزة دون ريب بمقاييس الجزيرة العربية. وهذا ما أجمع عليه كل المؤرخين والرحالة من عرب وأوروبيين. فقد تمرس عبد العزيز في المنفى وتضلع في اخلاق البدو وعاداتهم ونقاط ضعفهم وقوتهم، وكان يجيد التحكم فيما عرفه عن البدو. وإلى جانب ذلك كان يدرك بأن عليه أن يعتمد بالأساس على سكان نجد الحضر، لذا أولاهم عناية دائمة. وكان يدرك قوة الدين فأقام علاقات طيبة مع علمائه منذ البداية.

جرت العادة في المطبوعات الأوروبية، والعربية جزئيًا، على تسمية مؤسس الدولة السعودية الحديثة باسم أسرته: ابن سعود. لذا سوف نستخدم نحن أيضًا هذا الاسم في بعض الأحيان.

وقد تركت لنا المستعربة الإنجليزية هير ترودا بيل في كتابها «الحرب العربية» صورة أدبية لعبد العزيز، مع أنها تخص فترة متأخرة من حياته: «يداه نحيفتان بأصابع رقيقة، وتلك سمة منتشرة بين القبائل العربية الأصيلة. ورغم طول قامته وعرض منكبيه يدل مظهره على التعب، ولكنه تعب أقرب إلى الارتخاء العربي وليس صفة فردية. انه تعب شعب عريق منطو على نفسه عبأ قواه الحيوية لدرجة كبيرة ولم يغترف من الطاقة إلا أقلها خارج حدود بلاده الوعرة. إن حركاته المتأنية وابتسامته الطيبة البطيئة وعينيه اللتين تتطلعان بفطنة من تحت حاجبين ثقيلين - كل ذلك يضيف إلى خصاله جاذبية،

ولا يتفق مع المفهوم الغربي للشخصية النشيطة. ومع ذلك تشير الأحاديث عنه إلى تحمله البدني النادر حتى في الجزيرة العربية ذات الظروف الصعبة»[١٥]. ونحن نترك «الارتخاء العربي» و«الانطواء على النفس» على ذمة المستعربة الملتزمة بالمدرسة الاستعمارية البريطانية، ولكننا نشيد بتقييمها الرفيع عمومًا لشخصية أمير الرياض.

انتهز عبد العزيز فرصة الهدوء التي هيأها الشمريون فسدد ضربات في جميع الاتجاهات محاولًا ان يؤمن حول الرياض على الأقل الحد الأدنى من الأراضي لتكون لديه القدرة العسكرية والاقتصادية اللازمة لمواصلة الحرب.

وخلال تلك الفترة أثارت الأحداث في الجزيرة العربية اهتمام لندن وبرلين وبطرسبورغ فضلًا عن اسطنبول. ومارست الدبلوماسية الألمانية ضغطًا على السلطان العثماني بغية توفير منفذ أمين لسكة حديد بغداد إلى الخليج. وكان حاكم حائل الذي حاول استعادة السيطرة على جنوب نجد واثقًا من الدعم التركي. إلا أن بريطانيا كانت من وراء ظهر خصومه الكويتيين، والسعوديين في التطبيق العملي[١٦].

وفي تموز ـ آب (يوليو ـ أغسطس) ١٩٠٢ تمكن أمير شمر من مهاجمة الرياض وقام في الطريق بغزوات على القبائل والواحات المعادية له. وتدل هجماته على واحات الوشم والمحمل والقصيم على أن سكان هذه المناطق كانوا ضده [١٧].

بدأ ابن سعود يجمع المتطوعين من سكان مدن العارض وبدو الدواسر وآل مرة. ولم يتمكن الشمريون من الاستيلاء على العاصمة الرياض رأسًا لانها صارت جيدة التحصين. لذا فضل ابن متعب عدم اقتحام المدينة وراح يقوم بحملات حولها وخصوصًا على الخرج. واستمرت الصدامات والمناوشات بين الطرفين في أيلول (سبتمبر) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٢، إلا أن الوباء الذي تفشى بين الشمريين حسم الأمر لصالح عبد العزيز. واضطر ابن متعب على الانسحاب نحو الشمال[١٨].

وبعد أن عاد ابن متعب من حملته الفاشلة على الرياض قام بغزوات جديدة. وظل كالسابق يعتبر مبارك حاكم الكويت، عدوه الرئيسي فقرر ان يسدد الضربة إليه.

وفي هذه المرة هب عبد العزيز مع عدة آلاف من رجاله لنجدة الكويتيين في كانون الثاني - شباط (يناير - فبراير) ١٩٠٣. وهجم الكويتيون بقيادة جابر والنجديون بقيادة ابن سعود ومن التحق بهما من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول وبني هاجر وبني خالد والعوازم على بدو مطير الذين كانوا موالين لآل الرشيد. وقتل في المعارك أحد زعماء مطير وهو عماش آل دويش وابنه[١٩]. وكانت نتيجة المعركة غامضة. وهذا ما يستفاد من تقرير قنصل روسيا في البصرة، حيث كتب عن هزيمة الحلفاء الكويتيين والسعوديين على أيدي مطير[٢٠].

وفي تلك الفترة زار عبد الرحمن بن فيصل الكويت وتقابل مع قنصل روسيا في بو شهر[٢١]. إلا أن تلك الخطورة اتخذت على الأكثر لتهديد الإنجليز بغية ارغامهم على تقديم المساعدة لأمير الرياض، وليس لإقامة اتصالات سياسية فعلية مع روسيا. وفي ربيع ١٩٠٣ حاول الشمريون للمرة الأخيرة الاستيلاء على الرياض، إلا انهم انهزموا أمام حاميتها بقيادة عبد الرحمن، أبي عبد العزيز.

كانت أولى انتصارات عبد العزيز تعني بعث نواة إمارة الرياض بدعم نشيط من الكويتيين، وبدعم غير مباشر من الإنجليز.

التقدم نحو القصيم

في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ تقابل ممثل ابن سعود مع المعتمد السياسي البريطاني في البحرين وطلب منه الحيلولة دون انزال القوات التركية في حالة استيلاء أمير الرياض على الأحساء. ولم يحصل ابن سعود على جواب محدد، إلا أن الإدارة الأنكلوهندية صارت تراقب أكثر فأكثر نشاط عبد العزيز بعين الرضا[٢٢]. وبتبريك منها تعزز التحالف بين حاكم الكويت مبارك وأمير الرياض عبد العزيز وشيخ المنتفق سعدون ضد جبل شمر. وفي آذار (مارس) عقدوا اجتماعًا في الكويت واتفقوا على الأعمال المشتركة[٢٣].

وفي عام ١٩٠٣ صار الشمريون يفلتون أكثر فأكثر السيطرة على المناطق الواقعة جنوبي القصيم[٢٤].

وفي تلك الأثناء حدثت تغيرات جدية في الوضع الدولي. فقد نشطت بريطانيا هجومها على منافسيها الألمان والروس في حوض الخليج. وفي تشرين الثاني - كانون الأول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٠٣، زار نائب الملك البريطاني في الهند كيرزون بلدان الخليج بصحبة عمارة حربية وبفخفخة كبيرة. وكانت الحرب النجدية الشمرية جزءًا من الصراع بين الدول الكبرى من أجل النفوذ في حوض الخليج.

وفي مطلع عام ١٩٠٤، زحفت قوات أمير الرياض بسرعة نحو القصيم. وفي آذار (مارس) ١٩٠٤ على وجه التقريب اقتحم الفصيل الذي أرسله مدينة عنيزة حيث قتل القائد العسكري الشمري فهيد السبهان في سوقها الكبير[٢٥].

ولكن المدينة لم تكن قد احتلت بعد. وفي المعركة التي نشبت قرب عنيزة دحر عبد العزيز قوات الشمريين التي قادها ماجد بن حمود[٢٦]. وشارك في المعركة إلى جانب الشمريين بعض أقرباء عبد العزيز من أبناء اخوته واحفاد عمه سعود بن فيصل الذي ادعى بعرش الرياض. وعرفهم عبد العزيز ونعتهم «بالعرايف»، وهذا المصطلح يطلقه البدو عادة على إبلهم التي يستولي عليها العدو ثم تستعاد في حملة مضادة. وكان ابن سعود، بما يلازمه من تسامح تقليدي، وعلى الأصح مرونة كبيرة وبصيرة نافذة وقدرة على تجريد الأعداء الذين لم يعودوا خطرين من سلاحهم، كان قد عفا عن أقاربه هؤلاء بلا قيد أو شرط واقترح عليهم أما البقاء معه وأما الانضمام إلى آل الرشيد. وفي تلك الآونة قبلوا اقتراحه بالتصالح والتعاون والضيافة، ولكنهم بعد حين صاروا مجددًا من أخطر أعدائه[٢٧].

وعين ابن سعود أحد أبناء الوجهاء أميرًا لعنيزة، وهو عبد العزيز آل سليم الذي عاد من منفاه في الكويت مع أتباعه المسلحين.

وبعد سقوط عنيزة بعث أهالي بريدة وفدًا إلى ابن سعود طالبين السماح لهم بمهاجمة الحصن في مدينتهم، والذي تمركزت فيه حامية من الشمريين. إن الاستيلاء على عنيزة أقنع أهالي بريدة بأن الأحداث في تلك اللحظة تتطور لصالح أمير الرياض. زد على ذلك ان آل مهنا (وهم من أبرز بطون بريدة الذين كانوا في السابق في المهجر

الكويتي) قد وصلوا إلى عنيزة مع فصيل غير كبير، منتظرين فرصة استلام مقاليد السلطة مجددًا[٢٨].

وكان الطريق إلى بريدة مفتوحًا، فبعث ابن سعود إلى المدينة فصيلًا بقيادة صالح آل مهنا أبا الخيل. وفيما بعد، عندما دخل عبد العزيز بريدة أقسم له سكانها يمين الولاء. وسلمت الحامية الشمرية المكونة من ١٥٠ شخصًا الحصن في حزيران (يونيو) ١٩٠٤، بعد أن وافق ابن سعود على السماح لهم جميعًا مع أسلحتهم بالذهاب إلى حائل[٢٩].

وباحتلال عنيزة وبريدة شملت سلطة ابن سعود المنطقة الممتدة من الرياض حتى القصيم عبر الوشم. إلا أن ابن متعب تمكن من إقناع الأتراك بأن يقدموا له مساعدة أكبر. وعندما علموا بأن عبد العزيز ضم القصيم إلى إمارته شعروا بالقلق وبعثوا إلى نجد فصيلًا قوامه ألفا جندي مع ستة مدافع بقيادة العقيد حسن شكري[٣٠].

وفي حزيران (يونيو) ١٩٠٤، نصب ابن متعب معسكرًا في قصيبة ـ في منتصف الطريق تقريبًا بين حائل وبريدة، وهناك استقبل الحامية الشمرية التي سمح لها ابن سعود بمغادرة بريدة[٣١]. وقبيل العمليات الحربية الحاسمة بعث حسن شكري برسالة إلى عبد العزيز عندما كان هذا الأخير ما يزال في عنيزة وحذره من العواقب الوخيمة للعمليات الحربية ضد حاكم حائل. وكتب العقيد التركي يقول: «إن جلالة الخليفة الأعظم بلغه اضطراب الفتنة في بلاد نجد، وأن يدًا أجنبية محركة لها. لهذا السبب بعثني إليكم حقنًا للدماء ولمنع التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين». ثم تشكى كاتب الرسالة من تعاون عبد العزيز مع مبارك الذي يتعاون مع بريطانيا الدولة الأجنبية الكافرة. واقترح بلهجة متعالية على عبد العزيز بأن يعرض شكاواه على السلطات العثمانية وليس على مبارك الذي أعلن العصيان على الخليفة. وأشار شكري إلى أنه حليف ليس فقط لآل الرشيد، بل ولجميع الذين ينشدون المعونة والدعم من الأمبراطورية العثمانية، وقال إنه إذا رغب ابن سعود أيضًا في هذه المساعدة فبوسعه ان يتمتع بالنعم نفسها التي يتمتع بها آل الرشيد من الحكومة العثمانية[٣٢].

شعر حاكم الرياض بالقلق، ولكنه كان متصلبًا في موقفه. ورد على تلك الرسالة

بجواب جاء فيه: «وأما الآن، فلا نقبل لكم نصيحة ولا نعترف لكم بسيادة، والأحسن انك ترجع من هذا المكان إذا كنت لا تود سفك الدماء. فإن تعديت مكانك هذا، مقبلا إلينا، فلا شك اننا نعاملك معاملة المعتدين علينا... فإن كنت حرًا منصفًا فلا يخفاك ان سبب عدم إطاعتي هو عدم ثقتي بكم... وخلاصة القول ان كل العمال الذين رأينا انهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية». ثم يستشهد عبد العزيز بالوضع في اليمن والبصرة والحجاز وبسلوك الأتراك هناك لتوضيح أعماله. وأعاد إلى الأذهان نهب سلطات الحجاز للحجاج امام الكعبة. وحذر الأمير في ختام رسالته العقيد بأنه إذا تحرك الأتراك نحو المنطقة الخاضعة له فانه سيعاملهم معاملة المعتدين[٣٣].

وفي صيف ١٩٠٤ حاول ابن سعود الاعتماد على الإنجليز في صراعه ضد الأتراك وصنيعتهم فأقام اتصالات مع الميجر بيرسي كوكس الذي كان قد صار قبل حين معتمدًا سياسيًا لبريطانيا في منطقة الخليج. وقبل ذلك كان كوكس مساعدًا للمعتمد البريطاني في الصومال خلال الفترة من ١٨٩٢ حتى ١٩٠١ وقنصلًا في مسقط للفترة من ١٩٠١ حتى ١٩٠٤. وقدر له ان يلعب دورًا مهمًا في العلاقات الانكلوسعودية حتى إحالته على التعاقد في ١٩٢٣. وبإشرافه عمل المستعربون المعروفون ولسن وبيل وفيلبي. وكانوا يمثلون جيل الموظفين والمخبرين والعسكريين الاستعماريين البريطانيين الذي يعتبر كيبلنغ أميرًا لهم. وكانوا يعتقدون، بهذا القدر أو ذاك من الاخلاص؛ بأنهم يتحملون «عبء الإنسان الأبيض» عندما يدافعون عن المصالح الاستعمارية البريطانية، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يقومون بدراسات عميقة، وكانوا، على سبيل المثال، مطلعين جيدًا على شؤون الجزيرة العربية.

لقد اعتبرت بريطانيا ظهور القوات التركية في نجد خرقًا لاتفاقية ١٩٠١ بشأن المحافظة على الأوضاع القائمة. وبعثت لندن إلى الباب العالي احتجاجًا شديد اللهجة[٣٤].

وبعد أن رأى العثمانيون وابن متعب استحالة إقناع عبد العزيز بالرضوخ لمطالبهم قرروا البدء بالعمليات الحربية. كان لدى الأتراك حوالى ألفين من المشاة أو ثماني

كتائب (١١ كتيبة حسب رواية أخرى) من القوات النظامية وستة مدافع خفيفة وكمية كبيرة من النقود والذخيرة والأسلحة والأغذية. وبالإضافة إلى الشمريين التحق بقوات جبل شمر أبناء قبيلتي هتيم وحرب، وكذلك سكان حائل. وعندما علم عبد العزيز باقتراب العدو قرر مواجهته في معركة مكشوفة. وخرجت من بريدة نحو الغرب قواته المكونة من أبناء الرياض والقصيم والخرج وقبائل مطير. على هذا النحو نشأ الموقف قبيل معركتي الشنانة والبكيرية اللتين اتسمتا بأهمية كبيرة لتقرير مستقبل أواسط الجزيرة كأهمية استيلاء عبد العزيز على الرياض[٣٥].

الصراع مع الأتراك والشمريين من أجل القصيم (١٩٠٤ ـ ١٩٠٦)

لم تكن موقعة البكيرية معركة فاصلة واحدة بل سلسلة من الصدامات الكبيرة والصغيرة. حدثت الموقعة في أواسط تموز (يوليو) ١٩٠٤ على وجه التقريب. وتؤكد مراجع الجزيرة ان عدد القتلى من القوات النظامية التركية بلغ ما بين ألف وألف وخمسمائة شخص، ومن حائل ٣٠٠ ـ ٥٠٠ شخص، أما القوات السعودية فقد فقدت حوالى ١٠٠٠ شخص، يبدو أن هذه الأرقام مبالغ فيها جدًا، وعلى أي حال فهي تشمل الخسائر بسبب وباء الكوليرا والقيظ والأمراض. ومن شهود العيان على هذه المعركة المؤرخ ضاري بن فهيد بن الرشيد الذي أكد ان متعب فقد مائة محارب، بينما فقد عبد العزيز مائتين[٣٦].وهكذا اتسع نطاق الصدامات والصراع لأن احتلال الرياض مثلًا، أسفر عن مقتل بضعة أشخاص لا غير. وفي معركة البكيرية أُصيب عبد العزيز بجراح ثخينة كاد يفقد حياته بسببها[٣٧].

إلا أن المعركة أخذت تتحول لصالح أمير الرياض. ويفيد لوريمير بأن أحد القادة العسكريين الأتراك قتل، كما قتل عدد كبير من الجنود[٣٨]. واستولى ابن جلوى على كل المدافع التركية وأخذ كثيرًا من الأسرى. وانهمك ابن متعب في نهب قرى القصيم وترك كل مؤنه ومعداته الثقيلة تحت حراسة مفرزة صغيرة عند البكيرية. وعندما سمع باقتراب قوات عبد العزيز التي استلمت إمدادات أرسل على الفور قسمًا من قواته لنجدة مفرزة الحراسة، ولكن بعد فوات الأوان. فقد استولى عبد العزيز على كل مستودعاته وعلى مدينة البكيرية[٣٩].

وتوجه ابن متعب إلى منطقة الرس والشنانة في القسم الغربي من القصيم، فوصلها في آب (أغسطس) من العام نفسه مؤملًا، على ما يبدو، في الحصول على مساعدة الأتراك من الحجاز. إلا أن مدينة الرس التي كانت خاضعة له في السابق قررت هذه المرة الانضمام إلى أمير الرياض، لذا نصب الشمريون معسكرهم في الشنانة. ووصل إلى المنطقة نفسها عبد العزيز مع قواته الأساسية، إلا أن كلا الخصمين لم يدخلا في قتال، وربما كان ذلك بسبب حر الصيف. وتفشى وباء الكوليرا في معسكر ابن متعب، بينما أخذ البدو من كلا الطرفين يتفرقون لأنهم لم يجدوا الغنائم المنشودة. وظلت عند ابن متعب وحدات تركية من العراق وأفراد من جبل شمر فقط، كما ظل في المعسكر السعودي أبناء المدن المخلصين لعبد العزيز. وفي أواخر أيلول (سبتمبر) نشبت بين الطرفين معركة قرب الشنانة، فر الأتراك بنتيجتها مع الشمريين. وفقدوا بضع عشرات من الأشخاص فقط، لكن السعوديين المنتصرين فازوا بكل أعتدة معسكر العدو وجماله وأغنامه وأغذيته وأسلحته وعدة صناديق مليئة بالنقود الذهبية [٤٠].

كان انتصار عبد العزيز مهمًا بخاصة لأنه أحرزه ضد عدة كتائب من القوات التركية النظامية. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن القوات التركية كانت تعاني من فرار أفرادها وأنها تقاتل في ظروف غير معروفة لها وغير ملائمة إطلاقًا، في معمعان قيظ فظيع.

إلا أن دحر الأتراك بدا لعبد العزيز انتصارًا خطرًا جدًا، فبعث إلى والي البصرة رسالة طلب فيها معونة مالية معتبرًا نفسه من أتباع الباب العالي[٤١] ومحاولًا إبعاد خطر حملة تركية جديدة. وبعد أن استلمت السلطات العثمانية في وادي الرافدين تأكيدات عبد العزيز بولائه للسلطان جهزت رغم ذلك قوات من السماوة إلى نجد بثلاثة آلاف شخص مع المدفعية بقيادة أحمد فيضي باشا من الفيلق الذي يوجد مقره في بغداد. وبالمناسبة فإن فيضي باشا كان مهتمًا بثرائه الشخصي أكثر من اهتمامه بنجاح الحملة، فاشترى بثمن بخس دواب نقل لا تصلح لشيء ولم يتمكن من تأمين نقل المقاتلين والذخيرة إلى أعماق الجزيرة في الوقت اللازم[٤٢]. وقد

بدأت حملته في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥. وفي مدينة الزبير، شمالي الكويت، جرى لقاء بين والي البصرة أحمد مخلص باشا وعبد الرحمن، والد عبد العزيز، ومبارك شيخ الكويت. واطلع والي البصرة الوفد السعودي بأن الباب العالي عين عبد الرحمن قائمقامًا وقرر بأن القصيم يجب أن تكون منطقة محايدة عازلة بين آل الرشيد وآل سعود. وطلب الأتراك أن يسمح لهم بإبقاء حامية في بريدة وأخرى في عنيزة لضمان حياد القصيم. ولجأ عبد الرحمن إلى تكتيك التملص فوعد بطرح هذه الاقتراحات على بساط البحث أمام أهالي نجد[٤٣]. إلا أن قوات فيضي باشا التركية كانت قد زحفت نحو أواسط نجد، وقد أسرع لنجدتها من المدينة المنورة ٧٥٠ شخصًا مع بطارية للمدفعية الميدانية بقيادة صدقي باشا.

كان ابن متعب متألمًا لازدياد تبعيته للأتراك وسرعان ما اختلف مع أحمد فيضي باشا وترك حماته الأقوياء أكثر من اللزوم[٤٤].

وتضعضعت مواقع عبد العزيز بشدة نتيجة لتصرف أمير بريدة صالح بن حسن آل مهنا. فقد حاول التخلص من آل الرشيد ومن السعوديين معًا وفضل الخضوع والتبعية للأمبراطورية العثمانية. وفي نيسان (أبريل) ١٩٠٥ دخل الأتراك بريدة، وبعد بضعة أيام احتلوا عنيزة. وأُقيمت في كلتا المدينتين حاميتان تركيتان رفع عليهما العلم العثماني وتعالى نشيد «الحميدية» وصار اسم السلطان العثماني يذكر في صلاة الجمعة[٤٥].

وقسمت نجد إلى وحدات إدارية تبعًا للممارسات التركية المعتادة. وصارت بريدة قضاء يحكمه صالح الحسن بن مهنا. وأصبحت بريدة وعنيزة تابعتين إداريًا لولاية البصرة. واعتبر جنوب نجد قضاء أيضًا، بينما صار عبد العزيز بمثابة القائمقام ومركزه في الرياض، وهو خاضع رسميًا للبصرة[٤٦].

في تلك اللحظة كان ابن سعود يدرك ان القوة ليست إلى جانبه، وخوفًا من الاستفزازات أمر فصائله بعدم القيام بأي أعمال عدائية ضد الأتراك. وتقابل أمير الرياض ووالده مع فيضي باشا الذي كرر مطلب الإبقاء على الحاميتين التركيتين

في بريدة وعنيزة حتى يتم عقد الصلح بين آل الرشيد والسعوديين مع اعتبار القصيم منطقة محايدة عازلة. إلا أن عبد العزيز وأباه تملصا من قبول هذه الالتزامات[٤٧].

كان اهتمام الأتراك آنذاك منصبًا على الأحداث في اليمن. فالقوات العثمانية عجزت عن إخماد حركة الإمام يحيى بن حميد الدين في صنعاء. وقرر الأتراك إرسال أحمد فيضي باشا من نجد إلى اليمن. وسلم قيادة القوات في القصيم إلى صدقي باشا. وفي نيسان (أبريل) ١٩٠٥، على وجه التقريب، انتهت المفاوضات بين عبد العزيز والأتراك بلا نتيجة[٤٨].

لقد واجه الأتراك في نجد صعوبات كبيرة بسبب قلة الأغذية وكثرة الأمراض وشيوع الفرار بين الجنود. ولم تتمكن الحاميات العثمانية في القصيم من إحلال الاستقرار. وكانت الأفخاذ والبطون الإقطاعية المحلية تعتقد بأنه تهيأت لها فرصة للانفصال عن آل الرشيد وعن السعوديين، فحاولت إحراز مزيد من الاستقلال، وعمل بنشاط كبير بهذا الخصوص حاكم بريدة صالح الحسن بن مهنا. واستأنف الشمريون غزواتهم على القصيم، وصار أهالي القصيم يتعاطفون من جديد مع السعوديين، ووصلت المساعدة لابن سعود من جهة غير متوقعة. فقد انضمت إليه مطير مع زعيمها البارز فيصل الدويش الذي تزعم حركة الإخوان فيما بعد[٤٩].

وفي ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٠٦، نشبت في القصيم معركة بين السعوديين والشمريين شهدها المؤرخ الشمري ضاري بن فهيد بن الرشيد. ففي الفجر هاجم السعوديون معسكر ابن متعب بعد أن قصفوه بالمدافع أولًا. وأخذ حاكم حائل يتراكض بين محاربيه بغية إحلال النظام. وهرع إلى راية آل رشيد التي وقعت في أيدي محاربين من العارض متوهمًا انهم من أفراده. فناداهم باللهجة الشمرية فعرفوه وأردوه قتيلًا في الحال. وفر الشمريون مذعورين. تلك هي نهاية ابن متعب الذي كان قائدًا عسكريًا شجاعًا ولكنه كان زعيمًا سياسيًا غير موفق. وقد دشن مقتله فترة من عدم الاستقرار في جبل شمر.

ونحى أمير الرياض حاكم بريدة صالح الحسن من منصبه وزج به مع إخوانه في

سجن في بالرياض. وبعد فترة قتل صالح أثناء محاولة للهرب. وعين لمنصب الأمير ابن عمه محمد العبد الله أبا الخيل(٥٠).

وسرعان ما اتفق عبد العزيز مع أمير حائل الجديد متعب على اقتسام أواسط الجزيرة. فقد سلمت إلى أمير حائل الأراضي والقبائل الواقعة شمالي القصيم، بينما صارت لابن سعود القصيم والأراضي الواقعة جنوبيها(٥١).

إلا أن القوات التركية كانت ما تزال موجودة في القصيم، علمًا بأنها متعاطفة مع آل رشيد اكثر. ومنح الباب العالي متعب معونة بمبلغ ٢٠٠ ليرة تركية شهريًا بالإضافة إلى الأغذية، أما عبد العزيز فقد استلم ٩٠ ليرة تركية فقط شهريًا(٥٢).

وفي تلك الفترة هبت مطير ضد أمير الرياض بعد أن حرضها عليه الأتراك. ودحر عبد العزيز هؤلاء البدو وتوجه نحو بريدة التي يرابط فيها فصيل تركي(٥٣).

في صيف ١٩٠٥ عين سامي باشا الفاروقي قائدًا للقوات التركية في نجد بدلًا من صدقي باشا. ولكنه لم يصل إلى القصيم على رأس فصيل مشاة من ٥٠٠ شخص إلا في تموز (يوليو) ١٩٠٦. ويبدو انه التقى بعبد العزيز في آب (أغسطس) ١٩٠٦ وحاولا الإتفاق. فتظاهر عبد العزيز بالغضب وانصرف بعد أن خاطب سامي باشا بكلمات تعتبر من أفظع الإهانات في الجزيرة العربية: «لولا أنك ضيف عندنا لما تركناك تتحرك من مكانك»(٥٤).

وحلّ شهر رمضان فصادف ذلك شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٦ وتأجلت العمليات الحربية. واقترح ابن سعود على سامي باشا ان يختار أحد أمور ثلاثة فأما أن يقرب القوات التركية من الرياض، مما يجعلها تحت رحمة أمير الرياض، وأما أن يخرج القوات والعتاد من نجد وأما أن يستعد للمعركة(٥٥).

كان الأتراك مرابطين في الجزيرة أكثر من عامين ونصف وكانوا يعانون من الجوع، ويشعرون حتى بنقص التبغ. وتهرأت بزاتهم، وكان العرب يشكلون قسمًا كبيرًا من الجنود، ولكنهم يكرهون أواسط الجزيرة العربية لدرجة انهم سمّوها بنت الشيطان. وكان جنود كثيرون يبيعون أسلحتهم وأعتدتهم لأهالي القصيم كي يطعموا

أنفسهم. وانتشرت الأمراض وساد الفرار من الجيش. وفي هذه الظروف لم يكن أمام سامي باشا مخرج غير الجلاء[٥٦].

وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٦، على وجه التقريب، ترك سامي باشا معسكره المعزز على مقربة من بريدة وتوجه إلى المدينة المنورة. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) بدأ بالجلاء أيضًا الأتراك الذين كانوا قد وصلوا من العراق (وعددهم ٨٠٠ شخص تقريبًا مع مدافعهم). فقد بلغوا الكويت ونقلوا منها إلى البصرة[٥٧].

وتفيد تقديرات لوريمير ان حوالى أربعة آلاف وخمسمائة جندي عثماني أرسلوا إلى أواسط الجزيرة في ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥. ولم يعد إلى المدينة المنورة والعراق إلا ألف منهم. وفقد الأتراك ٣,٥ آلاف شخص بسبب الفرار والأمراض والمعارك[٥٨]. وكانت تلك هزيمة ماحقة. ولم يتمكن الأتراك حتى من الاحتفاظ بسيطرة صورية على القصيم[٥٩].

ترسخ سلطة الرياض في جنوب نجد والقصيم (١٩٠٦ ـ ١٩١٢)

في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٦، قتل أمير حائل الجديد متعب الرشيد (الذي حكم أقل من عام) مع ثلاثة من إخوانه على أيدي سلطان وسعود وفيصل أبناء حمود الرشيد. ولم يتخلص من الموت إلا الصبي شقيق الأمير متعب الأصغر الذي أنقذه خاله من آل سبهان وأرسله إلى المدينة المنورة التي كانت تحت السيطرة العثمانية. وصارت المعونات التي يقدمها الباب العالي إلى آل الرشيد تصل إلى المدينة مباشرة، وكان ذلك دليلًا على موقف الأتراك السلبي من مغتصبي السلطة في حائل[٦٠].

أخذت إمارة آل الرشيد تزداد ضعفًا. وراح شيخ قبيلة الرولة نوري الشعلان يدعي بإمارة الجوف بعد أن وسع ديرة قبيلته في أراضي جنوب سورية وشرقي الأردن حاليًا. واستفاد السعوديون من القلاقل في جبل شمر ليجتذبوا إلى القصيم قوافل الحجاج القادمة من العراق وبلاد فارس. واشتد الصراع بين حكام حائل، وحدثت تبدلات سريعة بين الأشخاص الممسكين بزمام الأمور فيها. وحلّ محل سعود بن حمود سعود

ابن عبد العزيز الرشيد الصغير السن الذي اعاده إلى حائل في عام ١٩٠٩ أخواله من أسرة آل سبهان القوية. وظل أبناء هذه الأسرة يمثلون السلطة الفعلية في الإمارة. وحتى سقوط إمارة جبل شمر في عام ١٩٢١ استلم زمام الحكم فيها حوالى عشرة من الأمراء أو الأوصياء.

ولم تتمكن إمارة جبل شمر التي غدت ضعيفة من الاستفادة من التوقف الموقت في التوسّع السعودي مع أن القصيم كانت مضطربة. وانفصل عن أمير الرياض فيصل الدويش وسائر زعماء مطير إذ دخلوا في تحالف سري مع حاكم بريدة عبد الله أبا الخيل.

وفي نيسان ـ أيار (أبريل ـ مايو) ١٩٠٧ نشبت قرب مدينة المجمعة في سدير معركة بين مطير وقوات ابن سعود المكونة بالأساس من قبيلة عتيبة. واندحرت مطير. وأُصيب فيصل الدويش بجراح في هذه المعركة فطلب الصلح وأعرب عن خضوعه لابن سعود. كان كالسابق زعيمًا لقبيلة قوية، وفي تلك الأزمان العصيبة كان ابن سعود بحاجة إلى أصدقاء أحياء أكثر من حاجته إلى أعداء موتى، لذا تقبل تأكيداته بالولاء[٦١].

وفي آب ـ أيلول (أغسطس ـ سبتمبر) ١٩٠٧، ظهر سلطان بن حمود في القصيم حيث انضم إليه أهالي بريدة بزعامة أبي الخيل، وكذلك قسم من مطير. وعندما علم عبد العزيز بغارة سلطان جمع قوات من قحطان وعتيبة وسبيع والسهول وانضمت إليه قوات من العارض. وخلال المعارك اللاحقة في أيلول ١٩٠٧، دحر عبد العزيز مطير وزعيمها فيصل من جديد. ونشبت المعركة الحاسمة عند الطرفية على بعد بضع عشرات من الكيلومترات شمالي عنيزة. وقاتل ضد عبد العزيز الشمريون وأهالي بريدة وكذلك مطير. وتعتبر معركة الطرفية من معارك عبد العزيز الحاسمة ضد أعدائه. ويعتبرها المؤرخون السعوديون انتصارًا. إلا أن أمير الرياض لم يتمكن من الاستيلاء على بريدة واكتفى بنهب أطرافها. وبعد واقعة الطرفية انسحب الشمريون إلى حائل، كما تراجع فيصل الدويش، إلى البادية[٦٢].

كانت الكتلة الموالية للسعوديين في بريدة تتقوى. وعندما اقترب ابن سعود مع

قواته من المدينة في أيار (مايو) ١٩٠٨ فتح له أنصاره بوابتها. والتجأ أبا الخيل والمحاربون المخلصون له إلى الحصن. ولكنهم طلبوا الصلح بعد أن أدركوا بأن لا أمل لهم في فك الحصار. وارتحل أبا الخيل إلى الكويت ومنها إلى العراق. وعين أحمد بن محمد السديري أميرًا لبريدة. وهو يمثل فخذًا مرتبطًا بالسعوديين من زمان.

وفي تلك الأثناء قتل سلطان بن حمود في حائل في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨. وتزعم الإمارة سعود بن حمود(٦٣).

وفي تشرين الأول تشرين الثاني (أكتوبر ـ نوفمبر) ١٩٠٨ جرت في الحجاز أحداث هامة. فقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى استبدال شريف مكة علي بن عبد الله بالشريف الحسين بن علي. وكان الحسين قد عاد إلى مكة وهو يداري رغبة خفية في ان يكون ملكًا للعرب أو أن يغدو، على أي حال، عاملًا جديًا في سياسة الجزيرة العربية.

وفي عام ١٩٠٨ بدأ جفاف مرعب في أواسط نجد استمر عدة سنوات كما يقول فيلبي(٦٤). ويتعارض قوله هذا مع ما كتبه بعض المؤرخين العرب. وعلى أي حال، ربما كانت الأمطار تهطل في مناطق أخرى، أما الجفاف فقد أصاب أواسط نجد بالذات(٦٥). وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين من سكان أواسط الجزيرة كانوا يعتقدون بأن الجفاف في أراضي عبد العزيز كان إشارة مباشرة إلى الغضب الالهي عليه. وكتب موسيل ان الكارثة الطبيعية ساعدت على التشوش العام في إمارة الرياض. إلا أن أمطارًا غزيرة سقطت في جبل شمر فتركت بعض القبائل عبد العزيز ونزحت إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة إمارة حائل(٦٦).

كان تدهور الزراعة وازدياد المجاعة وخراب البدو كل ذلك شدّد من عدم الاستقرار عمومًا وضعضع سلطة عبد العزيز التي لم تكن قد توطدت بعد. وكان من دلائل عدم الاستقرار في الإمارة التمرد الذي حدث ضد ابن سعود في منطقة الحريق حيث قتل الأمير الهزاني على يد منافسيه من العائلة نفسها. وحدث ذلك، على ما يبدو، في شباط ـ نيسان (فبراير ـ أبريل) ١٩٠٩. واجتاحت القلاقل المنطقة كلها، وتمكن عبد العزيز من إعادة النظام بشق الانفس.

ولم تصبح منزلة أمير الرياض في ممتلكاته نفسها راسخة تمامًا. فقد افاده عدم وجود خصوم أقوياء، إلا أن الاتجاهات اللامركزية والنزاعات القبلية الإقطاعية كانت تضعضع السلطة المركزية أحيانًا.

وفي الوقت الذي كان فيه أمير الرياض مشغولا بالشؤون الداخلية أخذ يهدده من الغرب الحسين شريف مكة الهمام. حرضته الحكومة العثمانية دومًا على العمل ضد نجد.

ولم ينس عبد العزيز انه محاط من الغرب والشمال والشرق بممتلكات عثمانية أو باتباع للأتراك معادين له. وكانت غزواته الجسورة البعيدة تدل على إمكانية بعث الدولة الوهابية في حدودها الشاسعة السابقة، الأمر الذي كان يثير قلق الأتراك وحكام الجزيرة المعتمدين على بريطانيا وعلى الأمبراطورية العثمانية سواء بسواء.

وفي عام ١٩١٠، استمرت العمليات الحربية على نطاق غير كبير ضد أبناء عم عبد العزيز الثلاثة الذين سماهم «بالعرايف». ولم تسفر تلك العمليات عن نتائج جدية، ولكنها كانت من عناصر عدم الاستقرار الداخلي الناجم عن تباطؤ توسع إمارة الرياض وعن الجفاف الفظيع.

وفي آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٩١٠، لبى عبد العزيز دعوة شيخ الكويت لمحاربة المنتفق وقائدهم سعدون باشا الذين كانوا آنذاك متحالفين مع الشمريين ضد الكويتيين. وفي حزيران (يونيو)١٩١٠، دحر سعدون باشا القوات السعودية الكويتية الموحدة فاستولت المنتفق على غنائم كبيرة.

كانت العلاقات المتبادلة بين جبل شمر والسلطات العثمانية في الحجاز تتطور بصورة مضطربة. وفي حزيران ١٩١٠، طرد زامل آل سبهان الفصيل التركي من واحة تيماء. إلا أن نوري بن شعلان استولى على الجوف في عام ١٩٠٩ واحتفظ بها لبعض الوقت وضغط بذلك على جبل شمر من الشمال والشمال الشرقي. ويبدو أن نوري بن شعلان وعبد العزيز قد أقاما تعاونًا متينًا جدًا ضد العدو المشترك.

وحاول الشريف حسين خلال عامين من حكمه أن يثبت ولاءه للباب العالي

فقام بحملة على عسير، في حين كان الأتراك مشغولين بإخماد انتفاضة الإمام يحيى في اليمن. واستولى على إقليم عسير لأجل الأتراك وعاد إلى مكة عبر واحات بيشة ورانيه وتربة الواقعة على حدود نجد وفرض سيطرته عليها.

وفي أواخر صيف ١٩١٠، جمع الشريف متطوعة من البدو ودخل نجد. وفي الطريق تمكن بالصدفة ان يأخذ سعد شقيق عبد العزيز أسيرًا. ولم يكن الحسين يتوقع حربًا كبيرة، ولم تكن قواته كافية. وصار المدعو خالد بن لؤي وسيطًا بين أمير الرياض وشريف مكة، وتعين عليه فيما بعد أن يلعب دورًا مهمًا في استيلاء النجديين على الحجاز. وبعد المفاوضات وعد عبد العزيز بأن يدفع للسلطان العثماني ستة آلاف ريال سنويًا ويؤكد سيادة الأتراك رسميًا على نجد. وبعد ذلك أطلق سراح سعد وعاد الحسين إلى مكة.

وبعد عقد الصلح مع شريف مكة توجه عبد العزيز إلى الحريق من جديد لإخماد التمرد الذي تزعمه هذه المرة أحد «العرايف». وقد أعدم جميع أفراد آل هزان الذين شاركوا في العصيان. إلا أن عبد العزيز عفا عن مدبر التمرد وهو قريبه سعود بن عبد الله بن سعود. وظل هذا يخدمه باخلاص مدى الحياة. وفر باقي «العرايف» إلى الحجاز حيث منحهم الشريف حق اللجوء.

في بداية عام ١٩١١، طلب منه شيخ الكويت مبارك ان يوجه ضربة إلى عدوهم المشترك ـ قبيلة الظفير. ولكنه في الوقت نفسه أخبر شيخ هذه القبيلة ابن سويط باقتراب قوات عبد العزيز وحرم غزوته من عنصر المباغتة. إلا أن شيخ الظفير هرب بعد أن أخبر ابن سعود بأن مبارك يلعب على الحبلين. كان حاكم الكويت يفرق بين قضيتين هما مساعدة آل سعود الضعفاء ضد إمارة جبل شمر القوية وبعث إمارة الرياض التي تحولت بسرعة إلى القوة الرئيسية في أواسط الجزيرة. ورغم التنافس الشديد ظل مبارك يخاطب ابن سعود كالسابق«يا ولدي». وكان عبد العزيز يجيبه «يا والدي».

وفي عام ١٩١٠، زار المعتمد السياسي البريطاني الكابتن شكسبير عبد العزيز. وأفاد بأن أمير حائل والإمام يحيى وحاكم عسير تكاتبوا من أجل تدبير تمرد على

الأتراك. كان عبد العزيز يريد طرد الأتراك من الأحساء وكان ينشد معونة الإنجليز في ذلك. وفي عام ١٩١١، كانت الحكومة العثمانية ما تزال تسمي حاكم حائل «بأمير نجد». بينما كان الإنجليز يخاطبون عبد العزيز في مكاتباتهم «بالشيخ عبد العزيز ابن الشيخ عبد الرحمن آل سعود».

كان الإقليم الشرقي يجلب دومًا انتباه حكام الرياض. ولم يكن الأمر يقتصر على اعتبارهم له ضيعة شرعية لهم. فإن واحات الأحساء الغنية والمداخيل الجمركية كان بوسعها ان تعزز الحالة المالية للسعوديين. وكان أمير الرياض بحاجة إلى منفذ على البحر.وكان الوضع في الأحساء ملائمًا لخطط عبد العزيز، لأن السكان المحليين يكرهون الأتراك. إلا أن ابن سعود كان يدرك من خبرة الحياة في الكويت ان الإنجليز هم القوة الرئيسية في الخليج.

زار ابن سعود الكويت في عام ١٩١١ وأجرى مباحثات ودية مع المعتمد البريطاني واتفق معه على التعاون. وتخلى حاكم الرياض عن كل الادعاءات في مسقط وعمان، وتقرر ان يسيطر على الأحساء والقطيف وجزيرة دارين ومرفأ العقير وان يحول الإنجليز دون تدخل أي دولة من جهة البحر. ومقابل ذلك كان يتعين على ابن سعود ان يعترف بالحماية البريطانية على إمارته وان لا يدخل في حرب بدون موافقة الحكومة البريطانية. ولم توقع هذه الاتفاقية رسميًا، ولكنها كانت تستجيب لطابع المباحثات السابقة ولنهج بريطانيا في عدم إعاقة عبد العزيز عن الاستيلاء على الأحساء، وللأحكام العامة في معاهدة ١٩١٥ المرتقبة. كانت بريطانيا في تلك الفترة تعتبر إمارة الرياض محمية فعلية أو محمية محتملة في إطار مجال نفوذها في حوض الخليج.

وفي عام ١٩١١، بدأت في عسير انتفاضة ضد الأتراك تزعمها محمد بن علي الإدريسي. وأرسل إليه عبد العزيز مساعدة عسكرية معينة. وأدّت مشاعر أهل عسير الدينية القديمة وتعاطفهم مع الوهابيين إلى تقوية التحالف بينهما.

وفي مطلع عام ١٩١٢، حاول الباب العالي، وهو منهمك بالحرب في أوروبا، ان يحصل على تأييد من أقاليمه البعيدة في الجزيرة العربية أو التأكد من وقوفها على

الحياد. وبعث إلى عبد العزيز وفدًا أثار فيما أثار مسألة إرسال قوات نجدية لدعم الحامية التركية في الأحساء. وأدرك ابن سعود ان الأحساء ستقع في القريب العاجل بيده كثمرة ناضجة.

وعندما منيت الحكومة العثمانية بهزيمة في البلقان حاولت باصرار ان تجعل من عبد العزيز حليفًا لها في الجزيرة. ووصل وفد تركي إلى الرياض كي يستشيره ويستمع إلى آرائه وشكاواه. ورد عبد العزيز على والي البصرة سليمان شفيق باشا بهذا الخصوص قائلًا: «إنكم لم تحسنوا إلى العرب، ولا عاملتموهم في الأقل بالعدل. وأنا أعلم أن استشارتكم اياي هي وسيلة استطلاع، لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي. وهاكم رأيي، ولكم أن تؤولوه كما تشاءون: إنكم المسؤولون عما في العرب من شقاق. فقد اكتفيتم بأن تحكموا وما تمكنتم حتى من ذلك. وقد فاتكم أن الراعي مسؤول عن رعيته. وفاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والاحسان. وفاتكم أن العرب لا ينامون على ضيم ولا يبالون إذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم». وفي الوقت نفسه اقترح عبد العزيز عقد مؤتمر للزعماء العرب في مدينة محايدة لتتهيأ لهم إمكانية الأعراب عن آرائهم. واقترح بأن يعيد الأتراك النظر في مواقفهم من العرب لأجل إيجاد شكل أكثر ملاءمة للحكم بمشاركة العرب. واقترح أمير الرياض بأن توجد في إطار الأمبراطورية العثمانية عدة دول عربية أو دولة عربية موحدة بزعامة أحد الحكام أو وحدات سياسية منفردة بزعامة حكام محليين يعملون بشكل ولاة عثمانيين يتمتعون بالحكم الذاتي. وكانت اقتراحات أمير الرياض متعارضة جدًا مع سياسة زعماء تركيا الفتاة التي حال ضعفها العسكري والسياسي دون الرد بحملة حربية على مقترحات عبد العزيز الجسورة.

وفي أواخر ربيع وأوائل صيف، قام الحسين، شريف مكة، بحملة أخرى على نجد بعد أن جمع المتطوعين من بدو عتيبة، بينما هجم محمد شقيق إمام الرياض على بدو عتيبة الخاضعين للحسين. وتوترت العلاقات بين الحاكمين إلى أقصى حد. ومنع الشريف النجديين من أداء حج عام ١٩١٢. وألب مخبرو الحسين سكان القصيم على الرياض، حتى أن حاكم القصيم ابن جلوى أعدم عددًا من أهاليه.

وتلقى عبد العزيز حقًا ضربة شديدة، إلا أن كراهية النجديين اتجهت بالدرجة الأولى ضد شريف مكة. وهكذا نشأ أساس النزاع الذي سينتهي فيما بعد باستيلاء النجديين على الحجاز.

نشوء حركة الإخوان

لم يكن لدى عبد العزيز سند متين وواسع بالقدر الكافي في أواسط الجزيرة رغم نجاحاته الأولى. فلم يكن يتمتع بدعم الدعوة الدينية السياسية التي رصت صفوف السكان وجعلتهم يلتفون حول آل سعود في عهد أجداده. كان آل سعود مرتبطين بفكرة دينية باركت النضال من أجل المركزية لصالح الأمير والوجهاء الحاكمين وباركت الغزوات تحت راية «الإسلام الحقيقي».

وفي تلك الأثناء ظهرت في نجد حركة الإخوان. ومن المستبعد أن يكون عبد العزيز من واضعي فكرة الإخوان أو من مؤسسي هذه الحركة. فإن المؤسسين الروحيين للحركة هم قاضي الرياض عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من آل الشيخ وقاضي الأحساء الشيخ عيسى والمدعو عبد الكريم المغربي الذي وصل إلى الجزيرة العربية في أواخر القرن التاسع عشر واستقر في منطقة صارت فيما بعد هجرة الأرطاوية.

وبالإضافة إلى الالتزام الصارم بالفرائض الأساسية الخمس في الإسلام كان الإخوان مطالبين بالاخلاص «لإخوانهم» في الدعوة وبالخضوع للإمام ومساعدة بعضهم بعضًا بكل الوسائل، وعدم التعامل مع الأوروبيين ومع سكان البلدان التي يديرها الأوروبيون.

ولا أحد يعرف التاريخ الدقيق لنشوء بلدة الأرطاوية الأولى، إلا أنها ظهرت، على ما يبدو، في النصف الأول من عام ١٩١٣. وفي الأول من آذار (مارس) ١٩٢٩ كتبت جريدة «ام القرى» لسان حال السعوديين التي تأسست بعد ضم الحجاز ان كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ هو تاريخ نشوء أول هجرة.

نشأت أولى «هجر» الإخوان حول مجموعة الآبار في الوادي ذي المراعي

الجيدة والأشجار الكثيرة. ويقع هذا الوادي على طريق القوافل من الكويت إلى القصيم في منطقة دير مطير التي هي من أقوى قبائل أواسط الجزيرة وأكثرها اعتزازا بنفسها.

وباع قسم من مطير طوعًا بعض إبلهم ومعدات الخيام الضرورية لنمط الحياة البدوي. واستقروا في منطقة الأطاوية وأخذوا يبنون المنازل بعد أن عزموا على ممارسة الزراعة وحدها ودراسة التوحيد. وانضم إلى مطير العريمات وهم فخذ من حرب قاموا بقسم كبير من البناء في الهجر لانهم يمتلكون المهارات اللازمة في الصنائع والبناء والزراعة خلافًا لسائر البدو.

وتحول التعاضد القبلي التقليدي إلى تعاضد بين الإخوان. فإذا فقد أحد أملاكه بسبب غزوة أو بسبب هلاك الماشية فإن الإخوان يجمعون له التبرعات.

ونشأت هجر كثيرة على أثر الأرطاوية. فقد انشأت عتيبة هجرة في «الغطغط» وقد دمرت فيما بعد. وفي عام ١٩١٨ ظهر عدد كبير من هذه الهجر في أرجاء نجد كافة. ولئن كان عدد هجر الإخوان ٥٢ هجرة في الجزيرة كلها في عام ١٩٢٠، فقد ازداد في عام ١٩٢٣ إلى ٧٢، وفي ١٩٢٩ بلغ ١٢٠ هجرة تقريبًا. وكتبت «ام القرى» في عام ١٩٢٩ ان عنزة أسّست ٧ هجر وشمر ١٦ وحرب ٢٢ ومطير ١٢ وعتيبة ١٥ وسبيع ٣ والسهول ٣ وقحطان ٨ والدواسر ٤ وبنو خالد ٢ والعجمان ١٤ والعوازم ٢ وبنو هاجر ٤ وآل مرة ٤ وهتيم ٣ والظفير ١. ولكنه حتى في أوج حركة الإخوان لم يستقر في الهجر إلا عشر او، في أفضل الأحوال، خمس البدو الرحّل.

وكان الجفاف ومصاعب الحياة البدوية، أي الضرورة الاقتصادية، من الدوافع التي جعلت البدو يستقرون ويتحولون إلى حضر. وكان نزوحهم إلى الشمال محدودًا بسبب عدم رغبتهم في الاعتماد على اهواء الأتراك ومن بعدهم الإنجليز.

وقد شجع ابن سعود عملية استقرار البدو وساعد الإخوان بالنقود والحبوب والأدوات الزراعية ومواد بناء المساجد والمدارس والهجر، كما بعث المطاوعة لتعليمهم. وبالإضافة إلى ذلك زود المحاربين بالسلاح والذخيرة للدفاع عن الدين.

وكان أمراء هجر يستلمون من عبد العزيز معونة نقدية ويتمتعون بحسن ضيافته. وكانت أسماء الأمراء تسجل في سجلات خاصة، وكان مقدار المعونة يحدد تبعًا لخدماتهم وعدد أتباعهم. وكان الإخوان المحاربون يتلقون مكافأة سنوية بعد أن تسجل اسماؤهم في سجلات ديوان ابن سعود. ان الشرط الرسمي للانتماء إلى الهجرة هو التخلي عن عادات والتزامات نمط الحياة العشائري. إلا أن هذا الشرط لم يكن يطبق عمليًا، فصار الاسكان في الهجر يجري في الغالب على أساس قبلي. وصارت هجر الإخوان في الواقع مقرات لشيوخ أكبر القبائل. وأخفقت محاولة ابن سعود لحرمان القبائل من زعمائها التقليديين بواسطة فرق الإخوان. وقد استقر فيصل الدويش زعيم مطير في الأرطاوية، كما استقر زعيم عتيبة في الغطغط، وسكن زعيم حرب في دخنة وسكن ابن جبريل وابن ثنيان زعيمًا شمر في الأجفر.

كان الحماس الديني لدى الإخوان يستهدف طاعة الله ويخدم بالطبع أولياءه في الأرض. وكان من المنتظر الثواب على جهودهم الدينية والدنيوية، كما في السابق، عن طريق غنائم الحرب ولكن ليس بشكل غزو بعض القبائل لبعضها الآخر أو النهب في الطرقات، بل في الجهاد ضد المشركين. واقترنت الضرورة الاقتصادية والاجتماعية لاستقرار البدو والانتقال إلى الزراعة بالتفاني الديني والحاجات العسكرية، إلا أن هذه المهمات يمكن أن تتعارض، ولذا دمرت بعض القرى ـ «الهجر». بديهي ان من المستبعد توقع تخلص البدو بسرعة من عاداتهم البدوية السابقة وتحولهم إلى زراع جيدين. ففي غالب الأحيان لم يكن الحماس الديني يكفيهم لأمد طويل من العمل في الحقول، لذا كانوا يرغبون في القتال من أجل التوحيد أكثر مما يرغبون في الزراعة.

وظلت باقية في قرى الهجر بعض الفوارق الطائفية بين القبائل «الرفيعة» التي تقدم المزارعين المقاتلين وبين القبائل «الوضيعة» التي كان يتعين عليها ممارسة الصنائع والبناء وتأمين مستلزمات القرى الجديدة. وبالفعل فإن العريمات التي استقرت مع مطير في الأرطاوية هي فخذ «وضيع» من قبيلة حرب التي تعتبر من أنبل القبائل في الجزيرة العربية.

وغالبًا ما كان الصنائع والباعة يعتبرون من الأشخاص الذين لا تشملهم الأعمال الحربية، وكان يتعين عليهم أن يصنعوا حدوات الجياد والسلاح والأدوات الزراعية ويصلحوها. وعندما تبدأ الحرب كانوا يبقون في القرى.

أما المطاوعة فكانوا يمثلون الفئة الاوطأ من علماء الدين والفقهاء الذين يجري اعدادهم في الرياض ومراكز أخرى. وكان هؤلاء المطاوعة في الواقع يؤدون في القرى دور دعاة ومخبري السلطة المركزية المتمثلة في علماء الرياض والأمير شخصيًا. وفي أكبر الهجر كان عبد العزيز يعين قضاة من آل الشيخ عادة.

وكان سكان الهجر الملزمون بالخدمة العسكرية يقسمون إلى ثلاث فئات تضم الأولى الأشخاص الذين في حالة تأهب واستعداد دائم للقتال والذين يلبون نداء الجهاد حالًا. وتضم الفئة الثانية الاحتياط. أما الفئة الثالثة فتتكون من الذين يظلون في القرى عندما تنشب الحرب، ولكن يمكن بقرار من العلماء ان يجندوا في جيش الأمير في الحالات الاستثنائية. وكان سكان الهجر يؤدون الخدمة العسكرية مع إبلهم وسلاحهم واغذيتهم. وكانت بعض الهجر فقط، وهي الواقعة في أواسط نجد، تستلم معونة من بيت المال للأغراض الحربية عندما تقدم عساكرها.

كان البدو الذين استوطنوا الهجر يعتقدون بأنهم انتقلوا من الجاهلية واعتنقوا الإسلام الحقيقي. وكانوا ينهمكون في نشر معتقداتهم بحماس كبير، حتى أنهم كانوا يضربون البدو والحضر الذين لا ينضمون إليهم ويعتبرونهم من الكفرة. ولان البدو كانوا في السابق بالفعل لا يعرفون من الإسلام إلا القليل، فإن هذا الانتقال، وكذلك استبدال العرف القبلي بالشريعة، قد اتسما بطابع مأساوي لدرجة ما. فقد أشار موسيل، مثلًا، إلى اشتداد المشاعر الدينية بين الرولة الذين شاركوا في فرق الإخوان. وعلى أي حال فإن الكثيرين من البدو صاروا يحفظون عن ظهر قلب سورة أو سورتين من القرآن.

من المعروف ان المتدينين الجدد أكثر حزمًا وتعصبًا في أداء الفرائض الدينية من المتدينين القدامى. ولذلك فإن البدو الذين لم يعرفوا الإسلام سابقًا أو الذين يعرفون عنه القليل جدًا صاروا يؤدون فرائضه كالصلوات الخمس بحماس شديد

وأخذوا يضربون بالعصي من يتنصل عن أدائها. ولكي يميز الإخوان أنفسهم عن سائر المسلمين الذين اعتبروهم «مشركين» صاروا يرتدون عمامة بيضاء بدلًا من الكوفية العادية، كما أخذوا يحلقون شواربهم ويقصرون لحاهم، ويصبغونها بالحناء أحيانًا. وقصروا دشداشتهم حتى بالكاد صارت تغطي الركبتين. ومنع الإخوان الموسيقى أيًا كانت، ما عدا طبول الحرب، ولم يشربوا القهوة لانها لم تكن معروفة في زمن النبي، وتحاشوا التدخين كما يتحاشون السم. وكان تعاطي الكحول محرمًا بالطبع، وكذلك الحرير والنقوش الذهبية على الألبسة الرجالية. وصبت اللعنات على القمار وقراءة الفأل والألعاب السحرية. ونشير هنا إلى الطابع التعادلي للكثير من محظورات الإخوان الدينية والمعيشية، وكان ذلك شكلًا لاحتجاج بسطاء أبناء الشعب على «أبهة» الطبقات الحاكمة (حسب مقاييس الجزيرة العربية).

وكان الإخوان يطلقون نعت «المشركين» على جميع الذين لا يؤيدونهم من أهالي المدن والواحات والبدو. وباسم تجديد الدين قامت فرق الإخوان بقساوات كثيرة مع أن تعصبهم قوى القدرة الحربية لقوات ابن سعود. ويعتقد ديكسون ان نظام الفروسية البدوي تضعضع في الفترة بين ١٩١٣ و ١٩٣٠ بسبب حركة الإخوان.

واكد مؤلفون كثيرون ان ابن سعود نفسه لم يكن متعصبًا قط. وقد انتفع من حركة الإخوان واستخدمها متجاوزا بمهارة مطالبها المتطرفة. وإبّان الحرب العالمية الأولى وافق ابن سعود على الحماية البريطانية واستلم معونات شهرية من الحكومة البريطانية وادعى بأن ذلك مجرد جزية كالتي كان المسيحيون يدفعونها للخلفاء الأوائل ولكنه حتى في المرحلة الأولى من مراحل حركة الإخوان لم يكن ابن سعود يثق بهم حتى النهاية، وذلك بحكم منحدرهم البدوي وبحكم الإفراط في انتشار السمات التعادلية في حركة الإخوان من وجهة نظر الإقطاعي الكبير. وفي حاشية أمير الرياض كان قريبه ونصيره عبد الله بن جلوى من أشد معارضي الإخوان.

ضم الأحساء

عندما علم عبد العزيز بهزيمة الأتراك في حرب البلقان أخذ يستعد لحملة على الأحساء. وفي مطلع عام ١٩١٣، وصل إلى القصيم وأعلن التعبئة العامة.

في تلك الأثناء كان الإخوان من ضمن قواته، ولكنهم لا يشكلون الأغلبية. وبعد أن جمع حضر نجد والبدو المنضمين إليه توجه إلى الأحساء. وقبل ان يبدأ هذه الحملة تقابل مع الضابط الإنجليزي ليتشمان، ولعله اخبره بخطة الهجوم على الأتراك.

كان سكان الأحساء الذين ارهقهم ابتزاز الأتراك وظلمهم ينظرون إلى النجديين كمنقذين لهم. ومنذ عام ١٩٠٣، كتب قنصل روسيا في البصرة ان المتصرف العثماني في الأحساء «جعل سكان هذا السنجق العرب في حالة ارهاق بالغ بسبب تعنته وطيشه».

وكتبت القنصلية الروسية في البصرة «إن سلطة الأتراك على الأحساء كانت وهمية. وقد انتهت تقريبًا خارج حدود المدن..

وفي بداية أيار (مايو) جمع ابن سعود حوالى ٨ آلاف من الأعراب المسلحين جيدًا واقتحم الأحساء بغتة وقام بهجوم على الهفوف. ولم يجد صعوبة كبيرة في احتلال المدينة».

بدأ الهجوم على المدينة في الليل بواسطة جذوع النخيل والحبال والسلالم المجهزة مسبقا. وسرعان ما سقطت المدينة وكذلك حصن الكوت، ما عدا مسجد إبراهيم باشا في داخل الحصن. والتجأ المتصرف وقسم من حاميته إلى المسجد. وكان مجموع الأتراك في الهفوف آنذاك ١٢٠٠ شخص.

وقرر المتصرف ان يضع السلاح. وتم اخلاء الحامية تحت حراسة مفرزة قادها أحمد بن ثنيان، وهو من أقرباء عبد العزيز الابعدين. ثم استولى النجديون على القطيف. وصار الإقليم الشرقي تحت سلطة ابن سعود. وكتبت القنصلية الروسية في البصرة «من المحتمل تمامًا ان يكون ذلك كله قد حدث ليس بدون علم الإنجليز، وربما ليس بدون نصائحهم، فإن دسائسهم بين الشيوخ العرب معروفة جيدًا».

ولم يضيع حاكم الرياض الوقت فأخذ «يروض» الشيعة المعادين تقليديًا للسعوديين. وعين عبد العزيز عبد الله بن جلوى حاكمًا للأحساء، وأخذ هذا ينكل بنشطاء الشيعة دون رحمة وخصوصًا في القطيف.

كانت عائدات الإقليم في عهد الإدارة العثمانية تعادل ٣٧ ألف ليرة سنويًا، بينما بلغت نفقات الحاميات والإدارة ٥٢ ألفًا. إلا أن عائدات الأحساء، كما يعتقد القنصل الروسي في البصرة، يمكن زيادتها، وهذا ما عزم عليه عبد العزيز. فقد طرد التجار الأجانب من الأحساء والقطيف وفرض ضريبة بنسبة ٨٪ على كل الواردات التي تصل إلى الإقليم الشرقي من جهة البحر واجتث عبدالله بن جلوي بيد من حديد النهب على طرق القوافل فاستطاع التجار ان يتجولوا في الإقليم بأمان نسبيًا.

لقد انتزعت إمارة الرياض من الأمبراطورية العثمانية إقليمًا غنيًا نسبيًا من أقاليم الجزيرة العربية وحصلت على منفذ إلى الخليج من الكويت حتى قطر. إن أهمية الأحساء بالنسبة لإمارة الرياض تفوق التقدير. فالأراضي التي كان السعوديون يسيطرون عليها حتى ذلك الحين كانت خالية من أي موارد طبيعية. وكان محصول التمور في حدودها بالكاد يكفي لسد حاجة الحضر والبدو. ولم تكن الحبوب كافية، وكانت الإمارة بحاجة إلى استيرادها. وكان السكان الحضر يعتمدون كليًا على استيراد الأقمشة. وكانت القوات بحاجة إلى مشتريات السلاح من الخارج. وقد أمن الاستيلاء على إقليم الأحساء والحصول على منفذ إلى الخليج قوة حيوية للدولة السعودية واستمرار تطورها.

ولم تقف بريطانيا التي تؤمل في تحويل الدولة السعودية إلى محمية لها في آخر المطاف حجر عثرة أمام طرد الحامية التركية من الأحساء. وقد قام المندوب البريطاني في البحرين بزيارة مجاملة لعبد العزيز في مرفأ العقير بعد سقوط الأحساء. وفي أواخر عام ١٩١٣، زار الرياض المعتمد السياسي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير الذي كان قد تقابل مع ابن سعود سابقًا. وقد ناقش مع أمير الرياض هذه المرة الوضع العام فقط لانه لم يكن يتمتع بصلاحيات أخرى.

بيد أن بريطانيا كانت تلعب على الحبلين. ففي حزيران (يونيو) ١٩١٣، وقعت بين السفير العثماني إبراهيم حقي باشا ووزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي اتفاقية رسم الحدود بين ممتلكات الأمبراطورية العثمانية والمحميات البريطانية على الساحل العربي من الخليج ـ الكويت والبحرين وإمارات ساحل الصلح البحري.

وكانت كل هذه الأراضي مرتبطة على نحو ما بالأحساء التي لم يرد لها ذكر في الاتفاقية. وهذا يفترض رسميًا انها كانت جزءًا من الأمبراطورية العثمانية.

وفي آذار (مارس) ١٩١٤، وافقت بريطانيا والأمبراطورية العثمانية على اقتسام شبه الجزيرة العربية. ونصت شروط المعاهدة على أن تمتد الحدود بين ممتلكات كلتا الدولتين بشكل خط مستقيم من شبه جزيرة قطر عبر بوادي أواسط الجزيرة العربية حتى الحدود بين محمية عدن واليمن. وكان كل ما يقع شمالي هذا الخط ملكًا للعثمانيين، بما في ذلك نجد فضلًا عن الأحساء، وكل ما يقع جنوبيه يعتبر من الأراضي البريطانية. وبالمناسبة فقد فقدت هذه المعاهدة قيمتها باندلاع الحرب العالمية الأولى.

وبعد سقوط الأحساء جرت مباحثات بين عبد العزيز وممثلي السلطات العثمانية. ولم تكن لدى الباب العالي القوى والنقود اللازمة لاستعادة الإقليم المفقود. وكان كل ما يريده الأتراك هو «الحفاظ على ماء الوجه». وكتبت القنصلية الروسية في البصرة في ٢٧ أيار (مايو) ١٩١٤، «إن إرسال فيلق عمليات إلى الأحساء في الوقت الحاضر غير ممكن إطلاقًا بالنسبة للأتراك، فليس لديهم العدد الكافي من الجنود لا في بغداد ولا في البصرة. زد على ذلك ان الحكومة البريطانية التي تتابع ببالغ الاهتمام كل ما يجري في الأحساء ستحاول... إعاقة الأتراك عن ترسيخ أقدامهم من جديد على سواحل الخليج».

وقد وافق أمير الرياض شفويًا، كما يقول فيلبي، على الاعتراف بسيادة السلطان العثماني على أراضيه مقابل الأسلحة والنقود التركية.

ويؤكد الباحث الأميركي ترولير بصورة قاطعة انه تم توقيع معاهدة عثمانية سعودية رسمية في ١٥ أيار (مايو) ١٩١٤ نصت، فيما نصت، على «إن ولاية نجد يجب أن تبقى تحت حكم عبد العزيز باشا آل سعود طوال حياته بموجب فرمان سلطاني. وبعد وفاته ينتقل الحكم إلى أبنائه وأحفاده بفرمان سلطاني بشرط أن يبقى الأمير مواليًا للحكومة العثمانية ولأجداده». ونصت المادة ٧ على أن يرفع العلم التركي فوق كل دوائر الدولة وكذلك فوق السفن العائدة لولاية نجد. وجاء في المادة ٩ «ان

الوالي (الحاكم أو القائد) المذكور لا يحق له التدخل في الشؤون الخارجية ولا عقد المعاهدات الدولية ولا منح الامتيازات للأجانب». ونصت المادة ١٢ على أن حاكم نجد يجب أن يحارب إلى جانب الأمبراطورية العثمانية.

ويعتقد فيلبي ان عبد العزيز صار، مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، في حل من «التعهد الشفوي» للأتراك. وعلى أي حال فإن سلوك أمير نجد منذ بداية العمليات الحربية كشف عن عدم تقديره لتعهداته أمام السلطان العثماني وعن قلة المرتكزات التي كان بوسع الأتراك استخدامها لحمله على العمل في صالحهم. وأكدت مذكرة حكومة العربية السعودية انه لا توجد في الأرشيفات السعودية أي وثيقة تشير إلى توقيع الاتفاقية السعودية التركية. ان عدم وجود مثل هذه الوثيقة في الأرشيفات السعودية، ان لم تكن موجودة فعلًا، فلا يدل على شيء. فبدلًا من الاتفاقية التحريرية يمكن أن يوجد اتفاق شفوي ينفذه الطرفان إذا كان في صالحهما. وعلى أي حال فقد قدم ترولير النص الكامل للمعاهدة التركية النجدية مع أن توقيع عبد العزيز غير موجود عليه بالفعل.

وكان المسؤولون في الآستانة يدركون بأنهم فقدوا السيطرة الفعلية على نجد والأحساء رغم المعاهدة مع بريطانيا بشأن اقتسام الجزيرة العربية ورغم تعهدات ابن سعود الشفوية بولائه للسلطان. ولذلك أخذت السلطات العثمانية تعمل على تقوية جبل شمر، حيث وعدوها، مثلًا، بتقديم ١٠ آلاف بندقية وأغذية ونقود. واقتنع عبد العزيز مرة أخرى بأن الآستانة تعول على حائل وان الخطر التركي المحتمل على إمارة الرياض ما يزال قائمًا.

الفصل العاشر

نجد والحجاز إبّان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)

قبيل الحرب العالمية الأولى ازداد نفوذ ألمانيا في الأمبراطورية العثمانية لدرجة كبيرة. فبعد تردد قصير علق ثلاثي تركيا الفتاة الآمال على برلين ودخل الحرب ضد بلدان الوفاق. وبنتيجة مغامرة القيادة التركية بلغت الأزمة السياسية داخل الأمبراطورية العثمانية نقطة حرجة فطرح سكان أغلب الأقاليم غير التركية، وبالدرجة الأولى البلدان العربية، مطلب تقرير المصير. إلا أن دول الوفاق كانت تعتبر الأمبراطورية المحتضرة كلها غنيمة استعمارية لها، وتعتبر القوميين العرب حلفاء مؤقتين خاضعين.

استمرت المعارك الدموية في الشرق الأدنى زهاء أربعة أعوام. وأنجرت إليها بدرجات مختلفة جميع بلدان شبه الجزيرة العربية تقريبًا، مع أن الجزيرة كانت مسرحًا لعمليات حربية من الدرجة الثالثة بمقاييس الحرب العالمية.

منذ بداية العمليات الحربية ضد الأمبراطورية العثمانية كانت المهمتان الفوريتان لبريطانيا هما مواصلة السيطرة على مصر وقناة السويس والبحر الأحمر، وكذلك الاستيلاء على رأس جسر في شط العرب ـ مصب دجلة والفرات لتأمين حماية حقول البترول في إيران من الهجوم التركي الألماني المحتمل. وقد أمن حل المهمة الأولى وجود القوات البريطانية في مصر وسيطرتها على مشارف القناة من جهة سيناء، أما حل المهمة الثانية فأمنه انزال فيلق الحملات في وادي الرافدين. وفي

عدن جرى تعزيز الحامية وإرسال إمدادات من القوات الأنكلوهندية بغية احتفاظ بريطانيا بالمرفأ الاستراتيجي الهام، مع عدم التورط في عمليات حربية نشيطة ضد القوات العثمانية التي اقتحمت اليمن الجنوبي.

ومن بين جميع حكام شبه الجزيرة العربية حظي شريف مكة الحسين بأكبر الاهتمام لدى الحلفاء الذين علقوا عليه آمالا تحققت فيما بعد بقدر ما. فقد كان الحسين بوصفه من العائلة الهاشمية المتحدرة من قريش من أكبر المتنفّذين في العالم الإسلامي. وكان يعتبر من أحفاد النبي وسادن الحرمين الذي عين في هذا المنصب بفرمان من السلطان العثماني. كان الإنجليز يخشون من أن دعوة السلطان العثماني للجهاد ضد المسيحيين، وبالتالي ضد الإنجليز والفرنسيين يمكن أن تؤثر على مصر والهند وشمال إفريقيا والمستعمرات الأخرى التي يقطنها المسلمون. وكان الحلفاء يعتقدون بأن تأييد الحسين لدعوة الجهاد من شأنه ان يقوي تأثيرها. صحيح ان دعوة السلطان كان لها صدى محدود، واتضح ان المخاوف بشأن تأثيرها كان مبالغا فيها.

وخلال العامين الأولين من العمليات الحربية في وادي الرافدين منيت القوات الأنكلوهندية بعدة هزائم على يد القوات التركية التي كان فيها عدد غير قليل من العرب. وفي هليبولي حيث اندحرت قوات الحلفاء أيضًا كان في الفرق التركية عرب من رعايا الأمبراطورية العثمانية. ولذلك كان تشجيع الحركة القومية العربية ذات الصبغة الدينية يستجيب في تلك الأثناء للمصالح البريطانية والفرنسية.

إمارة نجد والحرب العالمية الأولى- المعاهدة الأنكلونجدية

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، بعث أمير الرياض عبد العزيز رسائل إلى الشريف حسين، وسعود بن صالح، في حائل، والشيخ مبارك الصباح في الكويت. واقترح عليهم عقد لقاء للحكام العرب، للحيلولة دون جر العرب إلى العمليات الحربية، وتوقيع معاهدة مع الدول الكبرى، لضمان تقرير المصير للدول العربية. ولم تكن مصالح مختلف الأمراء العرب متوافقة آنذاك، لذا تعذر وضع منهاج مشترك.

فقد رد حاكم حائل بأنه سيقاتل ضد الذين يقاتلون الأتراك، وسيتصالح مع الذين يتصالحون معهم.

ووصل إلى نجد، مع بلاد الرافدين، مبعوث السلطات العثمانية، طالب النقيب، الذي تقابل مع عبد العزيز في بريدة، ولكن مهمته أخفقت لان القوات البريطانية احتلت البصرة آنذاك. وتوجه من المدينة المنورة، في الوقت نفسه، وفد تركي آخر ومعه دليل، من الوزن الثقيل، على رغبة السلطات العثمانية في استمالة عبد العزيز إلى جانبها. فقد حمل الوفد ١٠ آلاف ليرة ذهبًا. وحاول أحد أعضاء هذا الوفد، وهو مؤرخ الحجاز والجزيرة العربية محمود شكري الالوسي، إقناع عبد العزيز بتأييد الأتراك. وتملص عبد العزيز عن تقديم أي وعود قائلًا إنه عاجز عن مقاومة الإنجليز، ولكنه وعد بعدم إعاقة تجار نجد عن تزويد الجيش التركي بالأغذية. وطوال الحرب كلها كانت القوافل التركية المحملة بالسلاح والذخيرة تجتاز أراضيه من الشام إلى عسير واليمن.

إلا أن الإنجليز، رغم اعتمادهم على الحسين، ما كان بوسعهم أن يتجاهلوا أمير نجد. ففي تلك الفترة كانت ممتلكات عبد العزيز تنبسط من الكويت وجبل شمّر حتى حدود صحراء الربع الخالي، ومن الخليج حتى الحجاز. وكانوا يريدون من عبد العزيز شيئًا واحدًا هو ان يشل صنيعة الأتراك أمير حائل الذي يهدد جناح الجيش البريطاني، في جنوب وادي الرافدين.

وعندما بدأت العمليات الحربية في الشرق الأدنى، استدعى المعتمد البريطاني في حوض الخليج كوكس مخبره الموهوب الكابتن شكسبير من إجازته وأرسله إلى نجد. وحالما وصل شكسبير إلى الرياض، أصر على أن يبدأ الأمير النجدي العمليات الحربية ضد الشمريين. وفي بداية كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، توجه عبد العزيز نحو الشمال، على رأس قوات بألف وخمسمائة شخص، أغلبهم من سكان واحات العارض. وفيما بعد انضم إليه محاربون من مطير والعجمان وسبيع والسهول. وتوجه للقائه سعود بن صالح حاكم حائل، وكان معه، هو الآخر، ألف وخمسمائة شخص

تقريبًا. (حتى ذلك الحين قتل زامل السبهان). ويصعب اعتبار هذه الأرقام صحيحة، ولكنها تبين، على وجه التقريب، نطاق العمليات.

وكانت عند عبد العزيز عدة مدافع يقود بطاريتها الكابتن شكسبير، مع أن روايات أخرى تقول ان شكسبير كان مجرد مراقب. ويبدو أن ابن سعود ما كان يريد لانجليزي اصلا، ناهيك عن أنه إنجليزي رفض ارتداء الزي العربي، ان يوجد ضمن قواته في وقت انتشر فيه أكثر فأكثر تعصب الإخوان. وحاول الأمير إقناع المبعوث البريطاني ان يبقى في الزلفى، ولكن هذا الأخير أصر على المشاركة في الحملة، وربما كان يعتقد بأن القضية تمس شرفه، أو ربما كان ذلك لأجل التأكد من نوايا عبد العزيز والحيلولة دون تنصله عن القتال.

وفي أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، تصادمت قوات الطرفين قرب بئر جراب شمالي الزلفى. وبدأت معركة استمرت عدة أيام. وتفيد بعض المعطيات ان الشخص الوحيد الذي قتل هو الكابتن شكسبير، وتفيد معطيات أخرى ان الطرفين فقدا مائة شخص لكل منهما. وكان محاربو عبد العزيز المتأثرون بميول الإخوان تأثرًا شديدًا يطلقون صيحاتهم الحربية. أما الشمريون الذين يشكلون أساس قوات حاكم حائل فقد كانوا يقاتلون وسط صيحات قبيلتهم الحربية التي تطلقها فتيات حسناوات جالسات على الإبل بشعور مسترسلة. وهذه الوقائع ذات دلالة ليس فقط لانها تشكل مشهدا صغيرا من حرب نشبت في أوروبا واستخدمت فيها المدفعية والغازات السامة والطائرات ثم الدبابات. فبالنسبة للجزيرة العربية تجدر الإشارة إلى أن واقع انتقاء صيحات الحرب يبين اختلاف قاعدتي الأميرين: القاعدة القبلية لجبل شمر والقاعدة العربية العامة المستندة إلى التوحيد الوهابي عند الإخوان لإمارة نجد. كان الشمريون يستنهضون بعضهم بعضًا بصيحات جد قبيلتهم، أما المحاربون السعوديون فكانوا يستعينون بالجنة الموعودة في حالة الممات.

وانتهت المعركة بتعادل الطرفين. إلا أنها جعلت أمير الرياض طوال عامين أو ثلاثة يرفض الدخول في حرب كبيرة.

تمكن شكسبير من إجراء مباحثات سياسية مع عبد العزيز. فوضعا مسودة معاهدة التزم الإنجليز بموجبها بضمان مواقع أمير الرياض في نجد والأحساء وحمايته من الهجمات بضمان مواقع أمير من جهة البحر والبر إذا التزم بمساعدة الحلفاء. وتخلى الإنجليز عن سياستهم القديمة لعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية. والزمت المعاهدة ابن سعود بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية. وتبين الدراسة التي أجراها ترولير لوثائق الأرشيفات الإنجليزية ان عبد العزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية في الجزيرة العربية. فبعد مقارنة النص الأولي للمعاهدة الذي اقترحه الإنجليز مع التعديلات، تأكد ترولير من أن جميع اعتراضات أمير نجد تهدف إلى تقوية استقلاليته وتقليل تحكم بريطانيا بسياسته.

وعندما كان ابن سعود يتباحث مع شكسبير وصل إلى نجد مبعوثون أتراك كانوا ما يزالون يؤملون في اجتذاب الإمام للمشاركة في الجهاد ضد الكفرة.

وفي ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥، وقع بيرسي كوكس مع عبد العزيز المعاهدة في جزيرة دارين المقابلة للقطيف. ولذا سميت المعاهدة بمعاهدة دارين أو معاهدة القطيف. وصادق على المعاهدة نائب ملك بريطانيا وحاكم الهند في تموز (يوليو) ١٩١٦. وقبيل توقيع المعاهدة بين بيرسي كوكس وعبد العزيز قدم الإنجليز، كما يقول فيلبي، هدية إلى أمير الرياض هي ألف بندقية و ٢٠ ألف جنيه استرليني وسمحوا له بشراء ذخيرة حربية في البحرين.

واعترفت الحكومة البريطانية بأن سيادة عبد العزيز تشمل «نجد والأحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات» والتزمت «بحماية مصالحه ومصالح بلاده» بعد مشاورات مناسبة. ونصت المادة الثالثة من المعاهدة على ما يلي: «يتعهد ابن سعود أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أي حكومة أو دولة أجنبية». وأكدت المادة الرابعة ان أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن الأراضي أو جزء منها ولا ان يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأي شكل ولا ان يقدمها على سبيل الامتياز إلى أي دولة أجنبية أخرى أو لأي أحد من رعايا

دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وتقول المادة السادسة: «يتعهد ابن سعود كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودين تحت حماية إنجلترا والذين لهم معاهدات معها». ولم يرد في المعاهدة شيء عن الحدود الغربية لنجد. وهكذا فرضت هذه المعاهدة في الواقع الحماية البريطانية على نجد وتوابعها. وصارت هذه المعاهدة جزءًا من شبكة النفوذ البريطاني التي أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من الشرق الأدنى، وعلى أي حال، على الجزيرة العربية كلها بعد الحرب العالمية الأولى. وفيما بعد، واعتبارًا من عام ١٩١٦، استلمت نجد، مقابل توقيع المعاهدة، معونة شهرية بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرليني، مع إرساليات معينة من الرشاشات والبنادق.

انتفاضة العجمان

كان العجمان طوال خمسين عامًا تقريبًا من أصعب القبائل على السعوديين، وقد خضعوا للحكومة المركزية على مضض. وعلى أثر معركة جراب نهب العجمان بعض القبائل التي كانت خاضعة لحاكم الكويت. وقد بعث حاكم الكويت رسالة إلى عبد العزيز يطلب فيها منه معاقبة العجمان. وكانت تلك هي الحجة المنشودة. إلا أن أمير الرياض ما كان يثق بحاكم الكويت وكان يخشى أن تغير الكويت موقفها أثناء حملته على العجمان وتغدو ملجأ لهم.

وفي صيف ١٩١٥، توجه عبد العزيز، قبل أن يوقع الاتفاقية مع الإنجليز، إلى الأحساء على رأس فصيل من ٣٠٠ شخص. وانضم إليه متطوعون محليون. ولحق بالعجمان في أيار حزيران (مايو ـ يونيو) ١٩١٥ عند جبل كنزان، إلا أن العجمان كانوا مستعدين للمعركة فواجهوه بمقاومة شديدة. وفقد النجديون حوالى ٣٠٠ شخص بمن فيهم سعد شقيق الأمير عبد العزيز، ثم أن الأمير نفسه جرح في هذه المعركة. وبعد هذا الإخفاق اضطر إلى الانسحاب إلى واحات الأحساء. وكان الوضع خطيرًا لدرجة جعلته يلتجىء إلى حصن الكوت في الهفوف. وأخذ العجمان ينهبون

الواحات المجاورة وظلوا يحاصرون عبد العزيز حوالي ستة أشهر، حتى أيلول ـ تشرين الأول (سبتمبر ـ أكتوبر) ١٩١٥. وساعدهم بعض الأمراء المحليين و«العرايف».

ولم يسفر عن نتيجة عاجلة طلب المساعدة من شيخ الكويت. وبعد تكرار الطلب بعث مبارك ابنه سالم مع مائتي من المحاربين لنجدة عبد العزيز. وفي بداية العام التالي صار عبد العزيز قادرًا على مغادرة الهفوف والبدء بالهجوم على العجمان. وسرعان ما اختلف عبد العزيز مع سالم بن مبارك فعاد هذا الأخير إلى الكويت. ووصل العجمان إلى الكويت يلاحقهم ابن سعود الذي صدقت شكوكه، فقد التجأت هذه القبيلة إلى مبارك الذي آواها. وفي بداية كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ توفى مبارك وصار شيخًا للكويت ابنه جابر الذي كانت له علاقات طيبة مع عبد العزيز منذ عهد الغزوات المشتركة. وطرد الشيخ الجديد العجمان من أراضي إمارته. فتحسنت العلاقات بين نجد والكويت لفترة ما. ولكن جابر توفى في عام ١٩١٧ فصار أخوه سالم شيخًا للكويت، وهو ضد ابن سعود.

في عام ١٩١٦، وصل سعود بن صالح من حائل على رأس قوات إلى القصيم وحاول الاستيلاء على بريدة ليستعيد سيطرته على الإقليم، ولكنه مني بالهزيمة. فإن إمارة جبل شمر كانت تتدهور رغم دعم العثمانيين.

انتفاضة الحجازيين ضد الأتراك

تناولت المطبوعات السوفييتية والغربية والعربية بشكل جيد موضوع الانتفاضة العربية بقيادة الشريف حسين ضد الأمبراطورية العثمانية والملابسات المرتبطة بتقسيم الأمبراطورية العثمانية وحنث الإنجليز بالوعود والالتزامات التي أخذوها على عاتقهم. لذا نكتفي هنا بسرد الأحداث بالخطوط العريضة مركزين على نجد التي نشأت فيها نواة المملكة العربية السعودية.

ان الاهتمام بالانتفاضة العربية ضد الأتراك في المطبوعات الغربية التاريخية والأدبية كبير إلى حد الافراط، وذلك بالارتباط بشخصية الكولونيل لورنس الذي وصل من القاهرة بمثابة ضابط ارتباط إلى شريف مكة في تشرين الأول (أكتوبر)

١٩١٦. وبعد انتزاع مدن صغيرة من الأتراك على ساحل البحر الأحمر توجهت فصائل البدو إلى شمال الحجاز لتستولي على ميناء العقبة. وفي معركة مهمة على مشارف العقبة، حيث حسم الأمر زعيم بدوي شجاع ماهر، كان لورنس في حالة جنونية يطلق النار بصورة عشوائية فقتل ناقته باطلاقة في رأسها وسقط مغشيًا عليه. ودحر البدو الفصيل التركي الصغير الذي سد عليهم الطريق إلى العقبة واستولوا على المدينة. ثم اقتصرت عمليات الجيوش العربية على محاربة الأتراك شرقي نهر الأردن وعلى عمليات التفجير على السكة الحديدية والتي شارك فيها لورنس بنشاط. بديهي ان انتفاضة العرب ساعدت على انتصار الحلفاء وحقنت دماء الجنود البريطانيين. إلا أن العرب ضحوا بحياتهم في الواقع لكي يقتسم المستعمرون فيما بعد البلدان العربية. وكان لورنس يعرف هذه الحقيقة ومع ذلك دفع عرب الجزيرة إلى الموت. وكتب لورنس يقول: «بما أني لم أكن أحمق نهائيًا فقد رأيت أنه إذا انتصرنا نحن في الحرب فإن وعودنا للعرب ستكون حبرًا على ورق. ولو كنت مستشارًا نزيهًا لبعثت رجالي إلى ديارهم ولما سمحت لهم بالمجازفة بحياتهم من أجل هذه القضية. إلا أن الحماسة العربية كانت أداتنا الرئيسية لنكسب الحرب في الشرق. لذلك أكدت لهم أن إنجلترا ستبقى على العهد نصًا وروحًا... ولكنني، بالطبع، كنت على الدوام أشعر بالمرارة والخجل».

وتجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن اهتمام الحلفاء بشريف مكة في الحرب العالمية الأولى كان أكثر بكثير من اهتمامهم بأمير نجد. وفي المنطقة بين معان واليمن كان هناك حوالى أربع فرق تركية تقيد الانتفاضة العربية.

كانت سياسة الشريف حسين مرتبطة بنهوض حركة التحرر الوطني في المناطق العربية من الأمبراطورية العثمانية. وفي مطلع القرن العشرين ظهرت في الأمبراطورية العثمانية مختلف الجمعيات والمنظمات للدفاع عن حقوق العرب. وكان الكثيرون من القوميين العرب في بداية القرن العشرين يتصورون بسذاجة ان بريطانيا وفرنسا يمكن أن تساعدا بنزاهة العرب في التحرر من نير الأتراك. وقد خابت آمالهم بمرارة، كما ان البعض منهم دفعوا حياتهم ثمنًا لقصر نظرهم.

وقد تسلح أنصار تركيا الفتاة بالفكرة التركية القومية الشوفينية وأخذوا يتهمون العرب بالعمل لصالح الاجنبي.

وفي حزيران (يونيو) ١٩١٣، عقد المؤتمر العربي في باريس حيث نوقشت حقوق العرب في الأمبراطورية العثمانية. وأصر المشاركون فيه، وأغلبهم من السوريين، على ضرورة الإصلاحات بموجب المبادىء اللامركزية. وكان أنصار تركيا الفتاة قلقين من حركة التحرر الوطني العربية فلجأوا إلى التنكيل. ومع أن الحكومة العثمانية أصدرت في آب (أغسطس) ١٩١٣ مرسومًا نص، فيما نص، على توسيع حقوق هيئات السلطة المحلية والتدريس باللغة العربية في الولايات التي يشكل العرب أغلبية سكانها، فإن كل هذه الإصلاحات ظلّت حبرًا على ورق.

وعندما أعلنت الحكومة العثمانية الجهاد في بداية الحرب حاولت ان تشرك شريف مكة به. وتواردت عليه الرسائل طالبة منه ان يعلن تأييده للجهاد. وكان الحسين يتملص من الجواب متحججًا بضعف مواقعه أمام ضربات الإنجليز وبخطر المجاعة في حالة محاصرة سواحل الحجاز. وفي البرقيات التي أرسلت إلى وزير الحربية التركي أنور باشا الذي كان في الواقع بمثابة رئيس الحكومة طالب حاكم مكة بالاعتراف باستقلال الحجاز والعفو عن القوميين العرب المسجونين. وما كان بوسع الحكومة التركية ان تلبي هذه المطالب.

وقبل بداية الحرب أقام حاكم مكة علاقات مع الإنجليز عن طريق القاهرة. وكان عبد الله ابن الشريف حسين، وهو عضو في المجلس العثماني، قد تقابل مرتين مع المندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كيتشنير (في ١٩١٣ وفي بداية ١٩١٤).

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عين اللورد كيتشنير وزيرًا للحربية، وشغل هنري مكماهون منصبه في مصر. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، بدأ ستورس سكرتير الشؤون الشرقية لدى المندوب السامي البريطاني في مصر وكلايتون مدير المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة بوضع خطة انتفاضة العرب إلى جانب دول الوفاق. وفي منتصف تشرين الأول (أكتوبر) وصل رسول من ستورس إلى

مكة للاتصال بعبد الله. وبدأت مراسلات بين الشريف حسين والمندوب السامي البريطاني في مصر.

وفي تلك الأثناء كان القوميون العرب، وخصوصًا من جمعيتي «الفتاة» و«العهد» يستعدون للانتفاضة في منطقتي سورية والعراق اللتين اجتاحتهما القلاقل المناوئة للأتراك. وطرحوا شرطًا للتعاون مع الإنجليز هو اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربية التي يجب أن تمتد حدودها عبر مرسين واطنة وأورفا وماردين في الشمال، ولا يستثنى من «البلدان العربية» إلا عدن في الجنوب. ونص برنامجهم على توقيع اتفاقية دفاعية بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة المرتقبة وتقديم امتيازات اقتصادية لبريطانيا. واعترفوا بشريف مكة زعيمًا للقوميين العرب.

وفي عام ١٩١٥ و ١٩١٦، كشفت السلطات العثمانية في سورية تنظيمات عربية سرية وقبضت على زعمائها واعدمتهم على مرأى من فيصل الذي كان عام ١٩١٦ في دمشق بمثابة أسير عند الأتراك في الواقع. ويبدو أن الأتراك عرفوا بصلتها مع فيصل، ولكنهم فضّلوا عدم المساس به آنذاك. وفي عام ١٩١٦ جرى تدمير منظمات القوميين العرب في العراق. وأخذ أنصار تركيا الفتاة ينقلون إلى الجبهة الأوروبية قواتهم التي فيها كثير من العرب، وصاروا يرسلون إلى البلدان العربية وحدات تركية خالصة.

استأنف الشريف حسين المباحثات مع الإنجليز في عام ١٩١٥. وفي تلك الأثناء كانت الحرب بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في الشرق الأدنى تجري بصورة غير موفقة. فقد أخفقت العمليات الهجومية في هليبولي وسيناء. وكان الأتراك يهددون عدن من اليمن. وكانت حالة فيلق العمليات في العراق صعبة. وعلق الحلفاء أهمية أكبر على انتفاضة العرب التي كان يتعين عليها ان تساعد جهود الحلفاء الحربية في الشرق الأدنى.

وجرى تبادل الرسائل بين الحسين ومكماهون، مما أسفر عن مجادلات شديدة. ففي الرسالة المؤرخة في ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥ طالب حاكم مكة بأن تعترف

بريطانيا باستقلال البلدان العربية وتوافق على إعلان الخلافة العربية. وأشار إلى أن الحكومة العربية تلتزم بأن تقدم لبريطانيا امتيازات اقتصادية. ووردت في الرسالة شروط التحالف العسكري وإلغاء نظام الاستسلام ومسائل أخرى. وتتضح من نص الرسالة رغبة الحسين في ان يتزعم بمساعدة الإنجليز الدولة العربية المستقلة التي من شأنها ان تضم جميع المحميات العربية (وقسمًا من الممتلكات الكردية والتركية الصرف للأمبراطورية العثمانية) وكذلك محميات بريطانيا في الجزيرة العربية ماعدا مستعمرة عدن.

وكتب مكماهون في رسالته بتاريخ ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٥ «لا يمكن القول ان مناطق ميرسين والاسكندرونة وقسمًا من سورية الواقع غربي مناطق دمشق وحمص وحلب هي مناطق عربية صرف لذا يجب أن تستثنى من التحديد المقترح وبشرط هذا التعديل وبدون إلحاق ضرر بالمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض الزعماء العرب نقبل هذا التحديد. أما بخصوص المناطق الواقعة داخل الحدود المقترحة والتي تستطيع بريطانيا ان تعمل فيها بحرية دون إلحاق ضرر بحليفتها فرنسا فأنا مخول باعطائكم الالتزامات التالية باسم الحكومة البريطانية... ١) إن بريطانيا مستعدة، بشرط إجراء التعديلات المذكورة أعلاه، للاعتراف باستقلال العرب وحمايته في جميع المناطق الواقعة داخل الحدود المقترحة من قبل شريف مكة. ٢) تضمن بريطانيا حماية العتبات المقدسة من أي عدوان خارجي... ٣) يفترض ان العرب قرروا طلب النصح والمساعدة من بريطانيا وحدها وأن المستشارين والموظفين الأوروبيين الذين سيحتاجهم إيجاد نظام صائب للإدارة سيكونون من البريطانيين. ٤) فيما يخص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب يعترفون بأن المصالح والمواقع البريطانية فيهما تتطلب إجراءات إدارية خاصة لحماية هاتين المنطقتين من العدوان الاجنبي».

إن التزامات بريطانيا للشريف حسين تحتمل معنيين وقد قيدت مطالب حاكم مكة الذي قضى عشرات السنين في جو الآستانة المشحون بالنشاط السياسي، جعلته يدرك تمامًا الحدود الحقيقية والمكنون الفعلي للوعود البريطانية. ولكن حتى أكثر

التفسيرات تقييدًا للرسالة البريطانية بدت له كافية لضمان مكانته المرتقبة كملك للعرب وكافية لاعلان الانتفاضة على الأتراك. فقد فسر الالتزامات البريطانية في بياناته العامة وفي مراسلاته مع الإنجليز وفي ميدان الدعاية تفسيرًا موسعًا واعتبرها حاوية على الاعتراف باستقلال العرب برئاسته شخصيًا كملك لهم، وربما كان يؤمل في انتزاع أمور من الإنجليز بالقوة أكثر مما وعدوا به.

ولكن حتى التفسير الحذر لرسالة مكماهون لم يمكن الشريف وحاشيته من التصور بأن جميع وعود لندن كانت خداعًا وتضليلًا، وأن المفاوضات جارية بشأن التقسيم الاستعماري للبلدان العربية، تلك المفاوضات التي انتهت بمعاهدة سايكس ـ بيكو. فقد وقعت تلك المعاهدة قبل بضعة أسابيع من اندلاع الانتفاضة وشطبت التزامات مكماهون.

وعشية الانتفاضة حذر حاكم مكة ابنه فيصل فتمكن من التملص من الرقابة التركية مع موكب صغير.

وأعلن الحسين الاستقلال في ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦، وفي ١٠ حزيران بدأ الانتفاضة خوفًا من ضربة وقائية يسددها الأتراك. وفي تموز (يوليو) استسلمت الحامية التركية في مكة، وتم بالتدريج الاستيلاء على سائر المدن الكبيرة في الحجاز، ما عدا المدينة المنورة التي يصل إليها فرع من سكة حديد الشام. وظهرت في جدة بعثتا اتصال بريطانية برئاسة الكولونيل ويلسون وفرنسية برئاسة بريمون.

وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦، أعلن الشريف حسين انه ملك البلدان العربية. إلا أن أحدًا خارج الحجاز لم يعترف بالحسين ملكًا لجميع العرب. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٧، أبلغت الحكومتان البريطانية والفرنسية الحسين بأنهما تعترفان به «ملكًا على الحجاز».

وفي أواخر عام ١٩١٦، انضوى تحت لواء الحسين في الحجاز ٣٠ ـ ٤٠ ألف محارب، ولكنه لم يكن لديهم غير ١٠ آلاف بندقية. وفي البداية أوكلت مهمة تنظيم العمليات الحربية لعزيز المصري وهو ضابط من مصر، ثم لجعفر العسكري وهو

ضابط من العراق غدا فيما بعد رئيسًا للوزراء في العراق عدة مرات. إلا أن الحسين وقادته العسكريين فضّلوا الأساليب التقليدية لخوض العمليات الحربية على نصائح الضباط المتدربين في الجيوش النظامية.

وفي بداية عام ١٩١٧، احتل الأسطول البريطاني وفصيل حجازي بقيادة فيصل آخر موضع للأتراك على ساحل الحجاز وهو الوجه. وفي مطلع تموز (يوليو) ١٩١٧، استولى الثائرون العرب على العقبة. واجتذبت النقود الإنجليزية التي وزعها الحسين وأبناؤه على البدو عددًا متزايدًا من الأنصار للانتفاضة. وعلى أطراف البادية، في أراضي الأردن حاليًا. بدأت القوات العربية زحفها نحو دمشق، الأمر الذي سهل عملية الجيش البريطاني التي قادها اللنبي في فلسطين. واقتربت نهاية الأمبراطورية العثمانية. وأخذ العرب يفرون من القوات التركية.

وعندما نشرت روسيا السوفييتية بعد ثورة أكتوبر المعاهدات القيصرية السرية (ومن ضمن ما نشر معاهدة سايكس ـ بيكو بشأن تقسيم الأقطار العربية)، سلم الأتراك إلى الشريف حسين نص هذه المعاهدة. فاتصل الحسين بالإنجليز طالبًا رأيهم في صحة هذه المعاهدة فاستلم منهم «تأكيدات صادقة» بأن هذه المعاهدة مزورة. وصدق الشريف حسين الإنجليز أو تظاهر بأنه يصدقهم وواصل العمليات الحربية ضد الأتراك. وكان ذلك يعني ان الدماء العربية تراق في الواقع لأغراض ضد العرب. إلا أن حكومة الحجاز كانت معتمدة كليًا على المساعدات العسكرية والمالية والغذائية من الإنجليز وكانت لا تتمتع بحرية العمل.

وفي المرحلة الختامية من الحرب وبعدها غدا واضحًا ان الإنجليز لا ينوون تنفيذ الوعود المائعة التي قدموها للحسين والقوميين العرب، بل راحوا يعمقون المشكلة بالتقسيم السافر للأراضي العربية وبوعد بلفور الصادر في٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ بشأن تأسيس «موطن» لليهود في فلسطين. وتأزمت العلاقات بين الحسين والإنجليز. إلا أن بريطانيا ثبتت «مصالحها الخاصة» في الجزيرة العربية من خلال مؤتمر صلح فرساي.

وفي ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، دخلت جماعة من المحاربين من قبيلة عنزة

إلى دمشق وجالت في ساحتها الرئيسية حاملة العلم العربي. وبعد يوم كامل دخلت وحدات اللنبي الإنجليزية المدينة وصار فيصل ملكًا مؤقتًا لسورية حيث تشكلت حكومة عربية. لكن الفرنسيين طردوا فيصل من دمشق بعد عامين واغرقوا الحركة التحررية لعرب سورية بالدماء.

عبد العزيز وانتفاضة الحجاز

بعد بداية الانتفاضة المناهضة للأتراك في الحجاز كانت المهمة الرئيسية للحكومة البريطانية في شبه الجزيرة العربية هى حث عبد العزيز على الانضمام إلى الشريف حسين، أو على الأقل، الحيلولة دون اشتداد التناقضات بينهما. إلا أن عبد العزيز لم يكن منذ البداية يثق بالشريف حسين. وعندما علم أمير الرياض من بيرسي كوكس بنبأ الانتفاضة في الحجاز في حزيران (يونيو) ١٩١٦ أعرب عن مخاوفه من أن رغبة الحسين في قيادة العرب يمكن أن تخلق وضعا غير مقبول إطلاقًا بالنسبة له.

وبعد بداية انتفاضة الحسين كان النجديون يساعدون الأتراك تارة ويساعدون الحجازيين تارة أخرى، كما يقول المؤرخ الزركلي الموالي للسعوديين.

وكتب موسيل يقول ان فصائل عبد العزيز قامت بغزوات على القبائل الخاضعة للشريف حسين وخصوصًا في المناطق الحدودية. وأقام ابن سعود صلات مع الوالي العثماني والقائد العام للقوات التركية في أطراف المدينة المنورة. وفي أواخر أيلول (سبتمبر) ١٩١٧، توجه وفد نجدي إلى دمشق لمناقشة مختلف القضايا مع السلطات العثمانية، مع أن عبد العزيز نفسه زار الإنجليز في البصرة في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر).

ويبدو أن عبد العزيز أحس بالجهة ذات الكفة الراجحة، فصادر ٧٠٠ جمل اشتراها أحد التجار الأثرياء لأجل الأتراك وسلمها إلى الإنجليز في الكويت. ولاحظ الشريف حسين ان الجهود البريطانية عاجزة عن وقف منافسة النجدي فبعث رسولًا إلى عبد العزيز يحمل ذهبًا ودعوة للعمل ضد العدو المشترك (ضد الأتراك).

وبعد اندلاع الانتفاضة في الحجاز بدأت إمارة جبل شمر تستلم من الأتراك

اسلحة. وعندما أدرك عبد العزيز ان القدرة العسكرية لحائل بعثت من جديد أخذ يسعى إلى تحسين العلاقات مع الشريف حسين، إلا أن السبب الرئيسي في تغير موقفه العدائي من الحجاز هو الضغط البريطاني.

وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦، عقد بيرسي كوكس في الكويت اجتماعًا حضره عبد العزيز وشيخ الكويت جابر وشيخ المحمرة خزعل وامتدح ابن سعود أعمال الشريف حسين وأكد على ضرورة تعاون جميع العرب المخلصين معه للدفاع عن القضية العربية. ولكن الأمير، كما هي العادة، لم يعد بتقديم دعم ملموس. واقنع الإنجليز الحسين بإرسال برقية تحية إلى الحاضرين في اجتماع الكويت.

وقرر عبد العزيز أثناء هذا الاجتماع التزام جانب بريطانيا كليا. واستلم، آنذاك، مع شيخ الكويت جابر الوسام البريطاني. وعند ذلك قدم عبد العزيز إلى الإنجليز بصورة تظاهرية الـ ٧٠٠ جمل التي كانت مخصصة للأتراك.

وبعد اجتماع الكويت زار ابن سعود البصرة حيث استعرض الإنجليز امامه الأسلحة الحديثة ورأى الطائرات لأول مرة. ولم يبد الأمير أعجابه الشديد فهو قليل الكلام، ولكن الآليات الحديثة، كما هو المفروض، قد تركت لديه انطباعًا عميقا. وفي تلك الفترة تم الاتفاق على المعونة الشهرية لأمير الرياض بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرليني.

وبالإضافة إلى المعونة المالية عرض بيرسي كوكس على أمير نجد ٤ رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع ذخيرتها، وردًا على ذلك وعد عبد العزيز بتجنيد ٤ آلاف شخص ضد حائل.

ومع ذلك تأكد الإنجليز من عدم إمكان دفع أمير الرياض إلى العمليات المباشرة ضد جبل شمر، وكانوا يؤملون، على الأقل، في ان ترغمه المعاهدة الموقعة معه على فرض الحصار على الأتراك في الحجاز وسورية. إلا أن أمير الرياض، شأنه شأن الحكام الآخرين، لم يعيقوا حتى نهاية الحرب التهريب الذي كانت ترد عائدات منه

إلى الخزينة. وذات مرة نقلت قافلة من ٣ آلاف جمل بضائع إلى الحجاز فظهرت بسبب ذلك تعقيدات في علاقات ابن سعود مع الإنجليز.

وعندما أعلن الشريف حسين انه ملك العرب أعرب أمير الرياض عن احتجاجه وطالب برسم الحدود بين نجد والحجاز والاتفاق على عائدية بدو الحدود.

واعتبارًا من عام ١٩١٧، حاول بيرس كوكس ان يصرف أنظار ابن سعود عن أعمال الحلفاء في الحجاز، وظل يحرضه على مهاجمة إمارة جبل شمر التي كانت تقلق القوات الأنكلوهندية في وادي الرافدين من جهة الجناح. (وفي تلك السنة صار بيرسي كوكس معتمدًا مدنيًا لبريطانيا في بغداد لدى فيلق العمليات الأنكلوهندي). وحاول الإنجليز من جديد ان يوقفوا التهريب عبر بوادي الجزيرة ولكن دون جدوى. وكان سيل البضائع يجري كذلك من العراق الذي ترابط فيه قواتهم، ومن موانىء الخليج، بما فيها الكويت. ثم كانت القوافل تتجه إلى القصيم أو جبل شمر، ومن هناك إلى المدينة المنورة أو دمشق.

وفي خريف ١٩١٧، كانت فصائل الحسين تقاتل بفتور. فطالب المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر وينهايت بممارسة ضغط أشد على ابن سعود لجعله يقوم بعمليات أنشط ضد جبل شمر. وتوجه ستورس مبعوث وينهايت إلى بغداد حيث ناقش الموقف مع بيرسي كوكس. وعندما زار ستورس الرياض أُصيب بضربة شمس فاضطر إلى مغادرة الجزيرة العربية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، نزل ممثلو بيرسي كوكس وعلى رأسهم الكولونيل هاملتون في العقير وتوجهوا إلى الرياض ليناقشوا الوضع مع الأمير في أواخر الشهر.

وكان في هذه البعثة فيلبي الذي غدا من أكبر دارسي الجزيرة العربية وربط حياته فيما بعد بعبد العزيز والعربية السعودية. وغدا مندوبًا دائمًا لبريطانيا عند أمير الرياض. وكتب فيلبي نفسه ان مهمته كانت دفع عبد العزيز لشن الحملة على جبل شمر والحيلولة دون تأزم العلاقات مع الحجاز والعثور على حل لمشكلة العجمان. ووعد عبد العزيز ببدء العمليات النشيطة إذا قدموا له السلاح.

ولكن الإنجليز، في نيسان (أبريل) ١٩١٨ عندما تم احتلال القدس، لم يعودوا بحاجة إلى تصفية إمارة جبل شمر، بل صاروا يرفضون إرسال ما طلبه فيلبي في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧، فخابت آمال عبد العزيز.

وفي ٥ آب (أغسطس) ١٩١٨، بدأت الحملة على جبل شمر، وشارك فيها فيلبي الذي كتب عنها بحثًا مفصلًا. وفي أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، تحرك الإخوان رافعين راياتهم نحو حائل. وكان عند النجديين حوالى ٥ آلاف شخص. وفي تلك الأثناء تأزم الوضع على الحدود مع الحجاز بسبب واحة الخرمة. وعقد الحسين صلحًا مع حائل واقلق ذلك كله أمير نجد. وعندما كان الشمريون على وشك الاستسلام قرر الإنجليز ان انتصار ابن سعود في حائل سيثير رد فعل سلبيًا عند الحسين فأمروا الحملة بأن تعود. واستشاط عبد العزيز غضبًا. إلا أن هذه الحملة عادت عليه بغنيمة كبيرة هي ألف وخمسمائة جمل وآلاف الأغنام و ١٠ آلاف خرطوشة. ولكنه أدرك ان الإنجليز لم تعد لهم مصلحة في أعماله ضد حائل ناهيك عن احتلاله جبل شمر.

وأثناء حصار الهاشميين للمدينة المنورة الذي استمر من آذار (مارس) ١٩١٧ حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ حدث في معسكر عبدالله بن الحسين خلاف بين أحد شيوخ عتيبة وبين أمير واحة الخرمة الشريف خالد بن منصور بن لؤي. وتعرّض هذا الأخير لإهانة أثارت غضبه.

وفي خريف ١٩١٧ أدّت مجموعة كبيرة من النجديين فريضة الحج، وقابلهم الحسين بالتكريم. وأصر النجديون على تعيين حدود رسمية بين الدولتين، ولكن الملك حسين تملص من الجواب وربما انتهز خالد فرصة الحج ليجري اتصالات مع النجديين ويتبنى «التوحيد» الوهابي. وقد لاحظ الحسين ذلك. وبعد فترة قصيرة طرد خالد من الخرمة القاضي الذي بعثة شريف مكة. وعندما طلب الشريف من خالد ان يحضر لتوضيح هذا التصرّف رفض خالد الحضور وقد أحس بأن حياته في خطر.

وفي عام ١٩١٨، بعث الملك حسين فصيلًا للاستيلاء على الخرمة، إلا أن عبد العزيز تمكن آنذاك من إرسال الإخوان لنجدة خالد، لذا دمروا بجهود متضافرة القوات التي جاءت من مكة عن بكرة أبيها.

وكان ذلك تحديًا سافرًا للشريف حسين. إلا أن خالد قد تقوى آنذاك وأخذ يقوم بغارات على المناطق الخاضعة للحسين. وكانت المدينة المنورة ما تزال في أيدي الأتراك، وكان في الواقع ذلك العمل تعاونًا مع الأتراك. وأخيرًا استسلمت حامية المدينة المنورة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، وانتهت الحرب العالمية الأولى بالنسبة للجزيرة العربية.

وجرت الأحداث لاحقًا في تربة والخرمة الواقعتين بين الحجاز ونجد. وكان في تربة حوالى ثلاثة آلاف نسمة، وعدد من الاشراف يمتلكون كثيرًا من أرضها. كانت هذه الواحة تعتبر بوابة الطائف من جهة نجد. أما الخرمة فكان فيها حوالى ٥ آلاف نسمة بعضهم من قبيلة سبيع وبعضهم من العبيد والمعتوقين. كما كانت فيها بضع عشرات من الأشراف.

الأحداث في اليمن وعسير

بعد استسلام الأمبراطورية العثمانية ظلّت في الجزيرة العربية خمس دول مستقلة في الواقع هي الحجاز ونجد وجبل شمر وعسير واليمن. وكان مستقبلها مرتبطًا بالصراع فيما بينها حيث ينتصر الأقوى، وهو إمارة نجد، وكذلك بسياسة بريطانيا. وكتب اللورد ميلنر وزير المستعمرات البريطاني في ١٦ أيار (مايو) ١٩١٩ يقول «كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدأً أساسيًا دائمًا في سياستنا الشرقية. ولكن ما نعنيه بذلك هو ان الجزيرة العربية رغم انها ستكون مستقلة بحد ذاتها، فانها ستبقى خارج نطاق الدسائس السياسية الأوروبية وداخل مجال النفوذ البريطاني، وبعبارة أخرى فإن ذلك يعني ان حكامها المستقلين لن تكون لديهم معاهدات أجنبية مع أحد سوانا».

ولكن قبل أن نعود إلى الأحداث الأساسية في السياسة في الجزيرة العربية والتي صارت تعتمد أكثر فأكثر على التنافس بين نجد والحجاز ووجود بريطانيا كمحكم بينهما يتعين ان نتناول الوضع في اليمن وعسير.

ظل إمام اليمن في الحرب العالمية الأولى مواليًا للأتراك، ومن أسباب ذلك عدم

رغبته في الوقوع في تبعية للإنجليز وكذلك مخاوفه من الأمير محمد الادريسي الذي بسط سيطرته على جنوب عسير. وكان الإدريسي. ضد الأتراك فقد وقع معاهدة مع المعتمد البريطاني في عدن في أيار (مايو) ١٩١٩. وحاول على رأس قوات من ١٢ ألف محارب ان يستولي على اللحية ولكن دون جدوى. إلا أنه تمكن من الاستيلاء على قسم كبير من شمال تهامة. أما اللحية فقد استولى عليها الأسطول البريطاني بواسطة فصيل من أبناء عسير في مطلع عام ١٩١٧. وظل الحسن آل عايض شيخ القسم الشمالي من عسير (وعاصمته ابها) حتى حزيران (يونيو) ١٩١٦ محايدًا ولكنه بدأ عمليات حربية محدودة ضد الأتراك فيما بعد.

وفي معرض تقييم الوضع في جنوب الجزيرة العربية في أواخر الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، نشير إلى أن اليمن وعسير كانتا مشغولتين بشؤونهما الداخلية فلم تمارسا تأثيرًا يذكر على نتيجة الصراع بين نجد والحجاز.

معركة تربة

كان الحلفاء المنتصرون يتصارعون في المؤتمرات السلمية من أجل الانتداب والامتيازات في الشرق الأدنى دون أن يهتموا بكيفية تطور الأحداث في شبه الجزيرة العربية. وكانت الموجة المرعبة من « الحمى الإسبانيولية» في شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩ قد حصدت ضحايا في الجزيرة العربية أكثر ممن قتلوا في العمليات الحربية. وكان من بين الضحايا تركي الابن البكر لعبد العزيز واثنان من أبنائه الآخرين وكذلك زوجته الكبرى جوهرة. إلا أن هذا الوباء لم يحل دون نشوب نزاع جديد على الحدود بين نجد والحجاز.

وأرسل الملك حسين شاكر بن زيد على رأس فصيل من ١٢٠٠ بدوي و٥٠٠ من مشاة القوات النظامية للاستيلاء على الخرمة، ولكن قواته منيت بالهزيمة تلو الهزيمة. وفي مطلع عام ١٩١٩، أرسل حاكم مكة قوات ابنه عبد الله البالغ عددها ٨ آلاف لاحتلال الخرمة. وفي تلك اللحظة لم يكن واضحًا هل ان الصدام بين الحجاز ونجد نافع للإنجليز. إلا أن سلوك الملك حسين واستياءه من السياسة البريطانية وتذكيره

للإنجليز بأنهم خرقوا التزاماتهم وادعاءه بلقب ملك العرب كافة، لعل ذلك كله هو ما دفع لندن للتفكير بايقاف الشريف عند حده. صحيح ان الإنجليز قد لا يكونون يعرفون آنذاك القدرة القتالية الفعلية للنجديين. فقد كتب فيلبي ان جميع الحاضرين تقريبًا في اجتماع عقده اللورد كيرزون في آذار (مارس) ١٩١٩، أعربوا عن رأيهم بهزيمة الوهابيين لا محالة، وتقرر آنذاك تأييد ادعاءات الحجاز بواحة الخرمة.

وفي أواخر أيار (مايو) ١٩١٩، استولى عبد الله على واحة تربة وسمح لجنوده بنهبها. وفي تلك الأثناء اجتمعت على مقربة من تربة وحدات الإخوان من الغطغط بقيادة سلطان بن بجاد وفصيل محاربين من قحطان بقيادة حمود بن عمر.

ووصل إلى تلك البقعة خالد بن لؤي من الخرمة. وتفيد المعطيات النجدية انه كان لديهم حوالى ٤ آلاف شخص. وتحدث رسل عبد العزيز الذين عادوا من تربة عن حوادث فظيعة للنهب والقتل والعنف قام بها جيش عبد الله، وزعموا ان عبد الله تباهى بأنه سيبدأ صيام رمضان في الرياض وسيحتفل بعيد الفطر في الأحساء.

وهجم الإخوان على قوات عبد الله ليلًا من ثلاث جهات وأبادوها عن بكرة أبيها. واعترف عبد الله بأن ثلاثة فقط ظلوا على قيد الحياة من الـ ٥٠٠ جندي النظامي الذين كانوا عنده، ولم يسلم إلا ١٥٠ شخصًا من الـ ٨٥٠ حجازيًا الذين كانوا معه. ووقعت في أيدي الإخوان جميع الأسلحة والذخيرة تقريبًا. ومع أن الإخوان شاركوا سابقًا في بعض غزوات عبد العزيز فإن هذه المعركة كانت أول اختبار في عملية قتالية جدية. وبينت المعركة ان لدى أمير نجد قوة قادرة على القتال.

ونشأ وضع خطير بالنسبة للحجازيين.

وصل عبد العزيز إلى تربة في بداية تموز (يوليو) ١٩١٩ مع إمدادات كبيرة من ١٢ ألف شخص، مع أن هذا الرقم كان مبالغًا فيه على ما يبدو، ولكن رسولًا وصل من جدة في ٤ تموز ١٩١٩ يحمل رسالة من المعتمد البريطاني: «أمرتني حكومة جلالة الملك ان أُبلغكم بأن تعودوا إلى نجد حالما يصل إلى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود، وإذا أبيتم

الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبيننا ملغية وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية».. وطلب الإنجليز من عبد العزيز أن لا يتحرك نحو الطائف.

وعندما استلم أمير الرياض هذا الإنذار أدرك بأنه تمادى كثيرًا. فعاد إلى الرياض في الحال. وأمر الإخوان بأن يغادروا الواحات في هذه المنطقة واستبدلهم بفصيل وصل من منطقة حائل، كما أعاد أمير تربة السابق إلى منصبه.

وعزز الإنجليز إنذارهم بإرسال طائرات وجنود إلى جدة. وكانوا آنذاك يعتقدون، على ما يبدو، بأن الملك حسين قد تلقى درسًا وما كانوا ينوون إطلاق العنان لأمير نجد الذي يصعب عليهم ضبط تصرفاته.

ولقد خضع ابن سعود لمطالب الإنجليز، ولكن دحر الحجازيين السهل نسبيًا بين له مدى القوة التي يمتلكها، ولذا صار يعتقد بأن الحجاز سيكون ملكًا له في آخر المطاف. ويمكن اعتبار معركة تربة نهاية التاريخ الحديث وبداية التاريخ المعاصر للجزيرة العربية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ظلّت نجد مجرد دولة من عدة دول في الجزيرة العربية. وظلت قائمة إمارة جبل شمر، وكانت الكويت تحت الحماية البريطانية، ولم تكن عسير قد ضمت إلى نجد بعد. وكانت الحجاز تدعي بالتهام الجزيرة العربية كلها مع أنها لا تمتلك القوة اللازمة لذلك. وعلى أشلاء الأمبراطورية العثمانية وزعت الدول الاستعمارية الأوروبية أراضي الانتداب فيما بينها. وكتب لويد جورج يقول: «إن أحدًا ما لا ينوي إرسال قوات أجنبية لاحتلال جزء ما من الجزيرة العربية. فهي بلد فقير جدًا لا يستحق ان تحتله دولة ضارية». ولم يتبادر إلى ذهن أحد ان في هذا البلد يمكن أن توجد احتياطيات خيالية من البترول.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبتأثير نسبي من ثورة أكتوبر في روسيا، شهد العديد من البلدان العربية حركات التحرر الوطني من مختلف التلاوين. ورغم تنوع

القوى التي شاركت في تلك الحركات فقد كانت موجهة ضد الأنظمة الاستعمارية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا وضد التقسيم الإمبريالي للبلدان العربية ونظام الانتداب الذي ابتدعته عصبة الامم. وكانت انتفاضات ١٩١٩ و ١٩٢١ في مصر و ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ في العراق والحركة الجماهيرية الشعبية المناهضة للاستعمار في ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ في سورية ولبنان والانتفاضة السورية في ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ والانتفاضة في عدن عام ١٩١٩ ـ كل تلك الأحداث كان لها تأثير مباشر وغير مباشر على الجزيرة العربية. وغدا واضحًا أن زمان النظام الاستعماري بأشكاله القديمة قد ولى بالتدريج.

الجزء الثاني

الفصل الحادي عشر

توحيد أراضي الجزيرة من حول نجد

(١٩١٨ ـ ١٩٢٦)

أصبح وضع إمارة نجد بعد الحرب العالمية الأولى أكثر تعقيدًا مما كان عليه عشية نشوبها. فلئن كان بوسع أمير الرياض قبل الحرب ان يستثمر التناقضات بين الأمبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى، فإن الإنجليز غدوا بعد الحرب القوة الفعلية الوحيدة في المنطقة. وتيقن عبد العزيز من ذلك حينما منعوه من مهاجمة الحجاز وجبل شمر. ولكن بريطانيا، من جهة أخرى، تحاشت التدخل مباشرة في شؤون شبه الجزيرة العربية وسعت إلى التملص من الإنفاق على حكامها.

العلاقات بين نجد والكويت

أحدث ارتفاع شأن إمارة نجد قلقًا لدى حاكم الكويت، الذي شعر بخطر مباشر يهدده بفعل انضمام عشيرة مطير التي كانت الكويت هدفًا تقليديًا لهجماتها إلى حركة الإخوان. وتحت ستار حماية دعوة «التوحيد» ونشرها، اعتبر مطير ان من حقهم نهب الكويت، بلد «المشركين» المتعاون مع الإنجليز.

في عام ١٩١٥، ساعد الكويتيون قبيلة العجمان على تفادي الهلاك بايوائهم أبناء هذه القبيلة. وانصاع العجمان آنذاك لعبد العزيز خلافًا لإرادتهم. فقد احتوتهم حركة الإخوان، ولكن عبد العزيز كان يعتزم تقسيم العشيرة إلى زهاء عشرين هجرة صغيرة مبعثرة في المناطق الداخلية من نجد. وعلى الرغم من أن العجمان لم يعارضوا

حركة الإخوان، فإنهم رفضوا رفضًا قاطعًا الإقامة في مناطق مبعثرة خارج ديارهم في منطقة الأحساء[١].

وكان تدهور العلاقات بين الإنجليز والكويتيين عونًا غير منتظر للنجديين. إذ اكتشف الإنجليز ان تموين الأتراك في الشام كان يجري جزئيًا، عن طريق الكويت ويحصل شيخها سالم على دخل من التهريب[٢].

وقد كان حاكم الكويت سالم على علم بالاتفاقية البريطانية ـ التركية لعام ١٩١٣ التي ترسم حدود الكويت في منطقة جبل منيف[٣]. ولكنه لم يعرف بأن المعاهدة البريطانية النجدية لعام ١٩١٥ لم ترسم حدود الكويت[٤]. (كان يدعي بجزء كبير من الأحساء).

وقد أقام عبد العزيز هجرة اخوانية على حدود الكويت، ولكن ضمن حدود ديرة مطير، فاحتج الشيخ سالم وجرى اشتباك بين الكويتيين والإخوان الذين كانوا بإمرة فيصل الدويش، وانتهى بهزيمة الكويتيين[٥].

وإزاء الخطر الداهم سأل الشيخ سالم الإنجليز ان يعينوه، ولكن هؤلاء طالبوا بأن يوافق الطرفان المتخاصمان سلفًا على حكم الإنجليز كقضاة[٦].

في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠، وافق الأمراء على مطالب الإنجليز، ولكن الاشتباكات استمرت. وعندها طلب الكويتيون النجدة من قبائل شمر، فوصلت قوة من حائل. أوعز ابن سعود لفيصل الدويش بالتحرك نحو الكويت. وفي أيلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠، وصل إخوانيون من قبيلة مطير يقارب عددهم الأربع. آلاف إلى مكان يبعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الكويت[٧]. وفي الشهر نفسه أجرى بيرسي كوكس مفاوضات مع عبد العزيز في العقير[٨]، في محاولة لحل نزاعات الحدود حلًا يرضي الإنجليز. ولكن فيصل هاجم في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٠، في موقع قرب الجهراء، القوات الكويتية الشمرية وهزمها، رغم تكبده خسائر كبيرة. واحتمى الشيخ سالم بقصر له قرب الجهراء ودخل مفاوضات لكسب الوقت، وفي الوقت نفسه طلب النجدة من الإنجليز. وفي الشهر نفسه قرر الإنجليز إغاثته فأرسلوا سفنًا إلى سواحل الكويت وهددوا بالتدخل في النزاع إلى جانب الكويت، مما اضطر فيصل إلى الانسحاب[٩].

في أواخر شباط (فبراير) عام ١٩٢١ باغتت المنية الشيخ سالم. وقد وقع اختيار أعيان الكويت، الذين أنهكتهم حرب هم في غنى عنها، على أحمد بن جابر الصباح، وهو الابن الأكبر للشيخ جابر بن مبارك الصباح الراحل. وكان أحمد ذا شعبية ويؤيد التوصل إلى حل مقبول مع أمير الرياض[١٠]. وفي تلك الأثناء كان يجري مفاوضات مع ابن سعود في نجد.

أدرك عبد العزيز أن الإنجليز لن يتنازلوا له عن الكويت. وفي ذلك الحين كان اهتمامه منصرفا إلى الحملة المرتقبة على حائل، وإمكانية أحكام سيطرته على جبل شمر بأسره.

إلحاق جبل شمر

خلال العامين المنصرمين بلغت النزاعات بين آل سبهان وآل رشيد درجة الغليان. وفي عام ١٩١٩، فرّ سعود آل سبهان إلى الزبير، فانتقل منصب الوزير الذي كان يشغله إلى المدعو عقاب بن عجل الذي شرع يبحث عن واصلة بعبد العزيز[١١]. وفي أواخر آذار (مارس) عام ١٩٢٠ لقي أمير شمر سعود بن عبد العزيز مصرعه على يد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي قتله فيما بعد أحد خدام سعود. وبالتالي آلت الإمارة إلى عبد الله بن متعب بن عبد العزيز[١٢].

تلقى أمير نجد معلومات تفيد بوجود كثير من أنصار أسرة شريف مكة في حاشية آل رشيد، وصار خطر اتحاد خصوم آل سعود القدامى خطرًا فعليًا في الظروف التي كان إبّانها الإنجليز يعدون فيصل لتولي عرش العراق[١٣]. في آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) عام ١٩٢١، واثر عقد الصلح مع ممثل الكويت، قرر عبد العزيز تجهيز حملة على حائل. وفي تلك الأثناء نكبت المناطق الوسطى من الجزيرة مرة أخرى بالجفاف الشديد وارتفعت الأسعار، مما زاد من مصاعب جبل شمر[١٤].

في نيسان ـ أيار (أبريل ـ مايو) عام ١٩٢١، ألحقت فصائل بن سعود الهزيمة بقبائل شمر وأصبحت عند جدران حائل، فبدأ حصار مديد. قرر حاكم جبل شمر

عبد الله بن متعب بن عبد العزيز الاحتماء وراء جدران حائل المنيعة، ولكن حينما أوشكت المؤونة في المدينة على النفاد، أرسل وفدًا للتفاوض وكان مستعدا للقبول بأن تقتصر إمارة جبل شمر على مدينة حائل وأراضي قبيلة شمر، ولكن ابن سعود الذي شعر بقوته، طالب بالاستسلام الكامل(١٥).

استمرت الاشتباكات بين الطرفين طوال عدة أشهر، دونما نتائج تذكر. ورغم ان سكان حائل تمكنوا من الحصول على قدر من المؤونة يكفي لمقاومة الحصار، إلا أن الصراع الداخلي في المدينة استمر مستعرًا. وقد خلع أعيان حائل عبد الله بن متعب ونصبوا مكانه محمد بن طلال (شقيق عبد الله بن طلال) بعد إطلاق سراحه من السجن، واستجار عبد الله بن متعب بأمير الرياض. وحتى ذلك الحين لم يسفر الحصار عن شيء.

في تلك الأثناء، وضع ونستون تشرشل في اجتماع عقد بالقاهرة بنية الشرق الأوسط لفترة ما بعد الحرب. قرر الإنجليز تنصيب فيصل، ابن الشريف حسين، ملكًا على العراق، وسرعان ما توج. كما قرروا اسناد إمارة شرقي الأردن لعبد الله. وأدرك ابن سعود أن عليه الإسراع، وإلا فإن جبل شمر سوف يفلت منه. قبل بدء الحملة الجديدة على حائل عقد عبد العزيز مجلسًا لاعيان وشيوخ القبائل وعلماء الدين حيث تقرر ان يخلع على الأمير لقب «سلطان نجد والأراضي الملحقة» لرفع الهيبة الدولية للبلد.

في آب (أغسطس) عام ١٩٢١، عاد عبد العزيز إلى مواقع قرب حائل على رأس قوة مؤلفة، وفق بعض المصادر، من زهاء عشرة آلاف شخص من ضمنهم الإخوانيون بزعامة فيصل الدويش(١٦). أصبحت أوضاع المحاصرين ميؤوسًا منها، وبعد شهرين من الحصار أوفد أعيان المدينة أحد أفراد آل سبهان للتفاوض ثم اتفقوا على الاستسلام. وفي الوقت المحدد شرعت أبواب حائل أمام قوات عبد العزيز. لاذ ابن طلال بالقلعة وأرسل نداء استغاثة إلى السلطات البريطانية في العراق وإلى الملك فيصل، ولكن النجدة لم تصل وبعد فترة استسلم بشرط ان تصان حياته. أقام

ابن طلال في الرياض أسيرًا مكرما وزوج ابنته لابن سعود. وقد لقي آخر أمير مستقل لحائل مصرعه في الرياض على يد أحد عبيده عام ١٩٥٤[١٧].

في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢١ لم يعد هناك وجود لإمارة جبل شمر المستقلة. وفي الثاني من الشهر بايع سكان حائل عبد العزيز الذي جعل من إبراهيم السبهان واليًا على المنطقة الجديدة في سلطنته. وقد حرّم أمير نجد السلب في المدينة، وزود الجياع ببعض المؤن. وكان الشيعة أكثر من يخشى على حياتهم، ولكن ابن سعود أصدر إيعازًا خاصًا يكفل لهم الحماية[١٨]. ويجدر بالذكر ان الإخوان لم يوافقوا على تسامح أميرهم وانتقدوه علانية لغضه النظر عن «المشركين»[١٩].

بسقوط جبل شمر أضحت كل المناطق الوسطى من الجزيرة تحت سيطرة أمير الرياض وأصبحت نجد والمناطق الملحقة بها القوة الرئيسية في شبه الجزيرة العربية. ولم يقو جبل شمر على الصمود إزاء ضغط الجار الجنوبي الأقوى الذي استلهم جنده شعارات المذهب الوهابي بعد انبعاثه. لقد اعتمد جبل شمر، في الأساس، على قبيلة كبيرة واحدة ولم يصبح نواة لدولة موحدة في الجزيرة العربية، وضعفت مواقعه إزاء المنافس القوي الحازم بسبب الحزازات الداخلية وغياب الزعيم القوي. وقد ربط حكام جبل شمر مصيرهم بالأمبراطورية العثمانية، في حين ان الحركة القومية لعرب الجزيرة كانت ذات طابع مناهض للأتراك بوضوح. وفي تلك الأثناء لم تكن بريطانيا تعتبر إلحاق الجزء الشمالي من وسط الجزيرة بنجد خطرًا كبيرًا على مصالحها في العراق وشرقي الأردن، وآثرت ان تبقى بمعزل عن الأحداث هناك، على الرغم من أن تعزيز مواقع نجد حملها همومًا غير قليلة.

بداية النزاعات والاشتباكات الحدودية بين نجد والعراق وشرقي الأردن

بعد الاستيلاء على جبل شمر جابهت إمارة نجد ثلاث دول معادية لها يحكمها أفراد الأسرة الهاشمية، وتحد نجد من الغرب والشمال.

لم ترسم الحدود بين جبل شمر وبين العراق وشرقي الأردن. وعلاوة على ذلك فإن مسألة الحدود البرية الثابتة كانت جديدة نوعًا ما على حكام الجزيرة. وكان ابن سعود يرى ان كل قبائل شمر وعنزة تابعة له، لذا فإن رعاياه متواجدون في مناطق بعيدة يعتبرها الإنجليز جزءًا من العراق. أضف إلى ذلك ان بعض قبائل شمر وغيرها من القبائل الرافضة لمطامع السعوديين قد ارتحلت إلى العراق[٢٠]. وفيما بعد كتب غلوب باشا قائد الجيش (الفيلق) العربي في الأردن: «لم تكن هناك حدود في أواسط الجزيرة. ولم تحاول الإدارة في بغداد قط أحكام سيطرتها في الصحراء لمسافة تزيد عن ميلين أو ثلاثة من الفرات... وكانت حياة العديد من القبائل نفسها مرتهنة بحقها في التنقّل بحرية في المناطق الواقعة ضمن الحدود الحالية للعراق وسورية. وتصرفت القبائل السورية والعراقية على النحو نفسه. لذا فإن رسم حدود ثابتة بدا لها أمرًا خطرًا»[٢١].

أدّت الخلافات والاشتباكات بين القبائل إلى تفاقم النزاعات بين العراق ونجد. وفي خريف عام ١٩٢١ ، عين المدعو يوسف بن سعدون قائدًا لفيلق الجمالة العراقي المشكل حديثًا. وكان لهذا عداء شخصي مع شيخ قبيلة الظفير حمود بن سويط الذي فر إلى الرياض مستجيرا بعبد العزيز وعاد بعد فترة من الزمن مع جباة الزكاة الذين اوفدهم أمير الرياض. والتحقت بحمود مجموعة من الإخوان من مطير برئاسة فيصل الدويش، فهاجموا سوية معسكرة يوسف في آذار (مارس) عام ١٩٢٢ وابادو غالبية جنده، فأرسل الإنجليز طائراتهم لنجدة العراقيين. عند ذاك سرحت الحكومة العراقية فيلق الجمالة واقالت قائده يوسف بن سعدون الذي ساءه الأمر فهرب إلى الرياض حيث عرض خدماته على عبد العزيز[٢٢].

في ربيع ١٩٢٢ ، التقى ممثلون عن عبد العزيز ببيرسي كوكس في المحمرة، وأصر الإنجليز على إقامة حدود ثابتة بين العراق ونجد، وطالب الوفد النجدي برسم الحدود اعتمادًا على تقسيم الديار التقليدي للبدو الرحّل، وفي الخامس من أيار (مايو) عام ١٩٢٢ ، وقعت معاهدة المحمرة التي جعلت قبائل المنتفق والظفير والعمارات التي هي فخذ من قبيلة عنزة تابعة للعراق، بينما جعلت قبائل شمر تابعة

لنجد. غير أن عبد العزيز رفض إبرام الوثيقة بحجة ان الظفير بزعامة حمود بن سويط احتموا به ورفضوا الانصياع للعراق[٢٣].

في حزيران (يونيو) عام ١٩٢٢ شرع الإخوان يتحركون باتجاه الشمال الغربي، نحو شرق الأردن. وبعد الاستيلاء على واحة الجوف في تموز (يوليو) من العام نفسه اشتبكوا مع دوريات تابعة لإمارة شرقي الأردن. وإثر ذلك استولوا على واحتي تيماء وتبوك وارغموا سكانهما على إخراج الزكاة للرياض[٢٤]. وبعد ذلك زحف الإخوان على وادي السرحان الذي كان في السابق جزءًا من جبل شمر، وسرعان ما هاجموا واحة بني شاكر، مما جعلهم على مقربة من عمان، عاصمة شرقي الأردن[٢٥]. وفي الوقت نفسه دنا النجديون من حدود سورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، وأخذوا يهددون بقطع ممر الارتباط المباشر بين الممتلكات البريطانية.

وفي ذلك الحين كان الإنجليز يدرسون مسألة مد خط للسكك الحديد بين فلسطين والعراق عبر هذا الممر بالذات.

رأى بيرسي كوكس ان من الضروري العمل على وضع حدود ثابتة، واتفق على عقد لقاء شخصي مع أمير نجد. وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢٢، بدأ كوكس وعبد العزيز مفاوضات استغرقت ستة أيام في العقير. وأسفرت المفاوضات عن وضع بروتوكولات (ملاحق) العقير التي وقعت في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٢، وألحقت بماهدة المحمرة. وكان هذا يعني نوعًا من النجاح للدبلوماسية البريطانية التي أرغمت سلطان نجد على الاعتراف بحدود العراق الخاضع للانتداب[٢٦].

رسم البروتوكول الأول الحدود بين العراق ونجد وأسّس المنطقة المحايدة التي يحق للقبائل العراقية النجدية أن ترعى أغنامها فيها. ومنحت القبائل النجدية التي كانت تستخدم بعض الآبار في أراضي العراق ألحق في مواصلة استخدامها بشرط إلا تستثمر مصادر الماء في منطقة الحدود لأغراض حربية. وبذا فإن هذه الاتفاقية راعت حدود الديرة التقليدية لمختلف القبائل.

نص البوتوكول الثاني على أن لأي قبيلة تروم ان تكون تحت رعاية حكومة أخرى ألحق في ذلك.

وإلى جانب رسم الحدود بين نجد والعراق وقع عبد العزيز ومندوبون عن الكويت اتفاقية حول الحدود، ضمنت بدورها منطقة محايدة للبدو من الطرفين، لاستخدامها لأغراض رعي الأغنام[٢٧].

ان مفاوضات العقير بحد ذاتها حرية بأن نتوقف عندها بشيء من التفصيل. وهاكم ما كتبه أحد المشتركين فيها وهو ديكسون: «في اليوم السادس قال السير بيرسي... لكلا الطرفين ان الوتيرة التي تجري عليها المفاوضات لن تفضي إلى تسوية شيء طوال سنة. وفي لقاء خاص اقتصر على بيرسي كوكس وابن سعود وانا لم يطق كوكس صبرًا على ما سماه بموقف ابن سعود الصبياني من فكرة الحدود القبلية. ولم يكن السير بيرسي يجيد العربية كما ينبغي، فتوليت الترجمة. كان أمرًا غريبًا ان يلاحظ المرء كيف يوبخ المندوب السامي لصاحب الجلالة سلطان نجد وكأنه تلميذ مشاكس. قال كوكس لابن سعود بصرامة، انه هو (كوكس) الذي يقرر شكل الحدود وامتدادها العام... كاد عبد العزيز ينهار تمامًا وقال بتأثر ان السير بيرسي بمثابة أبيه وامه اللذين أنجباه ورفعاه من الحضيض إلى مقامه الحالي، وانه مستعد للتنازل عن نصف مملكته، بل عن المملكة كلها إذا أمر السير بيرسي».

إثر ذلك أخذ كوكس قلما أحمر ورسم بحذر على خارطة الجزيرة الحدود من الخليج العربي إلى شرقي الأردن. وفي مساء اليوم نفسه، كما يقول ديكسون، جاءت «التتمة المدهشة». «فقد طلب ابن سعود مقابلة السير بيرسي على انفراد. اصطحبني السير بيرسي، وكان ابن سعود يقف بمفرده وسط سرادقه الكبير الذي كان مضيفا. بدا مغتمًا للغاية وقال متوجعًا: «يا صديقي، لقد حرمتموني نصف مملكتي. الأفضل ان تأخذوها كلها وتسمحوا لي بالاستقالة». وظل هذا الرجل القوي الضحم البنيان المتسامي بأساة، واقفا ثم انحدرت من مآقيه الدموع على حين غرة. تأثر السير بيرسي غاية الأثر وأخذ يده وأنشأ ينتحب هو الآخر. انحدرت الدموع على خديه. لم يحضر أحد، سوانا نحن الثلاثة، هذا المشهد وأنا انقل بدقة ما رأيت. لم تستمر الزوبعة العاطفية أمدًا طويلًا. قال السير بيرسي وهو ما يزال يمسك بيد ابن سعود:

«يا طويل العمر، أنا أعرف بدقة حقيقة مشاعرك، لذا فأنني أعطيك ثلثي أراضي الكويت. لا أعرف كيف سيكون وقع هذه الضربة على ابن الصباح»[٢٨].

ومهما كان من أمر لا يجب أن يغيب عن بالنا ان عبد العزيز وكوكس كانا ممثلين جيدين، ورغم ان كل الأوراق الرابحة كانت في يد كوكس لان بريطانيا بالذات هي التي تملي إرادتها في الجزيرة ، فإن عبد العزيز تمكن من تحقيق الكثير من مطالبه. ففي تلك الفترة بالذات كان ابن سعود يعتزم تجهيز حملة على غرب الجزيرة، وصار بوسع كوكس ان يلمح إليه بأن بريطانيا سوف تتغاضى عن استيلائه على الحجاز[٢٩].

لم يتم التوصل إلى اتفاق حول الحدود مع شرقي الأردن. وفي مستهل عام ١٩٢٣ شنت مجموعة صغيرة من الإخوان هجومًا جديدًا على شرقي الأردن. أسر المهاجمون وأعدم أحد عشر شخصًا منهم في عمان[٣٠]. وفي تلك الأثناء استمرت تصفية الحسابات بين القبائل القاطنة على الحدود بين العراق ونجد، والتي جرى في العقير تقرير مصيرها دون مشاركتها. تمكن يوسف بن سعدون من تعبئة مجموعة من الإخوان لمهاجمة خصومه من قبيلة الظفير، ولكن عبد العزيز حينما علم بذلك أرسل قوة لمعاقبته. عندئذٍ هرب يوسف وأنصاره (ومن بينهم الإخوان) وطلب اللجوء من الحكومة العراقية[٣١].

عند تقييم السياسة البريطانية في هذه المنطقة في بداية العشرينيات، لا يمكن الزعم بأن إيصال التناحر بين نجد والعراق والأردن إلى حد القطيعة كان من مصلحة لندن. فقد آثر الإنجليز ان يستثمروا بهدوء ممتلكاتهم الجديدة. وعلاوة على ذلك فإنهم قدموا منحًا كبيرة لجميع حكام المنطقة، ولم يتوقفوا عن تقديمها إلا في ٢١ آذار (مارس) عام ١٩٢٤[٣٢].

في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٣ عقد في الكويت، بمبادرة بريطانية، مؤتمر حضره ممثلون عن شرقي الأردن والعراق ونجد، للقيام بمحاولة تسوية القضايا المتنازع عليها، ولكن الأطراف لم تتفق على شيء. واستمرت غزوات القبائل عبر الحدود المرسومة شكليًا، وفي آذار (مارس) ١٩٢٤، أوعز عبد العزيز إلى فيصل الدويش بمعاقبة القبائل التي شنت هجمات على نجد من جهة العراق. استؤنف

مؤتمر الكويت في آذار (مارس) عام ١٩٢٤ واستمر حتى شهر نيسان (أبريل) دون أي نتيجة[٣٣].

في أواسط آب (أغسطس) اتجهت قوة كبيرة من الإخوان نحو عمان عبر وادي السرحان، ومرت بمحاذاة حصن القاف الذي شيده الإنجليز منذ أمد قريب، ولكن حامية الحصن لم تكن لديها وسيلة للاتصال لذا فإن ظهورهم على بعد بضعة كيلومترات من عمان كان مفاجئًا. استخدم الإنجليز الطائرات والمدرعات ووحدات الفيلق العربي فابعدوا الإخوان وكبدوهم خسائر كبيرة[٣٤].

بيد أن الحجاز أخذت تستأثر باهتمام متزايد من لدن أمير نجد عند حلول صيف ١٩٢٤.

منذ سنوات عديدة وعيون النجديين تتطلع بشوق إلى الحرمين، بينما كان زعماؤهم يحصون العوائد التي يمكن أن يدرها عليهم الحجاج ورسوم الجمارك في جدة. واقترن الحماس والتعصب الديني بمخططات الغزو التي أعدتها الارستقراطية الحاكمة في نجد.

ظلت العلاقات بين نجد والحجاز في أقصى درجات التوتر بعد معركة تربة. وحينما جهز عبد العزيز قوة مسلحة للاستيلاء على مدينة ابها في شمال عسير في أيار (مايو) ١٩٢٠، منع الحسين النجديين من دخول الحجاز لأداء فريضة الحج في آب ـ أيلول (أغسطس ـ سبتمبر) عام ١٩٢٠. ورفع النجديون ظلامة إلى بيرسي كوكس بوصفه حكما، ونزولًا عند اصرار الإنجليز سمح الحسين لهم بأداء الفريضة في العام التالي، ولكنه حدد عدد الحجاج خوفًا من تقاطر عدد كبير من الإخوان على الحجاز. وعند حلول عام ١٩٢٣، كان النجديون قد ثبتوا أقدامهم في عسير، فتزايدت مخاوف الحسين.

الاستيلاء على شمال عسير

ابتداء من عام ١٨٧١ وحتى الحرب العالمية الأولى كان الأتراك يمارسون إدارة عسير بشكل مباشر، إذ كان يوجد متصرف تركي إلى جانب أمير من فخذ آل عايد.

وعندما نشبت الحرب انسحب الأتراك من عسير وأصبح الأمير حسن بن علي آل عائض مستقلًا في الواقع. ولكن الكثير من القبائل، مثل قحطان وزهران وغامد، وقفت ضده وارتحلت إلى عمق الجزيرة، وفي الوقت نفسه أرسلت وفدًا لمبايعة عبد العزيز. وقد أوفد أمير الرياض ستة من العلماء ليهدوا أبناء عسير إلى رسالة «التوحيد»[٣٥].

كانت غالبية سكان عسير من أتباع المذهب الشافعي، ولكن على الرغم من ذلك فإنهم كانوا منذ أزمان دولة السعوديين الأولى يميلون إلى المذهب الوهابي، ولم تنقطع صلاتهم بنجد[٣٦]. وقد استقبل عبد العزيز موفدي القبائل وبعث برسالة إلى الأمير حسن يطالب فيها باحترام حقوقهم. وطالب حسن من جانبه بالا يتدخل عبد العزيز في الشؤون الداخلية لعسير. وفي أيار (مايو) عام ١٩٢٠، ظهرت في جبال عسير قوة قوامها ثلاثة آلاف شخص مؤلفة من سكان العارض وبدو قحطان، بقيادة عبد العزيز بن ساعد بن جلوي، وانضم إليها بعض السكان المحليين. وقد هزم الأمير حسن في موقع قرب العاصمة ابها، واحتل بن جلوي أراضي تمتد حتى المنطقة الواقعة تحت سيطرة محمد الإدريسي. ونظرًا لعدم توفر القوى لبسط سيطرة مباشرة على الإمارة، فإن عبد العزيز نقل الأمير حسن وابن عمه محمد إلى الرياض، وبعد أشهر أعادهما إلى أبها كعاملين من الرياض. استمر الصراع الداخلي في عسير، وأخيرًا تولى الإمارة المدعو فهد العقيلي، ولكن حسن تمكن من تدبير عصيان ضده واستولى على أبها بعد حصار دام عدة أيام. وقد ساعده الشريف حسين في الوقوف ضد صنائع النجديين[٣٧].

بعد سقوط حائل جهز عبد العزيز قوة قوامها زهاء ستة آلاف شخص أسند قيادتها الاسمية إلى ابنه الصبي فيصل، بينما تولى القيادة الفعلية ابن لؤي. غادرت القوة الرياض في حزيران ـ تموز (يونيو ـ يوليو) ١٩٢٢، وفي الطريق التحق بها قرابة أربعة آلاف بدوي من قحطان وزهران وشهران. وبعد الاستيلاء على واحة بيشة في أيلول تشرين الأول (سبتمبر ـ أكتوبر) عام ١٩٢٢ شارف فيصل مدينة أبها واستولى عليها دون قتال، وفر حسن بن عائض إلى الجبال. وقد أخفقت محاولة ملك الحجاز

لنجدته، وهزم الإخوان الحملة الحجازية. وبعد الاستيلاء على هذا الجزء من عسير، ولى فيصل إمارة ابها لسعد بن عفيصان وابقى معه حامية وعاد إلى الرياض في أوائل عام ١٩٢٣[٣٨]، وسرعان ما توفى ابن عفيصان فولي الإمارة بعده عبد العزيز بن إبراهيم. وبعد فترة من الزمن استسلم حسن ووجّه إلى الرياض حيث عاش مكرمًا[٣٩]. وبذا باءت بالفشل محاولة آل عائض لإنشاء إمارة مستقلة في شمال عسير.

الاستيلاء على الحجاز

عند حلول عام ١٩٢٣، غدا واضحًا ان الاصطدام بين الملك حسين والنجديين بات وشيكًا. وتزايد في الحجاز الاستياء من سلطة الملك، إذ ان الفساد والرشوة استشريا وأخذ جهاز الدولة يتآكل بفعلهما. وعند جباية الخراج المعتاد من الحجاج عمد الحسين إلى زيادة الزكاة لتعزيز قواته المسلحة واستاءت القبائل من محاولته إرسال قوات لجباية الضرائب، والتجأ الكثير من المستائين إلى نجد. وظل الملك حسين يعتبر عسير من ممتلكاته، وفي نيسان (أبريل) عام ١٩٢٣، حاصرت قوة من الحجاز مدينة ابها ولكن دون طائل[٤٠].

يشير حافظ وهبة إلى أن عبد العزيز قرر غزو الحجاز عام ١٩٢٣، غير أنه لم يكن واثقًا من موقف الحكومة البريطانية، فإن سلطان نجد لم ينس انها هي التي ارغمته على سحب قواته بعد معركة تربة، وحذرته من التقدم في الحجاز[٤١]. وبديهي ان ابن سعود كان على علم بالاستياء من نظام الحسين في الحجاز وكان ذلك من العوامل التي دفعته إلى التحرك. وفي الوقت نفسه بدأت حزازات بين الحسين والحجّاج الوافدين من الهند ومصر بسبب سوء الخدمات الطبية [٤٢].

ساءت العلاقات بين الإنجليز والملك الحسين الذي رفض إبرام معاهدة فرساي احتجاجًا على تسليم سورية للفرنسيين ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني. وفي عام ١٩٢١ وفد لورنس يحمل إلى الحسين عرضًا بعقد معاهدة بين بريطانيا والحجاز، يحصل بمقتضاها الملك على إعانات من بريطانيا ويعقد معها معاهدة عسكرية، وفي المقابل يعترف بأن لها مصالح خاصة في الحجاز. وأكد الحسين على انه لا يمكن أن يسود فلسطين السلام ما دام العرب يتهيبون من أن الهدف الأخير

للصهاينة يتمثل في إقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب مصالحهم القومية. وقد رفض ملك الحجاز توقيع المعاهدة وأهاب برئيس الوزراء البريطاني ان ينفذ الوعود التي قطعها أثناء الحرب ولكنه لم يحصل على جواب[٤٣].

وقد تراجعت هذه الخلافات إلى المقام الثاني بعد أن أعلن الشريف حسين نفسه خليفة في آذار (مارس) عام ١٩٢٤ (إثر إلغاء الخلافة في تركيا التي صارت جمهورية). وكان الحسين يأمل من وراء اعلانه الخلافة تعزيز سلطته وتأكيد مطامعه في ان يكون أميرًا لكل العرب، أو على الأقل المقيمين إلى الشرق من السويس. ولئن كانت هذه الخطوة قد قوبلت بالاستياء في مصر حيث كان الملك فؤاد يطمع في الخلافة، وفي أوساط المسلمين بجنوب آسيا، فإنها اعتبرت في نجد تحديًا لمشاعر الإخوان الدينية وسياسة السلطان ابن سعود. وعلاوة على ذلك فقد ازّم هذا القرار العلاقات بين الملك حسين والبريطانيين الذين خافوا من فقدان سيطرتهم على ملك الحجاز الذي كانوا يعتبرونه خصمًا محتملًا يقف عائقًا دون أحكام سيطرتهم الاستعمارية على الشرق الأوسط.

في تموز (يوليو) ١٩٢٤، افتتحت في جدة قنصلية عامة سوفييتية مما أثار حنق البريطانيين.

ولا يجدر ان ننسى وجود معاهدة شكلية عقدت بين بريطانيا ونجد عام ١٩١٥ حول الحماية. وأدرك سلطان نجد ان بريطانيا سوف تقف، على الأرجح، هذه المرة على الحياد في حالة قيام نزاع بينه وبين الحجاز[٤٤].

في تموز (يوليو) ١٩٢٤، جمع عبد العزيز قادة الإخوان الذين وفدوا إلى الرياض بمناسبة عيد الأضحى ليعرض عليهم مسألة غزو الحجاز فلقي عرضه صدى ايجابيا في نفوسهم[٤٥]. وقد أراد الإخوان ان يجاهدوا في سبيل «تطهير» بيت الله، ولكي يغنموا الأموال أجرًا لجهادهم.

قرر عبد العزيز ان ينزل ضربته الأولى بالطائف، قرب مكة. وفي ٥ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٢٤، دخل الإخوان الطائف ومكثوا فيها ينتظرون أوامر عبد العزيز. وكان قوام

قوات عبد العزيز مقاتلون من هجرة الغطغط بإمرة سلطان بن بجاد ومن هجر أخرى لعتيبة وقحطان وقبائل أخرى، وانضمت إليها قوة من الخرمة بقيادة ابن لؤي. وقد استولى الإخوان على خزين الذخائر العسكرية في الطائف، واستبيحت المدينة لمدة ثلاثة أيام، ففر الكثير من أبنائها وسقط الباقون صرعى بيد الإخوان. وقد روعت الحجاز للأمر[٤٦]، وفي ٢٢ أيلول (سبتمبر) أصدر عبد العزيز أمرًا حذر فيه بشدة من العودة إلى البطش وقطع عهدًا بالحفاظ على أموال أهل الحجاز ودمائهم[٤٧]. وثمة معطيات تفيد بأن أربعمائة رجل وامرأة وطفل قد قتلوا في الطائف[٤٨].

وقد حاول علي بن الحسين تجميع قوات في الهدة ووقف زحف الإخوان على مكة ولكنه مني بهزيمة أخرى في خاتمة المطاف[٤٩].

أصبح وضع الحسين ميؤوسًا منه، فاجتمع أعيان الحجاز، ومنهم أشراف مكة وعلماء الدين وكبار التجار، في جدة وقرروا خلع الحسين في محاولة لترضية ابن سعود. وبعد أخذ ورد وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده علي الذي نصب ملكًا على الحجاز في ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤. وشكل وجهاء الحجاز مجلسًا (حزبًا) وطنيا، وهو شيء اشبه بالبرلمان، وصارت الحجاز بمثابة «مملكة دستورية». وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع امتعته إلى جدة، وفي أواسط تشرين الأول (أكتوبر) غادر إلى العقبة ومنها نقله الإنجليز إلى قبرص[٥٠].

لم تتحقق الأمال المعقودة على ترضية ابن سعود. وبعد برهة دنا الإخوان من مكة، واضطر علي الانسحاب إلى جدة على رأس قوة من ٤٠٠ فرد. وفي أواسط تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٤ دخل الإخوان مكة وبنادقهم منكسة إلى أسفل. وتجدر الإشارة إلى أن نية عبد العزيز في التريث وعدم دخول مكة حتى يستبين فعل البريطانيين، قد صارت طيّ النسيان بعد إحراز النصر الأول. بيد أن سلطان جدة آثر المكوث في الرياض، كي يحمل الإخوان مسؤولية غزو الحجاز إذا ما تدخل البريطانيون. وعلى الرغم من نهب الكثير من بيوت أشراف مكة بعد استيلاء الإخوان عليها، فإن المدينة لم تشهد حمامات دم. وقد نصب الشريف بن لؤي أميرًا لمكة وظل ابن بجاد في الطائف[٥١].

كان أعيان جدة ومكة يأملون، بتنصيبهم علي ملكًا، بالتخلص من الغزو النجدي، لأن الكثيرين منهم اعتقدوا بأن خلاف سلطان نجد مع الملك حسين هو سبب المشاكل. غير أن السلطان أراد طرد الأسرة الهاشمية بأسرها من الحجاز ولم يوافق على عقد الصلح بشروط أخرى[٥٢].

حاول أعضاء المجلس الحجازي إجراء مفاوضات، ولكن ابن سعود أصر على وجوب مغادرة علي الحجاز. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ عاد وجهاء الحجاز إلى جدة وطلبوا من علي التنازل عن العرش. وبدأت مفاوضات بين أنصار علي وخصومه اضطر على أثرها المجلس إلى إعلان حله، وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤ اعتقل الكثير من خصوم علي[٥٣].

تجدر الإشارة إلى أن معتمدي الدول الأجنبية في جدة بعثوا إلى خالد بن لؤي رسالة يشيرون فيها إلى التزام حكوماتهم بالحياد ويطلبون ضمان حقوق رعاياهم وممتلكاتهم في جدة في حالة استمرار الحرب. ووعد خالد بأن يكفل الإخوان أمن الرعايا الأجانب[٥٤]. وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) غادر عبد العزيز الرياض على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل واستغرق طريقه إلى مكة ثلاثة أسابيع، وذلك لخشيته من تدخل البريطانيين في النزاع. ولكن حينما وصلت كتب من قناصل الدول الأجنبية تعلن الحياد التام، أدرك عبد العزيز ان الحجاز قد وضع تحت تصرفه[٥٥].

في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤، دخل عبد العزيز مكة، وفي الثالث عشر من الشهر نفسه نشرت جريدة «أم القرى» الرسمية التي بدأت بالصدور بلاغه الذي استعرض فيه برنامجه في الحجاز. وجاء فيه: «١. سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من الأعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة. ٢. سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا للمسلمين كافة في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكام الله في هذه البلاد المطهرة. ٣. إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله، ومما جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أو ما أقره

علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس. ٤. كل من كان من العلماء في هذه الديار أو من موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل...»[٥٦].

في فترة مكوث علي في جدة أجرى ابن سعود في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤ انتخابات في مكة كان الغرض المعلن منها تكوين نوع من الإدارة الذاتية، ولكن الهدف الحقيقي هو استمالة الوجهاء والتجار المحليين. وقد انتخب مجلس شورى قوامه ١١ عضوًا برئاسة الشيخ عبد القادر الشيبي وعين حافظ وهبه حاكمًا مدنيًا لمكة[٥٧].

سرعان ما حصل ابن سعود على تأكيد جديد لحياد الدول الأجنبية من قناصلها، وكان هذا أهم ما يصبو إليه. وعندما ألقت طائرة أرسلها علي بن الحسين مناشير فوق مكة يعلن فيها الملك عن اعتزامه استرداد المدينة، قرر عبد العزيز ان أوان العمل قد حان[٥٨]. وفي الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، دنت من جدة قوة اخوانية وبدأ حصار دام زهاء عام[٥٩]. حصن علي المدينة واحاطها بحقول ألغام. ووصل إلى المدينة بضع مجموعات من المسلمين السوريين والفلسطينيين واليمنيين، جندتهم الأسرة الهاشمية فيما يبدو[٦٠]. ويقدر خير الدين الزركلي تعداد القوات السعودية بـ ٥ ـ ٦ آلاف مقاتل معظمهم من عتيبة وبعض من مطير وكذلك من قبيلتي غامد وزهران الحجازيتين. وكان لدى علي زهاء ٥٠٠ مقاتل حجازي وبضع مئات من الفلسطينيين والمصريين واليمنيين والسوريين. وفي المدينة كان هناك ٢٠٠ بدوي وما يزيد على ٣٠٠ مقاتل من فلسطين وشرقي الأردن وزهاء ٢٥٠ يمنيا، وكان في ينبع حوالى ٣٠٠ من عتيبة وعقيل، وبضع مئات أخرى في سائر المناطق. بيد أن الجيش السعودي تناقص في خلال الحصار لأن البدو لا يطيقون البقاء أمدًا طويلًا عند الساحل القائظ[٦١].

ولم يحصل علي بن الحسين على عون يذكر من العراق وشرقي الأردن، وفي هذا الخصوص أشار عبد الحميد الخطيب في كتابه «الإمام العادل» إلى أن الإنجليز

تصرفوا وكأنهم يريدون ان يضمنوا لابن سعود النصر[٦٢]. وقد وافق عبد الله أمير شرقي الأردن على أن يتولى الإنجليز نقل أبيه الحسين من العقبة خوفًا من غزو قوات ابن سعود بحجة وجوده فيها. وفي أيار (مايو) ١٩٢٥ وصل الملك السابق إلى السويس حيث كان في استقباله معتمد الحجاز في القاهرة عبد الملك الخطيب وأخوه عبد الحميد الخطيب. وقال لهما الحسين ان الإنجليز هم الذين نفوه وخانوه لرفضه الاعتراف بوعد بلفور وتمسكه بحق العرب في دولة مستقلة[٦٣].

وفي مطلع عام ١٩٢٥، حاول مندوبون عن جمعية الخلاف الهندية وعدد من القناصل الأجانب التوسط بين علي وعبد العزيز. وفي شهر نيسان (أبريل) من العام نفسه عقد لقاء بين وزير خارجية حكومة جدة وعبد العزيز ولكنه لم يسفر عن نتيجة[٦٤].

في حزيران (يونيو) رفع الحصار عن جدة بسبب القيظ، وفي آب (أغسطس) توجه علي إلى الإنجليز بطلب آخر يناشدهم فيه التدخل ولكنهم رفضوا.

وقد أشار البريطاني جيلبرت كلايتون الامين العام السابق للحكومة في فلسطين، في ملاحظة دونها بدفتر مذكراته في أواسط تشرين الأول (أكتوبر) أثناء مروره بجدة، أشار إلى أن علي كان منهارًا معنويًا وجسديًا. وأعرب كلايتون عن استغرابه من إحجام عبد العزيز عن الاستيلاء على جدة التي تعاني من الجوع. ويبدو أن سلطان نجد آثر التريث حتى تستسلم له المدينة حقنًا للدماء[٦٥].

إبّان غزو الحجاز وبعد أحكام السيطرة عليه استمرت الغزوات على أراضي العراق. كما عبر الإخوان وادي سرحان ووصلوا إلى الحدود السورية وقطعوا شرقي الأردن عن العراق، مما جعل الممتلكات البريطانية في الشرق الأوسط عرضة للتقسيم[٦٦]. وبعد أن احتل عبد العزيز مكة بمباركة غير معلنة من قبل الإنجليز، أدرك ان عليه وضع حد لمطامعه في الشمال.

كان ذلك عشية عقد اتفاقيات لوكارنو، في وقت تأزمت ابانه العلاقات البريطانية

الفرنسية بسبب قضية الموصل، واهتزت مواقع بريطانيا بفعل مد الحركة القومية في فلسطين. لذا لم تشأ بريطانيا التدخل في النزاع بين نجد والحجاز تدخلًا صريحًا.

في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٥، وصل الكولونيل كلايتون إلى مقر عبد العزيز في الحجاز. وأظهر ابن سعود ثانية انه سياسي مرن ووافق على إعطاء تنازلات في الشمال مقابل اعتراف بريطانيا الفعلي بضمه الحجاز. وتمخضت المفاوضات عن إتفاقيتي بحرة وحدّة اللتين وقعتا في ١ و ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥. وتخص الاتفاقية الأولى العراق ونجد وتنص على أن غزو العشائر القاطنة في أراضي أي من الدولتين على أراضي الدولة الأخرى يعتبر اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه من قبل الحكومة التابعة لها. ونصت الاتفاقية على تأليف محكمة خاصة من ممثلي الحكومتين للنظر في تفاصيل أي تعد يقع من وراء حدود الدولتين. كما أشارت الاتفاقية إلى أن من حق العشيرة عبور الحدود لرعي الماشية بعد استحصال رخصة بذلك.

أما اتفاقية حدّة فقد ثبتت للمرة الأولى عمليًا الحدود بين نجد وشرقي الأردن، وتنازل بموجبها سلطان نجد لشرقي الأردن عن الممر الذي يربطه بالعراق. وتضمنت اتفاقية حدّة نصوصًا مماثلة لاتفاقية بحرة حول غزو الأراضي وتأليف محكمة للنظر في الدعاوى المتعلقة بذلك، وعن رخص الرعي، كما حظرت الاتفاقية الدعاية الدينية على أراضي البلد الآخر. ومن الواضح ان هذا البند له علاقة بالتبشير بالدعوة الاخوانية(٦٧).

وهكذا أقيمت الحدود مع الكويت والعراق ومع شرقي الأردن فعليًا، رغم ان نزاعات الحدود استفحلت بعد برهة وجيزة.

حينما بلغ ملك الحجاز نبأ إتفاقيتي بحرة وحدة، بينما رفض كلايتون مساندته، أدرك ان أيام حكمه معدودة. وقرر علي بن الحسين الاستسلام بعد تيقنه من أن اخويه في العراق والأردن حريصان على الاحتفاظ بعرشيهما أكثر من حرصهما على مؤازرته. وفي ١٦ كانون الأول (ديسمبر) أوفد على القنصل البريطاني للتباحث في

شروط الاستسلام مع ابن سعود، وقد استسلمت جدة في ٢٢ من الشهر نفسه وغادرها علي بن الحسين، وفي اليوم التالي، دخل عبد العزيز المدينة[٦٨].

في مطلع شباط (فبراير) ١٩٢٥، حينما كان حصار جدة في أوله، أرسل عبد العزيز قوة من الإخوان بإمرة فيصل الدويش إلى المدينة، ولكن السلطان حذر بشدة من دخول المدينة بدون إذن منه، خوفًا من تعرّض قبر النبي للأذى. وعندما لم يعد سكان المدينة قادرين على الصمود أمام الحصار كتبوا إلى عبد العزيز يعربون عن موافقتهم على تسليم المدينة ولكن لأحد أنجاله وليس للأخوان، فأرسل عبد العزيز ابنه محمد إلى هناك في تشرين الأول (أكتوبر). وفي هذه الأثناء استلم أهالي المدينة برقية من علي تعد بالنجدة، فأجلوا الاستسلام[٦٩]. وفي الشهر التالي أصبح وضع المدينة حرجًا ولم يبق أمل في النجدة، فقرر أعيانها الاستسلام، وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ دخل محمد المدينة وصلى في المسجد النبوي.

عشية سقوط جدة أبلغ أشراف مكة وعلماؤها وأعيان جدة عبد العزيز عن استعدادهم لمبايعته ملكًا على الحجاز. وفي ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ اجتمع الناس عند باب الصفا من المسجد الحرام بمكة وتلي نص البيعة، واطلقت المدفعية مئة طلقة. وتقبل عبد العزيز البيعة من أشراف مكة ثم الوجهاء والأعيان وأركان المحكمة الشرعية فالأئمة والخطباء وأعضاء المجلس البلدي، ثم أهل المدينة، ثم المطوفون والزمازمة وسدنة وخدم الكعبة، ثم سائر أهل المدينة ومكة[٧٠].

وأصبح عبد العزيز يعرف بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها.

وفي ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٦، اعترف الاتحاد السوفييتي رسميًا بحكومة الحجاز. وسلمت مذكرة إلى ابن سعود جاء فيها «... إن حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، انطلاقًا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، ونظرًا لاحترامها العميق لإرادة شعب الحجاز المعبر عنها في مبايعتكم ملكًا، تعترف بكم ملكًا للحجاز وسلطانًا لنجد وملحقاتها. وفي ضوء ذلك تعتبر الحكومة السوفييتية نفسها في حالة علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم».

وأعرب الملك في مذكره جوابية عن الشكر والاستعداد التام لمعاملة الحكومة السوفييتية ورعاياها بما يليق بالدولة الصديقة[٧١].

واعقب اعتراف الاتحاد السوفييتي بابن سعود اعتراف دول أخرى.

بايع وجهاء الحجاز سلطان نجد وهم يخشون تسلط «بدو نجد» على الحجاز الأكثر تطورا، فحاولوا الاحتفاظ بحقوق واسعة. وقد شكل ٥٦ من ممثلي الارستقراطية المحلية والعلماء والتجار «مجلسًا تأسيسيًا» قرر ان الحجاز يجب أن يظل مستقلًا عن نجد في الشؤون الخارجية والداخلية ولا يجمع بين مملكتي الحجاز ونجد إلا شخص الملك، وتشكل في الحجاز حكومة إسلامية ويشرع دستور يستمد أحكامه من القرآن والسنة. واقترح «المجلس التأسيسي» صياغة أشكال البناء الداخلي والأحكام الإدارية وفقًا للظروف المحلية. وخشي بعض الحجازيين من أن يكون ابن سعود ما زال واقعًا تحت تأثير المعاهدة المعقودة مع بريطانيا عام ١٩١٥ والتي تجعله تحت الحماية البريطانية، الأمر الذي يتناقض مع توقهم إلى الاستقلال[٧٢].

وحاول وجهاء الحجاز تحديد سلطة الملك، غير أن تناسب القوى كان لصالح ابن سعود. وفي عام ١٩٢٦ شكلت، وفق مرسوم ملكي، المجالس الاستشارية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف، وصار لها فيما بعد طابع بلدي، ومن ثم شكل مجلس شورى يضم ١٣ شخصًا[٧٣].

كانت الخطوة التالية تتمثل في الحصول على اعتراف بسلطة ابن سعود على الحجاز من لدن الدول الإسلامية، وان كانت هذه مسألة وقت ليس إلا.

وبعد استيلاء النجديين على الحجاز وصلت إلى نجد بعثة إسلامية من الهند طالبت بأن تتولى الاشراف على الأماكن المقدسة لجنة تمثل جميع البلدان الإسلامية. مكثت البعثة فترة قصيرة ولم يطق ابن سعود صبرًا فهيأ باخرة تنقلها إلى الهند[٧٤].

في عام ١٩٢٦، قرر ابن سعود الدعوة لمؤتمر إسلامي ينعقد في شهر حزيران (يونيو) بعد أداء فريضة الحج، لكي يضفي المزيد من «الشرعية» على توليه الحجاز.

ووجه ملك الحجاز الجديد رسائل إلى عاهلي مصر وأفغانستان وإلى الرئيس التركي وشاه إيران وملك العراق وأمير جمهورية الريف وإمام اليمن يحيى وسائر الحكومات الإسلامية، وإلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس ورئيس جمعية الخلافة في بومباي، يعاهدهم فيها بأنه سيرعى الأماكن المقدسة ويعمل على تهيئة ظروف أفضل للحجاج.

اجتمع في المؤتمر الإسلامي بمكة ٦٩ مندوبًا عن المنظمات الإسلامية في الهند ومصر والاتحاد السوفييتي وجاوا وفلسطين ولبنان وسوريا والسودان ونجد والحجاز وعسير وأفغانستان واليمن ومصر وغيرها. ولم يبق عبد العزيز لدى المؤتمرين شكا في انه سيد الحجاز ولن يسمح بالتدخل في شؤونه. وقد استاء البعض وغادروا المؤتمر ولكنهم لم يتمكنوا، بطبيعة الحال، من تغيير شيء. أما المتبقون فقد أقروا بالأمر الواقع[٧٥].

وقد أدلى المفتي رضا الدين سحر الدينوف رئيس وفد مسلمي روسيا وتركستان، رئيس الدائرة الدينية المركزية للمسلمين، بتصريح لمراسل وكالة تاس تحدث فيه عن اعتراف المؤتمرين بابن سعود «حاميًا للحرمين». ودعا المؤتمرون إلى إعادة العقبة ومعان إلى الحجاز، وبذا أيدوا عمليًا الملك الجديد[٧٦].

لقد أصبح النقاش حول تولي حماية البقاع المقدسة أمرًا عقيمًا بفعل عوامل عديدة تتمثل في انتصار القوات النجدية وموقف الحياد والتغاضي من قبل بريطانيا التي اختارت أهون الشرين أثناء غزو ابن سعود للحجاز وضحّت بالحسين، والسياسة الذكية للملك الجديد الذي جمع بين التشدد والمرونة.

جاء في رسالة صادرة عن القنصلية العامة السوفييتية في جدة عام ١٩٢٩: «ان الاستيلاء على الحجاز وعائداته من الحج والجمارك وما شاكلها (العائد السنوي من الحج وحده يصل إلى مليوني جنيه استرليني) يتيح لابن سعود إمكانية استثمار كل هذه الموارد الضخمة للحصول على منفعة سياسية كبيرة في نجد (إعانة المستوطنين الجدد ودفع مخصصات لشيوخ العشائر البدوية)... والتجار الذين يمثلون القوة

الرئيسية في الحجاز يميلون إلى الأمبراطورية البريطانية ويدعون إلى الاتفاق مع الإنجليز. البدو مستاؤون: فهم يدفعون زكاة مقدارها ٢,٥ بالمائة، والغزوات ممنوعة، وحرمهم استيراد السيارات من مداخيلهم، وليس ثمة إعانات من السلطان، كما أن الاستياء سائد في أوساط المطوفين الذين كانوا ينهبون الحجاج، لأن الدولة تنظم الحج وتستولي على عوائده»[٧٧].

أحدق بعبد العزيز الخطر، ولكنه لم يكن خطرًا خارجيًا، بل داخليًا مصدره الاخوان إياهم الذين الحقوا الحجاز بممتلكات السلطان.

الفصل الثاني عشر

توطد المركزية الإقطاعية وحركة الإخوان

(١٩٢٦ ـ ١٩٣٤)

الوضع في الحجاز

واجهت ابن سعود، بعد غزوه الحجاز، ضرورة إدارة بلد بلغ من التطور شأنًا يفوق بكثير شأن نجد، بل حتى الأحساء أيضًا. فقد تكون الجهاز الإداري البيروقراطي في الحجاز وفقًا للمعايير العثمانية وكان أرقى الأجهزة في الجزيرة. وعلى عهد الملك حسين صدرت حتى ميزانية تتضمن شرحًا للنفقات، على الرغم من انه لم يجر التقيد بها، بطبيعة الحال. كما ظهرت هناك النواة الأولى لجيش نظامي، وافتتحت مدارس ثانوية. وصدرت صحيفة رسمية هي «القبلة» تنم كتاباتها عن دراية بالعالم الخارجي، وغالبًا ما كانت تولي اهتمامًا كبيرًا للأحداث في أوروبا، وتنشر أنباء عن الأشغال العمومية مثل توسيع شبكة الهاتف وتنظيف الشوارع.

وقد استقر رأي عبد العزيز على إبقاء الهيكل الإداري الذي أقامه الحسين وابنه علي كما هو، على أن يوظفه لخدمته[١].

وكان على ابن سعود ان يوفق بين علماء الدين في نجد والحجاز ويحمل علماء مكة على التنازل لعلماء الرياض. وفي محاولة لإزالة الإشكالات عقد علماء الرياض سلسلة من الاجتماعات مع زملائهم المكيين، زعموا بعدها انه لا توجد خلافات جدية بين الطرفين.

وقد استمرت بعض الأشغال العمومية التي تولتها شركات أجنبية وبدأت بتنفيذها على عهد الحسين[٢].

عند غزو الحجاز كان ابن سعود يدرك أهمية التلفون والراديو لتعزيز سلطته، وأهمية السيارات للأغراض الاقتصادية والعسكرية. غير أن البدو والعلماء السلفيين كانوا يعتبرون التلفون والراديو منكرًا من عمل الشيطان. وقد حلّ هذا الأشكال بعد أن تليت عبر التلفون، ثم من الراديو آيات من القرآن[٣].

كما اعتبر الإخوان السيارة من بدع المشركين، ان لم تكن من عمل الشيطان. وقد أحرقت أول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة، وكاد سائقها يلقى المصير نفسه. ولم تكن الطائرة أوفر حظًا. إلا أن احتياجات المجتمع العملية كانت أقوى من الجهل والتحجر الذهني، لذا فإن السيارة والراديو والتلفون أخذت تنتشر على نطاق متسع في مملكة ابن سعود. وبعد عقدين أو ثلاثة أخذ علماء الدين أنفسهم يمتطون الطائرات[٤]،إلا أن الحظر ظل مفروضًا على الحاكي والسينما، وعلى الرغم من منع استيراد هاتين الآلتين فانهما انتشرتا في البيوت الخاصة[٥].

أدرك الملك ان عليه إقامة اعتبار لمصالح وجهاء الحجاز. وعندما عين ابنه فيصل نائبًا للملك في الحجاز (آب ـ أغسطس ١٩٢٦) أصدر في الوقت نفسه «التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية» بمثابة «دستور». وقد حددت وضع نائب الملك ومجلس الشورى والهيئات الإدارية[٦].

كان مجلس الشورى المؤلف عقب إعلان «الدستور» يضم كلا من الأمير فيصل بوصفه نائبًا للملك وأربعة مستشارين وستة من وجهاء الحجاز. ولا شك في ان كل أعضاء المجلس من ممثلي الارستقراطية الحجازية لم يكونوا من قبل مناصرين للحسين أو ابنه علي، حتى وان كانوا قد محضوهما التأييد فقد تخلوا عنهما. وفي عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥، كانت توجد في مكة جمعيات لها وظائف استشارية تضم الوجهاء وعلماء الدين والتجار، وكان بوسعها ان تطمح إلى الاستقلالية وترفع مطالب إلى الملك. ولكن أيًا من أعضاء هذه الجمعيات لم يعين في مجلس الشورى عام ١٩٢٦، لذا فمن المنطقي الافتراض بأن نشاطها قد أثار انزعاج ابن سعود[٧].

ان البون شاسع بين الجمعيات الأولى وبين مجلس الشورى المؤلف من أعضاء لا صوت لهم. لذا احكم عبد العزيز سيطرته على الحجاز دون منازع، واعترف به ملكًا على الحجاز داخل البلد وفي العالم الإسلامي كله، كما لم يكن بحاجة إلى ما يجمّل به واجهة حكمه. وعلاوة على ذلك يبدو أن عبد العزيز أحس بأن «دستور» الحجاز قد يصبح قدوة يطمح إليها أهل نجد، لذا قام بـ«وأد الوليد». في الأعوام التالية صار لحكومة فيصل في الحجاز طبع حكومات الشرق الأوسط البيروقراطية بشكلها البدائي، ولكنها كانت بعيدة عن الحكم الملكي الدستوري. واعتمدت هذه البيروقراطية على الحجازيين المتفوقين على النجديين من حيث مستوى التطور، رغم انها عملت تحت إشراف الأمير فيصل ومستشاريه المقربين.

وفي الوقت الذي حاول عبد العزيز ومجموعة من مستشاريه المتنورين إلى هذا الحد أو ذاك توظيف الجهاز الإداري في الحجاز لمصلحته، كان الإخوان قد عقدوا العزم على «تطهير» الحجاز من «البدع المنكرة» وهدم القباب التي اعتبروها مخالفة للإسلام. ويذهب حافظ وهبة إلى أن حماس الإخوان الجهلة للوهابية كان أكبر ما ابتليت به هذه الدعوة الإصلاحية على حد قوله[٨]. وقد واجه عبد العزيز، اثر غزوه الحجاز مشكلة التعامل مع الإخوان.

إذ إن الإخوان أزالوا في مكة الشاهد المقام عند موضع ولادة النبي وهدموا منزلي خديجة وأبي بكر[٩]. وأشار فيلبي الذي حضر موسم الحج ١٩٣١ إلى هدم كل الأضرحة والقباب في الحجاز وذكر ان ذلك سيجعل الأجيال القادمة تنسى الوقائع التاريخية المرتبطة بهذه الأماكن[١٠]. وإلى جانب الدافع الأخلاقي الديني، تأصل لدى الإخوان العداء البدوي لكل ما يبجله ويستأنس به الحضر في مدن الحجاز الذين اعتبروهم متنكرين للإسلام. ولما احتل الإخوان الطائف ومكة أخذوا يهشمون المرايا ويستخدمون أطر الأبواب والنوافذ كوقود للنار[١١]. وعلى الرغم من أن هذا واحد من طباع الغزاة المعتادة، فإنه كان تعبيرًا عن حقد البدو الدفين على «ترف» المدن. وقد اقترنت نزعة «الاخوة» لدى الإخوان بالتعصب الديني والعادات البدوية.

في عام ١٩٢٤، أمر خالد بن لؤي باحراق كمية كبيرة من التبوغ العائدة ملكيتها لمستوردين مكيين أثرياء، فشكوه لعبد العزيز الذي ألغى الأمر الصادر عن ابن لؤي ولكنه حرم استيراد التبغ مستقبلًا. وفيما بعد سمح ثانية باستيراد التبغ. ولكن استمر إيقاع العقوبة بالمدخن[١٢].

حينما اقصي خالد بن لؤي عن منصب حاكم مكة، عقب سقوط جدة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥، كان هذا يعني تصميم عبد العزيز على عدم إبقاء المناصب الإدارية الهامة في الحجاز بيد قادة الإخوان. وقبل ذلك، في أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، حظر رسميًا في مكة حمل الأسلحة النارية لتقييد تحركات الإخوان[١٣].

كان عبد العزيز يخشى تعدي الإخوان على الحجاج المسلمين، وبالفعل فقد جرحوا عددًا من الحجاج مما أثار احتجاج القناصل الأجانب، وحاولوا قتل عدد من المسلمين العاملين في القنصليات الأجنبية[١٤]. وسعى الملك لتوجيه طاقة الإخوان نحو غزو المدن والموانىء الواقعة بين جدة وخليج العقبة، ولكن سرعان ما أصبح الحجاز كله تحت سيطرته فلم يعد لجنوده عمل يؤدونه.

في مطلع موسم الحج صيف ١٩٢٦، وصل مكة المحمل المصري تصحبه الموسيقى، وعند اقترابه سمع الإخوان الذين كانوا بدون سلاح وليس عليهم سوى الاحرام، الموسيقى لأول مرة فاعتبروا ذلك ضربًا من الزندقة واستبد بهم الغضب فهبوا ليمنعوا تقدم الجمل الذي يقل المحمل. وهنا أعطى ضابط مصري أمرًا بإطلاق النار فقتل زهاء ٢٥ شخصًا. وعلى الفور أرسل عبد العزيز الذي كان قريبًا من المكان ولديه فيصل وسعود لتهدئة ثائرة الإخوان. وأمر الملك باحتجاز الضابط المصري ومنعه من مرافقة الحجاج علاوة على منع المحمل من دخول مكة[١٥]، ولكنه لم يقدم على إيقاع عقوبة شديدة نظرًا لانعقاد المؤتمر الإسلامي في مكة آنذاك[١٦]. وقد انقطعت العلاقات مع مصر إثر ذلك. غير أن الإخوان ظلوا أمدًا طويلًا يلومون عبد العزيز لانه لم يعاقب «المشركين» المصريين على قتلهم ٢٥ من الإخوان، وفيما بعد تذرع كل من فيصل الدويش وسلطان بن بجاد بهذا الحادث معتبرينه السبب الأول

للخلاف مع الملك[١٧]، واكدا على أن ابن سعود لم يسمح للإخوان بهدم المحمل فحسب، بل بسط حمايته على «الصنم».

شرع الملك بتطبيق ما يدعو إليه المذهب الوهابي بصرامة، وذلك لغرضين أولهما كسب رضا الإخوان وثانيهما تعزيز هيبته وسلطته. فإن المنقطع عن الصلاة يعاقب بالحبس مدة تراوح من ٢٤ ساعة إلى عشرة أيام وبغرامة. ومن يتعاطى الخمر يحبس لمدة شهر ويدفع غرامة، وإذا ما عاودها فيحبس لمدة قد تصل إلى سنتين. والعقاب الصارم يطال كل من يصنع الخمر أو يبيعها. وقد حظر التدخين ولكن لم يرد ذكر للمتاجرة به.

واقترن هذا التقيد الصارم بالوهابية بممارسة العنف والتنكيل بالخصوم السياسيين لآل سعود. ويتعرّض كل من يشارك في اجتماع الغرض منه نشر «الأفكار المنكرة» و«الأخبار الكاذبة» و«الاراجيف»، وكل من يشارك في اجتماعات مناوئة لسياسة الحكومة، يتعرّض لعقوبة الحبس لمدة تراوح بين سنتين وخمس سنوات، أو الطرد من مملكة الحجاز. وكان ينبغي استحصال رخصة من السلطات لعقد أي اجتماع حتى وان كان لأغراض خيرية[١٨].

غير أن التقيد الشديد بالاحكام الشرعية لم يدم أمدًا طويلًا. فبعد مغادرة الإخوان الحجاز خففت القيود المفروضة على المدخنين وصار بوسع الراغبين الحصول حتى على الخمر، ولم يعد أحد يهتم بطول الشارب.

أراد عبد العزيز ان يؤكد حرصه على نقاء الدين، ويحد في الوقت نفسه من تعسّف الإخوان، فأسس صيف ١٩٢٦ جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت إشراف عالمين من آل الشيخ[١٩]. وأمر ابن سعود الإخوان بأن يبلغوا الجماعة بكل منكر يرونه على ألّا ينزلوا العقاب بالناس وفق هواهم.

وبالتدريج تحولت الجماعة إلى ما يشبه الشرطة الدينية، وفيما بعد وضعت هيئات الأمر بالمعروف التابعة للجماعة تحت إشراف مديرية الشرطة. وعهدت إلى الهيئات القضايا المتعلقة بالغش والخداع في الأعمال التجارية والامتناع عن إخراج الزكاة

والافطار العلني والخروج عن أصول الحج وسفك الدماء وتعاطي أو بيع الخمر[٢٠]. وعند صيف ١٩٢٨، كانت الهيئات تساهم بنشاط في اجتماعات الحكومة وتشدد من رقابتها على أهالي الحجاز[٢١]. وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جديرة بأن تشمل سائر أنحاء البلاد، فأسس في الرياض مديرية الأمر بالمعروف في صيف ١٩٢٩، حينما بلغت انتفاضة الإخوان ذروتها[٢٢].

وقد ندد القيمون على الجماعة بالرئيس التركي مصطفى كمال (أتاتورك) والملك الأفغاني أمان الله بسبب ما أجرياه من إصلاحات. وقال تورياكولوف القنصل العام السوفييتي في جدة: «يصعب على المرء ان يتوقع موقفًا آخر إزاء كمال باشا وأمان الله من بلد يقوم وجوده ذاته على حساب الحرمين ويشكل كل «ابتداع» خطرًا يهدد المصالح المادية للاغلبية»[٢٣].

صارت هيئات الأمر بالمعروف أداة انتزع بواسطتها من الإخوان حق مراقبة تمسك الناس بأصول الدين. وقدمت الديمقراطية العشائرية، بشكلها الديني المتعصب، قربانا لجهاز الحكم في دولة إقطاعية مركزية.

كانت تصرفات الإخوان تبدو للوافدين الأوروبيين وللمتعلمين من مستشاري الملك نوعًا من «الغلو في التعصب» وحتى «الوحشية»، غير أنها مع ذلك كانت تنم عن سعي الجماهير الواسعة من عرب الجزيرة إلى الحياة البسيطة التي دعت إليها الوهابية. وتمسكت الجماهير بالدعوة إلى المساواة التي تضمنتها الوهابية، وحاولت تحقيق مثلها عمليًا وفق ما ترتئيه. وقد اصطدمت طموحات الإخوان وممارساتهم بالمصالح الفعلية لعلية الإقطاعيين. لذا فإن تسمية هبات الإخوان بأنها «رجعية سافرة» تبدو مغالاة في إبراز جانب واحد، بل حتى غير صائبة. فقد كانوا «رجعيين» بالقدر نفسه الذي كانت عليه «رجعية» المشاركين في الانتفاضات الفلاحية في عصر الاقطاع بأوروبا، بكل ما شهدته من بطش ويأس.

وعندما خابت آمال الإخوان وعادوا من الحجاز إلى هجرهم وقبائلهم في وسط الجزيرة، غدا واضحًا ان اشتباكهم مع دولة ابن سعود الإقطاعية المركزية بات وشيكًا.

المرحلة الأولى لانتفاضة الإخوان

بلغت العلاقات بين السلطة الإقطاعية المركزية والإخوان درجة الغليان بسبب تعاون عبد العزيز مع الإنجليز عند رسم الحدود مع الكويت والعراق والأردن، وبسبب سياسته في الحجاز. فقد اعتبر الإخوان ان غبنا اصابهم عند توزيع الغنائم في الحجاز، كما ان موافقة عبد العزيز على منع الغزوات على أراضي الكويت والعراق والأردن حرمهم من إمكانية تحسين أوضاعهم المادية عن طريق سلب «المشركين». وفي ظروف تعمق أزمة تربية الإبل وتخلف الزراعة في الهجر، كان الغزو المتستر بذرائع دينية يبدو للإخوان مخرجًا طبيعيًا يدفع عنهم غائلة الفقر والجوع[٢٤]. وأدّى تسامح عبد العزيز مع الشيعة في الأحساء والقطيف إلى زيادة الطين بلة[٢٥].

من تناقضات حركة الإخوان ان قادتها كانوا من شيوخ العشائر الإقطاعيين الطامحين إلى أن يصبحوا حكاما إقطاعيين مستقلين. وبذا صارت حركة الإخوان «الديمقراطية» من حيث تركيبها وعدد من مطالبها، أداة لخدمة النزعة الانفصالية الإقطاعية العشائرية. وكان من أبرز قادة الإخوان القائد العسكري والمقاتل الجسور، شيخ قبيلة مطير فيصل الدويش الذي عاد بعد سقوط جدة في أواخر عام ١٩٢٥ إلى مقره في الأرطاوية مستاء استياء شديدًا من عبد العزيز، إذ انه لم ينصب حاكمًا للمدينة المنورة كما كان يأمل[٢٦].وأضيف إلى ذلك التناحر بين مطير وآل سعود الذي خفت بعض الشيء قبل عام ١٩٢٥. يقول المؤرخ خالد الفرج:«اذا راجعنا تاريخ نجد وجدنا قبائل مطير دائمًا في صفوف أعداء آل سعود. وهم أول من تلقى طوسون باشا في الحجاز، ونقل حملته إلى القصيم. وانضموا إلى حملة إبراهيم باشا على الدرعية، وقاتلوا في صفوفه... وهم الذين هللوا لمقدم خورشيد باشا، وجاؤوا معه إلى أن ضربهم ابن سعود في وقعة جولبن فكسر شوكتهم». وحتى بعد انضمام فيصل الدويش إلى ابن سعود، فإن ١٥٠ رجلًا مسلحًا كانوا يصحبونه كلما يقدم الرياض. وكان الملك، كما يقول حافظ وهبة، «يعتبره صديقًا قديمًا وقائدًا من عظام قواده. وإذا جلس لا يجلس إلا في جوار الملك... وإذا استأذن في الرجوع إلى الأرطاوية قدم للملك قائمة تبتدىء من حبال الآبار.. إلى السلاح والجواري، وما بين ذلك من ملابس له ولأولاده وزوجاته»[٢٧].

وكان من المعارضين لابن سعود ضيدان بن حثلين شيخ العجمان وهم من أشد وأقدم خصوم آل سعود ولم يقهروا وينضموا إلى حركة الإخوان إلا منذ عهد قصير، وكذلك شيخ عتيبة سلطان بن حميد بن بجاد رغم ان عبد العزيز بن سعود هو الذي ساعده على أن يكون شيخا. وقد آمل ابن بجاد ان ينصب حاكمًا للطائف ولكن كان للملك رأي آخر[٢٨]. وقد كانت عتيبة أقوى وأكبر قبائل وسط الجزيرة بعد عنزة. وفيما بعد انضم إلى الحركة المناوئة لابن سعود واحد من مشايخ الرولة. وبذا فإن القبائل القاطنة إلى الشرق والشمال والغرب والجنوب الغربي من الرياض صارت معادية للسلطة المركزية. ومن المهم الإشارة إلى أننا لا نجد في معسكر المعادين لعبد العزيز ممثلي القبيلة الأكثر بأسًا وقوة وهي عنزة (باستثناء فخذ الرولة) وكذلك آل حرب، والقسم الأكبر من شمر. أي ان انتفاضة البدو لم تكن شاملة الأمر الذي انقذ النظام الملكي.

في مطلع عام ١٩٢٦ اجتمع فيصل الدويش وابن حثلين وابن بجاد في الغطغط واعدوا قائمة بمآخذهم على عبد العزيز، وصارت هذه القائمة أساسًا للتهم التي وجهت للملك في الاجتماع العام الذي عقده زعماء الإخوان من مطير وعتيبة والعجمان في تشرين الثاني ـ كانون الأول (نوفمبر ـ ديسمبر) ١٩٢٦ في الأرطاوية. وقد وجهت للملك سبع تهم:

١) سفرة ابنه سعود إلى مصر (إثر حادث المحمل).

٢) سفرة ابنه فيصل إلى لندن (في آب/أغسطس) ١٩٢٦ للتفاوض مع الإنجليز)، الأمر الذي يعني التعاون مع بلد الشرك.

٣) استخدام التلغراف والتلفون والسيارة في أراض إسلامية. وكانت هذه النقطة خليطًا من الاحتجاج الشعبي على تعزيز السلطة المركزية والعصبية البدوية.

٤) فرض رسوم جمركية على مسلمي نجد، وكان هذا في الواقع احتجاجًا على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب التي تجبى مركزيًا.

٥) منح قبائل الأردن والعراق حق الرعي في أراضي المسلمين ـ وهذا انعكاس للصراع بين القبائل في سبيل الحصول على المراعي.

٦) حظر المتاجرة مع الكويت. فلو كان سكان الكويت كفارًا فإن على عبد العزيز إعلان الجهاد ضدهم، وإن كانوا مسلمين فلا يجدر به الوقوف ضد المتاجرة معهم.

٧) التسامح مع الخوارج (الشيعة) في الأحساء والقطيف. فقد أراد الإخوان لعبد العزيز أما ان يهديهم إلى الإسلام أو يقتلهم(٢٩).

شعر عبد العزيز أن استياء الإخوان قد يتخذ طابع انتفاضة صريحة، فغادر الحجاز على عجل وعاد إلى الرياض في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧. وفي أواخر هذا الشهر دعا إلى العاصمة زهاء ثلاثة آلاف من الإخوان، وفي هذا الاجتماع قدم فيصل الدويش وابن بجاد وغيرهما من زعماء الإخوان المنشقين بنودهم السبعة. لم تكن الانتفاضة قد اتخذت طابعًا صريحًا بعد، لذا أخذ ابن سعود يبحث عن حل وسط فوافق على تقليص الضرائب ولكنه رفض نبذ اللاسلكي والسيارة. بل انه أقنع الحاضرين بمبايعته ملكًا لنجد والحجاز فأصبح لقبه «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها»(٣٠).

في شباط (فبراير) ١٩٢٧، أصدر علماء الرياض الذين اقلقتهم مطالب الإخوان فتوى اشتهرت فيما بعد. وقد وقعها ١٥ عالمًا الأمر الذي يدل على مدى تعقد الوضع. وتظاهر العلماء بأن موقفهم محايد إزاء التلغراف، ولكنهم نصحوا الإمام بهدم مسجد الحمزة وارغام الشيعة على دخول الإسلام أو طردهم من البلد. (نذكر بأن الوهابيين لا يعتبرون الشيعة مسلمين). وطالب العلماء الملك بمنع شيعة العراق من الرعي في أراضي المسلمين. كما طالبوا بأن يعيد الملك الضرائب المستوفاة خلافًا للشرع، ولكنهم اشاروا في الوقت نفسه إلى أن فرض ضرائب غير شرعية ليس سببًا كافيًا لتصديع وحدة المسلمين. كما أكدوا على أن الإمام هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إعلان الجهاد (٣١).

في مطلع نيسان (أبريل) ١٩٢٧، قرر عبد العزيز ان يعقد اجتماعًا آخر لشيوخ القبائل وزعماء الإخوان، فوفد إلى الرياض ما يزيد على ثلاثة آلاف من الإخوان، ولم يحضر ابن بجاد. وفي هذه المرة حاول عبد العزيز عزل فيصل الدويش الذي

اعتبره خصمه الرئيسي. ويبدو أن عبد العزيز تمكن في هذا اللقاء من استمالة فخذ من مطير وجعله معاديًا لفيصل(٣٢).

لكن الحركة المعارضة لابن سعود لم تقتصر على الإخوان. ففي صيف ١٩٢٧، اكتشفت مؤامرة تهدف إلى اغتيال سعود بن عبد العزيز في الرياض وعبد الله بن جلوى في الأحساء. وزعم ان بين المتآمرين شقيق عبد العزيز محمد وابنه (ابن محمد) خالد(٣٣).

لم يجرؤ فيصل على تحدي الملك جهارًا، فأخذ يستعد لشن غزوات على العراق. وكان يأمل من وراء ذلك توزيع الغنائم على أتباعه وحمل الملك على مساندته او،بخلاف ذلك، البرهنة على انه لم يعد مجاهدا في سبيل الله(٣٤). ظل الملك يترقب، إذ إن«الحذر كان دومًا السمة المميزة لعبد العزيز بن سعود ـ كما يقول غلوب ـ وكان واثقًا من قدرته على هزيمة خصومه من أمراء الجزيرة، ولكنه لم يكن مستعدًا لخوض معارك حربية ضد بريطانيا. أما الإخوان فقد كانوا مستعدين لإيراد أقوال عبد العزيز السابقة كحجة ضده. واعتبروا العراقيين خوارج وأعداء الله وقالوا إن ارواحهم وممتلكاتهم مباحة للإخوان باعتبارهم المؤمنين بالدين الحق. غير أن عبد العزيز كان مثالًا للحذر والتبصّر ولئن أيد العصبية فقد كان ذلك لغرض وحيد وهو استخدامها كأداة لبلوغ مآربه، بينما لم يكن هو نفسه متعصبًا قط»(٣٥).

على الرغم من أن وضع ابن سعود في المملكة صار مهزوزًا فإن الدبلوماسية البريطانية ظلّت ترى فيه القوة الفعلية الوحيدة في الجزيرة، القوة التي تعتزم التعاون معها. وتخلت بريطانيا عن آمالها في فرض أو إبقاء الحماية على الحجاز ونجد وملحقاتها. وكانت مملكة الجزيرة المترامية الأطرف والقليلة السكان محاطة بمستعمرات أو محميات أو بلدان تابعة للندن. وقدر الإنجليز ان المملكة، حتى وان ظلّت مستقلة، ليس بوسعها اتخاذ أي خطوات تضر بالمصالح البريطانية.

في أيار (مايو) ١٩٢٧، أجرى المندوب البريطاني كلايتون مفاوضات مع عبد العزيز في جدة، وفي العشرين من الشهر عقدت «معاهدة صداقة وحسن تفاهم».

وقد ألغت هذه المعاهدة النافذة لمدة سبعة أعوام، اتفاقية عام ١٩١٥ واعترفت «بالاستقلال التام والمطلق» لممتلكات ابن سعود. ومن الناحية الشكلية لم تنص المعاهدة على أي امتيازات خاصة لبريطانيا، ولكن ابن سعود التزم بالاعتراف بأن لها (أي لبريطانيا) علاقات خاصة مع إمارات الخليج ومحميات عدن. ولم يعترف الملك بإلحاق العقبة ومعان بشرق الأردن، إلا أنه التزم بمراعاة الأمر الواقع لحين رسم الحدود بين الحجاز وشرق الأردن بشكل نهائي[٣٦]. وكانت المعاهدة نجاحًا مهمًا للدبلوماسية السعودية وقننت استقلال الدولة الجديدة.

وسرعان ما أعطى الإنجليز الإخوان ذريعة لغزو أراضي العراق. ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٢٧، أرسلت مجموعة من الشرطة العراقية إلى آبار البضية الواقعة على الأراضي العراقية على مقربة من الحدود لبناء مخفر هناك. وقد احتج عبد العزيز استنادًا إلى اتفاقية المحمرة والبروتوكول رقم واحد الموقع في العقير. وردت الحكومة العراقية بأن البضية تقع داخل العراق على بعد ٨٠ ميلا عن الحدود، وان المخفر للشرطة وليس للجيش، في حين ان النجديين لم يكونوا يفرقون بين الشرطي والجندي[٣٧]. ولم يأبه الإنجليز باحتجاجات ابن سعود الذي طالب بإزالة المخفر، وذلك تحت ضغط الإخوان.

في ليلة السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٧، اباد مطير كل رجال الشرطة العراقيين باستثناء واحد. وتدخلت إلى جانب العراق الطائرات البريطانية التي ألقت قنابلها على البدو[٣٨].

وفي مطلع كانون الأول (ديسمبر) هاجم ٣٠٠ من مطير أراضي الكويت إلى الشمال الشرقي من الجهراء. وفي ١٣ من الشهر نفسه طلب ابن الصباح مساندة الطائرات البريطانية لمجابهة الغزوات. ولكن ابن سعود كان قبل ذلك قد أبلغ الحكومتين العراقية والكويتية بأن هذه الغزوات تجري خلافًا لأوامره[٣٩]. وفي ١٦ كانون الأول، أُعيد بناء مخفر البضية ورابطت فيه فصيلة من الجيش العراقي[٤٠]. ومن كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧ استخدمت الطائرات البريطانية على نطاق واسع ضد الإخوان،

ولكن كان من الصعب في الصحراء تمييز الإخوان عن غيرهم، فأدّت الغارات إلى مصرع سكان مسالمين. وقد استمرت غزوات الإخوان حتى شباط(فبراير).

وقد قال غلوب الذي عاصر تلك الأحداث وشارك فيها: «عام ١٩٢٧ لم يعد ابن سعود مسيطرًا على الوضع سيطرة تامة. فقد اغترّ الإخوان، إثر انتصاراتهم في الحجاز، بقوتهم وزعموا ان سيوفهم هي التي أعلت كلمة ابن سعود. وأدرك الإخوان انهم عماد جيش الملك الذي لم يكن لديه قوات نظامية لضبطهم. وكانت الانتفاضة الصريحة ضد ابن سعود صعبة، فهو الإمام ويحظى بتعاطف أهل نجد. ولكنهم اعتبروا ان من الواجب المقدس محاربة الشيعة العراقيين، لانهم خوارج ولكونهم تحت حماية الإنجليز. واتهم ابن سعود بالتسامح في الدين ورفض محاربة أعداء الله. ولم يكن النجديون، رغم مساندتهم لابن سعود، مستعدين لاستخدام القوة بهدف منع الإخوان من شن الغزوات على العراق التي تعني الاصطدام ببريطانيا. كما لم يكن بوسع ابن سعود ان يعترف للدول الأخرى بأنه لا يسيطر على رعاياه، وفي الوقت نفسه فإن الادعاء بأنه سيطر تمامًا عليهم كان ليعني تحمل مسؤولية غزوات الإخوان. وقد أعطاه بناء مخفر البضية ذريعة لاتهام العراق بالعدوان. وهكذا أصبح العراق بمثابة العدو المشترك لابن سعود والإخوان»[٤١]. وفي هذا الظرف آثر ملك الحجاز ونجد الاستمرار في تريثه. وفي(مارس) ١٩٢٨ ، عاد مطير إلى هجرهم بعد غزوات موفقة[٤٢].

في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨، التقى حافظ وهبة بالمندوب البريطاني هنري دوبس في الكويت، بعد أن حذر الإنجليز ابن سعود من أن الطيران سوف يستخدم بكل ضراوة ضد الإخوان إذا لم يوقف الملك الغزوات. ولكن الإنجليز استمروا في تزويد الملك بالذخائر. وفي آذار (١٩٢٨) أعلن ناطق باسم الحكومة البريطانية في مجلس العموم ان بلاده أعطت خلال الأشهر الأخيرة ثلاث مرات ترخيصًا بتصدير الذخيرة إلى ابن سعود[٤٣].

في مطلع نيسان(أبريل) ١٩٢٨ عقد في بريدة لقاء آخر مع الإخوان، ولكن فيصل الدويش وابن بجاد لم يحضرا إلى المدينة، بينما رفض عبد العزيز الالتقاء

بهما في البادية. ووعد الملك الإخوان بأنه سيجري مفاوضات مع الإنجليز ويحتج على إقامة المخفر[٤٤].

في أيار (مايو) ١٩٢٨، جرت مفاوضات بين عبد العزيز والمندوب البريطاني كلايتون، ولكنها لم تسفر عن شيء، كما لم يتمخض عن نتيجة اللقاء الآخر الذي عقد في آب (أغسطس) من العام نفسه. وقد أحس الإنجليز بأن عبد العزيز أخذ يفقد السيطرة التامة على البلد. وأدرك الطرفان انه لم يتبق لديهما سوى ستة أشهر يحل بعدها موسم الرعي الجديد الذي تعود فيه مناطق الحدود إلى حالة الفوضى[٤٥].

أمضى عبد العزيز صيف عام ١٩٢٨، كله في مكة يشن هجمات إعلامية ضد العراق، يبدو أن الغرض منها إقناع الإخوان بتمسكه بأصول الدين. ويقول فيلبي«إن ابن سعود شعر بالحاجة إلى الحد من تعصب أتباعه. وكان يعرف ان الحرب مع العراق، مع القوات البريطانية تعني كارثة، فقرر تحاشيها بأي ثمن. ولكنه كان يحس أيضًا ان الغليان في البادية بلغ حد تحديه لتسامحه مع المشركين»[٤٦].

وضع كبار زعماء الانتفاضة الاخوانية خطط اقتسام ممتلكات ابن سعود. فقد استقر الرأي على أن يكون فيصل الدويش حاكمًا لنجد وابن بجاد للحجاز وتعطى الأحساء لابن حثلين. ووعد نداء بن نهير، وهو من أبناء أحد أفخاذ شمر، بتنصيبه حاكمًا للحائل إذا ما انضم إلى قادة الإخوان ولكنه آثر التريث وظل وفيًا لابن سعود[٤٧].

في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨، عاد الملك إلى الرياض ووجد ان بعضا من أفخاذ العجمان قد اتحد مع فيصل وابن بجاد. أخذ الملك يعمل على عقد الجمعية العمومية للحضر والإخوان وحدد شهر تشرين الأول (أكتوبر) موعدا لها ولكن الجمعية لم تنعقد إلا في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٨[٤٨]. حضر الجمعية العمومية زعماء الإخوان وشيوخ العشائر وأشراف المدن وعلماء الدين، وتجاوز العدد الإجمالي للحاضرين ومرافقيهم الـ ٨٠٠ شخص، وتغيب عن الجمعية فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين، ولكن فيصل أوفد ابنه عزيز لحضورها. تحدث عبد العزيز في الحاضرين طويلًا وعدد منجزاته ومنها توحيد الجزيرة وإقامة صرح السلام. ثم لجأ

إلى حركة مسرحية باقتراحه التنازل عن العرش شريطة ان يبايع المجتمعون واحدًا من آل سعود ملكًا، وقال انه سوف يساعد من يختارونه. وتحدث عبد العزيز عن مفاوضاته مع الإنجليز وقال ان غزوات فيصل الدويش هي سبب تعنتهم.

فعلت الحركة المسرحية فعلها في الحاضرين، وخصوصًا سكان الحواضر وواحات نجد، الركيزة التقليدية لآل سعود، والذين كانوا يعرفون حق المعرفة ما قد يعنيه بالنسبة لهم غياب عبد العزيز وانتصار فيصل الدويش وابن بجاد. ووسط صياح «لا نريد بك بديلًا» أعرب كل الحاضرين عمليًا عن تأييدهم لسياسته و«إنكارهم» لزعماء الإخوان الثلاثة[٤٩]. ومن الواضح ان المجتمعين كانوا يدركون ان ابن سعود لا يتنازل عن العرش طائعًا، وانه كان قد بلغ من القوة والذكاء حدًا كبيرًا وأصبح مستعدا لمحاربة الإخوان. وتيقن أعيان الحواضر من ضرورة محاربة الإخوان، وقد لعب دورًا في ذلك السعي لحماية مصالحهم في مواجهة البدو الثائرين، إلى جانب نفور الحضر من البدو[٥٠]. غير أن الصعوبة تمثلت في ان حركة الإخوان اتخذت طابعًا دينيًا وزعم قادتها الثلاثة انهم حماة الدين الحقيقيون وان عبد العزيز يقدم مصالحه الشخصية على الإسلام ويتعاون مع الإنجليز الكفار[٥١].

ومع بداية موسم الرعي غدا واضحًا ان الحرب الأهلية قائمة لا محالة، رغم ان قبائل كثيرة اتخذت موقف التريث. وعوضًا عن الوقوف جهارًا ضد عبد العزيز آثر زعماء الإخوان الثلاثة شن غزوات على العراق، لكي لا يتهموا بالعصيان.

هاجم بن بجاد قرية الجميمة على الحدود مع العراق، وقتل كثيرًا من التجار بينهم عدد من أهالي نجد، ثم هاجم شمر. وقد جعل الإخوان أكبر القبائل وهي عنزة وقبيلة حرب الحجازية تتألبان ضدهم. وحصل ابن سعود الذي كان قبل شهر مهتز الثقة بنفسه، على دعم من البدو والحضر في نجد. وأبدى فيصل الدويش كياسة سياسية أكثر من ابن بجاد فاقتصر على مهاجمة العراقيين متظاهرًا بأنه من رعايا الملك الأوفياء ولم يقطع الأواصر معه بشكل لا رجعة فيه، كما ان الخلافات بينه وبين ابن بجاد تزايدت. وبعد مذبحة الجميمة وصل ابن سعود إلى القصيم حيث جهز حملة من المتطوعين النجديين الذين التحقوا بقواته عن طيب خاطر لان المزارعين والتجار

لم يشعروا بالأمان طالما استمر الإخوان البدو في نهبهم وتقتيلهم. وسار في ركب ابن سعود فخذ من العتيبة على رأسه عبد الرحمن بن ربيعان منافس ابن بجاد، ومشاري بن بصيص من مطير ودليم بن براك من هتيم وعدد كبير من قبيلة حرب وكل شمر نجد تقريبًا وجزء كبير من قبيلة الظفير وجزء من عنزة الحجاز، وكذلك ولد سليمان وغيرهم. وصار حضر نجد العمود الفقري لقوات الملك[٥٢].

في مطلع آذار(مارس) ١٩٢٩، بدأ ابن سعود حملته، وكان ابن بجاد وفيصل عند آبار السِّبْلة[٥٣].

جرت سلسلة من المفاوضات، وزار فيصل الدويش معسكر عبد العزيز ثم عاد إلى جماعته[٥٤]. وفي اليوم الثاني، في ٣١ آذار(مارس) ١٩٢٩، نشبت معركة السبلة. فقد حشد ابن سعود في الوسط مشاة من أهالي نجد، وجعل إخوانه وأبناءه على رأس مجموعات وبدأ الهجوم؛ وكان المتطوعون من البدو على الميمنة والميسرة. خسر الإخوان المعركة وأُصيب فيصل الدويش بجرح بالغ في بطنه، وتقدم سعود بن عبد العزيز على رأس مجموعة من أهالي الرياض وحرس الملك، ليكمل الانتصارات. وتحمل حضر نجد العبء الأساسي في المعركة[٥٥].

هرب فيصل الجريح إلى الأرطاوية وأوفد نساءه إلى الملك لكي يطلبن منه الرأفة والعفو. وحينما علم عبد العزيز بأن فيصل أُصيب بجرح شديد لان وعفا. وبعث بطبيبه الخاص إلى فيصل. ويبدو أن الغرض لم يكن المداواة فقط، بل معرفة مدى خطورة الإصابة. وعلى أي حال فقد أدرك عبد العزيز ان فيصل لم يعد له وجود كمنافس له[٥٦].

أما ابن بجاد فقد عاد بعد المعركة إلى الغطغط. وبعث إليه الملك رسالة يطلب منه فيها ان يستسلم هو وشيوخ القبائل الذين شاركوا في الانتفاضة. وقد انصاع ابن بجاد فحُبس وسواه من زعماء الانتفاضة في سجن بالأحساء وهناك قضوا نحبهم. وأمر عبد العزيز بتجريد هجرة الغطغط من السلاح وهدم بيوتها. وما زالت انقاضها قائمة حتى اليوم[٥٧].

اعتقد الملك ان انتفاضة الإخوان قد قمعت، فقصد المدينة ثم مكة للحج في أيار حزيران(مايو ـ يونيو) ١٩٢٩.

المرحلة الثانية من الانتفاضة

غير أن فيصل الدويش ظل على قيد الحياة ولم تحبط عزائمه، فعاد إلى تدبير غزوات ضد العراق.

وفي تلك الأثناء، كان ابن جلوي قد قرر معاقبة العجمان[٥٨]. ورغم عدم اشتراك ضيدان بن حثلين وقبيلته في معركة سبلة، إلا أن ابن جلوي اعتبر تصرفات العجمان السابقة حجة كافية لضربهم. وأوفد عبدالله بن جلوي ابنه فهد لاسر ضيدان بن حثلين بالقرب من هجرته في الصرار. وقام فهد باستدراج ضيدان إلى لقاء في البادية حيث أسره. وحينما اكتشف الإخوان من جماعة ابن حثلين ان زعيمهم لم يعد،طوقوا فورًا معسكر فهد الذي أمر بقتل ضيدان وخمسة من صحبه. وتلت ذلك معركة قتل إبّانها فهد، بينما انضم إلى المتمردين نايف بن حثلين وهو من أقرباء ضيدان وكان سابقًا من المعارضين للإخوان. وأدرك زعماء هجرة الصرار ان عبد الله بن جلوي سيعمل فور سماعه بمقتل ابنه على مهاجمتهم، لذا لمّوا ماشيتهم وحوائجهم ونزحوا إلى الشمال[٥٩]. ويقول ديكسون ان الغدر بضيدان الب بدو المناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ضد عبد العزيز رغم انه لم يكن مسؤولا عن ذلك[٦٠]. وعاد جمع كبير من العجمان الذين هجروا أراضي الكويت بضغط من الإنجليز، إلى الأحساء وانضموا إلى أفراد قبيلتهم.

بيد أن حلول الصيف وضع حدًا للمعارك الكبرى، وكان العجمان قد تمكنوا من الحصول على بعض العون من الكويت حيث اشتروا مؤنًا وذخائر في أسواقها. واحتج عبد العزيز فيما بعد لان الإنجليز تغاضوا عن هذه المشتريات[٦١]. ولكن كان في العراق والكويت من يتعاطف مع الثائرين لذا لم يكن بوسع الإنجليز السيطرة على كل الأمور. وازدادت قناعة الإنجليز من أن تحقيق أهدافهم في الكويت والعراق والأردن يتطلب منهم ان يساعدوا ابن سعود في قمع انتفاضة الإخوان وتوطيد نظامه.

انضم فيصل الدويش الذي قرر ان يرفع راية الانتفاضة مجددًا، إلى العجمان،

وفي منتصف تموز(يوليو) عمل وإياهم على قطع الطريق بين الرياض والهفوف. وقطعت عتيبة سبل الاتصال بين الحجاز ونجد. وفي البدء كان العجمان يرومون مهاجمة القطيف والمدن الساحلية في الأحساء ولكن العوازم اعترضوا طريقهم.هاجم العجمان العوازم لسلبهم ولكنهم ردوا على اعقابهم. وكانت تلك هزيمة نكراء مني بها العجمان ومطير لان العوازم يعتبرون من «مجهولي النسب» أو الهتمان.

دارت في البلد رحى حرب أهلية، وصار جامعو الخراج عرضة للقتل في كل مكان. ولم تعد طرق القوافل في الحجاز ونجد والأحساء آمنة[٦٢].

عاد الملك إلى الرياض في تموز(يوليو) ١٩٢٩ ومعه ٢٠٠ سيارة لاستخدامها ضد المنتفضين. واتفق في الحجاز على شراء أربع طائرات وخطط لإقامة شبكة من محطات الإذاعة في البلد. ولم يرس طلب إقامة الإذاعات على شركة ماركوني إلا في أواخر عام ١٩٣٠، أما الطائرات فقد وصلت إلى سواحل الأحساء في نهاية عام ١٩٢٩ حيث انتفت الحاجة لاستخدامها ضد البدو[٦٣].

في أيلول (سبتمبر)قرر ابن سعود القضاء على الثائرين، ودعا أمراء القطيف والأحساء والقصيم وحائل إلى تزويده بالرجال والمال والسلاح، واستنفر أهالي نجد من بدو وحضر، كما حصل على مؤازرة الهجر التي لم تنضم إلى فيصل الدويش.

أنزلت ضربة قوية بفيصل الدويش في أيلول (سبتمبر)، حينما ألحقت قوة يترأسها ابن مساعد، الهزيمة بقوات مطير بقيادة الشاب عزيز بن فيصل الدويش الذي قتل هو ونخبة من مطير في المعركة[٦٤].

وبعد بضعة أيام مني الدويش بهزيمة أخرى، إذ ان فخذًا من عتيبة له علاقة بالإخوان هزم من قبل فخذ آخر من القبيلة نفسها ظل مخلصًا لعبد العزيز وساندته وحدة بقيادة ابن لؤي من الخرمة[٦٥].

انتهى أمر الانتفاضة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩، هرب فيصل إلى الكويت آملًا في الحصول على حق اللجوء له ولرجاله ولإبقاء أفراد عائلته هناك

وأخذ وعد من الإنجليز بعدم قصف مطير. ولكن الإنجليز ظلوا يسوفون ولم يعطوا أي ضمانات. وكثرت حالات عبور الإخوان الحدود مع العراق في مجموعات غير منظمة هربا من ابن سعود. وكانت القوات العراقية محشدة إلى الشمال من الكويت، وقامت المصفحات البريطانية بطرد الإخوان ليعودوا إلى الأراضي السعودية[٦٦].

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩، أعلن عبد العزيز ان كل من اشترك في «الفتنة» يؤخذ ماله وجميع ما لديه من إبل وخيل وسلاح، وان كل من مالأ المنتفضين تؤخذ منه الذلول والفرس والبنادق، على أن يقسم كل ما ينتزع من المنتفضين على المشاركين في المعارك إلى جانب الملك. وأمر بأن كل هجرة «غلب الفساد على أهلها يطردون منها... ولا يسمح لفريق منهم بالاجتماع في مكان واحد»[٦٧].

في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٩ جمع عبد العزيز قوة من حضر العارض والوشم والقصيم وبعض الأفخاذ الموالية له من مطير وعتيبة وحرب ووحدات من قبائل سبيع وقحطان والدواسر، وبدأ بمطاردة فيصل. وجرت اشتباكات أدّت إلى هزيمة الإخوان، وفي أواخر الشهر نفسه بعث فيصل الدويش رسالة إلى عبد العزيز يطلب فيها العفو والأمان. ورد الملك بأن فيصل لم يعد له ألحق في العفو. غير أن المكاتبات استمرت بين الجانبين[٦٨]. وفي الوقت نفسه بعث فيصل رسالتين إلى ملك العراق وإلى الكابتن البريطاني غلوب يزعم فيها بأن مطير من رعايا العراق المخلصين. ولكن الإنجليز كانوا يميلون إلى القضاء على الإخوان. وفي نهاية كانون الأول، أصبحت فلول قوات الدويش محصورة بين قوات عبد العزيز والقوات البريطانية على الحدود بين نجد والعراق والكويت. وكانت قوات عبد العزيز ومدرعاته أكثر بكثير من المتمردين[٦٩].

في إحدى المعارك هزم آل حرب نفرا من مطير ففر هؤلاء إلى الكويت[٧٠]. وحينما نما الخبر إلى فيصل عبر في مطلع كانون الثاني ١٩٣٠ حدود إمارة الكويت. وحالما علم عبد العزيز بذلك كتب إلى المقيم البريطاني في الكويت ديكسون يحتج على السماح للإخوان بالالتجاء إلى الكويت والعراق والأردن. وفي اليوم التالي تلقى تعهدا بأن المتمردين سوف يُطردون[٧١].

ولكن لا يستبعد أن السلطات البريطانية والعراقية والكويتية كانت تريد الإبقاء على زعماء الإخوان كأداة في يدها للضغط على ابن سعود.

استسلم فيصل الدويش وسواه من زعماء الإخوان إلى السلطات البريطانية في العاشر من كانون الثاني(يناير) ١٩٣٠، فنقلوا بالطائرات إلى البصرة حيث وضعوا على متن بارجة بريطانية في شط العرب[٧٢]. وبعد يومين طالب عبد العزيز بتسليم زعماء الإخوان. وكان ملك العراق فيصل يدعو إلى منح حق اللجوء للإخوان ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه في الرأي. وصل إلى معسكر ابن سعود وفد بريطاني وجرت مفاوضات تم بعدها التوصل إلى اتفاق حول تسليم زعماء الإخوان للملك. ووعد الملك بالإبقاء على حياتهم، ومنع الغزوات على العراق والكويت. كما ان عبد العزيز تعهد بتعويض العراق والكويت عما ألحق بهما من أضرار ودفع عشرة آلاف جنيه تعويضا عن الخسائر التي سببتها غزوات الإخوان، وان يعين في أي وقت مندوبين إلى المحكمة المشتركة وفقًا لاتفاقية بحرة[٧٣].

في ٢٧ كانون الثاني (يناير)، نقل زعماء الإخوان الثلاثة إلى مخيم عبد العزيز حيث استقبل الملك عدوه اللدود المهزوم باللوم. ورفض فيصل الاعتراف بأنه ارتكب معصية أو خطأ. وقد نقل المعتقلون إلى سجن الرياض[٧٤]، وتوفي فيصل في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣١ في السجن. وظل حتى الرمق الأخير ثابت الجنان ومات وهو يقسم بمحاسبة عبد العزيز في يوم القيامة[٧٥]. وهكذا انتهت حياة فيصل الدويش، واحد من أبرز زعماء البدو، ولعله آخر وأكبر ممثلي عهد انصرم. وسرعان ما توفي الباقون من زعماء الإخوان في السجن، ولعل السجانين قد «أعانوهم» في ذلك[٧٦].

في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠، انتهت انتفاضة الإخوان عمليًا. وبذا انهزمت وتلاشت حركتهم التي لعبت دورًا مهمًا في تعزيز سلطة ابن سعود وغزواته. وتوقفت حتى عملية تحضر البدو وانتقالهم إلى الزراعة[٧٧]. وكانت للدولة الإقطاعية المركزية الغلبة على الحركة الشعبية للبدو الذين قاوموا، بشكل غريزي، تشديد الاضطهاد ووقفوا ضد التطلعات الإقطاعية الانفصالية لزعمائهم[٧٨].

أصبح بدو الجزيرة ولعقود طويلة تحت رحمة السلطات المركزية. ولكن لا يستطيع أحد ان يجزم ويحدد بثقة الجانب الذي سيلتزمه البدو في حالة الصراعات المحتملة مستقبلًا.

في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٣٠ وصل عبد العزيز إلى رأس تنورة، واستقبل على متن بارجة بريطانية حيث التقى بالمندوب السامي البريطاني في العراق همفرز والملك فيصل. وخلال اللقاء الذي دام ثلاثة أيام تبادل العاهلان العتاب، ولكن المصالح المشتركة كانت لها الغلبة في آخر الأمر، فاتفقا على عقد معاهدة للصداقة وحسن الجوار وقعت بعد أسابيع بإلحاح من البريطانيين. وإلى بضع سنواتٍ خلت، كانت الاسرتان المالكتان تتحاربان في الحجاز الذي اعتبره الهاشميون ملكًا متوارثا لهم. ولم تنس أسرة الشريف قط فقدانها مكة والمدينة والهزائم المنكرة التي ألحقها بها ابن سعود. بيد أن متطلبات السياسة الواقعية كانت الأقوى. وقررالعاهلان تبادل الاعتراف بينهما كملكين للدولتين وتبادل المبعوثين الدبلوماسيين واحترام كل طرف لحقوق العشائر والأراضي المشمولة بسيادة الطرف الآخر(٧٩).

بدا ان النظام السعودي قد أنجز بنجاح حل مشاكله الخارجية والداخلية، وصار بوسعه الخلود إلى عهد من الاستقرار النسبي. و كان على ابن سعود ان يمر، قبل حلول هذا العهد، باختبارين جديدين هما الحركات المسلحة في الحجاز وعسير والحرب مع اليمن، وان لم يشكلا خطرًا على سلطته.

التحركات المسلحة ضد ابن سعود في الحجاز وعسير

أثار نظام ابن سعود الذي فرض بقوة السلاح في الحجاز استياء شطر من أعيان المنطقة. وحافظ أعيان كثيرون وخصوصًا من عائلة الشريف على صلاتهم بأشقاء علي وهو آخر ملك هاشمي. ولم ينسَ عبد الله بن الحسين عاهل الأردن قط هزيمته على يد الإخوان في معركة تربة. وقد أثارت غيظه معاهدة الصداقة بين ملك العراق فيصل وعبد العزيز. وعلى الرغم من الوجود البريطاني في شرق الأردن واعتراف

بريطانيا الواضح بالنظام السعودي، فقد قرر عبد الله مساعدة العناصر المعارضة في الحجاز وتزويدها بالمال والسلاح.

بدا ان وضع الاستياء العام الذي عم الحجاز في أواخر العشرينيات كان في صالح المعارضين. وتعرّضت نجد والحجاز لجفاف خلال عامين متتاليين. وأدّت الحرب الأهلية بين الإخوان ونظام ابن سعود إلى دمار شامل وزعزعت الاقتصاد. وأحدثت الأزمة الاقتصادية العالمية لاعوام ١٩٢٩ـ١٩٣٣ آثارا موجعة في الجزيرة. فقد هبط تصدير المواشي والجلود والتمور، ولم يكن ثمة مال لتغطية استيرادات المواد الغذائية، وتقلص عدد الحجاج بشكل مأساوي(من ١٩١ ألفًا عام ١٩٢٦ إلى ٢٩ ألفًا عام ١٩٣٢)[٨٠]. وخوت الخزانة. وشرع الموظفون الذين لم تدفع رواتبهم لعدة أشهر بفرض اتاوات على السكان وتوقف دفع المخصصات لشيوخ العديد من القبائل. وبدأ الجوع يجتاح البلد[٨١].

غير أن الوضع الاقتصادي المزري واستياء السكان لم يكونا كافيين بحد ذاتهما لكي تحرز الحركات المناوئة للسعوديين داخل البلاد نجاحات تذكر. وكانت قد أنشئت في مصر، بعيد سقوط جدة رابطة الدفاع عن الحجاز ومن قادتها عبد الرؤوف الصبان والشقيقان الدباغ. وكان النزاع بين ملك مصر فؤاد وابن سعود قد دفع المصريين إلى تأييد هذه المنظمة المهجرية[٨٢]. في أواخر العشرينيات أسّس المعارضون الحجازيون، بتشجيع من الملك عبد الله، حزب الأحرار الحجازي لطرد النجديين من الحجاز وإقامة دولة مستقلة. وتزعم الحزب طاهر الدباغ الذي كان في زمن الملك سكريتيرا للحزب الوطني الحجازي. وكان بين قادة الحزب الجديد الشريف شاكر والشريف خالد وحسين الدباغ وعلي الدباغ ومحمد أمين. وحاول الأحرار الحجازيون تأسيس فروع للحزب في مختلف مدن العالم العربي. وتوجه حسين الدباغ إلى القاهرة مزودًا بمبلغ كبير من المال، حيث أقام صلة بحامد بن سالم ابن رفادة الملقب بالاعور وهو من شيوخ قبيلة بلي التي غادر عدد من أفرادها الحجاز إلى مصر بعد التحركات المناهضة لآل سعود عام١٩٢٩[٨٣].

وجرت مساع لايجاد أنصار في جنوب الجزيرة، فزار حسين الدباغ عدن حيث التقى بعدد من الادارسة القاطنين في المهجر. وكان يأمل أن تؤازر العمليات المسلحة في الشمال بانتفاضة في عسير، تليها انتفاضة شاملة في الحجاز. ولما عاد حسين الدباغ إلى القاهرة أكد لابن رفادة ان الاستياء يعم الجنوب وان الناس هناك في انتظار إشارة البدء.

في أواسط أيار (مايو) ١٩٢٩، عبر ابن رفادة وقبيلته الحدود المصرية قرب العقبة حيث زوده سعود الدباغ بالمؤونة. وسرعان ما ظهر ابن رفادة ومسلحوه في شمال الحجاز[٨٤].

ويبدو أن نشاطات «أحرار الحجاز» لم تكن خافية على ابن سعود. فما ان علم بظهور قوة ابن رفادة، حتى أمر في حزيران (يونيو) ١٩٣٢ باعتقال جميع المعارضين في مكة فورًا، وكان بينهم عدد من آل الدباغ، وحظر نشاط كل الأحزاب السياسية في الحجاز[٨٥].

وفي الوقت نفسه، أرسل عبد العزيز وحدات محمولة بالسيارات إلى ضبا والبدع لتطويق ابن رفادة. وتولت القوات البريطانية إغلاق الحدود بين شرق الأردن والسعودية ووصلت إلى العقبة باخرة بريطانية للحيلولة دون مرور المؤن والذخائر إلى الحجاز. وأغلق عبد العزيز الحدود من جهته[٨٦].

لم يحصل ابن رفادة ومسلحوه من قبيلة بلي على دعم السكان فاحتموا بجبل شار على بعد ٥٠ كيلومترًا من ضبا. واستدرجهم عبد العزيز من هناك بعد أن أوعز إلى أعيان ضبا بأن يبعثوا رسالة إلى ابن رفادة يعربون فيها عن استعدادهم للانضمام إلى حركته. فنزل زعيم البلي من الجبل ووقع في الكمين وطوقت وحدته وبعد معركة قصيرة دمرت تمامًا. وفي هذه المرة استخدم عبد العزيز السيارات والمصفحات على نطاق أوسع مما كان أثناء قمع انتفاضة الإخوان[٨٧].

بذا منيت مغامرة ابن رفادة و«أحرار الحجاز» بالهزيمة قبل أن تبدأ حركة أنصارهم المسلحة في عسير.

نصت المعاهدة المعقودة مع ابن سعود عام ١٩٢٠ على احتفاظ محمد الادريسي بالسيادة على جنوب عسير وجزء من تهامة اليمن. ولكن الوضع أخذ يتغير بشكل جذري بعد الاستيلاء على الحجاز. ففي ظل الدولة السعودية القوية تحول «استقلال» إمارة الادارسة إلى مسألة شكلية صرف. واستغل امام اليمن يحيى انشغال النجديين في عمليات بالحجاز، فضم إلى ممتلكاته الحديدة وجزءًا من تهامة في نيسان (أبريل) ١٩٢٥، مما أدّى إلى تأزم العلاقات بين ابن سعود ويحيى.

وبعد الاستيلاء على الحديدة تقدمت قوات أحمد بن يحيى نحو الشمال مهددة مراكز عسير الأساسية وهي جيزان وصبيا وابو عريش. وكان من الواضح ان الإمام يحيى يعتزم إلحاق جنوب عسير كله باليمن.

انتابت أمير عسير الجديد، الحسن الإدريسي. مخاوف من اليمنيين، فعقد في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٦ معاهدة حول الحماية السعودية لامارته، وتخلى الادارسة عن الاستقلال في السياسة الخارجية ولكنهم احتفظوا باستقلال ذاتي في الشؤون الداخلية. وكانت تلك بداية النزاع السعودي اليمني. سحب يحيى قواته المرابطة بالقرب من جيزان وصبيا، وفي حزيران (يونيو) ١٩٢٧، وصل صنعاء وفد سعودي للتفاوض. وأصر يحيى على أن عسير جزء من اليمن اقتطعه الادارسة «الغاصبون والطارئون» فيما مضى. وسعى السعوديون للبرهنة على أن هذه المنطقة لا ترتبط باليمن وطالبوا باستعادة جزء كبير من أراضي عسير التي احتلها الجيش اليمني عام ١٩٢٥، وصولا إلى باجل.

لم يكن اليمن مستعدا لتوسيع شقة الخلاف. فقد كانت حدوده الجنوبية تشهد اشتباكات متواصلة مع قوات بريطانيا ومحمياتها. وفي عام ١٩٢٨ قصفت الطائرات البريطانية عددًا من المدن اليمنية.

في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٠، فرض ابن سعود على الحسن الادريسي معاهدة جديدة حولت سلطة الأمير إلى مسألة شكلية صرف. ونصت المعاهدة على أن السلطة بكاملها ستنتقل إلى ابن سعود بعد وفاة الحسن. وعند ذاك شرع الادارسة بإقامة اتصالات سرية مع الإمام يحيى و«أحرار الحجاز».

شهد عامًا ١٩٣١ و ١٩٣٢ نزاعات مسلحة على الحدود السعودية اليمنية[٨٨].

كان حسين الدباغ قد وصل إلى مدينة اللحية الساحلية عام ١٩٣٠ مندوبًا عن حزب الأحرار الحجازي، واتفق مع الحسن على القيام بعمليات مشتركة، وبدأ تزويد أمير عسير بالمؤن والذخائر. وفي عام ١٩٣٢، حاول التحرر من الحماية السعودية.

بدأت الانتفاضة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢، وبعد بضعة أيام دمرت قوات الحسن ففر إلى صبيا. وجاء في تقرير للقنصلية السوفييتية في جدة: «ان الحركة في الجنوب قد هيئت من قبل المنظمة نفسها التي وجهت نشاطات ابن رفادة صيف ١٩٣٢، والتي عملت بإيعاز من عمان (شرق الأردن)... وكان نشاط المنظمة، كما في حالة هجوم ابن رفادة على الحجاز، يهدف إلى إقامة اتصال مع سواحل عسير واذكاء الدعاية المناوئة للسعوديين وإرسال موفدين الى«بعض البلدان الأوروبية» لشراء الأسلحة ونقل المؤن والذخائر إلى سواحل عسير بالقوارب الشراعية... وبعد بدء الانتفاضة وصل إلى جيزان قارب شراعي وعلى متنه علي الدباغ وعبد العزيز اليماني، وجلبا كمية من الأرز والطحين والتمر... ولكن بعد ثلاثة أيام من الحادث وصلت إلى جيزان وحدة حكومية ألقت القبض على اليماني. وحاول علي الدباغ الهرب على متن القارب الشراعي... وفيما بعد تلقت السلطات إبلاغا بأن علي الدباغ غرق في البحر»[٨٩].

إثر ذلك بقليل احتلت قوة سعودية بإمرة خالد بن لؤي وعبد العزيز بن مساعد عسير باكملها. وحاول الادارسة والقبائل الموالية لهم المقاومة في الجبال، ولكنهم فروا فيما بعد إلى اليمن. وطالب عبد العزيز بتسليم المتمردين ولكن الإمام يحيى اشترط لذلك ان يعد الملك بالعفو عنهم. وفي أيار (مايو) ١٩٣٣، عاد عدد من الادارسة إلى مكة حيث ظلوا تحت المراقبة ويتقاضون مرتبات[٩٠]. وأصبح حاكم عسير يعين من قبل الرياض.

منذ صيف ١٩٣٣، أصبح واضحًا ان النظام السعودي توطد وتحول إلى السيد غير المنازع في كل الأراضي الشاسعة لمملكة الحجاز ونجد وملحقاتها. وما السهولة

التي تم بها قمع الانتفاضات في شمال الحجاز ومن ثم في عسير، سوى تأكيد على ذلك.

في ١٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٣٢، أصدر ابن سعود في الرياض الأمر الملكي بنظام «توحيد المملكة» التي تقرر ان تعرف من ذلك الحين باسم المملكة العربية السعودية. ويشير النظام إلى أن هذا التحويل لن يكون له أي اثر على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية التي تبقى على قيمتها ومفعولها، شأنها النظامات والتعليمات والأوامر السابقة (الزركلي ٦٥٦). ويلزم النظام مجلس الوكلاء (الوزراء) الذي شكل في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١ بوضع النظام الأساسي للمملكة ونظام توارث العرش[٩١]. وفي عام ١٩٣٣، عين عبد العزيز ابنه سعود وليًا للعهد[٩٢].

ظل ابن سعود متمسكًا بتكتيكه المعتاد في العفو عن الخصوم الذين كفوا عن محاربته في الوقت المناسب وشراء المعارضة، وأعلن عام ١٩٣٥ العفو العام. وفي الوقت نفسه حل «حزب الأحرار الحجازي» نفسه. وعاد كثيرون إلى السعودية، فأصبح طاهر الدباغ مديرًا للمعارف والشيخ الصبان عضوًا في مجلس الشورى[٩٣].

الحرب السعودية اليمنية[٩٤]

ثمة أمور كثيرة كانت تجمع بين الحاكمين السعودي واليمني. فإن كلا منهما تزعم في نفس الوقت تقريبًا حركة توحيد بلده. وكل منهما حارب الأتراك وتمكن من الحصول على الاستقلال بعد الحرب العالمية الأولى. وشعر كلاهما بضغط الإمبريالية البريطانية. ولكن الصراع على عسير أدّى بهما إلى الاشتباك العسكري.

في نيسان (أبريل) ١٩٣٣، وأثناء قمع انتفاضة القبائل المناوئة للامام في شمال اليمن، استولى الأمير أحمد على نجران بحجة ان عشيرة يام التي تعتبر فخذًا من قبيلته همدان اليمنية قد ساعدت المتمردين. وفشلت المفاوضات التي أجراها وفد سعودي في صنعاء لتسوية النزاع. وقام الإيطاليون بتحريض الإمام ووعده بالمساعدة، وذلك سعيًا منهم لتعزيز نفوذهم في اليمن، كما حرضه البريطانيون الذين كانت لهم مصلحة في صرف اهتمام يحيى عن محمياتهم في عدن.

عاود اليمنيون الهجوم في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣، واحتلوا بدر. وبدأ الادارسة يستنهضون أنصارهم من قبائل عسير ضد ابن سعود. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) أمر ابن سعود بتعزيز القوات على الحدود ووجه إنذارًا إلى يحيى بوجوب الجلاء عن الأراضي المحتلة وإعادة الحدود إلى سابق عهدها وتسليم الادارسة.

وخشية من ضربة سعودية قدم الإمام يحيى تنازلات جزئية لبريطانيا لحماية حدوده الجنوبية. وفي شباط (فبراير) ١٩٣٤، وقع الحاكم العسكري البريطاني في عدن ريلي معاهدة في صنعاء «حول الصداقة والتعاون المتبادل» فسرها البريطانيون فيما بعد على انها تعني موافقة الإمام على السيطرة البريطانية في جنوب الجزيرة.

في أواخر شباط (فبراير) وأوائل آذار (مارس) عام ١٩٣٤، عقد في أبها لقاء جديد بين مندوبي المملكتين. وقرر ابن سعود التخفيف من مطالبه وعرض ان تكون منطقة نجران المتنازع عليها محايدة. وبما ان يحيى لم يعط جوابًا محددًا، فإن السعوديين بدأوا الهجوم.

كانت السعودية متهيئة للحرب أفضل من اليمن. إذ كانت قد حصلت على قرض من شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» وتمكنت من شراء السلاح. وظهرت لديها أول وحدات الجيش النظامي.

شن السعوديون هجومهم بطابورين: بمحاذاة تهامة وفي الجبال. وتمكن طابور بإمرة سعود من الاستيلاء على نجران بسرعة، ولكن تقدمه تباطأ في الجبال حيث كانت كل قرية قلعة حصينة.

وتقدمت قوة بإمرة فيصل في تهامة وفي الثاني من أيار (مايو) استولت على الحديدة دون أن تخوض معركة. وظهرت بعض الوحدات السعودية قرب تعز. ورفض ابن سعود اقتراح ابنه فيصل بالزحف على صنعاء. وقد أعاقت وعورة المنطقة تقدم السعوديين الذين لم يعتادوا خوض معارك في الجبال. أضف إلى ذلك ان سفنًا بريطانية وفرنسية وإيطالية اقتربت من الحديدة، وأنزل الإيطاليون المؤيدون للامام

قوة في الحديدة. وأدرك السعوديون انه لن يسمح لهم بإلحاق الحديدة ناهيك عن اليمن كله[٩٥]. وقرر ابن سعود الاكتفاء بالقليل.

في ١٥ أيار (مايو) ١٩٣٤، وقع الأمير فيصل وعبد الله الوزير، وهو من أقرب مساعدي الإمام، الهدنة واتفقا على شروط معاهدة الصلح. وفي العشرين من الشهر نفسه وقعا بالاحرف الأولى في الطائف على «معاهدة الصداقة الإسلامية والاخوة العربية». وأبرمت المعاهدة في اليمن والسعودية. وفي ٢٣ حزيران (يونيو)، نشرت الصحف الرسمية في مكة وصنعاء وفي القاهرة ودمشق في وقت واحد نص المعاهدة. تضمنت المعاهدة ٢٣ مادة وعهد تحكيم. وحددت مدة المعاهدة بعشرين سنة قابلة للتمديد. وأشارت المعاهدة إلى أن الشعبين السعودي واليمني هما من أمة واحدة، ونصت على إقامة علاقات سلمية وودية بين البلدين واعتراف كل منهما باستقلال الآخر وسيادته. وتخلى الإمام عن ادعاءاته بأراضي إمارة الادارسة، وفي المقابل تنسحب القوات السعودية من الأراضي التي احتلتها. وتقرر تدقيق رسم الحدود، وألزم الإمام بدفع مائة ألف جنيه استرليني ذهبي كتعويضات، وأنجز رسم الحدود عام ١٩٣٦.

بدأت العلاقات بين البلدين تأخذ مجراها الطبيعي، رغم ان ثلاثة حجاج يمنيين حاولوا في العام التالي قتل عبد العزيز بالخناجر في مكة لعقد المعاهدة. وقد أُصيب الأمير سعود الذي حما أبيه بجسده بجرح في ظهره وكتفه وقتل الحراس الأشخاص الذين قاموا بالهجوم.

بعد حرب ١٩٣٤، صارت العلاقات بين آل سعود وبيت حميد الدين ذات طابع ودي، وبدأ التعاون السياسي بين العاهلين السعودي واليمني.

الفصل الثالث عشر

البنية الاجتماعية السياسية للمملكة العربية السعودية إثر قيامها

شغلت المملكة العربية السعودية الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية وشملت عددًا من الكيانات الإقطاعية القبلية التي كانت تربطها علاقات تبعية متفاوتة بالأمبراطورية العثمانية. وكان قيام الدولة المركزية يستجيب لمصالح الصفوة وشيوخ العشائر عمومًا، وكذلك التجار ومعظم أهالي البلاد، إذ يوفر مستلزمات الأمن ويدفع ويلات النزاعات القبلية.

إلا أن مجيء الدولة المركزية اقترن بتزايد الضرائب وتضخم الجهاز العسكري البيروقراطي وتقييد الحريات «الديمقراطية» البدوية.

وقد اتخذ آل سعود من التبشير بالإصلاح الديني على الطريقة الوهابية ركيزة وراية في صراعهم من أجل توحيد أراضي نجد بزعامة الرياض. وفي حقبة تاريخية حرجة تزعم حركة الانبعاث الجديد لإمارة نجد زعيم ورجل دولة وقائد عسكري يعتبر فذا في الإطار المحلي، ألا وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن (ابن سعود).

وكان ينبغي أن تتوفر ظروف خارجية ملائمة ووضع دولي مناسب، لكي يصبح الطموح إلى المركزية وقيام الدولة المستقلة في نجد أمرًا واقعًا، ولكي تتمكن هذه الدولة من ضم بعض المقاطعات المجاورة. وقد ساعد على نجاح ابن سعود في المرحلة الأولى دعم بريطانيا له في كفاحه ضد الأمبراطورية العثمانية وولاتها،

وانهيار هذه الأمبراطورية نتيجة للحرب العالمية الأولى، كما ساعده بعد ذلك عجز بريطانيا التي أخذ الوهن يدب في اقتصادها، عن فرض سيطرة مباشرة على جزء كبير من الجزيرة العربية التي بدت للبريطانيين باهظة الثمن ومثقلة.

ان الباحث الموضوعي الذي يتعامل مع الوقائع لا يجد تغيرات جديرة بالاهتمام في مستوى تطور قوى الإنتاج في مجتمع الجزيرة خلال الثلث الأول من القرن العشرين بالمقارنة مع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بل يمكن الافتراض بأن الدمار الاقتصادي الذي أحدثته الحروب والانتفاضات المتتالية، بالإضافة إلى الأزمة المتفاقمة في تربية الإبل، قد أديا إلى انتكاس اقتصادي. وعند متابعة عملية نشوء العربية السعودية في القرن العشرين لا نجد فيها طبقات أو فئات أو شرائح جديدة تختلف مبدئيًا من حيث طابعها وموقعها في المجتمع عن القوى الاجتماعية التي كونت الدولة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر تحت لواء الوهابية. بعد الحرب العالمية الأولى طرحت في عدد من البلدان العربية ـ مصر، سوريا، فلسطين، العراق، الجزائر، المغرب ـ مسألة نيل الاستقلال الوطني للسير في طريق تطور مستقل يرتهن طابعه بتناسب القوى بين العناصر الإقطاعية والبرجوازية وبمستوى الاقتصاد ودرجة «التحديث» ونشوء عناصر الطبقة المتوسطة العصرية ونمو الطبقة العاملة. وفي هذه الأثناء لم تكن في العربية السعودية المستقلة سياسيًا حتى اجنة العلاقات الرأسمالية، بل ان الدولة تكونت على أساس إقطاعي قبلي بدائي في مجتمع قروسطي من حيث الجوهر. ولكن العربية السعودية لم تكن البتة معزولة عن العالم المحيط بها، لذا كان من المتعذر ان يبقى تركيبها الداخلي بمنأى عن التأثيرات الخارجية. وقد تجسد ذلك سواء في الأدوات الفنية لإقامة الدولة المركزية والإدارة (اللاسلكي، التلفون، الطيران، السيارات) أو في الأشكال التنظيمية: استحداث الجيش النظامي والوزارات والمديريات والنظام المدرسي. غير أن التصادم بين المؤسسات الاجتماعية السياسية التقليدية النابعة من مجتمع العربية السعودية نفسه والمناسبة للإقطاع الشرق أوسطي، وبين نزعات التحديث المستقدمة من الخارج، لم يخل بالاستقرار الاجتماعي السياسي في الدولة خلال العقد الأول. ويعزى ذلك، في المقام الأول، إلى الضعف

المطلق والنسبي لنزعة التحديث الوافدة من بلدان شرق أوسطية أكثر تطورًا بمراحل. كما يعزي إلى الهيمنة التامة للبنى التقليدية. ولم يبدأ التغير الجذري في الوضع إلا في أواخر الأربعينيات حينما أخلّ«انفجار» العوائد النفطية بالتوازن الاجتماعي القديم في البلد.

إن تسمية البلد نفسها ـ المملكة العربية السعودية ـ تعني انها واقعة تحت سيطرة آل سعود. ويرمز لون علم الدولة الاخضر إلى الجنة، وهو اللون الاثير لدى النبي محمد. وقد نقشت على العلم عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ورسم سيف أبيض يرمز إلى الجهاد.

سلطة الملك: العلاقات بين الصفوة الإقطاعية العشائرية وعلماء الدين

إن تغير ألقاب الحاكم السعودي هو انعكاس لما حدث من تغيرات في سلطته السياسية. ونعيد إلى الأذهان ان الأتراك كانوا يخاطبون ابن سعود بعبارة «حاكم نجد والقائد عبد العزيز باشا» بينما خاطبه الإنجليز بعبارة «الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الرحمن آل سعود». وفي عام ١٩٢١ بايعه الأمراء والشيوخ وعلماء الدين سلطانا لنجد وملحقاتها وأصبح يلقب بصاحب الجلالة في المكاتبات الرسمية. وفي عام ١٩٢٦، أصبح «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها)[١] وبعد عام «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها»، ومن ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢، ملك العربية السعودية. ولكن هذه الألقاب جميعًا كانت في المرحلة الأولى للاستهلاك الخارجي أساسًا، ولتعزيز الهيبة الدولية للبلد وحاكمه.

أما داخل البلد فقد ظل ابن سعود بالنسبة للحضر أميرًا، أي حاكمًا إقطاعيًا، لنجد والأراضي التي فتحها، لذا كان تحوّل لقبه إلى «سلطان» و«ملك» أمرًا طبيعيًا بالنسبة لهم. هذا بينما اعتبره البدو«شيخ المشايخ».

وقد أراد آل سعود تعزيز مكانتهم«كشيوخ للمشايخ» فأكدوا نسبهم إلى قبيلة عنزة وهي أكبر قبائل الجزيرة وأشدها بأسًا. وتمكن عبد العزيز من السيطرة على البدو

الكثيري العدد والصعبي القياد في السابق، وذلك باستخدامه الحاذق لارستقراطية القبائل والجمع بين أساليب الضغط والتنكيل وبين توزيع الهبات وإغداق العطايا على الأعيان.

خلعت على سلطة السعوديين المسوح الأبوية الديمقراطية. فقد كان بإمكان افقر البدو مخاطبة الملك بكل بساطة وبدون ألقاب. وكان عبد العزيز يحب ان يسمى ابن فيصل تذكيرًا بجده، أو ابن مقرن تذكيرًا بواحد من أسلافه واصل الفخذ السعودي، أو اخا نورا، وهي اخته الكبرى التي كنّ لها الحب والاحترام.

ثمة مثال أعلى للعربي القح ابن الجزيرة. انه مثال البدوي الذي تضفي عليه مسحة رومانسية في مجتمع الجزيرة وفي بعض البلدان العربية الأخرى: فهو محارب شجاع، يسهر على حماية الإسلام وسموح مع المغلوب، علاوة على انه رجل فحل. وقد تعمد ابن سعود ان يخلع على نفسه هذه الصفات طلبًا للهيبة والجاه[٢].

لكن «ديمقراطية» و«أبوية» الملك لم تخدعا كل من أدرك الموقع الحقيقي للملك الشديد البأس في نظام الدولة المركزية.

لقب عبد العزيز، شأن أسلافه، بالامام. ولم يكن ذلك يعني ان يؤم المصلين فحسب، بل يعني أيضًا زعامته لجميع «الموحدين» المناهضين «للمشركين» من مسلمي البلدان الأخرى. ورغم انحسار روح العصبية لدى الجماهير بعد فشل انتفاضة الإخوان، فإن أتباع الإمام بوصفه الزعيم الديني كان عامل توحيد للمجتمع وقد جعل من الدين هالة تضفى على أعلى سلطة في الدولة.

لقد كان رئيس دولة «الموحدين» في الوقت نفسه قائدهم العام الذي يستنهضهم ضد«المشركين». وأدّى عبد العزيز هذه المهمة بنجاح أثناء حروبه الاغتصابية.

حذا عبد العزيز حذو أسلافه في اتخاذ التقاليد الإسلامية، وبخاصة تعاليم ابن تيمية، مصادر يستمد منها الحجج لتدعيم السلطة المركزية. وكان ابن تيمية يرى ان المجتمع المثالي هو الذي يكون الرأي المطاع لفئتين: العلماء المتمسكين بالشريعة والأمراء الحائزين على السلطة السياسية اللازمة لتطبيق أحكام الشرع[٣].

ويجب على رعايا الأمير إطاعته دون قيد أو شرط(٤). والأمير هو المشرف على التطبيق السليم لأحكام الشرع التي تشمل المسلمين كافة، وهو الذي يتولى تنفيذ الأحكام القضائية ويقوم بعمل الخير والإشراف على الأشغال وتوفير الأمن للرعية وضمان عمل الخدمات العامة بشكل طبيعي، وهو أخيرًا الجهة التي تصدر عنها التوجيهات الاجتماعية والاقتصادية التي تكفل لكل فرد العزة في إطار الشريعة وطبقًا لموقعه في المجتمع(٥).

يتشاور الأمير مع العلماء في إدارة أعماله، ولكن من حق الأمراء التصرّف وفق ما تمليه عليه ضمائرهم(٦). والأمير ملزم بالتمسك بأحكام الكتاب والسنة وفقًا لتفسيرات العلماء. وهذا يوفر للعلماء وسائل هامة، وان كانت محددة، للتأثير والرقابة. ومن الناحية النظرية فإن الأمراء أحرار في تصرفاتهم في كل ما لا يتعلق بالدين، ولكن من الناحية العملية يتخلل الإسلام كل ميادين الحياة في السعودية. لذا يلعب العلماء في المجتمع الوهابي دورًا مهمًا ومما يزيد من هيبتهم ان الكبار منهم ينتسبون إلى آل الشيخ الذين تصاهروا مع آل سعود منذ أمد طويل.

إبّان الأزمة التي سببتها عصبية الإخوان عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٥، أصدر عبد العزيز مرسومًا، وأصدر العلماء فتوى، يدينان تعصب الإخوان ومغالاتهم(٧). غير أن علاقات ابن سعود بالعلماء شهدت فترات تأزم. وحسبنا التذكير بأن العلماء وقفوا ضد استخدام التلغراف واللاسلكي(٨). وعلى أي حال فقد كانت الغلبة لإرادة عبد العزيز عند حصول نزاعات حول قضايا كبرى ومبدئية. فذات مرة عارض العلماء زواج عربي غير وهابي على فتاة من إحدى عوائل الرياض العريقة، ولكن عبد العزيز لم يحفل برأيهم بل طرد ثلاثين عالمًا من نجد(٩). ولعل النزاع حول هذه المسألة كان مجرد حجة اتخذها الحاكم للتخلص من علماء لا يستأنس بهم.

وكان يطلب من كل فرد في البلد اطاعة الأمير وإسداءه النصح عند الاقتضاء(١٠). وفي عام ١٩٥٠، قال فيصل في خطاب ألقاه عند افتتاح مجلس الشورى إن «واجب الرعية هو مساعدة الجهات المنوط بها أمر التنفيذ، لتسهيل مهمات السير بحسب الأوامر والتوجيهات التي توجه إليهم»(١١).

كان عبد العزيز يتظاهر دومًا باحترام العلماء ولهم في مجلسه كلمة مسموعة، كما، انه كان يستمع إلى نصحهم.

وقد أظهر العلماء سلطتهم حينما قرر ابن سعود الاحتفال بالذكرى الخمسين لجلوسه على العرش. ورد العلماء بأن الإسلام لا يعرف عيدًا من هذا القبيل فوافق الملك على رأيهم. وفي بعض الحالات كان عبد العزيز يتعامل مع ملاحظات العلماء بروح النكتة. فقد روي انه كان يتمشى في قصره بالرياض وعليه ثوب طويل يمس الأرض. فدخل عليه أحد العلماء وقال « الله يا عبد العزيز! لقد دخلك الكبر وصرت تجر ذيلك وراءك». التفت عبد العزيز إلى الخدم في الحال قائلًا: «هاتوا المقص». فلما جاؤوا به أعطاه إلى الشيخ وقال: «قص ما تراه مخالفًا للدين!»[١٢].

كتب فيلبي عام ١٩٢٨ يقول إن عدد العلماء ستة في الرياض وثلاثة في القصيم وثلاثة في الأحساء وهناك عالم واحد في كل من مناطق نجد الأخرى، ويقرب عددهم الإجمالي من العشرين[١٣]. ويبدو انه يقصد كبار العلماء فقط. وعلى أي حال فإن عددهم في العاصمة كان يتغير من عام لعام.

كان العلماء في السعودية يعتبرون متضلعين في الفقه والشرع بفضل عمق ايمانهم وانكبابهم على الدراسة. ومن الطبيعي ان العلماء ينتسبون في العادة إلى قبائل «كريمة المحتد» أو من السادة، الذين يعتبرون من سبط النبي. إلا أن أكثر علماء السعودية هيبة وثقة هم أفراد آل الشيخ، على الرغم من انهم ليسوا من السادة. وكانت تربط آل الشيخ صلات قربى مع عبد العزيز تعود إلى زمن عبد العزيز الأول وابن عبد الوهاب. وكان الملك فيصل الذي قتل عام ١٩٧٥ ابنا لعبد العزيز من زوجة من آل الشيخ.

حينما حان الوقت لإجراء تحديث ولو جزئي في الدولة الإقطاعية وقف العلماء وقفة حازمة ضد التغيير، وما برحوا متمسكين بموقفهم حتى يومنا هذا. وفي حزيران (يونيو) ١٩٣٠، احتج العلماء الذين اجتمعوا بمكة على إدراج مواد مثل الجغرافيا واللغات الأجنبية والتخطيط الهندسي في برنامج مديرية المعارف المؤسسة حديثًا.

وزعموا ان التخطيط الهندسي هو تصوير بكل حال، أما اللغات فاعتبروها وسيلة لمعرفة الأفكار الدينية للمشركين، وأثارت الجغرافيا نقمتهم لقولها بكروية الأرض. بيد أن عبد العزيز تجاهل احتجاجاتهم(١٤). وفي حالات أخرى وقف علماء الرياض إلى جانب عبد العزيز مناهضين لتعصب الإخوان.

في مطلع الخمسينيات تكون نوع من السلم الوظيفي بين علماء الدين. فقد اعتبر مفتي الديار السعودية بمثابة رئيس للعلماء. وحظي بهيبة خاصة رئيس جماعة الأمر بالمعروف في الرياض وقاضي القضاة في مكة وقاضي الدلم وقاضيا المحكمة الشرعية في الرياض وعضو لجنة الأمر بالمعروف في الرياض(١٥).

لعب عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وهو فقيه وخطيب شهير من آل الشيخ، دورًا مهمًا في إرساء الركيزة الدينية للدولة المركزية. وقد درس في المدينة وتونس والقاهرة وطاف المغرب واسبانيا والهند وأفغانستان وإيران والعراق. وقد انضم إلى آل سعود إبّان فترة نفيهم في الكويت وتتلمذ عليه عبد العزيز. وظل عبد الله حتى وفاته عام ١٩٢٥ زعيمًا لا ينافس لآل الشيخ(١٦). ويقول فيلبي انه كان يلقي خطب الجمعة في مسجد الشيخ عبد الله بحي العلماء في الرياض ومواعظ في المسجد الجامع بالرياض، كما انه كان قاضي القضاة في العاصمة(١٧).

أدّى قيام المملكة العربية السعودية وتوطد استقلالها وانبعاث بعض المؤسسات الاجتماعية السياسية الإسلامية إلى استثارة الاهتمام بالوهابية من جديد خارج حدود المملكة. ففي مصر وجدت مجموعة محمد رشيد رضا التي كانت مجلة «المنار» أساسًا لها، وجدت في الوهابية آراء مماثلة لما تدعو إليه. فقد كانت هذه المجموعة تدعوالى«تحديث» المجتمع الإسلامي بالاستفادة من منجزات الحضارة الغربية (الأوروبية، الرأسمالية) وتطالب من جهة أخرى بالعودة غير المشروطة إلى القيم الإسلامية وبعث الأفكار والمؤسسات التي كانت قائمة في صدر الإسلام، واعتمادها في كل مناحي الحياة. وقد هيأت مجموعة رضا التربة لانتشار أفكار حسن البنا مؤسس حركة «الإخوان المسلمين». وألف رضا نفسه عدة كتب يثني فيها على الوهابية.

وفي داخل مصر كان يمكن اعتبار ذلك تعبيرًا عن الميول المعارضة للملك فؤاد، لان العلاقات بين مصر والسعودية ظلّت مقطوعة حتى عام ١٩٣٦ بسبب حادث المحمل.

تنظيم سلطة الدولة والإدارة في نجد

في معرض الحديث عن أوضاع نجد والحجاز في الدولة الموحدة قال فؤاد حمزة: «أما من الوجهة الحقوقية والقانونية فإن كلا من الحجاز ونجد كان مملكة مستقلة عن الأخرى لا تجمع بينهما إلا رابطة العرش المشتركة وشخص الجالس على هذا العرش»[١٨]. ومن جهة أخرى أشار المؤلف إلى أنه لم تكن بين المملكتين حدود مرسومة ولا رسوم، ولهما سياسة خارجية موحدة، ناهيك عن القوات المسلحة الموحدة وهي بيت القصيد. وفي فترة ١٥ـ ١٦ عامًا الأولى كانت الفروق في الإدارة بين شقّي المملكة ملموسة، ولكنها تضاءلت بالتدريج. وكانت السلطة الفعلية كلها في يد الملك ابن سعود وحاشيته.

قام البلاط الملكي في الرياض بوظائف الحكومة في البلد كله وفي الوقت نفسه كان يؤدي وظائف حكومة نجد. ويفصل الزركلي الوثيق المعرفة بالبلاط تركيبه على النحو التالي[١٩]:

١ ـ المجلس الخاص وكان الملك يسمي اعضاءه بالجماعة أو «الربع». وكان هؤلاء يعقدون، برئاسة الملك، اجتماعين في اليوم: قبل الغداء وفي المساء. ويحضر المجلس شقيق عبد العزيز الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وولي العهد سعود ونائب ملك الحجاز فيصل، ان كان متواجدًا في الرياض. ثم كان يحضره الوزراء والمستشارون وكبار العلماء وسائر الوزراء والسفراء السعوديين الموجودين في الرياض. وقد يضم المجلس أمراء المناطق وشيوخ القبائل.

٢ ـ الشعبة السياسية واختصاصها الشؤون الخارجية.

٣ ـ الديوان الملكي واختصاصه الشؤون الداخلية .

٤ ـ شعبة الشفرة والبرقيات.

٥ ـ شعبة البادية واختصاصها داخلية نجد.

٦ ـ شعبة المحاسبات والاعطيات.

٧ ـ شعبة الوفود والضيافة. واختصاصها السهر على راحة الوفود والاشراف على القصور الملكية المخصصة لضيوف الملك. وكان الوافدون يقسمون إلى ثلاث فئات: كبار الضيوف، ووفود الحضر، ووفود البلاد.

٨ ـ الخاصة الملكية واختصاصها ما يتعلق بشؤون القصر الملكي.

٩ـ شعبة أهل الجهاد واختصاصها النظر في شؤون الجند غير النظامي.

١٠ ـ شعبة الخزينة الخاصة.

١١ ـ شعبة المخازن الخاصة(المستودعات).

١٢ ـ شعبة الحاشية.

١٣ ـ شعبة الخيل.

١٤ـ شعبة الإبل واختصاصها النظر في إبل«الخاصة الملكية».

١٥ ـ شعبة السيارات.

١٦ ـ شعبة الإذاعة التي أسّست بعد ظهور اللاسلكي في البلد، وكانت تتولى أيضًا الانصات بالعربية واللغات الأجنبية وتعد نشرات موجزة للملك.

١٧ـ شعبة الحرس الملكي.

١٨ ـ الشعبة الصحية واختصاصها طبابة القصر الملكي.

ويتطابق وصف الزركلي للبلاط الملكي مع ما أورد نالينو عمومًا[٢٠]، ولكن هذا أدرج ضمن سلسلة وظائف الديوان الملكي شؤون الحجاز وعسير والأحساء، وذكر شعبتي الزكاة والخزانة العامة اللتين الغيتا شكليًا بتأسيس وزارة المالية، وشعبة التلاوات والمؤذنين التي لم يذكرها الزركلي. ولكن لا يعتقد ان هناك تعارضًا بين المؤلفين. فالأرجح أن شعب البلاط الملكي كان يمكن أن تظهر وتختفي وتدمج، يعلو شأنها أو تصبح ثانوية تبعًا لوزن مسؤوليها وعمق صلتهم بالملك. ولم تكن توجد

أي قواعد مكتوبة أو أحكام مدونة تثبت بنية البلاط الملكي، وظلت الكلمة الفصل في كل القضايا للملك[٢١].

أما بالنسبة للمحافظات الرئيسية فإن الملك كان يعين أمراءها للفترة التي يرتئيها. ولم توجد في الثلاثينيات قوانين أو أصول للإدارة المحلية في نجد وملحقاتها. وكان أمراء التقسيمات الإدارية الأصغر يعينون من قبل حكام المقاطعات، ولكن بوسع الملك التدخل في اختيارهم. وفي البدء كان البلد، باستثناء الحجاز، مقسمًا كما يقول فؤاد حمزة[٢٢]. إلى خمس مقاطعات كبرى هي نجد التي ضمت إليها العارض والمناطق المجاورة، والقصيم وجبل شمر والأحساء (حيث يحكم آل جلوي)وعسير. ومن الناحية العملية فصلت عن جبل شمر مقاطعة وادي سرحان، بينما قسمت عسير إلى عسير وعاصمتها ابها وتهامة ونجران[٢٣].

واسندت إلى سلطات المحافظات مهمة الإشراف على قبائل البدو. ويذكر ماكاي فرودا ان قبائل عتيبة وجزءًا من مطير والدواسر وقحطان وسبيع كانت تابعة لحاكم العارض، وان العجمان وبني هاجر وبني خالد والحوازم والمناصير وآل مرة وجزءًا آخر من مطير تابعة لحاكم الأحساء، وجعلت شمر وشرارات وجزءًا ثالث من مطير تحت إشراف أمير جبل شمر[٢٤]. وتجدر الإشارة إلى أن قبيلة مطير المتمردة على آل سعود قسمت إلى ثلاثة أقسام.

لم يقنن الحكم الذاتي للمنطقة الشرقية بمراسم خاصة، ولكن في أواخر الثلاثينيات كان قد تم هناك استحداث مؤسّسات بيروقراطية خاضعة لابن جلوي، وجعل أقرباء بن جلوي حكامًا لأهم الواحات وشكلت في الهفوف مديريات الشرطة والمالية والجمارك وخفر السواحل وفرع لمديرية المعادن في جدة[٢٥].

إدارة الحجاز

أقام ابن سعود في الحجاز نظامًا معقدًا للسلطة والإدارة. ففي آب (أغسطس) ١٩٢٦، أصدر الملك وثيقة تعرف باسم«التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية» وهي تسمى أحيانًا «الدستور». وتنص الوثيقة على أن «المملكة...مرتبطة بعضها

ببعض ارتباطًا لا يقبل التجزئة ولا الانفصال بوجه من الوجوه» و أن الحجاز «دولة ملكية شورية إسلامية مستقلة في داخليتها وخارجيتها» وأن «مكة المكرمة عاصمة الدولة الحجازية». وأن «إدارة المملكة بيد صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وهو مقيد بأحكام الشرع».

ونصت الوثيقة على أن يعين الملك في الحجاز نائبًا عامًا (نائب الملك) له ورؤساء الشعب الذين يكونون تابعين لنائب الملك الذي يتبع بدوره الملك(٢٦).

ونصت الوثيقة على أن تتولى تصريف شؤون الدولة الحجازية ست شعب أساسية:

١) الشرع

٢) الداخلية

٣) الخارجية

٤) المالية

٥) المعارف

٦) الجيش.

وأكدت مادة خاصة على أن الشؤون الحربية وكل ما يتصل بها من وظائف خاضعة لإشراف الملك(٢٧).

كما نصت الوثيقة على تأسيس مجلس شورى يضم نائب الملك ومستشاريه وستة من إشراف الحجاز يعينهم الملك. كما تشير الوثيقة إلى وجود نية لإنشاء مجالس إدارية في المدن الرئيسية تمنح صلاحيات البلديات، ولكن قراراتها لا تسرى إلا بعد مصادقة الملك. وتقرر أيضًا إنشاء مجالس في الوحدات الإدارية الصغيرة(٢٨).

بدا لابن سعود أن بعض «التعليمات الأساسية» تتناقض وسلطته المطلقة. لذا فإن المواد ٢٨ ـ ٣٨ المتعلقة بمجلس الشورى والمجالس المحلية تم تجاهلها بعد مضي عام، في حين أن المواد ٤٣ ـ ٤٥ حول تشكيل هيئات لها حق الإشراف على نفقات الخزانة لم تطبق قط وقد بطل مفعولها فيما بعد.

ثمة خاصية جوهرية لـ«دستور» الحجاز تتمثل في الغياب التام للأحكام المتعلقة بالحقوق الفردية والعامة، وكذلك الأحكام التي تحد من سلطة الملك المقيد بأحكام الشرع فقط[٢٩].

ويقول الزركلي الذي درس النشاط العملي لهيئات السلطة في الحجاز، إن مجلس الشورى كان يعالج القضايا المتعلقة بميزانية دوائر الدولة والبلدية، ويتولى إعطاء الرخص للشروع في عمل مشاريع إقتصادية وعمرانية، ويسن القوانين والأنظمة، ويبت في استخدام الموظفين المحليين والأجانب، ومنذ عام ١٩٣٢، أضيفت إلى اختصاصاته العناية بشؤون الحجاج[٣٠].

ويشير الزركلي إلى أن صلاحيات المجلس تشريعية واستشارية، وكان بوسعه أن يلفت نظر الحكومة (يقصد بذلك مجلس الوكلاء ـ مجلس الوزراء ـ الذي شكل في الحجاز) إلى أي خطأ في تطبيق القوانين والأنظمة، وإقرار أو نقض أو تعديل مشاريع الحكومة[٣١].

وفي تموز (يوليو) ١٩٢٨، صدر مرسوم ملكي يقضي بتشكيل مجلس شورى للحجاز ونجد سوية، ولكن هذا المرسوم لم يطبق[٣٢]. كما لم تصدر قرارات تقصر صلاحيات مجلس الشورى على الحجاز، أو تقضي بشمول سائر أرجاء المملكة بها. وقد أنجز المجلس حتى عام ١٩٥٠ مئات من الأنظمة والتعليمات حول مختلف القضايا لتحديد وضع الهيئات الحكومية والعامة والقضاء الشرعي والصحة والبرق والبريد والتلفون. وفي الواقع طبق العديد من أنظمة وتعليمات مجلس الشورى الحجازي في سائر أرجاء البلد[٣٣].

قبل الاستيلاء على الحجاز كانت الروابط بين نجد والعالم الخارجي تجري بأكملها تقريبًا عن طريق الخليج. وتولى الملك المكاتبات ومتابعة الاتصالات وكان يعطي الإيعازات لمندوبيه في المفاوضات. وبعد ضم الحجاز تعقّدت الروابط الدولية للمملكة الجديدة. وكان في جدة عدد من القناصل الأجانب الدائمين. كما أن وفود الحجاج كان يضع أمام حاكم الحجاز عددًا من القضايا الحساسة. لذا ظهر منذ عام ١٩٢٥، شيء أشبه بمديرية الشؤون الخارجية وترأسها يوسف ياسين السوري

المولد الذي كرس نفسه لخدمة ابن سعود. وقد شارك مع المصري حافظ وهبة في مفاوضات بحرة وحدة عام ١٩٢٥، وشارك في بعثات دبلوماسية أخرى فيما بعد وقد ترأس في مكة تحرير صحيفة «أم القرى» وتولى رئاسة الدائرة السياسية لدى الديوان الملكي. وفي عام ١٩٣٠، أصدر ابن سعود مرسومًا بتشكيل وزارة الخارجية التي أسندت لابنه الثاني فيصل نائب الملك في الحجاز[٣٤].

أقامت العربية السعودية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٦، وفي الأول من آذار (مارس) ١٩٢٦ مع بريطانيا العظمى وفي الشهر نفسه مع هولندة وفرنسا وتركيا، وفي عام ١٩٢٨ مع ألمانيا وفي عام ١٩٢٩ مع إيران وبولندة، وفي ١٩٣١ مع الولايات المتحدة الأميركية وفي ١٩٣٢ مع إيطاليا وفي ١٩٣٦ (بعد وفاة الملك فؤاد) مع مصر. وكان في السعودية عام ١٩٥٠ سفارتان: أميركية وبريطانية، أما الدول الأخرى فقد تمثلت ببعثات دبلوماسية[٣٥]. وغادرت البعثة السوفييتية جدة في ١٩٣٨/١٩٣٧، ولكن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لم تقطع رسميًا، وظلت مجمدة عقودًا طويلة من السنين.

تولى كل شؤون الخزانة في إمارة الرياض خلال الحقبة الأولى شخص يدعى عبد الله السليمان ولم يكن لديه ملاك خاص من المساعدين. وأنشئت في كل بلدة إدارة لجباية الزكاة مستقلة عن غيرها ومحاسبة أمام الأمير والملك. وقد كانت على غرار هيئات الضرائب في الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. وأسست في مكة عام ١٩٢٧ مديرية المالية وترأسها عبد الله السليمان نفسه[٣٦]. ومن عام ١٩٢٩ جعلت المديرية وكالة، أي صارت وزارة عمليًا. وفي عام ١٩٣٢ قرر الملك تحويل الوكالة إلى وزارة المالية ذات الصلاحيات الواسعة وأسندت إلى عبد الله السليمان إياه[٣٧]. واضطلعت الهيئة الجديدة بصلاحيات وزارة الاقتصاد. وربطت بالوزارة إدارات التموين والحج والزراعة والأشغال العامة والسيارات. كما كان من صلاحيات الوزارة توقيع عقود الامتياز لاستخراج الذهب والنفط، وشكلت إدارة المعادن والنفط تابعة لها. وعمل سوريون ولبنانيون ومصريون وعراقيون كخبراء في الوزارة.

استمر توسع الوزارة وبلغ عدد العاملين فيها عام ١٩٤٩ زهاء ٥٤٠٠ شخص[٣٨].

يعود تاريخ مجلس الوزراء في الحجاز برئاسة فيصل نائب الملك، إلى كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢[٣٩] حينما شكل مجلس الوكلاء بصلاحيات مماثلة لصلاحيات مجلس الوزراء، ولكنها غير مطابقة لها كليًا. وقد ضم المجلس الرئيس، أي نائب الملك ووكلاء الخارجية والمالية والداخلية وأعضاء مجلس الشورى.

وكانت وزارة الداخلية تضم إدارات الصحة والمعارف والبرق والبريد والتلفون واللاسلكي والقضاء والحربية ومديرية الأوقاف والكعبة والبلديات والثروة المائية والمحاجر الصحية وخفر السواحل والشرطة العامة[٤٠].

تأسست في مكة عام ١٩٢٥ «إدارة الأمن العام» التي عرفت فيما بعد باسم «مديرية الشرطة العامة». وقد شكلت شرطة حماية الأخلاق وشعب التفتيش والمحاسبة ومراقبة الأجانب. وشمل نشاط إدارة الأمن العام كل أنحاء العربية السعودية، وأنشئت إدارات وتشكيلات لها في كل مدينة كبيرة. وفي مطلع الأربعينيات أنشئت في مكة مدرسة للشرطة[٤١].

كان لنائب الملك (فيصل) ديوان بمكة يضم مكتبًا خاصًا للمكاتبات السرية والخاصة، ومكتبًا لتلقي المعلومات والأوراق الرسمية، ومكتب اللجنة الدائمة لمجلس الوكلاء، وشعبة الخيل وشعبة البادية وشعبة الجيش ـ الإبل وشعبة السيارات[٤٢].

إن كلمة «وزير» ليست غريبة عن النجديين، ولكنها خلافًا للعالم الخارجي، تعني لديهم «السكرتير». فحتى الآونة الأخيرة كان لكل أمير وزير، ولدى كبار الأمراء عدة وزراء يتولون الحسابات والمراسلات وغيرها من الشؤون. لذا فإن كلمة «وزير» بمفهومها الأوروبي والعام تنطبق أكثر على مسؤولي إدارات الديوان الملكي الذين تولوا تصريف الشؤون العامة بإشراف الملك[٤٣].

منذ عام ١٩٢٥ أنشئت مصلحة الصحة العامة التي أخذت صلاحياتها ووظائفها بالاتساع. وبعد مرور بضع سنوات أنشئت إدارات للصحة في كبريات المناطق[٤٤].

عام ١٩٣١ أنشئت مديرية خفر السواحل ومركزها جدة وأوكلت إليها شؤون الموانئ وخفر السواحل ومكافحة التهريب وتنظيم الملاحة[٤٥].

عام ١٩٢٦ أُنشئت بلدية مكة بميزانية خاصة. وسُنّ لها نظام خاص عام ١٩٢٩ (عدل عام ١٩٣٨)[٤٦].

عند حلول عام ١٩٣٤، كان الحجاز قد قسم إلى ١٤ محافظة، ويخضع أمراء كل منها لوزير الداخلية شكليًا ولنائب الملك (فيصل) عمليا[٤٧]. وأوكل إلى المحافظين الاهتمام بشؤون البدو[٤٨].

حينما أصدر ابن سعود في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢، مرسومًا «حول توحيد أجزاء المملكة العربية» أصبحت هذه المملكة كلا واحدًا من حيث التسمية وسلطة الملك المركزية، ولكنها لم تغد واحدة من حيث التركيب الإداري. فقد أشارت المادة الخامسة من المرسوم إلى أن تشكيلات الحكومة الحاضرة في الحجاز ونجد وملحقاتها تظل على حالها مؤقتًا إلى أن يتم وضع تشكيلات جديدة للمملكة كلها على أساس التوحيد الجديد. وكلف مجلس الوزراء الحجازي بأن يشرع فورًا في إعداد النظام الأساسي (الدستور) للممكلة ونظام تشكيلات الحكومة[٤٩]. ولم ينجز ذلك قط. وظلت الفوارق الإدارية بين الحجاز ونجد قائمة لفترة طويلة ولم تزل بشكل نهائي حتى الوقت الحاضر.

مهما تعقد الجهاز الإداري البيروقراطي في العربية السعودية، فإن كل القرارات الأساسية تتخذ من قبل الملك وحاشيته. لذا فإن المقربين للعاهل كان لهم القدر الأكبر من السطوة في الدولة. ويقول فيلبي «إن الأشخاص الذين كان ابن سعود ينتقيهم للمناصب الإدارية في مملكته ظلوا في مناصبهم حتى نهاية حياته عمليًا. وكان ذلك تعبيرًا عن سمة محددة في مزاج الملك: العزوف عن الاختلاط مع الغرباء، وان كان متسترًا بالضيافة الرائعة والاهتمام الودي الخالص بالضيف. وكان يؤثر أن يرى دومًا من حوله، ليلًا ونهارًا، سنة إثر سنة، نفس الأشخاص أو أفراد العائلة أو الإداريين أو الخدم أو رفاق السلاح. فهو لا يستطيع أن يصبح على سجيته بشكل كامل إلا

معهم. وكان بوسعه أن يثق بهؤلاء الأشخاص لمعرفته بهم عن كثب، ولعلمه بمزاياهم ونواقصهم. وكان يغدق على هؤلاء بلا حدود، كلما تزايدت موارده»[٥٠].

فعلى سبيل المثال لم يستقل عبد الله السليمان من منصبه كمسؤول عن المالية إلا بعد وفاة عبد العزيز وتولى محمد سرور الصبان مسؤولية المالية.

وكان من بين مستشاري ابن سعود شخص يدعى عبد الله الدملوجي، وهو عراقي من مدينة الموصل، استقدمه ابن سعود عام ١٩١٥ بصفة مستشار طبي وطبيب. ولإلمامه بالفرنسية أوكل إليه استقبال الضيوف الأجانب في ديوان ابن سعود بالرياض. وبعد الاستيلاء على الحجاز عين ممثلًا شخصيًا للملك في جدة، ثم صار نائبًا لوزير الخارجية (وكان فيصل الولد الثاني لابن سعود وزيرًا آنذاك) وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٣٠. وقد خلفه فؤاد حمزة، وهو فلسطيني، وعمل في وزارة الخارجية حتى وفاته. وعمل مع ابن سعود حافظ وهبة ويوسف ياسين. وحافظ وهبة مصري احتجزه البريطانيون فترة من الوقت في مالطا بسبب ثورة ١٩١٩ في مصر. وصار مديرًا للمعارف ثم ممثلًا للسعودية لدى الكرسي البابوي، ثم سفيرًا في لندن[٥١]. أما يوسف ياسين، وهو سوري من اللاذقية، فقد عمل سكرتيرًا سياسيًا للملك وترقى حتى صار وزيرًا للدولة. وتولى الإشراف على المراسلات الدبلوماسية مع الممثليات السعودية في الخارج. هذا وكان قد وصل إلى الجزيرة في ١٩٢٣/١٩٢٤ وحظي باعجاب ابن سعود[٥٢].

في بداية حكمه كان ابن سعود يتحاشى اشراك أبنائه وسائر أفراد عائلته في قيادة الشؤون الإدارية. ولم يستثن من ذلك سوى أكبر أبنائه وهما سعود وفيصل اللذان عينًا نائبين له في نجد والحجاز على التوالي. ولم ينس ابن سعود المصير المفجع الذي آلت إليه الدولة في زمن جده فيصل، الذي قتل بسبب التنافس بين أبنائه. وبمرور الوقت زال التقليد المذكور وأصبح أفراد العائلة المالكة يتبوأون أهم المناصب في جهاز الدولة.

الشرع والوهابية

ان الإسلام بتفسيره الوهابي هو الايديولوجيا التي اعتمدت في السعودية. وإن الإقرار بوجود إله واحد (الله) وملك ومذهب ديني واحد (الحنبلي)، تطلب وجود نظام قانوني وقضائي واحد. ولم تكن تلك مهمة سهلة في مجتمع متباين يضم فئات وشرائح اجتماعية مختلفة (البدو والحضر على أقل تقدير) ظلّت طوال قرون تعتمد مدارس فقهية مختلفة، وتطلب تنفيذها إيجاد حلول وسط.

عند ابتداء القرن العشرين عادت العادات والعرف لتبوؤ مكان الصدارة إلى جانب الشرع الذي حاول الوهابيون تطبيق أحكامه في قبائل البدو في القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر[٥٣]. وكانت الممارسات القضائية تختلف من قبيلة لأخرى. فقد كان لدى البدو، كما يذكر الزركلي، نظام قضائي يشبه المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف والتمييز[٥٤]. وكان القضاء قائمًا على الاستشهاد بالسوابق التي يجب أن يكون قد مضى عليها، في بعض الأحيان، ما لا يقل عن خمس سنوات كما لدى الرولة[٥٥].

من البديهي أن يحدث صدام بين النظامين القضائيين بظهور الدولة الإقطاعية المركزية التي طبقت أحكام الشريعة وكان لديها جهاز قسري لإنفاذ القرارات القضائية. فالعرف، مثلًا، ينص على منح المطارد حق اللجوء بشروط معينة، ولكن الدولة المركزية لم تعترف بهذا الحق. والبدو يعتبرون بعض الأعمال جريمة إذا اقترفت داخل القبيلة، مثل النهب أو القتل، في حين أنهم يعتبرونها بطولة وبسالة إذا ارتكبت خارج القبيلة، في حين ان هذا يتناقص مع احتياجات الدولة وسياستها، ونشأت مشاكل بسبب الغزو والبت في أمر الماشية التي تغنم إبانه[٥٦]. كما ظلّت معلقة مسائل الثأر الذي حاولت الحكومة باستمرار تحديد مداه[٥٧].

منذ عام ١٩١٤ تقريبًا بدأ اتخاذ خطوات عملية للحد من نفوذ «العارفة» في القبائل، وبدأ تعيين المطاوعين والقضاة. وانزلت ضربة بامتيازات العوارف ولكن لم تجر في السنوات الأولى محاولة لاستبدالهم بالقضاة. وأخذ بأحكام العرف والشرع على قدم المساواة في القبائل، وجرى تحديد الوظائف بينهما مؤقتًا. واستمر العوارف

في الاهتداء بالعرف في القضايا التي تقع ضمن أحكامه كالعلاقات بين القبائل، أما قضايا مثل الإرث فقد كانت تنظر من قبل القضاة على أساس الشرع(٥٨). ومن المهم الإشارة إلى أن حركة الإخوان سرعت في عملية إحلال القضاة محل العوارف.

آثر حكام المقاطعات السعوديون عدم التدخل في القضايا العشائرية الداخلية. فعلى سبيل المثال تضمن كتاب «مذكرة الحكومة السعودية» ثلاثين قرارًا إجرائيًا قضائيًا وكلها تتعلق بالعلاقات بين القبائل وإعادة الممتلكات المغتصبة وخصوصًا الماشية(٥٩).

وجرى تدريجيًا فصل الوظائف القضائية للحاكم (المحافظ) والقاضي. فاوكلت إلى القضاة المنازعات الشخصية والقضايا التجارية والشرعية والأحوال الشخصية والإرث. أما الأمراء فقد تولوا قضايا النزاعات بين القبائل وجباية الضرائب والتجنيد والمشاكل الإدارية، ويكون الأمير بمثابة قاضٍ عند معالجة هذه الأمور (٦٠). ولكن الشرع خول الأمير النظر في منازعات لا علاقة لها بالأمور العسكرية والإدارية والمالية.

إن الصراع من أجل تثبيت أحكام الشرع بصيغتها الحنبلية لتحل محل العرف العشائري لم يكن العقبة الوحيدة في طريق إقامة نظام قضائي وقانوني موحد في البلد. فبعد قيام الدولة السعودية ظل المذهب الحنبلي سائدًا في نجد بينما كان المذهب الشافعي هو السائد في الحجاز، في حين أن المذهب الحنفي كان السائد في المدن المرتبطة بالسلطات العثمانية(٦١). وكانت الإدارة العثمانية تعين، عادة، أربعة قضاة، واحدًا من كل مذهب، رغم إعطاء الأولوية للمذهب الحنفي. ويشير الباحث الأميركي وايدل إلى أن المدرسة الحنفية في القضاء ظلّت قائمة طوال عقود في المراكز الإدارية العثمانية السابقة بالأحساء مثل الهفوف(٦٢).

بعد إلحاق الأحساء واجهت الحكومة المركزية مشكلة الأقلية الدينية ـ الشيعة. ولاتوجد أرقام عن عدد الشيعة في بداية القرن ولكن تقديرات وايدل لعام ١٩٥٥ تفيد بأن عددهم بلغ في الأحساء ١٣٠ ألفًا(٦٣). وقدر حافظ وهبة عدد الحضر في الأحساء في الثلاثينيات بزهاء تسعين ألفًا، قال ان ستين ألفًا منهم شيعة(٦٤). وهذا لا

يختلف كثيرًا عن رقم الباحث الأميركي الذي ربما قد يكون قد أدخل في حساباته شبه الرحّل. وبالإضافة إلى ذلك شهدت المنطقة الشرقية زيادة كبيرة في عدد السكان اثر اكتشاف النفط. ويقول وايدل ان نسبة الشيعة إلى السنة في واحات الأحساء هي ٤٥ إلى ٥٥ أو ٤٠ إلى ٦٠[٦٥]. ونظرًا لأن الشيعة غالبًا ما كانوا يخفون معتقداتهم الدينية، فمن المحتمل ان عددهم في المحافظة الشرقية كان أكبر مما ذكر الباحثون.

يقول هاريسون ان السنة (الوهابيين) كانوا الأقلية في الأحساء وهم من الحكام والتجار والمزارعين. أما الغالبية، من صيادي اللؤلؤ والحرفيين والفلاحين، فهم الشيعة[٦٦]. وأشار وايدل أيضًا إلى أن غالبية الحرفيين كانوا من الشيعة أيضًا[٦٧]. وكان مجتمع المنطقة الشرقية ينطوي على تناقضات اجتماعية خطيرة مبرقعة بغلاف ديني.

كما سكنت مجموعات شيعية صغيرة في مكة والمدينة، وقطن عسير ممثلو إحدى الفرق الشيعية وهي الزيدية.

وكان في الحجاز أعضاء من مختلف الفرق الصوفية: السنوسيون والادارسة والقادريون والبكتاشيون، ولكن هذه الفرق إنحسرت بفعل ضغوط الوهابية التي رفضت الصوفية من حيث المبدأ[٦٨].

كانت أوضاع الشيعة صعبة في دولة إسلامية سنية «خالصة». وفي عام ١٩٢٧، أصدر العلماء الوهابيون، بضغط من الإخوان فتوى تطالب عبد العزيز بمنع الشيعة من أداء الصلاة في الأماكن العامة والدعاء لأهل بيت النبي والاحتفال بذكرى وفاة النبي وأهل بيته وزيارة كربلاء والنجف، وإرغامهم على أداء الصلوات الخمس في الجوامع. ورأى العلماء ان على الشيعة ان يدرسوا «دين الله» على كتاب محمد بن عبد الوهاب «الأصول الثلاثة»[٦٩]. ودعت الفتوى إلى هدم كل الأضرحة الشيعية[٧٠]. ولكن عبد العزيز رأى ان هذه المطالب متطرفة ورفض تلبيتها. غير أن الوهابيين اعتبروا شيعة المنطقة الشرقية «كفارًا» ومن «أهل الذمة»[٧١].

صدرت عامي ١٩٢٦و١٩٢٧ أوامر ملكية أُنشيء بموجبها نظام قضائي موحد

للدولة وأصبح القضاء قائمًا على أساس الفقه الحنبلي. وأصدر الملك أمرًا ألزم القضاة بأن يتقيدوا بستة مراجع أساسية هي: «الاقناع» للشيخ موسى الحجاوي، و«كشف القناع عن متن الاقناع» لمنصور البهوتي الحنبلي و«منتهى الإرادات» للفتوحي و«شرح منتهى الإرادات» لمنصور البهوتي و«المغني» للشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة و«الشرح الكبير» للشيخ عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة. ويبدو أن اعتماد الفقه الحنبلي واجه مصاعب في الحجاز وعسير والأحساء.

ولم يحدث الإصلاح القضائي تغييرات تذكر في نجد، إلا أنه جرى في الرياض وبعض المدن الكبيرة الأخرى فصل محاكم البدو والحضر[٧٢].

بعد إعادة تنظيم القضاء في الحجاز عام ١٩٢٧ أسّست ثلاثة أنواع من المحاكم[٧٣]:

المحاكم المستعجلة والمؤلفة من قاضٍ واحد، واختصاصها النظر في القضايا المدنية التي لا يتجاوز المطلوب فيها ثلاثين جنيهًا استرلينيًا، وفي قضايا الجنح والجنايات التي لا تصل إلى حد القطع أو القتل. ويرى القانوني العربي صبحي المحمصاني أن في ذلك عودة إلى الشرع بصيغته الكلاسيكية لأن القضايا المدنية سابقًا كانت مفصولة عن الجنح والجنايات[٧٤].

المحاكم الكبرى وتضم قاضيًا ونائبين له، وهي تنظر في القضايا التي لا تدخل ضمن اختصاص المحاكم المستعجلة، بما فيها الجرائم التي تستوجب القطع أو القتل، ولكن لا بد من صدور إجماع كل القضاة عند إصدار قرار بهذا الشأن.

هيئة المراقبة القضائية في مكة، وهي بمثابة محاكم الاستئناف، وتتألف من مدير وأربعة أعضاء. وتولي المدير الإشراف على سائر المحاكم والقضاة في الحجاز، وكان بمثابة وسيط بين الحكومة والمحاكم. وتكتسب الأحكام درجتها القطعية عند تأييدها من قبل الهيئة خلال عشرين يومًا (عشرة أيام وفق مصادر أخرى) من صدورها[٧٥]. أما الأحكام التي تنقضها الهيئة فتعاد إلى المحاكم التي أصدرتها

لإعادة النظر فيها. وذكر الزركلي أن تركيب الهيئة تعقد فيما بعد وزادت عدد القضايا التي تنظر فيها .

كانت في الحجاز المحاكم التالية: في مكة اثنتان من المحاكم المستعجلة ومحكمة كبرى وهيئة للمراقبة القضائية، وفي المدينة محكمة مستعجلة ومحكمة كبرى، وفي جدة محكمة مستعجلة[٧٦].وفي عام ١٩٣٢ أنشئت في مكة محكمة مستعجلة لقضايا البدو[٧٧].

ونظرًا لطابع مكة الدولي فقد ظلّت فيها المدارس الفقهية الأربع. على الرغم من أن الحنبلة كانت السائدة بطبيعة الحال[٧٨].

وكانت رواتب القضاة من أموال الزكاة، ولكن المدعي يدفع رسوم خدمة تُستوفى لصالح الخزانة[٧٩].

في عام ١٩٢٧ أسّست في الحجاز أول دوائر كتاب العدل التي كانت تتولى تسجيل الوثائق القانونية باستثناء ما يتعلق بالأوقاف[٨٠].

وفي عام ١٩٢٦، أي قبل الإصلاح القضائي أسّس في جدة المجلس التجاري المؤلف من رئيس وخمسة أعضاء من ذوي الخبرة في الشؤون التجارية للنظر في المنازعات بين التجار والصيارفة والوكلاء وأصحاب الحوانيت، والبت في القضايا المتعلقة بتصريف العملة ودفع الحسابات التجارية عبر البنوك، والنظر في المنازعات بين التجار وأصحاب السفن في حالة فقدان الأمتعة أو اصطدام السفن أو تعرّضها للهجوم، وفي الخلافات الناشئة عن تحرير العقود أو اتفاقات الأسعار [٨١]. وفيما بعد أخذت هذه المحكمة تعمل وفق «نظام التجارة» لعام ١٩٣١ الذي وضع على غرار نظام الأمبراطورية العثمانية، واستثنيت منه القضايا الخاضعة لأحكام الشرع[٨٢].

ومن المهمات التي أُنيطت بالمحاكم الشرعية في شبه الجزيرة خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات، محاولة قطع دابر الثأر بفرض دية عن دم القتيل وحمل أهله على قبولها. وحددت مبالغ معينة عن كل نوع من التشويه الجسدي[٨٣]. وكما كان الحال إبّان الدولة السعودية الأولى، كانت تلك محاولة تهدف إلى أضعاف

النزاعات بين العشائر والتقليل من احتمالات التجارب فيما بينها. وبعد صدور قرار قضائي كان أهل القتيل يرغمون على الأعلان عن عفوهم عن القاتل[٨٤]. هذا علمًا بأن الأفخاذ الارستقراطية، بما فيها آل سعود، استمرت ترفض الدية وترى أن الدم لا يغسله إلا الدم.

فيما يخص السرقة وقطع يد السارق، تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه العقوبات تطبق أقل كثيرًا مما قد يبدو لغير المطلع، وذلك لوجود عدد من التقييدات. فيجب أن تكون السرقة مثبتة والسارق بالغًا سن الرشد وفي كامل قواه العقلية وقد عمل بمحض إرادته. وينبغي أن يكون المسروق ذا قيمة إذ إن الماء والخمر والآلات الموسيقية والصور وكتب الفقه لا تعتبر ذات قيمة. ويجب ألّا تقل قيمة المسروق عن ثلاثة دراهم. كما أن المسروق يجب أن يكون قد سرق من محل يحفظ فيه عادة مغلقًا بمفتاح. وإذا ما كسر سارق القفل وقام آخر بالسرقة، فلا تقطع يد أي منهما. ولا تحتسب سرقة الأقارب. وينبغي أن يكون هناك شاهدان على واقعة السرقة. ويلغى قطع اليد في سنوات الجوع أو الغلاء [٨٥].

ويعتبر الزنى جريمة بحق الأسرة والأخلاق العامة، ويرجم الزاني والزانية[٨٦].

وكان الجلد عقوبة تعاطي الخمر[٨٧]. كما حددت الممارسات القضائية جملة من العقوبات الصارمة عن نهب القوافل[٨٨].

الواردات والنفقات

كان خمس غنائم الغزوات، التي يحالفها التوفيق دخلا لخزانة الدولة. ولكن خلافًا للدولة السعودية الأولى كانت تمر في إمارة نجد، ومن ثم في مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، سنوات عديدة دونما غزوات تذكر، وأخذت الغزوات نفسها تكلف مبالغ طائلة وحتى إذا كانت موفقة، فإن الغنائم لا تسد النفقات كل مرة. لذا فإن مداخيل الدولة أخذت تعتمد أكثر فأكثر على جباية الضرائب بانتظام، وأهمها الزكاة.

إن الصلاة بين المؤمن وربه، في حين ان الزكاة، هي بمثابة دليل على الولاء للحاكم الذي «ينفذ مشيئة الله»[٨٩]. لذا فالزكاة ليست مجرد فرض من الفرائض الدينية، بل هي أيضًا دليل ولاء للحاكم.

في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٥، أصدر أبن سعود مرسومًا يحدد مقادير الزكاة وطرق جبايتها.

ونص المرسوم على أن الزكاة لا تستوفى عن الدواب المستخدمة للأغراض الحربية وللنقل. وكانت الزكاة تستوفى عن الإبل إذا زاد عددها على خمسة، وعن الأغنام إذا زاد عددها على الاربعين، وعن الأبقار إذا زاد عددها على ٣٠[٩٠]. وتدفع الزكاة عن كل محصول الحبوب والفواكه التي يمكن قياسها وحفظها كالتمر والزبيب واللوز والفستق والجوز، ولاتستوفى عن سائر أنواع الفاكهة أو الخضروات. وتستوفى الزكاة عن الأراضي المروية بنسبة ٥٪ من المحصول وعن أراضي الديم بنسبة ١٠٪. وتستوفى عن الفضة بنسبة ٢,٥ من قيمتها وعن الذهب بنسبة ٢,٥ بالمائة وترتفع النسبة إلى ٥٪ ابتداء من وزن معين. ويستوفى عن الرأسمال التجاري وريعه ٢,٥[٩١].

وكلف أمراء المقاطعات بالإشراف على استيفاء الزكاة[٩٢]. وفي زمن عبد العزيز كان جباة الزكاة ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين، تعمل إحداها في المدن والواحات، وتستوفي الأخرى الزكاة من البدو. وكان العاملون ضمن الفئة الأولى يحصلون على نسب من المجموع العام المستوفى، بينما عينت للعاملين ضمن الفئة الثانية رواتب محددة. ومن الناحية الشكلية كان مقررًا أن تجبى الزكاة في نهاية كل عام هجري، ولكن من الناحية العملية كانت الجباية تجري في موسم معين، حتى وإن لم يتطابق مع نهاية العام الهجري. ففي المقاطعة الشرقية كانت الزكاة تجبى في الربيع أو الصيف. وكان جباة الزكاة يعرفون الطرق التي تسلكها القبائل وأماكن تجمعها فيقصدونها[٩٣]. وعندما كانت حركة الإخوان في ذروتها تولى المطاوعة جباية الزكاة في الهجر[٩٤]، وكانوا يمثلون الإمام ـ الأمير في ذلك. وفي بعض الأحيان كان أفراد آل الشيخ يشرفون على جباية الزكاة إلى جانب المطاوعة[٩٥].

إن جباة الزكاة كانوا عيون الحكومة بين البدو وركائز لهيبة السلطة المركزية ولكنهم كانوا يتجاوزون صلاحياتهم، وقد اعترف عبد العزيز لفيلبي ذات مرة، أنه لا يحصل إلا على ثلث الضرائب(٩٦).

وكما كان الحال إبّان الدولة السعودية الأولى، فقد ألغيت في إمارة الرياض الخوّة التي تدفعها القبائل الضعيفة للقوية. ولكن ديكسون أشار إلى أن الخوّة كانت تدفع بأشكال أخرى(٩٧).

ثمة مسألة كبرى مختلف عليها وصارت لها أهمية عملية إبّان النزاع على الحدود مع العراق ثم أثناء الخلاف على واحة البريمي ومفادها: هل ان أداء الزكاة من قبل القبائل يعتبر اعترافًا بسيادة حكومة الرياض، وبالتالي الدولة السعودية، على أراضي هذه القبائل؟ وأجاب فقهاء الرياض على هذا السؤال بالإيجاب، في حين أعطى الفقهاء، من مختلف المدارس الإسلامية، والأوروبيون تفسيرات متباينة.

فقد رأى ديكسون المعتمد البريطاني في الكويت والباحث في قضايا الجزيرة ان لرئيس الدولة ألحق في ان يجند أثناء الحرب كل من يدفع له الزكاة لكي يقاتلوا تحت لوائه، وله ان يصادر ماشية من لاينصاع له. ووفقًا للعرف الوهابي فإن القبيلة إذا لم تؤد أو لم تتمكن من أداء الزكاة لحاكمها الشرعي فإن بوسع الحاكم أن:

أ) يصادرممتلكاتها ب) يتخلى عن مسؤولية حمايتها من سائر القبائل الخاضعة له، ج) لا يؤازرها عند تعرّضها لغزو أعداء خارجيين. أما إذا كانت القبيلة تؤدي الزكاة فإن الحاكم أو رئيس الدولة ملزم بحماية هذه القبيلة من العدوان الداخلي أو الخارجي وليس لرئيس الدولة ألحق في جباية الزكاة من قبيلة لا تأتمر بأمره ولكنها ترعى ماشيتها في أراضي دولته ولا تعتزم المكوث إلا فترة قصيرة تعود بعدها إلى أراضيها وتؤدي الزكاة لحاكمها الشرعي. ويقول ديكسون ان هذا قانون قديم ومحكم في الجزيرة ويفهمه الجميع(٩٨). ويذهب مؤلف «مذكرة الحكومة السعودية» إلى أن رأي ديكسون هذا يمكن أن يكون مدخلًا لفهم الجوانب السياسية لأداء الزكاة ابتداء من القرن الثامن عشر(٩٩).

بعد الاستيلاء على المنطقة الشرقية فرضت رسوم جمركية مقدارها ٨٪ ، وان كان فيلبي قد أشار إلى أن رسوم الدخان وصلت إلى ٢٠٪[١٠٠]. وفرضت الجزية على الشيعة والمسيحيين واليهود في الأحساء[١٠١].

وإثر الاستيلاء على الحجاز ظهرت ضريبة جديدة تستوفى من الحجاج وكانت ترفد خزانة الدولة بعوائد كبيرة. ولكن الدولة ظلّت فقيرة إلى حد كبير، ومن ادلة ذلك ان عوائدها الإجمالية من الضرائب عام ١٩٢٧ بلغت ١,٥ مليون جنيه استرليني[١٠٢].

جرت المحاولة الأولى لوضع ميزانية السعودية عام ١٩٢٩، ولكن وضعها لم يتم إلا عام ١٩٣٤. ولأول مرة قامت الدوائر الرسمية للدولة بوضع مشاريع للنفقات وقدمتها إلى وزارة المالية. ثم احيلت المشاريع إلى مجلس الشورى الذي أحالها بدوره إلى مجلس الوكلاء(الوزراء). وبديهي انه لم يجر التقيد بالميزانية، ولكن من المهم الإشارة إلى ضآلتها، إذ ان باب النفقات بلغ ١٤ مليون ريال (كان الجنيه الاسترليني الواحد يعادل ثمانية ريالات تقريبًا)، وبلغ باب الواردات مقدارًا مماثلًا[١٠٣].

يذكر الزركلي انه وقع على تقرير لوزارة الخارجية المصرية عن واردات الدولة السعودية في أواخر الثلاثينيات. ويشير التقرير إلى أن الموارد الرئيسية تتلخص في رسوم الحج والعوائد من البترول والذهب والزكاة. ولم تتجاوز الميزانية مليوني جنيه مصري سنويًا[١٠٤].

وكانت الضرائب المستوفاة تذهب إلى بيت المال، أما النفقات فإن للجيش حصة الأسد منها. كما كانت تدفع مخصصات لأرامل وأيتام الشهداء وللجرحى والمرضى. ومن بيت المال أيضًا جرى الإنفاق على العلماء والمدارس وتنشئة الجيل والموظفين[١٠٥].

وأشار حافظ وهبة في معرض حديثه على حكام الجزيرة إلى انهم يعتبرون أيديهم مطلقة في خزانة الدولة. وقال عن إمارة الرياض ان «ما يدخل خزانة الحاكم يصرف منه على حاجاته الشخصية وعلى الاعطيات التي يجود بها على الوافدين.

أما المدارس والصحة ووسائل تنظيف البلد وتجميلها فانه، مع استثناء الحجاز، نجد الأهالي والحكام مشتركين في عدم الشعور بالحاجة إليها»...[١٠٦].

وكان في الرياض جيش من الفقراء يعيله الملك. وكان ما يراوح بين الألف والألفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم. وعلاوة على ذلك كان في العاصمة زهاء مائة من عوائل الأسرى تكلف عبد العزيز بنفقات بيوتها وخيلها وإبلها وثيابها وجواريها وعبيدها[١٠٧]. ويذكر حافظ وهبة ان عدد الضيوف الدائمين لا يقل عن خمسمائة، وقد يبلغ عشرة آلاف[١٠٨].

وكان بدو كثيرون يجتازون مئات الكيلومترات للحصول على هبة من الملك. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الهبة غدت بمثابة واجب مفروض على الحاكم. وكل اعرابي يمنحه عبد العزيز منحة، كبيرة أم صغيرة، نقدًا أو كسوة أو مؤونة، تصبح في نظره، كما يقول الزركلي، «حقًا» له واجبًا كل عام. وإذا نقص النقد ريالًا أو الكسوة غترة أو المؤونة بعض الشيء طالب به والح، وإذا منعت عنه المنحة غضب.

وكما كان الحال في عهد السعوديين الأوائل، صارت الضيافة لدى ابن سعود الوسيلة المركزية لإعادة توزيع الواردات على الصفوة في المجتمع. وإن من تدول دولتهم من شيوخ القبائل وأمراء الحواضر كانوا يحلون «ضيوفًا» تحت المراقبة. أما إطعام الفقراء ومنحهم بعض العطايا فانهما كانا يؤديان وظيفة «حلقة الوصل الوثيرة» بين المالكين والمعدمين، ويعززان سمعة الملك كعاهل سخي مضياف و«أب للشعب» وشيخ «ديمقراطي».

عند حلول الثلاثينيات كانت القوات المسلحة في العربية السعودية قد شهدت تطورًا ملحوظًا. شكلت قوات حاكم الرياض في الأعوام الأولى التي أعقبت قيام الإمارة على غرار ما كان يجري في زمن أجداده. فقد كتب سليمان الدخيل عام ١٩١٣ يقول ما معناه: «متى أراد الحاكم ان يغزو استنفر قومه، فنفر معه الكبير والصغير. اللهم إلا ذاك الهرم العاجز، أو ذاك الصغير الضعيف أو من كان يعنى بالفلاحة والزراعة. وإذا كان في البيت الواحد أخَوان يذهب أحدهما ويبقى الثاني.

وكذلك قل عن ابني العم أو ابني الخال، فإن أحدهما ينفر للقتال والآخر يبقى عونًا لأهل البيت. والأمير في إبّان الحرب لا يقوم بشيء من المؤن أو الذخائر الحربية. لأن كل من يخرج للغزاة مكلف بأعباء نفسه، من اتخاذ الأسلحة اللازمة والمتاع وكل ما يضمن له القتال مدة من الزمن. فإذا طالت المدة، فالحاكم يجدد له الخيل والركاب والأسلحة إذا تلف منها شيء. وهو يمدهم بالأطعمة»[١٠٩].

وجاء في جريدة «أم القرى» ان «كل فرد في نجد محارب بطبيعته، يحمل السلاح منذ نشأته، ويتمرن عليه، فإذا دعي تقلد بندقيته وركب ناقته ومضى إلى المعركة. وكل نجدي من سن الثالثة عشرة إلى السبعين صالح للقتال... ولم يكن في نجد ثكنات عسكرية، لان بلاد نجد كلها... تؤلف ثكنة تضم الرجال جميعًا...»[١١٠].

ويذكر مؤلفو كتاب «الجزيرة العربية في عهد ابن سعود» ان القوات المسلحة النجدية كانت تنقسم إلى أربعة أصناف ١) أهل العارض ٢) الحضر ٣) الإخوان ٤) البدو[١١١].

وامتاز من بين «أهل العارض» الحرس الملكي الذي تولى حماية الملك والأمراء من أفراد الأسرة المالكة، ومنتسبو الحرس الملكي لا يفارقون السلاح حتى أثناء نومهم. ومن أهل العارض أيضًا موظفو الحكومة (باستثناء الأجانب) الذين كانوا يستنفرون عند الضرورة، و«جيش الجهاد» المسلح. والحرس الملكي أيضًا من «جيش الجهاد» لكنهم يختلفون عن سواهم بملازمتهم للملك أو الأمراء. وكان في ديوان الملك دائرة خاصة للجهاد مسؤولة عن هؤلاء الجند وسلاحهم ومؤونتهم.

أما فئة الحضر فتضم سكان الحواضر والمدن النجدية. وهم يشكلون أثناء المعركة الميسرة والميمنة، في حين ان «أهل العارض» يقاتلون في الوسط. وكانت درجات الاستنفار أربعًا:

الدرجة الأولى: عندما يسود السلام فترة طويلة وليس ثمة خطر حرب، فإن كل حاضرة ملزمة باستنفار عدد معين من الرجال بأسلحتهم ومؤنهم لمدة أربعة أشهر

سنويًا. وإذا لم تكن حاجة لهم فإن أهل الحاضرة يدفعون لبيت المال مبلغًا معادلًا لكلفة إعالة الجند.

الدرجة الثانية: تجرد كل حاضرة عددًا من المقاتلين مع مؤنهم للمشاركة في الحملات العسكرية الصغيرة. وتوفر لهم الخزانة السلاح والذخائر، أما إذا استمر بقاؤهم في الخدمة العسكرية أكثر من أربعة أشهر فإن الخزانة تتولى تزويدهم بالمؤن للمدة المتبقية.

الدرجة الثالثة: بغية خوض حملات عسكرية طويلة الأمد أو صعبة يعلن الجهاد الأصغر فتلزم المدن والقرى بمضاعفة عدد الجند المستنفرين.

الدرجة الرابعة: في الظروف الطارئة، وإذا تعرّضت الدولة للخطر، يستنفر الحاكم كل رجل قادر على حمل السلاح.

وخلافًا لسكان الحواضر فإن كل رجل قادر على حمل السلاح من هجر الإخوان كان يشارك في الحروب والحملات الحربية.

وكانت لكل وحدة رايتها، وللقائد العام رايته الخاصة وموقعه عادة في الوسط، ولكل منها صيحة حرب خاصة بها يتعرف بواسطتها كل من أفرادها على الآخر، وصيحة حرب مشتركة للقوات السعودية كلها.

كان الحرس الملكي و«جيش الجهاد» في وضع متميز عن سواهما، ولهما الأفضلية في التموين والتسليح، ويزودان بالخيول الملكية. وإذا كان منتسبو هاتين المؤسستين مسجلين في قوائم مديرية الديوان الملكي فإنهم يتقاضون مرتبًا، وفي الحالات الأخرى يحصلون على هبات ومخصصات[١١٢].

وكان لدى الملك مجموعة من الحراس الشخصيين الذين يتم انتقاؤهم خصيصًا. وإذا سار عبد العزيز راجلًا فإن حارسًا يتبعه كظله مسلحًا ببندقية ومسدس وخنجر، ويقف خلفه في كل المجالس ولا يصلي الحارس مع الجماعة حين يكون في المسجد، وإنما يستمر واقفًا يراقب كل حركة حوله. وجرى عبد العزيز في هذه

العادة على سنن أسلافه، منذ ان قتل الإمام عبد العزيز الأول في مسجد الدرعية عام ١٨٠٣[١١٣].

ومن البديهي ان تنظيم القوات لم يكن على المستوى المبالغ فيه الذي أورده كتاب «شبه الجزيرة في عهد ابن سعود». فحسبنا تذكر الحملات العسكرية لأمير الرياض، الذي صار سلطانًا وملكًا، وتباين تركيب قواته المسلحة وكون الأغلبية فيها كانت تارة للحضر وتارة للبدو والإخوان. ولكن من المؤكد ان العارض والمناطق المجاورة لها كانت الركيزة الرئيسية للقوات المسلحة والمصدر الدائم الذي يمده بالمقاتلين الأشداء.

ذكرت صحيفة «أم القرى» ان«الجيش الذي كان يعتمد عليه الملك عبد العزيز في فجر حياته، هو جيش الجهاد الذي كان مكونًا من حاضرة أهل نجد، مضافًا إليه جيش «الإخوان» الذي كان مكونًا من القبائل البدوية الرحّالة التي وضع لها نظام «الهجر» وأنزلها من البادية إلى الحاضرة، وأصبحت هجرها كثكنات عسكرية. وظل هذا سائدًا إلى عام ١٣٤٨ هـ(١٩٣٠م) حين رأى الملك مجاراة تطور التسلح فأمر بتكوين إدارة للأمور العسكرية، فكان ذلك إيذانًا بغرس النواة للجيش النظامي»[١١٤].

كانت فكرة تأسيس جيش نظامي قد راودت ابن سعود قبل هذا التاريخ. فقد شاهد القوات الانجلو هندية المسلحة في العراق إبّان الحرب العالمية الأولى، وكان قبل ذلك قد حارب ضد الوحدات النظامية المسلحة التركية، فتأكدت لديه أفضليات القوات الحديثة المنضبطة والمدربة.

وبعد استسلام جدة عرض عبد العزيز على كل ضباط الجيش الهاشمي الانتقال إلى الخدمة لديه، فعين عددًا منهم في شرطة مكة أولًا، ثم أخذ يشكل من بينهم أولى الوحدات النظامية. واستقدم الملك ضباطًا من سوريا والعراق للعمل في الدائرة العسكرية[١١٥].

شهدت جدة عام ١٩٣٠ أول استعراض عسكري شارك في ثلاثة أفواج: من المدفعية والرشاشات والمشاة، وهي نواة الجيش النظامي.

ونظم الجيش على شكل كتائب وألوية، ووزع على خمس مناطق عسكرية وتم توحيد الزي العسكري وشارات الرتب، وافتتحت في الطائف مدرسة عسكرية. وفي عام ١٩٣٥ أسّست وكالة (وزارة) الدفاع ومقرها في الطائف ومديرية الأمور العسكرية. وفي عام ١٩٣٨ ألغيت المديرية وفي العام التالي شكلت «رياسة الأركان الحربية». وفي عام ١٩٤٦ أنشئت «وزارة الدفاع»[١١٦].

ان أهمية الطيران، العسكري والمدني، لبلد مترامي الأطراف وقليل السكان، كانت واضحة للعيان، لذا أرسل عام ١٩٣١ إلى إيطاليا عشرة شبان سعوديين لتعلم الطيران، وبعد عودتهم تم شراء عدد من الطائرات. وفي زمن الحرب اشترى الملك خمس طائرات أميركية من طراز «داكوتا» ثم تسعًا آخر. وبدأت أولى الرحلات الجوية داخل السعودية، ثم إلى مصر وسوريا ولبنان. وأُنشئت في الطائف مدرسة للطيران. واستقبل عبد العزيز نفسه الطائرة لأول مرة في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٤٥ بالقرب من الطائف[١١٧].

أدرك الملك بسرعة أهمية اللاسلكي للعمليات الحربية وحفظ الأمن فأنشئت أربع مدارس لتعليم الهاتف اللاسلكي في مكة وجدة والمدينة والرياض، وأرسل بعض خريجيها إلى بريطانيا وبلدان أخرى لمواصلة الدراسة. وخلال عهد عبد العزيز أنشئ في المملكة ستون مركزًا لاسلكيًا ثابتًا، منها ثلاثة مراكز رئيسية في جدة والرياض والظهران[١١٨].

وتجدر الإشارة إلى أنه إلى جانب الجيش النظامي في السعودية كان يوجد «جيش الجهاد» و«جيش الهجانة» المكون من البدو «الأقحاح» المخلصين للملك. ويرجع تركيب القوات المسلحة على هذا النحو إلى طابع ومستوى تطور مجتمع الجزيرة، ولكنه في الوقت نفسه كان عاملًا يقلّل من خطر الانقلاب العسكري.

التعليم والتربية الدينية

إثر انهيار دولة آل سعود في وسط الجزيرة في أواخر القرن التاسع عشر، بدأ تدهور التعليم الديني التقليدي، ونقل قسم كبير من مكتبات الرياض إلى القصيم

وحائل. وسافر نفر قليل إلى الخارج لغرض الدراسة. ولم يكن في وسط الجزيرة كله مدرسة واحدة، على الرغم من وجود بعض الحلقات الدراسية الخاصة في مساجد عدد من المدن. كما ان البعض كانوا يعلّمون التلاميذ القراءة والكتابة في منازلهم مقابل أجر(١١٩).

وقد افتتحت مدرسة دينية في العاصمة اثر عودة عبد الله الشيخ إليها(١٢٠)، وأخذ الكثيرون من كبار علماء الدين يقيمون مدارس منزلية(١٢١). وبديهي ان التركيز جرى على حفظ القرآن وتعليم أصول الفقه الحنبلي لكي يتمكن الدارس من أن يصبح قاضيًا(١٢٢). كما كانت تقرأ في مجالس أمير الرياض الأحاديث النبوية وتاريخ الطبري أو السيرة النبوية(١٢٣).

وأشار حافظ وهبة إلى أن أمراء الجزيرة نادرًا ما كانوا يهتمون بتعليم أبنائهم، واعتبر بعضهم التعليم شيئًا لا يليق بمقامهم(١٢٤). وتغيرت هذه الآراء مع تطور حركة الإخوان حينما صارت تلاوة القرآن تحظى بتأييد من الأوساط العليا وبتأييد الإخوان أنفسهم.

حينما استولى النجديون على الحجاز وجدوا ان نظام التعليم فيه أرقى بكثير. فقد كان عدد القادرين على القراءة في وسط الجزيرة ضئيلًا للغاية، في حين انه كانت تصدر في الحجاز صحيفة وتوجد عدة مدارس مماثلة للمدارس التركية، علاوة على المكتبات الخاصة الكبيرة نوعًا ما. وبدأ إبّان الحكم العثماني في أواخر القرن التاسع عشر، إصدار صحيفة «الحجاز» (صدرت حتى عام ١٩١٥، باللغتين العربية والتركية). وأسست في مكة مطبعة أهلية(١٢٥). وكانت توجد مدرسة حكومية تدرس باللغة التركية ومدرستان دينيتان أهليتان(١٢٦). وبعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ افتتحت مدرستان أهليتان واحدة بجدة والأخرى بمكة(١٢٧).

إثر إقامة سلطة الشريف حسين المستقلة شهد الحجاز نوعًا من النهضة في مجال التعليم، رغم ان المؤلفين السعوديين المعاصرين لا يميلون إلى الإقرار بذلك. وانقسمت المدارس في عهد الحكم الهاشمي إلى قسمين: الأميرية والأهلية. كما

أسّست مدرسة عسكرية وما يشبه المعهد الزراعي. وكانت غالبية المدارس في مكة[١٢٨]. وفي عهد الحسين بدأ صدور صحيفة «القبلة» التي نشرت مواد كثيرة عن جهود الحسين في مجال التعليم. واستمر صدورها من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٢٩. كما صدرت لفترة قصيرة مجلة يعدها طلبة المعهد الزراعي[١٢٩]. وفي الأشهر الأخيرة لحكم الملك علي صدرت في جدة نشرة «بريد الحجاز»[١٣٠].

أعجب عبد العزيز بنظام التعليم في الحجاز، فأسس عام ١٩٢٦ «إدارة المعارف العامة» التي شرعت باستقدام المدرسين من الخارج. وفي العام نفسه أسّس في الرياض والمناطق المتاخمة لها ١٢ مدرسة حكومية واهلية (بلغت ميزانيتها زهاء ستة آلاف جنيه في عام ١٩٢٨ـ ١٢٩ و٢٣ ألفًا في عام ١٩٢٩ـ ١٩٣٠). وفي الثلاثينيات أنشئت مدارس جديدة في كبريات مدن الحجاز وفي الرياض، ثم في حائل وبريدة وعنيزة والقطيف والجبيل[١٣١].

وحتى الخمسينيات كان زهاء ٢٢ ساعة من مجموع ٢٨ ساعة دراسية في المدارس الابتدائية مكرّسة للمواد الدينية. وحتى في السنة المنتهية من المدرسة الثانوية كانت هذه المواد تشكل ٢٥٪ من الحصص[١٣٢].

وعلى الرغم من مقاومة علماء الدين، فقد أيد عبد العزيز إدراج مواد مثل الرسم الهندسي واللغة الأجنبية والجغرافيا في المناهج المدرسية[١٣٣]. ولكن علماء الدين تمكنوا من أحكام رقابتهم على إدارة المعارف، وذلك من خلال نظام تعيين المعلمين والمطاوعة. ولم تطبع، عادة، في مطابع مكة إلا الكتب الدينية.

وأُنشئت في المنطقة الشرقية مدارس شيعية شبه علنية أنفقت عليها الطوائف الشيعية[١٣٤].

وابتداء من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٤، بدأ في مكة صدور جريدة أسبوعية شبه رسمية هي «أم القرى» وهي المرجع الأساسي للبلاغات الحكومية الرسمية. وقامت الجريدة بنشر أخبار تنقلات الملك وخطبه ونصوص المعاهدات

والاتفاقيات التي تعقد مع الدول الأجنبية، واخبار الحياة الأدبية. وبمرور الزمن تقلص حجم الجريدة واقتصرت على البلاغات والاعلانات الرسمية.

وفي عام ١٩٣٢ صدرت في مكة أيضًا جريدة «صوت الحجاز» الأسبوعية التي دامت سبعة أعوام. وحلّت محلها صحيفة «البلاد السعودية» التي أصبحت عام ١٩٥٣ أول جريدة أسبوعية في البلد. وصدرت في المدينة عام ١٩٣٨ جريدة «المدينة المنورة». وصدرت مجلات بشكل غير منتظم في مكة. أما بالنسبة لنجد فإن أول ما صدر هي مجلة «اليمامة» الأسبوعية التي بدأت بالصدور عام ١٩٢٨ في الرياض. ولم يكن للصحافة السعودية تأثير يذكر على تكوين الرأي العام وتطور الأحداث[١٣٥].

لم تتوفر لدينا معلومات موثوقة عن نظام التعليم السعودي قبل الخمسينيات. ويذكر الزركلي انه في عام ١٩٥٠ كان هناك زهاء ٥٠ مدرسة قروية (ألفًا طالب) و٩٠ مدرسة ابتدائية (١٣ ألفًا) وعشر مدارس ثانوية (٦٠٠ طالب). وبذا بلغ العدد الإجمالي للطلاب زهاء ١٦ ألفًا[١٣٦].

***

عند دراسة إصلاحات ابن سعود نتوصل، حتمًا، إلى استنتاج مؤداه ان سعيه لبناء سلطة الدولة وإدارة شؤونها وفقا للقيم السائدة في صدر الإسلام كان أكثر تطابقا مع مستوى التطور الاجتماعي للمملكة من «البدع» المأخوذة عن «المشركين» («الكفار»). فعقارب الساعة في شبه الجزيرة العربية كانت في موضع مغاير لما هي عليه في البلدان الأكثر تطورًا في الشرق الأوسط. ولكن ابن سعود نفسه بوصفه من حكام الاقطاع المبكر، ومذاهب «الإسلام الخالص المجدد» التي ظهرت في شبه الجزيرة المتخلفة، قد ولد بعد بضعة قرون مما ينبغي. فإن مجتمع العربية السعودية ما كان بوسعه أن يصمد أمام الأفكار الجديدة الكاسحة للنظام القديم، حتى لو لم تهدم البنية الاجتماعية السابقة بفعل تدفق النفط، ومن ثم أمواله. وخير مثال على ذلك مصير اليمن في الستينيات. فإن البنى الاجتماعية التقليدية تغدو

في العالم المعاصر المترابط بعضه ببعض عاجزة عن البقاء في مواجهة ضغوط العالم الخارجي الجاري عبر روابط السوق وعبر تسرب الأفكار وعبر المحاولات الرامية لتغيير ولو جزء من المجتمع (القوات المسلحة مثلًا) لصد الخطر الخارجي.

وقد غدت العربية السعودية عرضة لتأثير خارجي عات. فقد شاءت الجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ ان تصبح السعودية أكبر منتج للنفط. وان صناعة استخراج النفط نفسها والفروع المرتبطة بها، والأهم من هذا وذاك عوائد النفط الاسطورية التي سيطرت عليها الصفوة السياسية، هذه العوامل جميعًا أثرت في البنى الاجتماعية التقليدية للبلد تأثيرًا بالغًا جعلها تتهدم وتتبدل.

الفصل الرابع عشر

امتيازات النفط

كان الحج المصدر الرئيسي لعائدات المملكة، لذا فإن تقلص عدد الحجاج بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية جعل المالية السعودية في حالة يرثى لها. وقد أقامت الحكومة محطات الإذاعة وحسنت اسالة المياه في جدة واشترت سيارات، فبلغ إجمالي ديونها ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ألف جنيه استرليني، وتوقفت عن تسديد ديونها، ولم تفلح محاولاتها للحصول على قروض جديدة[١].

في هذه الأثناء استغل فيلبي صلاته الشخصية بالملك فأقنعه أن يلتقي بالمليونير الأميركي كراين الذي كان يقوم بجولة في البلدان العربية بحجة سعيه إلى القيام بأعمال البر والاحسان. ويبدو انه كان على صلة بشركات البترول الأميركية ويعمل على جس النبض تمهيدًا لتوغلها في منطقة جديدة عليها تمامًا. ورافق كراين بصفة مترجم في جولته ج. أنطونيوس الذي ألف فيما بعد كتاب «يقظة العرب». كما أوفد المليونير الأميركي الخبير الجيولوجي تويتشيل إلى السعودية تحت ستار التنقيب عن الماء[٢].

في ربيع ١٩٣٢، اكتشف تويتشيل ترسبات نفطية واعدة في منطقة الظهران، فعاد إلى الولايات المتحدة ليحيط شركات البترول علمًا بذلك[٣].

بدأت تباشير عهد جديد في تاريخ العربية السعودية،عهد سيحدث في مجتمعها تأثيرًا لا يمكن مقارنته من حيث أبعاده إلا بتأثير الإسلام. غير أن القوى المحركة لهذه التحولات كانت خارج الجزيرة العربية، إذ إن أصلها يعود إلى

تحوّل اقتصاد القرن العشرين إلى وقود جديد هو النفط الذي بدأ البحث عنه في كل بلدان العالم.

الشركات الأميركية في الشرق الأوسط في العشرينيات

قبل عام ١٩٢٠ كانت الشركات الأميركية أما غير مكترثة بالاحتياطات النفطية خارج بلدها أو تمنى باخفاقات في محاولاتها للحصول على امتيازات في النصف الشرقي من العالم بسبب قيود السياسة الوطنية والاستعمارية للدول الأوروبية وشركات النفط الخاصة. ولكن الشركات الأميركية أخذت تهتم اهتمامًا كبيرًا بعد عام ١٩٢٠ بالرواسب النفطية في الخارج، بدافع مخاوف ذات طابع مزدوج: فهي تخشى نضوب النفط في الولايات المتحدة من جهة وتخاف أحكام السيطرة الانكلو- هولندية على موارد النفط العالمية من جهة أخرى. ولكن السبب الرئيسي هو ان الشركات المذكورة لم تشأ أن تظل بمنأى عن استثمار حقول النفط الرخيص الموجود في مواقع قريبة من الأسواق الهامة[٤].

عام ١٩٢٠ قال فيريش الذي صار فيما بعد رئيسًا لشركة «ستاندارد أويل أوف نيوجرسي» ان النفط يوشك على النضوب في تكساس وأوكلاهوما. وفي العام نفسه تنبأ وايت، كبير خبراء الإدارة الجيولوجية في الولايات المتحدة، بأن احتياطات النفط الأميركي سوف تنضب خلال ١٨ عامًا. وبهذا الصدد أبدت مديرية الأسطول البحري الحربي قلقها لان الخبراء زعموا أن على الولايات المتحدة تقليص استهلاك النفط أو الشروع باستيراده. وحذر السناتور هنري كابوت لوج الكونغرس من أن «بريطانيا آخذة في السيطرة على صادرات النفط في العالم»[٥].

وليس من المعروف ما إذا كانت الشركات مقتنعة فعلًا بأن احتياطات النفط الأميركية محدودة إلى هذه الدرجة، أو ان ذلك كان ذريعة لجر الحكومة الأميركية إلى المساهمة النشيطة في عملية توسع الشركات خارج البلاد. إن أساليب الضغط على الحكومة وغسل دماغ الرأي العام خدمة لمصالح الشركات الكبرى متقنة في الولايات المتحدة إلى حد كبير، لذا فمن الأرجح ان السبب الثاني هو الذي أدّى إلى انتشار المزاعم المذكورة.

خشيت الاحتكارات الأميركية من أن تكون قد تخلفت عن عملية اقتسام «كعكة» النفط في الشرق الأوسط. ووضعت وزارة الداخلية سياسة لمساندة الشركات الأميركية في صراعها من أجل الحصول على امتيازات في الخارج، ولحث كل الدوائر والوكالات الأميركية على مساعدتها. وكان مصير الأمبراطورية العثمانية موضع بحث في مؤتمر السلام بسان ريمو في نيسان (أبريل) ١٩٣٠، حيث اتفقت لندن وباريس على اقتسام نفط العراق. وتدخلت الحكومة الأميركية من أجل الحصول على حصة لشركاتها النفطية،. وأخذت تتحدث عن «تمييز» تتعرّض له الولايات المتحدة في العمليات التجارية على أراضي ألمانيا وحليفاتها وتطالب بسياسة «الانفتاح».

ولما حاولت حكومة أتاتورك إثارة قضية لواء الموصل وارتباطه بالعراق، توفرت للولايات المتحدة فرصة ممارسة تخويف حلفائها بتأييد مطالب تركيا. لذا تم عام ١٩٢١ـ ١٩٢٢ الاتفاق على إعطاء الأميركيين ٢٠ـ ٢٥٪ من أسهم شركة النفط المزمع إقامتها. وفي عام ١٩٢١، وبعد أن قرر مجلس عصبة الأمم ضم الموصل إلى العراق قدمت الحكومة العراقية امتيازًا لمدة ٧٥ سنة لشركة «تركيش بتروليوم» ولكن حينما بدأ استخراج النفط في الموصل عام ١٩٢٧ لم يكن الأميركيون قد حصلوا على حصتهم بعد. وفي تموز (يوليو) ١٩٢٨ تم أخيرًا التوصل إلى اتفاق عرف فيما بعد «باتفاقية الخط الأحمر» وبموجب هذا الاتفاق كانت ملكية «تركيش بتروليوم»(منذ عام ١٩٢٩ «إيراك بتروليوم» أو «شركة نفط العراق») موزعة في الأساس بين الشركة الانجلو فارسية للبترول (صارت فيما بعد الشركة البريطانية الإيرانية ومن ثم«بريتيش بتروليوم») و«رويال دوتش شيل» البريطانية الهولندية وشركة النفط الفرنسية و«نيراسترن ديفلوبمنت» التي تضم «ستاندارد أويل «سوكوني موبيل» فيما بعد) ومنحت ٥٪ من الأسهم لكالوست غولبنكيان، وهو أحد مؤسسي شركة النفط التركية[٦].

توغلت الشركات الأميركية في «ايرك بتروليوم» على الرغم من أن دورها كان ثانويا. ولكن «اتفاقية الخط الأحمر» وضعت قيودًا كبيرة على حرية تصرف الشركات، إذ ان المساهمين في «شركة نفط العراق» التزموا بأن تكون الامتيازات

التي يحصلون عليها في أراضي الأمبراطورية العثمانية السابقة بذات النسب المعتمدة في العراق. ونذكر ان نجد والأحساء كانتا عشية الحرب العالمية الأولى تعتبران شكليًا. جزءًا من الأمبراطورية العثمانية.

الحصول على الامتيازات السعودية

كانت شركة «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا»(سوكال) من شركات البترول الأميركية التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى بمحاولات جادة للاسهام في عملية استخراج النفط خارج الولايات المتحدة.

ولكن كما ارتبط مصير «إيراك بتروليوم» بشخص غولبنكيان، فإن البحث عن النفط وامتيازاته في عدد من بلدان الجزيرة العربية ارتبط باسم الميجر النيوزيلاندي الدؤوب فرانك هولمس. فقد وصل إلى البحرين في العشرينيات بحجة المشاركة في البحث عن الماء. وفي عام ١٩٢٢ قصد نجد للتفاوض مع عبد العزيز نيابة عن شركة «استرن اند جنرال سنديكات» البريطانية. وقد وافق ابن سعود على منح الشركة امتيازًا في ٣٠ ألف ميل مربع في الأحساء. وطبقًا للاتفاقية التزم أصحاب الامتياز بدفع ألفي جنيه استرليني سنويًا لقاء حق الاستثمار. وفي عام ١٩٢٥ حصل هولمس على امتياز آخر في البحرين[٧].

كان المسؤولون عن شركة «سنديكت» أناسًا لا تعوزهم روح المغامرة. إذ لم يكن لدى الشركة رأسمال كاف، وأملت أن تثير اهتمام شركات النفط البريطانية بالامتيازات، ولكن هذه كانت واثقة من أنها ليست بحاجة إلى وسيط. ولما لم يجد هولمس دعمًا توقف عن تسديد الأقساط بعد دفع أربعة آلاف جنيه استرليني فألغى عام ١٩٢٨ الامتياز في أراضٍ توجد فيها أغنى احتياطات النفط في العالم[٨].

أما الامتياز في البحرين الذي منح لمدة سنتين فلم يلغَ لأن «سنديكات» تمكنت من تمديده. وبعد أن أخفقت «سنديكات» في محاولات استمالة شركات النفط البريطانية اتصلت بشركة «غالف أويل» الأميركية. وفي تشرين الثاني

(نوفمبر) ١٩٢٧ بعثت «غالف» جيولوجيًا لدراسة أراضي البحرين ووضع خارطة جيولوجية، وإثر ذلك قرر الأميركان ان المسألة تستحق المجازفة، فاشتروا الامتياز من «سنديكات».

غير أن «غالف» واجهت تعقيدات، إذ انها كانت آنذاك مرتبطة بشركة «تركيش بتروليوم»، و«اتفاقية الخط الأحمر» سارية المفعول على البحرين. عند ذاك نقلت «غالف» في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٨ حقوقها المشتراة من «سنديكات» إلى سوكال[٩].

إن عدم اهتمام شركات النفط البريطانية بالامتيازات في البحرين والجزيرة العربية يعزى إلى اعتقادها بأنه لا وجود للنفط هناك، لذا لم تعتزم المجازفة. فقد كان استخراج النفط في العراق وإيران يتم من طبقات جيولوجية غير الطبقات الموجودة في البحرين والجزيرة العربية. ولم يتم العثور على النفط في طبقات مماثلة بجزيرة القشم عند سواحل إيران، فاعتبر البريطانيون البحرين والجزيرة العربية مناطق غير واعدة. ولكن تاريخ الصناعة النفطية يعرف حالات عثر فيها المنقبون الجدد على النفط في مواقع أهملتها شركات سابقة لاعتبارات جيولوجية.

عارضت بريطانيا وجود شركة نفط أميركية في الخليج. وقد التزم حاكم البحرين، حسب اتفاقية عام ١٩١٤، بعدم منح امتيازات في أراضيه والامتناع عن قبول عروض أي كان دون موافقة بريطانيا. حينذاك تحايلت سوكال على القيود الشكلية البريطانية وأسست في آب (أغسطس) عام ١٩٣٠ شركة «بحرين بتروليوم» وسجلتها في كندا، أي انها جعلتها شركة بريطانية من الناحية الشكلية. وفي هذه الأثناء قام اثنان من موظفي سوكال هما دافيس (صار رئيسًا لمجلس إدارة أرامكو فيما بعد) وتايلور بدراسة البحرين في ربيع ١٩٣٠ وأوصيا بإجراء أعمال الحفر[١٠].

أثارت الطبقات الجيولوجية في البحرين الحاوية على دلائل تشير إلى وجود نفط، اهتمام سوكال بالجزيرة العربية المجاورة. وقد تم اكتشاف النفط في البحرين بعد عامين، في حزيران (يونيو) ١٩٣٢. عندها قررت سوكال الاتصال مباشرة، أي

دون وساطة هولمس، بالملك السعودي، وعرفت ان الحكومة البريطانية في الهند أوصت «سنديكات» بالاحجام عن خدمة مصالح «غالف» أو سوكال في العربية السعودية.

في عام ١٩٣٠، طلب ممثلو سوكال من المندوب السعودي في لندن السماح لجيولوجييهم بزيارة الأحساء ولكن الملك رفض الاستجابة للطلب. وفي هذه الأثناء كان «الجيولوجي المستقل» تويتشيل قد قام بجولة في شرقي المملكة بناء على طلب من المليونير كراين وأوصى بالسعي للحصول على امتياز. وقد أجرت سوكال اتصالات مع تويتشيل[١١].

وفي مطلع عام ١٩٢٣، وصل هاملتون، مندوب سوكال، إلى جدة وساعده في المفاوضات تويتشيل الذي درس مصادر المياه والمعادن في الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه وصل إلى جدة لونغريغ مندوبًا عن «إيراك بتروليوم» وهولمس عن«سنديكات». وطالب المندوب السعودي في المفاوضات بأن يدفع صاحب الامتياز المقبل مائة ألف جنيه ذهبي عند توقيع الاتفاقية. خرجت«سنديكات» توا من اللعبة، وعرضت «شركة نفط العراق» عشرة آلاف جنيه استرليني كحد أقصى لعدم ثقتها بوجود النفط في السعودية، فكسبت سوكال الامتياز مقابل خمسين ألف جنيه[١٢].

من أسباب فوز الأميركيين في الصراع على الامتياز أنه لم يكن لهم ماضٍ امبراطوري في الشرق الأوسط. فإن ابن سعود المحاط من كل الجوانب بالمستعمرات والبلدان التابعة لبريطانيا كان مرغمًا على التظاهر دومًا بالصداقة معها، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن يثق بها ولم يشأ أن يسمح لشركة بريطانية بدخول بلاده [١٣].

جرت المفاوضات في جو كئيب بالنسبة لرجال الأعمال الأميركيين، سببته أزمة ١٩٢٩. وبعد إعداد كل بنود الاتفاقية بين سوكال والعربية السعودية، أعلنت الولايات المتحدة الأميركية في ٢٠ نيسان (أبريل) حظرًا على تصدير الذهب ثم تخلت عن

استخدام الذهب كمعيار. حينذاك عمدت الشركة إلى شراء الذهب في سوق العملة البريطاني. وأخيرًا وقع الاتفاقية في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٣٣ عبد الله السليمان وزير المالية السعودية وهاملتون ممثلًا عن «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا». وأبرمت الحكومة السعودية هذه الاتفاقية بمرسوم ملكي صادر في ٧ تموز (يوليو) ١٩٣٣ وسرى مفعولها منذ ١٩٣٣/٧/١٤.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣، منح امتياز لفرع سوكال يحمل أسم «كاليفورنيا ـ أريبيان ستاندارد أويل كومباني»، وعدل الاسم في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ إلى «اراب أميركان أويل كومباني» (أرامكو).

في عام ١٩٣٦، كانت لسوكال قدرات إنتاجية ضخمة في النصف الشرقي من العالم، يقابلها ضعف في شبكة وسائط النقل والعلاقات التجارية. ومن جهة أخرى طورت «تكساس كومباني» (تكسكو حاليًا) شبكة واسعة لتوزيع النفط ولكنها كانت بحاجة إلى مادة التسويق نفسها. لذا وحدت الشركتان مصالحهما في منطقة مترامية الأطراف تمتد من مصر إلى جزر هاواي. وحصلت تكسكو على نصف أسهم شركات النفط العاملة في السعودية[١٤].

بعد مضي فترة قصيرة على منح امتياز النفط حصلت المجموعة الانجلو ـ أميركية على امتياز لاستثمار مكامن الذهب. وبدأ استخراج المعدن الثمين في مهد الذهب ولكن احتياطاته نفذت عام ١٩٥٣. لقد كان في جبال الحجاز الكثير من الذهب لكن يبدو أن كميات كبيرة منه قد استخرجت في زمن سليمان الحكيم وإبّان حكم الخلفاء العباسيين، لذا فإن استثمار مناجم الذهب أصبح غير مربح بعد فترة قصيرة من بدئه[١٥].

منحت اتفاقية الامتياز شركة سوكال «حقًا استثنائيًا لمدة ستين عامًا لإجراء أعمال البحث والتنقيب والحفر والاستخراج والتكرير والإنتاج والنقل والبيع والتصدير» للنفط ومشتقاته وإقامة الوسائل اللازمة لادامة هذه العملية. ومنحت الشركة حقوقًا استثنائية في أرض مساحتها ٤٠٠ ألف ميل مربع تكاد تشمل كل الجزء الشرقي

من العربية السعودية. ونصت الاتفاقية على أن تتمتع سوكال بـ«حق الأفضلية» في الحصول على امتيازات إضافية في سائر مناطق الجزء الشرقي من السعودية، وكذلك الحقوق الأخرى التي قد تحصل عليها الحكومة في المنطقة المحايدة إلى الجنوب من الكويت.

ومقابل هذا الامتياز وافقت الشركة على تنفيذ الشروط التالية:

١. منح العربية السعودية قرضًا مقداره ٣٠ ألف جنيه ذهبي أو ما يعادلها. ومنح قرض إضافي قدره ٢٠ ألف جنيه ذهبي بعد ١٨ شهرًا إذا ظلّت الاتفاقية سارية المفعول.

٢. دفع ٥ آلاف جنيه ذهبي مقدمًا كل سنة لحين اكتشاف النفط بكميات تجارية.

٣. بعد اكتشاف النفط بكميات تجارية تدفع الشركة فورًا بدل إيجار قدره ٥ آلاف جنيه وتدفع مثلها بعد سنة. وتدفع المبالغ من بدل الإيجار التخميني. تبدأ الشركة بإعادة المناطق التي لا تعتزم استثمارها.

٤. بعد اكتشاف النفط تحصل الحكومة على بدل إيجار قدره أربعة شلنات ذهبية أو ما يعادلها عن كل طن من النفط. تلتزم الشركة بأن تقدم للحكومة سنويًا ودون مقابل كمية من النفط لإنتاج البنزين والكيروسين.

٥. تشيد الشركة مصنعًا لتكرير النفط بعد اكتشافه وتزود العربية السعودية مجانًا بمائتي ألف غالون أميركي من البنزين ومائة ألف غالون أميركي من الكيروسين (يعادل الغالون الأميركي ٣,٧٨ لتر).

ووافقت الحكومة من جانبها على إعفاء الشركة ومؤسساتها من كل الضرائب المباشرة وغير المباشرة والرسوم الجمركية وما إلى ذلك[١٦].

لا شك ان شروط الاتفاقية كانت كسبًا كبيرًا للشركة وغبنًا للعربية السعودية، ولكنها انعكاس لتناسب القوى بين الطرفين آنذاك. فحينما عقدت الحكومة السعودية الاتفاقية لم تكن لديها أي خبرة في شؤون النفط، إلى جانب حاجتها

الماسة إلى المال. وكان الشغل الشاغل للحكومة هو الحصول على مكاسب مالية بشكل ريع وبدلات إيجار وقروض.

ان بند الاتفاقية الذي ينص على إعفاء الشركة من «كل الضرائب المباشرة وغير المباشرة» قد حرم المملكة من مصدر هائل للعائدات ومنح الشركة إمكانات ضخمة للحصول على أرباح من الرأسمال المستثمر. ويجدر بالذكر ان الشركات العاملة في البلدان الأخرى كانت دومًا تدفع الضرائب.

بدء الاستخراج

كانت الشركة على عجلة من أمرها. فوصل أول جيولوجيين إلى الجبيل في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣، أي بعد مرور أقل من أربعة أشهر على توقيع اتفاقية الامتياز.

وفي ٢٨ أيلول (سبتمبر) اكتشف دلائل تشير إلى وجود طبقة نفطية. وقد بدأ بعد بضعة أشهر استخدام الشاحنات بعد أن كان الجيولوجيون يستخدمون الجمال. وكانت الشركة تنقل كل المعدات وجزءًا كبيرًا من المواد الغذائية من الولايات المتحدة عبر ميناء الخبر. وفي آواخر عام ١٩٣٣، بلغ عدد خبراء النفط الأميركيين في السعودية ثمانية أشخاص.

في عام ١٩٣٥، عثر الجيولوجيون على طبقة واعدة وبدأوا الحفر، ولكن البئر الأولى لم تثبت إلا وجود قرائن عن توفر النفط وقليل من الغاز. أما أول كميات تجارية من النفط فقد اكتشفت عام ١٩٣٨. وفي شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨، بدأ نقل كميات قليلة من النفط الخام إلى مصنع التكرير في البحرين العائد لشركة «بحرين بتروليوم». وبعد ذلك وقع الاختيار على رأس تنورة لاستخدامه كميناء لتصدير النفط.

وفي عام ١٩٣٩، زار الملك وحاشيته منطقة استخراج النفط في الظهران حيث أقيم مخيم من ٣٥٠ خيمة. واستمرت احتفالات الأعيان السعوديين ببدء استخراج النفط عدة أيام، وفي الأول من أيار (مايو) ١٩٢٩ غادرت السواحل السعودية أول ناقلة محملة بالوقود السائل.

حينما بدأت الحرب العالمية الثانية كان الجيولوجيون قد أنجزوا عمليات التنقيب الأولى في ١٧٥ ألف ميل مربع والتنقيب التفصيلي في ٥٠ ألف ميل مربع. أما التنقيب الزلزالي والحفر فقد جريا في مساحات اصغر. ولما توقفت الأعمال بسبب الحرب كان الجيولوجيون الأميركيون قد أدركوا انهم اكتشفوا مكامن نفط أسطورية، ولكنهم لم يحددوا بعد مقاديرها بشكل كامل. هذا وكانت الشركة قد حفرت عام ١٩٣٤ بئرًا في الجوف فوجدتها خالية تمامًا. واعتبرت المنطقة عقيمة[١٧].

بعد اكتشاف النفط وافقت الحكومة السعودية على توسيع مساحة الامتياز الأولية في المناطق الجنوبية والشمالية من شرقي الجزيرة، ومنح الشركة حق استثمار الحصة السعودية في المنطقة المحايدة بين العراق والكويت والمملكة السعودية. وأدّى ذلك إلى توسيع المساحة التي يتمتع فيها صاحب الامتياز بحقوق استثنائية إلى نحو ٤٩٦ ألف ميل مربع، منها ٤٨٤ ألف ميل مربع على اليابسة و١١ ألفًا على الجرف القاري في الخليج. وكانت مساحة الأراضي المشمولة بالامتياز تعادل مساحة ولايات أريزونا ونيو مكسيكو وتكساس مجتمعة. ومنحت الشركة حقوقًا واسعة في المنطقة الواقعة إلى الغرب من منطقة الحقوق الاستثنائية[١٨].

منح الامتياز الجديد لمدة ستين عامًا ومددت فترة الاتفاق الأولى لست سنوات. ومقابل هذه الامتيازات الإضافية التزمت الشركة بأن:

١. تعيد مناطق الامتياز التي لا تعتزم استثمارها بعد غلقها لمدة عشر سنوات.

٢ . تدفع فورًا ١٤٠ ألف جنيه ذهبي ومائة ألف جنيه أخرى بعد اكتشاف النفط بكميات تجارية.

٣ . تخصّص ريعًا سنويًا مقداره ٢٠ ألف ذهبي مقابل المنطقة الإضافية، على أن تدفع لحين اكتشاف النفط بكميات تجارية.

٤ . تزيد إنتاج البنزين المقدم مجانًا للحكومة السعودية لكي تصل إلى ١,٣ مليون غالون.

لقد ازداد استخراج النفط في العربية السعودية بالشكل التالي[١٩]

استخراج النفط في العربية السعودية

من ١٩٣٨ حتى ١٩٨٦ «بملايين البراميل»

السنة	أرامكو	غيتي أويل	«أربيان أويل كومباني»	المجموع
١٩٣٨	٠,٥	-	-	٠,٥
١٩٣٩	٣,٩	-	-	٣,٩
١٩٤٠	٥,١	-	-	٥,١
١٩٤١	٤,٣	-	-	٤,٣
١٩٤٢	٤,٥	-	-	٤,٥
١٩٤٣	٤,٩	-	-	٤,٩
١٩٤٤	٧,٨	-	-	٧,٨
١٩٤٥	٢١,٣	-	-	٢١,٣
١٩٤٦	٥٩,٩	-	-	٥٩,٩
١٩٤٧	٨٩,٩	-	-	٨٩,٩
١٩٤٨	١٤٢,٩	-	-	١٤٢,٩
١٩٤٩	١٧٤,٠	-	-	١٧٤,٠
١٩٥٠	١٩٩,٥	-	-	١٩٩,٥
١٩٥١	٢٧٨	-	-	٢٧٨
١٩٥٢	٣٠١,٩	-	-	٣٠١,٩
١٩٥٣	٣٠٨,٣	-	-	٣٠٨,٣
١٩٥٤	٣٤٧,٨	٣,٠	-	٣٥٠,٨

السنة	أرامكو	«غيتي أويل»	«أربيان أويل كومباني»	المجموع
١٩٥٥	٣٥٢,٢	٤,٤	-	٣٥٦,٦
١٩٥٦	٣٦٠,٩	٥,٨	-	٣٦٦,٧
١٩٥٧	٣٦٢,١	١١,٦	-	٣٧٣,٧
١٩٥٨	٣٧٠,٥	١٤,٧	-	٣٨٥,٢
١٩٥٩	٣٩٩,٨	٢١,٢	-	٤٢١,٠
١٩٦٠	٤٥٦,٥	٢٤,٩	-	٤٨١,٤
١٩٦١	٥٠٨,٣	٢٨,٧	٣,٨	٥٤٠,٨
١٩٦٢	٥٥٥,١	٣٣,٧	١١,٠	٥٩٩,٨
١٩٦٣	٥٩٤,٦	٣٣,١	٢٤,١	٦٥١,٨
١٩٦٤	٦٢٨,١	٣٤,٤	٣١,٨	٦٩٤,٣
١٩٦٥	٧٣٩,١	٣٢,٦	٣٣,١	٨٠٤,٨
١٩٦٦	٨٧٣,٣	٣٠,٢	٤٦,٥	٩٥٠,٠
١٩٦٧	٩٤٨,١	٢٥,١	٥٠,٦	١٠٢٣,٨
١٩٦٨	١٠٣٥,٨	٢٣,٢	٥٥,٠	١١١٤,٠
١٩٦٩	١٠٩٢,٤	٢٢,٧	٥٨,٨	١١٧٣,٩
١٩٧٠	١٢٩٥,٣	٢٨,٣	٦٢,٧	١٣٨٦,٣
١٩٧١	١٦٤١,٦	٣٣,٧	٦٥,٥	١٧٤٠,٨
١٩٧٢	٢٠٩٨,٩	٢٨,٣	٧٥,٠	٢٢٠٢,٢
١٩٧٣	٢٦٧٧,٤	٢٣,٤	٧١,٩	٢٧٧٢,٧
١٩٧٥	٢٤٩١,٨	٣١,٢	٥٩,٥	٢٥٨٢,٥
١٩٧٨	٢٩٥٢,٣	٢٩,٤	٥٦,٣	٣٠٣٨
١٩٧٩	٣٣٧٦,٤	٣٠,٢	٧٢,٦	٣٤٧٩,٢
١٩٨٠	٣٥٢٥,٣	٢٨,٥	٧٠	٣٦٢٣,٨

السنة	أرامكو	«غيتي أويل»	«أربيان أويل كومباني»	المجموع
١٩٨١	٣٥١٢,٧	٢٧,١	٤٠,١	٣٥٧٩,٩
١٩٨٢	٢٣٠٩,٤	٢٣,٦	٣٣,٤	٢٣٦٦,٤
١٩٨٣	١٥٩٦,٦	٦٠,٣(*)		١٦٥٦,٩
١٩٨٤	١٤٣٥,٥	٥٧,٤		١٤٩٢,٩
١٩٨٥	١١١٠	٤٨,٨		١١٥٨,٨
١٩٨٦	١٧١١,٨	٣٤,٤		١٧٤٦,٢

منذ أواخر الثلاثينيات دشنت العربية السعودية عصرًا جديدًا هو عصر النفط، رغم أن البلد لن يتحسس تأثيره بشكل ملموس إلا في أواخر الأربعينيات.

(*) معطيات وزارة النفط والثروة المعدنية

راجع جون بريسلي، دليل في الاقتصاد السعودي لندن، ١٩٨٩ ص ٥١.

الفصل الخامس عشر

العربية السعودية والحرب العالمية الثانية

(١٩٣٩ـ ١٩٤٥)

خلافًا لما حصل في الحرب العالمية الأولى، ظلّت الجزيرة العربية بمنأى عن عمليات الحرب العالمية الثانية. بيد أن المملكة العربية السعودية تحسست تأثيرات الحرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

كانت ألمانيا الهتلرية تأمل في الوصول إلى إيران وأفغانستان والهند واحتلال رأس جسر لمهاجمة الاتحاد السوفييتي، وذلك مرورًا بالبلدان العربية وتركيا، واستأثرت منطقة الشرقين الأوسط والأدنى باهتمام الاستراتيجيين الفاشست لما تزخر به من ثروات نفطية.

ووضع النازيون في حساباتهم السياسية الميول المعادية لبريطانيا في بلدان الشرق الأوسط والناجمة عن سياستها الاستعمارية. فأخذت ألمانيا الهتلرية تصور نفسها«صديقا للعرب» وتعلن عن تأييدها لتطلعاتهم القومية. وجرت الدعاية في بلدان الشرقين الأوسط والأدنى تحت شعار «انتصار بلدان المحور يحرر بلدان الشرق الأوسط من النير البريطاني». وفي الوقت نفسه قام الألمان بعمليات تجسس وتخريب في البلدان العربية.

كانت نشاطات ألمانيا تهدد سيطرة بريطانيا على بلدان العالم العربي وتضعف مواقعها الاستراتيجية العالمية وتعوق استنفار الموارد البشرية والخامات في هذه

البلدان لاستخدامها في الحرب. وكما بينت الأحداث فإن خطر الاحتلال الألماني للشرقين الأوسط والأدنى كان خطرًا حقيقيًا، ولم يدرءه عن البلدان العربية الواقعة إلى الشرق من ليبيا إلا نقل القوات الألمانية لمهاجمة الاتحاد السوفييتي[١].

حياد العربية السعودية

إثر ابتداء الحرب العالمية الثانية أعلنت العربية السعودية الحياد رغم ان ابن سعود أرسل قوات إلى الحدود مع العراق والكويت وشرق الأردن. وكان حياده ذا طابع موال لبريطانيا، الأمر الذي يعزى إلى تبعية مملكته لها في أمور كثيرة. ففي ذلك الحين كانت العربية السعودية تتاجر أساسا مع البلدان التابعة للأمبراطورية البريطانية أو الدائرة في فلكها. فقد كانت الهند البريطانية المصدر الرئيسي للحبوب إلى المملكة، بينما يصل غالبية الحجاج من بلدان إسلامية تابعة لبريطانيا، إضافة إلى ارتباط النقد السعودي بالجنيه الاسترليني. وكانت العربية السعودية محاطة بمحميات وقواعد عسكرية بريطانية، والأسطول البريطاني يسيطر على البحر الأحمر والخليج.

أحكم عبد العزيز سيطرته على الوضع الداخلي في البلد، على الرغم من أن ذلك لم يحل دون وقوع اضطرابات عشائرية بين الحين والحين. وفي عامي ١٩٣٩-١٩٤٠ هاجر من السعودية إلى العراق عدد كبير من بدو شمر. ويبدو أن الحكومة العراقية قد شجعت شيوخهم آملًا في استخدام قبائل شمر لتحقيق مآربها[٢].

غير أن ابن سعود تعرّض لضغط من بلدان «المحور» أيضًا. وطالب عدد من مستشاريه بتوسيع الصلات مع إيطاليا والمانية. وبعد احتلال القوات الإيطالية أثيوبيا ظهرت قطع من الأسطول الإيطالي في البحر الأحمر. وكان لإيطاليا بعض النفوذ في اليمن المعادي لبريطانيا تقليديًا. وكانت السعودية قد عقدت معاهدتي صداقة وأقامت علاقات دبلوماسية وقنصلية مع ألمانيا عام ١٩٢٩ ثم مع إيطاليا عام١٩٣٢[٣].

في أواخر عام ١٩٣٩ ومطلع عام ١٩٤٠، تمكنت ألمانيا، بوساطة إيطاليا، من الحصول على موافقة السعودية على قبول أوراق اعتماد «الدبلوماسي» غروبا الذي كان واحدًا من مسؤولي المخابرات الهتلرية في الشرق الأوسط. وكان غروبا حتى

خريف ١٩٣٩ سفيرًا لألمانيا في العراق، وطرد من هناك لاشتراكه في محاولة تنظيم تمرد، ثم عمل ملحقًا في السفارة الألمانية بأنقرة[٤].

طلب الإنجليز (ولا شك انهم كانوا على علم بنشاطات غروبا) من ابن سعود رفض أوراق اعتماده. وفي ذلك الظرف كان الملك يخشى إثارة نقمة أي من الطرفين، ولكنه رضخ أخيرًا للضغوط البريطانية[٥].

تغير قرار الحكومة السعودية بفعل انتصارات ألمانيا الفاشية على جبهات القتال، فسمح لغروبا بالقدوم إلى جدة بمعية بعثة كبيرة، فبدأ هناك نشاطه المحموم. ونشطت الدعاية الألمانية، الموجهة ضد الإنجليز أساسًا، في أوساط الحجاج، وبدأ المبعوث الألماني بتشكيل مجموعات تخريبية ضم إليها المستائين من الملك وزودهم بالمال والسلاح.

بعد الاستيلاء على يوغوسلافيا واليونان، ومن ضمنه جزيرة كريت، بدأت ألمانية النازية تشق الطريق نحو الشرق الأوسط، وخصوصًا نحو العراق وسوريا. وفي ربيع ١٩٤١، جرى في العراق انقلاب معاد لبريطانيا وطلب قادته مساندة ابن سعود[٦] إلا أنه رفض متذرعًا بأن ذلك سيكون خيانة لبريطانيا التي تربطه وإياها علاقات ودية[٧]. وقد بعث إليه هتلر رسالة شخصية عرض فيها العمل ضد بريطانيا ووعده مقابل ذلك بـ«عرش كل العرب». ورفض عبد العزيز عرض هتلر واستدعى من سويسرا السفير السعودي فؤاد حمزة الذي عمل على دفعه للتعاون مع دول«المحور» ونقل إليه رسالة هتلر[٨].

دبر عملاء غروبا سلسلة من أعمال التخريب في السعودية، تم عدد منها في حقول النفط بالأحساء، فأرسل البريطانيون إلى السعودية سربًا من الطائرات يحمل معدات لإخماد الحرائق[٩].

في أواخر أيار (مايو) ١٩٤١، احتلت القوات البريطانية مواقع مهمة استراتيجيًا في العراق، وفي الفترة نفسها ألحقت القوات البريطانية والثوار الاثيوبيون الهزيمة

بجيش الاحتلال الإيطالي في اثيوبيا. وفي تموز (يوليو) ١٩٤١ احتلت القوات المسلحة البريطانية وقوات فرنسا الحرة سوريا وطردت من هناك إدارة فيشي.

هكذا طرأت تغيرات ملحوظة على الوضع في الشرق الأوسط. وقد كانت القيادة الهتلرية منشغلة بالإعداد للحرب ضد الاتحاد السوفييتي ولم تتمكن من جرد قوات كافية لإنزال ضربة بالمواقع البريطانية في الشرق الأوسط.

نوقشت في بريطانيا، التي حافظت على سيطرتها في هذه المنطقة، مسألة إدخال قوات بريطانية إلى المراكز الهامة استراتيجيًا في السعودية، على غرار ما تم في العراق وسوريا. بيد أن الحكومة البريطانية كانت مرغمة على أن تحسب حساب الولايات المتحدة لان للاحتكارات الأميركية مصالح في المملكة أضف إلى ذلك ان احتلال بلد مترامي الأطراف يسود فيه النفور من الأجانب قد يجابه بصعوبات كثيرة.

وتحاشيا لوقوع استفزازات على الحدود مع العراق وشرق الأردن[١٠] سحب ابن سعود قواته إلى عمق بلاده[١١]، وسرعان ما فسخ معاهدة الصداقة مع ألمانيا، وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، طرد المبعوث غروبا من البلد[١٢]. وكانت العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا قد قطعت منذ عام ١٩٤٠.

طلب رشيد عالي الكيلاني زعيم الانقلاب في العراق اللجوء إلى السعودية، فحل ضيفًا مكرمًا وعلى الرغم من مطالبة الإنجليز بتسليمه لان المحكمة العسكرية العراقية أصدرت حكمًا بإعدامه[١٣].

وعلى الرغم من أن أراضي العربية السعودية لم تصبح مسرحًا للمعارك، فإن اقتصاد البلد ناء بأعباء الحرب. فقد استنزفت القوات المستنفرة عوائد الدولة، وأدّى تغيب الرجال فترة طويلة إلى الاضرار بالزراعة. أصبح البلد في وضع مالي مزر، وبلغ العجز في الميزانية عام ١٩٤١ مقدار ١١٥٠ ألف جنيه استرليني، وهبطت عوائد الحج. فبعد أن كان عدد الحجاج عشية الحرب يراوح بين ٥٠ و ١٠٠ ألف، ويعود على الخزينة بـ ٥ ـ ٦ ملايين دولار، فإن عددهم تقلص في زمن الحرب إلى ٢٠ ـ

٣٠ ألفًا. وتزايدت أسعار السلع المستوردة، بينما لم تحصل زيادة في استخراج النفط في بداية الحرب.

طالب ابن السعود الشركات صاحبة الامتياز بأن تسلفه على حساب الريع مبلغ ستة ملايين دولار سنويًا. وخشية إلغاء الامتيازات ومنحها للبريطانيين، التزمت الشركة الأميركية بتزويد العربية السعودية بقرض مقداره ثلاثة ملايين دولار، على أن يزداد مستقبلا إلى ستة ملايين. بل ان الشركة أبقت مبالغ المدفوعات عن الامتياز على وضعها السابق، في ظرف كان من المزمع إبّانه تقليص استخراج النفط.

أبقت بريطانية العربية السعودية مرتبطة بتبعية مالية، وذلك بتزويدها بالسلع والعملات الذهبية والفضية للتداول[١٤].

وبغية تقييد نشاط شركة النفط الأميركية، استغلت بريطانيا مركز تموين الشرق الأوسط الذي تولى قبل عام ١٩٤٢ تزويد القوات في الشرقين الأوسط والأدنى بمشتقات النفط، والإشراف على توزيع المواد الغذائية على بلدان المنطقة. وتولى البريطانيون تسويق نفط إيران والعراق، ولكنهم في الوقت نفسه قيدوا تسويق نفط السعودية لجيوش الحلفاء. وعلاوة على ذلك أحكموا سيطرتهم على كل صادرات الأغذية إلى المملكة.

أثار تزايد النفوذ الاقتصادي لبريطانيا في العربية السعودية قلق شركات النفط الأميركية؛ فقررت الحكومة الأميركية تقديم عون غير مباشر لابن سعود. إذ انها قدمت لبريطانيا قرضًا بـ ٤٢٥ مليون دولار وطالبت بأن تمنح العربية السعودية جزءًا من هذه الأموال. وقد أبلغ ممثلو شركة النفط ابن سعود بذلك[١٥]، ولكن الملك كان مرتبطًا بالدرجة الأولى بمن يقدم له العون المباشر. وخشية استمرار توطد مواقع بريطانيا في العربية السعودية أصرت الاحتكارات النفطية الأميركية على أن تزود الحكومة الأميركية المملكة بمساعدة مباشرة.

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كانت الحكومة الأميركية تعتبر الشرقين الأوسط والأدنى دائرة نفوذ أوروبية، وبريطانية بالدرجة الأولى. ولم يكن لدى

الإدارة الأميركية الكثير من الوسائل السياسية الفعلية لدعم الشركات الأميركية الخاصة، بما فيها شركات النفط، في هذه المنطقة من العالم[١٦]. وعشية الحرب، عام ١٩٣٩، لم تكن حصة الأميركيين من استخراج النفط في الشرق الأوسط تربو على ١٠٪ [١٧].

خلال سنوات الحرب طرأت تغييرات عميقة أساسية على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ووضعت الولايات المتحدة نصب عينها مهمة الحلول محل بريطانيا كدولة مهيمنة في المنطقة لاعتبارات عديدة أهمها الاحتياطات النفطية. فقد تغير دور النفط في العالم وتحول من سلعة تجارية في الأساس إلى سلعة استراتيجية ذات أهمية من الدرجة الأولى[١٨].

في الثامن من شباط (فبراير) ١٩٣٤، تلقى وزير الداخلية الأميركي هارولد إيكيس مذكرة من «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» تضمنت الأفكار التالية: «يتزايد القلق بصدد التنامي السريع لنفوذ بريطانيا الاقتصادي في العربية السعودية، لأن ذلك يمكن أن يحدث تأثيرات جوهرية في نشاط الأميركيين بعد الحرب. ولو قدمت الحكومة الأميركية معونة مباشرة للحكومة السعودية، عوضًا عن المعونة غير المباشرة التي نقدمها حاليًا عن طريق البريطانيين، لوضعت حدًا لذلك ولأعطيت ضمانة معينة بأن احتياطات النفط في العربية السعودية ستبقى تحت سيطرة الأميركيين. وبوسع الحكومة الأميركية تقديم معونة مباشرة للحكومة السعودية، وخصوصًا عن طريق برنامج الإعارة والتأجير»[١٩].

في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٤٣، أي بعد مرور عشرة أيام على رفع المذكرة، أوعز روزفلت إلى نائب وزير الخارجية ستينيوس المسؤول آنذاك عن برنامج الإعارة والتأجير «بتنظيم مساعدة للحكومة السعودية وفق برنامج الإعارة والتأجير» وأكد الرئيس ان الدفاع عن السعودية «له أهمية حيوية لمسألة الدفاع عن الولايات المتحدة» على الرغم من ان المملكة لم تكن مشاركة في الحرب لا شكليًا ولا فعليًا[٢٠]. وفي عام ١٩٤٨، قدرت اللجنة الخاصة التي شكلها مجلس الشيوخ للنظر في برنامج الدفاع الوطني، حجم المساعدة التي قدمتها الولايات المتحدة للعربية

السعودية خلال الحرب، عن طريق برنامج الإعارة والتأجير والصادرات الأخرى بتسعة وتسعين مليون دولار.

عند حلول عام ١٩٤٣، بدأ استخراج النفط يتزايد من جديد بعد أن كان قد انخفض بسبب إغلاق أسواق أوروبا الغربية والقيود التي وضعها البريطانيون. وتعزى الزيادة إلى ارتفاع الطلب على النفط من قبل جيوش الحلفاء في مسارح العمليات الحربية بالمحيط الهادي والبحر الأبيض المتوسط، وإلى توقف صادرات النفط من بورما واندونيسيا بعد استيلاء اليابان عليهما. وتولت شركة أرامكو تزويد الحكومة الأميركية بمشتقات النفط للأغراض الحربية، وبلغ استخراج النفط في السعودية عام ١٩٤٣ مقدار ٤,٩ مليون برميل، وازداد إلى أكثر من عشرة أضعاف عام ١٩٤٦[٢١].

في آذار (مارس) ١٩٤٢، عينت الولايات المتحدة قائمًا بالأعمال في جدة، بعد أن كان السفير الأميركي في القاهرة معتمدًا في السعودية إضافة لوظيفته.

وفي ربيع ١٩٤٣، وصل الجنرال هارلي إلى السعودية مندوبًا عن روزفلت لاستيضاح مواقع شركات النفط الأميركية هناك. وفي تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه قام ولي العهد سعود بزيارة رسمية إلى واشنطن وأمضى في الولايات المتحدة شهرًا كاملًا. وفي السنة نفسها زار الأمير فيصل وأخوه خالد الولايات المتحدة وقابلا روزفلت وأعضاء الإدارة ومجلسي الشيوخ والنواب في الكونغرس الأميركي[٢٢].

في ذلك الحين قدرت أرامكو احتياطات النفط في السعودية بعشرين ألف مليون برميل، أي ما يعادل كل الاحتياطات المكتشفة في الولايات المتحدة[٢٣]. وكان ذلك أقوى حجة تعتمدها شركات النفط لحفز الحكومة الأميركية على دعم مصالحها.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣، أعدت مجموعة من الجيولوجيين الأميركيين تقريرًا بعد جولة في الشرق الأوسط، جاء فيه ان مركز استخراج النفط سوف يتحول من حوض خليج المكسيك والبحر الكاريبي إلى منطقة الشرق الأوسط[٢٤]. وذكر الخبراء ان تقديراتهم تفيد بأن أكبر احتياطات النفط في العالم موجودة في حوض

الرافدين والخليج العربي. وكان إنتاج النفط في هذه المنطقة أقل كلفة مما هو في أي مكان في العالم.

في عام ١٩٤٣، تمكنت شركة أرامكو من الحصول على تخصيصات مالية لبناء مصنع لتكرير النفط في رأس تنورة بسعة خمسين ألف برميل يوميًا، وبدأ المصنع العمل في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥. وفي آذار (مارس) ١٩٤٥، مد خط لأنابيب النفط إلى البحرين حيث يوجد مصنع كبير للتكرير[٢٥].

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٣، زار العربية السعودية الجنرال رويس، القائد العام للقوات المسلحة الأميركية في الشرق الأوسط، واتفق على بناء مطارات حربية في الظهران والدوكة. وقد بدأ بناء قاعدة الظهران الجوية عام ١٩٤٤ وأنجز ١٩٤٦. ووصلت إلى العربية السعودية بعثة عسكرية أميركية تولت، إلى جانب مجموعة المدربين البريطانيين الذين استدعاهم ابن سعود، لتدريب الجيش السعودي. وخلال سنوات الحرب زودت الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية بالأسلحة والمعدات العسكرية وفق برنامج الإعارة والتأجير[٢٦].

لقاء ابن سعود وروزفلت[٢٧]

أظهرت لقاء روزفلت والملك عبد العزيز أهمية الموقع الذي احتلته السعودية في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. فقد أقام الرئيس الأميركي في طريق عودته إلى الولايات المتحدة بعد مؤتمر يالطا صلة شخصية بزعيم واحدة من الدول التي كانت تعتبر تقليديًا ضمن دائرة المصالح الأمبراطورية البريطانية. وأحيط لقاء روزفلت وابن سعود بسرية تامة، وخصوصًا بالنسبة للبريطانيين الذين لم يعلموا عنه شيئًا إلا في اللحظة الأخيرة.

استقل ابن سعود وحاشيته البارجة الأميركية «مورفي» من جدة إلى قناة السويس حيث كان الرئيس روزفلت بانتظاره على متن الطراد الأميركي «كوينسي» في البحيرات المرة.

أقيم للملك سرادق على ظهر البارجة وكانوا يذبحون له شاة كل يوم، وفي ساعات النهار يعرضون عليه افلاما تسجيلية عن عمليات القوات الأميركية.

جرى لقاء روزفلت وابن سعود في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٤٥، وحاول الرئيس الأميركي الحصول على موافقة الملك على مشروع إسكان اليهود في فلسطين، قائلًا انهم ضحايا للنازية، فرد الملك بما معناه: لتتحمل ألمانيا مسؤولية هذه الجرائم. ولما كان الألمان قد آذوا اليهود، فليعاقب المذنب. ولماذا يجب أن يحمل العرب جريرة آثام ارتكبها آخرون؟ ولم تفلح محاولات روزفلت لحمل ابن سعود على تغيير موقفه.

في الخامس من نيسان (إبريل) بعث روزفلت رسالة إلى ابن سعود وعد فيها بالامتناع عن الإقدام على أي عمل قد يكون معاديًا للعرب. كما انه التزم بأن الحكومة الأميركية لن تغير نهجها السياسي الأساسي في فلسطين إلا بعد مشاورات تمهيدية شاملة مع اليهود والعرب على حد سواء[٢٨].

وأكد ابن سعود في لقائه مع روزفلت موافقته على أن السفن البريطانية والأميركية حرة في استخدام الموانئ السعودية على الخليج، كما وافق على إقامة قاعدة جوية ضخمة. ولكنه اشترط إبّان ذلك إلا تتعرّض السعودية في أي حال من الاحول إلى الاحتلال، كما جرى في مصر وسوريا والعراق وإيران، والا يقتطع أي جزء من أراضيها. وفيما يخص المناطق التي يحتاجها الجيش الأميركي فإنها تعار لفترة لا تتجاوز الخمس سنوات. كما طلب ابن سعود بأن تحصل الحكومة السعودية على جزء من السلاح الخفيف المخزون في إيران، وفي مقابل ذلك تعهد ابن سعود بإعلان الحرب على دول «المحور»[٢٩].

طلب الملك من الرئيس الأميركي مد يد الصداقة له ودعم استقلاله، وحصل على وعود بهذا الخصوص. ويرى أيدي ان ابن سعود اعتبر هذا اللقاء ضمانة تقيه من المحاولات التي قد تقوم بها بريطانيا للنيل من استقلاله.

أما بالنسبة لموضوع النفط فقد أكد ابن سعود لروزفلت، ان الامتيازات الأميركية باقية على حالها، ووافق على بناء خط لأنابيب النفط عبر الجزيرة العربية يربط منطقة الأحساء بسواحل البحر الأبيض المتوسط.

إثر مغادرة روزفلت عقد رئيس الوزراء البريطاني شرشل لقاء مع ابن سعود في مصر للحد من نفوذ الأميركيين، ولكن اللقاء لم يسفر عن جديد. ولم يكن بوسع لقاء مثل هذا ان يحول دون خروج المملكة السعودية من دائرة النفوذ البريطاني بدعم من الولايات المتحدة. فقد استغلت واشنطن عدم ثقة آل سعود ببريطانيا لتعزيز مواقع الولايات المتحدة في المملكة.

في آذار (مارس) ١٩٤٥، أعلنت العربية السعودية الحرب على دول «المحور»، مما أتاح لها إمكانية الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة[٣٠].

ولكن تجدر الإشارة إلى أن تركيا وإيران ومصر كانت في فترة ما بعد الحرب (أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات) تحتل الموقع الأول في مجال المصالح العسكرية والاستراتيجية لواشنطن في الشرقين الأدنى والأوسط. وظلت بلدان الخليج العربية أو على الأقل البلدان الواقعة على بر الجزيرة العربية في المقام الثاني. وتولت بريطانيا الحفاظ على مصالح الغرب العسكرية والاستراتيجية في الخليج وفي الجزيرة العربية.

في عام ١٩٤٥ كان التناسب بين الرساميل الأميركية والبريطانية والفرنسية في الصناعة النفطية كالتالي: شركة النفط البريطانية العراقية تسيطر على ٢٧,٧٥٠ مليار برميل من احتياطات النفط و«رويال داتش شيل» ٢,٧٥٠ مليار و«غالف أويل» ٥ مليارات و«ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» و«تكساس أويل» ٢٠ مليارًا و«ستاندرد أويل أوف نيوجرسي» و«سوكوني واكوم أويل» ٢,٧٥٠ مليار و«فرانسيز دي بترول» ٢,٧٥٠ مليار. وقدرت الاحتياطات الإجمالية بـ ٦١ مليار برميل[٣١]. وكانت الشركات ذات الرأسمال البريطاني والبريطاني ـ الهولندي تستخرج القسم الأكبر من النفط آنذاك. ولكن الوضع بدأ يتغير تغيرًا جذريًا نظرًا لتزايد إنتاج النفط بسرعة في العربية السعودية حيث اكتشف المزيد من الحقول الجديدة، ونتيجة للأزمة الإيرانية في بداية الخمسينيات التي أضعفت إلى حد كبير مواقع الرأسمال البريطاني في المجال النفطي.

الفصل السادس عشر

الوضع الداخلي في المملكة وسياستها الخارجية (١٩٤٥ ـ ١٩٥٨)

ان المؤرخ الذي يعكف على دراسة العربية السعودية في فترة ما بعد الحرب يواجه عقبة كأداء تتمثل في شحة المعلومات عن حقيقة الوضع السياسي في البلد، مع وجود فيض من المعلومات حوله في مقالات الصحف والمجلات والمعطيات الإحصائية والكتب المتزلفة، بل وتوجد حتى بعض الدراسات الاجتماعية. وجرى الصراع السياسي داخل الصفوة الحاكمة بين مختلف التكتلات من الفخذ السعودي المتشعب، هذا علمًا بأن أفراد العائلة، باستثناء حالات نادرة للغاية، لا يسمحون بتسرب معلومات حول الطبيعة الفعلية للصدامات والتغيرات في قمة السلم السعودي. ولم يتوفر تصور عن الوضع في العائلة المالكة إلا بعد احتدام الصراع على السلطة بين الملك وولي العهد في فترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ و «انتفاضة الأمراء الأحرار» التي جرت في إطار هذا الصراع. وفيما يخص نشاطات المعارضة بمختلف أشكالها، فعل الرغم من أنها أثارت مخاوف الطبقة الحاكمة، فقد كانت ضعيفة ومشتتة (باستثناء التحركات العمالية عامي ١٩٥٣و ١٩٥٦) وان قمعت دون صعوبة تذكر. وإن المعلومات المتوفرة عن نشاط المعارضة كانت شحيحة ومتقطعة ومتناقضة.

إن جزءًا كبيرًا مما نعرفه عن تاريخ العربية السعودية ينحصر في علاقاتها مع شركات النفط وصلاتها الدولية وسياستها الخارجية. ويبدو أن ثمة مسوغات لذلك. فإن التصاعد الحاد للصراع الدولي في منطقة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية

الثانية وانخراط العربية السعودية في الصراع إلى جانب هذا الطرف أو ذاك، وما طرأ على حركة التحرر الوطني من مد وجزر، والترابط القوي بين مصائر البلدان العربية، هذه العوامل جميعًا زادت من وزن وأهمية السياسة في العملية التاريخية.

وقد تأثرت السياسة الداخلية والخارجية للعربية السعودية بعامل جديد، هو عامل النفط. وخلال بضع سنوات تحولت المملكة الصحراوية إلى واحد من أكبر مصدري الوقود السائل، وفي السبعينيات صارت أكبر مصدر على الاطلاق.

العلاقات مع شركات النفط

عند انتهاء عام ١٩٤٥ كانت أرامكو قد اكتشفت أربعة حقول ضخمة للنفط في الدمام وأبو حدرية وبقيق والقطيف. وفي أيار (مايو) ١٩٥١ اكتشف أكبر مستودع في العالم في السفانية بالجرف القاري في الخليج. وأكبر حقل نفطي على اليابسة في العالم، هو حقل غاوار الذي يبلغ طوله زهاء ٢٤٠ كيلو مترًا وعرضه ٣٥ كيلو مترًا، وقد اكتشف في مستهل الخمسينيات. وبالإضافة إلى ذلك افترض الخبراء وجود مستودعات جديدة من الوقود السائل في الطبقات الجيولوجية الفريدة بالعربية السعودية[١].

جرى توسيع في ميناء تصدير النفط برأس تنورة وبدأ استخدامه في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥ بسعة قدرها ٥٠ ألف برميل يوميًا. وازدادت تدريجيًا قدرة مصنع تكرير النفط في رأس تنورة وبلغت في أواسط الستينيات ١٥ مليون طن سنويًا. ثم تضاعفت. وشيد مصنعان آخران لتكرير النفط في جدة والرياض[٢].

بعد الحرب العالمية الثانية أدّى تحوّل مؤسّسات إنتاج الطاقة في البلدان الرأسمالية إلى استخدام الوقود السائل وكثرة عدد السيارات وتطور الكيمياء، إلى تزايد لم يسبق له مثيل في الإقبال عن النفط وخصوصًا في النصف الشرقي من العالم. وأخذت مناطق عديدة من العالم كانت متخلفة عن الولايات المتحدة في استخدام النفط تعمل بوتائر سريعة على اللحاق بها. ولئن كان الطلب على النفط قد ازداد خلال ربع القرن الذي أعقب الحرب لأكثر من ٢,٥ مرة في الولايات المتحدة،

فإن الزيادة في سائر أنحاء العالم ربت على ٨ مرات، وبلغت الزيادة أسرع وتائرها في اليابان وأوروبا الغربية. وأصبحت منطقة الشرقين الأدنى والأوسط أكبر منتج لهذه المادة الخام عام ١٩٦٥، حينما بلغ الاستخراج هناك زهاء ٨,٥ مليون برميل يوميا، أي أكثر من إنتاج الولايات المتحدة [٣].

أخذت صناعة تكرير النفط تنتقل شيئًا فشيئا إلى مراكز الاستهلاك. فإن نقل النفط الخام أرخص من نقل مشتقاته الجاهزة، علاوة على أن بوسع المستورد ان يشتري منه كميات أكبر، كما جرت في مراكز الصناعة الاستفادة من نفايات التكرير على نحو واسع. واضيفت إلى الحسابات الاقتصادية اعتبارات سياسية هامة: فقد خشيت الشركات (وخصوصًا بعد محاولة تأميم النفط الإيراني في مستهل الخمسينيات) من إنشاء مصانع ضخمة لتكرير النفط في البلدان النامية.

إبّان سنوات الحرب خمن المساهمون في أرامكو ان خط الأنابيب بين العربية السعودية والبحر الأبيض المتوسط يمكن أن يقلص نفقات نقل النفط إلى أوروبا بنسبة تراوح من ثلث إلى نصف كلفة استخدام الناقلات. وتقرر مد خط للأنابيب بقطر ٣٠ بوصة (٧٦٢ ملم) من منطقة بقيق النفطية بالعربية السعودية إلى السواحل اللبنانية قرب مدينة صيدا، بطول إجمالي قدره ١٧١٢ كيلومترًا وبسعة ١٥ مليون طن سنويًا على أن تزداد السعة إلى ٢٥ مليون طن[٤].

في تموز (يوليو) ١٩٤٥، أسّس المساهمون في أرامكو شركة التابلاين «شركة خط أنابيب نفط البلاد العربية السعودية». وعندما كانت أعمال مد الخط في أوجها عمل فيها ١٦ ألف شخص واستخدم زهاء ٣ آلاف ماكنة مختلفة[٥].

ولكن إذا كانت الشركات والحكومة البريطانية عاجزة عن عرقلة زيادة استخراج النفط من قبل أرامكو. فانها حاولت إعاقة وصول خط الأنابيب الأميركي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، لأنه سوف يتيح للأمريكان إمكانية نقل النفط إلى أوروبا الغربية بسرعة وبكلفة زهيدة. وبمد الخط يفقد البريطانيون جزءًا من العوائد التي يحصلون عليها لقاء نقل النفط في ناقلاتهم بالإضافة إلى رسوم نقل النفط عبر قناة السويس.

كان الصراع السياسي في سوريا ولبنان والعراق في فترة ما بعد الحرب مرتبطًا، ارتباطًا مباشرًا أو غير مباشر بالتنافس النفطي بين بريطانيا والولايات المتحدة،بما في ذلك ما يتعلق بمد خط الأنابيب.

أيد ابن سعود الحكومة التي استلمت زمام الحكم في سوريا إثر الانقلاب العسكري في آذار (مارس) ١٩٤٩ بقيادة حسني الزعيم المرتبط بالولايات المتحدة، ومنحه قرضًا قدره ستة ملايين دولار. وقد عارض حسني الزعيم مشروعي«سوريا الكبرى» و«الهلال الخصيب» اللذين كان وراءهما البريطانيون ودعا إليهما عبد الله أمير شرق الأردن، وأبرم حسني الزعيم الاتفاقية الموقعة سابقًا حول مد خط الأنابيب عبر أراضي سوريا.

غير أن حكومة جديدة شكلت في سوريا برئاسة سامي الحناوي إثر الانقلاب العسكري الثاني في آب (أغسطس) ١٩٤٩، وأخذت تتبع سياسة موالية لبريطانيا وأبطلت اتفاقية خط الأنابيب وباركت فكرة «سوريا الكبرى».

وجاء أديب الشيشكلي الذي قام بانقلاب آخر في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ ليعيد لشركات النفط الأميركية مواقعها وأجاز مد خط الأنابيب. ولجأ الدكتاتور الشيشكلي إلى السعودية بعد انهيار نظامه في شباط (فبراير) ١٩٥٤.

عام ١٩٥٠ أنجز مد خط الأنابيب التابلاين الذي بلغت كلفته ٢٣٠ مليون دولار وبدأ العمل[٦].

أدّى التطور السريع للصناعة النفطية في العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية إلى وصول شركتي سوكال وتكسكو إلى قناعة بأنهما لا تمتلكان الأموال الكافية لاستثمار المكامن الهائلة في البلد، ومد خط الأنابيب وتوفير أسواق لمثل هذه الكمية الضخمة من النفط. لذا قررت الشركتان التعاون مع «ستاندرد أويل أوف نيوجرسي» و«موبيل أويل». ووقعت اتفاقية إسهام هاتين الشركتين مع أرامكو في أواخر عام ١٩٤٦ وظلت الاحتكارات البريطانية طوال سنتين تعارض هذه الاتفاقية لأن«ستاندرد أويل« و«موبيل أويل» وقعتا من قبل «اتفاقية الخط الأحمر». وفي

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ تجاهلت الشركتان الامريكتيان معارضة «شركة النفط العراقية البريطانية» و«رويال داتش شيل» وانضمتا إلى أرامكو. وبذا أصبحت «اتفاقية الخط الأحمر» في عداد الاموات.

منذ عام ١٩٤٨، صارت أسهم أرامكو موزعة على النحو التالي: سوكال ٣٠٪، تكسكو ٣٠٪، «ستاندرد أويل أوف نيوجرسي» ٣٠٪ و«موبيل أويل» ١٠٪ [٧].

وفي عام ١٩٤٨، تخلت أرامكو عن حقوق الامتياز في المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت مقابل الحصول على الجزء السعودي في الجرف القاري بالأحساء. ومن أسباب ذلك انه تم آنذاك عقد اتفاقية امتياز في المنطقة المذكورة بين شركة «أميركان انديبندنت أويل» («أمين أويل») وحكومة الكويت وفق شروط أفضل بكثير مما نصت عليه الاتفاقية بين أرامكو والسعودية. وقد آثرت أرامكو الانسحاب من المنطقة المحايدة خشية أن تؤدي بها موافقتها على المطالب الكويتية إلى زيادة مدفوعاتها للعربية السعودية عن الامتياز الأساسي. ولكن السبب الأهم هو اكتشاف حقول نفطية ضخمة في الجرف القاري العائد للسعودية[٨].

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨، وقعت اتفاقية جديدة حول بدل الإيجار عن استخراج النفط في الجرف. ووافقت أرامكو على دفع بدل إيجار مماثل لما نصت عليه اتفاقية الامتياز الأولية، يضاف إليه خمسة سنتات أميركية لقاء كل برميل يستخرج من الجرف القاري. وتعهدت أرامكو ان يكون الحد الأدنى لبدل الإيجار السنوي عن العمليات في الجرف القاري مليوني دولار تدفع مقدمًا.

ووافقت على تحديد فترة مدتها ٢٢ سنة تعيد خلالها بالتدريج القطاعات التي لا تعتزم مواصلة التنقيب فيها من«منطقة الحقوق الخاصة» المعطاة لها[٩].

كانت الأرباح المتوفرة من استغلال احتياطات النفط فيحوض الخليج أرباحًا طائلة إلى حد دفع إلى المنطقة «أطرافًا خارجية» مستعدة للحصول على امتياز بشروط أفضل بكثير مما تقدمه الشركات السابقة للحكومات المحلية. وكان بين هذه الأطراف شركات أميركية مستقلة لا يمكن تجاهل ثقلها. فقد كانت متفوقة كثيرًا من

حيث الموجودات والرأسمال المتداول على كبريات شركات أوروبا الغربية واليابان. وبظهور «الأطراف الخارجية» أدركت الحكومة السعودية مدى ما كانت أرامكو تحجبه عنها من أموال، فتعزز موقف الحكومة في التفاوض بشأن إعادة النظر في اتفاقيات الامتياز[١٠].

في عام ١٩٤٩، منح امتياز في المنطقة المحايدة لمدة ستين عامًا إلى «باسيفيك ويسترن أويل كوربريشين» (بدل اسمها فيما بعد إلى «غيتي أويل كومباني») وذلك على حساب حصة العربية السعودية. ومقابل حق التنقيب والاستثمار في أرض مساحتها ألفا ميل مربع، بما فيها الجرف القاري لمسافة تمتد ستة أميال عن الساحل، وافقت الشركة على:

دفع ٥,٩٪ مليون دولار مقدمًا ومنح بدل إيجار قدره ٥٥ سنتا عن كل برميل من النفط الخام و ١٢,٥ من عوائد تسويق الغاز ومشتقاته، ودفع سلفة مقدارها مليون دولار كمقدم عن بدل الإيجار. وإذا كان بدل الإيجار المستحق الكامل أقل من هذا المبلغ فإن الحكومة غير ملزمة بإعادة القسط الأول[١١].

عام ١٩٥٣، تدفقت نافورة النفط الأولى في المنطقة المحايدة ونقلت أول كمية من النفط الخام عام ١٩٥٤. وشرعت «أمين أويل»، و«غيتي أويل» باستخراج النفط كل في حقولها وضخه عبر أنابيبها وموانئها ومستودعاتها[١٢].

وقعت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٧ اتفاقية مع شركة «جابان بتروليوم ترايدنغ كومباني أوف طوكيو» اليابانية التي قامت بتأسيس «شركة النفط العربية» ومنحت هذه الشركة حقًا استثنائيًا في التنقيب لمدة لا تتجاوز السنتين في الجرف القاري للمنطقة المحايدة خارج حدود الستة أميال عن الساحل. وفي حال اكتشاف النفط تمنح الشركة امتيازًا لمدة ٤٤ سنة. وقد بدأ الحفر عام ١٩٥٩ وتم استخراج الدفعات الأولى من النفط في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠.

وتعهدت الشركة بدفع ١,٥ مليون دولار سنويًا لحين اكتشاف كميات تجارية من

النفط، ومليون دولار إضافي سنويًا بعد اكتشافه على أن تدفع المبالغ الإضافية عن كل الفترة الممتدة من توقيع الاتفاقية وحتى اكتشاف النفط.

وتقرر ان الحد الأدنى لبدل الإيجار ٢,٥ مليون دولار ووافقت الشركة على دفع ضريبة دخل عن كل العمليات داخل السعودية وخارجها، بما في ذلك عن بيع النفط الخام وتكريره ونقله وتصديره إلى الأسواق. وفي كل الأحوال تقرر إلا تقل المدفوعات عن ٥٦٪ من عوائد الشركة، وزيدت النسبة إلى ٥٧٪ عام ١٩٦٣ [١٣].

منحت شركات إيطالية حق التنقيب عن النفط في سواحل البحر الأحمر. وفي عام ١٩٦٥ منح امتياز لشركة «اوكسيراب» الفرنسية ونصت الاتفاقية على أن للعربية السعودية حق المساهمة الفعالة في كل عمليات هذه الشركة. وفيما بعد عقدت شركة بترومين السعودية اتفاقية للتنقيب عن النفط في الربع الخالي مع «اجيب» (فرع شركة إيني الإيطالية) وشركة «فيليبس». وفي عام ١٩٦٧ نقلت «بترومين» حق التنقيب على سواحل البحر الأحمر لمجموعة تتألف من «ناتوماس انترناشنل كوربريشين» و «سينكلر أرابيان أويل كومباني» والشركة الحكومية الباكستانية. وقد تغيرت المجموعة فيما بعد، ولكن البحث عن النفط في الربع الخالي وعلى سواحل البحر الأحمر لم يسفر عن شيء[١٤].

منذ أواخر الأربعينيات وبعد أن تحسن اطلاع الحكومة السعودية على الشؤون المالية وإدراكها لضخامة عوائد أرامكو من استثمار ثروات البلد النفطية، أخذت تطالب بتوزيع الأرباح بشكل أكثر إنصافًا. وكان السعوديون قد سمعوا بالتوفيق الذي حالف فنزويلا التي تمكنت من زيادة عوائدها من الامتياز زيادة كبيرة، فعقدوا مع «غيتي أويل كومباني» اتفاقية بشروط أفضل بكثير من اتفاقيتهم مع أرامكو.

عام ١٩٥٠ صدر في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) و ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) مرسومان ملكيان فرضت بموجبهما ضريبة الدخل على الأرباح الصافية لكل الشركات الأجنبية العاملة في السعودية.وقد احتجت أرامكو ولكن إجحاف الاتفاقية الأولية كان باديًا للعيان. ففي السعودية كان صاحب الأرض والحكومة شخصية معنوية

واحدة، في حين ان الشركات في البلدان الأخرى، ومن ضمنها الولايات المتحدة، كانت ملزمة بأن تدفع الريع لمالك الأرض والضريبة للحكومة.

بعد مفاوضات مضنية عقدت في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ اتفاقية جديدة تنص على فرض ضريبة عن المداخيل المستحصلة من بيع النفط. ووافقت أرامكو على دفع الضريبة بشرط إلا يتجاوز الحجم الإجمالي لكل الضرائب والإيجار والمدفوعات الأخرى للحكومة ٥٠٪ من العائد الإجمالي لأرامكو، على أن يحدد هذا العائد بعد حسم كلفة العمليات بما فيها الخسائر وضرائب الدخل ان كانت تدفع لأي بلد آخر. والتزمت الشركة بأن تقدم للدولة السعودية مجانًا ٢,٦ مليون غالون من البنزين و ٢٠٠ ألف غالون من الكيروسين و ٧٥٠٠ طن من الاسفلت.

كان ذلك إنجازًا هاما، وأدّى إلى جعل عوائد السعودية من النفط تصل عام ١٩٥٧ إلى زهاء ضعف ما كانت عليه عام ١٩٥٠. ولكن موطن الضعف في هذه الاتفاقية ان العوائد احتسبت على أساس الدخل الإجمالي لأرامكو. وكان الغبن الواضح متمثلًا في تناقص ما يدفع للعربية السعودية في حالة فرض ضرائب على الشركة في دولة أخرى. وقد ألغي هذا البند في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٥٢[١٥].

على الرغم من زيادة المدفوعات للحكومة السعودية، فإن الاحتكارات ظلّت تحصل على أرباح طائلة بفعل الكلفة الزهيدة للغاية لاستخراج النفط ورخص الأيدي العاملة. فقد كان النفط المستخرج في السعودية يكلف أرامكو مبلغًا يقل عشر مرات تقريبًا عن كلفة النفط المستخرج من الولايات المتحدة وخمس مرات أرخص من نفط فنزويلا. وبلغت الأرباح الصافية لأرامكو بعد حسم المدفوعات والضرائب للحكومة السعودية ٢,٨ مليار دولار في فترة ١٩٥٢– ١٩٦٣ أي بمعدل ٥٧,٦ من الرأسمال المستثمر وبلغت النسبة ٨١,٥ عام ١٩٦١. أما في الولايات المتحدة فإن الربح الصافي يعادل ١٠ ـ ١٢٪ من الرأسمال المستثمر[١٦].

في آذار (مارس) ١٩٦٣، وافقت التابلاين على زيادة سعر كل برميل ينقل إلى صيدا، وان يكون لهذا الإجراء مفعول رجعي منذ ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٣، كما وافقت على دفع ضرائب دخل عن الربح الإضافي[١٧].

أعلن في شباط (فبراير) ١٩٥٤ ان الحكومة السعودية منحت مالك الأسطول التجاري اليوناني أرسطوطاليس أوناسيس ألحق في ان ينقل بحرًا من العربية السعودية كل النفط بإستثناء ما ينقل على السفن العائدة، أ) للشركات صاحبة الامتياز، ب) لشركاتها الأصلية أو لفروعها، ج) لمشتري النفط. وأشارت الاتفاقية إلى أن النية متجهة لتأسيس شركة نقل مختلطة يمتلكها أوناسيس والحكومة السعودية. وقد نددت بريطانيا بهذه الخطوة تنديدًا شديدًا، ووصفتها الغرفة البحرية البريطانية بأنها «أوقح مثال على الاستخفاف بالعلم» و«وتدخل فظ في القانون التجاري المتعارف عليه». كما ان ناطقًا بلسان وزارة الخارجية الأميركية احتج على الاتفاقية. ونظمت شركات النفط مقاطعة لسفن أوناسيس في كل أنحاء العالم، وبعد بضعة أشهر من الصراع استسلم أوناسيس وتخلى عن العقد[١٨].

منذ بداية الأربعينيات، وخصوصًا في الخمسينيات، أخذ مسؤولو أرامكو يدركون ان الظروف المناسبة لاستغلال حقول النفط السعودية قد تتعرّض للخطر إذا لم يضمن نظام حكم مستقر صديق لأميركا في البلد[١٩]. ولم تكن جهود الشركة أرامكو ووسائل الضغط التي بحوزتها كافية لإبقاء المملكة في الفلك الأميركي، لذا كان ينبغي تحريك ماكنة الدولة الأميركية بكل دوائرها السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والاعلامية ـ الدعائية العسكرية. وأخذ دور العربية السعودية يتعاظم باستمرار في قائمة أولويات السياسة الخارجية الأميركية.

السنوات الأخيرة من حياة عبد العزيز وبداية حكم سعود

في آخر سنوات حياة ابن سعود أخذت ادارته لشؤون المملكة تسوء شيئًا فشيئًا. فإن مؤسس الدولة الإقطاعية المركزية كان وليد عصر ولى زمانه، وليد المجتمع الإقطاعي القبلي، ولم يكن ليفهم التغيرات أو يتقبلها. وبفضل الزيادة السريعة في استخراج النفط وتعديل اتفاقيات الامتياز، ازدادت عوائد السعودية في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب عشرات المرات. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت المملكة

بمثابة ضيعة إقطاعية عائلية كبيرة، ويعتقد الحكام ان عوائدها يجب أن تنفق، في المقام الأول، على احتياجات العائلة المالكة.

وبعد أن سافر أفراد العائلة السعودية في الأربعينيات والخمسينيات إلى الخارج واطلعوا على ظروف حياة الطبقات الحاكمة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، تاقت أنفسهم إلى الابهة المعقولة وغير المعقولة. واقترن ذلك بالعجز التام عن التوفيق بين النفقات والمداخيل، والعزوف عن حساب المال وهو أمر تتميز به الارستقراطية الإقطاعية القبلية، علاوة على السخاء ـ وهو خصلة بشرية ايجابية تحولت عندهم إلى نقيضها حينما صارت إسرافًا لم يسبق له مثيل في التاريخ ببلد تشكل غالبيته سكان شبه جياع يرزحون في لجة الفقر والأمراض.

لقد بدأ تصاعد مجنون في الإنفاق على البلاط والفخفخة. وكثرت الأمثلة على إسراف العائلة المالكة وورد ذكرها في العديد من الكتب والمجلات والصحف بحيث لم يعد ثمة داع للاستفاضة فيها.

تقاطر على الرياض شذاذ الآفاق والنصابون من جميع أنحاء الشرق الأوسط. ورست الصفقات على كل من يدفع رشوة أكبر. واستشرى الفساد في البلاط الملكي وجهاز الموظفين وبلغ مدى مروعا. ومنذ ذلك الحين بدأت الأموال تتسرب من المملكة لإيداعها في الخارج. وكان التجار والمقاولون الجشعون يخدعون الحكام ويبيعون السلع والخدمات بأسعار تزيد خمس أو عشر أو عشرين مرة عن سعرها الحقيقي. ولكن عندما لا يوجد ما يكفي من المال كانت العائلة المالكة لا تكلف نفسها من عناء سوى الامتناع عن سداد الديون[٢٠].

وأصبح الوضع الشاذ وخطره على النظام جليّا لعدد من أفراد العائلة الحاكمة البعيدي النظر. ولكن إجراءات الملك الرامية لـ«تحديث» الدولة كانت ذات طابع شكلي وسطحي بحت.

وفي أواخر أيام. فحسب، في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٣، أصدر ابن سعود مرسومًا حول إعادة تنظيم مجلس الوزراء الذي أصبحت وظائفه لا تقتصر على

الحجاز بل تشمل، شكليًا وفعليًا، البلاد كلها. ولكن مجلس الوزراء الجديد لم يشرع بمزاولة أعماله إلا بعد وفاة ابن سعود[٢١].

كان عبد العزيز في شبابه وكهولته إنسانًا قويًا وشجاعًا، رويت فيه الأساطير. ونقل الزركلي عن طبيب ابن سعود الخاص رشاد فرعون الذي صار وزيرًا للصحة وواحدًا من أغنى أغنياء البلد، اسطورة تقول ان عبد العزيز أُصيب في إحدى المعارك بجرح في بطنه. وقد عرض فرعون عليه ان يحقنه بالمخدر (البنج) فأخذ عبد العزيز المبضع وشق موضع الإصابة وأخرج الرصاصتين وأمر بخياطة الجرح[٢٢].

كان عبد العزيز يعاني من آلام بسبب جرح في ساقه وقد تزايدت مع تقدمه في العمر. ولم يكن بوسعه ثني إحدى ركبتيه إذ ان ذلك يسبب له آلامًا مبرحة، ولا يستطيع أن يخلد للنوم إلا بعد أن تفرك ركبته ساعة أو أكثر. وقد أهداه الرئيس الأميركي روزفلت كرسيًا متحركاً هو نسخة طبق الأصل من كرسيه. وأعجب ابن سعود ايما إعجاب بالكرسي ولم يعد يفارقه. ويبدو أن ذلك عجل في وفاته لانه لم يعد يتحرك فترهل[٢٣].

كان أكثر ما يخشاه ابن سعود هو حدوث تنافس بين ولديه الأكبر سنًا. فطلب منهما قبيل وفاته ان يقسما على ألّا يتقاتلا. وكان يذكر ما حل بأبيه وأعمامه بعد وفاة جده فيصل ويخاف أن يؤدي الشقاق داخل العائلة إلى تقسيم المملكة[٢٤].

توفى عبد العزيز في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣ في الطائف. وأقسم زهاء مائة أمير اجتمعوا عند جثمانه يمين الولاء لسعود الذي بايعوه ملكًا ولفيصل كولي للعهد. ونقل جثمان ابن سعود جوًا إلى الرياض حيث دفن وفق التقاليد الوهابية المعتادة دون شاهد أو تابوت أو ضريح. ويصعب تمييز مقبرته عن سواها، وهي تقع إلى جوار مقابر سائر أفراد العائلة ومنهم أحب اخواته نورا. وبذا ظل الوهابيون الذين هدموا القباب وشواهد القبور أوفياء لأنفسهم[٢٥].

في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، أكد العاهل الجديد سعود

تعيين شقيقه فيصل نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للخارجية، واحتفظ لنفسه برئاسة الحكومة[٢٦].

يقول الزركلي ان عبد العزيز حينما توفى كان عدد الأحياء من أبنائه ٢٤ ولدًا وبلغ العدد الإجمالي لأبنائه وأحفاده وحفيداته ـ عدا أبناء بناته ـ ١٦٠، ويزيد العدد على الثلاثمائة إذا أضفنا ذرية بناته. وكان قد عقد خلال حياته عشرات الزيجات[٢٧].

كان ولي العهد سعود المولود عام ١٩٠٢ الابن الثاني لعبد العزيز بعد تركي الذي توفى شابًا بسبب إصابته بالأنفلونزا. وأم سعود من آل عريعر الارستقراطيين وهم شيوخ بنو خالد، وقد توفيت عام ١٩٦٩، أي بعد وفاة ابنها. وولد فيصل عام ١٩٠٦ من الزوجة الثالثة لعبد العزيز وهي من آل الشيخ. وقد جرى بين الاخوين غير الشقيقين تنافس مستمر لم ينقطع حتى بعد وفاة والدهما على الرغم من اليمين الذي اقسماه له[٢٨].

كان لسعود ٤٠ ولدًا وهو عدد مقارب لعدد إخوته، أما غريمه فيصل فلم يكن له غير ثمانية أولاد بعث خمسة منهم للدراسة في المدارس والجامعات الأميركية وواحدًا إلى اوكسفورد وآخر إلى كلية ساندهيرست العسكرية الملكية البريطانية[٢٩].

في آذار (مارس) ١٩٥٤ أدلى سعود في أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسي الأول بصفته ملكًا. وقد أعلن عن تمسكه بأهداب الدين وعزمه على مواصلة سياسة والده وأساليب حكمه. وقال ان هدفه الأول هو تثبيت أصول الدين والشرع. وذكر ان من مهمات حكومته تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض وتحسين الخدمات الطبية وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات. وتضمن خطاب العرش الذي ألقاه سعود فقرات صارت فيما بعد سمة ملازمة لكل التصريحات السياسية للحكومة السعودية: التأكيد على الالتزام بالتقاليد ومراعاتها، وفي الوقت نفسه الإشارة إلى الرغبة في إجراء تحديث وتطوير في الجهاز الحكومي[٣٠].

أسست في العربية السعودية ثماني وزارات: الداخلية، الدفاع والطيران، المواصلات، المعارف، المالية والاقتصاد الوطني، الصحة، التجارة والزراعة،

الخارجية. ونجد بين الوزراء عددًا من الأشخاص الذين ستظل أسماؤهم تتردد طويلًا في الحياة السياسية بالبلد: فهد بن عبد العزيز (وزير المعارف)، سلطان بن عبد العزيز (وزير المواصلات)، رشاد فرعون (وزير الصحة). غير أن الملك كان يتدخل باستمرار في أعمال أخيه ويقيد سلطته[٣١]. وفي أواخر الخمسينيات بلغ الصراع الخفي بينهما حدًا جعل الناس يتحدثون عن «ازدواجية السلطة» في المملكة.

الحركة العمالية

في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات لاحت في العربية السعودية البوادر الأولى التي تشير إلى أن قوى اجتماعية جديدة لم يعهدها البلد من قبل قط أخذت تظهر على المسرح السياسي، وان نزاعات أجتماعية لم يسبق لها مثيل آخذة في التطور. ولأول مرة طرحت الطبقة العاملة الفتية مطالبها.

جرى أول إضراب لعمال أرامكو. العمال الأجانب في الأساس، عام ١٩٤٥. وقدمت الإدارة تنازلات وقتية، إذ ضمنت ان يكون العمل لمدة ٨,٥ ساعات يوميًا وستة أيام في الأسبوع، وان تعطى إجازة سنوية مدفوعة الأجر لمدة اسبوعين. ولكن الأجانب المضربين سرحوا فيما بعد. وفي أواخر الأربعينيات شهدت حقول النفط اضطرابات عمالية جديدة[٣٢].

إزاء هذا الوضع أصدرت الحكومة السعودية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٧، قانون عمل استخدمت عند وضعه التشريعات المصرية. وحدد أسبوع العمل بستة أيام ويوم العمل بثماني ساعات في كل مؤسسة يزيد عدد العمال المأجورين فيها على العشرة.

شكل عمال أرامكو عام ١٩٥٢ لجنة بمثابة نقابة، وفي العام التالي بدأوا كفاحهم بحزم. فقد طالبوا بضمان حق التنظيم النقابي وزيادة الأجور وقطع دابر التمييز العنصري وتوفير مساكن جديدة للعمال ودفع أجور النقل واعتماد اللغة العربية في الأساس. وامتنعت إدارة أرامكو عن تنفيذ هذه المطالب، وأيدتها عمليًا اللجنة الملكية الخاصة، واعتقل ١٢ عضوًا من اللجنة العمالية. وفي ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) بدأ

إضراب شارك فيه زهاء عشرين ألفًا من العمال العرب في أرامكو. وأعرب سكان المنطقة الشرقية عن تعاطفهم مع المضربين، إذ ان الموقف من الأميركيين وثرائهم ونمط حياتهم كان موقفًا سلبيًا أو عدائيًا.

أعلنت الأحكام العرفية في حقول النفط، ونقل إلى المنطقة الشرقية بضعة آلاف من الجنود ولكنهم، شأن رجال الشرطة المحليين لم يتحمسوا لتنفيذ الأوامر القاضية بالتحرك ضد المضربين.

بلغ الوضع درجة من الخطورة حملت إدارة أرامكو على التفاوض مع اللجنة العمالية والقبول بالكثير من مطالب المضربين: زيادة الأجور بنسبة ١٢ ـ ٢٠٪ وتزويد العمال بملابس العمل والغذاء وتوفير وسائط النقل ومنحهم درجات تأهيلية أعلى. وأطلق سراح المعتقلين من أعضاء اللجنة وأعيدوا إلى أعمالهم، ولكن العمال لم يحصلوا على حق التنظيم النقابي. وقد انتهى الإضراب في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)[٣٣].

بدا أن الإضراب يعني بداية مرحلة جديدة نوعيًا في الحركة العمالية بالعربية السعودية. وبالفعل استمرت في السنوات الثلاث التالية المفاوضات بين ممثلي العمال والشركات، وتولت لجنة ملكية خاصة النظر في النزاع. ولكن السعي للحيلولة دون وجود حركة عمالية منظمة كان القاسم المشترك بالنسبة للسلطات السعودية والشركات.

شكلت أرامكو ما يسمى بـ «لجان الاتصال»، وكلفت شكليًا بدراسة مطالب العمال لتفادي النزاعات. أما في الواقع فإن هذه اللجان كانت تبحث عن «العناصر المريبة» وتلاحق النشطاء من العمال[٣٤].

وفي عام ١٩٥٦، حينما أدّت الأحداث الثورية في مصر إلى تعاظم الحركة المناهضة للغرب في سائر البلدان العربية، أصبحت المنطقة الشرقية المركز الطبيعي للتحركات الجماهيرية. وعندما وصل الملك سعود إلى الظهران في ٩ تموز (يوليو) ١٩٥٦ استقبلته مظاهرة جماهيرية ترفع شعارات مناهضة للامبريالية وطالب المتظاهرون

بإجلاء القاعدة الأميركية. وسلمت إلى الملك مطالب العمال وهي: الاعتراف رسميًا باللجنة التي انتخبوها وزيادة علاوة غلاء المعيشة وزيادة الأجور وتقليص يوم العمل ووقف التسريح الكيفي ومساواة العمال المحليين والأميركيين في الحقوق وإلغاء التمييز العنصري وإصدار قانون يكفل حقوق عمال أرامكو ويحمي كرامتهم[٣٥].

وبعد مرور يومين، في الحادي عشر من تموز (يوليو)، أصدر الملك مرسومًا يمنع كل الإضرابات والمظاهرات ويوقع على المخالف عقوبة الحبس لمدة لا تتجاوز الثلاث سنوات. بدأت حملة اعتقال وتعذيب العمال النشطاء وفق قوائم أعدتها الأجهزة الخاصة لأرامكو. وفي ١٧ تموز (يوليو) أعلنت اللجنة المركزية للعمال العرب الإضراب العام. وكان من بين المطالب التي طرحتها الطليعة الواعية من العمال: سن الدستور وإجازة الأحزاب السياسية والتنظيمات الوطنية وتقنين حق التنظيم النقابي وإلغاء المرسوم الملكي حول حظر الإضرابات وإيقاف تدخل أرامكو في شؤون البلد الداخلية وإجلاء القاعدة الأميركية من الظهران وإطلاق سراح المعتقلين كافة. ولكن من المستبعد ان تكون جماهير العمال في الأحساء قد بلغت آنذاك مستوى عاليًا من الوعي البروليتاري والسياسي يؤهلها للدفاع عن مثل هذه المطالب لذا فإن الإضراب القصير لم يعطل عمل حقول النفط. واستخدم في عمليات قمع العمال بدو من هجر الإخوان والحرس الشخصي لأمير المنطقة الشرقية المكون من العبيد والمعتوقين. وقد اعتقل مئات الأشخاص وعذبوا وصدرت أحكام بالحبس لمدد مختلفة والطرد من البلاد.[٣٦].

بعد مرسوم الحظر الصادر عام ١٩٥٦، جرى الإضراب الأول في عام ١٩٥٨ حينما توقف السواق العاملين لدى أحد المقاولين عن العمل احتجاجًا على الساعات الإضافية[٣٧].

ولكن من المهم الإشارة إلى أن الاضطرابات العمالية عام ١٩٥٦ كانت آخر تحرك كبير تقوم به البروليتاريا السعودية من الخمسينيات حتى التسعينيات.

تأزم الوضع الداخلي في أواسط النصف الثاني من الخمسينيات

لم يكن سعود يتمتع بالهيبة وقوة الشخصية اللتين كانتا سمة عبد العزيز، ولكنه كان يحاكي والده في نواقصه إلى حد كبير بحيث بدا نسخة كاريكاتورية عنه. فقد واصل العيش في عالم يمت إلى ماضي الجزيرة وله حريم كثير العدد وبلاط قوامه خمسة آلاف شخص، وكان يبذر المال معتبرًا عوائد البلد ملكه الخاص ولا يقر بوجود فرق بين كثرة المال ولا محدوديته(٣٨).

وكان طرد فيلبي من القرائن التي توضح الجو السائد في البلاد عقب وفاة عبد العزيز. فبعد وفاة ابن سعود أخذ فيلبي، الذي كان يعتبره بطلًا، يتحدث جهارًا عن الفساد المستشري في البلاط والمملكة مما أثار نقمة سعود. ولكن ما ان غادر فيلبي البلد حتى وجد جمهورا كبيرًا ومنبرًا لانتقاد النظام. فاختار الملك أهون الشرين وسمح له بالعودة لكي يقضي آخر سنوات حياته في وطنه الثاني(٣٩).

أخذت الرشوة تنخر في جهاز الدولة من أعلاه إلى أدناه. وجاء في كتاب «جحيم الحكم السعودي» الصادر عن ممثلي المعارضة الديمقراطية الثورية، ان حاكم المنطقة الشرقية حصل على ثلاثين ألف ريال مقابل إطلاق سراح مقاولين كبار حكم عليهم بالسجن سنة واحدة والضرب لتعاطيهم الخمرة(٤٠).

وزاول الكثير من أفراد العائلة المالكة وأمراء المحافظات عمليات نقدية غير مشروعة. فقد استغل حاكم المنطقة الشرقية سلطته وأرغم البنوك على بيعه النقد الأجنبي وفق السعر الرسمي (الدولار الواحد = ٣,٧٥ ريال) ومن ثم قام ببيع الدولار الواحد في السوق السوداء مقابل ستة ريالات أو أكثر(٤١).

خلال فترة ١٥ ـ ٢٠ سنة الأولى من «عصر النفط» أدّت الزيادة الكبيرة في عائدات النخبة الحاكمة إلى زيادة الطلب على العمال العبيد. وعلى الرغم من ان الرق كان إلى حد ما ذا طابع أبوي، فإن العبيد غالبًا ما كانوا يتعرّضون لاستغلال بشع ومعاملة قاسية في أحوال كثيرة. ولكن ظلّت قائمة عادة عتق العبيد حينما يكون السيد في النزع الأخير لان الإسلام يعتبر ذلك مغفرة للذنوب.

وفي الخمسينيات استمرت في السعودية تجارة العبيد وأسواق الرقيق، وكان

غالبية العبيد من الصومال واثيوبيا والسودان والمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا، علاوة على بلوجستان. لم تتأثر تجارة الرقيق في السعودية كثيرًا بالكفاح الدولي ضد هذه الآفة. وكانت الحكومة السعودية قد أعلنت عام ١٩٣٦ ان استيراد العبيد أو استعباد الحر أمر غير مشروع ويعاقب المخالف بالحبس لمدة لا تتجاوز السنة. ولكن تجارة الرقيق استمرت عمليًا وكان العبيد ينقلون إلى السعودية في الغالب أثناء موسم الحج كحجاج[٤٢].

أدى إنتشار الفساد بين الفئة الحاكمة وعدم التمسك بالزهد ولو شكليًا، والترف في الملبس وابهة القصور والسيارات، إلى إثارة النقمة ليس في أوساط الجماهير فحسب بل ولدى بعض العلماء من الحريصين على التقاليد الوهابية، وخصوصًا الذين لم يرتقوا إلى قمة السلم الديني. واعتبر هؤلاء ان اعتماد عناصر «تحديث» وان كانت سطحية، وأنماط الحياة الجديدة «بدعة» مرفوضة. وتعارضت أفكارهم مع آراء مجموعة العلماء المقربة من البلاط.

في معرض الحديث عن علماء الدين «الرسميين» يقول فيلبي: «يبدو ان العلماء المسؤولين عن الأخلاق والسلوك في البلد قد تخلوا عن رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معتبرينها مهمة عقيمة. ألم تكم أفواهم بالذهب؟... يحصل العلماء على مبالغ طائلة مخصصة للإنفاق على الفقراء والمحتاجين وما إلى ذلك من أعمال الخير». ولم يقدم أي كشف بالحساب من قبل هؤلا ء«الأطهار المنزهين»... «ولا توجد أي وصولات ممن يتلقون العون... وهناك فرص سانحة لنهب أموال الدولة، فحتى علماء الدين الوهابيون بشر قبل كل شيء»[٤٣].

في مطلع الخمسينيات، وخصوصًا بعد الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وتحت تأثيرها، ظهرت براعم تنظيم سري معارض للنظام وهو مكّون من قوميين مناهضين للغرب (الإمبريالية) يدين بأفكار ذات صبغة اشتراكية معتدلة. وكانت أول مجموعة شكلت بفعل الإضراب العمالي عام ١٩٥٣ هي جبهة الإصلاح الوطني التي أسسها شباب سعوديون من منتسبي القوات المسلحة والموظفين والمستخدمين في أرامكو الذين حصلوا على نصيب من التعليم. وأعلنت الجبهة ان أهدافها هي: ١) تحرير

البلاد الناجز من الهيمنة الإمبريالية ومن التسلط الاقتصادي لأرامكو وشركات النفط الأخرى. ٢) اعتماد دستور يكفل الانتخاب البرلماني ويضمن حرية النشر والتجمع وإجازة الأحزاب والنقابات وحرية التظاهر والإضراب. ٣) تطوير الصناعة الوطنية وتوفير البذور والأسمدة والآلات الزراعية للفلاحين بأسعار منخفضة. ٤) إلغاء الرق. ٥) إعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النفط وتعديلها بشكل يضمن حق استثمار ثروات البلد بشكل يكفل تقدمه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. ٦) مكافحة الأمية وتأسيس مدارس البنات وتوسيع التعليم العالي والمهني. واعتبرت جبهة الإصلاح الوطني نشاطها جزءًا من الكفاح التحرري الذي تخوضه الشعوب العربية ضد الإمبريالية وفي سبيل التعاون والوحدة على أساس حر ديمقراطي. وعلى صعيد السياسة الخارجية دعت الجبهة إلى تعزيز العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع البلدان العربية وإقامة علاقات اقتصادية مع الدول الاشتراكية، واتباع سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي ومناهضة المذاهب والأحلاف الإمبريالية[٤٤].

وفي عام ١٩٥٦ أعلنت الحكومة السعودية عن تصفية جبهة الإصلاح الوطني، واعتقل عدد من أعضائها، علاوة على ٥٦ شابًا عرفوا بأفكارهم الديمقراطية. وصار عمل الجبهة في الداخل صعبًا للغاية، ولكن أعضاءها واصلوا التبشير بآرائهم في مصر وسوريا ولبنان وفي المحافل الدولية[٤٥].

كان من أنشط العاملين على تنظيم جبهة الإصلاح الوطني الملازم عبد الرحمن الشمراني الذي عمل بين مجموعة من الضباط الشباب في الجيش النظامي. وسجن الشمراني مع أربعة ضباط آخرين بتهمة التآمر ضد النظام القائم، ثم أعدم. وأُهدي كتاب «جحيم الحكم السعودي» لذكراه[٤٦].

وتحت تأثير إذاعة القاهرة وجدت الميول المناوئة للحكومة تربة خصبة بين جزء من الضباط وفئة من المثقفين الناشئة والطلاب وتلاميذ المدارس.

كانت صحيفتا «الفجر الجديد» و«أخبار الظهران» تنشران مقالات تنتقد

الحكومة علنًا أو بشكل غير مباشر. وقد اعتقل صاحب امتياز «الفجر الجديد» ورئيس تحريرها يوسف الشيخ يعقوب والصحفي أحمد الشيخ يعقوب، وأغلقت الصحيفة. كما اعتقل رئيس تحرير «أخبار الظهران» عبد الكريم جهيمان وجلد قبل إيداعه السجن[٤٧].

في عام ١٩٥٦، أسّست لأول مرة في تاريخ نجد منظمة تلاميذ المدارس في مدن عنيزة وبريدة وشقراء والرس. وكان من مطالبها الأساسية حل جماعة الأمر بالمعروف التي شكلت في العشرينيات وصارت «بؤرة عفن تشكل خطرًا على الأطفال الطامحين إلى العلم». وطالب التلاميذ بتوحيد أساليب وبرامج التدريس وجعلها على غرار النظام المتبع في مصر وسوريا، وتأسيس معاهد عليا في البلد. وجرت في بريدة اشتباكات بين التلاميذ والمتعصبين من جماعة الأمر بالمعروف والشرطة، اعتقل اثرها عشرات الأشخاص وجلدوا[٤٨].

خشيت الحكومة ان يؤدي تطور التعليم والدراسة في الخارج إلى ظهور «أفكار هدامة» في البلد فقررت منع الدراسة في الخارج. وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٥ أصدر الملك مرسومًا يقضي باستدعاء كل الطلبة السعوديين الدارسين في الخارج وحرمان المخالف الجنسية السعودية. واستثنى المرسوم طلبة المعاهد العليا الذين يدرسون الهندسة والحقوق والطب[٤٩]. وكان القرار منافيًا لاحتياجات البلد إلى حد بحيث انه أصبح باطل المفعول عمليًا بعد سنوات[٥٠].

وفي محاولة لمنع الأفكار الجديدة لجأت الحكومة وعلماء الدين إلى سلاح مجرب، وهو التعصب الديني، فانتعشت في البلد جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وازدادت المبالغ المخصصة لها[٥١].

استخلص آل سعود من ثورة ١٩٥٢ في مصر التي جرت بشكل انقلاب عسكري، استنتاجًا مفاده ان ثمة خطرًا على النظام يكمن في الميول الثورية في الجيش النظامي، وعلى وجه التحديد بين الضباط الذين يتأثرون بالأفكار القومية المناهضة للامبريالية والحكم الملكي. وكان قد جرى بعد الحرب التركيز على بناء الجيش

النظامي، وابقيت الكتيبة التي كانت قد أرسلت لمحاربة إسرائيل عام ١٩٤٨ في مصر لإعدادها عسكريًا. وتولت البعثتان الأميركية والبريطانية، ومن ثم البعثة المصرية، تدريب الجيش النظامي.[٥٢]

وفي الخمسينيات توصل الملك وحاشيته إلى استنتاج مؤداه ان عصبية الإخوان الآخذة في الخمود لم تعد تشكل خطرًا على النظام، بل انها موجهة ضد «البدع» وإغراءات «الحضارة العصرية». لذا أخذت السلطات تولي اهتمامًا كبيرًا للمجندين من البدو.

أصبح البدو المجندون يسمون الحرس الوطني أو «الجيش الأبيض». وجهز الحرس الوطني بالأسلحة الحديثة وصار المنتسبون إليه ـ المجاهدون ـ يتقاضون رواتب عالية. رابطت غالبية وحدات الحرس الوطني قرب المدن الكبيرة وخصوصًا قرب حقول النفط. وفي عام ١٩٥٧ كان يوجد من الحرس الوطني ١٠ آلاف في الحجاز و ٥ آلاف في الأحساء و ٥ آلاف في الشمال. ويقع مقر قيادة الحرس الوطني في الرياض، وهناك مدارس في الحجاز ونجد لإعداد الآمرين والفنيين[٥٣].

يورد الباحث الفرنسي المختص بشؤون الشرق الأوسط بويربي في كتابه «شبه الجزيرة العربية» مضمون الإيعاز الخاص الصادر عام ١٩٥٧ بعنوان «الإخوان ينافسون الجيش». وجاء في الإيعاز ان الدولة السعودية سوف تواصل إيلاء الاهتمام لبناء جيش نظامي كبير، غير أنها تفضل مع ذلك الإنفاق على وحدات أفرادها من البدو فقط. ويبقى تنظيم الإخوان القوة الأساسية للجيش بسبب طابعها الديني ووفائها للأسرة المالكة. وتكمن خاصية تنظيم الإخوان في القدرة على تعبئة جيش قوامه مائة ألف مقاتل خلال فترة قصيرة جدًا[٥٤].

ولكن اتضح ان الإجراءات التي اقتصرت على تعزيز القوات المسلحة لم تكن من الفعالية بالقدر الكافي لتوطيد النظام. فقد كان البلد على حافة إفلاس اقتصادي. وأدّى تبذير آل سعود والبلاط الملكي ونهب أموال الدولة على أوسع نطاق، إلى أن

ديون العربية السعودية للبنوك الأجنبية وحدها بلغت عام ١٩٥٨ زهاء ١٢٠ مليون دولار. وبلغت ديون خزانة الدولة للبنوك المحلية والتجار ورجال الأعمال والمقاويل مئات ملايين الريالات. وطوال عدة أشهر لم يتقاض الموظفون رواتبهم فاضطروا إلى الاستلاف أو الاختلاس[٥٥].

في عامي ١٩٥٦ــ ١٩٥٧، تقلصت إلى حد كبير المدفوعات عن حقوق الامتياز بسبب إغلاق الأسواق الأوروبية أمام النفط السعودي وبدء انخفاض «الاسعار القياسية». وأدّى تقلص استيراد السلع، ومن ضمنها الأغذية، إلى تزايد الأسعار داخل البلد. وقاد الغلاء وتقلص تدفق العملة من الخارج إلى التضخم والمضاربة بالنقد. وبسبب عدم توفر العملة اللازمة لشراء السلع الضرورية والمعدات في الخارج صار الكثير من المقاولين والتجار السعوديين على حافة الافلاس، وساعد ذلك على انتشار الاستياء في أوساطهم.

وقد حاول بعضهم إقامة صلات مع البلدان الاشتراكية. ففي عام ١٩٧٥ اشترى التاجر السعودي العياسي كمية كبيرة من الاسمنت السوفييتي. وزار بعض رجال أعمال تشيكوسلوفاكيا حيث اتفقوا على شراء معدات مصنع للسكر وسلع صناعية ومواد غذائية. إلا أن أرامكو رفضت التعاون مع التجار ورجال الأعمال الذين يتعاملون مع الدول الاشتراكية ومنعت استخدام الاسمنت السوفييتي في مشاريع البناء التي أرستها على مقاولين محليين وهددت المخالف بفسخ عقد المقاولة. وضغطت الحكومة الأميركية على الملك فمنع التعامل التجاري مع البلدان الاشتراكية[٥٦].

أحدثت السياسة الداخلية للحكومة السعودية استياء بين أوسع فئات السكان وبدأت تتكون في البلد عناصر وضع ثوري.

كان كل من الطبقة الحاكمة والمعارضة يضع في حسبانه عاملًا آخر بالغ الخطورة ذا أهمية بالنسبة لمصير النظام، ونعني التأثير الثوري الذي يمارسه الوضع السياسي في الشرق الأوسط على الأوضاع في العربية السعودية.

الاتجاهات الأساسية للسياسة الخارجية

نشر الزركلي وثيقة سرية مهمة تحدد السياسة الخارجية للعربية السعودية في النصف الثاني من الأربعينيات والنصف الأول من الخمسينيات، ونعني بتلك الوثيقة التعليمات السرية التي تلقاها ولي العهد سعود قبيل زيارته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٧.

وأشارت التعليمات إلى «وجود مصالح عديدة ومشاعر بأهداف عامة» تربط بين السعودية والولايات المتحدة الأميركية. وثبتت هذه الأفكار في رسالة رسمية إلى الرئيس ترومان. وطلب من الأمير سعود أن يؤكد للرئيس الأميركي ولأعضاء حكومته تصميم السعودية «على اتخاذ جميع التدابير التي تكفل حسن العلاقات وتنمية الصداقة والمصالح الاقتصادية والأدبية للجانبين». كما طلب ابن سعود من ولده ان ينقل للأميركان «اننا قد نظرنا بعين الرضاء والاطمئنان إلى ترك الولايات المتحدة سياسة العزلة والانقطاع التي كانت تسير عليها في الماضي، وعلقنا الآمال الجسام على دخولها معترك سياسة الشرقين الأدنى والأوسط». وبالنسبة لبريطانيا أراد ابن سعود ان يقوم ولي العهد بافهام ترومان ورجال حكومته «إننا، منذ نشأتنا، كنا ولا نزال أصدقاء أوفياء لبريطانيا بالرغم من... حصول مشكلات ومتاعب عديدة. خَبَرنا الإنكليز وهم خَبَرونا، وعرفناهم وهم عرفونا» لذا فإن التفاهم بين الطرفين كان سهلًا على الرغم من ان بريطانيا اتخذت «مواقف سلبية أو غير ودية في بعض الأحيان» إزاء السعودية.

وجاء في التعليمات «ان بريطانيا كانت حريصة على الاحتفاظ بمنطقة الشرق الأوسط، ضمن دائرة النفوذ السياسي والاقتصادي البريطاني. غير أن دخول أميركا بنشاطها الملموس، أثار مخاوف الإنكليز. ومن ثم بدأنا نشعر بانحرافهم عنا إلى خصومنا» وأشارت التعليمات إلى «عدول بريطانيا عن سياسة التوازن بيننا وبين خصومنا، وشروعها في تقويتهم بصورة مباشرة وغير مباشرة».

وطلب من سعود التأكيد على ضرورة التفاهم مع الولايات المتحدة، والمحت

التعليمات إلى أن «التفاهم مع أميركا أمر ضروري. وهو ما نرجو أن نعلم من الآن المدى الذي توافق أميركا على السير فيه».

يتعلق البند السابع من التعليمات بموقف السعودية من الاتحاد السوفييتي، الذي يشكل في رأي القيادة السعودية «خطرًا غير مباشر» على المملكة بسبب «العلاقات القوية» بين الشيوعية والصهيونية و«الدعاية الروسية» التي تقوم بها الكنيسة الأرثوذكسية. وجاء في الوثيقة «إننا نناهض الصهيونية والشيوعية، ولا نرى أن تتخذ الكنيسة الأرثوذكسية وسيلة للدعاية الروسية في البلاد العربية».

أما البند الثامن فيتناول الصهيونية ويذكر «نحن مسلمون عرب، قبل كل شيء. واليهود أعداء ديننا منذ ظهور الإسلام» ولكن «الإسلام لا يقر مبدأ العنصرية... ونحن لسنا عنصريين. ولسنا نقاوم اليهود لأنهم يهود، ولكننا نقاوم السياسة التي يدعو إليها بعض اليهود، أي الصهيونيون، السياسة الغاشمة. وأسباب مقاومتنا لها عديدة ونذكر أهمها:

١) الصهيونية غاشمة ظالمة وتقوم على مبدأ جائر.

٢) إنها تتظاهر بأنها قائمة على أساس تخليص اليهود المضطهدين. وكيف يجوز معالجة اضطهاد باضطهاد آخر؟ أو رفع الحيف بايقاع حيف آخر أشد منه؟

٣) لانها مناقضة للمصالح السياسية القائمة في البلاد العربية.

٤) لانها تهدد البلاد العربية من الوجهتين الحربية والاستراتجية».

يخص البند التاسع من التعليمات الرئيس الأميركي. «فالمسألة الأولى التي نراها هي ضرورة تجرد السياسة الأميركية عن التأثر بالعوامل اليهودية المحلية وتحررها من سيطرة الدعاية الصهيونية. والمسألة الثانية نرى ضرورة الفصل بين قضية اللاجئين المضطهدين والصهيونية السياسية، للأسباب الآتية:

١) إن فلسطين لا يمكنها استيعاب جميع اللاجئين من اليهود فهي إذن ليست بحل الموضوع.

٢) لا يجوز إرغام بلاد ما على قبول اللاجئين إليها بدون إرادتها.

٣) ليس من العدل ان ترفض الولايات المتحدة قبول اللاجئين إليها، بينما هي تصر على ضرورة فرضهم على فلسطين.

٤) ان قضية المائة ألف لاجئ ليست في الحقيقة مسألة إنسانية ولكنها ستار لتبرير إيجاد أكثرية يهودية في فلسطين.

٥) ليس من ألحق ولا من العدل أو الإنصاف، أن تسمح الحكومة الأميركية لرعاياها من اليهود بأن تكون لهم سياسة مزدوجة، كأنهم رعايا دولتين منفصلتين. فيجب أن يكون اخلاصهم للولايات المتحدة فقط، لا ان يكونوا مواطنين أميركيين وصهيونيين في نفس الوقت».

وكانت السعودية بحاجة إلى الرساميل الأميركية لأغراض التنمية، فقدم لها قرض قيمته عشرة ملايين دولار، بيد أنها كانت تروم الحصول على ٢٥ـ ٣٠ مليون دولار أخرى لمد خط للسكك الحديد من الخليج إلى الرياض.

إن التعليمات التي نشرها الزركلي[٥٧] وثيقة فريدة لم ينشر ما يماثلها. فقد حددت الحكومة السعودية فيها بوضوح تام ان بريطانيا هي خصمها السياسي الخارجي. وطوال سنوات عديدة تزعم عبد العزيز دولة تقع في دائرة النفوذ البريطاني التام، وسارت العربية السعودية في فلك السياسة الخارجية البريطانية، وعلى الرغم من استقلالها شكليًا. وبظهور منافس قوي لبريطانيا، هو الولايات المتحدة، تمكنت السعودية من اضعاف، ثم قطع أواصر التبعية التي تربطها بلندن. وساد العائلة السعودية الحاكمة رأي مفاده ان الاعتماد على الولايات المتحدة لا يجب أن يؤدي إلى بسط هيمنة استعمارية أميركية.

على الصعيد العربي ظلّت العائلة الهاشمية الحاكمة في شرق الأردن والعراق والتي تقف وراءها بريطانيا الخصم الخطر لآل سعود. وكانت خطتا «سوريا الكبرى» و«الهلال الخصيب» اللتان جرى إعدادهما في العاصمتين الهاشميتين خطرًا يهدد العربية السعودية[٥٨]. وظلّت المحميات البريطانية تطوق المملكة بنصف دائرة في

شبه الجزيرة العربية التي تعتبرها الرياض مجالًا لنفوذها. وكان عبد العزيز يتسم بقدر كاف من الحذر منعه من تحدي بريطانيا مباشرة، ولكنه حاول الارتكاز على الولايات المتحدة للوقوف ضدها.

ان النزعة المناوئة لبريطانيا في السياسة الخارجية للعربية السعودية في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات قد أدّت بها إلى عقد تحالفات ومناورات سياسية غير متوقعة. ويجب ألّا يغرب عن البال ان حركة التحرر الوطني في البلدان العربية ذات الصبغة القومية آنذاك، كانت مناوئة لبريطانيا بالدرجة الأولى. وفي البداية لم يكن زعماء الحركة يعتبرون الولايات المتحدة عدوهم الرئيسي. (كان ذلك قبل سنوات من أزمة السويس وانهيار العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ والذي كان يعني أفول الاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط). لذا فإن مصالح الصفوة الحاكمة في الدولة السعودية تطابقت وقتيًا مع أهداف النضال التحرري الوطني لبلدان عربية أخرى رغم كونه ذا طابع اجتماعي مختلف.

وكانت معاداة الشيوعية متماشية مع فكر الفئة السعودية الحاكمة. ويبدو أن مستشاري ابن سعود هم الذين صاغوا معاداة الشيوعية بالشكل الذي اعتمد في المملكة (الشيوعية المرتبطة بالصهيونية، والتي تستخدم علاوة على ذلك الكنيسة الأرثوذكسية كأداة للتغلغل). ومن المؤكد ان واحدًا من أولئك المستشارين كان فؤاد حمزة، ذلك الشخص الذي كان هتلر قد عرض من خلاله على ابن سعود«عرش حاكم العرب» مقابل التعاون مع ألمانيا النازية ومحاربة بريطانيا. وظلت المسحة النازية لهذه المنطلقات الايديولوجية طاغية على السياسة الخارجية للعربية السعودية سنوات طويلة. وعلى الرغم من أن مصلحة الدولة لكل من الاتحاد السوفييتي والعربية السعودية لم تكن متضاربة في قضايا كبيرة، بل غالبًا ما كانت تتطابق، فإن الارتياب البالغ بموسكو حال دون الزعماء السعوديين، ودون البدء حتى بحوار شكلي لإقامة أبسط الصلات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي، مما أضعف المواقع السعودية في السياسة الخارجية.

اتخذت العربية السعودية موقفًا ثابتًا، قولًا وتصريحًا، إزاء القضية الفلسطينية.

فقد كان ابن سعود قد أشار منذ عام ١٩٣٧ في حديثه مع ديكسون إلى اعتقاده بأن الهدف النهائي للصهاينة هو الاستيلاء ليس على فلسطين فقط، بل على أرض تمتد حتى المدينة المنورة، وفي الشرق يأملون بسط هيمنتهم على أراض تمتد إلى الخليج العربي[٥٩]. وحاول الصهاينة مرارًا التوصل إلى اتفاق مع الملك. ومن هذه المحاولات العرض الذي نقله فيلبي من وايزمان (رئيس إسرائيل فيما بعد) إلى ابن سعود عام ١٩٤٠. إذ ان الصهاينة استغلوا مصاعب ابن سعود المالية فعرضوا عليه عشرين مليون جنيه استرليني مقابل تخليه عن موقفه إزاء القضية الفلسطينية والقبول باسكان كل عرب فلسطين في الجزيرة العربية. وقد رفض ابن سعود هذا المشروع[٦٠].

ان ما ورد في التعليمات الموجهة إلى سعود من تقييمات للنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة والسياسة الصهيونية في فلسطين هي واقعية في بعضها ومبالغ في بعضها الآخر. وبعد أن أخل ترومان بالوعد الذي قطعه روزفلت بعدم انتهاج سياسة معادية للعرب حيال القضية الفلسطينية، نشأت تعقيدات بين واشنطن والرياض إزاء هذه القضية. بيد أن عبد العزيز ومن تلاه من ملوك كانوا يتعاملون مع القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني بشكل براغماتي بحت، واضعين في المقام الأول المصالح الملموسة للعائلة السعودية الحاكمة التي ازدادت روابطها بالولايات المتحدة متانة.

منذ السنوات الأولى التي أعقبت الحرب تعقّدت علاقات الولايات المتحدة مع العربية السعودية بسبب الدعم الأميركي للمطامع الصهيونية في فلسطين، ولسياسة إسرائيل الخارجية فيما بعد. ففي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٥ قال الرئيس ترومان في حديثه مع رؤساء البعثات الدبلوماسية الأميركية في البلدان العربية الذين أبدوا تخوفهم من ميل واشنطن الواضح إلى جانب الصهاينة، قال «انا آسف جدًا، ولكن ينبغي علي ان احسب حساب مئات الآلاف من المقيمين في بلدي الذين لهم مصلحة في انتصار الصهيونية. وليس بين ناخبيّ مئات الآلاف من العرب»[٦١]. ان هذه الكلمات الصلفة يمكن أن تكون ديباجة لأي تصريح صادر عن أي رئيس أميركي بخصوص النزاع في الشرق الأوسط.

واصلت العربية السعودية في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب السعي للحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية أميركية وحصلت عليها بالفعل. وقدم أول قرض للمملكة، خارج إطار برنامج الإعارة والتأجير، وفي نيسان (أبريل) ١٩٤٥، وكان قدره خمسة ملايين دولار خصصت لتمويل شراء سلع من الولايات المتحدة. وقدم القرض الثاني في آب (أغسطس) ١٩٤٦ وكان عبارة عن عشرة ملايين دولار لمدة عشر سنوات (بفائدة سنوية قدرها ٣٪) لشراء مواد غذائية ومعدات زراعية من الولايات المتحدة. وفي السنة نفسها قدم القرض الثالث وقدره ٢٥ مليون دولار لشراء منتجات زراعية. وحصلت السعودية على عشرة ملايين دولار نقدًا لإعادة تجهيز ميناء جدة وكهربة مدينة جدة. وقدمت كل هذه القروض من قبل بنك التصدير والاستيراد الأميركي[٦٢].

وعلاوة على ذلك حصلت السعودية في أيار (مايو) ١٩٤٦ على قرض من الوكالة الأميركية لتصفية فائض المعدات العسكرية الأميركية في الخارج قدره مليوني دولار كسلفة تجارية لشراء معدات عسكرية[٦٣].

عند حلول عام ١٩٥١، كان قد أنجز مد خط للسكك الحديد بين الدمام والرياض بمساعدة أميركية. وطبقًا للنقطة الرابعة من «برنامج ترومان» التزمت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٢ بمساعدة العربية السعودية في تطوير الزراعة والمواصلات والثروات الطبيعية. واقتصرت هذه «المساعدة» عمليًا على الدراسات وكانت مخصصاتها ضئيلة (١,٧ مليون دولار وفق مصادر سعودية). أضف إلى ذلك ان جزءًا كبيرًا من الأموال كان مخصصًا للإنفاق على البعثة الأميركية نفسها. ونظرًا لذلك قررت العربية السعودية عام ١٩٥٤ الكف عن التعاون مع الولايات المتحدة وفق النقطة الرابعة، وتذرعت شكليًا بأن إسرائيل تحصل على مبالغ أكبر بكثير وفق البرنامج نفسه[٦٤].

كانت القاعدة الجوية في الظهران، التي أنجز بناؤها عام ١٩٤٦ الركيزة العسكرية الأساسية للولايات المتحدة في السعودية. وقد مدد عقد إيجار القاعدة لمدة خمس سنوات حسب اتفاقية وقعت في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٥١، وتعهدت الولايات

المتحدة مقابل ذلك بتجهيز الجيش السعودي بطائرات ودبابات حديثة. ونص ملحق خاص بالاتفاقية على أن يتولى خبراء أميركيون تدريب الطيارين السعوديين.

أصبحت الظهران مقرًا للمستشارين الأميركيين الذين وصلوا إلى السعودية عام ١٩٥٢، وتولوا إعداد القوات الجوية السعودية في جدة والطائف. وكان اتساع نشاط الخبراء العسكريين الأميركيين يعني إزاحة البريطانيين الذين تولوا تدريب الجنود السعوديين منذ عام ١٩٤٧ [٦٥].

العلاقات مع بريطانيا وأزمة البريمي

لم ترسم الحدود بين العربية السعودية والمحميات البريطانية ـ قطر وإمارات ساحل الصلح البحري وعمان ومحميات عدن (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فيما بعد) ـ ومع اليمن في منطقة الربع الخالي، وكانت الحدود موضع الخلافات، واكتسبت المسألة حدة في أواخر الثلاثينيات، وخصوصًا في الأربعينيات عندما بدأ البحث عن النفط في مناطق شاسعة من شبه الجزيرة العربية. وأصبحت عائدية هذه الأراضي الصحراوية أو تلك، والتي لم تكن لها من قبل قيمة اقتصادية، مثار النزاعات بسبب احتمال وجود النفط فيها

وفي أواخر الأربعينيات جرى بين السعودية وبريطانيا صراع ضار على واحات البريمي. وادعت ملكية الواحات كل من إمارة أبو ظبي وسلطنة مسقط اللتين كانتا تحت الحماية البريطانية، والمملكة العربية السعودية.

بلغت مساحة البريمي، حيث توجد تسعة مراكز مأهولة، زهاء ألف كيلو متر مربع. وكانت المنطقة تعتبر تقليديًا مركز تقاطع طرق القوافل المتجهة إلى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وألحقت بالدولة السعودية الأولى عام ١٧٩٥. واعتبر السعوديون البريمي جزءًا من المنطقة الشرقية وقالوا ان هيمنتهم على الواحات استمرت ١٥٥ سنة. وطعنت بريطانيا بهذه الادعاءات معلنة ان فترة السيطرة السعودية لم تكن إلا لمحة عابرة في تاريخ البريمي، وان المنطقة تعود لابوظبي وسلطان مسقط.

يقول الزركلي «امتدت أنوف المنقبين عن النفط، تشم رائحته في بعض أراضي البريمي. ولم ير الملك عبد العزيز بأسًا في أن يقوم بعض مهندسي شركة الزيت العربية الأميركية بالتنقيب». وكان ذلك عام ١٩٤٩[٦٦].

طالبت الحكومة البريطانية، نيابة عن أبوظبي ومسقط، بوقف التنقيب في «أراض لم يتفق على عائديتها». فقرر عبد العزيز ألا يصعد الأزمة وأمر باستدعاء الباحثين عن النفط من هذه الأراضي وتأجيل الأعمال لحين الاتفاق على تدقيق الحدود. غادر جيولوجيو أرامكو وبدأ تبادل سيل من المذكرات بين الحكومتين البريطانية والسعودية.

غير أن جيولوجيي B. I. P. C. («بريتيش بتروليوم» فيما بعد) بدأوا عام ١٩٥٠ التنقيب في بعض الجزر التي تعتبرها السعودية ملكا لها. ومن ثم بدأوا البحث عن النفط في أراض «لم يتفق» على عائديتها حسب قول البريطانيين.

في ٢١ أيار (مايو) ١٩٥١، احتجت الحكومة السعودية، وفي الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٠ رد السفير البريطاني في جدة بأن حكومته ترى ان ادعاء الحكومة السعودية بهذه الأراضي ليس له أساس[٦٧].

عقد في آب (أغسطس) ١٩٥١ لقاء في لندن بين وفد سعودي برئاسة وزير الخارجية فيصل ووفد بريطاني برئاسة وزير الخاجية موريسون. وتقرر عقد مؤتمر خاص يشارك فيه ممثلون عن الإمارات المعنية ويترأسه مندوب بريطاني وممثل عن الملك عبد العزيز للاتفاق على الحدود. واتفق الطرفان على وقف أعمال التنقيب الجيولوجي وتحركات القوات المسلحة في المنطقة المتنازع عليها لحين إنجاز المؤتمر[٦٨].

في أواخر كانون الثاني (يناير) وفي شباط (فبراير) ١٩٥٢ عقد المؤتمر في الدمام ولكنه لم يتمخض عن نتائج[٦٩].

بدأ تدهور العلاقات السعودية ـ البريطانية يشمل مجالات لاعلاقة لها بالخلاف على الأراضي. ففي سنة ١٩٥١، توقف عمل البعثة العسكرية البريطانية في السعودية. وكانت مجموعة صغيرة من المستشارين العسكريين البريطانيين قد أرسلت إلى

السعودية أثناء الحرب العالمية الثانية ولكن عملها لم يؤد إلى نتائج تذكر فاستدعيت قبل انتهاء الحرب. وفي سنة ١٩٤٧، استأنفت البعثة العسكرية البريطانية عملها لتتولى تدريب عشرة الآف بدوي للعمل في وحدات شكلت على غرار الفيلق العربي بشرق الأردن. وأرسل للدراسة في الكليات العسكرية البريطانية نفر قليل من الضباط السعوديين غالبيتهم من أبناء الملك وأقربائه. وتوقف هذا التعاون بسبب النزاع على البريمي. وابتداء من سنة ١٩٥٢ أخذ الأميركيين على عاتقهم إعداد الكوادر العسكرية السعودية، بعد أن توطدت مواقعهم الاقتصادية في البلد[٧٠].

بعيد إخفاق مؤتمر الدمام وصل إلى البريمي وكيل سياسي بريطاني «لأداء وظائفه الإدارية».

وتلقى حاكم الأحساء إيعازًا من عبد العزيز بتشكيل بعثة مدنية وإرسالها إلى البريمي. وترأس البعثة تركي بن عطيشان الذي عين رئيسًا إداريًا لها، وانتقل في مطلع أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ إلى البريمي ونزل في حماسا.

وللتو توجه الوكيل السياسي البريطاني من الشارجة إلى البريمي على رأس وحدة عسكرية، وتوقف على بعد أربعة كيلو مترات من السعوديين وبدأت الطائرات البريطانية تحوم فوق حماسا على ارتفاع منخفض، وطالب البريطانيون ابن سعود باستدعاء بعثة ابن عطيشان[٧١].

في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٢، عرض السفير الأميركي في جدة التوسط بين الطرفين واقترح ان يحجما عن الأعمال الاستفزازية ويلازما مواقعهما في البريمي ويستأنفا المفاوضات. وكان هذا الاقتراح في صالح أرامكو لانه يبقى للسعوديين نصف الحقوق في البريمي على أقل تقدير. واقترح عبد العزيز إجراء استفتاء بين سكان الواحات ولكن البريطانيين رفضوا الاقتراح[٧٢].

عاد الجيولوجيون البريطانيون إلى منطقة البريمي عام ١٩٥٣، ولكن عبد العزيز تهيب من إعطاء إذن للأميركيين بالبحث عن النفط لعدم رغبته في تعميق النزاع مع بريطانيا. وحينما توفى الملك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣ كان تركي بن

عطيشان ما زال في موقعه محاصرًا، بينما واصل البريطانيون البحث عن النفط بوتائر حثيثة[٧٣].

في تموز (يوليو) ١٩٥٤، وقع مندوبون عن السعودية وبريطانيا اتفاقية في نيس حول رفع الخلاف إلى هيئة تحكيم بدأت أعمالها في جنيف في مطلع عام ١٩٥٥. وفي شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥، استقال ممثل بريطانيا في المحكمة لادراكه ان قرارها لن يكون في صالح بلاده[٧٤].

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥ دخلت إلى البريمي وحدات من أبوظبي ومسقط بقيادة ضباط بريطانيين. وبعد مقاومة رمزية استسلم رجال الشرطة السعوديون، فاعيدوا إلى وطنهم عبر أبوظبي والبحرين. وزعم البريطانيون انه ليس لهم دخل في احتلال الواحة، بل ان القوات المسلحة لابوظبي ومسقط هي التي احتلتها. وأكدت الحكومة السعودية انه لا توجد خلافات بينها وبين أبوظبي أو مسقط، بل ثمة خلافات بينها وبين الحكومة البريطانية، واحتجت وطالبت بسحب القوات البريطانية، ثم رفعت شكوى ضد بريطانيا إلى مجلس الأمن للأمم المتحدة[٧٥].

التزمت الولايات المتحدة في هذه المسألة الجانب السعودي ولكنها عملت كوسيط خوفًا من تفاقم النزاع واقنعت الحكومة السعودية بسحب احتجاجها المرفوع إلى هيئة الأمم المتحدة واستئناف المفاوضات مع بريطانيا. وفي أيار (مايو) ١٩٥٦، وصل إلى جدة وكيل وزارة الخارجية البريطانية وعقد سلسلة من الاجتماعات مع فيصل، ثم واصل السفير البريطاني في جدة التفاوض من بعده. ولكن السعودية قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦، وحظرت تصدير النفط إليها بسبب اشتراكها في العدوان الثلاثي على مصر[٧٦].

بعد إعلان استقلال الكويت في حزيران (يونيو) ١٩٦١، واجهت هذه الإمارة خطر غزوها من قبل العراق. وقد ساندت السعودية الكويت والفت نفسها في جانب واحد من المتاريس مع بريطانيا. وأرسلت إلى الكويت قوات سعودية وبريطانية ظلّت هناك حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣. وفي عام ١٩٦٤ اقتسمت السعودية

والكويت إدارة المنطقة المحايدة، ولكنهما حافظتا على الاتفاقية السابقة القاضية بتقاسم الموارد النفطية مناصفة[٧٧].

أخذت التناقضات السعودية البريطانية تنحسر تدريجيًا تحت ضغط مصالح الطرفين المشتركة في محاربة الحركة في الشرق الأوسط عامة والجزيرة العربية خاصة. وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢ ، التقى الأمير فيصل في دورة هيئة الأمم المتحدة بنيويورك مع وزير الخارجية البريطاني واتفقا على استئناف العلاقات الدبلوماسية وإجراء مفاوضات جديدة حول البريمي. وفي تموز (يوليو) ١٩٦٣، عاد السفير السعودي إلى لندن.

في الخمسينيات كانت أحداث عمان قد زادت من تعقيد العلاقات السعودية البريطانية. فقد أخذت الرياض تساند أعداءها السابقين من الأباضيين الذين حاولوا تأسيس دولة مستقلة في عمان وخاضوا من عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٥٩ كفاحا مسلحًا ضد البريطانيين وقوات سلطان مسقط. وبعد هزيمة إمامة عمان عام ١٩٥٩ التجأ قادتها إلى العربية السعودية[٧٨].

سياسة المملكة في الشرق الأوسط

شارك مندوب عن السعودية في المفاوضات التي جرت بمصر عام ١٩٤٣ حول تأسيس منظمة إقليمية للبلدان العربية. ووقع ولي العهد سعود وثائق تأسيس جامعة الدول العربية في القاهرةعام ١٩٤٥ .

لقد أيدّت بريطانيا تأسيس هذه المنظمة الإقليمية آملة استخدامها كأداة للأبقاء على نفوذها في الشرق الأوسط، ولكنها عجزت فيما بعد عن وقف العمليات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع المناوىء لبريطانيا، كما عجزت عن شل حركة التحرر الوطني في البلدان العربية.

لم تسنح لابن سعود الفرصة للعب دور قيادي في الجامعة العربية، لذا كان موقفه إزاءها متحفظًا في المرحلة الأولى. وقد اخافه تأثير الأسرة الهاشمية المعادية له على

المنظمة، كما إنه لم يكن مرتاحًا لمطامع مصر في الزعامة. لذا اشترطت الرياض لانضمامها إلى الجامعة الحفاظ على وحدة أراضي واستقلال سوريا ولبنان معتبرة إياهما المعادل للأسرة الهاشمية، كما اشترطت ضمان الحدود القائمة بين البلدان العربية.

في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب اعتبر سعود الأسرة الهاشمية الد خصم له. ومن الطبيعي ان يقف ابن سعود ضد مشاريع إقامة أمبراطورية هاشمية تضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن باسم «الهلال الخصيب» أو أمبراطورية أصغر باسم «سوريا الكبرى». كما كانت القاهرة تنظر بعين الريبة إلى مثل هذه المشاريع.

ظل عبد الله، أمير شرق الأردن، يأمل في استعادة سلطة عائلة الشريف في الحجاز. وفي عام ١٩٤٧، رتب ما يدعى بمؤتمر الحجاز الذي أيد الكتل المناوئة للسعوديين في الحجاز. وردًا على ذلك هددت الحكومة السعودية بأن تثير مجددًا مسألة منطقتي العقبة ومعان المتنازع عليهما واللتين كانتا تعتبرهما جزءًا من الحجاز. وتخلى عبد الله مؤقتًا عن مشاريع إقامة «سوريا الكبرى» بحجة ضرورة اتخاذ موقف عربي موحد حيال القضية الفلسطينية وأوقف الدعاية المناوئة للسعوديين في الحجاز[٧٩].

خلال فترة الانتداب في فلسطين قامت الحكومة البريطانية بإنشاء «وطن قومي لليهود» هناك.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦، دعا الرئيس ترومان إلى تأييد الصهاينة في فلسطين والسماح بدخول مائة ألف يهودي إلى البلد دون مشاورات مع الدول العربية. وردًا على ذلك بعث ابن سعود رسالة إلى ترومان جاء فيها: «لقد دهشت للإذاعات الأخيرة التي نسبت تصريحًا لفخامتكم بدعوى تأييد اليهود في فلسطين وتأييد هجرتهم إليها بما يؤثر على الوضعية الحاضرة فيها خلافًا للتعهدات السابقة»[٨٠].

وعندما أُحيلت المسألة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة (١٩٤٧) كانت

العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين قد تأزمت إلى أقصى حد، ولكن الدول العربية نفسها لم تجتمع على رأي حيال فلسطين. فقد كانت شرق الأردن تريد ضم فلسطين، بينما عارضت هذه المطامع السعودية ومصر وغيرهما من أعضاء الجامعة العربية. كما جوبهت مشاريع الأمير عبد الله بمقاومة فعالة من الولايات المتحدة الأميركية.

في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٧، اتخذت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قرارًا بإلغاء الانتداب البريطاني في فلسطين وتقسيمها إلى دولتين مستقلتين. وأدّى قيام دولة إسرائيل في جزء من الأراضي الفلسطينية والحروب الإسرائيلية العربية الأولى إلى خلق وضع جديد من حيث المبدأ في المنطقة.

لم تشارك السعودية عمليًا في حرب فلسطين. فقد اقتصر ابن سعود على إرسال كتيبة عملت ضمن قوام الجيش المصري.

وفي حزيران (يونيو) ١٩٤٨، قام عبد الله بزيارة للرياض تكللت بصلح شكلي مع ابن سعود، غير أن الخلافات بينهما كانت بعيدة عن التسوية[٨١].

أدّت هزيمة الدول العربية في حرب فلسطين إلى تفاقم التناقضات بين أعضاء الجامعة العربية. واقترحت الحكومتان السعودية والمصرية طرد شرق الأردن من الجامعة بسبب مشاريعها الرامية إلى إلحاق شرق فلسطين، والتي اعتبرتها الحكومتان الخطوة الأولى في طريق إنشاء «سوريا الكبرى». غير أن الجامعة لم تتصرف بشكل حازم، فتجرأ عبد الله والحق رسميًا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ الجزء العربي من فلسطين بشرق الأردن[٨٢]. وفي ٢٠ تموز (يوليو) عام ١٩٥٠، قتل الملك عبد الله فخلفه ابنه طلال الذي سرعان ما أُصيب بلوثة عقلية فتبوأ العرش حسين بن طلال[٨٣].

تراوحت العلاقات بين السعودية ومصر من التحالف الوثيق إلى القطيعة التامة والمواجهة العسكرية. فبعد الاشتباكات الخطيرة التي جرت بين الحجاج المصريين والإخوان عام ١٩٢٦، رفضت الحكومة المصرية الاعتراف بسلطة ابن سعود على

الحجاز.وقد استثار الملك فؤاد نقمة عبد العزيز حينما حاول ان يصبح خليفة. ولم تستأنف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلا بعد وفاة فؤاد عام ١٩٣٦.

بعد الحرب العالمية الثانية تحسنت العلاقات المصرية السعودية بشكل ملموس. وبعد زيارته الرسمية إلى مصر عام ١٩٤٦، منح ابن سعود الملك فاروق عونًا سنويًا قدره زهاء مليون جنيه استرليني. ووصل إلى السعودية معلمون وفنيون ومستشارون مصريون وأرسلت بعثة عسكرية مصرية لتدريب الجيش السعودي[٨٤].

أكد الملك سعود في خطاب العرش، الذي ألقاه في آذار (مارس) ١٩٥٤، على ضرورة التعاون مع البلدان العربية في إطار الجامعة العربية وطبقًا لميثاقها ومعاهدة الدفاع المشترك. ودعا الملك إلى تعزيز العلاقات مع البلدان الإسلامية ووعد بمواصلة أتباع سياسة مناوئة لإسرائيل وأعلن عن الرغبة في تحسين العلاقات مع الدول كافة. غير أنه أشار إلى وجود قضايا معلقة بين العربية السعودية «والحكومة البريطانية الصديقة»[٨٥].

ان الدعوة إلى تعاون البلدان العربية والوعيد التقليدي الموجه لإسرائيل والمسحة المناوئة لبريطانيا في السياسة السعودية، قد هيأت جميعًا التربة للتقارب مع مصر. واتخذ الملك سعود موقفًا واقعيًا من التغيرات الثورية في مصر واعترف بالنظام الجديد. وكان أول رئيس دولة عربية يزور القاهرة بعد ثورة ٢٣ يوليو، والتقى أثناء زيارته الرسمية إلى مصر في آذار (مارس) ١٩٥٤، برئيس الدولة محمد نجيب وبجمال عبد الناصر[٨٦].

في مطلع آب (أغسطس) ١٩٥٤، انتهز عبد الناصر وجوده في السعودية لايداء فريضة الحج وعقد مفاوضات مع الملك سعود الذي أيد جهود مصر الموجهة ضد حلف بغداد الذي جرى تشكيله آنذاك.

أثار انضمام العراق وإيران إلى حلف بغداد ارتياب العربية السعودية بهذا الحلف، لذا تقاربت وقتيًا مع مصر وسوريا واليمن. وزعم ان السعودية، شأن مصر، كان لها

ضلع في الاضطرابات التي هزت الأردن شتاء ١٩٥٦/١٩٥٥، وأدّت إلى طرد الفيلق العربي غلوب باشا ورفض الأردن الانضمام إلى حلف بغداد[٨٧].

لقد سعى الرئيس عبد الناصر إلى عقد اتفاقيات عسكرية ثنائية مع سائر البلدان العربية لتكون نقيضًا ومعادلًا لحلف بغداد. ووقع ميثاق الدفاع المشترك مع سوريا في آذار (مارس) ١٩٥٥، وأعلنت السعودية عن تأييدها للميثاق المصري السوري بعد زيارة وفد سوري إلى الرياض. وفي تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه، عقدت السعودية معاهدة عسكرية ثنائية مع مصر. وشكل مجلس أعلى يضم وزراء الخارجية والدفاع في البلدين، إلى جانب مجلس عسكري وقيادة عسكرية مشتركة. وعقدت المعاهدة لمدة خمس سنوات على أن تمدد تلقائيًا إذا لم يعلن أي من الطرفين عن إبطال مفعولها.

في مطلع عام ١٩٥٦، رفضت الحكومات العربية الانضمام إلى ميثاق الدفاع المشترك للشرق الأوسط الذي دعت إليه لندن وواشنطن[٨٨].

وفي آذار (مارس) ١٩٥٦، وصل الملك سعود إلى القاهرة لمقابلة الرئيس عبد الناصر، كما وصل إلى هناك الرئيس السوري شكري القوتلي، وتقرر عقد ميثاق للتعاون والاخوة. ونسقت الدول الثلاث ذات الأنظمة المختلفة والمصالح المتناقضة سياساتها على أساس معاد للامبريالية. ففي أواسط الخمسينيات اجتاحت المنطقة موجة الحركة القومية والنزعات المعادية للغرب ولبريطانيا بالدرجة الأولى في العالم العربي. وفي ٢٠ نيسان (أبريل) ١٩٥٦، وصل إمام اليمن أحمد إلى جدة حيث التقى بسعود وعبد الناصر. وفي اليوم التالي، وقعوا اتفاقية الدفاع المشترك[٨٩].

يعزى تحالف سعود مع عبد الناصر إلى أن الحكومة المصرية أحجمت لحين تأميم قناة السويس عن معاداة الولايات المتحدة بشكل فعال. وكانت السياسة المصرية موجهة ضد البريطانيين وأنصارهم الهاشميين في العالم العربي. وكان ذلك متفقًا مع النهج السياسي للرياض والنزعات التقليدية المناوئة لبريطانيا في صنعاء[٩٠].

وإبّان حرب السويس عام ١٩٥٦، أيدّت الرياض القاهرة وأعلنت عن استعدادها لمساعدة مصر عسكريًا وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا. واوقفت عمليًا ضخ النفط إلى هذين البلدين وأعانت مصر بمبالغ كبيرة من المال[٩١].

ولكن مع توثق التعاون بين السعودية ومصر تزايد القلق الذي يثيره هذا التعاون في الأسرة الحاكمة وفي أوساط العلماء المتنفّذين. وأخذت الدعاية الإذاعية المصرية تؤثر في بعض فئات السكان في السعودية، والتي كانت ميولها المعادية للغرب وللامبريالية تقترن بالميول المناوئة للملكية. وأثار تعاظم شعبية الرئيس عبد الناصر في السعودية قلق الملك وحاشيته. ويذكر بعض المؤلفين انه كانت قد اكتشفت في أيار (مايو) ١٩٥٥ مؤامرة لإسقاط نظام الحكم في السعودية أعد لها ضباط سبق لهم ان دربوا في مصر. وزعم ان لعدد من المستشارين العسكريين المصريين ضلعًا في المؤامرة[٩٢]. وكانت الاضطرابات والإضرابات العمالية في الظهران ما زالت ماثلة في ذاكرة الملك والأمراء. ولوحظت أيضًا دلائل الغليان الثوري في الأردن والعراق. وإضافة إلى ذلك، كان إيقاف ضخ النفط إلى بريطانيا وفرنسا ضربة لخزانة الدولة، وبالتالي لخزانات الأمراء الخاصة، مما جعلهم يفكرون فيما إذا كان هناك ما يستحق تقديم هذه «التضحيات» بسبب مصر. وأخيرًا فإن واشنطن التي اعتبرت القاهرة خصمها العربي الأول في الشرق الأوسط، عملت على تأليب الرياض ضدها.

بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر أخذت واشنطن تبحث عن طرق وأساليب جديدة لإخماد موجة حركة التحرر الوطني والحيلولة دون توطد التعاون بين عدد من البلدان العربية والاتحاد السوفييتي. ونتيجة لذلك البحث ظهر «مبدأ أيزنهاور» في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧، الذي زعم بأن هزيمة بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي أدّت إلى ظهور «فراغ» مزعوم في الشرق الأوسط. وجاء في «مبدأ أيزنهاور» ان«القوات المسلحة الأميركية سوف تستخدم للدفاع عن وحدة أراضي واستقلال البلدان التي تحتاج إلى مساعدة لمواجهة العدوان من قبل أي بلد تسيطر عليه الشيوعية الدولية». وطالب الرئيس الأميركي أيزنهاور إبّان ذلك بتخويله صلاحية استخدام القوات المسلحة الأميركية في الخارج دون إجراء مشاورات تمهيدية

مع الكونغرس. وفي الواقع كان المقصود من ذلك اعتزام الولايات المتحدة بسط هيمنتها على الشرق الأوسط بقوة السلاح ان اقتضى الأمر، ولكن مع الاعتماد على الأنظمة الصديقة لواشنطن. وفي ٩ آذار (مارس) ١٩٥٧، وقع الرئيس الأميركي برنامج السياسة الأميركية في الشرق الأوسط الذي حظي بتأييد الكونغرس. وطبق «مبدأ أيزنهاور» عمليًا بعد سنة، إذ أنزل مشاة البحرية الأميركية في لبنان[٩٣].

أملت واشنطن في تأييد العربية السعودية لتنفيذ سياستها في الشرق الأوسط، نظرًا لارتباط المملكة اقتصاديًا بالولايات المتحدة، ولما تتمتع به من نفوذ في العالم الإسلامي. ودعا أيزنهاور الملك سعود لزيارة الولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.

في هذه الأثناء عمت عددًا من البلدان العربية نشاطات مناوئة «لمبدأ ايزنهاور». وعرج الملك سعود وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة على القاهرة حيث التقى بالرئيسين المصري والسوري وملك الأردن. وصدر بيان مشترك يعتبر مبدأ أيزنهاور برنامجًا لاستعباد الشعوب التي انخرطت مؤخرًا في طريق التطور المستقل. ورفض المجتمعون نظرية «ملء الفراغ» الأميركية وأعلنوا ان بلدانهم لن تتحول أبدًا إلى ميدان لنفوذ أي دولة أجنبية. وكلف الملك سعود بنقل هذه الأفكار إلى الرئيس أيزنهاور[٩٤].

ولكن الملك سعود تصرف على نحو آخر في الولايات المتحدة. فقد تم خلال المفاوضات الرسمية الاتفاق على تزويد السعودية بمعدات للقوات الجوية والبرية والبحرية، وتدريب طياريها وتوفير الفنيين لقواتها المسلحة ومنحها قرضًا قدره ٢٥ مليون دولار. ووعدت الولايات المتحدة بتقديم قرض للسعودية لتعمير ميناء الدمام. كما تقرر مضاعفة تعداد الجيش النظامي السعودي الذي بلغ عدد منتسبيه آنذاك ١٥ ألفًا. ووعد سعود بتمديد فترة تأجير قاعدة الظهران الجوية لمدة خمس سنوات، والسعي لإقناع البلدان العربية الأخرى بالقبول بـ «مبدأ أيزنهاور»[٩٥].

ولكن الملك سعود اكتشف بعد عودته إلى الشرق الأوسط اشتداد المعارضة

لـ«مبدأ أيزنهاور» في المنطقة، بما في ذلك داخل المملكة نفسها. وكانت سمعة عبد الناصر عالية إلى درجة بحيث لا يمكن تجاهل رأيه[٩٦]. وفي ٢٤ ـ ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٥٧، عقد في القاهرة اجتماع جديد لرؤساء الدول في كل من مصر وسوريا والسعودية والأردن حاول خلاله سعود ان يدافع عن «مبدأ ايزنهاور». ولكن الملك اضطر، إزاء ضغط الرئيسين عبد الناصر والقوتلي والرأي العام السعودي، إلى التخلي عن تأييده للمبدأ المذكور والانضمام إلى الدول التي رفضته مجددًا وأعلنت ان العرب أنفسهم يجب أن يتولوا الدفاع عن أنفسهم خدمة لأمنهم الحقيقي وخارج إطار التحالفات الأجنبية[٩٧].

ولكن موقف السعودية هذا كان بمثابة مناورة تكتيكية لتهدئة الرأي العام في المملكة وسائر بلدان الشرق الأوسط ولتفادي مواجهة مع مصر تهدد النظام السعودي بالخطر. وصار واضحًا لكل من القاهرة والرياض ان التطابق المؤقت في المصالح قد انتهى. وكان سعود قد التقى في الولايات المتحدة، وبوساطة أميركية. مع ولي العهد العراقي عبد الاله[٩٨]، إذ ان العداء العائلي السابق بين آل سعود والاسرة الهاشمية انحسر إلى المقام الثاني إزاء مصلحتهما المشتركة في الاستمرار بالحكم في ظروف الغليان الثوري المتصاعد بالشرق الأوسط.

في نيسان (أبريل) ١٩٥٧، أقال الملك حسين حكومة سليمان النابلسي المتجهة إلى اليسار[٩٩]. وقدم سعود للملك حسين مساعدة عسكرية وسياسية: فقد وضع تحت إمرته لواءي الحرس الوطني السعودي المرابطين في الأردن منذ العدوان الثلاثي على مصر. وحولت الحكومة السعودية للعاهل الأردني قسطها من المعونة السنوية البالغ ٣٠ مليون دولار والذي كان قد تم الاتفاق عليه بين مصر وسوريا والسعودية عام ١٩٥٦ للتعويض عن «المساعدة» البريطانية، هذا في حين ان مصر وسوريا رفضتا دفع قسطيهما[١٠٠]. وشهد الشرق الأوسط استقطابا للقوى وصارت القاهرة والرياض على طرفي نقيض.

بعد مرور فترة قصيرة على إقالة حكومة النابلسي، قام الملك حسين بزيارة

الرياض، الأمر الذي كان يعني استمرار التقارب بين العائلتين المالكتين المتعاديتين سابقًا. وبضغط أميركي أخذ الملك سعود يميل إلى فكرة تأسيس اتحاد بين الملوك الثلاثة في السعودية والأردن والعراق لتعزيز مواقع القوى المحافظة. وفي عام ١٩٥٧، زار سعود العراق ولكن الزيارة لم تسفر عن قيام تحالف رسمي[١٠١]. فإن سعود لم يجرؤ على التنصل جهارًا من مصر وسوريا خشية حدوث عواقب جدية تهدد عرشه. وآثر ان يؤكد في التصريحات الرسمية التزامه بمبدأ الحياد الإيجابي ومقررات مؤتمر القاهرة.

في آذار (مارس) ١٩٥٧، اعتقلت في السعودية مجموعة من الفلسطينيين بحوزتهم متفجرات، وزعم ان الحكومة المصرية أرسلتهم لنسف قصر«الناصرية» في الرياض. ورد المصريون بأن المجموعة أوفدت بالاتفاق مع السعوديين للقيام بعمليات ضد حكم نوري السعيد في العراق. وتدهورت العلاقات السعودية المصرية تدهورًا خطيرًا، ولم يؤد قدوم وفد مصري إلى تخفيف حدة التوتر[١٠٢].

شنت في السعودية حملة دعائية تنسب «للشيوعية الدولية» كل مظهر من مظاهر النضال التحرري الوطني. وأكد بلاغ مشترك صدر ربيع ١٩٥٧ إثر الزيارة التي قام بها إلى السعودية ريتشاردس المساعد الخاص للرئيس لتنفيذ برنامج مساعدة بلدان الشرقين الأوسط والأدنى، أكد على ضرورة مجابهة «النشاط الشيوعي»[١٠٣].

وفي شباط (فبراير) ١٩٥٨، انبثقت الجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا، وشجعت واشنطن ولندن قيام الاتحاد العربي بين العراق والأردن ليكون معادلًا للجمهورية العربية المتحدة، وأخذتا تسعيان لحمل بلدان عربية أخرى على الانضمام إليه. ولكن الحكومة السعودية اعتبرت الاتحاد المذكور أحياء للخطر الهاشمي ورفضت الانتماء إليه، وأعلنت عن حيادها إزاء الاتحاد العربي والجمهورية العربية المتحدة.

دب البرود في العلاقات السعودية الأردنية، وفي ٨ نيسان (أبريل) ١٩٥٨، توقفت الرياض عن دفع المعونات لعمان والمنصوص عليها في اتفاقية ١٩ كانون

الثاني (يناير) ١٩٥٧. وردًا على ذلك، طالب الملك حسين بسحب القوات السعودية من الأراضي الأردنية، فعادت إلى الوطن في أيار (مايو)[١٠٤].

وعلى الرغم من ذلك، فقد اعتبر الملك سعود الجمهورية العربية المتحدة الخطر الأساسي على عرشه، فقد كانت إصلاحات عبد الناصر تمارس تأثيرًا قويًا على الرأي العام في السعودية، حيث تزايدت شعبية الرئيس المصري. وخشية الدخول في مجابهة صريحة مع الجمهورية العربية المتحدة، قرر سعود اللجوء إلى التآمر للإطاحة بعبد الناصر.

الفصل السابع عشر

أزمة السلطة وانحسارها المؤقت (١٩٥٨ ـ ١٩٧٣)
دور السعودية الجديد

الصراع على السلطة بين سعود وفيصل

المرحلة الأولى: فيصل يستولي على السلطة (آذار/مارس ١٩٥٨ ـ كانون الأول /ديسمبر ١٩٦٠)

إثر انبثاق الجمهورية العربية المتحدة اتهم الملك سعود علنًا بالتآمر لاغتيال الرئيس عبد الناصر. فقد ذكر عبد الحميد السراج، المدير السابق للمباحث السورية انه قد عرض عليه مبلغ مليون جنيه استرليني مقابل إرسال طائرة مقاتلة سورية، لإسقاط طائرة كان على متنها عبد الناصر. ونشرت الصحف صورًا لثلاثة صكوك محولة من الرياض إلى بنك في بيروت وقيمتها مليونا جينه استرليني تقريبًا.

في معرض الحديث عن احتمال لجوء الملك إلى مثل هذه الأساليب في السياسة الخارجية ذكر باحثون أميركيون في كتابهم: «العربية السعودية: السكان والمجتمع والثقافة» ان الرشوة والقتل، سلاح يكاد يكون معترفًا به في الشرق الأوسط.[١]

بلغت شعبية الرئيس عبد الناصر مدى كبيرًا بحيث ان نبأ المؤامرة السعودية الهادفة إلى اغتياله أدّى إلى تأزم الوضع داخل العربية السعودية نفسها، مما أثار قلقًا بالغًا لدى آل سعود وكبار علماء الدين[٢]. واتفق انه في هذا الوقت بالذات كان البلد

يعاني من أزمة مالية فادحة بسبب إفراط الملك وحاشيته بتبذير الأموال وانخفاض عوائد النفط. وقبل فترة قصيرة من ذلك جرت اضطرابات عمالية في المنطقة الشرقية كما بدت إمارات التذمر بين أوساط الموظفين والمثقفين وبعض الضباط.

يمكن تكوين انطباع عن ميول ومطالب المستائين من خلال رسالة ناصر السعيد إلى الملك سعود التي نشرت عام ١٩٥٨[٣]. وكان كاتب الرسالة من الزعماء العماليين في المنطقة الشرقية وصار بعدئذ قائدًا لاتحاد شعب الجزيرة. وفي عام ١٩٥٣ اعتقل مع مجموعة من الزعماء العماليين الآخرين، وأطلق سراحه بعد الإضراب ثم نفي إلى الحائل. وعند زيارة سعود إلى جبل شمر عام ١٩٥٣، طالبه السعيد علنًا بسن الدستور وإجراء انتخابات نيابية وإلغاء مجلس الشورى ومنح حرية التنظيم النقابي. ورضوخا لمطالب العمال أعيد السعيد إلى عمله في أرامكو. ولكنه اضطر إلى الهرب من السعودية عام ١٩٥٦ لكيلا يتعرّض للتصفية الجسدية. وعلاوة على المطالب المذكورة آنفًا، اورد السعيد في رسالته عددًا من مطالب العمال الاقتصادية ودعا إلى منح حريات ديمقراطية واسعة، بينها حرية التظاهر والإضراب والصحافة والمعتقد، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وإلغاء العقوبات الهمجية مثل قطع اليد، والاعتراف بحرية الشيعة ومساواتهم مع الآخرين، وإزالة القاعدة الأميركية في الظهران وحظر الرق وتحديد نفوذ آل الشيخ وإلغاء جماعة الأمر بالمعروف ووقف نشاط الهيئات الخاصة الأميركية والمراكز الدعائية لأرامكو.

ودفعًا لما هو أعظم أخذ جزء كبير من آل سعود وكبار العلماء يميلون إلى ضرورة إجراء انقلاب في القصر يتسلم اثره ولي العهد فيصل السلطة الفعلية.

تحصن سعود في قصر «الناصرية» بالرياض محاطًا بالحرس الوطني والحراس الشخصيين، وكان فيصل في البادية يتفاوض مع شيوخ البدو[٤].

طالب فيصل بمنحه السلطة كاملة كرئيس للحكومة وبعدم تدخل الملك في شؤون الحكومة. ولما لم يحصل على رد استقال[٥].

يقول بروشين ان «العائلة المالكة الكثيرة العدد كانت دائمًا غير متجانسة: إذ

يتفاوت أفرادها تفاوتًا كبيرًا من حيث المركز الاجتماعي والأموال التي يحصلون عليها من خزانة الدولة. غير أن الحزازات داخل العائلة لم تتحول إلى عداء سافر إبّان حياة ابن سعود. فقد كان الأمراء يخافون ابن سعود لان بوسعه حرمانهم من المخصصات كما فعل مرارًا مع المتمردين. وبعد وفاة ابن سعود انفرطت العائلة المالكة وصارت كتلًا متباينة.(٦)

جمع ولي العهد فيصل، وهو سياسي محنك وذكي، جمع من حوله أنصاره المستائين من تزايد نفوذ أبناء سعود في البلاط. ودأب على تكوين انطباع بأن الملك غير مؤهل لمهمته. وحاول فيصل الذي تربطه علاقات قديمة ووثيقة بالأميركيين التظاهر بأنه من أنصار الإصلاحات والتقارب مع الرئيس عبد الناصر، وبدأ يعد خفية لانقلاب في القصر.

وفي ٢٤ آذار (مارس) ١٩٥٨، قامت مجموعة من الأمراء على رأسها فهد بن عبد العزيز بتقديم إنذار إلى الملك يطالب فيه بتسليم السلطة إلى فيصل. كما طالب الأمراء بحماية بيت المال من النهب وتنحية مستشاري الملك الضالعين في محاولة اغتيال عبد الناصر، ومنح أشقاء الملك حقوقًا مماثلة لحقوق أبنائه.

حاول سعود الاستنجاد بالأميركيين ولكنه لم يلق منهم العون، كما انه لم يجد ركيزة في الجيش لان غالبية آل سعود كانوا ضد الملك. فاضطر في مثل هذه الظروف إلى قبول إنذار الأمراء(٧).

وصدر في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٥٨، مرسوم ملكي يمنح رئيس الوزراء «المسؤولية التامة للإشراف على تنفيذ جميع السلطات الإدارية فيما يتعلق بالشؤون الداخلية والخارجية والشؤون المالية». كما أصبح فيصل القائد العام للقوات المسلحة السعودية(٨).

ان التنكر السياسي الذي قام به ولي العهد بادعائه انه قومي ومن أنصار الإصلاحات كان متقنا إلى حد بحيث ان رد الفعل الأول لوسائل الإعلام الغربية على أحداث السعودية كان سلبيًا. فقد كتبت «نيويورك هيرلد تربيون» في ٢٥ آذار

(مارس) ١٩٥٨ تقول «إن هذه الخطوة تمثل ضربة موجعة بمواقع الغرب في الشرق الأوسط». ومن المحتمل ان هذا التقييم كان تضليلًا متعمدًا. فبعد بعض الوقت صرح وزير الخارجية الأميركي دالاس بأن تسلم حكومة فيصل مقاليد السلطة يدل «على ان الأحداث تسير في مجرى طبيعي» وانه «لن يحدث تغيرات في العلاقات السعودية الأميركية»[٩].

لقد انطلت نوايا فيصل ليس على وسائل الإعلام الغربية وحدها، إذ ان ممثلي المعارضة علقوا عليه بعض الآمال. فقد أصدرت جبهة الإصلاح الوطني في العربية السعودية نداء في دمشق وجهته إلى فيصل[١٠] وضمنته مقترحات مماثلة لتلك التي وردت في«رسالة» ناصر السعيد إلى الملك سعود. هكذا كانت أوهام ممثلي «الفئات الوسطى» السعودية من المثقفين وصغار الموظفين والضباط .

في نيسان (أبريل) قررت قيادة جبهة الإصلاح الوطني ان تؤسس، اعتمادًا على تنظيمها، منظمة جديدة باسم جبهة التحرير الوطني في السعودية. وسرعان ما رفضت هذه المنظمة المعارضة تأييد فيصل ونددت بأعماله[١١].

وفي ١٨ نيسان (أبريل) ألقى فيصل خطابًا من الإذاعة كرسه للسياسة الخارجية. وأعرب عن الرغبة في إقامة علاقات الصداقة مع كل دولة لا تعادي الحكومة السعودية وتؤمن بالحياد الإيجابي ولا تنتمي لأي كتلة عسكرية (ويبدو أن المقصود هو حلف بغداد).

أدخل المرسوم الملكي الصادر في ١١ أيار (مايو) ١٩٥٨، وفصل بين صلاحيات المجلس وصلاحيات الملك. فقد منح رئيس مجلس الوزراء السلطة الإدارية، ولكن السلطة السياسية ظلّت للملك. وطرح المرسوم مهمة تنظيم المالية ومكافحة الرشوة والفساد. وحظر على أعضاء مجلس الوزراء تولي أي وظيفة جديدة داخل الحكومة أو خارجها دون استحصال موافقة رئيس الوزراء. كما حظر عليهم تملك أموال الدولة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وان يكونوا أعضاء في مجالس إدارة الشركات التجارية[١٢].

انتمت العربية السعودية إلى صندوق النقد الدولي عام ١٩٥٧، وبناء على توصية خبراء الصندوق، أقر فيصل في حزيران (يونيو) ١٩٥٨، برنامجًا للاستقرار المالي. ونص البرنامج على خفض نفقات الدولة إلى مستوى وارداتها وإجراء إصلاح للنظام النقدي وقصر الاستيراد على المواد الغذائية والمنسوجات والأدوية. كما تقرر وقف أعمال البناء في عدد من القصور الملكية ومنع استيراد السيارات لمدة سنة. وقلصت الحكومة إلى حد كبير الإنفاق على التنمية الاقتصادية والتعليم والصحة. وفي عام ١٩٥٩ توقفت الدولة عن تخصيص أموال لتنمية الصناعة والزراعة[١٣].

خفضت قيمة الريال السعودي، فأصبح الدولار الواحد يعادل ٤,٥ ريال مقابل ٣,٧٥ في الماضي. واعتمدت الحكومة النقود الورقية المغطاة بالذهب والعملة الأجنبية القابلة للتحويل، لتعوض بها عن «وصولات الحجاج» والنقود الذهبية التي سحبت تدريجيًا من التداول. وقسم الريال الجديد إلى عشرين فلسًا عوضًا عن ٢٢[١٤].

عند حلول عام ١٩٦٠ كان احتياطي الذهب والعملة الصعبة قد ازداد عدة اضعاف. وبفضل تحسن ميزان المدفوعات تمكنت الحكومة أن تلغي في مطلع عام ١٩٦٠ أهم التقييدات المفروضة على الاستيراد وتحويل العملة وتصدير الرساميل إلى الخارج[١٥]. غير أن سياسة التقشف أدّت إلى فتور النشاط التجاري وتعطيل الأعمال العامة وازدياد حاد في البطالة. وتكبدت البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والمقاولون الخسائر.

لم يلق الملك سعود سلاحه، بتنازله عن السلطة الفعلية لولي العهد. فقد احتفظ الملك بعلاقات طيبة مع الارستقراطية العشائرية وجزء من علماء الدين، وظل يؤكد على وفائه للتقاليد ويوزع العطايا بسخاء. وزار سعود مصر في صيف ١٩٥٩ محاولًا أن يدفع عن نفسه شبهات العداء لعبد الناصر[١٦].

أمضى سعود عام ١٩٦٠ بأكمله متنقلًا في أرجاء البلد، وكان أحيانًا يتغيب عن العاصمة عدة أسابيع، ويقيم الولائم لشيوخ البدو ويجزل لهم العطاء. وطبقًا لعادات

«الحكام الكرماء العادلين» كان سعود يدفع ديون الفقراء فينقذهم من الحبس، ويعطي المرضى مالًا للتداوي. وكان الملك يلتقي علماء الدين باستمرار ويشارك في غسل الكعبة عشية موسم الحج. وقام سعود، بين حين وآخر، بالتبرع بأموال لتعمير وبناء مساجد داخل السعودية وخارجها، ويوزع باسمه أموالًا لإنشاء اسالة المياه في البلدات وشق الطرق وما إلى ذلك[١٧].

وظل الملك وأبناؤه يسيطرون على مبالغ طائلة من المال. فإن ابن الملك أو اخاه، إذا لم يكن يتبوأ منصبًا رسميًا، يحصل من بيت المال على عشرة ملايين ريال سنويًا ان كان متزوجًا، ومليونين ان كان أعزب. أما سائر الأمراء فقد كانت مخصصاتهم تتحدد طبقًا لدرجة قرابتهم من الملك[١٨].

كان الأمر الحاسم في الصراع بين سعود وفيصل، ظهور مجموعة من الأمراء السعوديين الشباب المتأثرين بالأفكار الناصرية والداعين إلى الإصلاحات. وأقام سعود صلات بهم ووعد، بصيغ حذرة، بمؤازرتهم. وتحاشى الملك التعهد بالتزامات محددة، لأنه لم يكن من أنصار الإصلاح ولخشيته من نفور علماء الدين. وقد ألمح الأمير نواف بن عبد العزيز في تصريح له بالقاهرة في أيار (مايو) ١٩٦٠ إلى وجود ميل لإقامة أول جمعية دستورية وإعداد أول دستور للدولة وتأسيس محكمة عليا ولجنة عليا للتخطيط[١٩]. وكان هذا تعبيرًا عن رأي مجموعة الأمراء الشباب الذين كان أبرزهم طلال بن عبد العزيز.

كان طلال واحدًا من الاخوة الصغار لسعود، وثمة ذرية كاملة من الأمراء تبعده عن الأمل في أن يأتي دوره ليكون ملكًا. لذا فقد شرع انطلاقًا من طموحاته الشخصية ـ وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد ـ يبشر بفكرة الحكم الدستوري آملًا في الاقتراب من السلطة عن طريق الإصلاحات. وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٠ اقترح طلال إقامة نظام ملكي دستوري، فرفض فيصل الاقتراح وابعد عنه طلال وجماعته[٢٠].

في آب (أغسطس) ومطلع أيلول (سبتمبر) عرض الأمراء الشباب مشروع الدستور على الملك، فرفضه باعتباره متطرفًا ولكنه حاول الاحتفاظ بصلاته مع المجموعة[٢١].

وفي أيار (مايو) ١٩٦٠، اعتزم فيصل التوجه إلى أوروبا للعلاج وعين الأمير فهد بن عبد العزيز وكيلًا له، ولكن سعود رفض المصادقة على هذا التعيين. وقد أيد عدد من الأمراء فيصل بينما وقف عدد آخر، وبينهم طلال ونواف، إلى جانب الملك. ولم يجرؤ فيصل على مغادرة البلد.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠، أخذ سعود يطالب فيصل باحاطته علمًا بجلسات الحكومة، وعدم تعيين أمراء للمناطق والمدن والبلدات وقضاة إلا بموافقته، وبأن يمتنع عن نشر الميزانية دون مصادقته عليها، كما طالب بزيادة نفقات البلاط وان تدفع لأولاده الصغار مخصصاتهم كاملة.

في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) قدم فيصل للملك مسودة مرسوم ملكي حول الميزانية، فرفض الملك توقيعه بحجة انه لا يحتوي على تفاصيل. وفي مساء اليوم نفسه رفع فيصل رسالة احتجاج إلى الملك اعتبرها سعود طلب استقالة[٢٢].

المرحلة الثانية: سعود يعود إلى السلطة (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٠ ـ آذار/ مارس١٩٦٠)

في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) وافق سعود على «استقالة» فيصل، وبالتالي حكومته، وتولى رئاسة الحكومة وعين وزراء جددًا. وضمت الحكومة الأميرين طلال بن عبد العزيز ومحمد بن سعود اللذين أسندت إليهما على التوالي وزارتا المالية والدفاع. وكان محمد يعتبر واحدًا من أبناء سعود الذين تعقد عليهم آمال كبار ووليًا محتملًا للعهد. وعين أحد أنصار طلال وهو عبد المحسن وزيرًا للداخلية بينما عين بدر وزيرًا للمواصلات. واسندت وزارة النفط والمعادن إلى الوجه القومي المعروف الشيخ عبد الله الطريقي. ولأول مرة في تاريخ البلد استلم أشخاص لا ينتسبون إلى العائلة المالكة غالبية الحقائب ـ وإن لم تكن أساسية ـ في الوزارة (٦من ١١)[٢٣].

إن عودة الملك سعود إلى السلطة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠ كانت تعني الانبعاث المؤقت للميول المناوئة للغرب التي كانت سائدة في فترة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ . وقد اقترنت شكوك سعود إزاء الأميركيين بالنزعة القومية «للأمراء الأحرار». وفي آذار (مارس) ١٩٦١، أعلمت السعودية الولايات المتحدة الأميركية

بأنها لن تجدد اتفاقية القاعدة الجوية في الظهران التي كان سينتهي مفعولها بعد سنة. وأعلن الملك سعود ان السبب الرئيسي لذلك هو مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل. وفي ٢ نيسان (أبريل) ١٩٦٢ سلمت الولايات المتحدة قاعدة الظهران إلى الحكومة السعودية، وبذا صار لدى هذه الحكومة واحد من أكبر المطارات في العالم. هذا علمًا بأن العسكريين الأميركيين عادوا إلى القاعدة بعد ستة أشهر تقريبًا إثر أحداث اليمن[٢٤].

في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠، أعلنت إذاعة مكة ان مجلس الوزراء وافق على تشكيل مجلس وطني منتخب جزئيًا، وقرر وضع مسودة الدستور. ولكن الإذاعة عادت بعد ثلاثة أيام لتنفي الخبر. وكان من الواضح ان الملك سعود لا يعتزم التنازل لحلفائه المؤقتين من الأمراء الشباب. ولكن تلميحات إلى الإصلاحات أخذت تظهر في الصحافة السعودية[٢٥].

نشرت «الجريدة» اللبنانية نص «مسودة الدستور» المؤلفة من مائتي مادة والتي وضعها حقوقيون مصريون بتكليف من طلال وزملائه من مجموعة الأمراء الشباب. ويبدو أن هذه المسودة سربت إلى الخارج عن قصد. ولكن مدير الإذاعة والصحافة السعودي نفى الخبر الزاعم بأن الملك هو الذي عرض مسودة الدستور[٢٦].

تكونت داخل الأسرة السعودية الحاكمة ثلاثة مراكز متصارعة على السلطة. فقد كان الملك سعود يستند إلى مجموعة من الأمراء وبعض شيوخ القبائل، بينما يحظى فيصل بمساندة مجموعة أخرى من الأمراء والكثير من علماء الدين وتجار الحجاز المتنفّذين، أما المركز الثالث فقد تزعمه طلال المتمتع بتأييد فئة المثقفين الناشئة من خريجي الجامعات الأجنبية وعدد من الموظفين[٢٧].

ظل الصراع داخل الأسرة المالكة السمة الرئيسية للحياة السياسية في البلد طيلة عام ١٩٦١. وكان الانتقال من معسكر إلى آخر أمرًا طبيعيًا. فإن عبد الله بن عبد الرحمن وعددًا آخر من اخوان الملك وأعمامه سرعان ما انتقلوا إلى جانب فيصل. ومن مجموعة «الأمراء الأحرار» انضم طلال وبدر وعبد المحسن إلى مجلس الوزراء

وعين فواز حاكمًا للرياض. واستقال نواف من منصب وزير الداخلية وظل محايدًا، وسرعان ما عُيّن رئيسًا للديوان الملكي[٢٨].

أسّس الملك لجنة عليا للتخطيط وأصبح طلال أول رئيس لها. وكان من الواضح ان طلال يرمي إلى تعزيز سلطته مما نفّر منه أبناء سعود وأقرباءه المقربين[٢٩].

تزايدت البطالة في البلد عام ١٩٦١. وحاول طلال تنفيذ أشغال عامة لزيادة العمالة، ولكن الاعتمادات لم تكن كافية، وكانت تنهب الأموال المعتمدة[٣٠].

في الثامن من حزيران (يونيو)، أسّست وزارة العمل والشؤون الاجتماعية وحاولت ان تحظر العمل الإضافي وتحد من تشغيل الوافدين[٣١].

في ٢٥ تموز (يوليو) صدر مرسوم ملكي بتأسيس المجلس الأعلى للدفاع برئاسة الملك ويتألف من وزير الدفاع والطيران (نائبًا للرئيس) والمفتش العام للجيش ورئيس الأركان ووزراء الداخلية، والمالية والاقتصاد، والمواصلات، والخارجية، وحدد المرسوم مهمة المجلس بوضع سياسة دفاعية طويلة الأمد للجيش السعودي[٣٢].

نظرًا لتنامي المعارضة صدر ايعاز خاص لحماية النظام الملكي نص على أن تكون عقوبة الجرائم المرتكبة ضد الأسرة المالكة والدولة الإعدام أو السجن المؤبد. وصارت عقوبة الإعدام تهدد كل من يحاول تغيير النظام الملكي أو يتطاول على أمن الدولة أو يسعى لشق القوات المسلحة[٣٣].

ركزت مجموعة فيصل هجومها على طلال متحاشية المساس بالملك. وأخذ الذين يناصرون فيصل سرًا أو علانية يوحون للملك بأن التجديدات سوف تودي به إلى الهلاك وحذروه من الوزراء الجدد. وفي الوقت نفسه عمل أنصار فيصل على عرقلة إجراءات «الأمراء الأحرار». وكان الأمراء المحافظون من آل سعود وكبار الموظفين يتحالفون في نشاطاتهم مع الأوساط الدينية التي خشيت من أن تؤدي الإصلاحات إلى الانتقاص من دور علماء الدين في البلد.

بدأ الهجوم رجال الدين وعلى رأسهم مفتي الديار السعودية، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ورئيس جماعة الأمر بالمعروف، الشيخ عمر بن حسن. فقد وجه المفتي رسالة إلى الملك يذكر فيها بحقه في الاطلاع على كل قوانين الحكومة وإيعازاتها قبل تطبيقها للبت فيما إذا كانت مطابقة لأحكام الشرع. وقال المفتي انه لا يوافق على قانون العمل لمخالفته روح الإسلام. وذكر مثلًا ان العامل الذي يصاب بعاهة أثناء العمل يجب أن يحصل فقط على تعويض عن اليوم الذي أُصيب أثناءه، لان الإصابة قضاء وقدرًا. وخلافًا لرأي طلال وزير المالية، وافق سعود على رأي المفتي لتهدئة علماء الدين. وسرعان ما طالبت جماعة الأمر بالمعروف بغلق استديوهات التصوير في الرياض، واقترح الملك على الحكومة الخضوع لهذا المطلب. وكان تنفيذ هذا الإيعاز يعني الانهيار التام لهيبة الحكومة، لذا أقدمت على حل وسط بأن أمرت برفع اليافطات عن الاستديوهات وإزالة واجهاتها الزجاجية(٣٤).

جوبهت محالاوت طلال لتنظيم المالية بمقاومة سعود ورجال حاشيته الذين لم يعودوا إلى السلطة لتقييد جشعهم. ويقول طلال في مذكراته ان الملك شارك في المضاربة بالأراضي مما اضر بمالية الدولة، وكانت له حصة من المقاولات الحكومية، وحصل على مبالغ طائلة بايصالات مزيفة مستخدمًا موظفي وزارة المالية. ورفض سعود اقتراح طلال بتأميم شركة الكهرباء الأهلية في الرياض للحصول على واردات إضافية. واستغلت جماعة فيصل هذه المحاولة لتأليب الأوساط التجارية ضد طلال وسائر«الأمراء الأحرار» وبثت شائعات تزعم ان طلال يعتزم تأميم المؤسسات الصناعية والشركات التجارية(٣٥).

حاول الملك التوصل إلى حل وسط مع فيصل والتضحية بطلال. وأصدر في ١١ أيلول (سبتمبر) مرسومًا أقال فيه طلال وبدر وعبد المحسن من الوزارة. وفي ١٦ من الشهر نفسه عين الأمير نواف بن عبد العزيز، الذي كان يعتبر محايدًا، وزيرًا للمالية والاقتصاد الوطني، واسندت المناصب الأخرى إلى أبناء سعود(٣٦).

تدخل عامل آخر في الصراع بين الإخوان، وهو صحة الملك. فقد ساءت إلى

حد بحيث نقل سعود فاقدا الوعي في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى المستشفى الأميركي بقاعدة الظهران، ثم اضطر للسفر إلى الولايات المتحدة للعلاج(٣٧). وقد يكون للأميركان ضلع في ترحيله، لان لهم مصلحة في ابعاد الملك الذي لا يرتضونه عن البلد. وقبيل مغادرة البلد، ونزولًا عند الحاح كبار أفراد العائلة المالكة عين سعود في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) فيصل وصيا. واستغل فيصل غياب سعود للقضاء على خصومه(٣٨).

في آذار (مارس) ١٩٦٢، اضطر الملك بسبب تدهور صحته إلى تعيين فيصل رسميًا رئيسًا للحكومة. وطالب فيصل بإقصاء الطريقي من مجلس الوزراء، فوافق سعود. تهللت أرامكو لهذه الخطوة إذ انها كانت تعتبر وزير النفط، كما يقول طلال،عدوّها الأول. وكانت أرامكو. في التقارير المرفوعة إلى الحكومة السعودية تندد بنشاط الطريقي وتتهمه بـ«الشيوعية»(٣٩). وهكذا عاد فيصل ليستلم السلطة الفعلية بعد خمسة عشر شهرًا من أبعاده عن رئاسة الحكومة. وهكذا احتدم الصراع من جديد.

أمضى سعود بقية السنة في الولايات المتحدة حيث أجريت له سلسلة عمليات جراحية.

واصل طلال الحديث عن الإصلاحات. فقد دعا إلى إجراء تغييرات في نطاق الشرع على أساس الاجتهاد، الأمر الذي كان يعني عمليًا إدخال أحكام قانونية جديدة على الشرع لضبط الظواهر الاجتماعية الجديدة. ولو فتح باب الاجتهاد لتمكنت فئات اجتماعية جديدة من تقديم مطالبها والاستناد إلى القيام وتفسير الشرع بما يتفق ومصالحها.

ولما لم يجد طلال وجماعته دعمًا داخل البلاد هاجروا. وفي ١٥ آب (أغسطس) ١٩٦٢، عقد طلال مؤتمرًا صحفيًا في بيروت. وانتقد في تصريحاته المنشورة بصحيفة «الأنوار» النظام السعودي على الرغم من انه لم يذكر الملك بالاسم. وقال الأمير ان هدف مجموعته يتمثل في إقامة ديمقراطية دستورية في الإطار الملكي. وقد أيده

أربعة أمراء هم عبد المحسن بن عبد العزيز وبدر بن عبد العزيز وفواز بن عبد العزيز وسعد بن فهد.

وخشية من إثارة غضب الرياض حاولت الحكومة اللبنانية التخلص من الأمراء المتمردين فغادروا إلى القاهرة، حيث استقبل طلال من قبل الرئيس عبد الناصر. وأدّت ثورة اليمن إلى زيادة نشاط المجموعة وقتيا[٤٠].

في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات دار الصراع على السلطة بين أفراد العائلة المالكة فقط، ولكنه كان عرضة لتأثير مختلف النزعات السياسية. فقد كان برنامج مجموعة طلال يجسد الأفكار الإصلاحية الليبرالية القومية، ويبين مآله مدى ضآلة ما وجدته هذه الأفكار من تربة خصبة في المجتمع السعودي.

وعلى الرغم من أن الأسرة المالكة كانت تتنازعها التناقضات، إلا أنه لم يكن لديها خصوم اقوياء. فجيل الشبان المتعلمين المتحدرين من «الفئات الوسطى» كان يمثل مجموعة ضئيلة جدًا في الأحساء وجدة، واقتصر نشاطها، حسب المعلومات المتوفرة، على توزيع منشورات ونشر رسائل مفتوحة في الصحافة بالخارج.

كما كان محدودًا تأثير جبهة التحرير الوطني وهي منظمة ديمقراطية ثورية معارضة. وانحصرت مطالب الجبهة في إلغاء نظام الاستبداد الملكي وإقامة نظام برلماني، ووضع سياسة اقتصادية وطنية، وإعادة النظر في كل الاتفاقيات النفطية، والدعوة إلى الحياد الإيجابي، ورفض تأجير قاعدة الظهران[٤١].

أما التأثير الأكبر فقد كان للمحافظين سواء من الأمراء أو علماء الدين اوشيوخ القبائل. ولهذا السبب بالذات لم يشارك سعود شخصيًا في مؤتمر بلدان عدم الانحياز في بلغراد لأن يوغسلافيا «بلد شيوعي ملحد»[٤٢].

في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١، انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. واعترفت الحكومة السعودية فورًا بالحكومة السورية الجديدة. وفي أواخر ١٩٦١، استعرت مجددًا الحرب الإعلامية بين إذاعتي القاهرة ومكة بعد أن كانت قد خمدت.

وانتقدت القاهرة استبداد النظام الإقطاعي في السعودية وتفشي الفساد فيه، بينما اتهمت مكة الرئيس عبد الناصر بالتدخل في شؤون الدول العربية الأخرى، وزعمت انه يخون القضية الفلسطينية ويتساهل إزاء إسرائيل. وتأزمت العلاقات إلى حد جعل الحكومة السعودية ترفض قبول كسوة الكعبة من مسلمي مصر عام ١٩٦٢.

وفي الوقت نفسه جرى تقارب بين النظام السعودي والأردن[٤٣].

ففي ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٦٢، اجتمع سعود وحسين في الطائف ووقعا اتفاقية حول تنسيق السياسة الخارجية وتطوير العلاقات الاقتصادية والعسكرية والثقافية، واتفقا على رسم الحدود. وعرفت هذه الاتفاقية بميثاق الطائف، ولم يخف على أحد انها كانت موجهة ضد مصر[٤٤].

الثورة اليمنية وردود الفعل في السعودية

في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢، توفى امام اليمن أحمد فتولي الحكم ابنه وولي عهده الأمير محمد البدر، وفي ٢٦ من الشهر نفسه قامت الثورة في اليمن. فقد استغلت مجموعة من الضباط المناوئين للحكم الملكي برئاسة عبد الله السلال فرصة تغير الإمامة فأطاحت بالبدر واستولت على السلطة. وحصل النظام الجمهوري الجديد على تأييد فوري من مصر. وعند ابتداء شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢، كانت ٢٦ دولة قد اعترفت بالجمهورية العربية اليمنية.

صادرت الحكومة الجمهورية أراضي وقصور وجزء من الممتلكات الأخرى لأسرة حميد الدين وكبار أنصارها. وأعلن النظام الجديد ان كل مواطني البلد متساوون في الحقوق بصرف النظر عن انتمائهم الديني أو القبلي، والغى الرق، وبدأ باحلال المحاكم المدنية محل الشرعية، وأخذ يفتح مدارس عامة جديدة.

غدت ثورة اليمن تحذيرًا خطيرًا للعائلة المالكة الحاكمة في السعودية، إذ كانت فيها كل العناصر الموضوعية للوضع الذي أدّى إلى الانفجار الثوري في البلد المجاور: النظام الإقطاعي الديني، وتفشي الفساد في أعلى فئات المجتمع وانتشار

الفقر والجوع بين السكان الذين كانوا قد تحملوا للتو ـ في فترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ـ أعباء «تنظيم الاقتصاد والمالية» التي تجسدت في انخفاض مستوى المعيشة وزيادة البطالة. وأهم من هذا وذاك انه ظهرت في أوساط الضباط والموظفين والتجار وذوي المهن الحرة والعمال والطلبة فئة «وسطى» نشيطة من الأشخاص الذين اعتنقوا أفكار التحرر الوطني والاجتماعي بصيغها المختلفة ـ الماركسية والناصرية والبعثية ـ وأخذوا يلحون في المطالبة بالتغيير. وكان المد الثوري في البلدان العربية آنذاك في تصاعد.

غير أن تطور الأحداث في اليمن والاستقرار النسبي للنظام السعودي، بينا ان شطرًا ضئيلًا فقط من السكان كان يسعى للتغيير، وان جزءًا أقل كان مستعدا للعمل الحاسم من أجل التغيير. فالمجتمع عمومًا، سواء في السعودية أو في اليمن نفسه، لم يكن قد تخطى بعد المستوى الإقطاعي القبلي، وكانت جماهير السكان تؤثر التنظيم الاجتماعي السائد وتقتنع بالمؤسسات الاجتماعية القديمة وتنساق وراء التقاليد، وبالتالي وراء الزعماء المحافظين، ولم تكن تعرف بل لا تريد ان تعرف أي فكر غير الإسلام بالصيغة التي كان عليها في القرون الوسطى. وأدّى ذلك كله إلى تسهيل مهمة النظام السعودي في البقاء (بدعم هائل من الولايات المتحدة وسائر البلدان الغربية) وتقديم العون للقوى الملكية في اليمن.

التجأ الإمام البدر إلى السعودية، وتجمع في المناطق المتاخمة لليمن كبار أنصار النظام الملكي والإقطاعيون وشيوخ القبائل اليمنيون. وزودت الحكومة السعودية الملكيين بالمال والسلاح، وأغدقت الأموال على القبائل المناوئة للجمهورية وساندت التحركات المعادية للجمهورية داخل اليمن.

عادت السعودية لتقف في معسكر واحد مع بريطانيا، في مكافحة الجمهورية اليمنية. فقد أيدّت سلطات الاحتلال البريطانية الملكيين خوفًا من تأثير الجمهورية اليمنية على عدن والمحميات وتزايد نفوذ مصر الناصرية في شبه الجزيرة العربية. وفيما بعد حصل الملكيون في اليمن على تأييد كل من الأردن وإيران.

في بداية تشرين الأول (أكتوبر)، وبناء على طلب السلال، بدأت مصر بنقل قواتها إلى اليمن جوًا وبحرًا. وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) سمحت السعودية للملكيين بتشكيل حكومة منفى في جدة. وفي ١١ من الشهر تحدث نائب رئيس الجمهورية اليمنية عبد الرحمن البيضاني عن«حالة حرب» مع السعودية[٤٥].

في تشرين الأول (أكتوبر) أيضًا، هرب عدد من الطيارين السعوديين المكلفين بنقل شحنات عسكرية إلى حدود اليمن، هربوا إلى مصر حيث طلبوا اللجوء السياسي. وكان قد وصل إلى مصر طيار أردني قادمًا من الطائف، حيث أرسل الملك حسين عددًا من الطائرات الأردنية لمساندة النظام السعودي. وقصفت الطائرات المصرية تجمعات الملكيين والمرتزقة الذين حشدوا لتأييدهم. وزعمت الحكومة السعودية أن الطائرات المصرية قصفت في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ومطلع تشرين الثاني (نوفمبر) مخيمات الملكيين في نجران وجيزان. ويبدو أن القصف قد حصل بالفعل، ولكن من الملفت للنظر ان الصحفيين الأجانب الذين نقلهم السعوديون إلى جيزان لم يجدوا أثرًا لقنابل أو صواريخ[٤٦].

ولفترة من الوقت، أحجمت السلطات السعودية عن استخدام طائراتها الحربية، وتولت قوات من الحرس الوطني حراسة المطارات.

ويقول الصحفي الأميركي شميدت ان «الفئات العليا من المجتمع السعودي كانت منقسمة على نفسها حول ما إذا كان ينبغي الاتفاق مع النظام الجديد في صنعاء أو تأييد الإمام في الجبال. وقد وقع ستة من أعضاء الحكومة السعودية، وهم جميعًا لا ينتمون إلى الارستقراطية، مذكرة يوصون فيها بالاعتراف بالجمهوريين. أما الفريق الآخر، وكان بزعامة الأمير خالد، فقد بدأ فعلًا بمساعدة الملكيين. وكان الملك سعود، كالعادة، متذبذبًا بين الدعم النشيط للملكيين والاعتراف الحذر بالثوريين»[٤٧].

أثناء هذا الوضع غير المستقر عاد ولي العهد فيصل في ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) من نيويورك حيث ترأس الوفد السعودي إلى الأمم المتحدة، ووعد بدعم من الولايات المتحدة الأميركية أثناء زيارته البيت الأبيض. وذكر شميدت ان «ولي العهد اكتشف

أن الوزراء غير الارستقراطيين الذين يمثلون في الواقع الطبقة المتوسطة الجديدة في السعودية، كانوا انهزاميين. ونظرًا لضعف ايمانهم بمستقبل السعودية وقدرتها على الإصلاح وحماية نفسها، فقد أخذوا يتوقعون بأن يتمكن الرئيس عبد الناصر من إحراز النجاح في استراتيجيته الواضحة الرامية إلى استثمار الثورة اليمنية والتهديد العسكري لهدم بنية النظام الملكي السعودي، وكان بعض الشباب من أفراد الأسرة الحاكمة يشاطرون هذه النزعات الانهزامية»[٤٨].

قررت العائلة السعودية الحاكمة رص صفوفها لمواجهة الخطر. وكان غالبية الأمراء يميلون إلى حرمان سعود من أي دور فعال في السياسة. فقد غدا الملك شخصًا غير مرغوب فيه نتيجة لتفشي الفساد والإسراف في الابهة، كما ان سمعته انحطت في أنظار المحافظين بسبب صلاته مع الإصلاحيين و«الأمراء الأحرار». كما ان واشنطن كانت تؤثر فيصل، لانها لم تنس تصريحات سعود وأعماله ذات الطابع القومي في المرحلة الأولى لتسلمه السلطة وفي سنتي ١٩٦١ و ١٩٦٢. وإزاء ضغط الأمراء وعلماء الدين اضطر الملك في ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢ إلى تعيين فيصل رئيسًا للوزراء ووزيرا للخارجية.

شكل فيصل الحكومة الجديدة في ٣١ من تشرين الأول (أكتوبر) وفي تشرين الثاني (نوفمبر) طرح برنامجًا من عشرة بنود[٤٩]:

١ ـ «تعتقد حكومة صاحب الجلالة ان الوقت قد حان الآن لإصدار نظام أساسي للحكم مستمد من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة خلفائه الراشدين حيث يضع في وضوح كامل المبادىء الأساسية للحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم وينظم سلطات الدولة المختلفة وعلاقة كل جهة بالأخرى وينص على الحقوق الأساسية للمواطن ومنها حقه في حرية التعبير عن رأيه في حدود العقيدة الإسلامية والنظام العام...»(تلي هذا المقطع عبارات مبهمة تعد بـ«تطوير» مجلس الشورى). «ومما يساعد على بلوغ هذا الهدف السامي ان قواعد شريعتنا السمحة مرنة متطورة صالحة لمواجهة كل الظروف وقابلة للتطبيق في كل زمان ومكان حسب متطلبات ذلك الزمان والمكان».

٢ ـ أعلن فيصل ان الحكومة درست أيضًا مسألة نظام الإدارة المحلية. ووعدت باصدار أحكام بهذا الخصوص عما قريب.

٣ ـ نص البرنامج على حرص «حكومة صاحب الجلالة على أن يكون للقضاء حرمته ومكانته فهو مناط القسط ورمز العدالة». وأعلن عن نية الحكومة في إصدار أحكام حول استقلالية الهيئات القضائية وتشكيل وزارة للعدل تكون النيابة العامة تابعة لها.

٤ ـ «ولما كانت نصوص الكتاب والسنة محددة ومتناهية بينما وقائع الأزمنة وما يستجد للناس في شؤون دنياهم أمور متطورة وغير متناهية، ونظرًا لان دولتنا الفتية تقيم حكمها... على أساس الكتاب والسنة نصًا وروحًا، فقد أصبح لزامًا علينا ان نمنح الفتيا عناية أكبر وان يكون لفقهائنا وعلمائنا حملة مشاعل الهدى دور إيجابي فعال في بحث ما يستجد من مشاكل الأمة بغية الوصول إلى حلول مستمدة من شريعة الله ومحققة لمصالح المسلمين، ولذلك كله فقد قررت حكومة حضرة صاحب الجلالة تأسيس مجلس للافتاء يضم عشرين عضوًا من خيرة الفقهاء والعلماء».

٥ ـ «إن حكومة صاحب الجلالة لتشعر شعورًا تامًا بواجبها للعمل بكل جد واهتمام لنشر دعوة الإسلام وتثبيت دعائمه والذود عنه قولًا وعملًا».

٦ ـ قررت الحكومة «إن تقوم حالًا بإصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يتمشى مع الأهداف الإسلامية الرفيعة».

٧ ـ أعلنت الحكومة ان إحدى المهمات الكبرى تتمثل في «النهوض بالمستوى الاجتماعي للأمة» بما في ذلك اعتماد مجانية الطب والتعليم ودعم المواد الاستهلاكية الضرورية والضمان الاجتماعي. «وعندما تقدم الدولة لطائفة العمال فيها نظامًا يحميهم من البطالة، نكون بذلك قد وصلنا إلى المستوى الاجتماعي الذي ما يزال حلمًا يراود كثيرًا من دول العالم المتحضر وحققنا فعليًا أهداف العدالة الاجتماعية الحقة دون أن تطغي الدولة على حريات الناس الفردية أو تسلبهم أموالهم وحقوقهم... انها تسعى جادة إلى إجراء تعديلات مهمة في شكل الحياة الاجتماعية وإلى توفير الوسائل للتسلية لجميع المواطنين».

٨ ـ «تؤمن حكومة صاحب الجلالة بأن التطور الاقتصادي والتجاري والاجتماعي الذي ساد مجتمعنا في السنوات الأخيرة ما يزال في كثير من مجالاته يفتقر إلى التنظيم ولذلك فإن مجموعة كبيرة من الأنظمة الهامة ستأخذ طريقها تباعا إلى الصدور». وجرى التأكيد على ضرورة استحداث هيئات مستقلة لمتابعة تنفيذ هذه الأنظمة.

٩ ـ وجاء في البرنامج ان «الانتعاش المالي والتطور الاقتصادي هو شغل الحكومة الشاغل... فقد اتخذت حكومة صاحب الجلالة وسوف تتخذ إجراءات مهمة وحاسمة لوضع برامج إصلاحية ملموسة ينتج عنها انتعاش دائم للحركة الاقتصادية».

١٠ ـ ونص البرنامج على ضرورة إلغاء الرق بشكل مطلق وحظره وعتق العبيد جميعًا.

وبذا فإن ولي العهد ورئيس الوزراء قد طرح برنامجًا لتعزيز وصيانة النظام الملكي دون إجراء تغيرات جوهرية في أسّسه. وان العبارات المبهمة حول إصدار نظام أساسي مستمد من القرآن والسنة مع مراعاة التغيرات في المجتمع، وحول النظام القضائي وإصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أثارت استياء الكثير من السعوديين، وغير ذلك مما ورد في البرنامج الجديد كان يهدف إلى إخماد النزعات الثورية في أوساط جزء من السكان وارضاء أنصار الإصلاحات المعتدلة. ووعد رئيس الحكومة الطبقة البرجوازية المتنامية باصدار أنظمة جديدة وتشكيل «هيئات مستقلة» لمتابعة تنفيذها، وضمان الانتعاش الاقتصادي. ووعد فيصل فئات واسعة من السكان بتحسين وضعهم المعاشي وتخفيض الأسعار وتقديم مختلف الخيرات الاجتماعية وحمايتهم من البطالة. وتمشيًا مع روح العصر وجد فيصل ان من الضروري التأكيد على وسائل التسلية البريئة مبتعدًا بذلك عن الزهد الصارم. وأخيرًا فقد أشار البرنامج إلى اعتزام إلغاء الرق .

لم ينفذ برنامج فيصل قط من حيث العموم. وفيما بعد لم تعد وسائل الإعلام

والاصدارات الرسمية السعودية تذكر هذه الوثيقة الهامة خشية جلب الأنظار للوعود المنسية حول الإصلاحات.

وكانت مختلف إجراءات الحكومة ذات طابع محدود للغاية. ففي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٢، صدر مرسوم بإلغاء الرق، والتزمت الحكومة بموجبه بدفع سبعمائة دولار عن كل عبد وألف دولار عن كل أمة. وفي ٧ تموز (يوليو) ١٩٦٣، بلغ العدد الإجمالي للعبيد الذين طالب أسيادهم بدفع تعويض عنهم ١٦٨٢ عبدًا، فدفعت الحكومة التعويضات وأعتقتهم. واعتبر سائر العبيد معتوقين بعد التاريخ المذكور الذي حدد كأجل نهائي لدفع التعويضات. وكان الجزء الأساسي من المعتوقين من عبيد العائلة المالكة. وذكرت مجلة «نيوزويك» ان«غالبية أسياد العبيد تجاهلوا عرض الحكومة لان مبلغ التعويض كان يقل مرتين عن سعر العبد في سوق الرقيق»[٥٠].

وفي العادة كان العبد المعتوق يضطر إلى البقاء عند أسياده السابقين، لصعوبة إيجاد عمل في بلد يكثر فيه العاطلون عن العمل، أو يبقى دون مقومات العيش[٥١].

توصل فيصل والمقربون إليه، بأنفسهم أو بنصح من الخبراء الأميركيين، إلى استنتاج حول ضرورة تدخل الحكومة بنشاط أكبر في الحياة الاقتصادية. والمقصود بذلك تأسيس قطاع عام في الاقتصاد.

صدر في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢، مرسوم يقضي بتأسيس الهيئة العامة للبترول والموارد المعدنية (بترومين) لدى وزارة الصناعة البترولية والتعدينية، برئاسة الوزير. وأوكلت إلى الهيئة أعمال استخراج ونقل وتسويق النفط وسائر الموارد المعدنية. ولهذا الغرض ترتب تأسيس شركات أو قيام الهيئة نفسها باستثمار رأسمال في الشركات القائمة بالفعل. كما كلفت بترومين بمهمة تطوير الصناعة البتروكيمياوية بالاستفادة من الغاز الطبيعي[٥٢].

في مطلع عام ١٩٦٣، صدرت أنظمة المصرفين الصناعي والزراعي في السعودية.

ونصت ميزانية سنة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ على زيادة كبيرة في الاعتمادات المخصصة لأغراض التعليم والصحة[٥٣].

نهاية ازدواجية السلطة ومبايعة فيصل ملكًا

بعد أن أعلنت حكومة فيصل الأحكام العرفية في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢، شرعت تنكل بالمعارضة. واعتقلت الشخصيات ذات الميول الإصلاحية، بالإضافة إلى إلقاء القبض على عدد من الضباط المظليين بتهمة التآمر ضد نظام الحكم. ولكن جبهة التحرير الوطني صعدت من نشاطها في الخارج[٥٤].

في خريف ١٩٦٢، قصد سعود أوروبا للعلاج، فأخذ فيصل يعمل بنشاط لأحكام سيطرته على السلطة، وعين أخاه غير الشقيق عبد الله قائدًا للحرس الوطني وأخًا آخر حاكمًا للرياض.

عاد سعود إلى الرياض في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٣ ولكنه غدا في عزلة. فقد طالبه ٣٩ من اخوته بتسليم فيصل السلطة الفعلية، على أن يظل ملكًا، فغادر سعود البلاد.

إثر ذلك عزل فيصل كل أبناء سعود من المناصب الحكومية الهامة، وعين محلهم اخوته الثلاثة خالد وفهد وسلطان، وعمه الأمير مساعد بن عبد الرحمن الذي كان من خلصائه. وبعد ذلك أبعد ولي العهد عن العاصمة جزءًا كبيرًا من الحرس الملكي الذي كان مؤلفًا من ثلاث كتائب مزودة بالدبابات والمدافع المضادة للجو وتدرب غالبية ضباطه في الولايات المتحدة. وكان جنود الحرس الملكي يتقاضون رواتب عالية ويحصلون على دور وقطع أراضي وسلفة للبناء. ونقل فيصل كتيبتين من الحرس الملكي (كتيبة مشاة وكتيبة مدرعات) إلى الحدود السعودية اليمنية في الجنوب، ودمجهما في الجيش النظامي[٥٥].

سمح للملك سعود بالعودة شريطة ألّا يتدخل في شؤون البلد، فاضطر إلى الموافقة وعاد إلى السعودية في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣[٥٦].

في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٦٤، قام سعود بمحاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الدولة، فطالب بوضع السلطة التنفيذية بكاملها تحت إشرافه. رفض فيصل وحشد الحرس الوطني لمؤازرته. وفي ٢٥ آذار نصح مفتي الديار السعودية الملك بالموافقة على مطالب ولي العهد، فرفض الملك آملًا في الحصول على دعم وحدات الحرس الملكي المتبقية تحت إمرته. وحينذاك أصدر فيصل أمرًا إلى الحرس الوطني بتطويق القصر. وكانت القوى غير متكافئة بتاتًا، فاستسلم الحرس الملكي[٥٧].

في ٢٩ آذار (مارس)، أصدر العلماء فتوى أيدها أفراد الأسرة المالكة، حول تسليم السلطة بأكمله. لفيصل على أن يبقى سعود ملكًا بالاسم فقط[٥٨].

وإثر هذه الفتوى أصدر مجلس الوزراء سلسلة من القرارات في ٢٨ ـ ٣٠ آذار، تقضي بإلغاء سيطرة الملك على الحرس الملكي وحرسه الخاص، وتسليم التشكيل الأول لوزارة الدفاع والثاني لوزارة الداخلية. والغى مجلس الوزراء البلاط وقلص إلى النصف المخصصات السنوية للملك، فجعلها ١٨٣ مليون ريال سعودي (الدولار الأميركي = ٤,٥ ريال). ولم يعد بإمكان سعود إدارة شؤون الدولة، وأُحيلت كل صلاحيات الملك لولي العهد فيصل. ووقع ٦٨ أميرًا من الأسرة المالكة مذكرة تؤيد إحالة السلطة إلى فيصل[٥٩].

لقد كانت أحداث آذار (مارس) عام ١٩٦٤ تكرارًا لانقلاب عام ١٩٥٨، مع فارق واحد وهو ان سعود حاول في هذه المرة إبداء نوع من المقاومة ولكنه أخفق.

بدأ فيصل في صيف ١٩٦٤، يمهد للإطاحة باخيه غير الشقيق عن العرش نهائيًا. وفي ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) غادر جدة متوجها إلى الرياض، والتقى في الطريق بزعماء البدو. واجتمع الأمراء وشيوخ القبائل وعلماء الدين في العاصمة، حيث عرضوا على سعود التنازل عن العرش والكف عن ممارسة النشاط السياسي.

في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤، اجتمع علماء الدين في منزل مفتي الديار السعودية محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ثم عقدوا اجتماعًا مع الأمراء في فندق

«الصحراء» بالرياض. ويذكر دي غوري ان عدد المشاركين في الاجتماعين بلغ زهاء مائة أمير و ٦٥ عالمًا، أي كل الفئة العليا من الهرم السياسي الديني في السعودية[٦٠].

صادق مجلسِ الوزراء في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) على قرارين: فتوىٍ العلماء بمبايعة فيصل ملكًا، ورسالة وقعها جميع أفراد الأسرة المالكة تبايع فيصل ملكًا وتدين له بالولاء. كما بايع الملك الجديد أعضاء مجلس الشورى وممثلو أهم المحافظات. وتوجه أعضاء الحكومة برئاسة خالد إلى سعود لإعلامه بالقرار. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) أقسم الحرس الوطني يمين الولاء لفيصل. ولكن سعود ظل مترددًا آملًا في حدوث معجزة، فهدد بحرمانه من أملاكه ووضعه تحت الإقامة الجبرية إذا استمر متعنتا. حينذاك وقع تنازله عن العرش، وفي كانون الثاني (يناير) ١١٩٦٥ ،غادر البلاد، بعد أن أدّى يمين الولاء لاخيه. وفي آذار (مارس) ١٩٦٥ عين فيصل أخاه غير الشقيق الأمير خالد وليًا للعهد[٦١].

انتهت بذلك مرحلة الصراع على السلطة بين آل سعود والتي استمرت ست سنوات. وفي العام الأول لتوليه الحكم جمع فيصل بين منصبي الملك ورئيس الوزراء، وتولى السلطة التنفيذية الفعلية وكان يقوم بتعيين الوزراء وإعفائهم ويقبل استقالتهم. وصار جميع الوزراء خاضعين مباشرة للملك الذي غدت لديه عمليًا سلطة كبيرة مماثلة لسلطة والده عبد العزيز.

المعارضة في الستينيات ومطلع السبعينيات

أدّت ثورة اليمن والمجابهة المصرية السعودية إلى تصاعد مؤقت في نشاط مجموعة الأمير طلال.

فقد أعلن في ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢ عن تشكيل جبهة التحرير العربية ونشر برنامجها. وذكر طلال ان التنظيم الجديد سيناضل من أجل إقامة نظام ديمقراطي في السعودية وإلغاء الرق هناك ويعمل في سبيل إعادة النظر في اتفاقيات الامتيازات النفطية بغية حماية مصالح البلد وإنشاء شركة وطنية لاستخراج النفط، ويكافح في

سبيل الوحدة العربية وضد الأحلاف الإمبريالية والقواعد العسكرية. وقد راعى الأمير فيصل الكثير من مطالب طلال وأدرجها في بيانه البرنامجي.

في مطلع الستينيات وضعت الصيغة التنظيمية لمجموعة معارضة أخرى وهي اتحاد أبناء الجزيرة العربية (اتحاد شعب الجزيرة العربية فيما بعد)، وترأسها ناصر السعيد، العامل السابق في أرامكو. وأعلنت المنظمة انها تمثل جميع فصائل الكادحين، بمن فيها العمال والفلاحون والطلاب والموظفون والجنود والضباط والأطباء. ووزعت المنظمة في جدة والرياض ومكة منشورات مناهضة للحكم الملكي. ودعت المنظمة في إذاعة موجهة من القاهرة إلى تصفية الحكم الملكي السعودي وتأسيس جمعية وطنية تمثل كل فئات الشعب، كما أعلنت عن تأييدها لعبد الناصر وتنديدها بالملك حسين[٦٢].

وبعد ثورة اليمن انتقلت قيادة الاتحاد من القاهرة إلى صنعاء. وأنشأت المنظمة قيادة عليا للعمل في السعودية، كان من بين أعضائها ناصر السعيد[٦٣].

بديهي أن مجموعتي طلال (الإقطاعيون الليبراليون والبرجوازية التجارية) وناصر السعيد («الفئات الوسيطة») كانتا متباينتين من حيث التركيب الاجتماعي والتطلعات السياسية وأساليب النضال، كما كانتا تتبادلان التهجمات.

أما جبهة التحرير الوطني فقد حاولت توحيد القوى المعارضة، وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢ اندمجت بجبهة التحرير العربية، حيث صار اسم التنظيم الجديد جبهة التحرير الوطني العربية وانتخب طلال أمينًا عامًا لها. وشرعت هذه الجبهة بنشر موادها في صحيفة «الكفاح» اللبنانية تحت ركن «صوت الجبهة». وكان برنامجها يشمل المطالبة بالحكم الدستوري الديمقراطي وانتخاب هيئات السلطة وحرية الفكر والكلمة وحرية الاجتماع والتنظيم السياسي والنقابي، وحق الكادحين في الإضراب والتظاهر، وإجراء تغيير جذري في الجهاز الحكومي، ونشر التعليم ومكافحة الأمية وتعليم النساء إسوة بالرجال، وتصنيع البلد وتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين، وتطوير الصحة وتوفير الخدمات الصحية لجميع المواطنين، وإقامة

التعاونيات الزراعية، وتحسين وسائل المواصلات وتعزيز الجيش وتجهيزه باحدث الأسلحة، وإعادة النظر في اتفاقيات النفط لصالح العربية السعودية، وإنشاء شركة وطنية لاستخراج وتكرير النفط، والدفاع عن الوحدة العربية والنضال ضد الأحلاف الإمبريالية والقواعد العسكرية، واتباع سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع جميع البلدان[٦٤].

بيد أن مجموعة طلال انسحبت في آب (أغسطس) ١٩٦٣ من جبهة التحرير الوطني العربية، ومنذ ذلك الحين أخذت تسمى مجددًا جبهة التحرير الوطني. وقد تدهورت علاقات «الأمراء الأحرار» بالرئيس عبد الناصر وخصوصًا بعد أن أخذت إذاعة اليمن تدعو إلى«تصفية جميع أفراد الأسرة السعودية المالكة دون استثناء». وفي شباط (فبراير) ١٩٦٤، عاد طلال إلى الرياض بعد أن كان اخوته قد وصلوا إليها قبل شهر من ذلك[٦٥]. وبذا انفرط عقد «الأمراء الأحرار»، ولم يسمع منذ ذلك الحين أي شيء عن نشاطهم السياسي.

لم تتمكن المعارضة المنظمة من إحراز نجاح داخل البلد. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢، اعتقل ٤٠ من الضباط الشباب الذين خططوا للقيام بانقلاب. وفي شباط (فبراير) ١٩٦٣، اكتشفت أجهزة الأمن السعودية مجموعة جديدة توحّد المعارضين اليساريين[٦٦].

شهد البلد اضطرابات عمالية في فترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦. ففي عام ١٩٦٢ توقف عمال المطابع المصريون في جدة عن العمل احتجاجًا على التهجمات ضد مصر. وفي عام ١٩٦٣، اضرب السعوديون والبحرانيون العاملون لدى أحد المقاولين في المنطقة الشرقية. وفي العام نفسه جرى اضراب في معمل للاسمنت. كما اضرب عمال النفط في المنطقة المحايدة مطالبين بتقليص أسبوع العمل من ٤٨ إلى ٤٠ ساعة.وفي عام ١٩٦٤، قاطع عمال أرامكو مطاعم الشركة وحوانيتها، ونظموا مظاهرة. وعلى الرغم من صدور مرسوم عام ١٩٦٥ الذي يحظر كل أنواع الاتحادات والروابط العمالية وحتى العقود الجماعية، فإن تسعمائة من عمال أرامكو برهنوا عام ١٩٦٦ على وجود

نوع من التنظيم لديهم، ورفعوا إلى مكتب الشكاوى التابع لمجلس الوزراء عريضة تتضمن مطالب اقتصادية[٦٧].

بيد أن كل هذه النشاطات لم تكن ذات طابع جماهيري. وحتى مطلع عام ١٩٦٧ لم تكن هناك بوادر تدل على أن النظام السعودي قد تعرّض لخطر جدي يذكر من قبل المعارضة السرية. وكانت السلطات تعلن بين الحين والحين عن اعتقال أفراد بتهمة القيام« بنشاط هدام» أو «الانتماء إلى منظمات سرية معادية للنظام». وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥، أعلنت وزارة الداخلية عن اعتقال ٦٥ شخصًا بتهمة«النشاط الهدام»، ووجهت لـ ٣٤ شخصًا تهمة«الانتماء إلى منظمة سرية انحرفت عن الصراط المستقيم، وترمي إلى الاخلال بامن البلاد». وبعد أن سجل المتهمون اقرارًا تحريريًا أعلنوا فيه انهم مذنبون وطلبوا العفو، أطلق الملك سراحهم ولكن حظر عليهم مزاولة وظائف حكومية، وابعد الأجانب منهم. وكانت هناك مجموعة ثانية تتألف من ٣١ شخصًا اتهموا بـ «الشيوعية» واتباع«المبادىء الهدامة». وحكم على ١٩ منهم بالحبس لمدد تراوح بين ٥ سنوات و ١٥ سنة[٦٨].

وفي ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ أعلن عن إلقاء القبض على«مخربين مدربين»، واتهموا بتنظيم تفجيرات في مؤسّسات حكومية عديدة منها وزارة الدفاع ومبنى البعثة العسكرية الأميركية وقصور الأمراء والقاعدة العسكرية القريبة من حدود اليمن. وزعم ان المخربين ليسوا من المواطنين السعوديين، بل إنهم متسللون من جمهورية اليمن. وفي آذار (مارس) أُعدم ١٧ منهم علنًا في الرياض (بقطع رؤوسهم) وطرد من البلد ما يزيد على ٦٠٠ يمني[٦٩].

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦، انتقل الملك السابق سعود من أوروبا إلى القاهرة، وسرعان ما غدا واضحًا انه لم يفقد الأمل في استعادة عرشه بمساعدة... الرئيس عبد الناصر. ومن سخريات القدر ان سعود كان من الد خصوم الرئيس المصري، وسبق أن اتهم بتنظيم مؤامرة لاغتيال عبد الناصر. وتحدث سعود في سلسلة مقابلات من إذاعة القاهرة سمى فيها فيصل بـ«عميل للإبريالية» واتهمه

بأنه... تحالف مع الاستعمار ضد أشقائه العرب. وقد أثارت تأكيدات سعود حول امله في العودة إلى البلد «باي ثمن»، تكهنات بأنه يخطط لتنظيم غزو عسكري للسعودية بمساعدة القبائل الموالية له.

في نيسان (أبريل) ١٩٦٧، وصل سعود إلى صنعاء في زيارة استغرقت ثلاثة أيام. وقد رحب به عبد الله السلال باعتباره «الملك الشرعي» للسعودية. وبعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، الذي جرى اثره تقارب مصري سعودي وتقرر وقف العمليات العسكرية في اليمن، توقفت حملة سعود وغادر إلى أوروبا في أيلول (سبتمبر). ولكنه عاد إلى مصر في تشرين الثاني (نوفمبر)، إلا أنه لم تتوفر معلومات عن نشاطه السياسي لحين وفاته في شباط (فبراير) ١٩٦٩[٧٠].

إبّان حرب حزيران (يونيو) جرت في رأس تنورة والظهران مظاهرات معادية لإسرائيل وأميركا. وهاجم المتظاهرون في الظهران القنصلية الأميركية. وجرت إثر ذلك حملة اعتقالات، وتذكر بعض المصادر ان عددًا من المعتقلين قد قتلوا. وطرد من البلد مئات الفلسطينيين. وفي أواخر حزيران (يونيو) نظم المستخدمون العرب في أرامكو اضرابًا جزئيًا استمر بضعة أيام[٧١].

شهد عام ١٩٦٨، انحسارًا وقتيًا في المعارضة الداخلية والخارجية للملك فيصل. وسحبت القوات المصرية من اليمن، وتخلت مصر عمليًا عن دعم المعارضة داخل المملكة مقابل دعم مالي ومساعدات أخرى من السعودية.

وقد أثارت سياسة التغييرات التدريجية والحذرة التي أجراها الملك فيصل استياء داخل الأسرة الحاكمة، سواء لدى أولئك الذين اعتبروا التغييرات مغالية في الليبرالية والديناميكية، أو الذين اعتبروها بطيئة للغاية وغير حاسمة. وكان لكل من وجهتي النظر هاتين أنصار بين الأمراء، مما أدّى إلى احتكاكات مبعثها التنافس الشخصي. وحصل نوع من التوتر داخل العائلة المالكة بسبب سوء صحة الملك فيصل والصراع الخفي على الإرث السياسي المحتمل. وقد أجريت لفيصل عملية جراحية في جنيف في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٠. وبديهي ان حالته الصحية أثارت المسألة

التالية: أي من كتل الأمراء ستكون لها الكلمة الفصل في حال وفاة الملك أو اعتزاله. وأصبح الشخص الثالث في العائلة، بعد ولي العهد خالد، فهد بن عبد العزيز وهو من مجموعة قوية من الأشقاء المنتسبين إلى عائلة السديري من جهة الأم[٧٢].

عملت سرًا في السعودية خلال الستينيات ومطلع السبعينيات بضع منظمات يسارية هي جبهة التحرير الوطني السعودية واتحاد شعب الجزيرة العربية، بالإضافة إلى المجموعات الجديدة مثل الحزب النجدي الثوري الذي أعلن عن اعتزامه النضال ضد «الطغمة الرجعية الحاكمة»، والجبهة القومية الديمقراطية في العربية السعودية المكونة من بعثيين وناصريين سابقين. وكانت مراكز نشاط هذه القوى خارج المملكة، ومن المحتمل انه كان لها أعضاء نشيطون داخل البلد[٧٣].

في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٩، نظمت مجموعة كبيرة من الضباط السعوديين، وغالبيتهم من سلاح الطيران، محاولة انقلاب. وزعم ان الضباط كانوا يعتزمون اغتيال الملك فيصل وأخاه الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران، والاستيلاء على العاصمة. ويستفاد من عدة مصادر ان وكالة المخابرات المركزية الأميركية ساهمت في كشف تنظيم الضباط الثوريين. وقد اعتقلت أجهزة الأمن بضع مئات من الضباط لا تزيد رتبة غالبيتهم على رائد. وذكر بيان صادر عن اتحاد شعب الجزيرة ان من بين المعتقلين العميد داود الرومي آمر قاعدة الظهران وسعيد العمري قائد حامية الظهران اللذين قتلا أثناء التعذيب. كما اعتقل عدد من عمال النفط المستخدمين وموظفي المصارف الذين لهم علاقة بالضباط الثوريين. وزعمت جبهة التحرير الوطني ان ٤٠ من المتهمين بالمحاولة الانقلابية قد أُعدموا في آب (أغسطس)[٧٤].

وخلال الأشهر التي أعقبت كشف المحاولة الانقلابية، كانت تنشر خارج المملكة أنباء حول حملات اعتقال وإعدام وتعذيب جماعية. وذكرت الصحف ان عدة محاولات انقلابية جرت في أيلول (سبتمبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ ونيسان ـ أيار (أبريل ـ مايو) ١٩٧٠ وفي تموز (يوليو) ١٩٧٠. ومن المحتمل ان تكون السلطات هي التي أشاعت أنباء «المحاولات الانقلابية» لتبرير أعمال

التنكيل[٧٥]. وتفيد معطيات السعوديين في المهجر ان عدد السجناء السياسيين في المملكة بلغ حوالى الألفين عام ١٩٧٣[٧٦]. وقد تكون في ذلك مبالغة.

أثارت ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ في ليبيا قلق الأسرة الحاكمة، لتشابه الظروف الاجتماعية السياسية في البلدين. وأخذ النظام السعودي يزيد من اهتمامه بتعزيز القوات المسلحة، وخصوصًا سلاح الطيران والحرس الوطني وجهاز الأمن المكون من شعبة مكافحة الجاسوسية ومديرية الأمن العام. وتولى فهد النائب الثاني لرئيس الوزراء وزير الداخلية الإشراف على كل أجهزة الأمن. ووزعت وحدات الجيش في كل أنحاء البلد، ولم يسمح لها قط بالتحشد حول المراكز الرئيسية. وبعد عام ١٩٦٢، بدأ انتقاء ضباط سلاح الطيران من أفراد الأسرة المالكة وسائر الأفخاذ المقربة إليها. ولكن المحاولة الانقلابية في حزيران (يونيو) ١٩٦٩، أظهرت ان هذه الخطوات لم تعط المردود المنتظر[٧٧].

استمر فيصل في اتخاذ الإجراءات لمواصلة التنمية الاقتصادية، بما في ذلك وضع الخطة الخمسية التي أقرّت في نهاية عام ١٩٧٠. وقد تحسنت شبكة النقل والمواصلات وتطورت شبكات الإذاعة والتلفزيون. واستمر تطبيق مشاريع تحضير البدو، وتوسيع قطاع الخدمات العامة والصحة والتعليم[٧٨].

خرجت أحداث اليمن عن الإطار المحلي، وضلع فيها القطبان المتناحران الرئيسيان في الشرق الأوسط خلال الستينيات، وهما مصر والسعودية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار ان الجمهورية العربية المتحدة كانت تحظى بدعم الاتحاد السوفييتي، في حين ان العربية السعودية تحصل على مؤازرة الولايات المتحدة وبريطانيا، لاكتشفنا ان أحداث اليمن، على الرغم من محدوديتها الوضعية، قد اكتسبت أهمية دولية.

المجابهة السعودية المصرية في اليمن

عندما بدأت أحداث اليمن طلبت الرياض المساعدة من واشنطن. وأشار الرئيس الأميركي جون كندي في رسالة موجهة إلى رئيس الوزراء فيصل أثر تسلمه السلطة،

إلى أن بإمكان السعودية الاعتماد على الولايات المتحدة في مجال صيانة أمن المملكة وسلامة أراضيها. وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢، قامت مقاتلات أميركية بتحليقات استعراضية فوق الرياض وجدة والظهران.

في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع ميثاق الدفاع بين الجمهورية العربية اليمنية والجمهورية العربية المتحدة. وبدأت مصر تقدم مساعدات عسكرية واقتصادية متزايدة للجمهوريين. ومن المهم الإشارة إلى أن كلا من الجمهورية العربية المتحدة والعربية السعودية كان يعتبر ميثاق الدفاع المشترك المعقود بين مصر والسعودية واليمن في جدة عام ١٩٥٦، أساسًا قانونيًا لإسداء العون للجمهوريين (من قبل مصر) وللملكيين (من قبل السعودية)[٧٩].

في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، أعلن رئيس الوزراء فيصل التعبئة العامة. وفي الوقت نفسه طلبت الحكومة السعودية المساعدة من الولايات المتحدة الأميركية. وفي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ أعلنت الولايات المتحدة عن إرسال عدد من طائراتها وسفنها الحربية إلى السعودية[٨٠].

وبعد فترة وجيزة وافقت الحكومة الأميركية على مساعدة السعودية في إنشاء شبكة للدفاع الجوي على امتداد الحدود اليمنية قرب نجران. وفي ٦ شباط (فبراير) بدأت تدريبات مشتركة للمظليين الأميركيين والسعوديين قرب جدة، وشارك فيها مائة مظلي أميركي وصلوا من ألمانيا الغربية[٨١].

اتسع نطاق الحرب الأهلية في اليمن والنزاع السعودي المصري. وقام السعوديون بتمويل الملكيين وتزويدهم بالأسلحة والذخائر والمؤن والمواد الطبية. وفي كانون الأول (ديسمبر)، وصل تعداد القوات المصرية في اليمن إلى ١٣ ألفًا، وفي شباط (فبراير) ١٩٦٣، بلغ عشرين ألفًا، كما أوفدت مصر إلى اليمن أطباء ومعلمين ومهندسين زراعيين وفنيين[٨٢].

في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢، وجه الرئيس الأميركي جون كندي رسائل إلى رئيس الوزراء السعودي فيصل والملك الأردني حسين ورئيس الجمهورية العربية

المتحدة عبد الناصر والرئيس اليمني السلال، ضمنها تصوراته حول سبل حل نزاع اليمن. وقد تجاهل الرئيس الأميركي الإمام وحاشيته. واقترح كندي على الجمهورية العربية المتحدة سحب قواتها المسلحة من اليمن، وفي المقابل اقترح على السعودية والأردن ومشايخ وسلاطين اتحاد جنوب الجزيرة (الذي شكله البريطانيون عوضًا عن محميات جنوب اليمن)، اقترح وقف المساعدات للملكيين. وفي اليوم نفسه أعلن فيصل عن رفضه اقتراح كندي. وفي اليوم التالي رفض الرئيس جمال عبد الناصر بدوره اقتراح كندي، وأعلن انه لن يوافق على سحب القوات المصرية من أراضي اليمن إلا إذا زال الخطر الذي يهدد اليمن الجمهوري. ولم يوافق على مبادرة كندي إلا الرئيس اليمني عبد الله السلال[٨٣].

يبدو أن واشنطن اعتبرت قضية الملكيين ميؤوسًا منها في خاتمة المطاف. وفي ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢، أعلنت حكومة الجمهورية العربية اليمنية انها ستغلق السفارات والبعثات الدبلوماسية لجميع البلدان التي لم تعترف بالجمهورية. وفي ١٩ كانون الأول، أعلنت وزارة الخارجية الأميركية رسميًا عن اعتراف الولايات المتحدة باليمن الجمهوري[٨٤].

في أوائل عام ١٩٦٣ خاض الجمهوريون اليمنيون المدعومون من قبل القوات المصرية معارك ضارية ضد الملكيين والمرتزقة المتسللين من السعودية ومحميات جنوب اليمن البريطانية. وكانت وحدات الملكيين المشكلة بمساعدة السعودية وبريطانيا جزئيًا، تتألف آنذاك من زهاء أربعين ألف شخص، ولها قواعد تموين ومعسكرات على أراضي السعودية وجنوب اليمن. وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن المصريون والجمهوريون في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩٦٣ من تحرير مدينتي مأرب وحريب في شرق اليمن من الملكيين. بيد أن وحدات الملكيين كانت تتسلل باستمرار إلى أراضي اليمن عبر الجبال والصحاري. وكانت هناك مناطق في الجبال واقعة تحت سيطرة المتمردين التامة. وقد تحولت الحرب الأهلية داخل اليمن في الواقع إلى حرب بين الجمهورية العربية المتحدة والسعودية واستنزفت الطرفين[٨٥].

يقول شميدت: «لو درسنا باهتمام فترة السنوات الأربع لوجدنا ان كلا من الطرفين بذل جهودًا مستميتة للخروج من المأزق. وقام المصريون بأول هذه الجهود في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) عام ١٩٦٣ أثناء ما يسمى بـ «هجوم رمضان»، حينما تمكنوا من الاستيلاء على الجوف في شمال شرقي اليمن ومدينتي مأرب والحريب في الجزء الشرقي من البلد. وجاء الجهد الثاني، الذي قام به الملكيون، وبعد فترة فصل القوات. ففي كانون الثاني ـ شباط (يناير ـ فبراير) ١٩٦٤ تمكن الملكيون من أن يقطعوا لبضعة أسابيع الطريق بين صنعاء والحديدة وهو الشريان الرئيسي الذي يغذي الجيش المصري... أما الجهد الثالث فقد بذله المصريون في صيف العام نفسه بتحشيدهم قوات في الشمال الغربي، حيث جرت في آب ـ أيلول (أغسطس ـ سبتمبر) أكبر العمليات الهجومية وذلك في منطقة حرض. وكان هدف العملية يتمثل في إغلاق الحدود مع السعودية واسر الإمام أو قتله. ولكن لم يتحقق أي من هذه الاهداف. وفي هذه الأثناء هيأ الملكيون في الشمال والشمال الشرقي الظروف لشن أكبر هجماتهم، وقاموا بالجهد الرابع خلال فترة السنوات الأربع. وبعد الانهيار التام لاتفاقية الاسكندرية بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر، مني الجمهوريون بهزيمة أدّت إلى عقد اتفاقية جدة في آب (أغسطس) ١٩٦٥ وانسحاب المصريين من شمال وشرق اليمن»[٨٦].

في ربيع ١٩٦٣، اتفقت الرياض والقاهرة على ضرورة إنهاء العمليات الحربية في أراضي اليمن وفصل القوات. وفي نيسان (أبريل) ١٩٦٣ اتفقت الجمهورية العربية المتحدة والسعودية والجمهورية العربية اليمنية على السماح لمراقبين من هيئة الأمم المتحدة بدخول اليمن.

وفي تموز (يوليو) ١٩٦٣، وصلت وحدات الأمم المتحدة إلى شمال اليمن وأقامت نقاط سيطرة في عدد من المناطق. وقامت دوريات جوية وبرية من قوات الأمم المتحدة بالكشف على مناطق الحدود[٨٧]. غير أن مردود هذه العمليات كان ضئيلًا للغاية.

في مطلع آذار (مارس)١٩٦٤، اتفق وفدان من مصر والسعودية على عقد لقاء

بين رئيس الوزراء فيصل والرئيس عبد الناصر لوضع خطة ملموسة لإنهاء الحرب في اليمن. وقد عين موعد اللقاء في نيسان (أبريل) ولكنه ارجىء بسبب احتدام الصراع على السلطة بين فيصل وسعود. وأصرت الجمهورية العربية المتحدة على أن تعترف السعودية بالجمهورية العربية اليمنية وتكف عن مساعدة الملكيين اليمنيين، على أن يعقب ذلك انسحاب القوات المصرية من اليمن. ولكن السعودية ظلّت تعترف بالإمام البدر حاكمًا شرعيًا لليمن، وتسوف في بدء المفاوضات الرسمية التي كانت لتعني اعترافها بأنها طرف في النزاع اليمني، وأصرت على أن يتم أولًا الانسحاب غير المشروط لجميع القوات الأجنبية (أي المصرية) من اليمن. ولم تدرج السعودية في عداد هذه القوات وحدات المرتزقة العاملة إلى جانب الملكيين، والتي لم تكن من الناحية الشكلية ضمن جيش أي من الدول. وفي هذا الظرف لم يعد هناك جدوى من عمل بعثة الأمم المتحدة، المرابطة في اليمن من تموز (يوليو) ١٩٦٣، فغادرت البعثة وقوات الأمم المتحدة البلد في مطلع أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤[٨٨].

كان ثمة خطر تحوّل النزاع في اليمن إلى حرب حقيقية بين الجمهورية العربية المتحدة والعربية السعودية. وقد نشرت صحيفة «النهار» البيروتية في مطلع أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤ مقابلة مع فيصل قال فيها ان القوات المسلحة السعودية يمكن أن تدخل أراضي اليمن بطلب من الامام[٨٩]. وكان ذلك تهديدًا سافرًا، إلا أن السعودية لم تكن تمتلك القوات الكافية للقيام بمثل هذه العملية.

ظل الموقف المصري على حاله، ولكن تم خلال المفاوضات المصرية السعودية التي جرت في مؤتمر القمة العربي بالاسكندرية في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤، الاتفاق على أن يتولى البلدان التوسط بين الجمهوريين والملكيين لتسوية النزاع[٩٠].

في ٢ و٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤ عقد في مدينة اركويت بالسودان مؤتمر حضره ممثلون عن الجمهورية العربية اليمنية والملكيين، وتقرر خلاله وقف إطلاق النار ابتداء من ٨تشرين الثاني ١٩٦٤، بيد أن هذه الهدنة لم تدم أكثر من يومين[٩١].

أدّت العمليات الحربية الطويلة الأمد في اليمن إلى خلق صعوبات كبيرة ليس

للجمهورية العربية اليمنية فحسب، بل لمصر والسعودية أيضًا. وقد ازداد تعداد القوات المصرية الموجودة في أراضي اليمن من ٣ آلاف إلى خمسين ألفًا. وخلال الفترة الممتدة من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢ إلى ربيع ١٩٦٥، فقدت مصر زهاء ١٥ ألف قتيل في اليمن[٩٢]. كما قتل عشرات الآلاف من اليمنيين[٩٣]. وقد اتت الحرب على خزانة مصر وقوضت اقتصادها. ولم تنشر الحكومة السعودية معلومات عن نفقاتها ولكن من المؤكد انها أنفقت مبالغ طائلة.

لقد بالغ عبد الناصر في تقدير قواه، بإرسال قوات لمساعدة الجمهوريين. ويبدو انه اعتقد بأن العملية سوف تستغرق بضعة أسابيع أو عدة أشهر على أكثر تقدير. وكانت النتائج المحتملة لهذه العمليات تبدو له جديرة بالجهود: طرد البريطانيين من جنوب اليمن، بما فيه عدن، والانفجار الثوري في السعودية الذي يمكن أن يؤدي إلى قيام نظام ديمقراطي ثوري صديق له في هذا البلد الغني بالنفط، والضغط على مواقع الغرب في حوض الخليج. ولكن أمد الحرب طال. ولم يكن المجتمع اليمني مهيئا بعد للتغيرات الثورية العميقة التي بدأت في البلد. وكان للملكيين مواقع قوية داخل اليمن ودعم كبير من الخارج. كما ان الجنود المصريين، من أبناء الفلاحين الذين تربوا في وادي النيل وحوضه، لم يكونوا مكيفين بالشكل المطلوب لخوض عمليات في الجبال والصحاري. وقد ازداد تعداد القوات المصرية إلى ٦٠ ـ ٧٠ ألفًا عام ١٩٦٧[٩٤].

بيد أن كلًا من مصر والسعودية كان يربط بمصير اليمن حسابات تتعدى حدود اليمن وحتى الجزيرة العربية كلها. فقد صارت القضية اليمنية من البنود الأساسية لمجمل السياسة العربية لكل من البلدين.

وابتداء من أواخر عام ١٩٦٤، استغلت الجمهورية العربية المتحدة نجاحاتها العسكرية المؤقتة في اليمن فاتخذت موقفًا أكثر تشددًا إزاء السعودية. وبدأت ترتسم معالم نزعة ازدياد دور القيادة المصرية في إدارة شؤون الدولة في الجمهورية العربية اليمنية[٩٥].

في أواخر حزيران (يونيو) ١٩٦٥، أشار عبد الناصر إلى أنه إذا لم تسفر المفاوضات السعودية المصرية عن نتائج ملموسة فإن مصر سوف تضطر إلى تصفية بؤر العدوان بالقوة[٩٦]. وأُثيرت في الجمهورية العربية اليمنية مسألة الأراضي التي صارت جزءًا من السعودية، وهي عسير (منطقة مدينة جيزان) ونجران. وسعت الصحف المصرية للبرهنة على عائدية هذه الأراضي لليمن.

ضعفت مواقف مصر في الجمهورية العربية اليمنية إلى حد كبير في أواسط عام ١٩٦٥. وأخذ يتزايد في المعسكر الجمهوري نفوذ الجناح المحافظ ذي الميول المناوئة لمصر، والمعتمد على شيوخ القبائل وعلماء الدين وبعض فئات التجار. ولم تتحقق آمال زعماء مصر في حدوث تعقيدات في الوضع السياسي الداخلي للسعودية. وفي اليمن بدأ الملكيون الذين سلحتهم السعودية وإيران يهاجمون، بينما كان الجمهوريون والمصريون يسلمون موقعًا اثر آخر[٩٧].

هكذا كانت الأوضاع في لحظة انعقاد لقاء الرئيس عبد الناصر بالملك فيصل في جدة في ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٦٥، والذي تكلل في ٢٤ من الشهر بعقد أول اتفاقية مصرية سعودية تهدف إلى تسوية النزاع في اليمن. ولم يشارك في المفاوضات الجمهوريون ولا الملكيون[٩٨].

نصت اتفاقية جدة لعام ١٩٦٥ على منح الشعب اليمني حق البت في مسألة نظام الدولة عن طريق استفتاء شعبي على أن يجري في موعد اقصاه ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦، وعقد مؤتمر لجميع القوى الوطنية والساسة المتنفّذين في اليمن وذلك يوم ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٥ في مدينة حرض لصياغة قرار حول نظام الحكم للفترة الانتقالية السابقة للاستفتاء العام، وتشكيل حكومة مؤقتة لإدارة شؤون البلد أثناء الفترة الانتقالية، وتحديد طابع الاستفتاء، وتكليف السعودية ومصر مسؤولية الاشراف على تنفيذ مقررات المؤتمر. وكان ينبغي على السعودية ان توقف فورًا المساعدات العسكرية للملكيين اليمنيين، وتمنع استخدام أراضيها لشن عمليات عسكرية ضد اليمن الجمهوري. والتزمت مصر بسحب قواتها المسلحة من

أراضي اليمن خلال عشرة أشهر ابتداء من ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٥. وتقرر إيقاف العمليات الحربية في اليمن وتشكيل لجنة مشتركة للتسوية السلمية من ممثلي البلدين[٩٩].

ويبدو انه تم في جدة التوصل إلى اتفاق حول عزل الرئيس اليمني عبد الله السلال والإمام البدر عن الحياة السياسية لفترة طويلة. ومما يؤكد هذه التوقعات ان السلال غادر إلى القاهرة والبدر إلى الطائف فور عقد الاتفاقية. وقد افتتح مؤتمر حرض في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٥.

ومنذ أواخر عام ١٩٦٥، بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا ببيع السعودية كميات كبيرة من الأسلحة والطائرات النفاثة، الأمر الذي اعتبره عبد الناصر عملًا معاديًا لمصر[١٠٠].

في أوائل آذار (مارس) ١٩٦٦، استأنف الملكيون العمليات الحربية، فانهوا بذلك الهدنة التي تم الاتفاق عليها في جدة. ولم تكن العمليات العسكرية لمصر والجمهوريين موفقة، فأصبحوا محصورين في مثلث صنعاء ـ تعز ـ الحديدة[١٠١].

وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٦٦، أعلن عبد الناصر عن نيته إبقاء القوات المصرية في اليمن حتى يتعزز الجيش الجمهوري إلى حد يؤهله للدفاع عن بلده[١٠٢]. وفي أول أيار (مايو) ١٩٦٦، أكد عبد الناصر مجددًا ان الجمهورية العربية المتحدة لن تقتصر على ضرب القواعد التي تستخدم ضد اليمن في نجران وجيزان، بل ستحتلها إذا واصلت السعودية عملياتها العدوانية ضد الجمهورية العربية اليمنية[١٠٣].

قام الملك فيصل بزيارة رسمية للولايات المتحدة لمدة ثلاثة أيام ابتدأت في ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٦٦. وعند حلول صيف ١٩٦٦ كانت الأوساط الحاكمة في السعودية قد تمكنت من تحسين علاقاتها مع عدد من الأنظمة الملكية في العالم الإسلامي، وعقد اتفاقيات حول استلام أسلحة وأعتدة بريطانية وأميركية.

تفاقمت الخلافات داخل الجمهورية العربية اليمنية، وفي آب (أغسطس) ١٩٦٦

حاول رئيس وزرائها العمري الحيلولة دون عودة السلال من القاهرة التي كان قد أمضى فيها عشرة أشهر[١٠٤]. وقد قمعت حركة العمري وعاد السلال إلى السلطة.

ظلت العلاقات السعودية المصرية في أوج التوتر. وفي ٩ شباط (فبراير) ١٩٦٧ أغلقت الحكومة السعودية فروع «بنك القاهرة» وبنك «مصر» في جدة. وأصدرت الحكومة المصرية بدورها مرسومًا يقضي بمصادرة كل الأموال المنقولة وغير المنقولة للملك فيصل وأفراد الأسرة الحاكمة في مصر. ووضع الحجز على أموال ٤٠ شركة سعودية و ٣١ من رعايا السعودية[١٠٥].

نهاية المجابهة مع مصر

أحدثت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وهزيمة مصر تغييرًا جذريًا في الوضع داخل اليمن. فقد بدأت مصر منذ ١٢ حزيران (يونيو) سحب قواتها المسلحة ـ ١٥ ألف شخص و ١٥٠ دبابة وكل المدفعية الثقيلة ـ من هناك[١٠٦].

وفي ظروف التنامي المنقطع النظير لمشاعر العداء لإسرائيل في العالم العربي، اضطرت الصفوة السعودية الحاكمة إلى التضامن مع مصر بوصفها ضحية للعدوان الإسرائيلي، وذلك رغبة منها في الحفاظ على سمعتها في العالم العربي والاحتفاظ بالسلطة داخل البلد.

وفي ٣١ آب (أغسطس) ١٩٦٧ ، وأثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي في الخرطوم، وقع الرئيس عبد الناصر والملك فيصل اتفاقية حول التسوية السلمية في اليمن. ونصت الاتفاقية على أن تسحب مصر كل قواتها من اليمن خلال ثلاثة أشهر، وتعهدت السعودية بوقف المساعدات للملكيين.

وفي مؤتمر الخرطوم قطعت الكويت والسعودية وليبيا وعدًا بأن تقدم لمصر والأردن اللتين تضررتا أكثر من غيرهما نتيجة للعدوان الإسرائيلي، مساعدة سنوية مقدارها ١٣٥ مليون جنيه استرليني، خصص ٩٥ مليونًا منها لمصر و ٤٠ مليونًا للأردن. وتعهدت الكويت بدفع ٥٥ مليون جنيه استرليني والسعودية بدفع ٥٠ مليونًا

وليبيا ٣٠ مليونًا[١٠٧]. غير أن السعودية حذرت من أنها لن تنفذ وعدها إلا بعد إنجاز انسحاب القوات المصرية من اليمن.

وفي العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٧ أعلن ان القوات المصرية قد سحبت كلها تقريبًا من صنعاء، وان آخر وحدة سوف تغادر الحديدة في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٧[١٠٨].

وضع انسحاب القوات المصرية الجمهورية العربية اليمنية في موقف صعب لان السعودية واصلت تقديم عون كبير للملكيين، بما في ذلك تدريب التشكيلات العسكرية للقبائل التي تؤازرهم داخل أراضيها. وكانت اتفاقية الخرطوم التي وقعتها مصر بعد نكسة حزيران تعني حل القضية اليمنية وفق الشروط التي املتها السعودية عمليًا. وأدّى انسحاب القوات المصرية إلى تعقيد أوضاع الجمهوريين، وبخاصة الجناح اليساري التقدمي. وأدّى ذلك بدوره إلى تزايد نشاط الملكيين المستندين إلى دعم السعودية التي واصلت نهج خنق حركة الجمهوريين اليمنيين[١٠٩].

العلاقات بين السعودية والجمهورية العربية اليمنية واليمن الجنوبي (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣)

إثر توقيع اتفاقية الخرطوم جرى في الجمهورية العربية اليمنية انعطاف حاد إلى اليمين. في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ غادر السلال إلى بغداد. وفي ليلة الخامس من الشهر بسطت القوى اليمنية سيطرتها على صنعاء والمدن الأخرى. وكان مصير السلال قد تقرر بانسحاب القوات المصرية من اليمن[١١٠].

تسلمت مقاليد السلطة في البلد فئة إقطاعية وعشائرية تسعى للتعاون مع السعودية والدول الغربية. وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ أعلن رئيس الوزراء الجديد العيني ان حكومته موافقة على التفاوض مع ممثلي الملكيين، بمن فيهم عائلة الامام، بشرط الإبقاء على النظام الجمهوري[١١١]. وكان مصير سلالة حميد الدين هو الأشكال المستعصى بين الملكيين والزعماء الجدد في الجمهورية العربية اليمنية.

انتقل الملكيون إلى الهجوم وطوقوا صنعاء. ولما أدرك الجمهوريون ان المسألة صارت مسألة حياة أو موت، شرعوا في مطلع كانون الأول (ديسمبر) بتشكيل فصائل المقاومة الشعبية من الطلاب والموظفين والعمال والحرفيين والتجار. وبلغ عدد المتطوعين عشرين ألفًا فصاروا ركيزة في الداخل الأمر الذي سمح للجيش بتركيز جهوده على الجبهات، كما رفد بوحدات من المتطوعين. استمر حصار صنعاء سبعين يومًا، وذاد الجمهوريون عن العاصمة وأبعدوا الملكيين عنها وانتقلوا إلى الهجوم[١١٢].

ابتداء من شباط (فبراير) ١٩٦٩ لم تعد السعودية تصر على عودة الإمام البدر إلى اليمن. وطرأت على معسكر الجمهوريين تبدلات ترضي الرياض.

وقام رئيس الوزراء العمري بحل فصائل المقاومة الشعبية التي ذادت عن صنعاء في شتاء ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، وضمت أكثر الجمهوريين ثباتًا، وفي أيار (مايو) ١٩٦٨، قام رجال القبائل بتجريد الفصائل من السلاح. وقد قمعت محاولة الانقلاب التي قام بها الجمهوريون اليساريون، ونفي قائدها العسكري عبد الوهاب عبد الرقيب الذي قاد عملية الدفاع عن صنعاء طوال سبعين يومًا. وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٩، عاد عبد الرقيب إلى صنعاء وقام بمحاولة فاشلة أخرى لإزاحة العمري من منصب رئيس الوزراء، وقتل[١١٣].

وأصبح النظام الجمهوري المحافظ في الجمهورية العربية اليمنية خصمًا لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، الأمر الذي كان من مصلحة فيصل، فقرر التخلي عن محاولات إعادة نظام الإمامة، وقلص المخصصات التي تمنح لعائلة حميد الدين.

توقفت العمليات الحربية في شمال اليمن في أواسط نيسان (أبريل) ١٩٧٠، ونصت اتفاقية وقعتها السعودية والجمهورية العربية اليمنية في الشهر المذكور على تخلي الحكومة اليمنية عن العديد من التدابير التي لا ترضي الرياض. وبدأ «تطهير» الجيش وهيئات أمن الدولة في اليمن من العناصر اليسارية، وعاد من السعودية الكثير من الملكيين الذين تبوأ عدد منهم مناصب في هيئات السلطة العليا[١١٤].

في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧٠، اعترفت السعودية رسميًا بالجمهورية العربية

اليمنية[١١٥]، وأعقب ذلك اعتراف بريطانيا بها في ٢٩ من الشهر نفسه[١١٦]. وفي مطلع آذار (مارس) ١٩٧١، وقعت الجمهورية العربية اليمنية والسعودية اتفاقية حول الدفاع المشترك[١١٧].

قام رئيس وزراء الجمهورية العربية اليمنية الحجري بزيارة إلى الرياض في آذار (مارس) عام ١٩٧٣. ونص بلاغ سعودي يمني مشترك صدر في ١٨ آذار على أن الحدود بين البلدين «ثابتة ونهائية» على الرغم من أن معاهدة الطائف المعقودة في ١٨ آذار (مارس) ١٩٣٤ بين الملك ابن سعود والإمام يحيى قد ذكرت ان اليمن وافق على وضع عسير ونجران وجيزان «تحت إشراف» السعودية. كانت فترة المعاهدة ٢٠ سنة، وفي عام ١٩٥٣ وافق الإمام أحمد على تمديد مفعولها لعشرين سنة أخرى. وهكذا فعندما دنا عام ١٩٧٣ موعد انتهاء مفعول المعاهدة، حصلت السعودية على تنازل هام جدًا من الجمهورية العربية اليمنية، بحملها على الاعتراف بأن عسير ونجران وجيزان قد أصبحت من أراضي السعودية بشكل نهائي[١١٨].

ظل النفوذ السعودي هو السائد في الجمهورية العربية اليمنية خلال السبعينيات. وأدّى التقارب مع الرياض إلى تحسن علاقات اليمن الشمالي بالولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية، وإلى إضعاف روابط التعاون مع الاتحاد السوفييتي.

كان اهتمام السعودية في منطقة جنوب الجزيرة متركزا في الأساس على اليمن الشمالي في الستينيات. ولكن الأمور تغيرت بحصول اليمن الجنوبي على الاستقلال عام ١٩٦٧. وبما ان العائلة الحاكمة السعودية اعتبرت شبه الجزيرة بأكمله دائرة لنفوذها، فقد كانت راغبة في المساهمة في اقتسام التركة الاستعمارية البريطانية، خصوصًا وان بريطانيا لم تعارض توطد النفوذ السعودي في مستعمراتها السابقة. ورأت الأوساط البريطانية الحاكمة في النظام الملكي السعودي خير حليف لها في شبه الجزيرة.

لا يستبعد ان تكون الرياض قد خططت لإنشاء اتحاد تابع للسعودية عوضًا عن محميات عدن الشرقية، بل لعلها كانت ترغب حتى في إيجاد منفذ مباشر للمملكة

إلى المحيط الهندي. كما كان من المزمع ان تقدم السعودية مساعدة مالية لاتحاد جنوب الجزيرة المكون أساسًا من إمارات محمية عدن الغربية التي كان الحكام البريطانيون يعتزمون ان يسلموا حكومتها مقاليد السلطة بعد انسحابهم من جنوب اليمن[١١٩].

إبّان المرحلة الأخيرة، وحينما تضافر النضال في سبيل الاستقلال الوطني مع النضال في سبيل التحولات الاجتماعية، اضطر الكثير من الإقطاعيين للهرب إلى السعودية حتى قبل إعلان استقلال اليمن الجنوبي. وتسلمت مقاليد السلطة في جنوب اليمن الجبهة القومية للمنظمات اليسارية ذات الطابع الثوري الاستبدادي. أما رابطة الجنوب العربي وهي المنظمة السياسية للإقطاعيين، فقد اعتبرت غير شرعية، ونقلت نشاطها بأكمله تقريبًا إلى السعودية. وكانت هناك منظمة أخرى مالت تدريجيًا إلى السعودية، وهي جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل، انتقلت إلى الجمهورية العربية اليمنية حيث اتخذت من تعز مقرّا لها.

استغلت السعودية المصاعب الاقتصادية لجنوب اليمن والخلافات داخل الجبهة القومية واستياء القوى اليمنية، لافتعال عصيانات ضد الحكومة. وفي صيف ١٩٦٨ حدثت حركات عصيان في حضرموت وبيحان ومناطق أخرى. واشتد التدخل السعودي اثر ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٦٩، بعد أن تسلم مقاليد السلطة في جنوب اليمن الجناح اليساري للجبهة القومية الذي سار بالبلد في طريق التحولات الاجتماعية السياسية على غرار التحولات السوفييتية.

في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ هاجمت وحدات من الجيش النظامي السعودي نقطة الوادي في حضرموت على الحدود بين السعودية وجنوب اليمن. وقد صدت القوات المسلحة في اليمن الجنوبي الهجوم وردت السعوديين على أعقابهم، غير أن اشتباكات الحدود استمرت[١٢٠].

ساهمت السعودية في إنشاء ما يسمى بـ«جيش الإنقاذ الوطني» من المعارضين الذين فروا من اليمن الجنوبي، على أراضيها المتاخمة لحدود هذا

البلد. وجرت محاربة حكومة الجبهة القومية تحت شعار «إنقاذ البلد من نفوذ الشيوعية الحمراء». وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٧١، اتحدت جبهة تحرير جنوب اليمن ورابطة الجنوب العربي فشكلتا منظمة القوى الوطنية لجنوب اليمن وانبثقت عنها «لجنة إنقاذ جنوب اليمن» التي أقامت صلات مع«جيش الإنقاذ الوطني». وكانت هذه المنظمات تمول من قبل السعودية وتحظى بمساندة سلطلت الجمهورية العربية اليمنية. وقد تسللت فصائلها المسلحة مرارًا إلى أراضي جنوب اليمن في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢[١٢١].

انعقد في آذار (مارس) عام ١٩٧٢ المؤتمر الخامس للجبهة القومية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ـ وهو الاسم الجديد للدولة ـ وانبثق عن المؤتمر التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية. وأعلن المؤتمر عن سعي التنظيم للاستناد في نشاطه إلى مبادىء الاشتراكية العلمية وتشكيل حزب طليعي من طراز جديد. وصار عداء الرياض للقيادة الماركسية في اليمن الجنوبي يتخذ صبغة ايديولوجية واضحة المعالم.

وجرت في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢، حرب حدود واسعة النطاق بين اليمنين، ولكن البلدين اتفقا على إنهاء العمليات الحربية في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر)، أي بعد شهر تقريبًا من بدئها[١٢٢].

ولما تيقنت السعودية من استحالة إسقاط النظام اليساري في جنوب اليمن بالقوة، أقامت معه علاقات دبلوماسية، ولكنها لم تحد عن مواقع العداء لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

العلاقات السعودية البريطانية في الستينيات ومطلع السبعينيات

في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، وافقت السعودية على إحالة قضية البريمي إلى الأمم المتحدة واستأنفت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا[١٢٣]. وقد أرغمت الرياض ولندن على القبول بحلول وسط بفعل ثورة اليمن عام ١٩٦٢ وتنامي حركة التحرر الوطني في شبه الجزيرة العربية بأكمله.

كما أخذ يتغير طابع العلاقات البريطانية الأميركية في شبه الجزيرة العربية. وصار التعاون يحل تدريجيًا محل المقاومة الأميركية لمحاولات بريطانيا استعادة مواقعها في السعودية.

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥، عقدت الولايات المتحدة وبريطانيا اتفاقية مع السعودية التزمت بموجبها بريطانيا بتصدير طائرات نفاثة وأجهزة رادار ومعدات عسكرية أخرى إلى المملكة، بلغت قيمتها الإجمالية ٢٨٠ مليون دولار، بينما التزمت الولايات المتحدة بتصدير صواريخ «أرض ـ جو» بمبلغ ٧٠ مليون دولار. وخطط لإقامة صواريخ في عدة نقاط على الحدود مع الجمهورية العربية اليمنية. وقد يبدو للوهلة الأولى ان احتكارات الصناعة الحربية البريطانية انتزعت من منافسيها الامريكان صفقة مربحة للغاية. أما في الواقع فقد كان ذلك«اتفاق أحباب» يقضي بأن تشتري بريطانيا من الولايات المتحدة طائرات أحدث، وتسدد قيمتها بالأموال التي كسبتها من بيع معدات حربية إلى السعودية(١٢٤).

قام الملك فيصل بزيارة لبريطانيا في أيار (مايو) ١٩٦٧، وكان ذلك دليلًا على حدوث تحسن محسوس في العلاقات بين البلدين.

وبعد أن بدأت بريطانيا بتصدير طائرات حربية من طراز «لايتنينغ» عام ١٩٦٦، أخذت تعد الكوادر لسلاح الطيران السعودي. وأوفد إلى السعودية أكثر من ألف مدرب بريطاني، بينما قبل سعوديون في المعاهد الحربية البريطانية. وابتداء من عام ١٩٦٣ استأنف البريطانيون تدريب الحرس الوطني. واشترت المملكة في الستينيات والسبعينيات ٢٥ مقاتلة نفاثة بريطانية الصنع من طراز «سترايك ماستر»، ووقعت عام ١٩٧٠ صفقة عسكرية أخرى تنص على شراء معدات للدفاع الجوي من بريطانيا.

في مطلع أيار (مايو) ١٩٧٣ وقعت الرياض ولندن صفقة قيمتها ٢٥٠ مليون جنيه استرليني لشراء أصناف جديدة من الأسلحة وطائرات وصواريخ. وتعهد البريطانيون بإرسال الطائرات وإيفاد زهاء ألفين من الفنيين والمستشارين والمدربين. وقد تدرب على يد البريطانيين آنذاك منتسبو سلاح الطيران السعودي ابتداء من الطيارين الذين

تلقوا تعليمهم في المدرسة العليا بالرياض وانتهاء بالفنيين الشباب من معهد الإعداد الفني في الظهران[١٢٥].

غير أن الوفاق البريطاني الأميركي في مجال تصدير الأسلحة لم يدم أمدًا طويلًا. ففي السبعينيات صارت سوق السلاح السعودية المغرية مسرح تنافس ضار بين احتكارات الصناعة الحربية الأميركية والبريطانية.

قضايا الخليج

شهدت فترة الستينيات ومطلع السبعينيات تزايدًا حادًا في نشاط الدبلوماسية السعودية في بلدان حوض الخليج، وبخاصة في إمارات الجزيرة. وكان لذلك عدة أسباب. ففي تلك الفترة تعاظم دور إيران الشاهنشاهية وجبروتها ونفوذها، وكانت السياسة السعودية إزاءها تقوم على الجمع المعقد بين التعاون والتنافس. وقد حددت بريطانيا خطة لجلاء قواتها من منطقة الخليج وشرعت بتنفيذها. وفي هذه المرة أيضًا كانت السعودية من الطامعين بـ «التركة البريطانية» مع مراعاة المخططات الاستراتيجية الأميركية التي كانت تفرد لحوض الخليج أهمية متعاظمة. يقول السفير الأميركي السابق في السعودية ساليفان: «ان السعودية كانت تعتبر، بشكل غير مباشر، ان كل الدول المتاخمة لها، باستثناء العراق، هي ضمن دائرة نفوذها. ولئن كانت تحجم في الفترة الأولى عن التدخل في النزاعات الجارية خارج هذه الحدود، فذلك لأنها لم يكن بوسعها المساس بالمصالح الحيوية الهامة للسعودية»[١٢٦].

جرى في أواسط الستينيات تقارب بين السعودية وإيران بوصفهما نظامين ملكيين لهما مصلحة في قمع الحركات الثورية في الشرقين الأوسط والأدنى، وخصوصًا في حوض الخليج، لمجابهة مصر التي كانت آنذاك قائد السياسة المناوئة للملكية والغربي في المنطقة. وقدم العاهلان، بدرجات متفاوتة، دعمًا للملكيين في اليمن. وفي عام ١٩٦٥، أيد الشاه فكرة «الحلف الإسلامي» التي طرحها فيصل. وتضافرت جهود الرياض وطهران في المساعدة على أحداث انعطاف جذري في سياسة مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر. وحتى بداية السبعينيات صار لاتفاق طهران والرياض

في إطار الأوبك الكلمة الفصل، إذ كانت حصتهما من صادرات النفط الإجمالية تربو على النصف. وعلى الرغم من أن الشاه اتخذ، قولًا، موقفًا أكثر تشددًا في مجال الأسعار، إلا أن العاهلين كانا يجدان الحلول الوسط، وتزعما معسكر «المعتدلين» في أوبك.

أما في حوض الخليج فإن السعودية، التي كانت قدرتها العسكرية تقل خمس مرات أو أكثر عن القدرة الإيرانية، ظلّت تنظر بكثير من الخوف لخطط ونشاطات طهران «الأمبراطورية»، ولكنها لم تصل بالأمور قط إلى حد النزاع أو الاشتباك. وكان حكام الدول الصغيرة المطلة على الخليج في الجزيرة العربية يناورون بين جارتيهم القويتين.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨، قررت حكومة حزب العمال البريطانية إبطال مفعول المعاهدات المعقودة حول محميات البحرين وقطر وإمارات ساحل الصلح البحري السبع (أبو ظبي وعجمان ودبي والفجيرة ورأس الخيمة والشارقة وأم القيوين) وسحب جزء كبير من قواتها من هناك. وفي أول آذار (مارس) ١٩٧١، أعلنت حكومة المحافظين التي استلمت مقاليد الحكم في حزيران (يونيو) ١٩٧٠ أن الجلاء سوف ينجز قبل نهاية عام ١٩٧١[١٢٧].

اتخذت لندن هذا القرار وأخذت تبحث بنشاط عن فرص للحفاظ على نفوذها الاقتصادي والسياسي في المنطقة. ولهذا الغرض طرحت خطة إنشاء اتحاد من الإمارات التسع التي كانت خاضعة للحماية البريطانية.

بيد أن إيران عارضت انضمام البحرين إلى الاتحاد العربي، وأعلنت انها تعتبرها جزءًا من أراضيها. وكانت للملك فيصل علاقات ودية مع أمير البحرين ورفض مطامع إيران في الإمارة. كما كانت إيران والسعودية على خلاف في قضايا أخرى. وذكرت مجلة «ايكونومست» البريطانية ان شاه إيران حاول استمالة الملك فيصل إلى أتباع سياسة موحدة على نحو أوسع نطاقًا في منطقة الخليج، بما في ذلك إقامة تعاون عسكري يجعل السعودية في وضع تابع لايران[١٢٨]. وقد آثر فيصل، بسبب ضعفه عسكريًا، استثمار المساعدة المالية كوسيلة لتعزيز النفوذ السعودي في الإمارات الصغيرة بشبه الجزيرة.

واتفق فيصل مع الشاه في مفاوضات عام ١٩٦٨ على تدقيق حدود الجرف القاري. وفي ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٦٨ وقعت السعودية وإيران اتفاقيات بهذا الخصوص.

أعلن شاه إيران في ربيع ١٩٧١ ان بلاده تتحمل مسؤولية الدفاع عن الخليج بعد انسحاب البريطانيين من هناك[١٢٩]. واعتزمت إيران تثبيت سيطرتها على الخليج عسكريًا دون إقامة اعتبار لرأي العرب.

أخفقت فكرة إنشاء اتحاد من تسع امارات. فقد سعى أميرًا البحرين وقطر إلى الاستقلال، كما ان الحكومة الإيرانية عارضت عمليًا إنشاء اتحاد «الإمارات التسع». لذا قررت بريطانيا تأسيس دولة جديدة تضم إمارات ساحل الصلح السبع، حيث كانت الكلمة الطولى لشيخ أبو ظبي زايد الذي خاصم السعودية بسبب النزاع على البريمي.

وفي ١٤ آب (أغسطس) ١٩٧١، أعلنت البحرين استقلالها، واعقبتها قطر في ١ أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، ورفض البلدان الانضمام إلى الاتحاد. وأرغم ذلك السعودية على البحث عن حل وسط مع أبو ظبي لتسوية النزاع على البريمي.

بعد إعلان استقلال البحرين، تخلت إيران شكليًا عن مطامعها في هذه الإمارة. لذا خفت حدة الخلافات بين الشاه والملك فيصل. غير أن خطط إيران في منطقة الخليج لم تقتصر على البحرين.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١، عقدت اتفاقية بين إيران وإمارة الشارقة ملكت إيران عمليًا جزيرة أبو موسى التي ظلّت من الناحية الشكلية جزءًا من الإمارة. وحصلت إيران على حق إقامة قاعدة عسكرية في الجزيرة على أن تدفع مقابل ذلك لشيخ الشارقة ١,٥ مليون جنيه استرليني سنويًا، ويستمر الدفع لحين بلوغ دخل الشيخ من النفط ٣ ملايين جنيه استرليني سنويا[١٣٠].

وقد أخفقت محاولات إيران لحمل شيخ رأس الخيمة على التخلي عن حقوقه

في جزيرتي طمب الكبرى وطمب الصغرى الهامتين استراتيجيًا والواقعتين في مضيق هرمز عند مدخل الخليج. ولكن حينما أعلنت بريطانيا في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ انها لم تعد تتحمل مسؤولية الدفاع عن إمارات ساحل الصلح البحري، ادخلت إيران قواتها إلى هاتين الجزيرتين، كما هي الحال بالنسبة لجزيرة أبو موسى ويبدو أن طهران ولندن توصلتا إلى اتفاق حيال هذه العمليات. وانتقامًا من بريطانيا لمساندتها إيران في احتلال الجزر، أممت ليبيا ممتلكات «شركة النفط البريطانية» وسحبت ودائعها من البنوك البريطانية. واتهم العراق بريطانيا وإيران بالتواطؤ وقطع العلاقات الدبلوماسية معهما. كما نددت الكويت وسوريا باحتلال إيران للجزر. وفي الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١ طالبت مصر بسحب القوات الإيرانية من الجزر الثلاث، ولكنها لم تمضِ أبعد من ذلك[١٣١].

لقد كان الاستيلاء على الجزر الثلاث ضربة لمصالح السعودية لانه عزز إلى حد كبير مواقع إيران في الخليج، ولكن السعودية لم تشجب رسميًا سياسة الشاه التوسعية[١٣٢]. ويمكن التكهن بأن السعودية كانت تشعر بأنها لا تمتلك ما يكفي من القوة للدخول في مجابهة صريحة مع إيران.

في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١، أعلن عن انبثاق دولة الإمارات العربية المتحدة من أبو ظبي ودبي والشارقة والفجيرة وعجمان وأم القيوين، ثم انضمت إليها رأس الخيمة. وعقدت بريطانيا معاهدة صداقة جديدة مع الإمارات. وصار زايد شيخ أبو ظبي رئيسًا للاتحاد وأصبح حاكم دبي الشيخ راشد نائبًا للرئيس.

لم تقم السعودية طوال سنوات علاقات دبلوماسية رسمية مع دولة الإمارات بسبب خلافها على الأراضي مع أبو ظبي وهو العضو الأكثر نفوذًا في الدولة. بيد أن ذلك لم يمنع من اتخاذ السعودية موقفًا متعاطفًا إزاء الإمارات. وأيد فيصل دولة الإمارات العربية المتحدة عند انتمائها إلى هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. وجرت مفاوضات غير رسمية حثيثة بين السعودية والدولة الجديدة وسائر بلدان شبه الجزيرة

العربية. وحاولت الحكومة السعودية إلا تعطي المبادرة السياسية لايران التي اعترفت بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٢.

أقام فيصل علاقات دبلوماسية مع سلطنة عمان بعد الزيارة التي قام بها السلطان قابوس إلى السعودية في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١[١٣٣]. وبعد مرور فترة من الزمن ـ في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤ ـ سوت السعودية خلافها مع أبو ظبي حول عائدية منطقة اللواء وواحة البريمي، مما مهد الطريق لاعتراف الرياض بدولة الإمارات العربية المتحدة[١٣٤].

صار للسعودية نفوذ كبير في الدولة الجديدة، وبدأت تقدم عونًا ماليًا كبيرًا للامارات غير النفطية. واعتمد عدد من الإمارات على السعودية، في محاولة لمنع التنامي الخطير للنفوذ الايراني.

سعى كل من فيصل والشاه، على الرغم من تناقضاتهما، لقمع الحركة الثورية في منطقة الخليج. وعلى الرغم من أن السعودية كانت مهتمة في تعزيز نفوذها في عمان ذات الموقع الاستراتيجي الهام والتي تجمعها بها حدود مشتركة، فإن فيصل أبدى تحفظًا عندما طلب منه السلطان قابوس العون حينما بلغت حركة الثوار في ظفار اوجها. ولم يكن التدخل السافر في شؤون عمان متماشيًا مع طابع سياسة فيصل. ولكن من جهة أخرى تغاضت الحكومة السعودية عمليًا عن التدخل الإيراني في عمان. ومنذ نيسان (أبريل) عام ١٩٧٣، بدأت هليكوبترات ووحدات برية إيرانية تشارك مشاركة فعالة في المعارك على أراضي ظفار. وبعد ذلك نقلت إلى عمان تشكيلة عسكرية إيرانية كاملة قوامها بضعة آلاف شخص.

واستمرت العمليات العسكرية للقوات الإيرانية بضع سنوات. وفد توقفت الجبهة الشعبية لتحرير عمان، وهي منظمة يسارية ماركسية عن الكفاح المسلح عمليًا. وقد شجبت الحكومة السعودية بعبارات غامضة تصرفات إيران وعارضت «التدخل الأجنبي» في السلطنة، موجهة احتجاجها عمليًا ليس ضد الغزو الإيراني، بل ضد القوى التي ساعدت الجبهة الشعبية لتحرير عمان[١٣٥].

السعودية في الشؤون العربية: من مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ حتى حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣

تم خلال مؤتمر الخرطوم وضع وإقرار مبادىء تنسيق سياسة الدول العربية، وخصوصًا فيما يخص التسوية في الشرق الأوسط. وضعت في الخرطوم صيغة اللاءات الثلاث المعروفة المعبرة عن الموقف العربي المشترك حيال إسرائيل «لا صلح، لا مفاوضات مباشرة، لا اعتراف»، والتي تمسكت بها طوال سنوات جميع الدول العربية بما فيها مصر والسعودية.

استأنفت السعودية العلاقات الودية شكليًا مع مصر عبد الناصر، بعد تقديم تنازلات ملموسة من قبل القاهرة. ولم يعد تناسب القوى كما كان في أواسط الخمسينيات. وأخذت السعودية تتحول من بلد غارق في الديون إلى مصدر للرساميل ومعين لتقديم المساعدة المالية لدول المجابهة العربية. وباسهام أميركي وبريطاني، عززت السعودية قواتها المسلحة المجهزة تجهيزا جيدًا، وان كانت قليلة العدد. وكان على مصر التي استنزفتها حرب اليمن وهزمتها إسرائيل، وفقدت شبه جزيرة سيناء وعوائد قناة السويس، ان تركّز كل جهودها على استعادة قدرتها الدفاعية وتتبع سياسة خارجية أكثر تحفظًا وتقدم تنازلات اضطرارية للسعودية.

غير أن «الوفاق» مع القاهرة كان اضطراريا للرياض أيضًا، لان فيصل لم يعتبر قط الرئيس عبد الناصر حليفًا له، ولم يشاركه آراءه. وعلى الرغم من هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧، فإن العمليات الثورية في بلدان الشرق الأوسط لم تخفت. وتدل على ذلك الانقلابات الثورية في ليبيا والسودان ومحاولات الانقلاب في السعودية نفسها وتنامي حركة المقاومة الفلسطينية. ولذا فإن السعودية لم تبخل بالقوى والمال لدعم النزعات اليمينية في مصر وتعزيز النظام الملكي في الأردن.

أُرسل إلى جنوب الأردن لواء سعودي قوامه ثلاثة آلاف شخص. وكان اللواء بعيدًا عن الجبهة مع إسرائيل، ولكنه قريب بما فيه الكفاية لمساندة الملك حسين. ومن الواضح ان فيصل اعتبر الأردن دولة حاجزة تفصله عن إسرائيل. وعمل فيصل باستمرار على حث الولايات المتحدة وبريطانيا لمساندة الملك حسين[١٣٦].

في أيار (مايو) ١٩٧٠، أحدث جرار عطلًا في أنابيب التابلاين في الأراضي السعودية. وكان هذا بمثابة حافز لنزاع سوري سعودي كاد يؤدي إلى قطع العلاقات وإلى حرب في التجارة والترانزيت(١٣٧). ولكن بعد استلام حافظ الأسد مهمات الرئاسة في أواخر عام ١٩٧٠، استؤنفت العلاقات بين دمشق والرياض وسويت الخلافات فيما بينهما.

ظل الرئيس عبد الناصر الشخصية المحورية في العالم العربي على الرغم من هزيمة ١٩٦٧. وتزايدت التناقضات بين القاهرة والرياض مع استعادة مصر لقدرتها العسكرية. ولم يتمكن المشاركون في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الرباط في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩، حتى من صياغة بيان مشترك. وافهم عبد الناصر انه ليس بوسعه أن يأمل في زيادة المساعدة المالية التي كان يتلقاها من السعودية وليبيا والكويت بموجب قرار مؤتمر الخرطوم في آب (أغسطس) ١٩٦٧(١٣٨).

تغير الوضع بعد وفاة عبد الناصر في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠. فقد صعد الملك فيصل فورًا نشاطه في الصراع من أجل تزعم العالم العربي. وكان من مصلحته ان تتوطد مواقع القوى اليمينية المصرية التي تخلت، خطوة فخطوة، عن مواصلة النهج الناصري. وكانت واشنطن الطامحة إلى استعادة مواقعها المهتزة في العالم العربي بسبب دعمها لإسرائيل. تأمل في ان تكون السعودية وسيطًا لمد الجسور إلى كبريات البلدان العربية وفي مقدمتها مصر التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة عام ١٩٦٧. وكان الرئيس المصري الجديد أنور السادات مهتمًا بالتقارب مع السعودية، آملًا في زيادة المساعدة المالية. وحينما زار الملك فيصل مصر في حزيران (يونيو) ١٩٧١ استقبل استقبالًا حافلًا. وترضية للضيف السعودي أطلق السادات سراح «الإخوان المسلمين». ومنحت السعودية مصر ثلاثين مليون جنيه استرليني، ووعدت بزيادة العون المالي والسنوي وإلغاء التقييدات المفروضة على زيارة رعاياها لمصر(١٣٩).

توطدت علاقات السعودية بنظام السادات. وساعدت على ذلك سياسة التخلي عن النهج الناصري داخل مصر وخارجها، وهي سياسة تعزى في المقام الأول إلى

أسباب داخلية، ولكن الأموال السعودية عملت على تشجيعها. في فترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ اقصي الكثيرون من أوفى أنصار عبد الناصر من مناصب حكومية وحزبية هامة. وظهرت العلائم الأولى لسياسة «الانفتاح» الاقتصادي قبل حرب ١٩٧٣، ممهدة الطريق تدريجيًا لنمو النزعات الرأسمالية.

بالرغم من وجود معاهدة الصداقة والتعاون السوفييتية المصرية المعقودة في ٢٧ أيار (مايو) ١٩٧١، قام السادات في تموز (يوليو) ١٩٧٢ بعمل غير ودي خطير إزاء الاتحاد السوفييتي، إذ طالب باستدعاء الخبراء العسكريين السوفييت من مصر.

وقد تم أثناء زيارة الملك فيصل إلى القاهرة في أيار (مايو) ١٩٧٣ الاتفاق على أن تعتمد السعودية مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه استرليني لإعادة تسليح الجيش المصري. وكان من المؤهل ان تتحمل الكويت وأبو ظبي وقطر جزءًا من المبلغ. وحث الملك فيصل الرئيس السادات على تنويع مصادر السلاح، في محاولة لتقويض التعاون العسكري السوفييتي المصري[١٤٠]. ولكن مثل هذا الانعطاف في السياسة المصرية ما كان يمكن أن يحدث قبل حرب أكتوبر. فلم يكن بوسع مصر، وهي تستعد لخوض حرب ضد إسرائيل، ان تبدأ إعادة تجهيز جيشها حتى وان وجدت مصدرًا آخر للسلاح، لان ذلك كان سيؤدي إلى فقدان قدرتها القتالية.

لقد ساعد التقارب المصري السعودي على تقوية منهج السادات في القطيعة مع الاتحاد السوفييتي والتوجه التام صوب الولايات المتحدة الأميركية.

«الحلف الإسلامي»

في أواسط الستينيات اقترنت السياسة الخارجية المناوئة للغرب (الأمبريالية) في عدد من الأقطار العربية بإصلاحات داخلية ذات صفة اشتراكية وتوجهات نحو البحث عن بنى اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة. وكانت مصر الرائدة على هذا الطريق في الستينيات.

وأصبحت السعودية التي صارت منذ بداية الستينيات في قلب الأحداث السياسية في الشرق الأوسط، المركز الرئيسي لمجابهة مصر عبد الناصر. وشرعت الصفوة الحاكمة السعودية، في محاولة لتقويض نفوذ مصر وسوريا وغيرهما، بالبحث عن سبل وأساليب لرص صفوف البلدان ذات الأنظمة المحافظة «المعتدلة». وكانت فكرة دالاس حول إنشاء احلاف عسكرية تساهم فيها الدول الغربية قد بلغت من سوء السمعة دركاً سحيقًا بحيث لم تجر حتى محاولة بعثها. وكان النظام الملكي لا يحظى بشعبية في غالبية البلدان. وبغية رفع شعارات جذابة لمواجهة فكرة القومية العربية والتضامن العربي المقترنة بالدعوة إلى التحولات الاجتماعية، توجهت السعودية إلى الإسلام.

ان تأثير الإسلام الهائل لم يخفت حتى في دول علمانية «متحدثة» مثل تركيا، وفي أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات بدأت عملية «الانبعاث الإسلامي». وكانت الغالبية الساحقة من الجماهير في البلدان العربية ترى في التقاليد والعادات والمؤسسات الإسلامية شكلًا طبيعيًا لوجودها الاجتماعي ووعيها الاجتماعي. وكان بالإمكان استثمار الدين لأغراض معادية للغرب أو مناهضة للسوفييت على حد سواء. ومن البديهي ان يرى النظام السعودي في الإسلام أداة لمحاربة خصومه داخل البلد وخارجه.

طرح الملك فيصل خطة تأسيس «الحلف الإسلامي» آملًا في جعله نقيضًا للجامعة العربية. وحظيت مبادرة فيصل بتعاطف واشنطن ولندن اللتين كانتا، تقليديًا. تعتبران الدين حائلًا دون انتشار الأفكار الاشتراكية والشيوعية.

زار الملك فيصل إيران في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥. وأثناء مفاوضاته هناك اقترح لأول مرة علنًا عقد مؤتمر قمة إسلامي وأيد الشاه الفكرة. وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦، أعلن الملك فيصل في عمان أثناء زيارته الرسمية للأردن انه سوف تشكل لجنة إسلامية للتحضير لمؤتمر قمة إسلامي[١٤١].

جابه فيصل مصاعب منذ الخطوات الأولى. فقد أثار تأييد فكرة «الحلف

الإسلامي» من قبل الشاه، عدو عبد الناصر وصديق إسرائيل، مخاوف حتى لدى العديد من الملوك العرب. وفي خاتمة المطاف لم يوافق على عقد مؤتمر الدول الإسلامية أحد باستثناء إيران والأردن، أما البلدان الأخرى فقد عارضت مبادرة فيصل[١٤٢].

في ٢٢ شباط(فبراير) ١٩٦٦، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب ألقاه باجتماع جماهيري في جامعة القاهرة ان الإمبريالية والرجعية تقومان بتأسيس الحلف الإسلامي، وانه على غرار حلف بغداد والأحلاف السياسية السابقة، موجّه ضد حركات التحرر الوطني[١٤٣].

شجب فكرة «الحلف الإسلامي» بصيغ مختلفة كل من الجزائر والجمهورية العربية اليمنية والعراق وسوريا والكويت والعديد من البلدان الإسلامية في آسيا وإفريقيا، وعدد من المنظمات العربية والدولية. وتنصل من الفكرة حتى حلفاء إيران في حلف السنتو، فترتب تأجيلها. وحينذاك لجأت السعودية إلى عقد مؤتمرات إسلامية على مستويات مختلفة[١٤٤].

أدّت الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧ إلى بعث خطط تقارب الدول الإسلامية ولكن على أساس جديد تمامًا مهد له تسارع عملية «الانبعاث الإسلامي». فقد شجبت كل البلدان النامية، بصرف النظر عن أنظمتها، احتلال أراض عربية بالقوة، واعتبرت تصرفات إسرائيل صدى للاستعمار القديم بأسوأ أشكاله: تهجير السكان الأصليين من أراضيهم واسكان مستوطنين مكانهم. فقد اعتبرت العمليات الإسرائيلية سابقة خطرة حتى من قبل الدول التي بدا انها بعيدة عن فلسطين ونزاع الشرق الأوسط. وكان حكام البلدان التي يشكل المسلمون أغلبية سكانها يراعون المشاعر الدينية للجماهير التي اعتبرت احتلال إسرائيل لشرقي القدس والمسجد الأقصى تدنيسا للإسلام. أما النظام السعودي القائم على الوهابية والذي يعتمد أحكام الشريعة وينادي بـ «نقاء» الإسلام ويفتخر بأن بلاده مهد الإسلام وانه حامي الحرمين، فما كان بوسعه الاعتراف باحتلال شرقي القدس دون أن يقوض أسّس

وجوده نفسها. وكان تهجير الفلسطينيين من وطنهم يعني إدخال عنصر بلبلة يتمثّل في تواجدهم في البلدان التي حطوا رحالهم فيها، وبينها بلدان تحكمها أنظمة ملكية، ويعزز النزعات الثورية. أما احتلال إسرائيل لسيناء والضفة الغربية فقد كان يعني اقترابها جغرافيًا من السعودية. ولكي يلعب الملك فيصل دور زعيم العالم العربي ويزيد من وزنه ونفوذه في العالم الإسلامي، ويدافع عن المصالح الرسمية للسعودية، كان عليه أن يتخذ موقفًا أكثر وضوحًا في معاداة إسرائيل، وان تغدو نداءاته «التضامن الإسلامي» موجهة ضد خصم محدد.

في آب (أغسطس) عام ١٩٦٩، أُحرق المسجد الأقصى، فدعا الملك حسين إلى عقد مؤتمر لرؤساء الدول والحكومات العربية لتدارس الوضع، ولكن الملك فيصل اقترح عقد مؤتمر قمة إسلامي[١٤٥].

اضطر عبد الناصر لتأييد نداء الملك فيصل، وإن لم يكن مهتمًا على ما يبدو بانعقاد المؤتمر ولم يحضر شخصيًا. ولم تؤيد تركيا ونيجيريا دعوة الملك فيصل وأعلنتا انهما دولتان علمانيتان. كما ان إيران أبدت في البداية تحفظًا وقررت دراسة الوضع وأهداف عقد المؤتمر بمزيد من الدقة والتمحيص[١٤٦].

انعقد مؤتمر القمة الإسلامي في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٩ في الرباط. غير أن الخلافات الجدية بين اعضائه، وبالدرجة الرئيسية بين الدولتين العربيتين المتنفّذتين ـ مصر والسعودية ـ قللت من أهمية المؤتمر. وقبل بضعة أيام من افتتاح المؤتمر اطيح بالملك الليبي في أول أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٩، مما أضعف إلى حد كبير مواقع الأنظمة الملكية في «العالم الإسلامي». وجابه النظام السعودي أيضًا اختبارات عسيرة. فقبل أيام من افتتاح مؤتمر الرباط اعتقل في السعودية أشخاص اتهموا بالإعداد لمؤامرة زعم انه حدد يوم السابع من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩ موعدا لتنفيذها. وكانت محاولة انقلاب أخرى قد أُحبطت في حزيران (يونيو) من العام نفسه.

دعي إلى مؤتمر الرباط ٣٥ بلدًا إسلاميًا. بيد أن ٢٥ بلدًا فقط أرسلت وفودها، علمًا بأن عشرة بلدان فحسب مثلت برؤساء دولها[١٤٧].

غير أن المؤتمرين تمكنوا من إيجاد لغة مشتركة في بعض القضايا، فطالبوا بإعادة وضع القدس إلى ما كان عليه قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وأشار بيان صادر عن المؤتمر إلى أن رؤساء الدول والحكومات وممثليهم يعلنون غن تأييدهم التام للشعب العربي الفلسطيني في استعادة حقوقه المغتصبة وفي نضاله من أجل تحرير الوطن، ويؤكدون تمسكهم بالسلام القائم على الكرامة والعدل[١٤٨].

في ٢٣ ـ ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٧٠، عقد برعاية الملك فيصل في جدة مؤتمر وزراء خارجية البلدان الإسلامية وحضره مندوبون عن ٢٣ بلدا[١٤٩]. وفي ٤ آذار (مارس) ١٩٧٢، عقد المؤتمر الثاني لوزراء خارجية الدول الإسلامية في جدة وشارك فيه ٣١ بلدًا إسلاميًا. وبمبادرة من الملك فيصل أقر المؤتمرون بالإجماع تأسيس صندوق «الجهاد» ضد إسرائيل. وندد المؤتمر تنديدًا شديدًا بموقف الولايات المتحدة المؤيد لإسرائيل. ودعاها إلى الكف عن تقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية لهذا البلد.

إثر الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣ أخذ يتزايد في المؤتمرات الإسلامية الاهتمام بقضايا التعاون الاقتصادي والإجراءات المشتركة ضد أعمال إسرائيل التوسعية العدوانية، ودعم حقوق الشعب العربي الفلسطيني. وبفضل تزايد القدرات المالية للسعودية وما تقدمه من قروض ومنح، تعاظم وزنها في البلدان الإسلامية.

السعودية في منظمة أوبك

درست الحكومة السعودية دراسة دقيقة سوق النفط في العالم، وبدأت تدرك مدى الأرباح الطائلة التي تحصل عليها شركات النفط خارج السعودية، مع وجود مبدأ «المناصفة».

عقد في نيسان (أبريل) ١٩٥٩ أول مؤتمر نفطي عربي حضره ممثلون عن السعودية. وبدأت البلدان المصدرة للنفط تدرك ضرورة القيام بنشاطات جماعية. وقد أثار بالغ القلق لدى هذه البلدان انخفاض الأسعار القياسية. ففي الفترة من عام

١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٠، انخفض السعر القياسي للنفط بالنسبة لرأس تنورة من ٢,١٢ إلى ١,٨٤ دولار عن الطن، مما أدّى إلى تقليص كبير في عائدات البلدان المصدرة للنفط[١٥٠].

في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٠، أسّست في بغداد منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) وضمت العراق وإيران والكويت والسعودية وفنزويلا. وفيما بعد انضمت إليها أبو ظبي وقطر وليبيا والجزائر واندونيسيا ونيجيريا والاكوادور والغابون. وكان الهدف الرئيسي لأوبك في تلك المرحلة رفع أسعار النفط الخام إلى مستوى عام ١٩٥٤، وابقاؤها على هذا المستوى، وإجراء مشاورات بين البلدان والشركات حينما تظهر حاجة لتغيير الأسعار، ومراقبة حجم الإنتاج عند الضرورة.

في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥، وقعت الحكومة السعودية وارامكو اتفاقية التزمت بموجبها الشركة باعتبار بدل الإيجار جزءًا من نفقات الاستثمار التي تحسم من العوائد الاجمالية، على أن تدفع ضرائب عن الجزء المتبقي. وبفضل ذلك ارتفعت حصة السعودية من عوائد تصدير النفط الخام وتعدت نسبة الـ ٥٠٪ [١٥١].

حينما كان ثمة فائض نسبي في أسواق النفط العالمية، والمشتري وليس البائع هو الذي يملي شروطه، اقتصر أعضاء أوبك على تقديم مطالب معتدلة. ولكن تجمعت لديهم عامًا اثر عام خبرة العمل المشترك التي بينت مدى ما يعود به تضافر الجهود من منافع.

في عام ١٩٦٩، اقترحت الحكومة الجمهورية في ليبيا على أصحاب الامتياز زيادة حصتها من الأرباح من ٥٠٪ إلى ٥٤ ـ ٥٥٪. ولما رفض الطلب قلصت عام ١٩٧٠ حجم الاستخراج المسموح به. وبسبب تعطل قناة السويس ونسف الفدائيين الفلسطينيين لأنابيب النفط المارة عبر الجزيرة العربية، لم تتمكن الشركات العالمية من مقاطعة النفط الليبي الذي كان يشكل زهاء خمس استهلاك أوروبا الغربية، فأعلنت استسلامها. وأحدث انتصار ليبيا سلسلة من ردود الفعل، فارغمت بلدان الخليج الشركات على أن تدفع لها نسبة مماثلة من الارباح[١٥٢].

عندما بدأت البلدان الخليجية الأعضاء في أوبك مفاوضات مع شركات النفط في طهران في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١، كانت تشكل مجموعة موحدة. وكانت أحوال السوق العالمية تميل أكثر فأكثر لصالح البلدان المصدرة. وقد أيدّت السعودية، التي كانت واشنطن ولندن تأملان منها العون، مطالب سائر أعضاء أوبك. فاضطرت شركات النفط إلى الموافقة على تنفيذ أكثرية المطالب المقدمة من بلدان الخليج الستة المصدرة للنفط[١٥٣].

وقد وقعت في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٧١ عام ١٩٧١ في طهران اتفاقية بين البلدان الخليجية الأعضاء في أوبك وشركات النفط منحت عمليًا حق الإشراف على الأسعار القياسية للبلدان المصدرة للنفط.

بينت اتفاقيات طهران ان أعضاء أوبك قد حققوا الأهداف المطروحة عام ١٩٦٠. ولكن ظلّت معلقة مسألة مساهمة حكومات البلدان المصدرة للنفط في ممتلكات ونشاط الشركات، الأمر الذي لو تم لعنى حدوث تغير جذري في العلاقات بين الطرفين. وفي ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ بدأت مفاوضات بهذا الخصوص بين أوبك وشركات النفط. وكان أمام حكومات الدول المصدرة للنفط ثلاثة سبل لتغيير اتفاقيات الامتياز: التأميم الشامل، أو تقليص فترة الامتياز، أو تعديل الاتفاقيات القائمة بأن يضاف إليها مبدأ الاسهام الجزئي الذي يؤدي تدريجيًا إلى التملك التام للصناعة النفطية.

اختارت الرياض السبيل الثالث وأصبح وزير النفط السعودي الشيخ أحمد زكي اليماني الممثل الرئيسي لأوبك في المفاوضات مع شركات النفط العالمية[١٥٤].

واتفقت الحكومة السعودية مع أرامكو على أن تتسلم الحكومة تدريجيًا ٥١٪ من أسهم الشركة.

عند حلول السبعينيات كانت العلاقات بين السعودية، بوصفها من كبار أعضاء أوبك وأول مصدر للنفط في العالم، وبين شركات النفط، قد خرجت عن الإطار الاقتصادي البحت للخلاف على نسبة الأرباح من بيع النفط الخام. فقد أصبحت

جملة القضايا المتعلقة بالنفط ـ ابتداء من الإشراف على استخراجه ونقله وانتهاء بتسويقه وأسعاره ـ من القضايا الأساسية في السياسة العالمية. وتزايدت باطراد أهمية القضية النفطية في السياسة الخارجية الأميركية، وذلك ابتداء من «مشروع مارشال» ومرورا بازمة النفط الإيرانية وأزمة قناة السويس ووقف تصدير النفط في ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ والمقاطعة النفطية عام ١٩٧٣، وانتهاء بالقفزة الجديدة التي سجلتها أسعار النفط في أواخر السبعينيات. وبغية إبقاء بلدان الشرق الأوسط المنتجة للنفط في فلك الولايات المتحدة الأميركية، أنفقت واشنطن مليارات الدولارات وأنشأت ماكنة إدارية عسكرية ضخمة على نطاق العالم كله، ونسقت مع شركات النفط المتعددة الجنسيات وأقامت ممرات في المحيط لاساطيل الناقلات وخرقت قوانين حظر الاحتكار الأميركية نفسها.

في الخمسينيات كانت سيطرة الولايات المتحدة على نفط حوض الخليج توفر ارباحا للشركات وتبقي في أيدي واشنطن الخرطوم النفطي الذي يغذي اقتصاد بلدان العالم غير الاشتراكي. وفي عام ١٩٥٩ حدد الرئيس الأميركي أيزنهاور كمية النفط المستوردة من الشرق الأوسط بـ ٢,٥٪ من الاستهلاك الأميركي[١٥٥]. وكان الاقتصاد الأميركي آنذاك غير خاضع عمليًا لهذا المصدر النفطي، الاّ أن منطقة الشرقين الأوسط والأدنى كانت تكتسب أهمية استراتيجية متزايدة في مخططات الحكومة الأميركية المعادية للاتحاد السوفييتي.

أصبحت الولايات المتحدة في السبعينيات المستورد الرئيسي للنفط في العالم. وبطبيعة الحال تنامى دور السعودية القادرة على إبقاء استخراج النفط على مستواه أو حتى زيادته. وقد استعرضت السعودية نفوذها أثناء الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣.

«سلاح النفط»

أحست الرياض إحساسًا واضحًا بتناقض وتذبذب النهج الأميركي في الشرق الأوسط. فقد كانت واشنطن من جهة تسعى لضمان «أمن الولايات المتحدة في

مجال الطاقة» ومصالح شركاتها، والسيطرة على صادرات النفط من الشرق الأوسط إلى حليفاتها في أوروبا الغربية واليابان، الأمر الذي يقتضي تعزيز العلاقات مع البلدان العربية، أو على الأقل المحافظة منها حيث توجد احتياطات النفط الرئيسية، وخصوصًا السعودية. ومن جهة أخرى قدمت واشنطن المساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية لإسرائيل ونهجها العدواني التوسعي، الأمر الذي قوض أساس العلاقات الوثيقة مع الدول العربية.

ان الحكومة السعودية، حينما أحسّت بوزنها المتعاظم في عالم النفط والمال، أخذت تطمح إلى زعامة العالم العربي، الأمر الذي تطلب بالضرورة اتباع سياسة معادية لإسرائيل. وكانت مهمة تحرير شرقي القدس متماشية ليس مع الأهداف الدعائية والسياسية الخارجية فحسب، بل ومع مقتضيات تدعيم النظام من الداخل، بوصفه «حامي الحرمين» الذي يؤكد ان القرآن دستوره. لذا فإن الحكومة السعودية، مع حاجتها الماسة إلى دعم الولايات المتحدة والتعاون الواسع النطاق معها، اضطرت إلى الإعلان عن مجابهة مع واشنطن في النزاع العربي الإسرائيلي.

في السادس من تموز (يوليو) ١٩٧٣، قال الملك فيصل في حديث مع صحفيين أميركيين في جدة، انه سيكون من الصعب على السعودية مواصلة التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة، إذا واصل الامريكان دعم إسرائيل. وقبل بضعة أسابيع من ذلك تلقى المساهمون في أرامكو تحذيرًا من الملك يقول ان السعودية سوف تجمد استخراج النفط على مستوى واحد إذا لم تغير الولايات المتحدة سياستها إزاء إسرائيل[١٥٦].

في الأسابيع والأشهر التي سبقت حرب أكتوبر حذر فيصل الحكومة الأميركية مرارًا من أن تأييد واشنطن لإسرائيل قد يخرب العلاقات السعودية الأميركية واكتسبت لهجة الحكومة السعودية شدة متزايدة. ودعت السعودية واشنطن إلى الضغط على إسرائيل وحملها على تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧ (الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة في حزيران

(يونيو) ١٩٦٧)، وإلّا فإن الولايات المتحدة سوف تواجه عقبات تقليص تصدير النفط(١٥٧).

لم تأخذ الولايات المتحدة وأوروبا الغربية هذه التحذيرات على محمل الجد(١٥٨). فقد كانت المقاطعتان النفطيتان عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧ ضئيلتي المردود. ولكن العرض كان آنذاك أكثر من الطلب، ولدى الاحتكارات احتياطي هائل من الوقود السائل. وعلاوة على ذلك كان بوسع الولايات المتحدة حينذاك الاستغناء عن استيراد النفط. أما في مطلع السبعينيات فقد تغير الوضع تغيرًا جذريًا.

المحت الحكومة السعودية في صيف ١٩٧٣ إلى انها ستؤيد مصر عند نشوب حرب جديدة مع إسرائيل.

بدأت الحرب العربية الإسرائيلية الجديدة في السادس من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣. وفي الأيام الأولى قام الجيشان المصري والسوري بعمليات ناجحة، وبعد ذلك بدأ الإسرائيليون هجومًا مضادًا ولكنهم لم يفلحوا في إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية. وفي ظروف الشرق الأوسط الملموسة كان عدم إحراز النصر معادلًا بالنسبة للإسرائيليين للهزيمة، أو على الأقل الهزيمة السياسية.

تمكنت الدول العربية من اظهار التضامن، على الرغم من اختلاف انظمتها. وساهمت وحدات عراقية مساهمة فعالة في المعارك على الجبهة السورية. وأرسلت الأردن والمغرب وتونس والسعودية والكويت والجزائر إلى بلدان المجابهة قطعات عسكرية وان كانت رمزية في الغالب. وقررت السعودية وليبيا زيادة المساعدة المالية لمصر وتقديم عون لسوريا، لتعويض البلدين عن الخسائر المالية الاقتصادية التي سببتها الحرب.

في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣، أي في اليوم الثاني للحرب، أرسل وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر برقية إلى الملك فيصل يدعوه فيها إلى إقناع مصر وسوريا بوقف العمليات الحربية. ورد فيصل بأنه يؤيد مصر وسوريا تأييدًا تامًا،

ودعا واشنطن إلى بذل الجهود لحمل إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي **تحتلها**[159].

وفي التاسع من تشرين الأول استدعت الحكومة السعودية كل منتسبي القوات المسلحة من الإجازات وأعلنت حالة التأهب في الجيش[160]. وفي ١٤ من الشهر المذكور أرسلت السعودية وحدة عسكرية لمساعدة سوريا[161].

الفصل الثامن عشر

الوضع الداخلي والسياسة الخارجية في السبعينيات ومطلع الثمانينيات

عقد وزراء النفط في عشرة بلدان عربية اجتماعًا في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ اتخذوا فيه قرارًا بتقليص استخراج النفط بنسبة لا تقل عن ٥٪ شهريًا حتى تتم تسوية النزاع في الشرق الأوسط. وفي الواقع قلصت السعودية والكويت الإنتاج بنسبة ١٠٪ دفعة واحدة.

ولما أقامت الولايات المتحدة «جسرًا جويًا» لتزويد إسرائيل بالسلاح عمدت السعودية وسائر الأقطار العربية إلى اتخاذ إجراءات أكثر حزمًا. ففي ٢٠ ـ ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) أعلنت البلدان العربية تباعًا عن وقف ضخ النفط إلى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى هولندة التي اتخذت موقفًا مواليًا لإسرائيل. كما فرض الحظر على تصدير النفط الخام لمعامل التكرير التي تصدر مشتقات النفط إلى الولايات المتحدة أو تبيعها إلى الأسطول البحري الحربي الأميركي.

إلى جانب مؤتمر وزراء النفط العرب، التقى في الكويت ممثلون عن البلدان المصدرة للنفط في منطقة الخليج، بما فيها إيران، وتم الاتفاق على زيادة السعر القياسي للنفط بنسبة ٧٠٪ تقريبًا، وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ تقرر بعد اجتماع طهران مضاعفة السعر الجديد. وخلال الفترة الممتدة من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣، إلى كانون الثاني ١٩٧٤ ارتفعت الأسعار القياسية والعائدات الفعلية

للبلدان المصدرة للنفط، ومن ضمنها السعودية، خمس مرات. وعلاوة على فرض الحظر قام العراق بتأميم حصة الولايات المتحدة وهولندة في «شركة نفط البصرة». لقد وضعت المقاطعة النفطية الولايات المتحدة في مأزق صعب، إذ كانت تستورد من البلدان العربية في النصف الأول من عام ١٩٧٣ ما يربو على ربع وارداتها الإجمالية من النفط. وكانت المشاكل أكبر بالنسبة لأوروبا الغربية واليابان.

ففي مطلع السبعينيات كانت بلدان الشرقين الأوسط والأدنى تصدر لليابان تسعة اعشار النفط الذي تستهلكه ولأوروبا الغربية ٨٥٪.

في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣، قررت عشر دول عربية مصدرة للنفط تخفيض الإنتاج في شهر كانون الأول (ديسمبر) بنسبة ٢٥٪ مقارنة بشهر أيلول (سبتمبر). وجاء رد فعل أوروبا الغربية دون إبطاء. ففي صباح السادس من تشرين الثاني دعت حكومات البلدان «التسعة» إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن حول العمليات الحربية وكذلك القرار رقم ٢٤٢ بكل بنوده، بما في ذلك الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ . وصدر بيان مماثل عن اليابان.

بيد أن الكثير من الدول العربية المصدرة للنفط أخذت، بعد توقف العمليات الحربية، تعارض التقييدات المفروضة بحجة انها تلحق الضرر ببلدان صديقة للعرب.

وفي مطلع كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣، قرر أعضاء منظمة البلدان العربية المصدرة للنفط (أوابك، تأسست عام ١٩٦٨) المجتمعون في الكويت إلغاء القرار القاضي بتقليص استخراج النفط بنسبة ٥٪ في شهر كانون الأول. وعزي القرار إلى الرغبة في تحسين أوضاع البلدان الأعضاء في الجماعة الاقتصادية الأوروبية التي اتخذت موقفًا وديًا حيال العرب. كما أشار البلاغ الصادر عن اجتماع الكويت إلى أن الدول الإفريقية والإسلامية سوف تحصل على النفط وفق العقود المتفق عليها. واستمر لفترة من الوقت حظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وهولندة.

في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣، قررت البلدان العربية المنتجة للنفط في مؤتمرها الدوري بالكويت زيادة استخراج النفط في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤

بنسبة ١٠٪ وتصدير النفط بالكميات السابقة إلى اليابان وبلجيكا، وبريطانيا، وفرنسا، واسبانيا، والفليبين، كما جرت الإشارة إلى أن استخدام البلدان العربية سلاح النفط لم يمارس تأثيرًا ملموسًا على الوضع الاقتصادي للولايات المتحدة وسائر البلدان المعادية للعرب، ولم يغير سياستها.

نزولًا عند اصرار السعودية الغي حظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة في ١٨ آذار (مارس) ١٩٧٤. وبذا كانت الغلبة لنزوع السعودية إلى التعاون الاقتصادي والسياسي والعسكري المتعدد الجوانب مع الولايات المتحدة.

إن استخدام« سلاح النفط» خلال حرب أكتوبر وبعدها وازدياد القدرة المالية للسعودية عدة اضعاف بفضل ارتفاع أسعار النفط، قد جعلا من المملكة زعيمًا للدول العربية المحافظة. وساعد الملك فيصل على مد الجسور بين مصر والولايات المتحدة وإحداث انعطاف كامل في سياسة مصر الخارجية وتعزيز القوى اليمينية داخلها. وساعدت السعودية على تعزيز القوى المناوئة للاتحاد السوفييتي في كل منطقة الشرقين الأوسط والأدنى، بل حتى خارجها.

بيد أن أتباع السياسة الخارجية بمساعدة دفتر الصكوك فحسب، قد بين من جهة أخرى ضعف السعودية لانه لم يكن مسنودًا بالقدرة العسكرية أو بالكوادر اللازمة لتنفيذ المهمات المرسومة.

وقد تأثر التعاون مع الولايات المتحدة والغرب بفعل التناقضات في التعامل مع إسرائيل، وبالمشاعر العميقة لسكان السعودية. وقد مرت علاقات السعودية بالولايات المتحدة بفترة أزمة في أواخر عام ١٩٧٤ ومطلع عام ١٩٧٥، حينما أخذ الرئيس الأميركي فورد ووزير الخارجية كيسنجر ووزير الدفاع شليسنجر ووسائل الاعلام، يتحدثون عن احتمال احتلال الولايات المتحدة لحقول النفط على الساحل العربي للخليج.

وترتب على واشنطن بذل جهود كبيرة لإقناع السعودية بعدم وجود خطط محددة من هذا القبيل. والتقى كيسنجر بالملك فيصل في ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٥.

وتظاهرت الحكومة السعودية بأنها تثق بوعود واشنطن. هذا علمًا بأنه لم يكن لدى الأسرة المالكة أي مخرج آخر.

بدا ان وضع الملك فيصل داخل البلد مكين، وان هيبته ارتفعت بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣، ولكن على الرغم من ذلك أخذت تتسرب إلى الصحافة خارج السعودية شائعات حول خلافات داخل العائلة المالكة. وجاءت الضربة من جهة غير متوقعة.

في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٥، وأثناء استقبال الملك للمهنئين بالعيد أطلق فيصل بن مساعد، ابن أخ الملك الذي عاد لتوه من الولايات المتحدة حيث أمضى عدة سنوات في المدارس والجامعات، أطلق النار من المسدس على عمه وأرداه قتيلًا ولا يستبعد ان تكون لهذه الجريمة دوافع شخصية. فالأمير الشاب قد عقد قرانه على إحدى بنات الملك الراحل سعود. وتنتسب امه إلى آل رشيد. وقتل رجال الشرطة أخاه، وهو من المتعصبين دينيًا، أثناء مظاهرة احتجاج على افتتاح محطة التلفزيون في الستينيات. ويذهب رأي آخر إلى أن ابن مساعد كان مختلًا عقليًا. بيد أن هناك رأيًا مفاده إن وراء القاتل يدًا أميركية أوحت بالعملية انتقامًا من فيصل لمشاركته في المقاطعة النفطية، ولكي يكون ذلك تحذيرًا لسائر أفراد العائلة المالكة. وعلى أي حال لم تعلن الدوافع الحقيقية للجريمة وأُعدم ابن مساعد.

بويع خالد ملكًا وأصبح رئيسًا للوزراء. وقام بصياغة السياسة الداخلية والخارجية ولي العهد الأمير فهد الذي صار النائب الأول لرئيس الوزراء واحتفظ مؤقتًا بمنصب وزير الداخلية. وأصبح قائد الحرس الوطني الأمير عبدالله، بينما أسندت وزارة الدفاع والطيران إلى الأمير سلطان شقيق فهد.

لم يكن بين الأحداث الداخلية خلال السنوات الأربع التي أعقبت اغتيال فيصل، ما يشير إلى خطر على الاستقرار. إلا أن المعارضة داخل المجتمع السعودي أخذت تنضج.

كان تأسيس الحزب الشيوعي في السعودية عام ١٩٧٥ يعني ظهور جماعة

معارضة أخرى من اليسار. صحيح انها لم تكن تتمتع بنفوذ فعلي إلا أنها استهدفت توحيد وقيادة العمال والفلاحين الفقراء، والبدو والحضر والفئات الديمقراطية من المثقفين والطلبة.

ومع نهوض الحركة المناوئة للشاه والمعادية للغرب في إيران، والتي ارتدت صبغة دينية، ظهرت في السعودية أيضًا كتل وتنظيمات تعادي النظام من مواقع «الإسلام الخالص» وهي التي تزعمت الحركات الشعبية المعادية للحكومة في خريف ١٩٧٩.

منذ آب (أغسطس) ١٩٧٩، نما إلى علم السلطات السعودية ان خلايا سرية تشكلت في الجيش النظامي وان أسلحة تهرب إلى البلد، وان مظاهر الاستياء تلاحظ في أوساط الأمراء الشبان. ولقطع دابر تهريب الأسلحة إلى البلد حظرت السلطات السعودية مرور قوافل الشاحنات المحملة بالبضاعة والقادمة من لبنان وسوريا، عبر أراضي المملكة.

في أيلول (سبتمبر) شددت الحكومة إجراءات الأمن. واعتقل عدد من ضباط الطيران والدبابات والمشاة. وزعم ان عشرة أمراء شباب من العائلة السعودية الذين اشتبه بأن لهم نزعات راديكالية، قد تم استدعاؤهم من قبل الملك والأمراء المقربين إليه بغية استجوابهم.

جرت حملة الاعتقالات الثانية بعد توزيع عدد كبير من المنشورات في البلد في شهر أيلول (سبتمبر). ودعا بعض المنشورات للعودة إلى التمسك بأهداب الدين الإسلامي، بينما دعا البعض الآخر إلى الإطاحة بـ«الحكام المستبدين العملاء» وطالبت منشورات أخرى بطرد جميع الأجانب من المملكة. ولم تفلح السلطات في تحديد هوية كاتبي المنشورات أو موزعيها، بيد أن ذلك جعل الجو يتكهرب. وفي الأسبوع الأخير من أيلول (سبتمبر) أعلن إنذار أولي في الحرس الوطني والجيش النظامي. بدأت الاضطرابات المناوئة للحكومة في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) في الحجاز. فقد داهمت فصائل مسلحة صغيرة من المنتفضين بشكل مفاجئ القوات الحكومية واحتلت مواقع على الطرق المؤدية إلى المدينة المنورة. وبدأ التململ في

أفخاذ من قبائل قحطان وعتيبة ويماني التي كانت الأسرة المالكة قد استولت على جزء من أراضيها.

وسيطر المنتفضون على جزء كبير من الأراضي الممتدة بين مكة والمدينة. وثمة معلومات تفيد بأن جنودًا من الجيش النظامي والحرس الوطني انخرطوا في صفوف المنتفضين يوم ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر). وقدر عددهم الإجمالي بثلاثة آلاف وخمسمائة شخص.

قسم زعماء الحركة قواتهم إلى طابورين اتجه أحدهما إلى مكة والثاني إلى المدينة . غير أن قوات موالية للنظام كانت ترابط في المدينة وضواحيها. صدت هجوم المنتفضين يوم ٢٠ تشرين الثاني. وتفيد بعض المعلومات أن عدد القتلى في المدينة ربا على ٢٥٠ شخصًا.

أما في مكة فقد أخذت السلطات على حين غرة. وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩، الذي يوافق اليوم الأول من القرن الخامس الهجري، استولى المنتفضون على المسجد الحرام.

وأعلنت منظمة «حركة الثوار المسلمين في شبه الجزيرة العربية» التي لم تكن معروفة آنذاك أنها تتولى قيادة الانتفاضة. وأعلن الزعيم الروحي للمعارضين وهو محمد القحطاني الذي قال عن نفسه أنه «المهدي» المنتظر، أن هدف الحركة يتمثل في «تطهير الإسلام» و «تحرير البلد من زمرة الكفار: العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة».

أما الزعيم السياسي فهو جهيمان العتيبة البالغ من العمر ٤٧ عامًا.

وقد سجلت خطبه التي إذاعتها مكبرات الصوت المثبتة على سطح المسجد، على شرائط كاسيت ووزعت بين السكان. وقد صب جهيمان اللعنات على «المدنية الغربية» التي تقوض كيان المجتمع السعودي وقيمه، وندد بـ «نفاق» الحكومة التي تدعي، من جهة، أنها مركز الدين الحنيف في العالم، ولكنها من الجهة الأخرى تناصر «الظلم والفساد والرشوة». وندد جهيمان بالأمراء الذين «يستولون على الأراضي»

و«يبذرون أموال الدولة» و«بالسكيرين» الذين يحيون «حياة الفسق والفجور في أفخم القصور». ودعا للعودة، بزعامة المهدي، إلى النظام السائد في صدر الإسلام الذي قال عنه انه كان «العصر الذهبي»، عصر العدل والمساواة.

ولم يكن بوسع العائلة القبول بشروط المنتفضين، إذ أنها تضمنت مطالب بإقصاء عدد من كبار الأمراء عن مناصبهم وإعادة النظر في شروط استخراج وتسويق النفط (في البداية طالب المنتفضون بوقف بيع النفط إلى الغرب عمومًا) والعودة إلى أحكام الإسلام «الخالص» وطرد جميع المستشارين العسكريين الأجانب من البلد.

عاد ولي العهد الأمير فهد من تونس وأصر على قمع الانتفاضة بالقوة.

واستمرت المقاومة الضارية التي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعين وأدّت، كما تقول السلطات، إلى مصرع عشرات الأشخاص، بينما بقول شهود العيان ان القتلى كانوا يعدون بالمئات. وكان بين القتلى «المهدي» نفسه، أما الزعيم السياسي للحركة جهيمان العتيبة فقد أُعدم مع ٦٢ من رفاقه في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ .

وكان بين من أُعدموا، علاوة على السعوديين، مصريون ويمنيون وكويتيون وعرب آخرون.

أثناء الصدامات في مكة بدأ التململ بين أوساط الشيعة في المنطقة الشرقية.

وآنذاك رابط ١٢ ألفًا من جنود الحرس الوطني حول حقول النفط.

كان الشيعة يقطنون أهم منطقة استراتيجية في البلد (عددهم ٣٠٠ ـ ٣٥٠ ألف نسمة). وقد أصبحوا جزءًا من الطبقة العاملة قبل بضعة عقود، وأسّسوا نقابات سرية وتزعموا المظاهرات والإضرابات السياسية (وخصوصًا المناهضة للأمريكان).

وتعرّض الشيعة إلى الاضطهاد بسبب انتمائهم إلى تيار إسلامي يعتبره حكام الرياض زندقة.

وخلافًا لأوامر الحظر الحكومية، قرر الشيعة الاحتفال بيوم عاشوراء في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر). وحاول الحرس الوطني منع المواكب الدينية بالقوة.

وعندها تدفقت جموع تحمل صور الخميني على القطيف وسائر مدن المنطقة الشرقية، وأخذت تهاجم الثكنات العسكرية. وأحرق المتظاهرون المصانع والبنوك وهتفوا بشعارات معادية للملك. ووزعت منشورات تهيب بالشعب إلى إسقاط «نظام الاستبداد» وإعلان الجمهورية.

واستمرت الاضطرابات ثلاثة أيام ورد الحرس الوطني بعنف، ويقول شهود العيان إن عشرات من المتظاهرين قتلوا أو جرحوا.

بعد فترة من الارتباك الناجم عن تحركات الشيعة وانتفاضة مكة، شرعت الحكومة باتخاذ إجراءات تهدئة وتنكيل في آن واحد. فقد أُقصي عدد من كبار الضباط وبينهم قواد الأصناف الثلاثة للقوات المسلحة وستة من كبار ضباط الأمن بسبب تساهلهم أو عدم أهليتهم، كما نحي حاكم مكة. وسارع خالد وفهد وسواهما من كبار الأمراء إلى زيارة المتنفّذين من شيوخ القبائل وتفقد القواعد العسكرية. وطرد من البلد آلاف من العمال الأجانب «المشتبه بهم». وفي ١٧ كانون الأول (ديسمبر) اختطف زعيم المعارضة اليسارية ناصر السعيد الذي خرج سرًا إلى بيروت، ولم يعد له أثر منذ ذلك الحين.

استدعي الطلبة الموفدون للدراسة في الخارج على الرغم من أن السنة الدراسية كانت في منتصفها.

وبغية تهدئة علماء الدين أغلقت صالونات حلاقة النساء والنوادي النسائية.

وسرحت مذيعات التلفزيون على الرغم من احتشامهن في الملبس . وصدرت تعليمات جديدة تحظر على الفتيات مواصلة الدراسة في الخارج.

ونزولًا عند مطالب «الإصلاحيين» والتكنوقراطيين والموظفين وممثلي «الفئات الوسطى» الراغبين بالمشاركة في السلطة، أعلن ولي العهد فهد عن الشروع في وضع «قانون أساسي» ينص على تعيين مجلس شورى.

إلى أمد غير بعيد، كان الزعماء الأميركان الذين أرعبهم شبح الثورة الإيرانية، يخشون من أن «انفتاح» النظام السعودي، أي تكييف المؤسسات السياسية المهترئة

للتحولات الاجتماعية الاقتصادية، يمكن أن يتم بعد فوات الأوان. وهذا ما أعلن عنه لمجلة «نيوزويك» الأسبوعية وصحيفة « واشنطن ستار» في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ أحد موظفي وكالة المخابرات المركزية. كما أن زلة لسان أدّت بهذا الموظف إلى إيراد عبارة قالها جيمس كارتر رئيس الولايات المتحدة آنذاك ومفادها انه «لا يمكن ضمان استمرار وجود النظام السعودي إلا على امتداد السنتين القادمتين فقط». وقد أدّى تسرب هذه وغيرها من المعلومات السرية إلى طرد معتمدي وكالة المخابرات المركزية الأميركية من السعودية على رؤوس الأشهاد.

جرى توسيع وتعزيز أجهزة الأمن السعودية، ولعب دورًا كبيرًا في هذا المجال المستشارون الذين أوفدتهم إلى الرياض وكالة المخابرات المركزية الأميركية ومخابرات جمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا. وأغدقت الخيرات على منتسبي الجيش النظامي والحرس الوطني. فقد ازدادت رواتبهم مرتين خلال بضعة أشهر.

وتغاضت السلطات عن النشاط «التجاري» الذي مارسه الكثير من الضباط.

وعلى سبيل الحذر والحيطة وزعت القوات النظامية على امتداد الحدود وابعدت وحدات الدبابات عن المدن، وكانت الذخائر توزع بكميات ضئيلة للغاية.

في ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠، نظم الشيعة في مدن وقرى المنطقة الشرقية مظاهرة سلمية ذات طابع مناوئ للحكومة.

وفي ١٧ من الشهر نفسه، جرت مظاهرة أخرى في القطيف. وفي ٢ شباط (فبراير) ١٩٨٠، تجددت في القطيف الاضطرابات وخرجت مظاهرات تحمل شعارات خمينية، ووقع عدد من القتلى والجرحى.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠، جرت في السعودية تدريبات ومناورات مصرية أميركية مشتركة، كانت جزءًا من مناورات أوسع في المنطقة.

حلت في البلد فترة هدوء بعد الأحداث العاصفة في أواخر عام ١٩٧٩ ومطلع عام ١٩٨٠ . ولم يعد الصراع السياسي بالحدة السابقة.

في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، توفى الملك خالد إثر نوبة قلبية، وقد انتقلت السلطة إلى ولي العهد فهد دون مشاكل، وأصبح عبد الله أخوه لأبيه وليًا للعهد.

وعلى الصعيد الدولي ظلّت العربية السعودية مرتبطة أوثق ارتباطًا بالولايات المتحدة. فإن هيمنة الرأسمال الأميركي على صناعة استخراج النفط في البلد (وان كانت قد أصبحت على أساس المقاولة شكليًا) واعتماد المملكة على السلاح الأميركي والحاجة إلى تأييد الولايات المتحدة لإبقاء النظام نفسه وتأثير التقلبات الاقتصادية في الولايات المتحدة على الأرصدة السعودية، كل هذه العوامل حددت توجه الرياض نحو واشنطن. وبالإضافة إلى الروابط الاقتصادية والسياسية والعسكرية الوثيقة، قامت صلات شخصية دائمة بين كبار المسؤولين في البلدين وتبودلت الزيارات فيما بينهم. ودرس أبناء علية القوم وسواهم في الولايات المتحدة.

بغية مساعدة واشنطن على أن تصبح «حامية مصالح العرب» في العلاقات مع البلدان المصدرة للنفط، لعبت السعودية دور «عامل الاعتدال» في منظمة أوبك.

فبعد الثورة الإيرانية صارت السعودية تصدر أحيانًا ما يعادل نصف الصادرات الإجمالية لبلدان أوبك. لذا فإن كلمتها في المنظمة أصبح لها تأثير حاسم. وتعارض الرياض، قولًا، تصعيد الأسعار مغازلة بذلك واشنطن.

ولكن ظل هناك سؤال معلق: الم يكن ذلك توزيعًا للأدوار؟ إذ ان زيادة أسعار النفط كانت في مصالح شركات إنتاج الطاقة الأميركية، والولايات المتحدة عمومًا، في الصراع التنافسي مع بلدان أوروبا الغربية واليابان. فبعد زيادة أسعار النفط قلصت السعودية إلى حد كبير استخراج النفط واعاقت هبوط أسعاره في الأسواق العالمية.

أصبحت السعودية أكبر مودع أجنبي في البنوك الأميركية وأكبر مستثمر للمال في مجال شراء السندات الحكومية والاقتصاد والعقار في الولايات المتحدة. وتفيد بعض المصادر بأن المقادير الفعلية للاستثمارات السعودية كانت أكبر بكثير من الأرقام المعلنة رسميًا.

وقدرت السعودية نفسها في تقرير مغلق مرفوع إلى صندوق النقد الدولي عام ١٩٧٨ استثماراتها في الخارج بمبلغ ١٣٣ مليار دولار، وغالبيتها في الولايات المتحدة. ويعتقد الخبراء ان ما لا يقل عن مائة مليار دولار أخرى اضيفت إلى هذا المبلغ عند نهاية عام ١٩٨١. وتوظف الأموال السعودية في الولايات المتحدة بالدرجة الرئيسية عبر «تشيز منهاتن بنك» و«مورغان غارادتي تراست».

وكانت الايداعات السعودية في الولايات المتحدة والبلدان الأخرى تعود إجمالًا بفوائد تصل إلى عشرة مليارات دولار سنويًا.

قدمت الرياض قروضًا وسلفًا تعد بالمليارات إلى البنك الدولي للانشاء والتعمير وصندوق النقد الدولي، فأخذت تساهم رسميًا في صياغة قرارات هاتين المنظمتين. وفي عام ١٩٧٨ ، أصبحت السعودية عضوًا دائمًا في هيئة إدارة صندوق النقد الدولي.

ساعد الاتفاق الذي ذكرت الصحف الأميركية انه عقد بين الملك خالد والرئيس فورد عام ١٩٧٧، على تعزيز العلاقات السعودية الأميركية، فقد التزمت السعودية بموجبه بعدم زيادة أسعار النفط لأكثر من ٥٪ حتى عام ١٩٨٤ (الأمر الذي لم تلتزم به)، واستثمار جزء كبير من عائدات النفط لشراء سندات الخزانة الأميركية الطويلة الأمد. والتزمت الولايات المتحدة بتقديم مساعدة عسكرية للسعودية لمواجهة أي عدوان.

عندما حرمت واشنطن من النفط الإيراني قامت السعودية بزيادة استخراج النفط إلى ١٠,٣ مليون برميل يوميًا، وغطت احتياجات الأسواق العالمية من الوقود السائل.

في ١٥ أيار (مايو) ١٩٧٨ وافق مجلس الشيوخ الأميركي على اقتراح الحكومة الأميركية ببيع طائرات حربية إلى مصر والسعودية وإسرائيل. وكان من المقرر ان تحصل السعودية قبل عام ١٩٨٣ على ٦٠ طائرة من طراز «ف ١٥» ولكنها تعهدت بألا تجهز بمعدات للعمليات الهجومية وألا ترابط في قواعد قريبة من إسرائيل .

في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١، وبعد صراع طويل داخل الهيئات

التشريعية العليا في الولايات المتحدة، وافق مجلس الشيوخ على اقتراح البيت الأبيض ببيع السعودية معدات حربية تضم خمسة من «الرادارات الطائرة» من طراز «اواكس» بمبلغ ٨,٥ مليارات دولار. وقد وقفت ضد هذه الصفقة مراكز الضغط الموالية لإسرائيل في الكونغرس الأميركي التي تعارض بيع أسلحة حديثة لأي بلد عربي. بيد أن أغلبية المشرعين رأت ان الصفقة المذكورة تستجيب لمصالح واشنطن في المنطقة.

ومع ذلك ظهرت خلافات بين البلدين في الموقف من قضايا الشرق الأوسط.

ان العلاقات بين السعودية وبلدان أوروبا الغربية واليابان لم ترتق قط إلى مستوى العلاقات مع الولايات المتحدة، ولكنها كانت ودية ومتنوعة بما فيه الكفاية وكانت السعودية تشتري أسلحة وآليات حربية من بريطانيا وفرنسا وألمانيا الاتحادية.

وان دول «السوق المشتركة» واليابان هي المستورد الرئيس للنفط السعودي، كما ان جزءًا من البترودولارات السعودية يوظف في هذه الدول. وتزايدت بسرعة واردات السعودية من المعدات الصناعية والأسلحة من أوروبا الغربية واليابان. وفي السبعينيات وقعت الرياض اتفاقيات حول التعاون الاقتصادي والتقني مع فرنسا وإيطاليا والدانمارك واليابان وسويسرا وبريطانيا. وقد طرأ فجأة فتور وقتي على العلاقات مع بريطانيا بسبب عرض فيلم «موت أميرة» في التلفزيون البريطاني إذ اعتبر الفيلم إهانة للأخلاقيات السعودية.

إن كيس النقود الثقيل والقدرة على تقديم هبات وقروض للبلدان العربية والإسلامية وسائر بلدان آسيا وإفريقيا، يشكلان دعمًا كبيرًا للسياسة الخارجية السعودية. وفي السبعينيات والثمانينيات شغلت المملكة المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث تصدير الرساميل على شكل مساعدات.

تعززت العلاقات بين السعودية وباكستان عام ١٩٧٥ ، إثر استيلاء ضياء ألحق على السلطة. وتسارعت عملية التقارب بين البلدين على أساس وحدة موقفهما في معاداة الثورة الإسلامية في إيران والثورة اليسارية في أفغانستان. ودفعت الرياض كلفة

الأسلحة الأميركية المصدرة إلى باكستان والتي كان جزء منها يسرب إلى المعارضة المسلحة الأفغانية.

واتسع التعاون بين البلدين في الميدان العسكري. وتسربت إلى الصحف أنباء حول استخدام طيارين باكستانيين في سلاح الطيران السعودي.

وأبدت السعودية نشاطًا كبيرًا في الساحة العربية وبعد مؤتمر القمة الذي انعقد في الرباط في تشرين الأول (أكتوبر)١٩٧٤، اعترفت الرياض بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وأولت السلطات السعودية اهتمامًا خاصًا لـ«فتح» باعتبارها المنظمة الأساسية في منظمة التحرير الفلسطينية ووضعت تحت تصرفها مبالغ طائلة أملًا في بسط نفوذها عليها ولكنها لم تفلح كثيرًا في ذلك.

حينما نشبت الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥، اتخذت الرياض موقفًا مزدوجًا إزاء الكتائب المسيحية والمسلمين اللبنانيين ومنظمة التحرير الفلسطينية. وفي ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٦، دعا الملك خالد إلى مؤتمر في السعودية شارك فيه الرئيس المصري أنور السادات والرئيس السوري حافظ الأسد ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات.

ووقعت هناك اتفاقية حول إنهاء الحرب في لبنان. وجعلت القوات السورية شكليًا. بإمرة لجنة رباعية تضم السعودية ومصر والكويت وسوريا. وقد توقفت الحرب في لبنان.

كان موقف الرياض حيال النزاع العربي الإسرائيلي معقدًا. فإن التعاون مع الولايات المتحدة حامية إسرائيل وحليفتها يتنافى مع طموح الرياض إلى لعب دور زعيم العالم العربي والمكافح ضد الصهيونية والعدوان الإسرائيلي ومن أجل تحرير العتبات الإسلامية في القدس العربية. وبناء على قرار قمة الرباط في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤، أخذت مصر وسوريا تحصلان على منحة سنوية مقدارها ٥٧٠ مليون

دولار لكل منهما، بينما تحصل الأردن على ٣٠٠ مليون ومنظمة التحرير الفلسطينية على ٢٨ مليونًا، وذلك من صندوق خاص أسّسته السعودية والكويت ودولة الإمارات. كما حصلت بلدان المجابهة على مساعدة سعودية مباشرة لتغطية عجز الميزانية وشراء أسلحة من الغرب.

على صعيد الشرق الأوسط قدمت الرياض مساعدة فعالة للبلدان ذات الأنظمة المحافظة. وساندت النزعات الداعية إلى الانفتاح الاقتصادي في البلدان ذات القطاع العام القوي، والتخلي عن التعاون مع الاتحاد السوفييتي والتوجه إلى الولايات المتحدة. وبالاستناد إلى العون السعودي تمكن السادات من القيام بـ«ثورته البيضاء» في مصر وإعادة النظر جذريًا في السياسة الداخلية والخارجية وصولًا إلى إلغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتي في آذار (مارس) ١٩٧٦ . ولكن حينما زار السادات القدس في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ واتبع نهج الصلح مع إسرائيل الذي أدّى في خاتمة المطاف إلى اتفاقيات كامب ديفيد، فإن ذلك لم يكن مقبولًا بالنسبة للرياض على الصعيد العلني على أي حال .

في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٧٩، وقعت في الولايات المتحدة معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر. وفي اليوم التالي عقد وزراء الخارجية العرب مؤتمرًا في بغداد تقرر خلاله قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر وإنزال عقوبات أخرى بها. وفي ٢٤ نيسان (أبريل) قطعت السعودية العلاقات الدبلوماسية مع مصر وتوقفت عن تزويدها بالمساعدات المالية، ولكنها استمرت في استخدام الأيدي العاملة المصرية .

الفصل التاسع عشر

البنية الاقتصادية والاجتماعية للعربية السعودية في «عصر البترول»

من الخمسينيات حتى مطلع الثمانينيات

ازدادت عوائد العربية السعودية خلال فترة بين ١٩٣٨و١٩٧٣ لأكثر من ٨,٥ آلاف مرة ورأت المملكة ازديادًا جبارًا بعد ذلك، كما تشير المعطيات أدناه (بملايين الدولارات):

السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية
١٩٣٨	٠,٥	١٩٥٠	٥٦,٧	١٩٦٢	٤٠٩,٧	١٩٧٦	٣٣٥٠٠
١٩٣٩	٢	١٩٥١	١١٠	١٩٦٣	٤٥٥,٢	١٩٧٧	٣٨٠٠٠
١٩٤٠	٢,٥	١٩٥٢	٢١٢,٢	١٩٦٤	٥٢٣,٢	١٩٧٨	٣٦٧٠٠
١٩٤١	٢	١٩٥٣	١٦٩,٨	١٩٦٥	٥٨٦,٢	١٩٧٩	٥٩٢٠٠
١٩٤٢	٢	١٩٥٤	٢٣٦,٣	١٩٦٦	٧٦٠,٣	١٩٨٠	١٠٤٢٠٠
١٩٤٣	٢	١٩٥٥	٣٤٨	١٩٦٧	٨٧٩,٨	١٩٨١	١١٣٣٠٠
١٩٤٤	٢,٥	١٩٥٦	٢٩٠,٢	١٩٦٨	٩٢٦,٨	١٩٨٢	٧٦٠٠٠
١٩٤٥	٥	١٩٥٧	٢٩٦,٣	١٩٦٩	٩٤٩	١٩٨٣	٤٦٠٠٠
١٩٤٦	١٢,٥	١٩٥٨	٢٩٧,٦	١٩٧٠	١٩٤٤,٩	١٩٨٤	٤٣٧٠٠
١٩٤٧	١٧,٥	١٩٥٩	٣١٣,١	١٩٧١	١٩٤٤,٩	١٩٨٥	٢٨٠٠٠
١٩٤٨	٣١,٥	١٩٦٠	٣٣٣,٧	١٩٧٢	٢٧٧٩,٣	١٩٨٦	٢٠٠٠٠
١٩٤٩	٣٩	١٩٦١	٣٧٧,٦	١٩٧٣	٤٣٣٠,٩	١٩٨٧	٢٣٠٠٠

وخلال سنوات العقود الأخيرة المتبقية حتى نهاية القرن العشرين استقرت عائدات المملكة السعودية من النفط.

كان الجزء الأكبر من عوائد النفط في الأربعينيات والخمسينيات ينفق على الأغراض الاستهلاكية. ويعزى ذلك إلى فقر البلد الذي كان يجد مشقة كبيرة في تدبير لقمة العيش، كما يعزى أيضًا إلى تخلف التركيب السياسي الاجتماعي في السعودية. وبدا كما لو ان الطبقات الحاكمة التي كانت الأموال في يدها قد قطعت صيامًا استمر بضعة قرون وانكبت على الاستهلاك بشراهة متزايدة. ولم تكن الفئات الدنيا لتحصل عمليًا على شيء من عوائد النفط.

ولئن كان جهاز الدولة آنذاك يتفق ومتطلبات مجتمع إقطاعي عشائري على مستوى القرون الوسطى، فانه لم يكن مناسبًا البتة للتصرف بأموال ضخمة وأداء وظائف اجتماعية اقتصادية جديدة. ففي الثلاثينيات والأربعينيات، بل حتى في الخمسينيات، لم تكن خزينة الدولة في العربية السعودية منفصلة عمليًا عن خزانة الملك الخاصة. ولم يعرف البلد أي نظام مالي أو نقدي، ولم تسر فيه تشريعات صناعية أو تجارية أو تعتمد مؤسّسات حكومية أو اجتماعية، ولم تتوفر لديه كوادر مؤهلة للتحكم بالمستوى المستجد للعوائد. كما ان النظام الديني لم يكن ليساعد على اعتماد مستحدثات جديدة أو دفع عجلة التنمية الاقتصادية إلى الامام.

وما عدا فئة ضئيلة من السكان المتعلمين والعمال لم ينشأ في البلد رأي عام يطالب الملك بالإنفاق على المجتمع. كان يتعين على الملك ان يقدم المبرة وكرم الضيافة والسخاء ويوزع جزءًا من العائدات بشكل هبات ومعونات لشيوخ العشائر وعلماء الدين، فضلًا عن أفراد الأسرة المالكة. لكن أحدًا لم يكن ينتظر منه أو يطالبه بأن يسير إلى أبعد من هذه الواجبات التقليدية إزاء رعاياه.

في أواخر الخمسينيات كان نصف عوائد النفط (التي ربت على ٣٠٠ مليون دولار سنويًا. من نصيب العائلة المالكة، بينما حصل التجار وموظفو الدولة والمستشارون على جزء كبير آخر[١]. وثمة رقم أقل يذكره فيلبي، إذ يقول ان المداخيل المباشرة للعائلة المالكة كانت تبلغ في الخمسينيات خمس عائدات الدولة[٢].

وكما في غالبية بلدان الشرقين الأوسط والأدنى، أصبحت الوظيفة الحكومية وسيلة للاغتناء في العربية السعودية. فإن جهاز الموظفين كان يدعي زيفا الولاء للمبادئ الوهابية ولكنه يمارس الاختلاس والرشوة. وذكر مؤلفون أميركيون «ان من لم يكن يقوم بذلك يعتبر أما أحمق أو غريب الأطوار»[٣]. وقد اقترن اتساع الجهاز البيروقراطي وزيادة عوائد النفط بانتشار الفساد الذي بلغ حدًا أصبح معه الجزء الأكبر من اعتمادات الميزانية يتسرب إلى جيوب القيمين على استخدامها، بمن فيهم أفراد الأسرة السعودية. وغالبًا ما كان موظفو الدولة يمارسون الاتجار وفي المقابل يتبوأ التجار مناصب حكومية. ولذا فإن هؤلاء الأشخاص ما كانوا ليترددوا قط في استثمار مناصبهم لتحقيق مآرب شخصية[٤].

ونظرًا لضيق مجال استثمار رؤوس الأموال في العربية السعودية، وخصوصًا في التوظيفات الطويلة الاجل، فإن كميات كبيرة من الأموال أخذت تتسرب إلى الخارج ابتداء من الأربعينيات والخمسينيات وتستقر هناك كودائع مصرفية أو لشراء العقار[٥].

النظام المالي: المداخيل والنفقات

قبل عام ١٩٥٢ لم يكن يوجد في السعودية نظام نقدي موحد. فإلى جانب الريال السعودي كان يتداول في الحجاز الجنيه الذهبي الإنجليزي والمصري، وفي شرق البلاد الربية الهندية، أما طالر ماريا تيريزا فقد كان عملة متداولة في كل مكان ويعادل ثلاثة ريالات سعودية[٦].

في عام ١٩٥٢ أنشئت وكالة النقد السعودية وخولت صلاحيات بنك الاصدار، وبعد بضع سنوات أسّس البنك المركزي الذي أصدر ريالًا مغطى بالذهب (زهاء ٠,٢ غرام) وبالعملة الصعبة. وكان الدولار الأميركي يعادل ٣,٧٥ ريال، وفي عام ١٩٦٠ أصبح يساوي ٤,٥ ريال[٧]. وبدأ إصدار ما يسمى «بصكوك الحجاج» التي حلت محلها تدريجيًا النقود الورقية.

وفي الأعوام التالية عدلت القيمة الرسمية للريال السعودي مرتين. فإثر تخفيض

سعر الدولار وبقاء المحتوى الذهبي للريال على وضعه السابق، ارتفع سعره ابتداء من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١ وأصبح الدولار يعادل ٤,١٤ ريال[٨]. وفي آب (أغسطس) ١٩٧٣ رفعت السعودية سعر الريال وزيد محتواه الذهبي إلى زهاء ٠,٢١ غرام، وأصبح الدولار يعادل ٣,٥٥ ريال[٩].

وعلاوة على مقرها في جدة، افتتحت وكالة النقد فروعًا في مكة و المدينة والدمام. وكانت مهماتها الرئيسية تتمثل في العمل على ضمان استقرار وتوطيد العملة السعودية ومركزة المداخيل والنفقات ومساعدة وزارة المالية والاقتصاد الوطني. وكان الخبراء العاملون في الوكالة من الأجانب[١٠].

في عام ١٩٥٧، انضمت العربية السعودية إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للانشاء والتعمير، ومنذ عام ١٩٧٠، انتسبت إلى الرابطة الدولية للتنمية[١١]. وأصبحت هذه المنظمات الدولية التي يهيمن عليها رأس المال الأميركي هي التي تتحكم في السياسة المالية والاقتصادية للمملكة، على الرغم من أن تحقيق توصياتها غالبًا ما كان متعذرًا.

حتى عام ١٩٥٢ كانت «الشركة التجارية الهولندية» العاملة منذ عام ١٩٢٦ البنك الرئيسي للسعودية ومن خلاله قدمت سوكال الدفعات الأولى المترتبة عليها عند الحصول على الامتيازات النفطية. وفي الأربعينيات وأوائل الخمسينيات بدأ العمل «بنك دي لا اندوشين» الفرنسي والبنك العربي الأردني وبنك «ميدل ايست» البريطاني و«نيشنل بنك» الباكستاني[١٢]. وفي أواسط الستينيات كان في السعودية ثلاثة بنوك وطنية وهي البنك التجاري الوطني ومقره جدة وبنك الرياض وبنك التسليف الزراعي الذي أنشئ عام ١٩٦٤[١٣].

وأسّس البنك التجاري الاهلي في أواسط الثلاثينيات من قبل أشهر البيوتات التجارية في جدة[١٤]. وفي عام ١٩٧٤، بلغ عدد البنوك السعودية ١٢ بنكا لها ٧٢ فرعا ووكالة، بالإضافة إلى عشرة بنوك أجنبية[١٥].

وبلغت العوائد المباشرة المستحصلة من شركات النفط أكثر من أربعة أخماس

مداخيل الدولة. أما إذا أخذنا في الاعتبار المداخيل غير المباشرة الناتجة عن نشاط الشركات، فيمكن القول ان كل مداخيل الدولة، ومجمل اقتصاد البلاد عمومًا، كان وما يزال قائمًا على استخراج البترول وتصديره.

أما مصادر الدخل الثانوية فهي تتمثل في رسوم البلدية والمرافئ والمطارات وغيرها، والعوائد من استثمار السكك الحديد وشركة الطيران ورسوم الطرق والزكاة. وفي عام ١٩٥٤، كانت الزكاة لا تشكل سوى مليون دولار ونيف، أي أقل من ١٪ من مداخيل الدولة. وفي الخمسينيات خفضت الحكومة نسبة الزكاة من ٢,٥٪ إلى ١,٢٥٪ من مداخيل السكان، على افتراض ان المسلمين سوف يتولون بأنفسهم إنفاق المتبقي في عمل المعروف[١٦].

أما بالنسبة لنفقات الدولة فإن الجزء الأساسي منها كان يخصص في الأربعينيات والخمسينيات للإنفاق على العائلة المالكة والقوات المسلحة والشرطة ولتمويل العشائر والمؤسسات الدينية [١٧].

وفي عام ١٩٦٠، زارت العربية السعودية بعثة البنك الدولي للانشاء والتعمير التي أوصت ، فيما اوصت، بتأسيس هيئة مركزية للتخطيط وتركيز جهود الحكومة على أهم المشاريع الاقتصادية، وخصوصًا التي لا تستثمر الرساميل الخاصة، ومواصلة دراسة الثروات المعدنية والمائية.

وفي عام ١٩٦١ أنشئت الهيئة العليا للتخطيط التي كلفت بوضع سياسة التنمية الاقتصادية بالاشتراك مع سائر الوزارات والمصالح وذلك استنادًا إلى توصيات البنك الدولي للانشاء والتعمير، كما كلفت بمتابعة تنفيذ المشاريع الاقتصادية. وفي عام ١٩٦٥، حلت محلها منظمة التخطيط المركزية التي منح رئيسها رتبة وزير. ولم يكن هناك فصل واضح لوظائف كل من منظمة التخطيط المركزية ووكالة النقد ووزارة المالية والاقتصاد، لذا غالبًا ما كانت تنشأ تناقضات حادة فيما بينها. ولم يتم تنفيذ أي من الخطط الاقتصادبة التي أقرّت في مطلع الستينيات [١٨].

في الستينيات أخذت تتزايد في اعتمادات الميزانية النفقات المخصصة

للمواصلات والصحة والتعليم والزراعة وتوطين القبائل والري. وخصص للصحة في عام ١٩٥٩ وكذلك في ١٩٧٣-١٩٧٤ ٦٠ مليون ريال و٤٩٩ مليون ريال على التوالي، كما خصص للمشاريع الاقتصادية ٥٥ مليون ريال و ١٤ مليار و٢٦٣ مليون ريال على التوالي.

وازدادت الميزانية إجمالًا من ١١١٢ مليون ريال في عام ١٩٥٩ إلى ٢٢ مليار و٨١٠ ملايين ريال في السنة المالية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

ونصت ميزانيات الدولة في الستينيات وأوائل السبعينيات على زيادة استثمارات التنمية الاقتصادية والصحة والتربية. بيد أن مشاريع التنمية الاقتصادية كانت إلى حد كبير تغطية لنفقات ذات طابع عسكري استراتيجي[١٩]. وبعد عام ١٩٦٧ بلغت الاعتمادات المباشرة وغير المباشرة للقوات المسلحة والشرطة، أي لاهداف حماية النظام، خمس الميزانية (بعد ان كانت تشكل حوالى الثلث)[٢٠]. وبلغت نفقات الجيش ١٠ ـ ١٣٪ من الناتج الوطني الإجمالي، أي أكثر مما في أي بلد من بلدان حلف الناتو بما فيها الولايات المتحدة، ولم تزد عليها سوى نفقات بلدان الشرق الأوسط الضالعة مباشرة في النزاع العربي الإسرائيلي[٢١]. وكان جهاز الدولة المتضخم «يأكل» ويسرق جزءًا هائلًا من الأموال[٢٢].

منذ أواخر الستينيات وبداية السبعينيات لوحظت ظاهرة جديدة في الممارسة المالية العربية السعودية، تمثلت في تصدير الرساميل عبر قنوات حكومية، من خلال وكالة النقد، وكان الجزء الأساسي من ايداعات الدولة محفوظًا في «مورغان غارنتي تراست كومباني» وتشيز منهاتن بنك[٢٣]، كما أودعت مبالغ كبيرة في بنوك أوروبية. وبلغت الأرقام الإجمالية للايداعات السعودية في الخارج: ٧٨٥ مليون دولار عام ١٩٦٩ و٨٩٠ مليونًا عام ١٩٧٠ و١٥٤٠ مليونًا عام ١٩٧١ و٢٨٧٠ مليونًا عام ١٩٧٢ و٤٧٩٠ مليونًا عام ١٩٧٣ و ١٩٢٠٠ مليون عام ١٩٧٤ و٣٨٧٠٠ مليون عام ١٩٧٥ و٤٩٥٩٠ مليونًا عام ١٩٧٦ [٢٤].

وهذه أرقام تقريبية هي مجرد مؤشر على الاتجاه العام وليس على الكميات الدقيقة للرساميل المودعة.

بعد زيادة أسعار البترول القياسية لعدة أضعاف لم يعد بوسع البلد ان يستوعب أو حتى «يأكل» المداخيل المتزايدة، فأخذ يصدر الرساميل بكميات متزايدة، وبلغت الايداعات في الخارج بضع عشرات المليارات من الدولارات في أواخر السبعينيات. وكان القسم الأكبر من الايداعات السعودية يتكوّن من سندات الخزانة الأميركية والايداعات المصرفية واسهم الشركات ومن استثمارات الدولارات الأوروبية في السوق والعقارات. وتفيد إحصائيات «فيرست ناشنل بنك أوف شيكاغو» ان ٧٠٪ من الاستثمارات السعودية كانت مرتبطة بالدولار.

ميلاد ونشوء الصناعة الوطنية

في مطلع الأربعينيات لم تكن العجلة مستخدمة في غالبية مناطق العربية السعودية. ومن الخطأ القول بأن سكان هذه المناطق «لم يعرفوا العجلة» ولكن غيابها هو مؤشر دقيق على مستوى تطور القوى المنتجة في البلد.وحتى مطلع الستينيات كان «الإنتاج الوطني» مقتصرًا على الضروريات التقليدية من عمل الصنّاع والحرفيين العاملين في البيوت [٢٥].

وكان الصدع قد بدأ يدب في الاقتصاد التقليدي للعربية السعودية، وما يتصل به من مستوى متخلف في تطور القوى المنتجة، والفقر والمرض والامية ، قبل ظهور شركة أرامكو. وقد تسارعت هذه العملية بفعل هجوم المؤسسة الرأسمالية المعاصرة والإسراف في الاستيراد الذي يؤدي إلى عواقب وخيمة على الحرف المحلية (كما هو الحال بالنسبة للحياة البدوية). وفي أواخر الخمسينيات ذكر باحثون أميركيون ان «فروع الحرف قد عانت في السنوات الأخيرة من ركود شامل بفعل تزايد استيراد السلع الصناعية الرخيصة... وان عدد العاملين في الإنتاج الحرفي الذي لم يكن أصلًا كبيرًا قد أصبح اليوم ضئيلًا للغاية» [٢٦].

ولقد مارست أرامكو. وسط اقتصاد ينتمي إلى فترة القرون الوسطى أو ما قبلها، تأثيرًا مباشرًا على مجتمع الجزيرة. فقد استمالت القوة العاملة المأجورة وشيدت مدنًا وبلدات عصرية وأنشأت هيئات الخدمات وورشات شارك فيها رأس المال الوطني ومدت شبكة من الطرق. وكل هذه التحولات التي تعد تقدمًا بالنسبة لاقتصاد العربية

السعودية وتطورها الاجتماعي، لم تكن عملًا خيريًا تسديه الشركات الأميركية، بل استدعتها ضرورة تهيئة أبسط الظروف الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية والسياسية الملائمة لعمل أرامكو بشكل طبيعي.

وبمساعدة الرساميل المحلية أخذت تظهر في المنطقة الشرقية فروع ثانوية للصناعة والبناء تتولى تقديم الخدمات لأرامكو. ولئن كان في البلد عام ١٩٤٤ مقاولان محليان فقط، فقد ارتفع العدد عام ١٩٤٧ إلى ١٠٧ مقاولين وبلغ عام ١٩٥٥ زهاء المائتين وعمل لديهم بضعة آلاف من العمال. وشارك عدد كبير من المقاولين في مد خط أنابيب البترول عبر الجزيرة العربية وفي شق الطرق ومد خط السكك الحديد بين الدمام والرياض، وإنشاء المطار العسكري في الظهران وبناء المدارس والمستشفيات ودور العمال والمستخدمين المشتغلين لدى أرامكو وتعمير ميناء الدمام(٢٧ - ٢٨). وافتتح عدد من المقاولين السعوديين مكاتب انشائية وأسّسوا شركات نقل بحوزتها عشرات السيارات وورشات تصليح. وعلى الرغم من أن حصة المقاولين من الحجم الإجمالي للاموال التي أنفقت على الأعمال الانشائية لأرامكو كانت ضئيلة، فانها ظلّت في تزايد مطرد ومن خلال تنمية الصناعات العربية صارت أرامكو توجه نشاط الشركات المحلية من خلال توزيع الطلبيات المربحة عليها أو حجبها عنها.

أُقيمت في المحافظة الشرقية معامل صغيرة لإنتاج المواد الانشائية والقناني والأوكسجين والثلج والمرطبات ومحطات كهربائية وورش لصنع الأثاث. كما ازداد عدد الشركات التجارية والحوانيت والدكاكين (٢٩).

ولكن «عند حلول عام ١٩٦٠ لم تكن توجد عمليًا في البلد صناعة وطنية» كما يشير الباحث السوفييتي أوزولينغ وهو مصيب في ذلك (٣٠). وباستثناء مصانع تكرير البترول العائدة ملكيتها لرأس المال الاجنبي، لم تكن توجد في السعودية أي مؤسسة يربو عدد العاملين فيها على المائة.

وفي المتوسط كانت كل مؤسسة «ضخمة» تضم ستة عمال، علمًا بأن عددهم

الإجمالي قارب ال٥٥٠٠ [٣١]. وقد بلغت الاستثمارات «الصناعية» بضع عشرات من ملايين الدولارات، بينما بلغت استثمارات أرامكو زهاء ألف مليون دولار.

وكانت كل المؤسسات تقريبًا ملكًا لرأس المال الخاص باستثناء الورش الحكومية الكبيرة لتصليح السيارات [٣٢].

وفي الأربعينيات ومطلع الخمسينيات انصب اهتمام الطبقة الحاكمة في السعودية على الإثراء الشخصي وأخذت تستهلك و«تأكل» بشراهة عوائد النفط، ولم تكترث البتة بمصير الصناعة الوطنية والحرف. ولكن بالتدريج نضجت لدى أكثر ممثلي هذه الطبقة تنورًا وبصيرة فكرة حول ضرورة تدخل الدولة في الاقتصاد، أو في تقنينه وتشجيعه. ونشأت هذه الأفكار سواء بفعل العمليات الجارية في البلدان العربية أو نتيجة للانتقاد الذي تعرّض له النظام من المنظمات المعارضة الأكثر تطورًا الوليدة في البلد أو بمشورة الخبراء الأميركيين.

وفي معرض تقييم السياسة الاقتصادية للعربية السعودية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، قسمها أوزولينغ إلى أربع مراحل سماها اصطلاحًا: «فترة الانتشاء بالثورة» ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦. إذ ان العربية السعودية التي خطت الخطوات الأولى على طريق التحول إلى دولة «برجوازية إقطاعية»[٣٣] متعددة الأنماط شهدت زيادة سريعة في استخراج النفط رافقها ارتفاع مماثل في مدخول الطبقة الحاكمة. «الفترة الانتقالية» ١٩٥٧ـ ١٩٦٣. اضطرت الحكومة إلى اتخاذ بعض التدابير لانعاش الاقتصاد الوطني. وتقرر فرض رقابة على العمليات النقدية وتحديد الاستيراد وموازنة النفقات والمداخيل.

ومنذ عام ١٩٦٤، نشأت لأول مرة في البلد قاعدة متينة متسعة باطراد لتحقيق زيادة سريعة في رصيد التراكم الوطني. وهذا أمر نادر تقريبًا بالنسبة لبلد تسوده الأنماط الإقطاعية وشبه الإقطاعية العاجزة بذاتها عن ان تكون قاعدة للتراكم. ويعزى ظهور قطاع جديد في الاقتصاد، وهو قطاع الدولة الرأسمالي، في أواسط الستينيات إلى جملة أسباب يدخل ضمنها تمركز موارد مالية طائلة في يد الدولة وضرورة عدم

الاقتصار على حماية مصالح الطبقة البرجوازية المتنامية بل وشق الطريق امامها، وتهيئة الظروف الملائمة لمزاولة الأعمال الحرة.

وتبدأ الفترة الرابعة من السبعينيات. إذ ان الحكومة التي كانت تؤثر التخطيط الجاري القصير الأمد (لفترة سنة مالية واحدة) قد أقرّت أول خطة خمسية للتنمية الاقتصادية في البلد (١٩٧١ ـ ١٩٧٥).

في أيار (مايو) ١٩٦٢ صدر مرسوم حول حماية الصناعة الوطنية ألغيت بموجبه الرسوم الجمركية المفروضة على استيراد المكائن والمعدات وقطع الغيار وبعض الخامات والمواد نصف المصنعة. والتزمت الحكومة بتخصيص أراض للمؤسسات الصناعية الجديدة. وفي عام ١٩٦٣ عدل اسم وزارة التجارة إلى وزارة التجارة والصناعة، وكلفت بوضع التدابير الكفيلة بحماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية، وتقديم تسهيلات للرأسمال الوطني في مجال استيراد المعدات الصناعية، وفي ميدان الضرائب والقروض [٣٤].

وعكفت منظمة التخطيط المركزية التي أسّست عام ١٩٦٥ على وضع توصيات بهدف تنويع الاقتصاد السعودي وتهيئة أول برنامج خماسي للتنمية الصناعية. وفي عام ١٩٦٥ أقر لأول مرة لزوم تسجيل كل الشركات الجديدة في وزارة التجارة والصناعة.

واستنادًا إلى مرسوم حماية وتشجيع الصناعة الوطنية الصادر في أيار (مايو) ١٩٦٢، تم حتى نهاية عام ١٩٧١ إنشاء ١٨٨ شركة يراوح عدد العاملين في كل منها من ٧ إلى ٦٤ عاملًا. وكان معدل رأس مال كل شركة يساوي ١,١ مليون ريال سعودي[٣٥].

واستثمرت أكبر الرساميل في قطاع البناء. بيد أن القسم الأكبر من المؤسسات الصناعية السعودية ظل عاجزًا عن العمل بكل طاقته نظرًا لضيق السوق والمزاحمة الأجنبية وعدم توفر ما يكفي من الأيدي العاملة والمواد الخام. وكان التطور الناجح من نصيب صناعة الاسمنت فقط، حيث ازداد إنتاجها من ثلاثين ألف طن في ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ إلى ٩١١ ألفًا عام ١٩٧٢[٣٦].

يتضمن دليل الغرفة التجارية في جدة قائمة بالمؤسسات التي كانت موجودة في هذه المدينة التي هي أكبر مدن الحجاز في أواخر الستينيات. وهي، كما أسلفنا، مقتصرة على صناعة المرطبات والثلج والورق والطابوق والمواد الانشائية الأخرى والمستحضرات الكيماوية المنزلية وحقول الدواجن. وإليكم أمثلة على رساميل تلك المؤسسات: شركة المرطبات ـ ١٥ مليون ريال، شركة الاسمنت ـ ٢٥ مليون ريال، معمل الطابوق ـ ٢٠٠ ألف ريال، شركة المستحضرات الكيماوية المنزلية ـ ٧,٥ ملايين ريال.

في الستينيات قام رجال الأعمال السعوديون بإنشاء معمل للثقاب في موقع بين الرياض والخرج ومصنع للصابون في جدة ومصنعين للاسمنت في الرياض والهفوف، كما زيدت إنتاجية مصنع الاسمنت في جدة ومعمل الورق في الدمام. وجرى توسيع معامل الطابوق والزجاج والأثاث والبسكويت والحلويات والمواد الغذائية، وورشات الصهر والميكانيك وتصليح السيارات[٣٧].

وخصصت الدولة مبالغ كبيرة لتعمير وتشجير المدن والكهربة والخدمات البلدية.

وعمومًا جرى التطور الاقتصادي خلال هذه السنوات باتجاه توسيع وتطوير الهيكل الارتكازي بالدرجة الأولى، مما أدّى إلى زيادة الطلب على الكهرباء والمواد الانشائية. وقد قدر المبلغ الإجمالي للاستثمارات في الصناعة الوطنية عند نهاية عام ١٩٦٩ بمليار ريال، ويعني هذا تحقيق زيادة قدرها ٦,٥ مرة خلال تسع سنوات[٣٨].

وقد ذكر كناورهيز ان عدد العمال في المدن عام ١٩٦٨ بلغ ١٠١٥٦٩ عاملًا. وازداد إلى ١٤٦٧٤٠ عام ١٩٧١، ولكنه لم يبين ما إذا كان العمال الأجانب يدخلون ضمن هذا العدد. أما عدد «المؤسسات» فقد ارتفع خلال العامين المذكورين من ٤٢٨٨٦ إلى ٠٦٠٩٢٩ والمقصود بالدرجة الأولى الورش العاملة في قطاع الخدمات (ورش تصليح السيارات والأدوات المنزلية) والمؤسسات الصغيرة للغاية التي تولت إنتاج سلع جديدة، وكان غالبيتها في الحجاز[٣٩].

وفي عام ١٩٦٧/ ١٩٦٨ كما هي الحال عام ١٩٧١، كان معدل العاملين في كل

«مؤسسة» ٢,٢٣ شخص منهم ١,٤٢ عامل أجير و ٠,٩١ عامل غير أجير أي من أفراد الأسرة التي تمتلك المؤسسة[٤٠].

وكما في العديد من البلدان المتخلفة المعتمدة على الغرب، كانت الحكومة السعودية تأمل في استمالة رأس المال الأجنبي لتطوير الصناعة الوطنية. ففي عام ١٩٥٧ صدر مرسوم حول «تنظيم استثمارات رأس المال الأجنبي» وقد انسحب مفعوله، باستثناء حالات معينة، على جميع الاستثمارات الموجودة أو المستقبلية في البلد. واستثنيت منه الشركات صاحبة الامتياز والشركات «ذات الأهمية الحيوية للتنمية الاقتصادية في المملكة». ونص المرسوم على أن رأس المال السعودي في أي شركة أجنبية يجب إلا يقل عن ٥١٪، والا يقل عدد السعوديين العاملين فيها عن ٧٥٪، على أن يتقاضوا ما لا يقل عن ٤٥٪ من الأجور. والزمت الشركات بمراعاة أحكام الشريعة ومسك دفاترها باللغة العربية، وبأن تتخذ من العربية السعودية مقرًا لمكاتبها الرئيسية[٤١].

في شباط (فبراير) ١٩٦٤، أقر قانون جديد حول الاستثمارات الأجنبية شمل رأس المال الأجنبي بموجبه بطائفة من الامتيازات التي كانت ممنوحة لرأس المال الوطني. وطبقًا لهذا القانون اعفيت المؤسسات التي يساهم فيها رأس المال الأجنبي من ضريبة الدخل ورسوم الشركات لمدة خمس سنوات من تاريخ تشغيل المؤسسات شريطة ألّا تقل حصة رأس المال الوطني فيها عن ٢٥٪ طيلة فترة شمولها بالتسهيلات. وسمح للأجانب باخراج الأرباح ورأس المال دون عوائق. ولم يعد إسهام رأس المال الوطني شرطًا يفرض على الأجانب عند تأسيس الشركات، بل أصبح عاملًا يساعد على شمولها بطائفة من الامتيازات الإضافية. أما الاستثمارات الأجنبية في صناعة النفط واستخراج المعادن فقد جرت وفق اتفاقات خاصة[٤٢]. وحتى نهاية عام ١٩٧١، بلغ عدد الشركات الصناعية ٦٦ شركة برأس مال قدره ١٠٣ ملايين ريال. وليس ثمة أرقام دقيقة عن عدد عمال تلك المؤسسات.

في مطلع السبعينيات كانت البرجوازية الصناعية في العربية السعودية ما برحت

في حالة جنينية، ولم يكن لها وزن اقتصادي أو سياسي. وقد كان النشاط الصناعي يدر قليلًا وتحفه مخاطر كبيرة بحيث انه لم يجتذب أصحاب رؤوس الأموال من التجار وأفراد الأسرة السعودية والفئة العليا من الجهاز البيروقراطي. وقد آثر هؤلاء تحويل أموالهم إلى الخارج أو استثمارها في تجارة الاستيراد أو المضاربة بالأراضي أو بناء المساكن ، وفي أحسن الأحوال استخدامها في المقاولات والشركات الانشائية.

لذا جابهت الحكومة منذ بداية الستينيات ضرورة الاضطلاع بمهمة التنمية الصناعية في البلد. وقد اضطرت الدولة التي كانت من حيث الجوهر الطبقي في مرحلة الاقطاع المبكر إلى تولي إقامة قطاع رأسمالي عام في الاقتصاد، وخصوصًا في الحقول الصناعية التي تتطلب توظيف رساميل كبيرة.

وتوخيًا لهذا الغرض أنشئت شركة حكومية باسم الهيئة العامة للبترول والمواد المعدنية (بترومين)[٤٣].

وقد اشترت بترومين من أرامكو مصنع تكرير النفط في جدة وشرعت بتوسيعه، وسيطرت في الوقت نفسه على شبكة توزيع المشتقات النفطية. وشرعت بترومين، بالتعاون مع شركات أجنبية، ببناء مصانع كيماوية يستخدم فيها الغاز المصاحب الذي كان فيما مضى يحرق في حقول النفط، للاستفادة منه في إنتاج الأسمدة والكبريت والحوامض واللدائن[٤٤]. وفي عام ١٩٧٣ ، بلغ إنتاج الأسمدة في مؤسّسات بترومين ١٥٠ ألف طن[٤٥]. ثم اعتمدت بترومين أموالًا لتطوير صناعة المعادن.

إلى جانب مصنع الحديد والصلب ومعمل إنتاج الأسمدة في الدمام، كانت المؤسسات الكبرى للصناعة في السعودية في بداية السبعينيات متمثلة بمعمل تكرير النفط في جدة حيث بلغ عدد العاملين هناك ٥٠٠ عامل، ومصانع الاسمنت الثلاثة التي بلغ مجموع العاملين فيها ٩٨١ شخصًا[٤٦].

وشيدت في الخرج مجموعة من المصانع الحكومية التي تعتبر ضخمة في نطاق السعودية. فقد عمل هناك عام ١٩٦٥ ، ٨٥٠ عاملًا و٥٤ مهندسًا وفنيًا وكلهم سعوديون[٤٧].

علاوة على البترول اكتشفت في السعودية ثروات طبيعية أخرى مثل الجبس والنحاس والحديد واليورانيوم والملح الحجري والفضة والذهب وغيرها. ولكن استثمار هذه الثروات لم يبدأ عمليًا في الستينيات[٤٨]. وجدير بالذكر ان شركة انكلو أميركية كندية قامت في الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٥٤ باستخراج الذهب في منطقة مهد الذهب وذلك من مقالع قديمة، وبلغ مجموع ما استخرجته خلال عشرين عامًا زهاء ٢٦ طنًا من الذهب، وبعد ذلك اعتبرت ان مواصلة الاستخراج غير مربحة[٤٩].

في تموز (يوليو) عام ١٩٧٢، أقرّت في العربية السعودية قوانين جديدة لتنظيم استثمار الثروات المعدنية (باستثناء النفط). وزيدت المساحات القصوى للأراضي المخصصة للتنقيب من مائة كيلومتر مربع إلى عشرة آلاف كيلومتر مربع، وأُعفيت الشركات التي تباشر العمل من الضرائب لمدة خمس سنوات وأدّى ذلك إلى تنشيط ملحوظ في التنقيب عن النحاس بخاصة[٥٠].

أما في الفروع الصناعية الرئيسية التي تتطلب استثمارات مالية كبيرة، وحيث تكون مساهمة رأس المال الأجنبي أمرًا حتميًا، فإن الحكومة السعودية حاولت، عبر بترومين، ان تمارس الرقابة على الشركات المؤسسة حديثًا. فقد وظفت فيها أموال الدولة وكانت في غالبية الأحوال تحمل أسهم ضمان الإدارة (٥١٪ أو أكثر من الأسهم) وكان ممثلو الحكومة أعضاء في مجالس الإدارة. ولكن المشاريع الصناعية غالبًا ما كانت تصبح غير ربحية وتغدو مصدر إثراء للموظفين المحليين والشركات الأجنبية، وذلك بسبب عدم أهلية ممثلي الحكومة السعودية وتفشي الفساد بينهم.

وفي الخمسينيات والستينيات والسبعينيات أنجزت بنجاح أكبر، وان كان ذلك على حساب إهدار أموال كبيرة، مهمة إقامة شبكات عصرية من الطرق والمواصلات، وذلك باستخدام التكنولوجيا الموردة والكوادر الأجنبية.

فقد كان البلد المترامي الأطراف والقليل السكان والمكون أساسًا من الصحاري الحجرية والرملية، بحاجة إلى الطرق. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥١، مد خط للسكك الحديد ذو طريق واحد طوله ٥٧٧ كلم من الدمام على سواحل الخليج العربي

عبر الهفوف والظهران إلى الرياض[٥١]. وما زال النقاش محتدمًا حتى اليوم حول الجدوى الاقتصادية لهذا الخط. وعلى أي حال لم تشيد في البلد خطوط أخرى ولم تنفذ مشاريع تمديد الخط إلى المدينة وجدة وينبع وإعادة بناء خط الحجاز الذي دمر خلال الحرب العالمية الأولى.

وبدأ بشكل حثيث شق طرق السيارات في الخمسينيات. ففي المقاطعة الشرقية ربطت هذه الخطوط بين الظهران والخبر والدمام ورأس تنورة والجبيل. وشقت طرق معبدة إلى الكويت وإلى الأردن وسوريا ولبنان، بمحاذاة خط أنابيب النفط. وشقت طرق مماثلة من جدة إلى مكة والمدينة ومن ثم طريق جبلي من الطائف إلى مكة. وفي السبعينيات استمر شق الطرق بوتائر أكبر من السابق، ودشن الطريق الذي يربط بين الحجاز ونجد والأحساء، وربطت طرق السيارات بين المراكز الرئيسية في البلاد. وكان من أكبر مشاريع المواصلات في الفترة ١٩٧١ ـ ١٩٧٥ إنجاز أعمال شق طريق الطائف ـ ابها ـ جيزان، وطوله أكثر من ٧٠٠ كيلومتر.

وتم بناء أو توسيع أو تعمير موانئ في جدة وينبع على البحر الأحمر وفي الدمام والخبر وميناء سعود على الخليج العربي. وفي الستينيات كان يوجد في البلد مطاران عصريان في جدة والظهران، ومن ثم شيدت مطارات كبرى في الرياض والمدينة والطائف، وأخذت طائرات شركة الخطوط السعودية المرتبطة بشركة «TWA» الأميركية تقوم برحلات منتظمة إلى عشرات من بلدان العالم.

ربطت المراكز الرئيسية في البلد بشبكة للهاتف أصبحت أوتوماتيكية منذ السبعينيات وشغلت اذاعات ضخمة في جدة ومن ثم في الرياض ومكة، علاوة على اذاعات أصغر في مناطق أخرى. وظلت شركة أرامكو لفترة طويلة تملك محطة التلفزيون الوحيدة في البلد، ولكن تم في الستينيات إنشاء شبكة للتلفزيون على نطاق البلد كله، وذلك بعد صراع مع علماء الدين[٥٢].

لقد وضع كناورهيز جدولًا لنمو الاقتصاد السعودي للفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٧٢. وادرج ضمن المنتوج الإجمالي الداخلي النفقات العسكرية والخدمات. واعتبارًا من عام

١٩٦٦ استبدل طريقة الحسابات. ولكننا يمكن أن نحصل على صورة عامة للاقتصاد على الرغم من الطابع التقديري للعديد من معطياته. وتفيد معلومات كناورهيز ان المنتوج الإجمالي ازداد خلال الفترة المذكورة من ٨,٦ مليار ريال سعودي إلى ٢١,٣ مليار . وظل استخراج النفط يحتل المرتبة الأولى في اقتصاد البلد. وكانت الزراعة تتطور بمنتهى البطء، حتى انتقلت في مطلع الستينيات من المرتبة الثانية في الاقتصاد إلى المرتبة الثامنة. وشغل تكرير النفط المرتبة الثانية. وازداد الإنتاج الصناعي من ١٥٧ مليون ريال في ١٩٦٢ إلى ٤١٧ مليونًا في ١٩٧٢، كما ازداد البناء من ٣١١ مليون ريال إلى ١٤١٥ مليونًا. ولا تأخذ هذه الأرقام بالاعتبار التضخم النقدي وارتفاع الأسعار على سبيل المضاربة ولا تبين حصة الخامات والبضائع المستوردة شبه المصنعة في قيمة الإنتاج الصناعي.

وفي السبعينيات، كما يقول اوزولينغ، ظلّت الصناعة النفطية عمومًا «أساس اقتصاد البلد والمجمع الصناعي الوحيد المتطور والذي يفي بالمتطلبات التكنولوجية الحديثة.ولكن نظرًا لان ملكيته تعود بمجملها تقريبًا إلى رأس المال الأجنبي والأميركي أساسًا، فانه ينبغي اعتباره كيانًا اقتصاديًا قائمًا بذاته ولا يدخل عضويًا ضمن الاقتصاد الوطني السعودي وان نشاط هذا القطاع معزول إلى حد كبير عن عملية إعادة الإنتاج الجارية ضمن الاقتصاد الوطني بمعناه المباشر»[٥٣]. وباستثناء المجمع النفطي ظلّت السعودية من أكثر بلدان العالم تخلفًا من الناحية الاقتصادية. وفي أواسط السبعينيات وبعد ١٥ عامًا من الجهود فإن إسهام الصناعة الوطنية في الناتج الوطني الإجمالي ظل ضئيلًا للغاية.

وانتجت الصناعة التحويلية الوطنية في النصف الثاني من الستينيات ما يربو على ٢٪ من الناتج الإجمالي في البلاد. وفي مطلع السبعينيات انخفضت حصتها بسبب تسارع نمو الصناعة النفطية. ولكي تحقق المؤسسة أرباحًا وقدرة على المزاحمة لا بد لها ان تعتمد على قاعدة تكنولوجية متطورة وكوادر مؤهلة وسوق ذات سعة كافية. إلا أن هذه الشروط لم تكن متوفرة في العربية السعودية. ولم يعط ثماره وجود الرساميل الضخمة واستعداد الحكومة لاستثمار الأموال في الصناعة. وتعمقت

المشاكل الاقتصادية بسبب ضعف الهياكل الارتكازية وارتباك الإحصاء وفساد جهاز الدولة وتواطؤ الشركات الأجنبية التي ضاعفت مرارًا أسعار الأجهزة وكلفة البناء وحكمت على المؤسسات الجديدة بالخسارة مسبقًا.

التجارة والبرجوازية التجارية

في مستهل السبعينيات كانت حياة البلد واقتصادها مرتهنين بالاستيراد. فقد كانت العربية السعودية تستورد من الخارج كل معدات الصناعة والطاقة والمكائن وقطع الغيار والمحركات والأدوات والمستحضرات الكيماوية والمواد الطبية والغالبية الساحقة من السلع الاستهلاكية وقرابة نصف المواد الغذائية. ولم يكن البلد يغطي احتياجاته إلا في مجال مشتقات النفط وجزئيًا في مجال المواد الانشائية وبعض أنواع الأسمدة الكيميائية. وبعد الأزمة المالية عام ١٩٥٨، فرضت قيود على استيراد الكماليات، إلا أن تلك القيود طبقت طوال عامين فقط. ومنع منعًا باتًا استيراد المشروبات الكحولية، مما أدّى إلى اتساع التهريب.

كانت الولايات المتحدة الأميركية، وكذلك بلدان أوروبا الغربية واليابان أكبر العملاء التجاريين للعربية السعودية. أما بريطانيا التي ظلّت خلال العشرينيات والثلاثينيات المهيمن الوحيد تقريبًا على أسواق المملكة، فانها فقدت مكان الصدارة على الرغم من احتفاظها بمواقع قوية. وفيما يخص الاستيراد من البلدان العربية فقد كان مقتصرًا أساسًا على الماشية واللحوم والفواكه والخضروات والحبوب وبعض السلع الاستهلاكية (٥٤).

وسيطر التجار السعوديون على غالبية الصفقات التجارية في البلد، سواء بالنسبة لتجارة الجملة أو المفرق. وأدّت زيادة الاستيراد وازدياد الطلب على السلع وتنوعها إلى انتعاش السوق وتنامي البيوتات التجارية القديمة وظهور عشرات ومئات من الشركات الجديدة. ولقد كانت التجارة في البلدان الإسلامية مهنة محترمة على الدوام، خصوصًا وان النبي(ﷺ) قد زاولها. لذا فإن رأس المال السعودي الخاص، وبالدرجة الأولى الحجازي، تدفق على ميدان التجارة (وكذلك المضاربة بالأرض وبناء المساكن). وقد توفرت لهذا الغرض الكوادر والتقاليد والصلات الكفيلة بأداء

المهمة. وكان بين أصحاب البيوتات التجارية في الحجاز والأحساء عدد من أبناء سوريا وفلسطين وحضرموت الذين اكتسبوا الجنسية السعودية[٥٥].

وقد أثار تدفق التجار العرب في الخمسينيات استياء التجار المحليين. ولذا صدرت في مطلع الستينيات مراسيم تفيد حركة التجار الوافدين من سائر البلدان العربية. وألزم كل تاجر أجنبي (مسلم من بلد عربي) بأن يتخذ له شريكًا سعوديًا على أن يكون له ما لا يقل عن ٥١٪ من رأس المال. ونتيجة لذلك اضطر آلاف من التجار العرب إلى مغادرة العربية السعودية [٥٦].

وغدا الاستيراد ركيزة لعدد من البيوتات التجارية الكبرى مثل «علي رضا» و«الغصيبي» و«جفلي» و«بغشان» و«جميه» و«السليمان» و«خشقجي» و«فرعون»[٥٧]. وعلاوة على الاستيراد مارست هذه الشركات المقاولات وبناء المساكن والفنادق وتنظيم شركات الملاحة والنقل والأسواق التجارية (سوبر ماركت) كما استثمرت جزءًا من أمواله. في صناعات معينة. وكانت هذه في الغالب مؤسّسات عائلية وليست شركات مساهمة. وفي السبعينيات بلغت الدورة السنوية لرأس مال كبرياتها مليار دولار. وعمل إلى جانبها عشرات ومئات من صغار المستوردين ذوي رؤوس الأموال المحدودة ولكل منهم وكيلان أو ثلاثة. وتبدل الموقف جذريًا في المجال التجاري، وخصوصًا إذا تذكرنا ان التجار من جيل اسبق أو جيلين كانوا يستوردون الأطعمة والأقمشة والثياب من بومباي والأخشاب من مالابار.

أسّست عائلة «علي رضا» ومقرها الرئيس في جدة والتي يبدو أنها من أصل إيراني، بيتها التجاري في الستينيات من القرن الماضي. وقبيل الحرب العالمية كان أحد أبنائها نائبًا عن جدة في المجلس العثماني، وتولى آخر ولاية جدة وسلم المدينة عام ١٩٢٥ إلى ابن سعود. ومنذ عام ١٩٤٠، أصبحت شركة «علي رضا» وكيلًا لشركة «فورد»، واسندت إليها بعد الحرب العالمية الثانية وكالة «وستنكهاوس» و ITT وشركتي «أوميغا» و«تيسو» للساعات. وعين عدد من أفراد العائلة في مناصب

وزير التجارة وسفير المملكة في كل من الولايات المتحدة وفرنسا كما أسند إليهم منصب وكيل وزارة الخارجية. واستثمرت أسرة علي رضا أمواله. في العقار والصناعة وحقل الخدمات وإنتاج الكهرباء والمواصلات والصناعة النفطية[٥٨]، وساهمت في مقاولات حكومية كبيرة، كمشاركتها في «الشركة الهندسية العربية الإيطالية للمقاولات» التي تولت استيراد المعدات.

وكان ثمة وسيلة للاغتناء تتمثل في ان يكون طرف سعودي ضامنًا لشركة أجنبية تعقد صفقات لشق الطرق أو بناء الموانئ أو الفنادق أو تعمير المدن . فقد بدأ نجم عائلة جفلي بالصعود إثر حصولها على عقد لكهربة الطائف لصالح شركة بريطانية[٥٩]. وبعد ذلك أصبحت العائلة وكيلًا لشركة «مرسيدس» في السعودية وقامت باستيراد الاطارات، وقطع الغيار وشراء عدد من المزارع [٦٠].

ويجدر بالذكر ان الإثراء السريع كان من نصيب أولئك الذين يكلفون بانجاز أعمال لصالح الدولة أو العائلة المالكة. فقد ذكر المؤلف السعودي فؤاد شاكر في معرض تعداده للبيوتات التجارية في جدة ومكة ان أسرة صالح عيسى البكري أثرت بسرعة بفضل توليها تزويد العائلة المالكة وضباط الجيش والشرطة والمدارس الحكومية في الرياض بما تحتاجه من الأقمشة [٦١].

هناك طريقة أخرى لتكون البرجوازية وهي صفقات العقار. ففي ١٩٥٥ / ١٩٥٦ أطلقت أسعار الأرض وإيجار المساكن في المدن الكبيرة. وقد ارتفعت الايجارات عندئذ بنسبة ٣٠٠ ـ ٤٠٠ بالمائة، وزادت منذ ذلك الحين عشرات المرات . وجرى تهافت على شراء الأراضي وأُزيلت أحياء الفقراء لتشيد مكانها عمارات بغية تأجيرها أو بيعها[٦٢].

وقد أثرت من المضاربة بالأراضي شركة الاخوة الأربع. من آل سويدان في الرياض. إذ انهم ابتاعوا عام ١٩٦٩ قطعًا واسعة من الأراضي في مناطق واعدة بالعاصمة وباعوها بعد بضع سنوات بسعر يزيد مائة مرة على سعر الشراء. كما انهم قاموا ببناء وبيع فيلات ودور سكنية واستيراد المواد الانشائية والرافعات وسواها[٦٣].

تمركزت في الحجاز أكبر البيوتات التجارية في المملكة. وكانت أكثر المنتفعين من ارتفاع أسعار النفط وزيادة الاستيراد وتنفيذ طلبيات الدولة، وقامت بتوسيع نشاطها ليشمل البلد كله. عام ١٩٤٨ تأسست غرفة تجارية في جدة وسمح بالانتساب إليها لتجار المدينة المنورة والطائف وجيزان وتبوك حيث لم تكن فيها غرف تجارية، ولبعض تجار مكة والرياض. وبلغ عدد أعضائها في أوائل السبعينيات زهاء الألفين[٦٤].

بدأ غالبية كبار تجار المنطقة الشرقية أعمالهم كمقاولين لدى أرامكو. وكان بعضهم من العاملين سابقًا في الشركة مثل سليمان عليان الذي عمل فيها سائقًا لشاحنة ثم أسّس شركة للنقليات. وكان أحد أقربائه الأبعدين، الغصيبي، قد بدأ نشاطه بمنصب كاتب بسيط، ثم اقتنى محطة بنزين وصار بعد ذلك وكيلًا لشركة بيبسي كولا.

ولم يتيسر للتجار السعوديين ولوج الميدان العالمي بسهولة. ويستثنى من ذلك أربعة من رجال الأعمال أصبحوا من كبار أصحاب الثروات في العالم وهم خشقجي وفرعون (وكان أبواهما من أطباء الملك) وسليمان عليان الذي ترأس «البنك السعودي البريطاني» وأكرم وجيه السعودي الجنسية والسوري المولد.

وقد أثرى خشقجي من توريد الأسلحة للجيش السعودي والحصول على «عمولة» من مؤسّسات الصناعة الحربية الأميركية، وكون مجموعة شركات رأسمالها ٤٠٠ مليون دولار ومقرها في لوكسمبورغ وهي باسم «تريد هولدنغ كوربوريشين»[٦٥].

وتولى فرعون رئاسة «الهيئة السعودية للأبحاث والتنمية» وشملت دائرة أعماله تجارة المكائن والمشاركة في إنتاج السلع الغذائية الاستهلاكية والتأمين.

أما وجيه فقد مارس أعماله من خلال شركته المسماة «تكنيك دي افانغارد» ومقرها لوكسمبورغ أيضًا. ومن أشهر مشترياته سفينة «فرانس» العابرة للمحطيات والتي جهزها بأثاث فرنسي تحفي ثمين.

وقد استثمرت هذه المجموعة من رجال الأعمال أموالًا في شركات أجنبية لها صلة بأعمال البناء وفي البنوك. بيد أن محاولاتها للسيطرة على البنوك الغربية الكبرى لم تفلح بسبب مقاومة رأس المال العالمي في البلدان المتطورة وغياب الخبرة والكوادر الإدارية لدى الأثرياء السعوديين. وأودعت هذه المجموعة الرباعية من رجال الأعمال السعوديين أموالهم في بنوك ببلدان آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية واستثمرت رساميل في مجمعات سياحية وفندقية وشركات ملاحة وفي العقار بكل أنحاء العالم.

لقد شكلت البرجوازية السعودية التي تربطها وشائج وثيقة بالعائلة المالكة نوعًا فريدًا من الأوليغارشيا التجارية المالية. فقد نمت في «دفيئات زجاجية» تقيها من المنافسة الأجنبية، واستفادت أساسًا من الاستيراد الذي كانت عوائد النفط غطاءه في التحليل الأخير. وقد ذكرت مجلة «ميدل إيست ايكونوميك دايجست» ان «العائلة السعودية الحاكمة وأعضاء الحكومة يحاولون التهرب من كل ما يمكن أن يشي بصلاتهم مع أرباب الأعمال هؤلاء، ولكن من المعروف ان هناك وسطاء يستخدمون كستار للتغطية على النشاط التجاري لأفراد العائلة المالكة والوزارة»[٦٦].

ومن خلال الأسرة الحاكمة والعوائل المرتبطة بها كانت عوائد النفط توزع على الجهاز البيروقراطي الذي أصبح الفساد المستشري فيه اشبه بعرف اجتماعي شبه علني، وتنفق على الجيش والشرطة وكبار القادة فيهما، وعلى الوسطاء وبالأخص الشركات الأجنبية، كما تصرف لمختلف الأعمال العامة والمشاريع الاقتصادية التي غدت بقرة حلوبًا ومصدرًا لإثراء المسؤولين عنها والأجانب والوسطاء. كما ان التجار السعوديين اغتنوا على حساب تخلف المجتمع باستيلائهم على جزء كبير من عائدات النفط عند إعادة التوزيع.

ملكية الأرض والانتفاع بها

ما هو تأثير تنامي عوائد النفط على الفروع التقليدية للاقتصاد: الزراعة وتربية المواشي التي عمل فيها غالبية السكان، وعلى العلاقات الاجتماعية في الواحات

وقبائل البدو الرحّل وشبه الرحّل؟ كانت غالبية أراضي البلاد تعتبر أرضًا أميرية، أي ملكًا للدولة ممثلة بالملك. أما في الواقع فإن جزءًا كبيرًا من الأراضي الأميرية كان يستثمر من قبل ساكنيه، وبالدرجة الأساسية القبائل، أو اقطاعات مشمولة بحقوق ملكية مجتزأة. أما الأراضي غير الأميرية فقد كانت ملكًا لأفراد أو أفخاذ أو عوائل أو قبائل أو من أراضي الأوقاف.

وشملت الأراضي الأميرية المراعي والصحاري العائدة للقبائل وبلغت مساحتها ٨٠٪ من أراضي البلد. وفي عام ١٩٢٥، قلص الملك عبد العزيز حقوق القبائل المتعارف عليها وكان عند الضرورة يغير حدودها وفق مشيئته.

وكانت الدولة ممثلة بالبنك والحكومة تملك كل ثروات باطن الأرض. لذا فقد كان بوسعها ترحيل القبائل من منطقة إلى أخرى إذا اقتضت ذلك ضرورات ترتبط، مثلًا، باستثمار الموارد الجوفية. أما في سائر الأحوال فإن القبائل واصلت استثمار الأرض كسابق عهدها. وفي الغالب لم تكن القبائل الرحّل تتجاوز الحدود المقررة لها، ولكن عندما تسقط في منطقة ما كمية أكبر من الأمطار، كان بوسع القبائل الارتحال إلى مراعي قبائل أخرى.

وكانت ملكية أراضٍ كبيرة تنشأ، عادة، عندما تقطع الدولة جزءًا من الأراضي الأميرية وتمنحها لشخصٍ (الإقطاعية). ومنحت اقطاعات كثيرة للضباط وكبار التجار الذين كانوا يؤجرونها على أساس المحاصصة. وطبقًا لمرسوم ملكي صادر عام ١٩٥٧، ألزم الراغبون في الحصول على اقطاعات باستحصال إذن من أمير المنطقة ومن الملك لتملّك الأرض وتسجيلها. وإثر ذلك يجوز التصرّف بالأرض: نقل ملكيتها، وهبها، تأجيرها أو جعلها وقفًا. وليس واضحًا هل يشمل ذلك الاقطاعات القديمة أم الجديدة فقط؟

وعلى الرغم من أن الاقطاعات ظلّت من الناحية الشكلية ملكًا للدولة، فإن الاقطاع نفسه كان شكلًا انتقاليًا نحو الملكية الخاصة (الملك)[٦٧]. وليس لدينا معلومات عن احجام الاقطاعات في السعودية.

الملك هو الشكل الوحيد للملكية الخاصة للأرض المعترف به في المملكة، وهو

يعني ان الشخصية المعنوية تمتلك الأرض ولها كل حرية التصرّف بها. وقد انتشر الملك على وجه خاص في عسير، حيث كانت الزراعة متطورة أكثر مما في المناطق الأخرى ولكنه لم يشمل عمليًا الأراضي الجافة.

كما عرف في البلد المشاع، وفي بعض الأحوال كانت قطع من هذه الأراضي توزع على أفراد الأسرة الكبيرة أو الفخذ لحراثتها. وغالبًا ما كان ابن شيخ العشيرة يعين مديرًا للملك المشاع . وفي بعض الأحيان كانت تؤجر على أساس المحاصصة ثم يتولى كبير العائلة توزيع الأرباح على أفرادها. ولكن في إطار المشاع كان يعاد توزيع الحصص طبقًا لحقوق الارث. ومن المعتقد ان المشاع شمل زهاء سدس الأراضي المستصلحة وغالبيتها في نجد والمنطقة الشرقية.

وكانت هناك أشكال غير عشائرية للمشاع، كما لدى سكان الواحات. ففي عسير كانت حراثة الأرض وزراعتها وجني المحصول تتم على أساس جماعي وتوزع الغلال بالتساوي.

وفي جبرين وخيبر كانت أراضي الواحات ملكًا لقبائل البدو. ونظرًا لتفشي الملاريا هناك فإن القبائل ما كانت لتغدو إلى تلك الواحات إلا لتلقيح الطلع ثم جني البلح، أما رعاية النخيل في سائر أوقات السنة فقد كانت تسند إلى الأجراء المحليين، وهم في العادة من اخلاف المعتوقين. وبعد ذلك يوزع المحصول بين رجال القبيلة مع مراعاة عدد الأفراد في عائلة كل منهم[٦٨].

أراضي الأوقاف صيغة خاصة من الملكية في الأقطار الإسلامية. فبوسع المسلم ان يوقف ارضه للصرف على المؤسسات الدينية والجمعيات الخيرية. ولا يجوز بيع الأوقاف أو مصادرتها وتحال أغلبية الأوقاف إلى المدارس الدينية أو المساجد فتغدو ملكًا لها تؤجره أو تتصرف فيه. ولا يحق للحكومة ان تستولي على الأوقاف. وحسب تقديرات مديرية الأوقاف السعودية لعام ١٩٥٦ بلغت نسبة ملكية الأوقاف من الأراضي المزروعة ٥٪ في عسير، و١٠٪ في الحجاز و١٥٪ في المنطقة الشرقية ونجد[٦٩].

ان ارتفاع نسبة الوفيات بين الفلاحين الذي جعل مستحيلًا عمليًا طوال قرون تكاثر السكان الموسع، وضع عقبة طبيعية في طريق تقسيم الأراضي إلى قطع صغيرة. وعند غياب هذا «المنظم الطبيعي» كانت الأسر تتخذ التدابير الكفيلة للحيلولة دون بيع أو تقسيم الأراضي المستزرعة. وغالبًا ما كان الورثة يوافقون على أن تكون ملكيتهم للأرض جماعية شريطة ان يمنح كبير الأسرة حق زراعتها أو تأجيرها، ويمنح هذا ألحق أحيانًا بالتناوب ويحصل كل من تسند إليه هذه الوظائف أجرة إضافية علاوة على الحصة. وبغية الحفاظ على ملكية الأرض في يد أسرة واحدة كان التزاوج بين أبناء العمومة محبذا[٧٠].

يذكر «الدليل الإقليمي» ان ٦٠٪ من الأراضي كانت تؤجر بينما يتولى مالكو الأرض زراعة ٤٠٪ منها فقط. وتراوح نسبة الأراضي المؤجرة في عسير والحجاز بين ٧٠و٨٠٪[٧١]. وهذه الأرقام تتطابق مع المعلومات المتوفرة في أواخر الخمسينيات . إذ ان ٤٠٪ من الأراضي كانت تستزرع من قبل مالكيها و١٠٪ من قبل مستأجرين يدفعون مبالغ نقدية و٥٠٪ من قبل مستأجرين محاصصين[٧٢].

ويرى أوزولينغ ان زهاء ٦٠٪ من الأراضي المزروعة في البلد يعود للملاكين الكبار والمتوسطين (خمسة هكتارات أو اكثر) الذين قاموا بتأجيرها كليًا أو جزئيًا[٧٣]. وثمة معطيات أخرى (واضح انها دون الواقع الفعلي) تفيد بأن نسبة الأراضي المؤجرة تراوح بين ٢٠و٢٢٪ من الأراضي المزروعة[٧٤]. وهذه الأرقام المتناقضة هي دليل آخر على أن المعطيات الإحصائية حول العربية السعودية يجب أن تعامل بحذر بالغ. يذكر البحث المعنون «قوانين العمل والممارسة في العربية السعودية» ان نسبة الأراضي المستأجرة لم تصل في أواخر الستينيات إلى أكثر من عشر المساحة الكلية للأراضي[٧٥]. ولكن يبدو انه لم تدرج ضمن هذه الأرقام إلا الأراضي التي كان يدفع عنها أجر نقدي.

سمح بتأجير كل أصناف الأراضي: الأميرية والإقطاعية والمشاع والملك والوقف وأراضي القبائل. وكانت شروط الإعارة والتأجير تثبت تحريريًا أو شفهيًا.

وتنص ٧٠٪ من عقود التأجير بالمحاصصة على أن المالك يوفر الأرض والماء والبذور والمسكن أحيانًا. وإذا كان المستأجر يعمل طوال السنة ولديه ماشية واسمدة ومعدات زراعية وطعام وبيت فانه يدفع لمالك الأرض ٥٠٪ من محصول الحبوب و٧٥٪ من التمور.

أما إذا كان المستأجر لا يقدم سوى قوة عمله، فإن المالك يحصل على ٨٠٪ من الحبوب و٩٥٪من التمور. ولكن نسبة مثل هذه العقود بلغت زهاء ٥٪. وينص حوالى ١٠٪ من عقود التأجير على أن المستأجر يوفر البذور ويكون نصيبه القسم الأكبر من المحصول. وتتفاوت حصة مالك الأرض تبعًا لنوعيتها وتوفر المياه وقرب الأسواق وعوامل أخرى. وأدّى إدخال المكائن إلى جعل المستأجر الذي لديه مكائن يحصل على شروط أفضل من غيره [٧٦].

في حالة القحط يضطر المستأجر إلى الاستلاف لإعالة أسرته. وعندما يقترض من المالك فانه غالبًا ما يكبل نفسه بقيود لا يستطيع الفكاك منها ويصبح تابعًا لمالك الأرض كليًا[٧٧].

ان مدة عقود إعارة الأراضي لزراعة النخيل أو أشجار الفاكهة تراوح بين ٤و٧ أعوام. وفي هذه الحالة يعتمد شكل للمحاصصة يسمى «المغارسة». إذ يلتزم المستأجر بزراعة الأشجار وسقيها حتى تعطي ثمارها الأولى، فيحصل مقابل ذلك على كل الغلال ما بين صفوف الاشجار[٧٨].

أما تأجير الأراضي الأميرية فقد كان يتم وفق قواعد أدق، ويتوقف على بعد الأرض ونوعية التربة وشكل الري وكمية النخيل والطلب على المنتجات الزراعية. ومدة عقود تأجير الأراضي الأميرية طويلة، وتصل إلى زهاء خمس سنوات، إلا أنها في عسير كانت لا تتجاوز السنة[٧٩].

أما أراضي الأوقاف فقد تولت التصرّف بها مديرية الأوقاف التابعة لوزارة الحج والمؤسسات الدينية في مكة، وفي العادة كانت تلك الأراضي تعار بالمحاصصة[٨٠].

ان الجزء الأكبر من حقوق التصرّف بالمياه في العربية السعودية يمكن أن يشترى ويباع أو يعار أو يستورد بصرف النظر عن الأرض. لذا فإن الشخص الذي يشتري أو يرث أو يستأجر قطعة أرض لا تكفي مياهها للري بوسعه أن يشتري أو يستأجر المياه وفق عقد إضافي. وفي عسير وتهامة فقط كان حق التصرّف بالمياه يتطابق مع حقوق ملكية الأرض[٨١].

كان تنظيم حقوق التصرّف بالمياه بين الحضر متطورًا ومعقدًا للغاية، ويشمل التناوب في استخدامها ومدته وموسم الري وتقسيم كمية المياه وفقًا لمساحة الأرض. وغالبًا ما كان توزيع المياه يخضع لإشراف ورقابة أشخاص يعينهم ويدفع أتعابهم مالكو المياه ومستهلكوها. وكانت مياه الآبار والعيون تخضع لملكية فردية أو جماعية. وفي العادة لصاحب الأرض حق في كل عيون المياه الواقعة على أراضيه، وليست هناك حاجة لاستحصال إذن خاص لحفر بئر فيها. ولكن الحصول على إذن خاص ضروري إذا كانت البئر تحفر في أرض غير مستصلحة سابقًا صارت إقطاعية. والآبار التي يحفرها البدو الرحّل تظل تحت تصرف القبيلة أثناء فترة مكوثها في المنطقة، وعند رحيلها تصبح البئر«مشاعة». وكانت هناك أشكال معقدة لملكية القنوات والترع الجوفية.

ان حقوق استثمار مياه الآبار الارتوازية، في المنطقة الشرقية، مثلًا، كانت مرتبطة بمقدار إسهام مالكها الأول في إقامة الأجهزة والصهاريج ومعدات التوزيع. ووضع نظام خاص لحقوق التصرّف بالمياه عند توزيع تيارات المياه على الوديان[٨٢].

يذكر كناورهيز ان ٣٣٢٤٢، أي ٤٧,٣٪ من مجموع ملكيات الأراضي البالغ ٧٠٣٥٢ كان موزعًا على قطع تقل مساحة الواحدة منها عن نصف هكتار، وان ١٣٦٦١ (١٩,٤٪) كانت مساحتها تراوح بين ٠,٥ ـ ١ هكتار [٨٣] أي ان زهاء ٦٧٪ من الأراضي كانت مساحة كل منها لا تتجاوز الهكتار. ويؤكد هذه الأرقام بشكل تقريبي دليل «قوانين العمل والممارسة في العربية السعودية»[٨٤]. ويعني ذلك ان القطاع السلعي الصغير كان السائد في الزراعة.

وفي مطلع الستينيات تأسست جمعيات تعاونية زراعية في الطائف والمدينة وبريدة. وكانت تمارس مختلف الأعمال من تقديم البذور حتى حفظ المحاصيل وتسويقها . لكنها لم تنتشر على نطاق واسع. في واحات عسير والحجاز والأحساء الكثيفة السكان نسبيًا، كان يعمل في الأراضي عادة أفراد أسرة المالك ونادرًا ما يستخدم الأجراء الزراعيون. وساد وضع مماثل في واحات نجد. أما في القصيم وجبل شمر فقد كان الأجراء الزراعيون يشغلون لفترة طويلة أو قصيرة. وفي موسم العمل الزراعي الكثيف كان هناك نقص في عدد الأجراء الزراعيين، وخصوصًا في المنطقة الشرقية، لذا كان يجري التعاقد مع العاملين في فروع الصناعة الثانوية للقيام بهذا العمل[٨٥].

وكانت العقود مع الأجراء الزراعيين شفوية أو تحريرية، غير أنه استمر الاستغلال العشائري الإقطاعي للمعتوقين وبعض الأجراء[٨٦].

وفي نجد كان عدد النساء أكثر من عدد الرجال في الأعمال الزراعية، إذ ان الرجال يؤثرون التجارة والعمل في المستودعات والميكانيك والبناء والحرف[٨٧].

وفي بداية السبعينيات بلغ معدل دخل الفلاح الفقير زهاء ١٥٠٠ ـ ١٦٠٠ ريال سنويًا (دون احتساب الكسب الإضافي)[٨٨]. ولكن المداخيل كانت تختلف اختلافًا كبيرًا تبعًا للمنطقة ومساحة الأرض ونوعية الغلال وتوفر المياه. وكان العامل الزراعي الدائمي يتقاضى ١٦٠٠ ـ ٢٠٠٠ ريال سنويًا[٨٩]، أما العمال المؤهلون (سواق الجرارات والآلآت الزراعية) فإن أجورهم السنوية وصلت إلى ٣٥٠٠ ريال[٩٠] ولكن عددهم كان قليلًا، علمًا بأن غالبيتهم من غير السعوديين. وعمومًا لم يكن بوسع الفلاحين الفقراء والأجراء توفير ظروف مقبولة لحياة عوائلهم.

بلغت نسبة الفلاحين المتوسطين (من ٢ إلى ٥ هكتارات) ١٠,٧٪ من المجموع الكلي. ولكن يمكن أن يدرج ضمن هذه الطائفة مالكو الأراضي التي تراوح مساحتها بين٠,٥ و٢ هكتار وخصوصًا في المناطق التي يجنى فيها أكثر من محصول في السنة. وكان غالبية الفلاحين المتوسطين يحصلون على دخل سنوي قدره ٣ ـ ٥ آلاف ريال،

وهو مبلغ يكفل الحد الأدنى للمعيشة، لكنه لا يوفر المال اللازم لتحديث الإنتاج. وندرج في صنف «الأغنياء» أولئك الذين يملكون قطعًا تراوح مساحتها بين ٥و ١٠ هكتارات (٤,٨٪ من المجموع الكلي). ويراوح دخل هؤلاء بين ٦و١٠ آلاف ريال، وكانت لديهم قدرة على الانتقال إلى الإنتاج السلعي المكثف اعتمادًا على معدات الري والأسمدة[٩١]. بيد أن غالبية هذه الأراضي كانت ملكًا لتجار ومرابين وموظفين يؤجرونها بشروط شبه إقطاعية.

وكان عدد الاستثمارات الكبيرة (اكثر من عشرة هكتارات) قرابة ٣,٥ ـ ٥ آلاف (٤,٥ ـ ٧٪)[٩٢] وغالبية أصحابها من الإقطاعيين وشيوخ القبائل وأبناء الأسرة الحاكمة والتجار والمؤسسات الدينية.

وكانت الغالبية الساحقة من الملاكين الكبار تسكن المدن وتؤجر الأرض. باستثناء أفراد قبائل مارسوا الإنتاج السلعي المكثف مستفيدين من منجزات الهندسة الزراعية. ووصلت عوائد الملكية الكبرى إلى مائة ألف ريال سنويًا. ولكنها غالبًا ما كانت «تستهلك» من قبل المالكين وأفراد عوائلهم: لشراء العقار والكماليات والسيارات، ولا تستخدم عمليًا لتوسيع وتكثيف الإنتاج الزراعي[٩٣].

ويجمع الباحثون على أن تنامي الملكية الكبيرة قد اقترن بإفلاس صغار الملاكين. ونظرًا لعدم توفر إحصاءات دقيقة حول هذا الموضوع ، سنقتصر على إيراد بعض الاتجاهات العامة. كان بوسع صغار الملاكين الموشكين على الإفلاس وبضمنهم من لهم حصص في الأراضي المملوكة جماعيًا، ان يبيعوا أراضيهم أو حصصهم، على أن تعرض أولًا على سائر أفراد المشاعة، وبهذا تتوفر للفلاح الغني إمكانية السيطرة على عدة حصص. ولكن إذا لم يكن ثمة راغب، فإن البيع يتم لأشخاص من خارج المشاعة. وكان صغار الملاكين، حينما يعجزون عن تسديد السلفة التي دفعت لهم مقابل الأرض أو الوفاء بالديون أو سداد إيجار الأرض. يعمدون في نهاية المطاف إلى بيع أراضيهم أو التنازل عنها للمرابين مقابل الديون. وكان تجار المدن أكبر مشتري الأراضي، علاوة على الموظفين الذين أثروا من الارتشاء وغيرهم من «القطط السمان»[٩٤].

تفيد معطيات أوردها عبدالله الدباغ مدير إحدى الدوائر بوزارة الزراعة السعودية، ان غالبية الفلاحين صاروا منذ بداية الستينيات مدينين دائمين للتجار وكبار ملاكي الأراضي. وتزايدت الديون عامًا إثر عام، مما أرغم الفلاحين في خاتمة المطاف على بيع أراضيهم. وازداد عدد الفلاحين المعدمين والعمال الزراعيين(٩٥).

منذ أواسط الستينيات جرت أولى المحاولات لتعزيز الفئة المتوسطة من الفلاحين. وفي عام ١٩٦٧، صدر مرسوم ملكي حول توزيع الأراضي الأميرية غير المستثمرة والصالحة للزراعة وتربية المواشي. وصار بوسع كل مواطن الحصول على أرض، وفق حقوق الإقطاعية، في حالة تمكنه من استثمارها (٩٦).

ووضعت تحت تصرف الفلاحين أراض تراوح مساحتها بين ٥و١٠ هكتارات. أما قطع الأراضي التي وضعت تحت تصرف الشركات (بما فيها الأجنبية) فقد بلغت مساحة بعض منها ٤٠٠ هكتار. بيد أن هذا المرسوم لم يعد بالنتائج المتوخاة لذا فإن الدولة قامت «بإحياء» أراض جديدة عن طريق الري وشق الطرق والترع بغية استمالة الناس إلى هناك(٩٧).

وقد أجرى العالم السعودي عبد الرحمن الشريف في أواسط الستينيات بحثًا اجتماعيًا اقتصاديًا في منطقة عنيزة(٩٨)، ذكر فيه ان الملكيات الصغيرة (من ٠,١ إلى ٢,٥ هكتار) في القصيم تشكل ٤٥,٣٪ من مجموع الاستثمار.

وكان زهاء خمس الملكيات كبيرًا نسبيًا، ويقول الباحث انها تكونت أساسًا نتيجة «لإحياء» الأراضي البور، أي أراضي الدولة. ولكن « إحياء الأراضي» لا يعني بالضرورة تحويلها إلى أراض محروثة أو مروية. فقد كان يكفي غرس أشجار لكي تتحول قطعة الأرض إلى ملكية «القائم بالإحياء». وبديهي ان تنشب خلافات كثيرة حول تحديد استيراث مثل هذه الممتلكات أو رسم حدودها. وحلّت الخلافات استنادًا إلى الشرع.

وفي عام ١٩٦١، أصدر مجلس الوزراء قرارًا يلزم الراغب بإحياء الأرض باستحصال موافقة أمير المنطقة. وإذا كان من المزمع القيام بعمليات بناء في هذه

الأراضي، فإن الأمير يحيل الموضوع إلى البلدية التي ترفعه بدورها إلى وزارة الداخلية ومجلس الوزراء.

أما إذا كانت الأرض الزراعية خارج حدود البلدية، فإن البت في الأمر يعود إلى وزارة الزراعة ومجلس الوزراء. ومن يحصل على إذن بإحياء الأرض ويخل بالتزاماته، فانه يفقد ألحق في ملكية هذه الأرض. ونص القرار الجديد على أن نقل ملكية الأرض لا يتم إلا بمرسوم ملكي أو بأمر صادر عن رئيس الوزراء أو من ينوب عنه.

وكان بالإمكان تأجير الأرض لمدة مائة سنة أو ألف سنة، أي دون تقييد زمني عمليًا. ويغدو المستأجر بمثابة مالك للأرض. ولكنه ملزم بدفع الإيجار في نهاية كل سنة. وبوسع المستأجر الأساسي إعادة تأجير هذه الأرض إلى شخص ثان أو إقامة منشآت عليها. وكانت عقود الإيجار هذه تتوارث من الآباء إلى الأبناء. ويرى عبد الرحمن الشريف ان هذا الشكل من الإيجار كان الأوسع انتشارًا في عنيزة.

وعند تسليم أرض فيها أشجار، وهي في الأساس النخيل، فإن بدل الإيجار يحتسب وجود هذه الأشجار والبئر التي حفرها صاحب الأرض. أما إذا تطلب الأمر استثمار مبالغ إضافية فإن المستأجر يغدو المالك الثاني للأرض. ولكنه يدفع لمالك الأرض الأول حصة محددة بمثابة شريك له. وفي العادة تبلغ الحصة في مثل هذه الأحوال ربع المحصول. وبوسع مالك الأرض ان يطلب من المستأجرين تخصيص عدد من أشجار النخيل فيها له.

وأجرت الباحثة اليابانية موتوكو كاتاكورا[٩٩] التي عملت في وادي فاطمة بالحجاز في الفترة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠، دراسة ميدانية مهمة حول أوضاع الفلاحين في السعودية.

وتقول الباحثة ان جزءًا كبيرًا من البدو المتوطنين في وادي فاطمة كانت لديهم أراض (من ٠,٦ إلى ٢ هكتار) يستثمرونها بأنفسهم. وكانوا يفضلون استئجار الأراضي من أبناء عشيرتهم. وهي تقسم بين جميع الورثة مما يؤدي إلى تقليص مساحة الاستثمارة الواحدة. وفي بعض الأحيان كان الأشقاء يشتركون في حراثة الأرض.

في عام ١٩٤٦، أسّست في وادي فاطمة شركة « عين عزيزية» برأس مال حكومي وأهلي، وتولت تزويد جدة ومكة بالمياه. وتنازل كثيرون من ملاكي الأرض التي تتوفر فيها عيون للمياه عن أراضيهم للشركة مقابل تعويض نقدي وانتقلوا إلى جدة. وتقول كاتاكورا: «في وادي فاطمة يتضح بجلاء ان من يسيطر على الماء يسيطر أيضًا على اقتصاد الصحراء».

ان وجود عدة مالكين للماء ووجود مستأجرين ثانويين ووسطاء يشترون المحاصيل قد زاد من تعقيد القضايا المتصلة بملكية الأرض واستثمارها في وادي فاطمة.

وكان العمال الزراعيون يحصلون على ٥ ـ ١٠ ريالات يوميًا، وتزداد الاجرة إذا كانوا من أبناء القبيلة. وفي حالة عدم وجود ناظر مختص فإن مالك الأرض والمستأجر يقتسمان العوائد مناصفة. وقد تتعقد عملية الاقتسام بسبب نظام الوسطاء المتشابك. وفي بعض الأحيان كان الوسيط ـ المستأجر يتصرف كمزارع فيستأجر في هذه الحال عمالًا زراعيين.

تورد كاتاكورا المثال التالي: استأجر تاجر ثري أراضٍ خالية من الماء بثمن بخس من الفلاحين، وحفر آبارًا عميقة ووضع مضخات ثم قام بتأجير الأراضي مقابل مبلغ يزيد عشر مرات عما في السابق، وتولى استثمار قطع أخرى كمزارع. وفي بعض الأحيان كان المالك الاسمي الأول يغدو المستأجر الثاني. كما ان بوسع المزارعين استئجار أراضي الأوقاف.

اعتبرت مزاولة بعض الأعمال «عيبًا» على البدوي (القصاب، مربي الدواجن، الحلاق، الخادم، الأعمال اليدوية). وحينما استوطن بعض البدو في وادي فاطمة فإن الآخرين أخذوا يسخرون منهم. ورفض البدو جميعًا القيام بتشغيل المضخات والآبار، على الرغم من أن الأجور كانت مغرية. وعمل اليمنيون ناظرين على المضخات والآبار، وبلغ عددهم في وادي فاطمة عام ١٩٧٠ أربعمائة شخص.

حينما نضبت عيون كثيرة في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، عاد البعض من المزارعين إلى حياة البداوة. سكن وادي فاطمة، علاوة على اليمنيين الأربعمائة،

٦٤ فلسطينيًا و٢٨ أردنيًا و١٢ سوريا و٨ مصريين و٥ عراقيين و٤ سودانيين. وكان أكثرية الفلسطينيين والأردنيين والسوريين والمصريين من العمال المهرة والمعلمين والموظفين.

وكان جزء كبير من المناطق الآهلة في وادي فاطمة متكونًا على أساس قبلي. وبلغ مجموع السكان هناك عشرين ألفًا تقريبًا، ووصل عدد الاستمارات إلى ٣٧٤٤. وكان ٣٠٪ من السكان ينتمون إلى قريش و٣٠٪ إلى حرب و١٥ إلى لحيان و١٠٪ إلى الشيوف و٥٪ من المعتوقين، وشكل المتبقون عشرة بالمائة.

وتمثلت السلطة في وادي فاطمة بالأمير وثلاثة موظفين علاوة على القاضي وشرطي وموظفين آخرين. وضم مكتب الدين مديرًا وسبعة مفتشين. ويبدو أن ما تقصده كاتاكورا فرع هيئات الأمر بالمعروف.

وكانت الجمعية التعاونية تدير محطة للبنزين وتشارك في توزيع الاسمنت وبناء مقهى. كما كانت هناك دائرة بريد ومحطة هاتف.

وضم مجلس القرية في أرياف الوادي ٥ ـ ٩ أشخاص، وفي عام ١٩٦١ شكل مركز التنمية الاجتماعية لتعليم المنتسبين مهنا جديدة، كما نظمت هناك احاديث حول أسّس المعارف الطبية والوقاية، وارشادات للنساء.

وكانت في وادي فاطمة ١٣ مدرسة ابتدائية للبنين و ٥ مدارس للبنات، ومدرسة متوسطة واحدة و ٤ مدارس لمحو الأمية للذكور ومثلها للإناث. وكان التعليم في المدارس الابتدائية مجانيًا. وكانت الدولة تدفع رواتب المعلمين وتزود التلاميذ بالكتب والقرطاسية. كما ان التعليم هناك كان إلزاميًا. وكل معلمي مدارس البنين كانوا سعوديين، فيما قامت نساء أجنبيات بتعليم البنات.

صعوبات الزراعة

أتاحت بعض الدراسات التي أجرتها مؤسّسات سعودية وبعثات أجنبية إمكانية

جمع معلومات حول العاملين في الزراعة، وهي أشمل بكثير من المعلومات المتوفرة في العشرينيات والثلاثينيات، ناهيك عن المعلومات المتوفرة في مطلع القرن. بيد أن المعطيات الإحصائية تظل غير موثوقة إطلاقًا، وينبغي التعامل معها بوصفها تقديرات تقريبية.

تفيد معطيات مختلفة ان نسبة المشتغلين في الزراعة بالسعودية تراوحت في الخمسينيات والستينيات بين ١/٨ و ١/٤ من السكان الأصليين القادرين على العمل، أما المجموع الإجمالي للعاملين في الزراعة وتربية المواشي (الرحّل وشبه الرحّل) فقد كان يراوح بين ١/٢ و ٢/٣ من السكان. هذا علمًا بأن العدد الإجمالي للسكان الأصليين في هذا البلد الذي تساوي مساحته ثلثي مساحة أوروبا الغربية، يقدر بـ ٣,٥ ـ ٤,٥ ملايين نسمة في الستينيات و ٤ ـ ٥ ملايين نسمة في السبعينيات[١٠٠].

في أواسط الستينيات كانت مساحة الأراضي المستثمرة في السعودية تراوح بين ٢١٠ آلاف و ٣٠٠ ألف هكتار[١٠١] (ثمة معطيات أخرى تراوح بين ١٥٠ و ٥٠٠ ألف هكتار)[١٠٢]. وكان ٢٠٪ فقط من هذه الأراضي في عسير وجنوب الحجاز ـ يتوفر له ما يكفي من الهواطل والامطار للزراعة. أما الثمانون بالمائة من الأراضي المستزرعة في الواحات فقد كانت تروى من مياه الآبار والعيون والينابيع والسدود في الوديان. والتمر هو أهم المحاصيل الزراعية (المرتبة الرابعة في العالم) وتأتي بعده الحنطة والشعير والدخن والذرة والأرز والعلف والخضراوات والفواكه. وفي عسير كان يزرع البن بكميات قليلة.

وقد جرت عدة محاولات لرفع مستوى الزراعة في البلاد. فقبل اكتشاف النفط دعا ابن سعود خبراء أجانب للتنقيب عن المياه وأصر على جعل شركات النفط تبحث عن الماء. وتحفر الآبار الارتوازية.

وأنشئت عام ١٩٣٧ في منطقة الخرج الغنية بينابيع المياه الزاخرة (وفق معايير نجد) مزرعة كبيرة بمشاركة خبراء عراقيين ومصريين، وجلبت إلى هناك معدات زراعية ودواب العمل وماشية الأنسال. وأُقيمت هناك منظومة حديثة للري

وبضعة حقول متخصصة على مساحة تقرب من ألفي هكتار، حيث زرعت الحنطة والخضروات والبطيخ والشعير والعلف والنخيل، وجرى تموين البلاط الملكي بخضروات المزرعة[١٠٣]. وفي الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ أشرف على المشروع أميركان، ثم تولت الإشراف إدارة سعودية.

وفي الستينيات شرعت الحكومة بإنشاء خمسة مراكز زراعية: في جيزان والمدينة والقصيم والرياض والهفوف، وأنيطت بها مهمة تقديم الإرشادات للمزارعين وتزويدهم بالمعدات والبذور والشتلات والأسمدة وتعليمهم مكافحة الآفات الزراعية[١٠٤]. وأسّس عام ١٩٦٤ بنك التنمية الزراعية الذي افتتح حتى عام ١٩٧٣ ثمانية فروع و٣٧ مكتبًا في الأرياف[١٠٥].

انتفعت من إجراءات الحكومة فئة الفلاحين الأغنياء الذين أصبحوا يزاولون العمل على غرار المزارع الحديثة، وشرعت أكبر الاستثمارات بشراء المعدات الزراعية. وفي النصف الثاني من الستينيات كان في البلد ٢٧٧ جرارا و٢١ ألف مضخة ميكانيكية [١٠٦].

في بداية السبعينيات طرأ على الإنتاج الزراعي بعض الزيادة، وخصوصًا في الأحساء والمناطق المتاخمة وفي القصيم. ولم تكن تلبية الطلب المتزايد على الخضروات والفواكه ممكنة إلا بفضل مزارع كبيرة ومتوسطة تستخدم المكائن والأسمدة. كما جرى إنشاء حقول للدواجن ومؤسسات للحوم والالبان[١٠٧]. واعطت مردودا عاليًا مناطق النخيل الواسعة في الأحساء والمدينة وبريدة وعنيزة، وحقول الخضروات والبساتين في الأحساء والخرج والمدينة [١٠٨].

ولكن على الرغم من مما اتخذته الحكومة من إجراءات وما حققته المزارع الرأسمالية من نجاح فإن الزراعة في البلد عمومًا عانت من الصعوبات في الستينيات والسبعينيات بسبب تقلبات السوق وأساليب الهندسة الزراعية المتخلفة والظروف الاجتماعية على حد سواء. فقد غزت السعودية المنتجات الزراعية الرخيصة المتدفقة من بلدان أخرى. ولم تجرؤ الحكومة على زيادة الرسوم المستحصلة عنها خشية ان

يؤدي ارتفاع الأسعار إلى استياء واسع في أوساط السكان. بيد أن مزاحمة الأغذية المستوردة أدّت إلى تقويض المزارع الصغيرة وجزء من المزارع المتوسطة. فقد افلس الفلاحون، مالكو ومستأجرو القطع الصغيرة من الأراضي لعدم توفر المال الكافي لشراء المعدات والأسمدة والبذور، ولجهلهم بالطرق الحديثة في الزراعة والظروف المتجددة في السوق. ولوحظ في الواحات نقص في الأيدي العاملة لان الفلاحين الشباب والنشيطين كانوا يهاجرون بوتائر سريعة إلى المدينة للعمل في البناء أو أجهزة الدولة أو في قطاع الخدمات والتجارة [١٠٩].

وأدّى استخدام المضخات الميكانيكية في المزارع الكبيرة وزيادة استهلاك المياه من قبل المدن والمصانع إلى انخفاض المنسوب العام للمياه وجفاف الآبار وهلاك المزروعات والبساتين وواحات باكملها. وزاد في الطين بلة قحط الخمسينيات والستينيات. ولم يتمكن الفلاحون الفقراء من شراء مضخات أحدث وحفر آبار اعمق، لذا فإنهم «اكتسحوا» من الإنتاج الزراعي. وظهرت هناك مزارع كبرى تعود ملكيتها لأشخاص لا يسكنون الريف ويديرها مصريون أو فلسطينيون ويعمل فيها يمنيون. وأصبح بعض الفلاحين المفلسين أجراء في المزارع الكبيرة الرأسمالية النمط، بينما هجر البعض الآخر أراضيهم أو باعوها وانطلقوا يبحثون عن الرزق[١١٠].

لقد كانت حصة الزراعة من الناتج الوطني الإجمالي في تقلص مستمر. إذ تفيد حسابات أوزولينغ ان الناتج الوطني الإجمالي محسوبًا للفرد الواحد ارتفع في الفترة من ١٩٦٤ / ١٩٦٥ حتى ١٩٧٤ / ١٩٧٥ من ٤٦٠ إلى ١٣٠٠ دولار، أما في الزراعة فقد ازداد من ٨٠ إلى ١٠٥ دولارات فقط. وإذا أخذنا نسبة التضخم في الاعتبار لوجدنا انه لم يكن هناك عمليًا أي نمو. وأصبحت الغالبية الساحقة من الفلاحين والرحّل تعاني من نقص مستمر في التغذية ومن الأمراض[١١١].

واوزولينغ على صواب حينما يقول ان «الزراعة وتربية المواشي ما برحا أكثر فروع الاقتصاد تخلفًا وركودًا». إلا أن رأيه في تحليل الأوضاع في الستينيات

والسبعينيات يبدو متشددًا جدًا، فهو يقول ان المزارعين لم يحصلوا على أي نفع من تطور صناعة النفط ومن الزيادة السريعة في واردات ميزانية الدولة». لقد استفادت العوائل الفلاحية والبدوية في تلك الفترة من عمل الفلاحين الموسمي في المدن ومن المعونات الحكومية وبرامج محو الأمية وتطوير المدارس وتحسين المواصلات.

في «عصر البترول» راحت الزراعة في السعودية ضحية لتصادم قوى واتجاهات متباينة. ولم تعط المشاريع الحكومية وبناء السدود وحفر الآبار سوى مردود محدود بسبب تفشي الفساد في الأجهزة التي كانت تفرض أسعارًا تزيد على سعر الكلفة أضعافًا، وبالتالي فإن تلك المشاريع كانت في النتيجة خاسرة[١١٢]. ومن الأسباب التي عرقلت تطور الإنتاج في الواحات كثرة الاستثمارات الصغيرة واستمرارية العلاقات الإقطاعية وما قبل الإقطاعية التي تكبل الفلاحين. وكانت قلة ريعية توظيف الأموال في الزراعة بسبب مزاحمة الأغذية المستوردة، تقترن بتسرب الأيدي العاملة إلى المدينة. فقد كان البلد يستورد زهاء نصف ما يستهلكه من الأغذية[١١٣]. وفي ظل العلاقات الإنتاجية القائمة في الزراعة وخصوصية حالة السوق واجه القطاع الزراعي الهام جدًا صعوبات بالغة في الستينيات والسبعينات.

استمرار انحلال الاقتصاد التقليدي وضمور الهيكل العشائري

إن نمط حياة بدو الجزيرة العربية واقتصادهم الذي ظل قائمًا لأكثر من ألف سنة، أخذ يتغير بسرعة في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الحالي. فقبل تدفق عائدات النفط أدّى تطور النقل الآلي في العربية السعودية وسائر بلدان الشرق الأوسط إلى حرمان أصحاب الإبل من الأسواق الأساسية للماشية، كما أدّى قيام الدولة المركزية إلى حرمانهم من العوائد التي يحصلون عليها من غزواتهم على المستوطنين ومن رسوم القوافل المارة.

وفي أواخر الخمسينيات ومستهل الستينيات جاءت كارثة الجفاف لتسرع من انحلال الاقتصاد البدوي، وأدّت إلى نفوق عدد كبير من الماشية وإلى إفلاس البدو. واضطر البلد إلى استيراد الأغنام والإبل. وتفيد معطيات خبراء الجامعة العربية بأن

عدد رؤوس المواشي تقلص في المنطقة الشرقية، مثلًا، عشرات المرات[١١٤]. أما الباحثون الأميركيون الذين وضعوا «الدليل الإقليمي للعربية السعودية» فهم أكثر حذرًا في تقديراتهم ويذهبون إلى أن التقلص بلغ زهاء ٢٠٪ وذلك بسبب الجفاف ونضوب المراعي وانتقال شباب البدو إلى المدن [١١٥].

ويستفاد من مصادر مختلفة انه كان في السعودية في أواسط الستينيات ٠,٦ ــ ١ مليون رأس من الجمال و٤ ــ ٦ ملايين من الغنم والماعز و ٠,٢٥ مليون رأس من الأبقار [١١٦].

ويتفق الباحثون على أن عدد البدو الرحّل تقلص بوتائر سريعة في الخمسينيات والستينيات سواء من حيث الأرقام النسبية أو المطلقة. ولكن عدم توفر إحصاءات موثوقة لا يتيح الإمكانية للتحدث عن هذه العملية بالدقة الكافية المسندة بالارقام. ويقول تويتشل، استنادًا إلى تقديرات منظمة التغذية الدولية، ان ١٢٪ من سكان السعودية كانوا في عام ١٩٥٦ مزارعين مستوطنين وان ٦٦٪ كانوا بدوًا رحلًا (بمن فيهم شبه الرحّل) وان ٢٢٪ يقيمون في المدن. وقدر تويتشل العدد الإجمالي لسكان السعودية ما بين ٦,٣ ملايين نسمة، وهو يميل إلى الاعتقاد بأن عددهم كان ٤,٥ ملايين نسمة. وبعد تسع سنوات بلغت نسبة البدو، في اعتقاد خبراء الجامعة العربية، ٣٠٪، منهم في نجد ٥٠٪ وفي مناطق الحجاز الساحلية ٢٠٪. ويذكر «الدليل الإقليمي للعربية السعودية» ان تربية المواشي كانت في أواسط الستينيات مصدر الدخل الرئيسي لنصف السكان على الرغم من ان البدو الذين يقتصرون على رعاية الإبل لم يكونوا يشكلون سوى ٢٠٠ ــ ٣٠٠ ألف شخص من المجموع الكلي للسكان البالغ ٤ ــ ٤,٥ ملايين[١١٧].

حتى أواسط الستينيات اضطرت جماهير البدو الرحّل إلى الحفاظ على تربية الإبل، باعتبارها المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه لإقامة الاود، وان كان على شفا الجوع، وذلك لعدم توفر بديل مقبول للعمل. ولكن السياسة الحكومية في مجال توطين البدو لم تثمر سوى عن نتائج جزئية ومحدودة.

وفي أواخر الستينيات أقر برنامج لعشرين عامًا نص على التوطين التدريجي لزهاء ٦٠ ألف أسرة بدوية (٤٠٠ ـ ٤٥٠ ألف نسمة) بيد انه لم ينفذ[١١٨]. فإن مصادر المياه المتوفرة كانت عاجزة عن ارواء مساحات جديدة من الأراضي بدون توظيف مبالغ طائلة، علمًا بأن خيرة الأراضي كانت مستثمرة بالفعل. وحتى عندما عمدت الدولة إلى ارواء آلاف الهكتارات، كما فعلت في حرض، على منتصف الطريق بين الرياض والدمام، لم يكن البدو يوافقون بالتوطن إلا على مضض. وحصل ان البدو الذين لم يعتادوا ممارسة الزراعة، كانوا يعودون إلى نمط حياتهم السابق بعد ممارسة العمل الحقلي موسمين أو ثلاثة دون تحقيق تحسن في مستواهم المعيشي. كما لم يكن سهلًا استئصال ازدراء البدوي بعمل الفلاح[١١٩]. ولكن العودة إلى حياة البداوة كانت في الستينيات استثناء وليس قاعدة وإذا كان التكيف للزراعة صعبًا على البدو، فإنهم وجدوا في المدن طائفة واسعة من الأشغال، كما تلقوا معونات حكومية هناك.

وكما هي الحال بالنسبة لسائر فئات السكان فإن البدو تأثروا بالصناعة النفطية. ففي الثلاثينيات بدأت شركات البترول تستخدم البدو كادلاء في البداية ثم كعمال غير مهرة. ولكنها سرعان ما تيقنت من انهم يمارسون العمل الأول برغبة ورضا، بينما يعزفون عن الثاني. وأقبل البدو على قيادة السيارات إذ ان استبدال مقود الإبل بمقود السيارات لم يبد أمرًا مهينًا حتى لأبناء الشيوخ، بل كان متماشيًا مع نفسية البدوي[١٢٠].

افتتحت أرامكو دورات خاصة لتعليم شباب البدو قيادة وتصليح الشاحنات[١٢١].

وفي الخمسينيات والستينيات شجعت الحكومة بيع السيارات للبدو فأخذ بعضهم يبيع الإبل ليشتري شاحنات. وبفضل عطايا الملك النقدية والعينية تسنى للمشايخ شراء وسائط النقل. وصارت الشاحنات تحل محل الجمال حيثما سمحت بذلك طبيعة المنطقة، كما صارت تستخدم في نقل المياه إلى المراعي أو نقل الأغنام والماعز من مرعى إلى آخر.

اكتشفت مصادر جديدة للمياه بفضل أعمال الحفر التنقيبي الحثيثة. ولم تعد هذه المصادر تعتبر ملكًا لقبيلة بعينها، بل صارت تقام حولها خيام يسكنها أفراد قبائل وافخاذ عديدة. وأصبحت تضمحل شيئًا فشيئًا. حدود الديرة التقليدية، أي أراضي القبائل التي كانت ترسم حدودها وفقًا لوجود المراعي والينابيع.

أخذت الحكومة تزود البدو ببذور البرسيم لزراعتها في الوديان بعد هطول الأمطار، وجرى تعويد الرحّل على تجميع احتياطي من الحشائش تحوطًا للجفاف، مما ساعد على التحول إلى النمط شبه المتحضر وشبه البدوي في تربية المواشي[١٢٢].

شرع البدو الرحّل سابقًا يقيمون مضاربهم بالقرب من البلدات والمدن التي يقيم فيها العاملون في حقول النفط، وأخذوا يشاركون في خدمة هذه الحقول ويزاولون الزراعة.وانشأ البدو يقيمون بيوتًا طينية، وظهر في مرابعهم مسجد ومدرسة ابتدائية ودكانٍ أو اثنان[١٢٣].

ان تطور المدن وازدياد الطلب على اللحوم والتحسن في مجال توفير المياه واستخدام الشاحنات، مكنت جميعًا البدو من تغيير تركيبة قطعانهم. فلئن كانت تربية الإبل تعد قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية العمل الرئيسي لأكبر قبائل البدو في السعودية، فإن هذه القبائل تحولت تدريجيًا، منذ الخمسينيات والستينيات، إلى تربية الأغنام. ويعزى ذلك إلى أن تربية الأغنام تتطلب قدرًا أقل من الحل والترحال وتتيح للرجال والنساء على حد سواء ممارسة أشغال أخرى، يتعذر القيام بها على مربي الإبل. وأصبحت تربية الأغنام عملًا مربحًا.

فيما مضى كانت تربية الماعز والأغنام وقفًا على الأقوام شبه الرحّل والقبائل «الوضيعة» وتعتبر دليل مركز اجتماعي واقتصادي ادنى. ولكن في أواخر الستينيات أصبح مالكو القطعان الكبيرة من الماعز والأغنام من أثرى الرحّل وأكثرهم نفوذًا. وجرى استخدام القوة المأجورة على نطاق متسع في رعاية القطعان[١٢٤].

كانت قبيلة آل مرة تعتبر من آخر القبائل البدوية النقية في السعودية، وتعتاش حتى الآونة الأخيرة من تربية الإبل حصرًا. ولعبت عزلة الربع الخالي، الذي ترتحل

فيه، وقساوة ظروفه الطبيعية دورًا مهمًا في استمرارية النشاط الاقتصادي التقليدي، إذ ان الجمال فحسب تحتمل ظروف هذه المنطقة.

ولكن حتى في هذه القبيلة أخذ الوجهاء والفقراء يزاولون تربية الأغنام. وأصبح الفقراء أول النازحين عن القبيلة، هذا بينما آثر «المتوسطون» الحفاظ على نمط الحياة السابق. وقد شرع الوجهاء ببيع الإبل أو توزيعها على الأقرباء والزبائن، بغية تربية الأغنام. واستخدموا لهذا الغرض الأجراء. واعتبر من عمل بتربية الأغنام من آل مرة مكافئًا لمربي الإبل من الناحية الاجتماعية.

نزح عدد لا يستهان به من رجال آل مرة الفقراء إلى المدن لغرض الكسب، ولكنهم عادوا إلى ديارهم فيما بعد. واشترى بعض منهم شاحنات وزاولوا تربية الأغنام[١٢٥].

ولئن كانت الحال هكذا في قبيلة آل مرة البدوية النقية، فإن من السهل التكهن بأن هذه العمليات جرت بوتائر أسرع وأكثف في قبائل الرحّل الأخرى الاقرب إلى مراكز استهلاك المنتجات الحيوانية والتي لديها مصادر أوفر من المياه [١٢٦].

أتاح استخدام الشاحنات في تربية الأغنام الإمكانية لبعض الأسر للتوطن في القرى. وأخذ الوهن يدب في صلات القربى داخل القبائل لان مربي الأغنام نادرًا ما يرتحلون سوية مع رعاة الإبل. في بعض الأحيان كان مربو الأغنام يعودون إلى مراعيهم القديمة صيفًا، ولكنهم في الأغلب كانوا يمكثون قرب الآبار الجديدة حيث يسكن أبناء قبائل أخرى. وأدّى الانفصال الاقتصادي عن رعاة الإبل والتخالط مع القبائل والأشغال الجديدة إلى قيام روابط اجتماعية جديدة وتغير نفسية الرحّل. وأصبح تزاوج أبناء وبنات العمومة أقل انتشارًا بين البدو[١٢٧].

وان التغيرات في النشاط الاقتصادي في ظروف الأمن النسبي الذي توفره الدولة المركزية أدّت إلى إضعاف تبعية الأسر البدوية للتنظيم العشائري الحربي - الديمقراطي. وتقلص حجم الوحدة العائلية القائمة بذاتها اللازم لبقائها على قيد الحياة[١٢٨]. وأدّى العمل في المدينة إلى المزيد من الوهن في الصلة بين الخلايا العائلية المنفصلة والقبيلة.

وتأثرت السيكولوجية العشائرية بوسائل الاعلام، إذ ظهرت أجهزة الراديو والتلفزيون في المضارب. وكان الاطلاع على القيم الاجتماعية الجديدة متقدمًا في بعض الحالات على تغير النشاط الاقتصادي.

وتسرب من التنظيم العشائري أنشط أفراده منجذبين إلى الوظائف المغرية في القوات المسلحة والشرطة أو في جهاز الدولة البيروقراطي وزودوا الحرس الوطني والهجانة والشرطة بكوادر الضباط، كما زاول بعض ممثليهم التجارة. وأصبحت هيبة المناصب الجديدة والرواتب العالية عاملًا منافسًا لمشاعر الافتخار بالنسب وكرم المحتد[١٢٩].

وبغية الاحتفاظ بولاء علية البدو دأب السعوديون على مدهم بالأموال مقابل الكف عن مهاجمة المتوطنين وجباية الإتاوات من القوافل. وتزايدت هذه العطايا مع تزايد عوائد النفط[١٣٠]. وأصبح الإخلاص للملك والقرب من ديوانه مؤشرين على رفاهية العلية ومكانتها الاجتماعية، إلى جانب ما توفره لها من مكانة ملكيتها من المواشي أو الأراضي في الواحات، وسطوتها داخل القبيلة وارتكازها على بقايا البنية الحربية الديمقراطية. وانتقل عدد من شيوخ قبائل البدو إلى المدن ومارسوا البزنس، مما أدّى أيضًا إلى إضعاف الروابط العشائرية التقليدية[١٣١].

بيد أن الوهن الذي أصاب التنظيم العشائري لم يعن اندثار عامل صلات العشيرة والدم من مجتمع الجزيرة. فحتى في المدن احتفظ أبناء كل قبيلة بروابط التعاضد والتضامن، وكانوا يؤثرون أن يسكنوا ويعملوا سوية ويتفاخروا بنسبهم على أبناء العشائر الأخرى أو على «مقطوعي الأصل»[١٣٢]. وظلت صلات الفخذ والعشيرة تحدد دور الفرد ونجاحاته واخفاقاته في الجهاز البيروقراطي والجيش والشرطة بل حتى في ميدان الأعمال.

وفي الخمسينيات لم يكن البسطاء من البدو يحصلون إلا على جزء يسير من الأموال التي تقدمها الأوساط العليا. وقد كتب عن ذلك الأمير طلال الذي تزعم

في الستينيات رابطة «الأمراء الأحرار» في كتابه «رسالة إلى مواطن»[١٣٣]. كما أشار فيلبي إلى أن «سيل الثروات الاسطورية لم يعد على الصحراء إلا بنذر يسير من الفوائد الفعلية. فقد ظل التعليم والخدمات الصحية بمنأى عن البدوي. وعلى الرغم من ارتفاع أسعار المنتجات الحيوانية، فإن مستوى حياة البدو انخفض»[١٣٤].

وقد أدركت الأسرة السعودية الحاكمة خطورة تعاظم الاستياء بين البدو، فشرعت منذ الخمسينيات باتخاذ تدابير للحد من التأثيرات السلبية لازمة الاقتصاد البدوي. وبفضل عوائد النفط تسنى للدولة تقليص الزكاة إلى النصف. وكان عشرات الآلاف من البدو يقيمون مضاربهم حول الرياض والمدن الأخرى وتتولى الدولة اطعامهم لمدة أسابيع أو أشهر. وفي مستهل الستينيات كانت الدولة تمون أكثر من نصف مليون بدوي، واستمر العدد في الارتفاع خلال الستينيات والسبعينات[١٣٥].

نشأ وضع غير طبيعي: إذ ان النشاط الاقتصادي لشريحة لا يستهان بها من السكان توقف أو تحوّل إلى مصدر ثانوي للدخل، ولكن لم يستعض عنه بمصدر آخر. وصار عشرات الآلاف، ان لم نقل مئات الآلاف، من البدو يعيشون اضطرارًا متطفلين على حساب جزء من الريع النفطي كانت الطبقة الحاكمة تقاسمهم اياه.

نشوء الطبقة العاملة السعودية وخصائصها: العمل المأجور

ان نشوء سوق الأيدي العاملة المأجورة عملية طويلة الأمد تنضج خلالها هذه السوق في أحشاء المجتمع السابق للرأسمالية، وتتضمن العملية المذكورة : انعزال المنتجين المباشرين عن وسائل الإنتاج طوال عقود بل قرون أحيانًا. وزيادة نسبة السكان العاملين في الصناعة والتجارة مع ما يقترن بذلك من درجة مهنية مناسبة وتغيرات اجتماعية سيكولوجية، وتوسع تدريجي في ميدان استخدام العمل المأجور. ولقد جرت هذه العملية في العربية السعودية بسرعة بالغة، خلال حياة جيل أو جيلين ورافقها هدم موجع للنمط القديم.

منذ اللحظات الأولى احتاجت أرامكو إلى اليد العاملة المحلية، ولكن لم تتوفر

في المجتمع الإقطاعي العشائري سوق فعلية لها. بيد أن الأعمال التي عرضتها الشركة كانت تعد بتحسين الأحوال المادية والوضع الاجتماعي لبعض فئات السكان الذين تركوا مهنهم السابقة (ووسائل الإنتاج ان كانت لديهم) وأصبحوا العمود الفقري للقوى العاملة ونواة الطبقة العاملة المحلية المقبلة.

عام ١٩٦٥ كان ٧,٦٪ من عمال أرامكو يتحدرون من أصل بدوي و٢٣,٤٪ يعتبرون انهم على صلة بالعشائر ٤٤,٨٪ من الفلاحين، أما القسم المتبقي فهم من صيادي الاسماك والبحارة والغطاسين الباحثين عن اللؤلؤ والحرفيين[١٣٦].

واشتغل كعمال لدى الشركة أبناء العشائر «الدنيا» مثل العوازم والشرارات وفلاحون وأجراء زراعيون أو حرفيون من أبناء الطائفة الشيعية في المنطقة الشرقية[١٣٧]. ولم يكن هؤلاء «يزدرون» بالعمل الجسدي وبالأجانب «الكفار». وفيما يخص البدو« الكريمي المحتد» أو المتوطنين من الوهابيين المتعصبين، فقد دفعهم إلى العمل الجوع والفاقة[١٣٨]. وكما أسلفنا فإن البدو عملوا كحراس وسواق وعمال كهرباء، بيد انهم لم يكونوا مكيفين لممارسة العمل الجسدي المضني أو الرتيب الممل.

في بادئ الأمر استخدمت أرامكو حتى العبيد الذين استأثر مالكوهم بجزء من أجورهم. وكان يصادف أن يضطلع شيخ القبيلة أو التاجر المرابي بدور الوسيط الذي يوفر العمال للشركة ويتقاضى جزءًا من أجورهم. ولم يتسع نطاق هذه الممارسات، إذ فضلت أرامكو استخدام أشخاص يتوقف مصيرهم عليها وليس على الوسطاء أو الشيوخ أو أصحاب العبيد. واضطرت الشركة إلى فتح مدارس ودورات مختصة لإعداد الأخصائيين المؤهلين من بين السعوديين.

في مطلع السبعينيات استقر عدد العاملين لدى أرامكو في حدود ١١ ـ ١٣ ألفًا[١٣٩].

ان تمركز الطبقة العاملة الفتية في مؤسسة واحدة وظروف العمل الشاقة وانخفاض مستوى الأجور. هذه العوامل جميعًا ساعدت على تحقيق الخطوات الأولى في

تنظيم العمال ونضالهم دفاعًا عن حقوقهم. وغالبًا ما كان العمال الوافدون من البلدان العربية على درجة أعلى من الوعي البروليتاري والخبرة التنظيمية. وبعد اضطرابات عامي ١٩٥٣و ١٩٥٦، قامت إدارة أرامكو والسلطات السعودية بممارسة البطش والتنكيل ضد العمال. وسرح العمال «المشتبه بهم سياسيًا» والذين ادرجوا في القوائم السوداء[١٤٠].

بيد أن البطش والملاحقة والضغوط والتمييز لم تكن تمثل سوى جانب واحد من جوانب نشاط الشركة والسلطات السعودية الرامي إلى الحيلولة دون حصول تحركات عمالية. وقد كانت الأرباح التي تحصل عليها أرامكو في السعودية طائلة وعدد العمال ضئيلًا إلى حد جعلها تزيد أجورهم بنسبة كبيرة. وشملت الزيادة بالدرجة الأولى العمال المهرة، والذين أصبحت أجورهم منذ أواخر الخمسينيات أكثر من رواتب صغار موظفي الدولة ورجال الشرطة، وتزيد على أجور العمال غير المهرة بـ ٤ ـ ٦ مرات. وفي السنوات التالية ظلّت نسبة زيادة أجور العاملين لدى أرامكو ومستوى حياتهم أعلى من زيادة مدخول سائر العاملين بالاجرة[١٤١].

في أواخر الأربعينيات عمل في أرامكو عشرة آلاف سعودي غالبيتهم من العمال غير المهرة. وبعد مضي عشر سنوات صار ثلثا السعوديين من العمال المهرة وشبه المهرة. وخلال الفترة نفسها أسندت إلى ٤٤ سعوديًا مناصب مهمة في الشركة وعين زهاء ثلاثة آلاف سعودي في الحلقات الوسيطة[١٤٢]. وظل عدد السعوديين المشتغلين بشكل دائم في أرامكو كعمال أو موظفين في ارتفاع مستمر فبلغ عام ١٩٦٤ نسبة ٨٠٪ من مجموع العاملين (١٢٨٠٠)، وازدادت النسبة عام ١٩٧٠ إلى ٨٣٪ (من مجموع ١٠٣٥٣)[١٤٣]. وأصبح كثيرون من السعوديين يعملون جيولوجيين ومهندسين وفنيين وأطباء وحفارين ومحللين في المختبرات. وكانت التغيرات في البنية العامة للقوى العاملة بأرامكو ناجمة عن الارتفاع الملموس في الكفاءة المهنية للسعوديين العاملين في مجالات النفط والذين جرى تأهيلهم في مراكز تدريبية وورشات بمناطق استخراج النفط وفي خارج البلد. ففي عام ١٩٧١ بلغت نسبة الفنيين ورؤساء العمال

والمهندسين والمدراء ١٤,٥٪ (مقابل ٠,١٪ عام ١٩٥٢) من المجموع الإجمالي للسعوديين العاملين في أرامكو. ونسبة العمال المهرة ٥٩,٤٪ (مقابل ٣٪ عام ١٩٥٢) والعمال غير المهرة ٢٦,١٪ (٩٦,٩٪عام ١٩٥٢)[١٤٤].

وارتفع معدل الأجر السنوي للسعوديين في أرامكو من ٣٨٠٠ ريال عام ١٩٥٣ إلى ١٠٧٠٠ ريال عام ١٩٦٤، وأصبح من أعلى المستويات لدى أرامكو ١٧٨٠٠ ريال[١٤٥]. وعلاوة على ذلك أخذت إدارة الشركة تدفع للذين امضوا مدة طويلة في العمل «النزيه» علاوات ومكافآت خاصة وتوفر لهم بيوت السكن المزودة باسباب الراحة، أو تمدهم بسلف تسدد على اقساط لشراء بيوت[١٤٦]. وكانت الشركة تتولى تسديد جزء من القروض المقدمة لشراء بيوت، وفي نهاية عام ١٩٧٠ كان ٨٨٪ من جميع السعوديين العاملين لدى أرامكو يمتلكون بيوتًا[١٤٧]. وبذا يصبحون مدينين للشركة، الأمر الذي ثبت الملاك عمليًا. كما قامت أرامكو بافتتاح مستشفيات ومدارس ومستوصفات، وبتشجيع منها مارس جزء من العمال التجارة.

وبعد أن تخلصت الشركة، بمساعدة السلطات السعودية، من العمال النشطاء سياسيًا قامت بـ«شراء» الآخرين وانقذت نفسها مؤقتًا من التحركات العمالية المنظمة.

ولم تكن الظروف الاجتماعية السياسية العائق الوحيد في طريق تكون الطبقة العاملة السعودية، إذ ان ضيق سوق العمل المأجور الناجم عن قلة عدد السكان قد لعب دوره أيضًا. ويذكر «الدليل الإقليمي» ان العاملين بالاجرة كانوا يشكلون ربع المجموع الكلي للفاعلين اقتصاديًا الذي بلغ مليون شخص عام ١٩٦٥. ويمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات: أولًا ـ العمال الأجراء أبا عن جد في الحرف والتجارة والخدمات والزراعة. ثانيًا ـ الذين انخرطوا للخدمة في جهاز الدولة. ثالثًا ـ الذين اشتغلوا في الصناعة الحديثة والقطاع التجاري.

وكانت الحكومة أكبر مستأجر للايدي العاملة ـ ١٥٠ ألفًا في عام ١٩٦٥، علمًا

بأن الوافدين كانوا يشكلون نسبة كبيرة بين مستخدمي الدولة. وفي مطلع السبعينيات تجاوز عدد موظفي جهاز الدولة (ما عدا الجيش والشرطة) ١٢٠ ألف شخص.

وكان في البلد آنذاك ١٨ ألف عامل صناعي في مدن المنطقة الشرقية الظهران ورأس تنورة والخبر والدمام (في صناعة النفط أساسًا والفروع المرتبطة بها) وكذلك في جدة. وكان الأجراء يشكلون ٨٢ ألفًا من باقي العمال في عام ١٩٦٥ .

وفي عام ١٩٧٠ قدرت مديرية التخطيط المركزية في العربية السعودية عدد العاملين بـ ١٥٠ ألف شخص (ما عدا مستخدمي الدولة والقوات المسلحة). ويعمل نصفهم تقريبًا في الزراعة ـ ٤٧٦ ألفًا (يشكل البدو ١٤٥ ألفًا منهم)، ويعمل في صناعة النفط والمعادن ٢٩ ألفًا، وفي الصناعة التحويلية ٥٢ ألفًا، وفي البناء ١٤٢ ألفًا، وفي الكهرباء والمرافق العامة ٢٠ ألفًا وفي التجارة ١٣٠ ألفًا، وفي النقليات والمواصلات والمستودعات ٦٢ ألفًا، وفي الخدمات ١٣٨ ألفًا. وتجدر الإشارة إلى أن المؤسسات التي يزيد عدد عمالها على الخمسين كانت تعد على أطراف الاصابع (ما عدا صناعة النفط).

وبالمقارنة مع البلدان النامية الأخرى فإن نسبة العاملين في القطاع الزراعي كانت في السعودية اوطأ، أما نسبة العاملين في حقل الخدمات فهي أعلى.

وفيما يخص البنية الاجتماعية في المدن فإن العاملين في الصناعة كانوا يشكلون نسبة ضئيلة في حين أن جهاز الدولة متضخم للغاية. وتشكلت الفئات الدنيا من سكان المدن من أشباه البروليتاريين القادمين في غالبيتهم من الأرياف (الفلاحين والبدو) والأميين وغير المؤهلين. وقد استخدموا كعمال دائمين أو مؤقتين غير مؤهلين في البناء والتجارة والخدمات، ولكن كثيرين منهم كانوا يتقاضون إعانات من الحكومة[١٤٨].

وفي أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات وضع في البلد حد ادنى رسمي لأجرة العامل قدره ستة ريالات في اليوم، ولكن أصحاب الأعمال لم يكونوا عادة يتقيدون به وخصوصًا بالنسبة للعمال الأجانب. وحتى إذا اعتمدنا الاحصاءات الرسمية نجد ان الحد الأدنى لاجور العمال السعوديين في التجارة بلغ ٢٠٠ ـ ٢١٠ ريالات شهريًا

ولغير السعوديين ١٢٠ ـ ١٨٠، وفي الخدمات ١٣٠ ـ ١٧٠ ريالًا للسعوديين و ١٤٠ ـ ١٥٠ لغيرهم و ١٠٠ ـ ١٢٠ في الحرف للسعوديين مقابل ٩٠ ـ ١١٠ لغيرهم. وكان الوضع أفضل بكثير بالنسبة للعمال شبه المؤهلين إذ كان هناك طلب مستمر عليهم. وفي المتوسط كان الواحد منهم يتقاضى ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ريال شهريًا في القطاع الخاص (باستثناء الصناعة النفطية) و٦٠٠ ـ ٧٠٠ ريال في مؤسّسات الدولة. ويداني هذه الفئة من حيث المداخيل موظفو المكاتب الذين راوح مرتبهم الشهري بين ٣٠٠و٥٠٠ ريال. وعمومًا كانت هذه الفئة من العاملين بالأجرة توفر الحد الأدنى للمعيشة. أما العمال المؤهلون فقد كانوا يحصلون، وفق المعايير آنذاك، على مداخيل كبيرة: ٧٠٠ ـ ١٠٠٠ ريال شهريًا وتصل إلى ١٥٠٠ ريال لذوي المهارة العالية[١٤٩].

كيف كانت صورة البنية الاجتماعية لمدينة في وسط الجزيرة، مثلًا، وما هي الإمكانيات التي كانت متوفرة فيها لإنشاء سوق للعمل المأجور؟ يمكن استخلاص الجواب من دراسة أجراها الباحث الاجتماعي السعودي عبد الرحمن الشريف في عنيزة في أواسط الستينيات. كان في المدينة آنذاك ٢١٦ حرفيًا و٣٥٠ صانعًا، أي ان عدد الأسر المعتاشة على الحرف يقرب من ٥٦٠ (١٨ ـ ٢٠٪ من سكان المدينة). هذا ما يقوله الباحث، ولكن يبدو لنا ان عدد الأسر كان أقل إذ غالبًا ما يعمل الأبناء مع أبيهم والاخوة مع أخيهم. ويدرج الباحث في فئة «الحرفيين» القصابين والنجارين والخبازين والدباغين والبنائين والحمالين والصباغين والحدادين والميكانيكيين والحاكة والحلاقين وأصحاب الكاراجات وورش تصليح السيارات والطحانين والغسالات والكهربائيين[١٥٠].

وأشار باحثون آخرون إلى أن نظامًا غير دقيق للتصنيف الحرفي كان قائمًا في السعودية، وكان لدى التجار شيوخ يمثلونهم في مجلس المدينة ويتابعون المواصفات ونوعية البضائع والتقيد بالعرف التجاري[١٥١].

وفي مطلع الستينيات كان في عنيزة ٢٣,٥ ألف نسمة ويزيد عدد النساء بثلاثة آلاف على الرجال الذين غادر كثيرون منهم إلى مناطق أخرى بحثًا عن الرزق[١٥٢].

كانت عنيزة مركزًا تجاريًا كبيرًا نسبيًا ومن أضخم المراكز في نجد، وليبوتاتها التجارية صلات مع الرياض والدمام وجدة ومكة والمدينة، وكذلك مع العراق والكويت وسوريا[١٥٣].

تكوّن في المدينة حي خاص سكنه ٥٠٠ بدوي، الكثيرون منهم وفدوا من هجر الإخوان السابقة. وصار البدو موظفين صغارًا وانتسبوا إلى الجيش، وتعلموا السياقة[١٥٤]. واضطر بعضهم أن يصبحوا بنائين وعمالًا زراعيين ورعاة، ولكن الازدراء البدوي التقليدي بالعمل الجسدي والحرف ظل قائمًا.. وبالإضافة إلى ذلك أصر البدو على عدم التزاوج خارج إطار القبيلة ولم يزوجوا بناتهم حتى لأثرياء الحضر[١٥٥]. ولكن فرص الاغتناء الاقتصادي وتسلق السلم الوظيفي للحضر جعلت الكثيرين منهم يتعالون بدورهم على البدو[١٥٦].

لقد توفرت في مدن الجزيرة المستلزمات الموضوعية لقيام سوق محدودة للعمل المأجور. وكان الصناع والعمال غير المؤهلين والفلاحون المفلسون والبدو مرشحين لأن يصبحوا بروليتاريين. ولكن كان ثمة مشاكل ذات طابع اجتماعي نفساني تعترض سبيل نشوء الطبقة العاملة.

ويطرح عدد من الباحثين الأميركيون رأيًا جازمًا مفاده ان «قابلية العمل لم تكن مرتبطة بالوضع الاجتماعي في السعودية. والارجح ان من كان يسمح لنفسه بعدم مزاولة عمل كان في وضع اجتماعي ارقى... فإن للعمل في العربية السعودية مكانة واطئة في حين ان الناظر أو المساهم في اتخاذ القرارات السياسية كان في موقع ارقى. لذا ظلّت الخدمة في أجهزة الدولة العمل المنشود. فحتى صغار الموظفين يتمتعون بالاحترام... وفي العادة فانه كلما ارتفع مقام الشخص قل عمله. وينطبق هذا بشكل خاص على الجهاز الحكومي. فالموظف الذي يتسنّم منصبًا أعلى في جهاز الدولة يكون له امتياز مباشرة العمل في وقت متأخر والانصراف قبل الآخرين، ولديه متسع أكبر لتسلية «الزوار»[١٥٧].

ويقول عبد الرحمن الشريف ان الحرفيين وتلاميذهم كانوا مرتبطين بعلاقات

تشبه علاقة الأب بابنه. وكانت النزعة «الأبوية» في السعودية عاملًا قائمًا في العلاقات بين أرباب العمل والعمال. إذ كانت الروابط العائلية والوضع الاجتماعي متقدمة على اعتبارات الأهلية والفعالية. ولعبت الروابط الشخصية العائلية دورًا مهمًا في التوظيف(١٥٨).

وكان رب العمل يمثل السلطة والهيبة وعليه في الوقت نفسه الاهتمام باحتياجات العمال. كما انه يفقد هيبته إذا لم يبد تشددًا وصرامة. ولكنه كان يفقد الاحترام والتعاطف إذا لم يساعد العامل عند مرضه أو زواج ابنه أو لم يسد له النصح والمشورة(١٥٩).

وكان رب العمل ينتقي عماله من بين أفراد عائلته ومعارفه. وعلى الرغم من أن هذا التقليد ظل معمولا به في الشركات التجارية والصناعية الصغيرة، فإن استخدام العمال «بصرف النظر عن الروابط الشخصية» صار متبعا في المؤسسات الكبيرة في الستينيات(١٦٠).

ويشير «الدليل الإقليمي» إلى أن «الصناعي كان يطلب من العمال الأمانة والدقة والاستعداد للخضوع للسلطة والنظام المعمول به بصرف النظر عن العوامل الشخصية، وكانت تلك كلها أمورًا غريبة على أبناء البلد الأعراب القادمين من الأرياف الذين لم يعتادوا ساعات العمل المنتظمة وكانوا ينتظرون معاملة أبوية من رب العمل»(١٦١).

وأدّى الازدهار النفطي وأزمة الزراعة وتربية المواشي وظهور أعمال جديدة في المدن وارتفاع مستوى الحياة فيها إلى تمدن سريع في العربية السعودية. وقد كان السكان دائمًا موزعين بشكل غير متساو في البلد، إذ ان غالبيتهم قطنوا المناطق الواقعة بين المدينة والطائف في سهل الحجاز الساحلي وفي عسير ونجد من بريدة إلى الخرج وكذلك في المنطقة الشرقية بين رأس تنورة وحرض. وزاد التمدن من التباين في توزيع السكان.

بلغ عدد سكان العاصمة السعودية الرياض زهاء ٨٠ ألفًا عام ١٩٥٥ وازداد إلى ١٦٢ ألفًا عام ١٩٦٢ وبلغ في مستهل السبعينيات ٣٠٠ ـ ٣٥٠ ألفًا، وبالنسبة لمكة بلغت هذه الأرقام على التوالي ١٠٠ ألف و ١٥٩ ألفًا و ٢٠٠ الف، وجدة ٨٠ ألفًا

و١٨٤ ألفًا و ٢٥٠ ـ ٣٠٠ ألف والمدينة ٥٠ ألفًا و ٧٢ ألفًا و ١٠٠ ألف والطائف ٨ آلاف و ٥٤ ألفًا و ١٠٠ الف. وفي نهاية الستينيات بلغ عدد سكان الهفوف والخرج زهاء ١٠٠ الف، وميناء الدمام ٤٠ ألفًا وميناء الخبر ٣٥ ألفًا[١٦٢]. وليس واضحًا إذا كانت هذه الأرقام تضم الوافدين أم لا.

الوافدون (الأجانب)

على الرغم من مصاعب الاندماج في المجتمع السعودي أقام في السعودية عدد كبير من الوافدين وغير العرب: العبيد والمعتوقون من أصل إفريقي واخلاف الحجاج الوافدين من بلدان مختلفة والذين استقروا في مكة وجدة.

وأدّى الطلب على الأيدي العاملة إلى اجتذاب أعداد متزايدة من الوافدين الجدد إلى العربية السعودية ، وخصوصًا المؤهلين[١٦٣]. كما ان البلد كان بحاجة إلى غير المؤهلين لممارسة الأعمال الشاقة أو المستهجنة. وصارت هذه الأعمال تسند إلى يمنيين وسودانيين وصوماليين. أما الفلسطينيون والأردنيون والسوريون واللبنانيون فقد أصبحوا تجارًا ومعلمين وموظفين وأطباء ومهندسين وحرفيين. وفي مطلع الستينيات عمل المصريون معلمين وموظفين، ولكن اثر تدهور وقطع العلاقات بين البلدين توقف تدفق القوى العاملة المصرية مؤقتًا[١٦٤]، واستؤنف بعد تحسن العلاقات بين الرياض ونظام السادات. وفي النصف الثاني من السبعينيات عمل في السعودية مئات آلاف المصريين في مختلف المجالات: من الطب والهندسة حتى العمل اليدوي غير المؤهل.

وقدر كناورهيز عدد الوافدين من غير السعوديين في مطلع السبعينيات ب ١٥ ـ ٢٠٪ في مكة والمدينة والطائف، و٢٣٪ في الرياض و٣٥٪ في جدة. إلا أن هذا الباحث لا يذكر هل تضم هذه النسب أحفاد المعتوقين والأجانب «القدامى» المتجنسين أم انها تقتصر على الوافدين مؤخرًا إلى البلاد.

في عام ١٩٦٤ ، كان الوافدون يشكلون حوالى ثلث الأيدي العاملة في المدن، وفي عام ١٩٦٨ ، صاروا يشكلون ٤٥٪ منها، وفي السنوات التالية أكثر من نصفها. من

الطبيعي ان نسبة الأجانب أكبر بين المهندسين والفنيين. فقد كان ٦٠٪ من مهندسي وزارة المواصلات مصريين واردنيين ولبنانيين وسوريين[١٦٥]. وكان الأجانب يشكلون الغالبية الساحقة من مدرسي المعاهد العليا وجزءًا كبيرًا من معلمي المدارس وموظفي الجهاز الإداري. وبلغت نسبتهم في الصناعة التحويلية وخصوصًا في الحجاز ٦٠ ـ ٧٠٪، وفي النقل والمواصلات ٥٠٪ وفي البناء ما بين ٣٠ ـ ٥٠٪ [١٦٦]. وعمل في أرامكو عدد كبير من الأجانب. وعلى الرغم من أن عدد السعوديين في ملاك الشركة ارتفع، إلا أنها استمرت في استقدام الأطباء من الهند والمحاسبين من الباكستان والمعلمين من الأردن ومصر والمترجمين من لبنان. وكان الفلسطينيون يشغلون الكثير من المناصب الهندسية الفنية وفي الحلقات الوسيطة من جهاز الموظفين[١٦٧]. وكانت نسبة السعوديين أقل في الشركات والفروع الأخرى.

وقد حظر على الأجانب العمل في المملكة دون اذن رسمي. وألزم الأجنبي بأن يدخل البلد بشكل شرعي وان يكون ممتلكًا ناصية معارف أو مهن يحتاجها البلد، وان يكون لديه مكان عمل متفق عليه مسبقًا. غير أن كثيرين دخلوا العربية السعودية بشكل غير شرعي، وبخاصة من اليمنيين[١٦٨].

وبلغ العدد الإجمالي للعمال الأجانب المسجلين عام ١٩٦٣ ـ ٧٦ ألفًا وعام ١٩٦٥ ـ ١٤٤ ألفًا وعام ١٩٦٧ ـ ١٦٥ ألفًا وعام ١٩٦٩ ـ ٢٣١ ألفًا وعام ١٩٧٠ ـ ٣٢٠ ألفًا[١٦٩]، وفي نهاية ١٩٧٢ ـ ٧٠٠ ألف[١٧٠]. ولا تشمل هذه الأرقام سوى القوى العاملة «شرعيًا» في المدن.

وثمة تقديرات تفيد بأن عدد الوافدين بلغ في النصف الثاني من السبعينيات ٢ ـ ٣ملايين. أي كان معادلًا تقريبًا لمجموع المواطنين البالغين. وربا عدد اليمنيين وحدهم على المليون[١٧١]، وعمل في العربية السعودية أشخاص ينتمون إلى ٥٠ قومية، بينهم بضع عشرات الآلاف من الأوروبيين والأميركيين[١٧٢]. ولم يكن هناك وضع مماثل إلا في إمارات الخليج النفطية وليبيا، ولكن أبعاد النزوح إلى السعودية كانت أكبر.

ان عواقب استيراد القوى العاملة بكميات كبيرة يصعب حصرها، ولكنها تعني

في المقام الأول ان وتيرة التغيرات الاجتماعية في العربية السعودية تتسارع وتنشأ تناقضات اجتماعية من نمط جديد.

المعتوقون ـ القبائل «الوضيعة» ـ النساء

ولئن كان ظهور الصناعة النفطية في البلد والارتفاع الحاد في مداخيل الفئة الحاكمة، واتساع السوق الداخلية قد أدّت إلى نشوء نمط رأسمالي وطبقة عاملة في البلد، فإن هذه العوامل نفسها عززت مؤقتًا في الأربعينيات والخمسينيات نمط العبودية، على الرغم من أن هذا الرأي قد يبدو متناقضًا. وقد تزايد آنذاك الطلب على العبيد[١٧٣].

أُلغي الرق في العربية السعودية عام ١٩٦٢ بضغط خارجي وليس داخليًا، على الرغم من أن بعض الأصوات ارتفعت داخل البلد أيضًا مطالبة بإلغاء هذه المؤسسة الاجتماعية المخزية. وظل الرق عمليًا موجودًا في السعودية حتى بعد الغائه. ولكن ليس كنمط قائم بذاته بل كان يجري إبقاء العبيد والإماء في عائلات الصفوة سرًا.

وحتى بعد إلغاء العبودية لم يصبح العبيد مواطنين متكافئين الحقوق في السعودية التي ظل مجتمعها محافظًا على صفات التقسيم الفئوي. ولكن ينبغي القول ان العبيد كان بإمكانهم في بعض الحالات بلوغ درجات عالية في السلم الوظيفي، كما هي الحال سابقًا.

وظلت القبائل «الوضيعة»: الصلبة (في الشمال) وهتيم والشرارات (في الحجاز) والعوازم (في الأحساء) وغيرها تعاني من الاجحاف. وكانت هذه القبائل ترفد البلد بالعمال والحرفيين لمزاولة «المهن المستهجنة» كالقصابين والحلاقين والموسيقيين والسمكريين. وحتى إذا تمكن بعض أبناء هذه القبائل من تجميع ثروة، فإنهم ظلوا كالسابق لا يتصاهرون مع القبائل «الكريمة المحتد». فقد أسّس عبد الله السليمان وهو شخصية معروفة من بني خضر، صار وزيرًا للمالية في عهد عبد العزيز، واحدًا من أكبر بيوتات الأعمال في المملكة. ولكن أبناء القبائل «الرفيعة النسب» مثل عنزة وعتيبة وشمر وقريش، ناهيك عن آل سعود وأرستقراطية القبائل، ظلوا يأنفون من مصاهرته[١٧٤].

ثمة سمات مشتركة للأوضاع الاجتماعية للوافدين والقبائل «الوضيعة» والصناع والشيعة. إذ انهم ظلوا وكأنهم خارج المجتمع ولا يتمتعون بحقوق سياسية.

من الأسباب التي أدّت إلى تفاقم الحاجة إلى الأيدي العاملة في السعودية وجود تقييدات كبيرة على العمل النسوي. فقد كانت أوضاع النساء تحدد طبقًا للشريعة بأكثر صيغها تشددًا وصرامة وكان علماء الدين يفرضون رأيهم على السلطات بهذا الخصوص على الرغم من تراجعهم في ميادين أخرى.

في مطلع السبعينيات أسّست معاهد للتمريض في الرياض وجدة والهفوف، وازداد عدد التلميذات في المدارس. وخلال الستينيات تعلمت القراءة والكتابة وتدبير الشؤون المنزلية وسواها ٥٧٠٠ امرأة في ١٧ دورة لمحو الأمية في الأرياف.

وكان المبدأ الرئيسي المعتمد يتمثل في توجيه النساء إلى الفروع والمهن التي تكفل ان يكون اختلاطهن مع قريناتهن فقط[١٧٥].

فعلى سبيل المثال تخرج في معهد الإدارة الحكومية منذ تأسيسه عام ١٩٦١ زهاء عشرة آلاف موظف ولم تكن بينهم امرأة واحدة[١٧٦].

تشريعات العمل

لم تعد أحكام الشريعة الإسلامية قادرة على استيعاب علاقات العمل الجديدة التي تطلب تقنينها. ونظرًا لنشوء الحركة العمالية أقرّت الحكومة عام ١٩٧٤ قانون العمل الذي كان في كثير من أحكامه نسخة عن القانون المصري. وفيما بعد عدلت مواد كثيرة منه وأدخلت إضافات. وكان من المفترض ان يسري القانون على كل مؤسسة صناعية أو تجارية أو زراعية يزيد عدد العاملين فيها على العشرة. ان مجرد الاعتماد الشكلي لتشريعات عمل على غرار ما جرى في مصر حيث اثمر نضال العمال الطويل عن حصولهم على بعض الحقوق، كان بحد ذاته خطوة مهمة في التقدم الاجتماعي.

لقد حدد القانون أسبوع عمل من ستة أيام ومدة يوم العمل ثماني ساعات وإجازة

سنوية بمرتب لمدة عشرة أيام وإجازة مرضية لمدة خمسة أيام. وحظر عمل الأطفال الذين دون العاشرة. وحددت مواد خاصة نظام العمل الإضافي وأجوره والتعويضات في حالة الإصابة بعاهة أثناء الواجب. وجعل الحد الأدنى للأجور ٥ ريالات يوميًا. ونص القانون على أن عقد العمل يمكن أن يكون تحريريًا أو شفويًا. وألزم القانون أرباب العمل بإنشاء حوانيت خاصة للعمال ومدارس ومستشفيات ومكتبات ورياض اطفال.

وخولت وزارة المالية صلاحية تفتيش أي مؤسسة والحصول على معلومات من أرباب العمل والعمال عن ظروف العمل والحياة، ومطالبة أرباب العمل بتنفيذ أحكام القانون. ونص القانون على أن استخدام العمال يجب أن يستند إلى إذن خاص من وزارة المالية[١٧٧].

في عام ١٩٥٠ شكلت وزارة المالية مديرية العمل في المنطقة الشرقية وأصبحت دائرة مستقلة عام ١٩٥٣، ثم ادمجت عام ١٩٦١ بوزارة العمل والشؤون الاجتماعية عند استحداثها[١٧٨].

ولم يمنح القانون العمال من حق تشكيل نقابات، وفي عام ١٩٦٥ صدر مرسوم ملكي خاص يحظر إضرابات العمال[١٧٩].

ومنح أرباب العمل حق تسريح العمال دون تبيان الأسباب. كما أهمل القانون حقوق النساء العاملات ولم يتطرق إلى الرواتب التقاعدية. ولم يطبق الضمان الاجتماعي والتقاعد إلا في مستهل الستينيات[١٨٠].

ومع تطور واتساع نطاق العمل المأجور تزايدت نزاعات العمل[١٨١] التي تقرر ان تتولى النظر فيها هيئة تحكيم من عضوين يعين رب العمل أحدهما وتعين الحكومة الآخر، ولكن الهيئة لا تضم مندوبًا عن العمال. وفي حالة اختلاف عضوي الهيئة فإن الحكومة التي تزعم انها هي الحكم العدل تعين قاضيًا أعلى مرتبة. ومن الناحية العملية كان الموظفون الحكوميون يقفون إلى جانب أرامكو عند نشوب نزاع بينها وبين العمال. فبخلاف ذلك يتهمون بـ «النشاط الشيوعي» ويقالون من مناصبهم.

وطالب العمال في عرائض رفعت إلى الملك بأن تقوم مديرية العمل بحماية مصالح العمال بالفعل وليس بالقول[١٨٢].

ويؤكد كتاب «قوانين العمل وتطبيقاتها في العربية السعودية» الصادر في الولايات المتحدة على أن «الاضرابات جرت على الرغم من الخطر. ونظمت غالبيتها في القطاع النفطي الصناعي المعقد في منطقة الحياد والمنطقة الشرقية. وعلى الرغم ان العاملين في حقول النفط كانوا يتمتعون بظروف عمل أفضل من سائر فئات العمال، فإنهم ناضلوا في سبيل مطالبهم باصرار متميز ولأمد طويل»[١٨٣]. وتولى الكويتيون تنظيم الإضرابات في منطقة الحياد لان الإضرابات في الكويت لم تكن محظورة شكليًا. وبلغ الاستياء اشده لدى عمال شركات المقاولة، التي مارست أبشع أنواع الاستغلال ولم تراع قوانين العمل[١٨٤].

وجاء في كتاب «قوانين العمل...» ان «عمال النفط قاموا بالتظاهر والاعتصام ومغادرة موقع العمل والمقاطعة وكتابة العرائض والنداءات إلى مسؤولي الشركات، ولكنهم لم يلجأوا إلى العنف. وقد أجريت حملة اعتقالات وزج بزعماء العمال في السجن. وفي بعض الحالات كان العمال يسرحون والأجانب يرحلون لمجرد احتجاجهم بأي شكل من الأشكال. كما اوقف العمل مرات عديدة»[١٨٥]. وكانت مطالب العمال ذات طابع اقتصادي وتتعلق بالمكافآت والخدمات الطبية والمواصلات والتغذية.

في الستينيات أدّى ازدياد الأجور وأعمال التنكيل المتواصلة إلى إضعاف حدة نزاعات العمل. غير أن استياء العمال والنقد الموجه للنظام في الخارج حملا الحكومة على إدخال تعديلات على تشريعات العمل. فإن ازدياد عوائد النفط والنهوض الاقتصادي قد أتاحا للحكومة ورجال الأعمال الموافقة على تقديم بعض التسهيلات الإضافية للعمال.

ونص القانون الجديد للمؤسسات التي يبلغ عدد العاملين فيها عشرة عمال أو أكثر والذي استن عام ١٩٦٩، على يوم عمل من ثماني ساعات وأسبوع عمل من

٤٨ ساعة و٣٦ ساعة في كل أسبوع من شهر رمضان. وفي أرامكو وسائر شركات استخراج النفط وكذلك في بترومين حدد أسبوع عمل من ٤٠ ساعة مع عطلة لمدة يومين في الأسبوع. وبلغت مدة الإجازات المدفوعة للعمال ٢١ يومًا والإجازات المرضية ٣٠ يومًا تدفع كاملة و٦٠ يومًا يدفع خلالها ثلاثة ارباع المرتب. ونص القانون على منح العمال أذونات إذا اقتضت الظروف العائلية. وفي الصناعة النفطية بلغت إجازة العمال ٢٨ يومًا ووصلت إجازة المستخدمين إلى الشهر.

وحظرت المادة ٧٥ تسريح العامل بدون أسباب. كما جعل الحد الأدنى للأجور ١٠ ريالات يوميًا.

راعى قانون عام ١٩٦٩ بعض مطالب العمال الاجتماعية. فالمؤسسات التي يعمل فيها ٥٠ شخصًا فما فوق يجب أن تزود بنقطة طبية. والخدمات العلاجية مجانية وتدفع تكاليف العمليات الجراحية والعلاج في بعض الحالات من صندوق الضمان المختص. وفي المناطق النائية تقرر ان يتلقى العمال سكنًا وتغذية بأسعار ثابتة (ثلاث وجبات يوميًا). وفي المؤسسات التي يعمل فيها ٥٠٠ شخص فما فوق تفتتح حوانيت تبيع البضاعة بأسعار متهاودة.

تضمن القانون مادة خاصة حول العاملات ولكن لم تكن لها أهمية تذكر لان استخدام عمل النساء كان محدودًا للغاية، وحظر القانون اشتغال الرجال والنساء سوية.

وقد منع تشغيل من هم دون الثالثة عشرة، وحدد يوم العمل للقاصرين بست ساعات.

ووردت شروط للأمن الصناعي وتعويضات عن الإصابة أثناء الدوام وعن التعويق بنتيجة إصابات العمل.

وفي عام ١٩٦٩ نفسه وضع، إلى جانب القانون المذكور، نظام الضمان الاجتماعي الذي اعتبر إلزاميًا على الرغم من معارضة علماء الدين. وقد جمع

النظام، إلى حد ما، بين أساليب الضمان الاجتماعي الحديث وتقاليد البر والاحسان الإسلامية. ومنذ الستينيات كان جزء من صندوق الضمان يأتي من جباية الزكاة ومن المعونات الحكومية. واعتبارًا من عام ١٩٦٩ تعين على العمال والمستخدمين ان يقدموا بدلات إلى المديرية العامة للضمان الاجتماعي.

كان تشغيل العامل يتطلب استحصال اذن من مكتب العمل أو دائرة الاقامة. والزمت كل شركة يزيد عدد عمالها على المائة بتشغيل ٧٥٪ من السعوديين على أن يتقاضوا ما لا يقل عن ٥١٪ من الأجور. وبناء على طلب بترومين كان ينبغي على الشركات المختلطة تشغيل نسبة مماثلة[١٨٦].

إن محدودية تشريعات العمل كانت بادية للعيان وذلك لان الأغلبية المطلقة من الكادحين السعوديين عملت في مؤسّسات يقل عدد العاملين في كل منها عن العشرة. ولم يطبق القانون عمليًا إلا في كبريات الشركات. ويؤكد مؤلفو كتاب «قوانين العمل وتطبيقها في العربية السعودية» على أن «الكثير من مواد قانون ١٩٦٩ ظلّت حبرًا على ورق»[١٨٧].

أكدت المواد ١٨٩ ـ ١٩١ على حظر الإضرابات وأعلنت ان قيام العمال بنشاطات جماعية يشكل جريمة عقوبتها الحبس لمدة لا تتجاوز الست سنوات أو دفع غرامات كبيرة[١٨٨].

شكلت عام ١٩٦٩ هيئات للنظر في نزاعات العمل، وزاولت أعمالها جنبًا إلى جنب مع المحاكم الشرعية. كما في الماضي تولى موظفون حكوميون البت في القضايا، وفي حال عدم توصلهم إلى قرار تحال إلى مكتب الشكاوى. وفي عام ١٩٧٠، شكلت الهيئة العليا لنزاعات العمل[١٨٩].

التعليم

في أواخر الخمسينيات أشار باحثون أميركيون إلى أن «التعليم العام مازال في مرحلة الطفولة». وفي ١٩٥٦ كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة أكثر بقليل من ٥٪[١٩٠].

في عام ١٩٥٤ كان ٨٪ فقط من الأطفال الذين بلغوا سن الدراسة يرتادون المدارس. وأنشأ الملك سعود في قصره بالرياض مدرسة على النمط الإنجليزي لأبنائه وخدمهم وعبيدهم. كما أنشأ اخواه عبد الله وفيصل مدارس لأولادهما. ولكن تيقن حتى أفراد الأسرة المالكة من ضرورة منح فرص التعليم ولو لجزء من السكان[١٩١].

في عام ١٩٤٥ استحدثت وزارة المعارف واقيم نظام المدارس على غرار النظام المعمول به في أكثر البلدان العربية تطورًا. ومدة الدراسة في المرحلة الابتدائية ست سنوات وفي المتوسطة ثلاث سنوات وفي الثانوية ثلاث سنوات. وفي النصف الثاني من الخمسينيات لم يتخرج في المدارس الثانوية سوى بضع عشرات من التلاميذ[١٩٢]. وظل الاهتمام الأكبر في المدارس منصبًا على حفظ القرآن والفقه، بينما أعير اهتمام أقل للطبيعيات والرياضيات.

أوفد الملك عبد العزيز عددًا من الشباب السعوديين إلى الخارج وانفق على تحصيلهم. وبضغط من علماء الدين المحافظين حاول الملك سعود في بداية عهده نبذ هذا التقليد، ولكنه اضطر فيما بعد إلى الإقرار بضرورة دراسة السعوديين في الخارج. وفي عام ١٩٥٧، كان ما لا يقل عن ستمائة سعودي يتلقون العلم في جامعات ومعاهد أجنبية (في مصر والولايات المتحدة وسوريا ولبنان وأوروبا الغربية). وبعد العام المذكور حظي التعليم في الخارج بمزيد من التشجيع.

افتتح أول معهد دراسي عال في السعودية ـ كلية الحقوق الإسلامية في مكة عام ١٩٤٩. وكان برنامج الدراسة يكاد يكون مقتصرا على القرآن والحديث واللغة وتاريخ العرب. وأنيطت بالكلية مهمة إعداد المدرسين للمدارس الثانوية، التي كانت برامج العديد منها مماثلة لبرامج الكلية نفسها. وفي عام ١٩٥٣ افتتحت في الرياض كليتا الشريعة واللغة العربية، لإعداد مدرسين وحقوقيين وقضاة[١٩٣].

وافتتحت جامعة مدنية غير دينية على غرار الجامعات المصرية في الرياض عام ١٩٥٧، وكان جل اساتذتها من الأجانب، والتعليم مجاني فيها، وصار عدد غير قليل من خريجيها أنصارًا لتحديث البلد.

صار التعليم يحظى باهتمام متزايد وذلك للنهوض بهيبة الدولة ولتوفير ما يحتاجه المجتمع من الاختصاصيين. وفي مستهل الستينيات وفد من الخارج زهاء ألفي معلم[١٩٤]، وزاد هذا الرقم إلى عشرة اضعافه بعد عشر سنوات تقريبًا[١٩٥]، ولكن طرحت مهمة قصر التدريس على السعوديين، ولو في المراحل الابتدائية. في عام ١٩٧٣، كان في العربية السعودية ١٤ كلية لإعداد المعلمين ومعهدان لإعداد مدرسي المدارس المتوسطة والثانوية[١٩٦].

وبلغت نفقات التعليم عام ١٩٥٩ مقدار ١١٨ مليون ريال، وارتفع الرقم عام ١٩٧٣ إلى ١٦٧٧ مليونًا[١٩٧]. وبعد أن كان عدد الدارسين في المدارس بكل انواعها لا يزيد على ١٤٣ ألفًا عام ١٩٦٣، فانه وصل عام ١٩٧٣ إلى ٧٣٩,٣ ألف تلميذ، ولكن عدد البنات أقل من نصف عدد الصبيان. (في عام ١٩٦٠ كان عددهن أقل بزهاء ٢٥ مرة من عدد الصبيان)[١٩٨]. وكتبت «التايمس» استنادًا إلى معلومات تلقتها من وزارة المعارف السعودية ان عدد تلامذة المدارس في عام ١٩٧٣ بلغ ٦٠٠ ألف من البنين و٢٠٠ ألف من البنات.

تزايد بسرعة عدد طلاب جامعة الرياض. إذ كان فيها عام ١٩٦٠ حوالى ٥٠٠ طالب و١٥ من طلاب الدراسات العليا (في المعاهد الدينية ٢٢٠٠ طالب و٢٦٠ طالب دراسات عليا)، أما في عام ١٩٧٣، فقد بلغ عدد طلاب الجامعة ٤٤٠٠ (عدد طلاب الدراسات العليا غير معلوم ولكنه يربو على الثلاثمائة فيما يبدو). وفي عام ١٩٦٨ / ١٩٦٩، افتتحت كلية النساء في جدة وجامعة عبد العزيز التي توزعت كلياتها على جدة ومكة[١٩٩].

في عام ١٩٧٣ بلغ عدد الطلاب في جامعة عبد العزيز زهاء ٢٥٠٠، وفي كلية النفط والمعادن بالمنطقة الشرقية قرابة ٩٠٠ وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة (حيث غالبية الطلاب من الأجانب) ٦٦٠ . ويستفاد من أرقام عام ١٩٧١ ان عدد الدراسين في الكليات والمعاهد الإسلامية بلغ حوالى ١١ ألف طالب و٥٠٠ طالب دراسات عليا. ورغم ان ٦٠٪ من طلبة جامعة عبد العزيز درسوا العلوم التكنيكية إلا أن الكثيرين اشتغلوا بعد التخرج في وظائف إدارية حكومية [٢٠٠].

في الستينيات والسبعينيات تزايد عدد السعوديين الموفدين للدراسة في الخارج، وخصوصًا في الولايات المتحدة حيث بلغ عددهم ٣ ـ ٥ آلاف في أواسط السبعينيات[٢٠١].

أسّست أول مدرسة مهنية فنية عام ١٩٤٩. وفي عام ١٩٦٠، أنشئ في الرياض المعهد الفني النموذجي الحكومي واستدعي اساتذة من الخارج للتدريس فيه. وأنشئت مدارس فنية صناعية في مكة وجدة والدمام وبريدة والمدينة المنورة وسواها من المدن[٢٠٢].

ولم يكن التعليم مختلطًا في أي من المراحل. ففي جامعة الرياض يسمح للفتيات بارتياد المكتبة في ساعات خاصة، أما في جامعة عبد العزيز فقد كان تدريس الفتيات يجري بواسطة التلفزيون[٢٠٣].

ان الصفوة الحاكمة التي سعت إلى تطوير نظام التعليم، حاولت ان تجعل منه أداة لتربية الدارسين بروح الولاء للمؤسسات الحكومية والاجتماعية التقليدية وللنظام بشكل عام. وأكد الأمير فيصل عام ١٩٦٣، وكان في الواقع رئيسًا للدولة، ان برامج التعليم في الأقطار الإسلامية مشحونة بالمبادئ والميول الخطرة التي تصرف أبناء المسلمين عن دراسة تاريخ دينهم وتراثه الغني وعن الدراسة العلمية العميقة الدقيقة لأصول الشريعة الإسلامية. فالإنسان ينشد الخير، ويجده هنا، في الشريعة الإسلامية، وينشد الأمن ويجده فيها، وينشد الحرية وهي موجودة هنا، وينشد التقدم وهو فيها، وينشد العلاج فيجده في الشريعة، وينشد الدعاية للعلم فيجدها فيها أيضًا. كل شيء موجود في الشريعة الإسلامية.

وفي عام ١٩٧٠، صدر البرنامج الحكومي الموسوم «سياسة التعليم» وأكد على أن المهمة الأساسية للتعليم هي التعريف بالدين وجعل تصرفات الدارسين متماشية مع شرائع الدين واحتياجات المجتمع[٢٠٤]. ولكن مطالب علماء الدين المحافظة لم تعد تقبل دون تحفظات من لدن كل الفئات الاجتماعية. وأصبح التعارض بين الأفكار السلفية المستندة إلى التفسير الوهابي للإسلام وبين السعي للتحديث والتغير

الاجتماعي، وهو سعي ناجم عن انتشار التعليم، عنصرًا من عناصر التوتر في المجتمع السعودي.

ان التوسّع السريع في التعليم الذي استدعته المستلزمات الموضوعية للتطور قد هيأ أسباب البلبلة في المجتمع السعودي كما ان ارتفاع المستوى الثقافي والمعارف الإنسانية والتقنية لدى سكان العربية السعودية، قد أدّى إلى تنامي المتطلبات الاجتماعية والسياسية، وخصوصًا في ظروف تكاثر السفرات التي يقوم بها العديد من السعوديين إلى الخارج، وانتشار أجهزة الراديو والتلفزيون، ووفود عدد كبير من الأجانب إلى البلد. وتزايد باطراد عدد السعوديين الذين صار لديهم من سعة الأفق القدر الكافي لطرح تساؤل حول مشروعية واحقية بقاء النظام السياسي القديم والقيم الاجتماعية البالية.

الفصل العشرون

النظام السياسي
(من الخمسينيات حتى مطلع الثمانينيات)

آل سعود في نظام السلطة

خلال بضعة عقود من السنين طرأت تغيرات معينة على النظام الملكي السعودي الذي استتب في مطلع الثلاثينيات. فإن الأسرة السعودية بتفرعاتها التي كانت أصلًا كثيرة العدد في فترة توحيد أراضي الجزيرة حول الرياض، قد تنامت اعتمادًا على مبدأ تعدد الزوجات، وتحولت إلى ما هو اشبه بالقبيلة الحاكمة. وبلغ عدد رجالها فقط في أواسط السبعينيات بين ٢و٥ آلاف[1]. وكان آل سعود بالذات يتصرّفون بموارد البلد الأساسية وعوائده النفطية، ويتولى خدمتهم جهاز الدولة الذي يقفون على رأسه. بيد أن نظام الدولة نفسه تنامى وتعقد وطرأ عليه نوع من التحديث وصارت له وظائف جديدة.

بديهي ان الملك ظل الشخصية الأولى في نظام السلطة، وهو الإمام والقائد العسكري وقاضي القضاة. وعلى الرغم من انه لم يكن من الناحية الشكلية مشرعًا، لان أحكام الشريعة ثابتة، فانه تولى إصدار مراسم وأوامر عن الحالات التي لم ترد احكامها في الشريعة. وبذا تمركزت في شخص الملك أعلى سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية. وفي الممارسة العملية أناط الملك هذه الوظائف بدوائر حكومية أو مؤسّسات أو افراد:

مجلس الوزراء أو الديوان الملكي، نائب رئيس مجلس الوزراء إذا تولى الملك

رئاسة الحكومة، مكتب الشكاوى لدى مجلس الوزراء، وزارة العدل، وزارة الدفاع، هيئة أركان القوات المسلحة وقائد الحرس الوطني، مجلس الشورى الذي يضع توصيات تكون أساسًا لمراسيم الملك[٢].

ولم يحد من سلطة الملك سوى ضرورة إقامة اعتبار لمصالح الفئات المتنفّذة في الأسرة السعودية الحاكمة وعلماء الدين، واضيف إليهم في السنوات الأخيرة ممثلو فئات اجتماعية جديدة ما زالت هلامية حتى الآن، لها ارتباط بالقطاعات الحديثة في الاقتصاد وبالقوات المسلحة والجهاز البيروقراطي. وكان عليه، من حيث المبدأ، إلا يتخذ قرارًا مهمًا إلا بعد الاستئناس برأي الفئات الحاكمة الرئيسية[٣]، وذلك عن طريق المشاورات التقليدية. وجرت العادة على أن يتشاور الملك مع المتنفّذين من أفراد الأسرة السعودية وكبار شيوخ القبائل أو العشائر وأمراء كبريات المناطق وكبار علماء الدين. فهم بالذات يشكلون الصفوة السياسية بالمعنى الضيق للكلمة.

وأشار واحد من البلاغات الرسمية عن الملك فيصل انه عرف عنه تمسكه بأهداب الدين الإسلامي الذي يقضي بالشورى. والملك لا ينفرد بالرأي بل يطلع على آراء رجالات الدولة والعلماء والوجهاء، على الرغم من أن رأيه هو النافذ، كما يقول البلاغ المذكور[٤].

ان صيانة وحدة الأسرة السعودية هي من أسّس استقرار سلطتها. ولا ينسى أفراد هذه الأسرة ان احتدام الصراع على السلطة بين سعود وفيصل في الفترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ وتمرد «الأمراء الأحرار» وانقسام الأسرة السعودية إلى كتل متصارعة، قد احدثت جميعًا ضعفًا كبيرًا وأزمة في النظام. وكانت وحدة الأسرة تقوم على مبدأ اجماع الأعيان. ومن بين ٢ ـ ٥ آلاف من أفراد الأسرة السعودية تشارك في اتخاذ أهم القرارات مجموعة صغيرة نسبيًا لا يتجاوز عددها المائة. وان الثمانية والستين توقيعًا على قرار الأسرة السعودية الصادر في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤ حول مبايعة فيصل ملكًا، إنما تبين الحدود التقريبية للمجموعة التي تولت رسم السياسة و«انتخاب» منفذيها الرئيسيين[٥].

وضمت هذه المجموعة كل ذوي الكلمة المسموعة من الفروع المتنفّذة الكثيرة لآل سعود، والتي كان يجري بينها صراع مستتر لم يسمح لأي منها باحتكار السلطة.

في الخمسينيات والستينيات كان الفرع الأقدم في العائلة المالكة ممثلًا باخوة مؤسس الدولة السعودية عبد العزيز الثلاثة الباقين على قيد الحياة وهم عبد الله وأحمد ومساعد. وتولى عبد الله الوساطة بين فيصل وسعود أثناء صراعهما على السلطة، أما مساعد الذي يصغر ابن الملك المقبل فيصل بخمس عشرة سنة، فقد أصبح على عهده وزيرًا للمالية والاقتصاد الوطني عام ١٩٦٢[٦].

وكانت مجموعة من المقربين للملك تتخذ أهم القرارات حول الشؤون الجارية. وعلى عهد فيصل كانت هذه المجموعة تضم اعمامه وإخوته لأبيه ولي العهد خالد والأمير فهد وقائد الحرس الوطني عبد الله ووزير الدفاع والطيران سلطان. واثر مقتل فيصل في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٥، دعت هذه المجموعة بضع عشرات من كبار أفراد الأسرة السعودية، وتمكنت من تأمين انتقال السلطة بدون مشاكل فصار خالد ملكًا ورئيسا للوزراء وفهد وليّا للعهد والنائب الأول لرئيس الوزراء وتولى منصب النائب الثاني ووزير الدفاع قائد الحرس الوطني عبد الله وهو السادس من أبناء عبد العزيز الباقين على قيد الحياة[٧].

ان مبايعة خالد لم تكن تعني الوراثة ولا التقيد بمبدأ القدم في شجرة العائلة. فبعد مقتل فيصل كان يليه من هذه الناحية شقيقه محمد وهو الابن الرابع لمؤسس المملكة. ويبدو ان«اختيار» الملك جرى وفقًا لصفاته الشخصية وتناسب القوى بين المجموعات المتناسقة[٨].

كان الملك خالد يرتبط، عن امه، بآل جلوى المتنفّذين الذين يكادون يكونون مستقلين في حكم المنطقة الشرقية ويتوارثون إمارتها. وبعد وفاة عبد الله جلوي ابن عم مؤسس المملكة، تولى إمارة المنطقة ابنه سعود، ومن ثم ابنه الآخر عبد المحسن الذي احتفظ بهذا المنصب حتى أواسط السبعينيات. كما تسنم أفراد من آل جلوي

مناصب مهمة أخرى في الأحساء. وأم الملك خالد هي جوهرة بنت مساعد، من هذه العائلة التى تزوج الملك فيصل واحدة من نسائها[٩].

تزعم الأمير فهد، الذي صار وليًا للعهد عام ١٩٧٥، ما يسمى بـ «السباعي السديري». وضمت هذه المجموعة، علاوة على فهد ، ستة من اخوته أبناء عبد العزيز من زوجته المنتسبة إلى آل سديري وهي عائلة إقطاعية متنفذة في نجد. وشكل الاخوة الذين تربطهم صلات وثيقة مجموعة ذات نفوذ كبير. فقد شغل سلطان، الابن الثاني عشر لعبد العزيز، منصب وزير الدفاع والطيران في الستينيات والسبعينيات، وكان تركي وهو الابن العشرون نائبًا له، وتولى نايف وهو الابن الثالث والعشرون منصب وزير الداخلية، وكان الابن السادس والعشرون وهو سلمان محافظًا للرياض، وأحمد الابن الثامن والعشرون، نائبًا لمحافظ مكة، وصدام الابن التاسع والعشرون نائبًا لمحافظ الرياض[١٠]. وكان لعبد العزيز عدة زوجات من آل سديري، وبالإضافة لهؤلاء السبعة كان له ستة أبناء من نساء هذه الاسرة[١١].

لم يكن لدى الأمير عبد الله الذي صار آنذاك الشخص الثاني في المملكة إخوة أشقاء ولكن امه تنتسب إلى قبيلة متنفذة من قبائل شمر الشمالية[١٢].

ولم يبدر ما يثير الالتفات من الأشقاء سعد ومساعد وحاكم المدينة المنورة عبد المحسن.

ثمة فرع متنفذ آخر يرتبط بالأسرة الحاكمة، ونعني به آل ثنيان. ويعود نسب هؤلاء إلى ثنيان شقيق محمد بن سعود مؤسس الأسرة في القرن الثامن عشر. حكم عبد الله آل ثنيان نجد في الفترة ١٨٤١ ـ ١٨٤٣ . وسكن أفراد آل ثنيان تركيا، وعاد أحمد آل ثنيان إلى نجد وأصبح من المقربين لعبد العزيز وسافر مع فيصل إلى لندن وباريس عام ١٩١٩، وتوفي عام ١٩٣١. وفي عام ١٩٣٠ عرج فيصل على اسطمبول وزار أرملة أحمد ودعاها للسعودية حيث تزوج من ابنتها عفة التي صارت زوجته الأثيرة والأكثر نفوذًا. انتقل عدد من آل ثنيان من تركيا إلى السعودية، حيث صار لهم جاه ومال. وفي أواخر حكم فيصل كانت عفة تعرف بـ«الملكة» كدليل على

ما تتمتع به من احترام لان زوجات الملوك لم يعتبرن قط ملكات في السعودية. وقد مارست عفة الأعمال التجارية بنشاط كبير[١٣].

ثمة مجموعة خاصة قوامها أحفاد عبد العزيز الذين تزايد وزنهم بفضل ما تلقوه من تحصيل علمي، وأصبحوا يشكلون «التكنوقراطيا الملكية».وبرز من بينهم أبناء الملك فيصل الذين أصبحوا جزءًا من نظام السلطة. فقد صار سعود الفيصل، الذي درس في برينستون، وزيرًا للخارجية وخالد محافظًا لعسير ومحمد مديرًا للري وعبد الرحمن آمرا للواء مدرع وسعد نائبًا لمدير بترومين وبندر ضابطًا في الطيران وتركي نائبًا لمدير المباحث وعبد الله شاعرًا ورجل أعمال[١٤].

بعد خلع الملك سعود أصبح أبناؤه الأربعون خارجين عن دائرة أصحاب القرار في الأسرة السعودية وأصحاب السلطة فيها، وصاروا مستائين من الحكم القائم.

بعد انتهاء حركة «الأمراء الأحرار» لم يعد طلال يشارك في الحياة السياسية، ولكن بدر أصبح نائبًا لقائد الحرس الوطني[١٥].

قد يكون «للعرايف» تأثير مستتر بين آل سعود. وهؤلاء من سلالة سعود بن فيصل الذي تولى الرياض في السبعينيات من القرن الماضي حينما دب الشقاق بين أبناء الأمير فيصل. وقد وقف «العرايف» ضد مؤسس المملكة عبد العزيز مرارًا، ولكنهم اضطروا أخيرًا إلى مبايعته. وكان رئيس هذا الفرع محمد سعود الكابر يعتبر نفسه الشخص الثاني بعد الملك، من حيث القدم[١٦].

ارتبط آل سعود بصلات قربى مع آل الشيخ وهم من سلالة مؤسس الوهابية، ومع آل سديري ومع الارستقراطية العشائرية الإقطاعية المنتمية الى «أكرم محتد» في الجزيرة. ولعبت النساء دورًا مهمًا في إقامة أواصر متينة بين أبنائهن وأشقائهن[١٧].

وكان محظورًا على الصحافة السعودية نشر أي شيء يتعلق بالأسرة المالكة، باستثناء البلاغات الرسمية. وحتى لو جرى صراع داخل الأسرة فلا يجوز ان يكون موضع نقاش علني. وتتعامل السلطات الدينية والإدارية والقضائية أفراد الأسرة

الحاكمة وكأنهم فوق القانون. فعندما قتل أحد الأمراء القنصل البريطاني أثناء حفل في جدة، وحكم عليه بالسجن المؤبد، فانه سكن عمليًا أحد قصور العائلة متمتعًا بكل أسباب الراحة[١٨].

أثناء حكم فيصل قلصت شكليًا. مخصصات أفراد الأسرة المالكة. وتذكر الأرقام الرسمية ان زهاء٣٠٠ مليون دولار سنويًا كانت تنفق على أسرة آل سعود في أواسط السبعينيات، ولكن الرقم الفعلي غير معروف وهو، على ما يبدو، أكثر بمرات وكانت مخصصات الأمير تراوح شكليًا. بين ٦٠و١٥٠الف دولار سنويًا. ومن غير المعروف كم خصص لحوالى ألفي امرأة من أفراد الأسرة المالكة[١٩].

زاول الكثير من آل سعود الأعمال التجارية على نطاق واسع. وكان الأمراء يغتنون من المضاربة بالأراضي ويحصلون على عمولة من عقود الاستيراد البالغة قيمتها مليارات الدولارات، أو من العقود الحكومية. وكان للكثير منهم قطع من الأراضي قرب المدن الكبرى، وحينما يخطط لبناء مشاريع صناعية أو سكنية هناك فإنهم كانوا يحصلون على مبالغ خيالية من بيع هذه الأراضي للدولة أحيانًا ولشركات أهلية أحيانًا أخرى[٢٠].

في أواخر السبعينيات أصبح آل سعود أغنى «أسرة» في العالم. وكانوا يتصرّفون عمليًا بالدخل القومي للبلد الذي قارب التسعين مليار دولار سنويًا. ويوجهون إلى الخارج سيول الاستثمارات السعودية التي ربت على مائة مليار دولار، وفق بعض التقديرات. وأصبح مئات الأمراء من كبار أصحاب الملايين في العالم[٢١].

علماء الدين

طرأ نوع من الانكماش على نفوذ علماء الدين في السعودية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة المرتبطة بـ «عصر النفط»، وذلك نتيجة لانتشار التعليم وظهور فروع صناعية جديدة وأنماط جديدة من النشاط الاقتصادي والإداري وكثرة سفرات السعوديين إلى الخارج ووفود الأجانب واستخدام أجهزة الراديو. بيد أن المواقع

الرئيسية لكبار علماء الدين المرتبطين بآل سعود ظلّت على حالها، فهم يمثلون قوة سلفية يجب على الحكومة ان تحسب حسابها على الدوام. فعندما استحدثت ضريبة الدخل عام ١٩٥٠، مثلًا، أدّى ضغط علماء الدين إلى تطبيقها على الأجانب فقط.

وكان قرار خلع سعود وتنصيب فيصل ملكًا عام ١٩٦٤ قد اقترن بفتوى وقعها اثنا عشر من أكثر علماء الدين سطوة[٢٢].

كان الملك، بوصفه اماما للمسلمين في البلد، يؤكد دومًا تمسكه بأصول الإسلام، الأمر الذي يتطلب منه التشاور مع علماء الدين والاقرار بأن لهم كلمة مسموعة.

احتفظ رجال الدين بإدارة قوية للتأثير في المجتمع، وهي هيئات الأمر بالمعروف. وقد شكلت هذه اللجان في العشرينيات لنشر المذهب الوهابي، واستمرت تفرض على المجتمع أحكامًا في الأخلاق والحياة والسلوك، وتحرص على عزلة النساء وتمسك الناس بالحظر المفروض على التدخين وتعاطي المسكرات والرقص[٢٣]. وفي الستينيات رضخت هيئات الأمر بالمعروف لانتشار أجهزة الحاكي وبيع التبغ والعروض السينمائية الخاصة وتوزيع الصحف والمجلات المصورة واشتغال المرأة في الإذاعة[٢٤]، ولكن علماء الدين لم يتراجعوا أكثر من ذلك. ونزولًا عند رغبة علماء الدين منعت وزارة المالية والاقتصاد استيراد الصور الفوتوغرافية التي تجسد الإنسان وأي بضاعة أو أكياس أو أغلفة عليها شارة الصليب.

كانت اللجان المحلية لهيئات الأمر بالمعروف خاضعة للجان المناطق في نجد والحجاز والمنطقة الشرقية. وهي بدورها تخضع لمفتي الديار، وهو في العادة أكثر أبناء آل الشيخ نفوذًا. بينما يمارس الملك الإشراف الأعلى على اللجان. وعلى الرغم من أن منصب المفتي الذي توفى عام ١٩٧٠ ظل شاغرًا، فإن المنتسبين إلى الشجرة الوهابية ظلوا محتفظين بنفوذ كبير[٢٥]. وفي عام ١٩٧١، عين إبراهيم آل الشيخ وزيرًا للعدل مما أعاد سيطرة هذه الأسرة على النظام القضائي[٢٦].

ومن الأسباب الموضوعية لتوطد مواقع علماء الدين وجود الحرمين الشريفين في أراضي المملكة التي هي مهد الإسلام. وكان تدعيم الشرائع والمؤسسات الإسلامية

يتجاوب مع المهمات الداخلية في مجال صيانة القاعدة الدينية للنظام، وهي أهم ركائزه، وتوطيد هيبة الملك بوصفه اماما وعلماء الدين بوصفهم القيمين على تطبيق أحكام الشريعة. كما انه كان يتجاوب مع مهمات تعزيز المواقع الدولية للعربية السعودية، فإن وجود الحرمين على أراضيها كان دومًا سببًا في أعلاء شأنها في العالم الإسلامي. وقد تزايد عدد الحجاج زيادة كبيرة بفضل وسائل النقل الجوية والبحرية والبرية السريعة وبفضل حركة الموجات البشرية بين البلدان الإسلامية.

وفي عام ١٩٧٢، ربا عدد الحجاج، لأول مرة في تاريخ الإسلام، على المليون، على الرغم من أن معظمهم كانوا من السعودية نفسها. ووصل لأداء فريضة الحج في ذلك العام ٤٧٩ ألف اجنبي، وحوالى ثلث الحجاج نساء، وأغلبهم كهول، وهم جميعًا في حاجة إلى المأكل والمأوى والخدمات الطبية والنقليات.

وقد شقت طرق للسيارات وشيدت مطارات وفنادق في الحجاز لاستقبال هذا السيل البشري. ولم تعد عوائد الحج تلعب دورًا يذكر في اقتصاد البلد، بل ان الأموال التي تنفق لهذه الأغراض أخذت تتزايد باطراد. كما خصصت مبالغ طائلة لترميم وتوسيع العتبات المقدسة(٢٧).

اعتمد آل سعود أحكام الشريعة وهيبة علماء الدين لتعزيز سلطتهم داخل البلد، ودخلوا المعترك الدولي حاملين راية الإسلام. وبديهي ان هذا النهج حظي بتأييد علماء الدين وساعد على إبقاء نفوذهم.

هيئات الأمن والقوات المسلحة

استمر في الستينيات والسبعينيات تعزيز وزارة الداخلية، على الرغم من أن النظام السعودي لم يواجه خلال هذه الفترة أي خطر داخلي يذكر. وكانت مسؤولية وزارة الداخلية تعتبر دومًا من أهم المناصب في مجلس الوزراء، وتسند إلى أقرب المقربين للملك أو لممثلي أكثر الكتل سطوة داخل الأسرة السعودية. فإن ولي العهد فهد بن عبد العزيز سبق ان شغل هذا المنصب فترة طويلة. وضمت وزارة الداخلية

مديرية الأمن العام التي تولت الاشراف على الشرطة، ومديرية خفر السواحل وشرطة الحدود، ومديرية فرق المطافئ، والمديرية العامة للتحقيقات الجنائية. وكانت هناك دائرة منفصلة للمباحث الداخلية.

أسّست كلية الشرطة في مكة عام ١٩٦٠[٢٨].

وحتى عام ١٩٦٠، كان الحرس الوطني السريع الحركة والجيد التسليح تابعًا للملك مباشرة، ثم أصبح تحت إمرة واحد من المتنفّذين في الأسرة السعودية وهو عبد الله بن عبد العزيز. وتولى الحرس الوطني مساعدة الشرطة في المحافظة على الأمن والنظام وكان بمثابة معادل للجيش. يجري اختيار منتسبي الحرس الوطني من« القبائل الكريمة المحتد» المخلصة للملك، في حين ان باب الانتماء للشرطة والجيش مفتوح لجميع فئات السكان. ومن المعتاد ان تعزل وحدات الحرس الوطني عن السكان[٢٩]. وعلاوة على الشرطة التي هي من سلك وزارة الداخلية كان لأمراء المناطق حرس خاص، وقد تثبت هذا الحرس عمليًا في الستينيات، بعد أن كان شكليًا. قبل هذا التاريخ. وقد استخدم الحرس الخاص لآل جلوى، مثلًا، في قمع اضراب عمال أرامكو عامي ١٩٥٣ و١٩٥٦ . وكانت وحدات أميركية تقوم بدوريات منتظمة في مناطق الموانئ وتساعد الشرطة والحرس الوطني في حفظ النظام خلال شهر رمضان وفي موسم الحج.

بدأ تطوير الجيش النظامي بعد الحرب العالمية الثانية، وتزايد الإنفاق على القوات المسلحة عامًا إثر عام. وأوفدت إلى مصر والسودان بعثات عسكرية لدراسة ميكانيك السيارات، واستقدمت بعثتان عسكريتان بريطانية أميركية[٣٠].

بعد الحرب أعيد فتح المدرسة العسكرية للضباط، وافتتحت مدرسة الإشارة واللاسلكي ومدرسة الصحة والاسعاف الأولي، وأنشئت مدرسة الطيران. كما أنشئت ورش عسكرية للسيارات والميكانيك والصيانة ومستشفى عسكري في مدينة الطائف يتسع لخمسمائة مريض. وأرسل خريجو مدرسة الطيران في الطائف إلى بريطانيا لمواصلة الدراسة، أما الطلاب الذين أتموا دراستهم الأولية في الطيران في القاعدة

الأميركية في الظهران فقد أرسلوا إلى أميركا. وشرعت وزارة الدفاع بتنظيم شعب ومديريات حسب أصناف القوات المسلحة[٣١].

استمر في الخمسينيات تطوير الجيش واستكمال معداته. على الرغم من أن السعودية لم تشارك في أي نزاع عسكري واسع النطاق بعد حربها في الثلاثينيات مع اليمن، فإن نفقاتها على القوات المسلحة كانت من أكبر النفقات في الشرقين الأوسط والأدنى، سواء من حيث الأرقام المطلقة أو من حيث نسبتها إلى الناتج الوطني الاجمالي.

في عام ١٩٦٥، بلغ تعداد القوات المسلحة زهاء أربعين ألف فرد موزعين على الجيش وسلاح الطيران الضئيل العدد آنذاك والأسطول الصغير والحرس الوطني. وكان في كل من الجيش والحرس الوطني قرابة عشرين ألف فرد. وفي ربيع ١٩٦٤، ادمج الحرس الملكي المؤلف من أربعة آلاف شخص في الجيش النظامي كفوج مشاة[٣٢]. وكان كبار ضباط الجيش والحرس الوطني ينتقون من بين أفراد الأسرة المالكة على أن يكون ولاؤهم للملك مطلقًا، وغالبيتهم من العارض. وقد حظر مرسوم خاص في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٦٠ على منتسبي الجيش ممارسة السياسة[٣٣].

وزع الجيش السعودي في بادئ الأمر على ثكنات أو حاميات أقيمت قرب المدن الرئيسية، وبعد حرب اليمن رابطت وحدات سعودية أردنية في منطقتي جيزان ونجران[٣٤].

توزعت القوات الجوية السعودية في قاعدتين جويتين رئيسيتين في جدة والظهران.

بعد الحرب العالمية الثانية صارت الولايات المتحدة الأميركية المصدر الرئيسي للأسلحة، وأوفدت إلى السعودية عددًا كبيرًا من المدربين. وبناء على اتفاقية ١٩٤٧ انشأت الولايات المتحدة قاعدة تدريبية في الظهران، وفي العام نفسه شرع البريطانيون بإعداد فرقة مدرعة على غرار الفيلق العربي في الأردن. وفي عام ١٩٥١ وقعت الولايات المتحدة والسعودية اتفاقية حول الدفاع والمساعدة المتبادلة.

احتفظت الولايات المتحدة بقاعدة الظهران وأرسلت للسعودية أسلحة ومعدات عسكرية جديدة. وفي عام ١٩٥٢، أوفدت الولايات المتحدة بعثة خاصة لتدريب الجيش السعودي عوضًا عن البعثة البريطانية التي استدعيت إثر النزاع البريطاني السعودي على واحة البريمي. وفي عام ١٩٥٧ مدد عقد إيجار قاعدة الظهران لمدة خمس سنوات وواصلت الولايات المتحدة مشاركتها في إعداد القوات المسلحة السعودية. وفي سنة ١٩٦٢ رفضت الحكومة السعودية تمديد عقد قاعدة الظهران، ولكن بعثة التدريب العسكرية الأميركية ظلّت في البلد[٣٥].

وفي عام١٩٥٠ انضمت العربية السعودية إلى ميثاق الدفاع العربي المعقود في إطار الجامعة العربية، وفي عام ١٩٥١، أوفدت بعثة مصرية للعمل في سلاح الطيران السعودي. ولكن السعودية لم تشارك في أي عمل عسكري ضمن إطار الميثاق. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥، وقعت العربية السعودية ومصر ميثاقًا حول الدفاع المشترك نص على توحيد قيادة القوات المسلحة في ظروف الحرب والسلام. وبعد عامين ونصف العام طرد الملك سعود البعثة المصرية في إطار حملته المناوئة للجمهورية العربية المتحدة.

ذكر«الدليل الإقليمي» ان العربية السعودية تتكل في المجال العسكري «على الولايات المتحدة أساسًا، وان الضباط السعوديين يدرسون في المدارس والاكاديميات الحربية الأميركية والولايات المتحدة هي حليف للسعودية وتشرف على إعداد القوات البرية والجوية والبحرية»[٣٦].

تنامت القوات المسلحة السعودية بسرعة، وفي أواخر الستينيات بلغ تعداد أفرادها (بدون الحرس الوطني) زهاء ٣٦ ألفًا منهم خمسة آلاف في سلاح الطيران وألف في الأسطول.

وبحلول الثمانينيات بلغت نفقات القوات المسلحة السعودية بتشجيع من واشنطن احجامًا خيالية حتى وان حسمنا منها الرشاوى. ففي عام ١٩٧٧، تجاوزت العربية السعودية إيران وغدت الزبون الأول في العالم لشراء السلاح الأميركي. وفي عام

١٩٨١، وضعت ميزانية عسكرية تزيد على ٢٠ مليار دولار. وهذا يعني ٤ ـ ٥ آلاف دولار سنويًا لكل فرد من السكان، حتى الأطفال والشيوخ، أي أكثر بعشر مرات مما في بلدان حلف الناتو. إلا أن معظم تلك الأموال أنفق في تشييد الهياكل الارتكازية والمخيمات العسكرية وشق الطرق وافتتاح المؤسسات التعليمية.

في عام ١٩٧٩، بلغ تعداد القوات المسلحة السعودية ١٢٠ ألف شخص تقريبًا، منهم ٨٥ ألفًا في القوات البرية، و١٥ ألفًا في سلاح الطيران و٣ آلاف في الأسطول البحري و٣ آلاف في قوات الحدود و٤٠ ألفًا في الحرس الوطني. وفي عدة سلاح الجيش حوالى ٧٠٠ دبابة من مختلف الأصناف وفي سلاح الطيران ٢٠٠ طائرة حربية (بما فيها ف ـ ٥ الأميركية و«لايتنينغ» الإنجليزية والميراج الفرنسية) و٨٠ طائرة عمودية، وفي الأسطول البحري ٣٠ سفينة حربية (منها سفينتان للإنزال و٤ كاسحات الغام). وتقع القواعد الجوية الرئيسية في جدة والظهران وتبوك والطائف. وثمة قاعدة بحرية في جدة على البحر الأحمر وأخرى في الجبيل على الخليج العربي.

وكان في الممثلية العسكرية الأميركية في العربية السعودية آلاف العاملين. وتفيد بعض المصادر ان عددهم في مطلع الثمانينيات بلغ ٢٠ ألفًا. وكان نصفهم يعمل في ميدان البناء العسكري.

وقدمت بريطانيا مساعدة في تشييد شبكة الدفاع المضاد للجو. وفي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧، اعتمدت الرياض ٧ مليارات دولار لشراء السلاح من بريطانيا وتغطية تكاليف المساعدة البريطانية لتطوير القوات الجوية السعودية. وكلف ألفان من الخبراء البريطانيين بتدريب الطيارين والفنيين السعوديين وصيانة وتصليح الطائرات الحربية الإنجليزية الصنع.

وفي الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨ اشترت العربية السعودية أسلحة فرنسية بمبلغ ٧,٤ مليار فرنك. وشيد الفرنسيون في السعودية قاعدة جوية ومدرسة للمدرعات. وقام الخبراء الفرنسيون بتدريب السعوديين على طائرات «ميراج» ودبابات «أم اكس ـ

٣٠». وبموجب الاتفاقية الموقعة عام ١٩٧٩ تشكلت خمسة ألوية للدبابات باشراف الخبراء الفرنسيين .

كما عمل في العربية السعودية خبراء عسكريون من مصر والسودان والأردن وباكستان.

وفي نيسان(أبريل) ١٩٧٨ كتبت «نيوزويك» الأميركية تقول:«رغم الآليات الحربية المتوفرة ما تزال السعودية تعتبر دولة عسكرية من المرتبة الثانية. فإن جيشها النظامي أقل عددًا من الجيش الأردني. ولا يملك السعوديون تقاليد عسكرية بالمعنى العصري للكلمة. فالجنود الذين كانوا يقودون الإبل في الماضي القريب مطالبون اليوم بقيادة الأجهزة الصاروخية المزودة بالالكترونيات ويطالبون بالتحليق على متون المقاتلات النفاثة الاسرع من الصوت. وكي لا «تراوح» الآلة الحربية في موقعها اضطر السعوديون إلى الاعتماد على المستشارين والفنيين الأميركيين. وسيبقى الحال على هذا المنوال طوال سنوات عدة لاحقة».

ان القوات المسلحة السعودية القليلة العدد نسبيًا لم تكن في الواقع قادرة على «هضم» السلاح الذي اشترته، ولا على استخدام الهياكل الارتكازية العسكرية بشكل فعال. وكتبت «الواشنطن بوست» تقول ان الولايات المتحدة الأميركية بدأت على حساب السعودية في الواقع بتشييد «قواعد احتياطية في أراضيها مجهزة بكل ما يتطلبه استخدامها فيما بعد من قبل القوات الأميركية». وبالفعل فإن «الرادارات المجنحة» الخمسة من طراز «أواكس» وسائر الآليات الحربية التي اشترتها العربية السعودية من الولايات المتحدة ظلّت تحت إشراف أميركي أمدًا طويلًا. وتقرر ان تكون تلك «الرادارات المجنحة» من أهم عناصر الدفاع الجوي عن منطقة تشمل الكويت والإمارات العربية المتحدة وعمان والبحرين وقطر إلى جانب العربية السعودية. وأعدت محطات الرقابة الالكترونية التي يتلخص هدفها الحقيقي في تحويلها إلى «مركز عصبي» إقليمي لقوات الانتشار السريع الأميركية. وجمعت الولايات المتحدة في القواعد الاحتياطية التي شيدتها في السعودية آليات

حربية وذخيرة ووفودًا وأغذية. وبذا أعدت مسبقًا الوسائل الفنية الحربية والهياكل الارتكازية والمستودعات وكل ما استخدم بفاعلية لانتشار القوات المسلحة الأميركية وقوات حلفاء أميركا إبّان الحرب ضد العراق عام ١٩٩١ .

ويتكوّن الجيش السعودي من المحترفين (فترة عقد التطوع خمس سنوات قابلة للتمديد)، وهم أساسًا نازحون من الأرياف. أما ضباط الصف في سلاح المشاة فهم عادة من الجنود الذين اكملوا فترة الخدمة، غير أن الأصناف الفنية تضم ضباط صف ينتمون إلى فئات مدنية لها نصيب أوفر من التعليم. والضباط هم من حملة الشهادة الثانوية وغالبيتهم أبناء موظفين وضباط وتجار ورجال أعمال. وبين الضباط عدد غير قليل من أعيان القبائل والإقطاعيين وأفراد الأسرة الحاكمة.

تدفع الحكومة مبالغ لمنتسبي القوات المسلحة تتكون من الرواتب المماثلة لما يتقاضاه الموظفون المدنيون، ويضاف إليها كثير من العلاوات والمخصصات «الثابتة» و«الفنية». وتدخل ضمن الفئة الأولى المبالغ المخصصة لاقتناء البزة العسكرية وإيجار المسكن والاكل، والخادم بالنسبة للضباط. أما العلاوات «الفنية» فتدفع لمنتسبي القوات الجوية والبحرية والأصناف الفنية. وكان المبلغ الإجمالي للعلاوات يصل إلى زهاء ٤٠ ـ ٥٠٪ من الراتب الاسمى.

ويحصل أفراد القوات المسلحة على امتيازات أخرى منها التطبيب المجاني وعلى العموم كانت مداخيل منتسبي القوات المسلحة أعلى من مداخيل الموظفين المدنيين، وفي الستينيات والسبعينيات رفعت رواتبهم عدة مرات واستحدثت علاوات جديدة وزيدت العلاوات القديمة[٣٧ - ٣٩].

ان الامتيازات الممنوحة لمنتسبي القوات المسلحة تعكس طموح العائلة المالكة لضمان ولاء الجيش للنظام. وقد اقترن منح الامتيازات بأعمال التنكيل بكل العناصر غير الموثوق بها سياسيًا داخل الجيش. ولكن المؤامرات المتكررة الهادفة إلى القيام بانقلاب، وخصوصًا في الستينيات، تدل على أن ضباط الجيش ليسوا موالين جميعًا للعائلة الحاكمة. وكان للنزاعات اليسارية صدى في نفوس عدد من الضباط الشباب.

ولهذا السبب بالذات جرى إلى جانب توطيد الجيش تعزيز الحرس الوطني المكون من أبناء الفئات البدوية الأكثر تخلفًا.

في السبعينيات أبعدت وحدات الجيش عن المناطق المأهولة واسكنت في بلدات وثكنات عسكرية خاصة، وشغل الحرس الوطني مواقع الجيش في المراكز الهامة استراتيجيًا.

آلية السلطة ـ الإدارة ـ الدعاية والإعلام

بدأ الجهاز الحكومي والإداري في العربية السعودية يتغير ويتعقد منذ مستهل الخمسينيات. وقد صدر في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٣ مرسوم بتشكيل مجلس وزراء للمملكة بأسرها. ومن الناحية الشكلية كانت صلاحية «مجلس الوكلاء» قبل هذا التاريخ تنسحب على الحجاز فقط، على الرغم من أن نشاطه كان يشمل في بعض المجالات المملكة كلها. وبعد وفاة ابن سعود لم يعد يعين نائب للملك في الحجاز، وهو منصب تسنمه فيصل، ولا أمير لنجد وهو الموقع الذي شغله ولي العهد سعود[٤٠].

وكما كان الحال في السابق، ظل لدوائر الديوان الملكي حق التدخل في أعمال مجلس الوزراء، ولكن هذا ألحق لم يقنن بأحكام بل كان متوقفًا على سلطة الملك الفعلية حيال رئيس الوزراء، وعلى نفوذ أفراد معينين في دوائر البلاط.

تولى الديوان الملكي تصريف أمور الملك الخاصة، وكان يشرف مع الحكومة على هيئات مركزية مثل وزارتي المالية والاقتصاد الوطني والخارجية. كما كان للملك عدد من المستشارين للشؤون الخاصة[٤١].

حدد المرسوم الملكي الصادر في ١٢ أيار (مايو) ١٩٥٨ التركيب الجديد لمجلس الوزراء ووظائفه. وقضى بأن تضم الحكومة رئيسًا للوزراء ونائبًا له يعينهما الملك ووزراء يعينون وفقًا لتوصية رئيس الحكومة. كما يمكن أن يضم المجلس في عضويته وزراء بلا وزارة ومستشاري الملك. وقصر الاستيزار على رعايا المملكة.

إن أعضاء الحكومة مسؤولون أمام رئيس الوزراء وهذا بدوره مسؤول أمام الملك. ويحق لرئيس الوزراء ان يطلب من الملك إعفاء أي من أعضاء الحكومة من منصبه. وتعني استقالة رئيس الوزراء استقالة الحكومة باكملها. ويتحمل رئيس الوزراء مسؤولية السياسة العامة للدولة، وتتولى الحكومة وضع الميزانية وهي أعلى سلطة عاملة بإشراف الملك في الشؤون المالية. وتخضع الإدارة المحلية لمجلس الوزراء.

ويصادق مجلس الوزراء على الاتفاقيات الدولية قبل أن تقدم إلى الملك لابرامها. ويتكوّن نصاب الحكومة من ثلثي أعضائها، وتتخذ القرارات بأغلبية الأصوات. وإذا تعادلت الأصوات يعود القول الفصل لرئيس الوزراء. ويحتفظ الملك بحق النقض، لكن رئيس الوزراء يستطيع أن يتخذ كل الإجراءات التي يراها ضرورية إذا لم يعترض الملك عليها في ثلاثين يومًا.

ويؤدي الوزير عند تسلمه مهام منصبه اليمين التالية: «اقسم بالله العظيم أن أكون مخلصًا لديني، ثم لمليكي وبلادي وأن لا أبوح بسر من أسرار الدولة، وأن أحافظ على مصالحها وأنظمتها وان أؤدي أعمالي بالصدق والأمان والإخلاص»[٤٢].

ويحظر على أعضاء مجلس الوزراء، أثناء فترة استيزارهم، ان يقوموا بأنفسهم أو عبر وسطاء، بشراء واستئجار ممتلكات الدولة أو بيع أي شيء للدولة[٤٣]. ولكن الوزراء واصلوا عمليًا اكتناز الثروات عبر أشخاص آخرين.

استمر في العربية السعودية عمل مجلس الشورى الذي ضم في أواسط الستينيات ٣٤ عضوًا وكان قد شكل في الأساس كمجلس استشاري إقليمي للحجاز ولكن نطاق عمله اتسع ليشمل المملكة كلها. وتولى المجلس وضع التوصيات التي هي أساس المراسيم الملكية والأنظمة [٤٤].

في مطلع الستينيات أسّس معهد الإدارة لإعداد الموظفين لجهاز الدولة، وكان هذا واحدًا من الإجراءات التي أوصت بها بعثة البنك للانشاء والتعمير. وأعد المعهد في عشر سنوات أكثر من ١٠ آلاف موظف. وعلى الرغم من أن المسؤولين السعوديين

أخذوا يتحدثون كثيرًا عن تحسن جهاز الدولة، إلا أن مآل الأمر كان تضخم الملاك بشكل غير معقول.

يقسم العاملون المدنيون في الدولة إلى فئتين: الموظفين المؤهلين والمستخدمين غير المؤهلين. ومن الفئة الثانية المساعدون والقائمون على خدمة الدوائر والمؤسسات وعمالها. وخلافًا للموظفين المؤهلين لم يكن المستخدمون غير المؤهلين متجانسين. ففي عام ١٩٦٦ كان بين الـ ٤٥,٥ ألف مستخدم غير مؤهل حوالى ٤ آلاف عامل صناعي وعامل سكك وحوالى ١٤ ألف مستخدم في مجال الخدمات، و٧ آلاف حارس وشرطي وأكثر من ٣ آلاف مستخدم في لجان الأمر بالمعروف. وتبعًا للتحصيل الدراسي والمنصب ومدة الخدمة يمنح الموظف أو المستخدم درجة معينة لها مرتب معين. زد على ذلك ان الموظفين والمستخدمين يتمتعون بامتيازات في التطبيب والاسكان. وكان المستخدمون غير المؤهلين يتقاضون ما بين ٢٥٠ و٨٠٠ ريال شهريًا. ويتقاضى صغار الموظفين ما بين ٤٠٠ و١٠٠٠ ريال، ومتوسطوهم ما بين ١٢٠٠ و٣٥٠٠ ريال وكبارهم ما بين ٣٠٠٠ و٦٠٠٠ ريال، ويتقاضى الوزراء ونوابهم ما بين ٨ آلاف و١٠ آلاف ريال شهريًا.

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٣ اعتمد تقسيم إداري جديد أتاح للحكومة أحكام سيطرتها على الإدارة المحلية. قسم البلد إلى أربع مقاطعات أساسية على رأس كل منها حاكم ووكيله. والحاكم هو الرئيس الإداري للمقاطعة وممثل الحكومة فيها[٤٥]. وترفع وزارة الداخلية توصية حول ترشيح الحاكم، ثم يعين بمرسوم ملكي بناء على اقتراح رئيس الحكومة، على الرغم من ان الملك هو الذي ينتقي عمليًا حكام المقاطعات الأربع. ويؤدي الحكام قسمًا باخلاصهم للدين والملك والبلاد. ومن وظائف الحكام إنقاذ الأحكام القضائية وحفظ الأمن والنظام والتعاون مع مجلس المقاطعة في الشؤون البلدية[٤٦].

تنقسم المقاطعة إلى مناطق برئاسة المحافظين ومراكز يقودها رؤساء. وعلاوة على مقاطعات نجد والأحساء والحجاز وعسير شكلت مقاطعة الحدود الشمالية التي

يخضع لادارتها البدو في مناطق الحدود مع العراق والأردن وبامتداد خطوط أنابيب النفط عبر الجزيرة[٤٧]. وفي الخمسينيات كانت نجران وبيشة تعتبران إمارتين تابعتين للرياض مباشرة[٤٨].

يعين مجلس الوزراء، بناء على توصية وزير الداخلية، مجالس المقاطعات على ألا يزيد عدد أعضاء كل منها على الثلاثين. وتحصل المجالس على الجزء الأكبر من مداخيلها من الحكومة المركزية، علاوة على بعض الضرائب المحلية[٤٩].

ان حدود المقاطعات والمناطق غير ثابتة وتتوقف على شخصية الحاكم وعلاقاته بالقبائل وهيبته في هذه المنطقة أو تلك وروابطه العائلية[٥٠].

يعتبر منصب الحاكم مصدرًا للغنى والجاه، لذا اقتصر التعيين لهذا المنصب على أفراد الأسرة السعودية وأسرة السديري الوفية لها والقريبة منها[٥١]. وواصلت الإدارات المحلية العمل بقدر كبير من الاستقلالية في بعض المجالات[٥٢]. واستمر نفوذ الأسر المحلية العريقة مثل آل جلوى في المقاطعة الشرقية. وكان الكثير من المراسيم والقرارات، على أهميتها، لا يطبق عمليًا إلا بالقدر الذي يتماشى مع مصالح وجهاء المنطقة.

في أواسط السبعينيات قسمت المملكة إلى ١٨ مقاطعة، ولكن الرئيسية منها خمس، وهي مكة (تضم أيضًا جدة والطائف) والرياض والمقاطعة الشرقية ومقاطعة الحدود الشمالية والحائل، إلى جانب مقاطعتين أقل أهمية هما القصيم والمدينة المنورة. وتخضع هذه المقاطعات لوزير الداخلية أما الباقية فهي خاضعة لنائبه[٥٣].

لكل قرية صغيرة شيخ يحتل موقعه بفضل روابطه العائلية وثروته وحكمته ومقدرته على النظر في النزاعات داخل القرية وإقامة علاقات طيبة مع الجيران وقبائل البدو الرحّل، والتعاون مع الإدارة الأعلى. وفي القرى الكبيرة أو الواحات يسعى الأمير المحلي أو الشيخ إلى الحصول على مبايعة الأعيان وعلماء الدين والقضاة والتجار المحليين. وكان المسؤول الإداري عن القرية أو الواحة يعين من قبل مسؤول الوحدة الإدارية الأعلى منها. أما القرى التي ما برحت الروابط العائلية والقبلية قوية فيها،

فإن الشيخ يكون عادة من علية القوم. ولكن هذا المبدأ لا يعد إلزاميًا في القرى التي اضمحلت فيها تلك الروابط[٥٤].

ان أكثر من نصف سكان المملكة العربية السعودية كانوا على ارتباط بالتنظيم القبلي، وحتى سكان القرى والمدن يقيمون روابط قبلية واسعة. وحتى في الخمسينيات كانت المشيخة وراثية، أو إذا توخينا الدقة مقصورة على أسر الوجهاء. وتولت الحكومة المركزية الإشراف على قبائل البدو الرحّل بواسطة إدارة المقاطعات الإقليمية. وكما في الثلاثينيات والأربعينيات، واصل جباة الأمراء جباية الضرائب من القبائل، ولكن الزكاة صارت رمزية بالنسبة للبدو الرحّل.

وكما كان الحال في الماضي، يعتبر الملك «شيخ الشيوخ». وحينما زار الملك سعود شمال البلاد عام ١٩٥٤ اكرم ضيافته وجهاء القبائل الذين عبروا الحدود من سوريا والعراق للترحيب به بوصفه شيخ مشايخهم. ويرى مؤلفو كتاب «العربية السعودية: شعبها ومجتمعها وثقافتها» ان تلك كانت «حالة واضحة بينت ان الولاء القبلي له أفضلية على الاعتبارات الجغرافية البحت»[٥٥]. ولكن وجهاء القبائل في الواقع كانوا، على الأرجح، ينتظرون العطايا السخية من الملك دون أن يلتفتوا لوقع موقفهم في نفوس الإدارة السورية أو العراقية، أو يأملون في الحصول على مراع في أراضي المملكة العربية السعودية.

ان تدفق عوائد النفط الهائلة وتوزيعها بشكل مركزي كانت له أهمية جلية، إذ أضعف إلى حد كبير، ان لم يكن قد ألغى تمامًا. القوى النابذة في مجتمع الجزيرة. فقبل «عصر النفط» كانت في العربية السعودية بضع مناطق أساسية: نجد بوصفها المركز السياسي للدولة ومهد الوهابية وموطن أكثر السكان اخلاصًا لآل سعود، والحجاز حيث توجد العتبات المقدسة والمعروفة بنشاطها التجاري المرتبط بالحجاج، وعسير المشهورة بزراعتها، وشرق الجزيرة المهم من الناحيتين التجارية والاقتصادية على الرغم من انه أقل أهمية من الحجاز. ولكن إنشاء الصناعة النفطية جعل الأحساء القلب الاقتصادي للبلد، ولولاها لغدت كل أجزاء الدولة الأخرى

محرومة من الموارد والعوائد ولارتدت إلى الوراء، إلى مستوى القرون الوسطى. لذا فإن النزعة الانفصالية، بمعناها المباشر، خبت وأصبحت عديمة المعنى في السعودية[٥٦]، إلا أن أصداءها ظلّت على شكل تنافس في الجهاز البيروقراطي وسائر هيئات الدولة، ومن أمثلة ذلك التنافس بين الحجازيين الأكثر ثقافة وبين النجديين.

في الستينيات بدأ اسناد بعض المناصب التي تتطلب معارف عصرية إلى سعوديين تلقوا تحصيلًا مدنيًا وليس دينيًا في الخارج أول الأمر، ومن ثم داخل البلد. واتاح ذلك للباحث الأميركي دبليو. رو الذي عكف على دراسة مجتمع الجزيرة إمكانية الحديث عن «طبقة متوسطة جديدة» في العربية السعودية، وقال انها تضم الأشخاص ذوي التحصيل المدني[٥٧]. وهذا المنهج غير مقنع، لانه يجمع في «طبقة» واحدة كبار تجار الجملة من جدة والسعوديين من أعضاء مجلس إدارة أرامكو والعمال المهرة والمهندسيين والفنيين والاطباء ومدرسي العلوم الحديثة والأفراد الثانويين من آل سعود. بديهي ان الحزازات والتنافس بل حتى التناقض بين دعاة التحديث الحاصلين على تعليم مدني وبين السلفيين الحاصلين أساسًا على تعليم ديني تقليدي، ظلّت قائمة في إطار فئات اجتماعية بعينها. إلا أن هذه الخلافات لم تكن شاملة وحساسة. وحسبنا التذكير بأن جماعة الأمير طلال، التي طالبت بإصلاحات، ضمت أشخاصًا ذوي تحصيل تقليدي، في حين كان بين السلفيين عدد غير قليل من حملة شهادات الجامعات الأميركية والأوروبية الغربية.

في عام ١٩٦٠، أسند الملك سعود خمس حقائب وزارية، بينها اثنتان كانتا لدى أمراء، إلى خمسة من شباب «الفئات الوسيطة»، وأربعة منهم يحملون شهادة جامعة القاهرة. أما الخامس الذي أسندت إليه وزارة النفط والموارد المعدنية المستحدثة فلم يرب عمره على ٣٥ عامًا وهو خريج جامعة تكساس.

حينما استحدثت وزارة الإعلام عام ١٩٦٣، أسندت إلى سعودي من خريجي جامعة القاهرة. ومن هذه السنة لم يعد أفراد الأسرة المالكة يشغلون سوى خمسة من المناصب الوزارية الأربع. عشر. ولكن هذه الوزارات ـ وهي الداخلية، الدفاع،

الحرس الوطني، المالية، الخارجية ـ هي وزارات أساسية، لذا احتفظ آل سعود بزمام الحكم في ايديهم. أما المناصب الأقل أهمية في هذه الوزارات، كما هو شأن كل المناصب في الوزارات الأخرى (النفط، التجارة، الإعلام، الزراعة، المواصلات، المالية) فقد أصبحت تسند على نطاق متزايد إلى أشخاص لا يتحدرون من الصفوة ولهم تحصيل مدني. ولعبت هذه الدوائر دورًا فعالًا في تحديث المملكة. وهيمن المتدينون السلفيون على وزارتي المعارف والأشغال اللتين كان من المفترض ان يسودهما التحديث.

في بداية السبعينيات عين الملك فيصل من جدة قاضيًا من ذوي التحصيل الديني وزيرًا للعدل، علمًا بأن نظام العدلية قائم أساسًا على أحكام الشريعة. ولكن هذا الوزير كان قد اكتنز أثناء اشتغاله مع رجال الأعمال في جدة خبرة واسعة في الشؤون الدنيوية، وأساليب تصريفها. واثر ذلك أسندت وزارة الحج والاوقاف إلى سعودي من أسرة تجار في جدة درس في جامعة القاهرة.

وتولى منصب وزير المعارف واحد من آل الشيخ، ولكن ابتداء من عام ١٩٧١ عين اثنان من خريجي الجامعات الأميركية نائبين له. وفي عام ١٩٧١ نفسه عين نائبان جديدان لوزيري الأشغال والشؤون الاجتماعية وكلاهما من خريجي الولايات المتحدة. ورفع أربعة سعوديين إلى مناصب امناء الدولة بصلاحيات وزير، وكان اثنان منهما ـ رئيسًا هيئة التخطيط المركزية ومديرية الإدارة والذاتية ـ من خريجي الولايات المتحدة والاثنان الآخران من خريجي القاهرة. وفي الوقت نفسه تقريبًا عين الملك ستة من الأمراء الشباب من خريجي الكليات البريطانية والأميركية امناء للدولة ومحافظين[٥٨].

ان الطبقة الحاكمة بنشرها التعليم وتعيينها حملة الشهادات العصرية في كل حلقات الجهاز الإداري قد حاولت، عفويًا أو قصدًا وهذا ليس بالأمر الهام، ان تضفي نوعًا من الحداثة على نظام السلطة البالي دون أن تغير جوهره. وبديهي ان تنشأ حزازات بين الموظفين من حملة الشهادات الأميركية الذين يرتقون السلم

الوظيفي بسرعة، وبين البيروقراطيين القدامى. ولكن الروابط العائلية القبلية لعبت في خاتمة المطاف الدور الرئيسي. وقد عمل المئات، ومن ثم الآلاف من السعوديين حملة المعارف الحديثة، في جو تسوده التقاليد والالتزامات الإقطاعية القبلية.

كما في سائر بلدان الشرق الأوسط أصبح الإعلام في السعودية الواقع تحت سيطرة الطبقة الحاكمة أداة قوية للتأثير في الجماهير. وصار الإعلام يستأثر بالاهتمام الأول لما تأكد تأثير الدعاية الإذاعية المصرية في سكان المملكة العربية في الخمسينيات ومطلع الستينيات. وقد كانت خطب الجمعة ومواعظ المطاوعة القناة الرئيسية للتأثير في عقول الناس. ولكن الإذاعة، ومن ثم التلفزيون، وفرا للفئة الحاكمة أدوات فنية عصرية للتبشير بأفكارها. وابتداء من عام ١٩٦٣، شرعت الحكومة ببناء محطات إذاعة ضخمة، ومن ١٩٦٥ بدأ البث التلفزيوني. وفي بلد تسوده الأمية صار الترانزستور والتلفزيون أهم أدوات الإعلام وتشغل الحيز الأكبر في البث الإذاعي والتلفزيون البرامج الدينية وتلاوات القرآن.

لم تلعب الصحافة دورًا يذكر، وكانت أول صحيفة يومية هي «البلاد السعودية» التي بدأت الصدور في جدة عام ١٩٥٣. وعند أواخر الستينيات كان يصدر في السعودية زهاء ١٥ صحيفة ولكن بعدد محدود جدًا من النسخ. وفي أواسط السبعينيات كانت تصدر في الحجاز أربع صحف عربية هي «المدينة» و«عكاظ» و«الندوة» و«البلاد السعودية» علاوة على الصحيفة الأسبوعية الرسمية «أم القرى»، وإلى جانب ذلك صدرت «الرياض» في نجد و«اليوم» في المقاطعة الشرقية. كما ظهرت عدة صحف ومجلات في الثمانينيات والتسعينيات. وفرض اشراف حكومي مباشر أو غير مباشر على الصحف، على الرغم من انه كان من المتعذر حتى قبل ذلك إصدار صحف ومجلات بدون معونات حكومية[٥٩].

القضاء والنظام القضائي

في أواسط الخمسينيات أشار الحقوقي العربي صبحي المحمصاني إلى أن التشريع في السعودية واجه صعوبات تتمثل في العرف البدوي، وفي اعتراضات

السلفيين الذين اعتبروا كل ما لم يتضمنه الشرع نوعًا من البدع. وقال المحمصاني ان هذه المصاعب لم تعق «موكب الحياة الجديدة» عن السير قدمًا وفقًا لمتطلبات المجتمع المعاصر. وقد غذت هذه المسيرة الثورة الصناعية القائمة على النفط وانتشار التعليم والمدارس وتحضر البدو والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة. وذهب المحمصاني إلى أن السعودية قطعت خلال ربع قرن طريقًا أطول من الطريق الذي قطعته خلال ١٤ قرنًا قبل ذلك.

ولكن اتضح ان «موكب الحياة الجديدة» في المجال القانوني كان أبطأ سيرًا مما توقع المحمصاني في الخمسينيات.

في القرن العشرين اعتمدت في غالبية البلدان الإسلامية قوانين تجارية وجنائية ومدنية جديدة. ولم يبق في الغالبية العظمى من هذه البلدان، باستثناء تركيا وتونس، في إطار الشرع سوى الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والإرث). وحتى هذه ادخلت عليها تعديلات. والسعودية هي البلد الوحيد الذي يعتمد أحكام الشريعة «خالصة».

ان النظام القضائي والقانوني في العربية السعودية، المكيف لدولة إقطاعية مركزية، لم يكن مهيأ لمواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي أثارها تطور مجتمع الجزيرة العربية. واقتصر المذهب الوهابي على الأحكام المصاغة في القرون الثلاثة الأولى التي تلت ظهور الإسلام، ورفض كل ما ورد بعد ذلك في الإسلام واعتبره «بدعًا»[٦٠].

وبعد اكتمال المذاهب الأساسية الأربع. أغلق عمليًا باب الاجتهاد الذي كان معمولًا به في القرون الأولى التي أعقبت الدعوة الإسلامية.

ورفض العلماء الحنابلة الاجتهاد رفضًا تامًا، لذا حاول رجال القانون السعوديون البحث عن حلول لمشاكل القرن العشرين في تقاليد القرون السابع والثامن والتاسع، مما أوقعهم، بالضرورة، في طريق مسدود[٦١].

ثمة مثالان يبينان صعوبة تطبيق أحكام القرون الوسطى على أوضاع القرن العشرين. فالقرآن يحرم الربا ولكن الاقتصاد الرأسمالي المعاصر لا يمكن أن يقوم بدون سوق نقدية يتحكم فيها ميكانيزم الربح. ويحظر نظام وكالة النقد السعودية الفوائد، بينما تتجاهل تشريعات البنوك التجارية هذه المسألة تمامًا. وبغية عدم الخروج على أحكام الدين ابتدع ما يسمى بـ« بدل» الخدمات وهو مجرد تورية للفظة الفائدة[٦٢].

القضية الثانية هي غياب القانون التجاري. وعلى الرغم من أن الشريعة حافلة بأحكام عديدة حول التجارة، إلا أنها لا تتطرق إلى الكثير من جوانب النشاط الاقتصادي المعاصر. وقد جوبهت محاولة سن قانون تجاري بمعارضة شديدة من لدن علماء الدين[٦٣].

وقد أقر عدد من رجال الدولة السعوديين بضرورة الجمع بين الشرع الإسلامي ومتطلبات المجتمع الحديث. فقد ذكر أحمد زكي يماني، وزير النفط والمعادن السابق، في محاضرة بالجامعة الأميركية ببيروت في شباط (فبراير) ١٩٦٧ ان تطبيق الأحكام الشرعية يتطلب من الدولة انتقاء مبادئ من مختلف المدارس القانونية دون استثناء، استنادًا إلى ما يتماشى واحتياجات كل بلد. وأشار إلى أنه يجب سن قوانين تعتمد على الأحكام الشرعية العامة ومقتضيات الصالح العام ورخاء المجتمع. وكان ذلك بمثابة قطيعة واضحة مع المذهب الوهابي، لذا لم يلق تأييدًا لدى علماء الدين وظل رأيًا خاصًا بالوزير[٦٤].

وقبل ذلك لم يكن ثمة صدى إيجابي لنداء الأمير طلال زعيم حركة «الأمراء الأحرار» الذي دعا إلى أن تشرع الأبواب أمام الاجتهاد[٦٥]. أما الفئات الاجتماعية الأخرى، وخصوصًا المعارضة اليسارية، فانها بحثت عن حل لمشاكل المجتمع الرئيسية خارج إطار الشريعة.

بيد أن علماء الدين السعوديين وجدوا في أحكام الشريعة منفذًا لتبرير الأصول القانونية الجديدة اللازمة لإدارة الاقتصاد والمجتمع. فقد اتفق الفقهاء في صدر

الإسلام على تقسيم أحكام الدين إلى واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح. وقد استخدمت الدولة في المملكة العربية السعودية «المباح» فاعتمدت منذ العشرينيات النظم والمراسيم الملكية التي كانت عمليًا بحكم القانون وان لم تتخذ شكله [٦٦].

اضطرت المحاكم السعودية التي تعتمد الشريعة، إلى نقل جزء من وظائفها إلى هيئات إدارية أو مؤسّسات اجتماعية مثل الغرف التجارية والصناعية. وفي البدء كانت كل الحالات غير المنصوص عليها في الشرع الإسلامي يبت فيها اعتمادًا على القانون المدني العثماني الموضوع في عهد التنظيمات، ثم وضع عمليًا نظام قانوني جديد عماده المراسيم والأوامر الملكية وقرارات مجلس الشورى. وكمثال على ذلك نذكر اعتماد قوانين السير والمرور وقانون العمل ومرسوم حظر الإضرابات والمراسيم الخاصة بالضرائب وعمل الشركات واستثمار الرأسمال الاجنبي. فمنذ عام ١٩٢٦، أسّس في جدة المجلس التجاري، وهو بمثابة غرفة تجارة، ومنذ عام ١٩٣١، طبقت «أصول التجارة» المعتمدة على القانون التجاري العثماني لعام ١٨٥٠، بعد إسقاط كل المواد المتعلقة بالفوائد والأرباح. وفي عام ١٩٥٤، حلت وزارة التجارة محل المجلس المذكور، وأسّست غرف تجارية في عدد من المدن السعودية. ومنذ مطلع السبعينيات بدأ التأمين على كل أشكال الملكية، ولكنه لم يشمل التأمين على الحياة. وفي عام١٩٧٠، ألغيت القواعد العامة للملاك الموضوعة عام ١٩٥٧ واستعيض عنها بلوائح الانضباط الالزامية للموظفين والمستخدمين كافة.

ان النظام القضائي الذي أرسيت أسسه في السعودية خلال العشرينيات والثلاثينيات ظل معمولًا به في العقود التالية. بيد أن هيئة التدقيقات القضائية ألغيت في السبعينيات وحلّت محلها وزارة العدل والمجلس القضائي الأعلى.

وفي أواسط الخمسينيات أسّس ديوان المظالم التابع لمجلس الوزراء للنظر في القضايا الهامة والمتنازع عليها. وصار الديوان المذكور بمثابة هيئة التحكيم وهو في الوقت نفسه مرجع إداري ينظر في الشكاوى المرفوعة ضد الإدارات الحكومية وفي قضايا الرشاوى ومقاطعة إسرائيل والنزاعات الكبرى التي لها صلة بالقبائل

والأجانب. ويرى بعض الباحثين الأميركيين والبريطانيين ان ديوان المظالم يعود في جذوره إلى التقاليد القضائية الفارسية قبل ظهور الإسلام والتي اعتمدتها الشريعة فيما بعد. ويذهبون إلى أن انبعاث ديوان المظالم في السعودية واتساع وظائفه هو دليل على نوع من المرونة لدى فقهاء المذهب الحنبلي[٧٠].

ان كل سكان المملكة العربية السعودية سواسية أمام القانون من الناحية الشكلية ولكن في واقع الحال كان أفراد الأسرة المالكة وكبار علماء الدين وأبناء العوائل والأفخاذ الكبرى يتمتعون بحصانة قضائية وهم فوق القانون.

الفصل الحادي والعشرون

الاقتصاد والمجتمع والسياسة في الثمانينيات والتسعينيات

ظل النفط في بداية التسعينيات يشكل أساس الاقتصاد السعودي على المدى الطويل ويحدد موقع البلاد في الاقتصاد الدولي، وفي منظومة العلاقات الدولية الإقليمية والعالمية. إلا أن وتيرة النمو الاقتصادي تباطأت وطرأ تبدل تدريجي على مواقع أولويات التنمية الاقتصادية. ويعزى ذلك إلى فائض النفط في السوق العالمية التي غدت الكلمة الأولى فيها للمشتري، وبالتالي هبوط أسعار النفط والغاز، وكذلك إلى تشعب وتعقد البنية الاقتصادية في العربية السعودية.

لقد نشأت في المملكة شبكة حديثة للنقليات والاتصال والمواصلات والمالية والتسليف، وظهرت للوجود ونمت بعض فروع الصناعة التحويلية، وتحسنت أشكال النشاط التجاري وارتفع مستوى الزراعة لدرجة كبيرة بالاعتماد على التمويل الحكومي.

وأخذ «عرس» القطاع الخاص، بدأب صبور، يعود بثماره مع أن الدولة احتفظت بوظائف الإنتاج فضلًا عن التخطيط والتنسيق والتمويل. وازدادت كثيرًا في الوقت نفسه، درجة تنوع الاقتصاد وتحركه وتزعزع بعض قطاعاته، كما اشتد التباين أو التمايز الاجتماعي.

وفي الثمانينيات والتسعينيات طرأت تبدلات على بنية السكان، مع أنها غير

واضحة تمامًا. على السطح. ودخل معترك الحياة وارتقى السلم الاجتماعي، أول جيل من السعوديين الذين تربوا في ظل «الازدهار النفطي»، وحصلوا على التعليم في الداخل والخارج.

واشتد الخطر الخارجي على أمن العربية السعودية في الثمانينيات وبداية التسعينيات. وأنفق النظام السعودي أموالًا طائلة على القوات المسلحة والتسليح، ولم تعد عائدات النفط، التي كانوا حتى الآونة الأخيرة يتصورونها معينًا لا ينضب، تكفي لتغطية برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية الطموحة.

التنمية الاقتصادية

لقد طرأت تبدلات جوهرية على السياسة النفطية للعربية السعودية، شأن سائر بلدان الأوبيك، طوال الفترة التي أعقبت «الازدهار النفطي» في السبعينيات. وكانت الاستراتيجية العامة، في هذا المجال، تتلخص في تقليص الاستخراج بسبب تقلص الطلب على النفط في السوق العالمية.

وكان وزير النفط السعودي أحمد زكي اليماني، قد أكد في عام ١٩٨٠ ان سير الاقتصاد بشكل طبيعي لا يتطلب أكثر من ٣,٥ ملايين برميل يوميًا (١٧٥ مليون طن في العام). إلا أن الالتزامات السياسية والاقتصادية إزاء الغرب جعلت السعودية حتى عام ١٩٨٤ تستخرج كميات أكبر بكثير: ١٨٣٩,٩ مليون برميل في عام ١٩٨٢ و١٧١٤,٥ مليون برميل في عام ١٩٨٥ و ١٢٦٤,٩ مليون في عام ١٩٨٥ . والحال فإن عائدات النفط انخفضت من ١١٦ مليار دولار في عام ١٩٨١ إلى ٢٨,٤ مليار في عام ١٩٨٥.

وتقلصت عوائد الدولة في الفترة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٦ بنسبة ٣٢٪ ، وجرى تقليص نفقات الدولة في الواقع بنسبة ٤٨٪. وكان عام ١٩٨٦ عامًا عصيبًا، حيث بدا من المتعذر عمومًا إقرار ميزانية الدولة. وفي ١١ آذار (مارس) ١٩٨٦، ألقى الملك فهد كلمة من التلفزيون السعودي قال فيها إن انخفاض سعر النفط من ٢٨ دولارًا إلى

١٥ دولاراً للبرميل الواحد جعل من المتعذر تحديد الإيرادات المعقولة والنفقات المحتملة. وجرى حصر موازنة الإيرادات والنفقات في إطار شهري، وتم تأجيل تنفيذ المشاريع المقررة. واضطرت الحكومة ان تقلص النفقات، لدرجة كبيرة، في جميع أبواب الميزانية.

وتباطأ أو توقف مفعول الجهاز الإنتاجي والاجتماعي الهائل بالمقاييس السعودية بعد أن تنشط في ظل «النشوة» النفطية. وكان من الأسهل وقف المشاريع الانشائية الجديدة أو تجميد المشاريع التي في طور الانشاء، وكان من الصعب التخلي عن تمويل الإنتاج والنقليات والصحة والتعليم وبرامج الضمان الاجتماعي التي تتميز أحيانًا بطابع تظاهري.

واعتبر كثير من الخبراء ركود النشاط الصناعي والاقتصادي بحد ذاته ظاهرة إيجابية. ففي سياق «التصنيع السعودي» كانت تجري عمليتان في آن معًا، وهما النمو والتنمية، أي تشييد المشاريع الصناعية وسواها وارتقاء الاقتصاد الوطني إلى مستوى عصري وجديد نوعيًا. وفي مطلع الثمانينيات تباطأت العملية الأولى بقدر كبير، ولكن يتعذر وقف العملية الثانية على ما يبدو. ودشن الاقتصاد السعودي مرحلة التطور المتوازن الخالي من الطفرات.

ويتسم بدلالة كبيرة بهذا الخصوص مصير خطة التنمية الخمسية الرابعة للفترة ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠ . وقد اعتمد لتنفيذها حوالى تريليون ريال (٢٧٦,٧ مليار دولار). وخصص للدفاع، ضمن أكبر باب من أبواب الميزانية، ما يعادل ٩٠ مليار دولار، ولتطوير الموارد البشرية حوالى ٣٧,٥ مليار دولار. كما خصص لتنمية «الموارد الاقتصادية» ٣١ مليار دولار.

وتضمنت الخطة الرابعة في الوقت نفسه مشاريع كثيرة مما كان مشمولًا بالخطة الثالثة ولم ينجز بناؤه أو لم يبدأ أصلًا. وأشارت الخطة إلى المهمات الأساسية على التوالي تبعًا لأهميتها: زيادة مردود الإنتاج والاستثمار الرشيد للموارد، وتقليل اعتماد الاقتصاد الوطني على تسويق النفط، وذلك بتطوير الصناعات التحويلية والزراعة

والقطاع المالي، والانتقال إلى التكامل الاقتصادي مع بلدان مجلس التعاون الخليجي، وتقليص الأيدي العاملة الأجنبية غير المؤهلة بمقدار ٦٠٠ ألف شخص على الأقل، وتشجيع مشاركة القطاع الخاص، بمزيد من الهمة والنشاط، في جميع ميادين الاقتصاد.

ونشير بهذا الخصوص إلى مصير معمل تكرير النفط في القصيم. فقد توقفت أعمال تشييده، في آذار (مارس) ١٩٨٥ مع أن الأعمال الهندسية أنجزت بنسبة ٩٠٪، وأنجزت الأعمال التتميمية بنسبة ١٥٪. وتفيد التقديرات ان التعويضات التي دفعتها الهيئة العامة للبترول والمواد المعدنية (بترومين)، إلى المقاولين (شركة «بيكتيل كومباني» الأميركية السعودية)، ما بين ٥٠٠ و٨٠٠ مليون دولار. وقبل ذلك تم تسديد ٣٠٠ مليون دولار لقاء الأعمال التي نفذت. ويرى الخبراء أن هذه المبالغ كانت تكفي تمامًا. لانجاز المشروع. وأثار تخلي بترومين عن المشروع افتراضات بأنها لم تكن أصلًا. بحاجة إلى المعمل المذكور.

وكان البلد يستخدم قدرات مصانعه التكريرية (البالغة آنذاك ١,٦ مليون برميل يوميًا) بنسبة تقل عن ٦٠٪ من إجماليها. وعلى أثر الكويت أخذت العربية السعودية تقتني مؤسّسات التكرير في الخارج. ومن أكبر ما اشترته «ارامكو» في عام ١٩٨٨ ثلاثة مصانع للتكرير في الولايات المتحدة.

في عام ١٩٨٥ تقلصت قيمة المقاولات الانشائية التي عرضتها الدولة على الشركات الخاصة حتى بلغت أقل من نصف ما كانت عليه: من ٨,٣ مليار دولار إلى ٣,٩ مليار. وتوقف تشييد معمل التكرير في رابغ، والمطار الدولي في المقاطعة الشرقية، وتلكأ بناء المجمع البتروكيمياوي في الجبيل، ومثيله في ينبع. وأسفر عن نتائج ايجابية التخلي عن المشاريع التظاهرية أو الضخمة، وكذلك تقليص الأيدي العاملة الأجنبية بقدر كبير، بعد أن كانت تشكل الأغلبية في هذا القطاع.

وحلّت أوقات عصيبة بالنسبة للبنوك أيضًا. وكان توسيع نشاط البنوك الخاصة المتواصل والذي بدا ناجحًا حسب الظاهر يتسم بطابع مفتعل لدرجة كبيرة، ويستند

إلى تمويل صفقات المضاربة، أو تلبية الحاجات الاستهلاكية للفئات الموسرة أكثر من تمويل النشاط الإنتاجي. وتقلصت أرباح البنوك والمصارف، في النصف الثاني من الثمانينيات بنسبة ٦٠٪.

وفي تلك الفترة نفسها، حاول الكثيرون من مديني البنوك التجارية السعودية ان يتفادوا أو يقلصوا المدفوعات المترتبة على القروض التي استلموها سابقًا، مستفيدين من أحكام الشريعة التي تحظر الفائدة المئوية. وفي النصف الثاني من الثمانينيات بدأ العديد من زبائن البنوك بتحويل أموالهم إلى أوراق نقدية أو سحب ودائعهم عمومًا.

واضطرت الحكومة إلى الاستعانة بمصادر التمويل الداخلية. ولأول مرة اعتبارًا من عام ١٩٧٢ زيدت أسعار الطاقة الكهربائية في عام ١٩٨٥ بنسبة ٧٠٪، كما ارتفعت أسعار البنزين وزيدت ضريبة الإقامة وتأشيرات الخروج واستبدال الكفيل للاجانب. وارتفعت ضريبة السيارات من ٧٥ ريالًا في كل خمس سنوات إلى ١٠٠ ـ ٧٠٠ ريال سنويًا. وزيدت الرسوم الجمركية بنسبة ٤ ـ ٧ ٪ على استيراد طائفة من البضائع (السيارات والمواد الانشائية والأدوات الكهربائية والأحذية والحلي). وفي ربيع ١٩٨٥، تقلصت لدرجة كبيرة المدفوعات والمكافآت المقدمة إلى ٢٥٠ ألف مستخدم في الدولة. وبنتيجة تغيير النظام الضرائبي تضاعفت ايرادات الميزانية.

وكان الحذر في موقف القطاع الخاص من المشاركة في تنفيذ المشاريع الصناعية الحكومية أمرًا له ما يبرره في الواقع. فقد أخرت الدولة أو أوقفت مدفوعات الأعمال التي أنجزت. وفي ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ افلس حوالى ثلث شركات المقاولة البالغ عددها ١٢٠٠ أو واجهت صعوبات مالية بالغة. وتمت تصفية بضع مئات من الشركات الخاصة المختلطة. وإذا كانت وزارة الصناعة والطاقة قد أصدرت حتى أواخر ١٩٨٢، ٢٤٢٤ ترخيصًا منها١٣٦١ ترخيصًا بافتتاح مؤسّسات صناعية، فإنها لم تصدر في النصف الأول من عام ١٩٨٣ سوى ١٨٠ ترخيصًا صناعيًا.

وقلقت الحكومة كثيرًا بسبب ذلك. فقد عبر الملك فهد في كلمة ألقاها في المؤتمر الثاني لرجال الأعمال السعوديين في آذار (مارس) ١٩٨٥، بحضور ٩٠٠ شخص عن أمله بأن يكون هدفهم الأساسي هو استثمار الرساميل في العربية السعودية أو أي بلد صديق، وأضاف ان ذلك لا يعني بالطبع تقييدًا لحرية الاستثمار. وأهاب العاهل السعودي برجال الأعمال ان يتكيفوا لتقلص عائدات النفط وتضاؤل الاستثمارات الحكومية في الاقتصاد. وعاهد الملك المشاركين في المؤتمر بمواصلة الحوار الذي بدأ بين رجال الأعمال والدولة بغية تحقيق المزيد من التقدم الذي تتوفر موارد وإمكانيات كافية له في مختلف المجالات، كما أكد العاهل السعودي.

إلا أن الصعوبات تزايدت.

أعدت الحكومة ميزانية السنة المالية ١٩٨٨، وفي نيتها ان تحقق توازنًا بين الإيرادات والنفقات. ونصت الميزانية على مواصلة تقليص النفقات إلى ١٤٠ مليار ريال (٣٨ مليار دولار)، على إلا يزيد العجز عن ٣٦ مليار ريال. وفي ذلك العام أيضًا ضيقت في الواقع كل أبواب الصرف. ولأول مرة خلال سنوات طويلة ظل عدد مستخدمي الدولة دون تغيير.

وقامت الحكومة بخطوة جذرية في العودة إلى جباية ضريبة الدخل من رواتب العمال والخبراء الأجانب التي اعفيت منها في عام ١٩٧٥. واستخدمت تعريفة عالية نسبيًا هي ٣٠٪ من الدخل ٦٠ ألف ريال (١٦ ألف دولار) سنويًا. وزيدت كثيرًا (من ٧ إلى ١٢٪) رسوم الاستيراد، ما عدا المواد الغذائية والمحاصيل الزراعية وارتفعت رسوم بعض أصناف السلع، كالاسمنت والمواد الغذائية والمحاصيل الزراعية. والمواد الانشائية، إلى ٢٠٪ .

وكانت السلطات تدرك أن التضخم النقدي سيكون من العواقب المتفجرة الأولى لمثل هذه التدابير. وحذر الملك فهد قائلًا ما فحواه: نريد لرجال الأعمال ان يحصلوا على أرباح معقولة، لكننا لن نسمح بتجاهل وهضم حقوق المواطنين لصالح الأقلية التي لا هم لها سوى كنز المال.

وبالمناسبة فقد اتخذت السلطات قرارًا بتخفيض كلفة الكهرباء، بعد بضعة أشهر من زيادتها، وذلك لتخفيف الأعباء المالية على الأمة. وزيدت كلفة المياه في الصناعة، ثم خفضت من جديد. وألغيت الخطة الحكومية الأولية لتقليص المشتريات من الشركات الزراعية الوطنية. ولكننا نرى أكبر دلالة في مصير مشروع زيادة ضريبة الدخل على الخبراء الأجانب. فقد ألغيت هذه الضريبة بأمر ملكي خاص صدر بعد يومين من فرضها.

وبسبب هذه السياسة الاقتصادية المتذبذبة لم يعد تقليص نفقات الدولة وزيادة عائدات النفط كافيين للميزانية المتوازنة، فازداد العجز فيها.

إلا أن الحكومة حتى في هذا العقد الصعب واصلت دعم الرأسمال الخاص. وطبقت إجراءات الحماية لتأمين القدرة على المزاحمة لدى طائفة من السلع المحلية.

ووفر الدعم السخي الثابت، من جانب مختلف الأرصدة والصناديق الحكومية، الفرصة للرأسمال الوطني كي ينمو ويتقوى. فلئن كانت ١١٨١ شركة (بينها ٩٥٨ شركة سعودية صرفا) تمتلك في عام ١٩٧٥ رأسمالًا قدره ٢٢٠٩,٣ مليون ريال (حصة الشركات السعودية ١٠٨٨,٩ مليون ريال)، ففي عام ١٩٨٦ بلغ العدد حوالى ٧ آلاف شركة (٥٤٠٦ شركات سعودية) تمتلك استثمارات قدرها ٦٨٠٧٨,٨ مليون ريال.

في عام ١٩٨٧، أقيل وزير النفط أحمد زكي اليماني من منصبه. وكان ذلك أحد الأدلة غير المباشرة على الصعوبات الاقتصادية التي تواجهها البلاد. ولكن المهمات المرسومة في الخطة الرابعة نفذت على العموم على الرغم الزيادة الكبيرة في النفقات الفعلية بالمقارنة مع النفقات المقررة، وعلى الرغم من التلكؤ في مشاريع معينة. وبنتيجة الخطة المذكورة استمر تطور الصناعة النفطية في القطاعين العام والخاص، وبالدرجة الأولى تكرير النفط، واعتمدت رساميل كبيرة للزراعة، ولاستخدام أحدث الأساليب الزراعية والبذور والماشية العالية المردود، مما ساعد لدرجة ملحوظة على تقليص اعتماد البلاد على استيراد المواد الغذائية.

وغدت الزراعة موضع اعتزاز للسعوديين. فخلال الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٨٩، ازداد إنتاج الفاكهة والثمار والخضر من ٧٠٦ آلاف طن إلى ٢٦٠٠ الف، وازداد إنتاج الألبان من ١٥٦ ألف طن إلى ٥٠٠ ألف طن وازداد لحم الطير من ٧ آلاف طن إلى ٢٦٦ ألفًا، وازداد البيض من ٥ آلاف طن إلى ١٠٣ آلاف. وكان ذلك يلبي الحاجات الداخلية بالكامل في الواقع ويصدر فائضه إلى الأقطار المجاورة، وإلى سويسرا وبريطانيا وايطاليا، وبعض الدول الأخرى.

وخلال الفترة ١٩٨٦ ـ ١٩٩٠ وحدها، اتسعت مساحة الأراضي المفلوحة من ٥,٧ ملايين هكتار إلى ٧,٤ ملايين. وفي عام ١٩٩٠، تم جني ٣,٥ ملايين طن من القمح، وتم جني حوالى ٤ ملايين طن في عام ١٩٩١. واشترت الدولة كل كميات القمح بسعر مضمون قدره ألفا ريال (٥٥٣ دولارا) للطن الواحد من صغار المزارعين وبسعر ١,٥ ألف ريال (٤٠٠ دولار) من المزارعين الكبار. وبلغ الاستهلاك الداخلي حوالى مليون طن، فيما تم تصدير الكميات المتبقية من الحبوب (بخسائر مالية كبيرة تكبدتها الدولة). ان مساعدة الدولة هي الوحيدة القادرة على جعل الإنتاج الزراعي مربحًا في ظروف العربية السعودية. فإن كل طن من القمح المزروع فيها يكلف البلاد أغلى بـ ٥ ـ ٦ مرات مما لو اشترته في السوق العالمية. وكانت المركزات الغذائية الجيدة المستوردة بالكامل تشكل ٧٠٪ من علف الماشية في المزارع السعودية. وكان مستوى تكاليف الإنتاج مقبولًا بالنسبة للمزارعين لان الدولة تدفع ٦٠٪ من قيمة المركزات المستوردة.

وازدادت حصة الزراعة في المنتوج الإجمالي للبلاد خلال الفترة ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠ من ٣,٣٪ إلى ٦,٦٪ (حسب المعطيات الرسمية)، فيما تقلصت حصة استخراج النفط من ٣٤,٢٪ إلى ٢٣,٦٪، كما ارتفعت حصة الصناعة التكريرية من ٣,٩٪ إلى ٥٪.

ونصت الخطة الخمسية الخامسة التي بدأ تنفيذها في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ على تقليص حصة قطاع النفط والغاز في المنتوج الإجمالي حتى عام

١٩٩٥ إلى ٢٠٪، ورفع مستوى العائدات السنوية الفعلية بنسبة ٣,٢٪ (٢,٧٪ للقطاع النفطي و٣,٦٪ للقطاع غير النفطي). وتقرر ان تزداد حصة القطاعات الإنتاجية غير النفطية من ٣٨,٥٪ إلى ٤٣,٣٪.

وإلى جانب ذلك ما تزال متوفرة في العربية السعودية الإمكانيات اللازمة لزيادة استخراج النفط بقدر كبير. ويجري تدشين حقل نفطي جديد (٣٠ مليار برميل) في منطقة الديلم. ويقدر احتياطي النفط حتى أواسط التسعينيات بـ ٢٥٨ مليار برميل، كما يقدر احتياطي الغاز الطبيعي بـ ١٨٠ تريليون قدم مكعب.

وتطورت الصناعة البتروكيماوية. وبعد تأسيس المنطقتين الصناعيتين الكبيرتين بعشرات المصانع الحديثة في الجبيل شرقًا وفي ينبع غربًا توفرت للاقتصاد الوطني قاعدة ضخمة لإنتاج ذي تكنولوجيا رفيعة. في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٧، أرسى الملك خالد والأمير فهد حجر الأساس في مجمع الجبيل الصناعي. وحتى بداية التسعينيات بلغت مساحة هذه المنطقة ١٠٣٠ كيلومترًا مربعًا. وتجاوز عدد سكان مدينة الجبيل نفسها ٤٠ ألف نسمة. وتقرر تشييد أكثر من ٩٠٠ مؤسسة صناعية كبيرة ومتوسطة لإنتاج الفولاذ والالومينوم والأسمدة واللدائن وسواها.

أما منطقة ينبع الصناعية فهي أضيق نطاقًا. فقد كان فيها حتى مطلع التسعينيات. خمس مؤسّسات كبرى للصناعة البتروكيمياوية، وبلغ عدد نفوسها ١٩ ألفًا.

وتتلخص استراتيجية الحكومة في جعل تكرير النفط والصناعة البتروكيمياوية «يجتذبان» مؤسّسات القطاع الخاص المتوسطة والصغيرة.

ولم تتغير بنية التجارة الخارجية خلال الثمانينيات والتسعينيات بشكل جوهري. فالنفط ومشتقاته تشكل حوالى ٩٠٪ من الصادرات. والسلع الاستهلاكية تشكل كالسابق الجزء الأكبر من الاستيراد. وكانت أسواق التصدير السعودي الأساسية في أواخر الثمانينيات هي اليابان والولايات المتحدة وهولندة والبحرين وسنغافورة وايطاليا، وأكبر البلدان التي تستورد منها السعودية هي الولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا.

وأودعت السعودية معظم أرصدتها بالعملات الأجنبية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. وتركت خاتمة عصر البترول تأثيرًا سلبيًا على أرصدة المملكة بالعملات الأجنبية، وخصوصًا الأرصدة الحكومية التي تقلصت في ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥ من ١٤١ مليار دولار إلى ١٠٨ مليارات، فيما ازدادت أرصدة البنوك التجارية السعودية بالعملات الأجنبية من ١٨ إلى ٢٠ مليار دولار[٢٦].

وكانت حرب الخليج امتحانًا عسيرًا بالنسبة للاقتصاد السعودي. فقد اضطرت الحكومة إلى اقتراض مبالغ بفائدة عالية من سوق الرأسمال الدولية، ومن البنوك التجارية الوطنية، لكي تغطي النفقات الهائلة على الدفاع عن المملكة وكذلك المدفوعات إلى حلفائها.

وفي ظل الملابسات الصعبة، ازداد استخراج النفط في عام ١٩٩٠، إلى ٨,٥ ملايين برميل يوميًا، أي أكثر بحوالى ٣ ملايين من الكمية التي قررتها الأوبيك، وبلغ متوسط الاستخراج على مدار العام ٦,٢ ملايين برميل[٢٧]. صحيح ان الدولارات البترولية لم تعد قادرة على رأب الصدع في الميزانية كما كانت تفعل قبل عشر سنوات. فبسبب التشدد في جودة المنتوج، وارتفاع كلفة الخدمات النفطية، تطلب اقتصاد النفط نفسه توظيفات مالية كبيرة. واقتضت الحاجة إنفاق مليارات الدولارات في مطلع التسعينيات على تحويل مصانع التكرير في السعودية إلى إنتاج بنزين السيارات الخالي من الاثيلين.

وتقرر ان يشكل العجز في ميزانية السنة المالية ١٩٩١ ـ ١٩٩٢، ٣٠ مليار ريال، أي أكثر من السنة السابقة بـ ٥ مليارات. وازداد مبلغ النفقات إلى ١٨١ مليارًا. وهذا يتجاوز نفقات السنة السابقةبـ٣٠ مليارا. وتلفت النظر الزيادة الطفيفة في نفقات الدفاع والأمن ـ ٥٤,٣ مليار ريال مقابل ٥١,٩ مليارًا في عام ١٩٩٠. ثم ان النفقات الاجتماعية أقل بالأرقام المطلقة، لكن الزيادة فيها بادية للعيان: التعليم ٣١,١ مليارًا مقابل ٢٦,٢ مليارًا في عام ١٩٩٠، والصحة والشؤون الاجتماعية ١٢,٢ مليارًا مقابل ١١,٨ مليارًا في عام ١٩٩٠، وازدادت خصوصًا الاعتمادات في باب « تنمية الموارد

الاقتصادية» ـ ٨ مليارات مقابل ٤,٨٩ مليارات في عام ١٩٩٠ . وهكذا تبين الميزانية ان الحكومة صارت تعطي الأولوية للتنمية الاقتصادية في الداخل.

وغدت الخطة الخمسية الخامسة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٥ استمرارًا للخطة الرابعة، لكنها تستهدف لدرجة أكبر أغراضًا سياسية واجتماعية أهمها: صيانة المبادئ والقيم الإسلامية، وحماية الدين، والوطن، وتطوير سوق الأيدي العاملة، وتربية المواطن النشيط الذي يشارك في العمل والإنتاج، وتقليص الاعتماد على القطاع النفطي، وتطوير الفروع الاستخراجية الأخرى وتشجيع مشاركة القطاع الخاص في تطوير البلاد، وتأمين التنمية المتوازنة لمختلف المناطق، وتكاملها في المنظومة الاقتصادية لبلدان مجلس التعاون الخليجي.

واعتمد ٧٥٣ مليار ريال لتنفيذ مهمات الخطة الخامسة، منها ٤٩٨ مليارًا للبناء المدني و٣٥٨ مليارًا لتطوير الصناعة، وتقرر تخصيص ٣٧ مليارًا إضافية بشكل قروض، من الأرصدة والصناديق الحكومية المختصة.

الأيدي العاملة

بسبب غياب الإحصائيات الدقيقة ظل الباحثون أمدًا طويلًا. يستعينون بتقديرات متباينة وأرقام مشتتة لتحديد عدد سكان العربية السعودية. وتفيد حسابات العلماء ان هذا العدد كان يراوح في عام ١٩٨٠ بين ٨ و١٠ ملايين نسمة. وفي عام ١٩٩٠ بلغ عدد السكان ١٢ ـ ١٤ مليونًا بمن فيهم الوافدون. ويقول الاخصائيان البريطانيان ج. بيركس وس. سينكلير ان عدد السكان الأصليين في عام ١٩٨٥ بلغ ٦٤٤٧,٧ ألف نسمة.

وفي منتصف ١٩٩٣ نشرت معطيات إحصاء النفوس الذي جرى في عام ١٩٩٢. وتفيد تلك المعطيات ان العدد الإجمالي لسكان المملكة بلغ آنذاك ١٦٩٢٩٢٩٤ نسمة، يشكل السكان الأصليون منهم ١٢٣٠٤٨٣٥ نسمة (٧٢,٧٪)، وبينهم ٦٢١١٢١٣ من الذكور و٦٠٩٣٦٢٢ من الإناث، ويشكل الوافدون الأجانب

٤٦٢٤٤٥٩ شخصًا (٢٧,٣٪). ونظرًا لوتائر نمو السكان الحالية يعتقد ان عددهم في عام ٢٠٢٥ ميلادي، سيبلغ ٤٤,٨ مليون نسمة.

وخلال فترة الازدهار النفطي والتصنيع السريع لوحظ في العربية السعودية نمو طبيعي متسارع للسكان، مع انخفاض ملحوظ في الوفيات. ولذا صار الأطفال في سن لا تتجاوز السادسة عشرة يشكلون في الثمانينيات والتسعينيات ٥٠٪ من السكان الأصليين. والخاصية الثانية التي أشرنا إليها سابقًا هي تزايد الوافدين. فالأجانب يشاركون بهمة ونشاط في ميادين الحياة الاقتصادية كافة وقد تحولوا بالتدريج إلى جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي لم يعد قادرًا على الاستغناء عنهم.

قوام الوافدين متنوع الجنسيات. ففي الخمسينيات والستينيات كان الفلسطينيون واليمنيون والمصريون وغيرهم من أبناء الأقطار العربية يشكلون السواد الأعظم من الوافدين. وفي أواسط السبعينيات بلغت نسبة العاملين العرب حوالى ٧٠٪ من الوافدين، فيما بلغت نسبة القادمين من الأقطار الآسيوية والافريقية الأخرى حوالى ٢٣٪ ، ومن البلدان الأوروبية الغربية ٢,١٪.

وتستند هذه المعلومات إلى مصادر رسمية، ولا تأخذ بالحسبان الهجرة غير المشروعة. وتفيد التقديرات ان عدد العمال القادمين من اليمن الشمالية، حتى بداية التسعينيات. كان يراوح بين ٨٠٠ ألف و١,٢ مليون شخص[٣٣].

وفي أواخر السبعينيات تقلص عدد الفلسطينيين العاملين في العربية السعودية، وبعد ذلك تقلص عدد الوافدين من الأقطار العربية الأخرى. وازدادت نسبة الوافدين (باختصاصات عمالية أساسًا) من بلدان جنوب وجنوب شرقي آسيا. وعلق عليهم الآمال بالذات رجال الأعمال السعوديون والغربيون في دعم الدولة. فالكوريون الجنوبيون والصينيون والفليبينيون يعتبرون أكثر انضباطًا وتأهيلًا، وأقل خطرًا من الناحية السياسية.

وفي مطلع الثمانينيات بلغت نسبة الوافدين بين سكان البلاد حوالى ٣٦٪، وبين الأيدي العاملة ٥٢٪. ولكن كل برامج التنمية الاقتصادية تضع بين مهماتها الأساسية تقليل الاعتماد على الأيدي العاملة الأجنبية، وتقليص عددها، وتأمين استقرارها.

ووضعت عراقيل كبيرة أمام توطين الوافدين العاملين بعقود، ولم تمنح الجنسية إلا لبعض العرب من أبناء الخليج. ومع ذلك فأن قسمًا كبيرًا من الوافدين بالامس الذين أقاموا وعملوا في المملكة السعودية أمدًا طويلًا. قد غدوا جزءًا من المجتمع السعودي وصاروا يشكلون فئة سفلية فيه، حتى ظهرت لهجة جديدة هي خليط بين العربية والاوردو.

وبلغت نسبة السكان العاملين في الزراعة عام ١٩٦٠ ـ ٧٠٪، وعام ١٩٨١ ـ ٦١٪ وعام ١٩٨٥ ـ ٤٨٪، بينما يشكل العاملون في الصناعة أقل من ذلك بكثير ١٠٪ و ١٤٪ و١٥٪ على التوالي، كما يشكل العاملون في ميدان الخدمات ١٩٪ و٢٥٪ و٣٧٪. وجرى في الثمانينيات والتسعينيات تقلص سريع في عدد العاملين في الزراعة، فيما اتسع ميدان الخدمات والصناعة.

وتبلغ نسبة العاملين في صناعة استخراج النفط حوالى ١,٣٪ من مجموع الأجراء. وهي نسبة صغيرة. كما بلغت نسبة العاملين في الصناعات الاستخراجية الأخرى ١,٧٪ وفي تكرير النفط ٠,١٪. إلا أن اقتصاد النفط والغاز هو المجال الوحيد الذي تتجاوز فيه نسبة السعوديين أبًا عن جد نصف العاملين وتشكل حوالى ٥٧٪. وعلى الرغم من التدابير النشيطة التي اتخذتها الحكومة «لتسعيد» صناعة النفط والغاز بالكامل، فإن هذا الهدف لم يتحقق حتى مطلع الثمانينيات، إذ كان يعمل فيها أردنيون وفلسطينيون وسوريون. وان نسبة السعوديين في الصناعة الاستخراجية، التي هي المصدر «التقليدي» لتكوين الطبقة العاملة، غير كبيرة وتراوح، حسب مختلف التقديرات، بين ٦ و ١٨٪.

وابتداء من الثمانينيات على العموم تجاوزت نسبة العاملين الوافدين الذين يتجدد قوامهم باستمرار في الصناعة السعودية ٨٠٪. إلا أن مكوثهم في العربية السعودية قصير. فالمعطيات الرسمية تفيد ان نسبة السعوديين العاملين بالأجرة في مطلع الثمانينيات لفترة لا تقل عن ست سنوات كانت في أكبر المراكز الصناعية السعودية تراوح بين ١٦ و٥٠٪، في حين ان نسبة الأجانب العاملين بالمدة نفسها تراوح بين ٢,٤ و ٣,٦٪.

وتحتل مكانة خاصة في الصناعة الوطنية شركة أرامكو التي كان يعمل فيها وافدون من ٨٠ بلدا. ففي عام ١٩٩٠، كان السعوديون يشكلون أكثر من ٣٢ ألفًا من أصل ٤٣ ألفًا من مستخدمي الشركة. علمًا بأن نسبة السعوديين بين مسؤولي واداريي الشركة ٧٦٪، كما تبلغ نسبتهم ٦٠٪ بين أبرز خبرائها.

ومن بين الفروع الاقتصادية الأخرى نجد أكبر نسبة للسعوديين في النقليات والمواصلات (الاتصال)، حيث يشكلون أكثر من ٧٠٪ من العاملين فيها. والبناء هو المجال الذي نجد فيه أقل عدد من السعوديين، ففيه يستخدم مجهود الأيدي العاملة الرخيصة، الوافدة من بلدان آسيا وأفريقيا.

وحتى التسعينيات ظلّت الصعوبات قائمة في تشغيل النساء، مع أن الموقف التقليدي الذي يترك المرأة رهينة المنزل يتزعزع شيئًا فشيئًا. فثمة رجال أعمال كثيرون يعتقدون ان تشغيل السعوديات أفضل من استخدام الأجانب. واستحدثت في بعض المؤسسات«أقسام للحريم» لا يتوفر فيها اتصال مباشر مع الرجال. والعاملات يتلقين توجيهات الأسطة من خلال اتصال تلفوني. ولكن هذه المحاولات ظلّت نادرة. والسعوديات يمارسن الآن مهنة الممرضات والطبيبات ومربيات رياض الأطفال ومعلمات مدارس البنات، وعلى تخوم التسعينيات لم تتجاوز نسبتهن في العدد الإجمالي للأجراء ١٠٪.

وفي سنوات «الازدهار النفطي» أعيد النظر في قوانين العمل بقدر كبير وروعيت مصالح الأجراء. وشملت تلك القوانين رسميًا الوافدين الأجانب الذين تحدد شروط عملهم واقامتهم في السعودية بموجب قرارات حكومية.

وحدد أسبوع العمل من ٤٨ ساعة، بثماني ساعات يوميًا، مع إجازة سنوية واجازات مرضية مدفوعة، وتعويض في حال الإصابة أثناء الدوام، أو التعرّض لمرض مهني. وفرضت قيود زمنية بالنسبة لعمل النساء ولبعض أنواع اشغالهن، وكذلك بالنسبة للعاملين في سن تراوح بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة. ونصت القوانين على تدابير السلامة في العمل وتهيئة الظروف الطبيعية له، الأمر الذي

كان يطبق في القطاع العام، بينما لا يطبق دومًا في القطاع الخاص. وتشكلت هيئات مختصة بتسوية خلافات العمل. وظلت الإضرابات وغلق أبواب المؤسسات ممنوعة كالسابق. ويتعرّض المشاركون في أي تجمع غير شرعي إلى عقوبة السجن مدة تراوح بين ستة أشهر وعامين. ويعاقب على التحريض لوقف العمل بالسجن من سنة إلى ثلاث سنوات. ويعاقب مدبرو الإضرابات الممنوعة بالسجن مدة تصل إلى ست سنوات[٤٢].

التمدن

تميزت جميع الأقطار الشرقية في العصر الحديث بنمو وتوسيع المدن، إلا أن التمدن في شبه الجزيرة العربية مرتبط بالتصنيع لدرجة ما. وقد ازدادت نسبة سكان المدن بسرعة: ١٩٧٠ ـ ٤٨,٧٪، ١٩٧٧ ـ ٥٨,٧٪، ١٩٨٢ ـ ٦٦,٨٪، ١٩٩٠ ـ ٧٧,٣٪.

وشيدت مدن عصرية غدت مراكز صناعية وادارية وثقافية. وكانت مساحة الأراضي التي تشغلها العاصمة الرياض حوالى ١١٠ كيلومترات مربعة في عام ١٩٨٦، فيما بلغت في عام ١٩٩٢ ، ١٦٠٠ كيلومتر مربع، وازداد عدد سكانها خلال هذه الفترة من ١٦٠ ألف نسمة إلى أكثر من مليوني شخص. وتبدلت معالم العاصمة لدرجة تفوق الوصف.

وفي بداية الثمانينيات كانت جدة، المركز الصناعي والتجاري الهام، تشغل ١٢٠٠ كيلومتر مربع، ويتجاوز عدد سكانها مليون نسمة (مقابل ٣٥٠ ألف نسمة في عام ١٩٧٠). أما عدد سكان المدن السعودية الأخرى فهو أقل بكثير: الدمام وخيبر والظهران معًا حوالى ٣٥٠ ألف نسمة، والطائف ٣٣٠ ألفًا، وبريدة ١٨٤ ألفًا، وحائل ٩٢ ألفًا، وعنيزة ٦٨ ألفًا، ونجران حوالى ٦٠ ألفًا.

وازدانت مكة المكرمة والمدينة المنورة في السبعينيات والثمانينيات ببنايات جديدة فاخرة، وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨، وضع الملك فهد حجر الأساس في

توسيع المسجد الكبير في مكة، بحيث يتسع لـ ٦٩٥ ألف مصلٍ، كما يوسع مسجد المدينة المنورة ليستوعب ٦٥٠ ألفًا. وتجدر الإشارة إلى أن عدد حجاج بيت الله الحرام في ازدياد مطرد: ١٩٦٠ ـ ٢٨٦ ألف حاج، ١٩٧٠ ـ ٤٢١ ألفًا، ١٩٨٠ ـ ٨١٣ ألفًا، ١٩٨٣ ـ مليون وأربعة آلاف، ١٩٨٨ ـ ٧٦٣ ألفًا.

وتؤمن عائدات النفط تنفيذ أضخم المشاريع في المدن بمشاركة أفضل المعماريين واستخدام أغلى المواد الانشائية، ولكن في أوج الازدهار النفطي ظهرت فيها «الفيلات البدوية» للعمال الأجانب.

ان الأشكال الجديدة للمعيشة والحياة الاجتماعية في المدن لم تسفر، رأسًا، وفي كل مكان عن تغيير التقاليد. فقد انتقلت إلى المدن مساحات شاسعة تسودها الأعراف والعادات والعلاقات الاجتماعية التقليدية. ولا يندر ان تطلق على الحارات والأحياء أسماء الأفخاذ والقبائل التي كانت تقطنها سابقًا. وظل أهالي المدن يحترمون منزلة الاباء وشيوخ العشائر.

التحولات الاجتماعية

في الثمانينيات والتسعينيات تقلصت نسبة البدو الرحّل في العدد الإجمالي للسكان، لكن ذلك لا يعني التقليل من شأن الأعراف والعادات والقيم الاجتماعية التقليدية. ففي ظل التجديد الاقتصادي المكثف وتغلغل الحضارات والتوجهات الفكرية الغربية ذابت بعض تقاليد العشائرية، لكن بعضها الآخر تعزز وتجذر. فبتأثير التبدلات السريعة صار الفرد يحرص على القيم الثابتة والانتماء إلى جماعة أو شريحة معينة. وحظي هذا الاتجاه الموضوعي بدعم يتجلى في سياسة الحكومة الموزونة.

صحيح ان ذلك لم يمنع الحكومة من تشجيع تحضر البدو ومواصلة تطبيق سياسة المغفور له عبد العزيز بن سعود. وخصصت للعوائل البدوية قطع من الأراضي الجاهزة المزودة بمنزل وبئر، وقدمت إليها معونات مالية. وأخذت بعض العوائل البدوية

تنشئ استثمارات مربحة للمحاصيل الزراعية والحيوانية (تربية الضأن) تستخدم فيها أحيانًا عمالًا من بلدان جنوب وجنوب شرقي آسيا.

ونأخذ فكرة عن أوضاع البدو في مطلع الثمانينيات من الدراسة التي أجراها العالم الأميركي د. كول في المنطقة الوسطى من العربية السعودية. كان البدو الرحّل الصرف المسجلون في مراكز موارد المياه يشكلون ٣٣٪ من السكان. وفي المناطق الزراعية يمارس الزراعة والرعي ٧٢٪ من الأيدي العاملة. وفي الواحات يشكل البدو الذين تحضروا ٤٨٪ من السكان في أقصى تقدير. ويقول د. كول ان أغلبية العمال السعوديين غير المؤهلين في المناطق النفطية هم من الشبان البدو «الذين يعملون لأجل كسب ثمن شاحنة أو تكاليف الزفاف».

ويعمل أكثر من ٣٠٪ من أبناء أكبر القبائل والعشائر (شخص واحد من كل أسرة قبلية على الاقل) في دوائر الدولة ـ الشرطة والجيش والحرس الوطني وحرس الحدود. ولكن أبناء البدو نادرًا ما تجدهم بين الباعة والتجار والمدراء. لقد ظل الأصل العشائري يلعب بالاستمرارية دورًا في المجتمع، إلا أن مكانة البدو الحاليين الاجتماعية انخفضت. وبينهم تتفشى الأمية بأكبر نسبة للأشخاص في سن تتجاوز العاشرة ـ ٩٦٪. صحيح ان الوضع عرضة للتغيير. فالمستعربة اليابانية م. كاتاكورا تقول ان حوالى ٧٠٪ من أبناء البدو في المنطقة الغربية كانوا يتعلمون في المدارس في السبعينيات.

وقد تطورت أغلبية الفروع الزراعية بسرعة كبيرة على أساس اقتصاد السوق. واعتبارًا من السبعينيات صارت كل الاستثمارات الفلاحية تعمل من أجل السوق، وظهر عدد كبير من المزارعين الجدد في عشرات من المجمعات الزراعية ـ الصناعية الكبرى.

وفي أواسط الثمانينيات وزعت الحكومة ٥٦٠ ألف هكتار من الأراضي على ٣٨ ألف مزارع، وأسست أكثر من ألف وخمسماية مزرعة و١٠ تعاونيات زراعية. ومن الناحية النظرية كان بوسع أي شخص من رعايا المملكة ان يحصل على قطعة أرض

في المناطق المخصصة لهذا الغرض، ولكن توزيعها اعتمد بقدر ما على الارتباط بالعشائر المسيطرة على تلك المناطق من قديم الزمان.

إلا أن القروض والمساعدات الفنية من قبل الدولة كانت في بعض الأحيان تعتبر أمرًا مفروغًا منه وتنفق، ليس لأغراض إنتاجية، قدر ما تنفق على الاستهلاك أو تبقى دون أن يمسها احد. ويعتقد الباحثان البريطانيان ج. بيركس وس. سينكلير ان المساعدة من الدولة والمداخيل المرتفعة لحد غير مبرر اقتصاديًا قد غدت حافزًا قويًا للأبقاء على نمط الحياة المعتاد والاقتصاد البدوي القليل المردود في الأرياف.

وقد نمت البرجوازية الوطنية كمًا وكيفًا. فقد كانت في البلد سبعة صناديق مختصة لتوفير المساعدة المالية والقروض لبناء المشاريع الصناعية، والهياكل الارتكازية ، والبناء السكني بشروط متهاودة للغاية. وفي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ اضيفت إلى قانون ١٩٧٢ الذي يلزم الأجانب باحالة كل مؤسساتهم التجارية إلى السعوديين، قوانين بشأن لزوم مساهمة شريك (أو وكيل) سعودي في جميع الشركات الأجنبية التي تنشأ في الأراضي السعودية.

إن خطط التغيير والتنمية التي رسمها الملك فيصل قد لقيت تأكيدًا بعد عشرين عامًا. ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ أعلن وزير التخطيط هشام ناصر ان من أهم أهداف عملية التنمية دعم القطاع الخاص وتنظيمه وتمويله. وفي ربيع العام المذكور أشار نائب وزير التجارة رحمن الزامل إلى أن النشاط الاقتصادي للدولة من الناحية الاستراتيجية سيقتصر على المشاريع الوطنية العامة والبتروكيمياويات، ولن يدخل أبدًا ميدان المشاريع الصغيرة والمتوسطة أو أي ميدان آخر يعمل فيه القطاع الخاص، فالمطلوب ان تكون لهذه المشاريع الأخيرة ١٠٠٪ من النشاط الوطني غير النفطي.

وكان المفروض أن تساعد هذه المعونات المالية السخية، إلى جانب لزوم تعاون الشركات الغربية مع رجال الأعمال المحليين، على تكوين البرجوازية الوطنية، ولكن كانت هناك في الواقع عراقيل أمام تطور هذه الطبقة الجديدة بسرعة وبحرية.

ومن بين الصعوبات الموضوعية ارتفاع المستوى الفني للإنتاج الحديث واتساع نطاق الرساميل التي يتطلبها. فإن معظم الرأسماليين المحليين يفتقرون إلى المعارف والخبرة والأموال اللازمة. زد على ذلك عدم رغبة الرأسمال المحلي في التعامل مع الأنواع المعقدة من النشاط الإنتاجي، إذ ان التجارة والصفقات المالية والمضاربة بقطع الأراضي تعود عليه بأرباح كافية.

ومن الخصائص الرئيسية للبرجوازية الكبيرة السعودية الطابع العائلي لمؤسساتها الإنتاجية. فقد تحولت بعض البيوتات إلى محتكرين لميادين النشاط المختارة.

وكان مدى المشاركة الشخصية في إدارة الشركات متباينًا. فحتى الآونة الأخيرة كان التاجر السعودي التقليدي يمتلك المعارف والخبرة الكافية لعقد الصفقات التجارية وعمليات الوساطة. وعندما تساهم الشركات في الإنتاج الصناعي وتدخل ميدان المالية والخدمات يضطلع بوظائف الإدارة أميركيون وأوروبيون ومصريون وأردنيون وفلسطينيون. ونشأت شركات مختلطة يؤمن الجانب السعودي تزويدها بالرساميل والمواد والأيدي العاملة. وتنظم الشركات الأوروبية الغربية الإنتاج والتسويق. وبمرور الزمن صار قسم كبير من رجال الأعمال السعوديين الشباب (من مواليد الأربعينيات والخمسينيات والستينيات) يضطلعون بوظيفة المدراء، ويبدو أن أبناءهم سيحققون المزيد من «سعودة» هذا الميدان.

كانت مؤسّسات البرجوازية الكبيرة تمثل من حيث شكلها التنظيمي تجمعات صناعية مالية وصناعية تجارية متعددة الفروع والاختصاصات. وأساسها، عادة، شركات كبرى يمتلكها أحد البيوتات، أو إحدى الشركات القابضة.

وظلت التجارة بالنسبة لجميع رجال الأعمال السعوديين الكبار على وجه التقريب ميدانًا مهمًا للنشاط يمكنهم من الحصول على أرباح عالية مضمونة. وغدت الفنادق الفاخرة ميدانًا مهمًا للنشاط. وما يزال يتسم بأهمية كبيرة تمثيل الشركات الغربية الذي لم يتخل عنه أحد من أصحاب الملايين السعوديين.

واهتم الباحثون ووسائل الإعلام على حد سواء بالنشاط المالي للبرجوازية الكبيرة السعودية. فالسوق السعودية والعربية ضاقت أمام الكثيرين من أبناء البرجوازية القديمة والجديدة. وعلى سبيل المثال، احتفظ الإخوان خالد وسعيد المحفوظ، وهما من أبناء حضرموت الذين تزعموا أحد البيوتات التجارية السعودية القديمة بمواقعهما في التجارة والوساطة، وتمثيل الشركات الأجنبية، وأسّسا عدة مؤسّسات تجارية جديدة ومطابع، وشاركا في تشييد مشاريع بيتروكيمياوية وصناعية في السعودية وفي مصر. وفي مطلع الثمانينيات تركزت اهتمامات الاخوين محفوظ على الميدان المالي. واتسع نشاط أقدم بنك تجاري وطني كانت قد أسّسته في عام ١٩٣٨ أسرة المحفوظ (٥١,٥٪) وأسرة القاضي. وشاركت مختلف فروع أسرة المحفوظ في نشاط العديد من المؤسسات المالية الغربية في بروكسل وباريس وفرانكفورت ولوكسمبورغ وهيوزتن.

الجهاز الإداري

كان بناء جهاز الدولة العصري قد بدأ في عهد الملك فيصل. ووفقا لتوصيات الخبراء الغربيين تأسست وزارات جديدة وشبكة، إدارية على نطاق البلد كله. وازداد عدد مستخدمي الدولة بسرعة. ففي عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ كان عددهم ٢٢,٢ ألف شخص، وفي عام ١٩٧٠ كان في البلاد عشر وزارات يعمل فيها ١٢٠ ألف مستخدم، وبعد عشر سنوات ظهرت في البلاد ٢٠ وزارة و٢٠ دائرة حكومية أخرى، عمل فيها على العموم أكثر من ٣٠٠ ألف شخص.

صحيح ان فاعلية جهاز الدولة كانت ضعيفة للغاية، بسبب قلة الكوادر المؤهلة، وبسبب التسيّب والفساد. وفي مطلع الثمانينيات بلغت نسبة الحاصلين على التعليم الثانوي أو العالي بين مستخدمي المكاتب والدوائر في المملكة حوالى ٢٠٪ من السعوديين وأكثر من ٦٠٪ من الوافدين. ويقول باحثون غربيون ان مردود عمل المستخدمين السعوديين كان أقل بخمس مرات من مردود زملائهم الأردنيين

والسوريين. وكان أكثر تدهورًا عمل الحلقة السفلى المكونة، لاعتبارات سياسية، من بدو نازحين إلى المدن.

السياسة الاجتماعية

اعتبارًا من الستينيات رأت الحكومة ان من أولوياتها إيجاد نظام عصري للتعليم والصحة.

وفي عام ١٩٧٠، بلغت نسبة تلاميذ المدارس الابتدائية ٣١٪ من عدد الأطفال، وفي عام ١٩٧٩، ازدادت هذه النسبة إلى ٤٩٪. وازداد عدد المدارس الابتدائية من ١٨٧٧ مدرسة في عام ١٩٧٠ إلى ٤٤٦٧ مدرسة في عام ١٩٨٠ . وازداد العدد الإجمالي للتلاميذ والطلبة في المملكة من ١,٢ مليون شخص في عام ١٩٨٠ إلى ٢,٨ مليون في عام ١٩٨٩. كما ازداد عدد المعلمين والمدرسين من ٧٨,٣ ألفًا إلى ١٨٤,٣ ألفًا. وازدادت بشكل ملحوظ نسبة مدارس البنات. ففي عام ١٩٨٩، كان في البلاد ١٦٧٩٧ مؤسسة تعليمية، منها ٩٠٦١ للبنين (٥٤٪) و٧٧٣٦ للبنات (٤٦٪).

ويزود التلاميذ مجانًا بالكتب والقرطاسية والبزات والطعام ووسائط النقل. وكان التعليم مجانيا أيضًا في المعاهد، حيث يتمتع الطلبة بمنح دراسية وبفرص الايفاد للدراسة أو مواصلة التحصيل العلمي في الخارج.

إلّا أن تقاطر الشباب على المؤسسات التعليمية لم يسفر عن الزيادة المنشودة في عدد الأخصائيين المؤهلين للاقتصاد والدوائر الاجتماعية في البلاد. إن قسمًا غير قليل من الشبان السعوديين يصبحون رجال أعمال بعد التخرج. ويقول الباحث الإنجليزي ر. كوردس إن جهود الحكومة لرفع مستوى التعليم تتبدد بسبب سياستها في ميدان العمالة والتشغيل، حيث تنشأ أعمال كثيرة يمكن للمرء أن يمارسها دونما حاجة إلى تعليم. ويتسائل كوردس ساخرًا: «فلماذا تتعب نفسك في الحصول على التعليم، إذا كان بوسعك ان تنعم بحياة هانئة دون جهد من هذا النوع؟.

وكان توسيع نظام التعليم العالي يجري بشكل طفرات. وفي مطلع التسعينيات كانت في البلاد ٨٢ كلية فيها ١١٥ ألف طالب، وسبع جامعات هي جامعة الملك سعود في الرياض، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة الملك فهد في الظهران، وجامعة الملك عبد العزيز في جدة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وجامعة الملك فيصل في الشرقية، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة. وبلغت نسبة الاناث بين خريجي المعاهد العالية حوالى ٤٠٪ (٦٢).

وحتى الآونة الأخيرة كان الشباب السعوديون يفضلون التعليم الاقتصادي والفروع الأدبية. واستمرارا في سياسة «سعودة» الأيدي العاملة أبدت الحكومة مزيدًا من الاهتمام بإعداد الفنيين. وخلال الثمانينيات ازداد عدد المعاهد العالية الصناعية من ٥ إلى ٤٢، كما ازداد عدد خريجيها من ١٨٨ إلى ١٦٦٧.

واستمر إيفاد الطلبة السعوديين للدراسة في الغرب على أساس الاتفاقيات الحكومية والاتصالات المباشرة بين الجامعات. ويتمتع خريجو الجامعات الأميركية بمنزلة خاصة، حتى أن أحد الدبلوماسيين الأميركيين قال: عندما تتعاملون مع حكومة المملكة «تذكروا انكم تتعاملون مع ثلاثة آلاف من خريجي الجامعات الأميركية».

وكانت بداية إيجاد نظام عصري للصحة العامة قد أرسيت هي الأخرى في الستينيات، وفي مطلع التسعينيات كان الوضع قد تغير لحد يفوق الوصف. ازداد عدد المستشفيات خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠ من ٧٤ إلى ٢٥٤ (وازداد عدد الأسرة من ٩ آلاف إلى ٤١ ألف سرير)، كما ازداد عدد المستوصفات من ٧٥ إلى ٤٩٨. وبلغ عدد ذوي المهن الطبية في عام ١٩٨٠، ١١٧٢ في المستشفيات و٥٠٠٢ في المستوصفات، فازداد في عام ١٩٩٠ حتى بلغ ٢٠١٣٦، و٧٠٨٨٧ على التوالي.

ولم يعد متوسط طول العمر في العربية السعودية من أقصر الأعمار في الشرق الأوسط. ففي عام ١٩٩٠ بلغ حوالى ٦٤ عامًا (مقابل ٤٩ عامًا في سنة ١٩٦٥). إلا أن وفيات الأطفال ما تزال مرتفعة، حيث بلغ عددها للألف الواحد من المواليد

في ١٩٧٠ ـ ١٥٤ وفي، ١٩٨٢ ـ ١٢١. وما تزال منتشرة أمراض التراخوما، والتدرن الرئوي، والملاريا، وغيرها من الأمراض العائد، بعضها، إلى أسباب اجتماعية.

وعلى الرغم من الركود الاقتصادي في الثمانينيات فقد بنت الدولة ٢٢١٢ ألف مسكنًا، وبفضل مساعداتها شيد أيضًا ٤٦٥ ألف مسكن. كما شيدت نواد رياضية جديدة حتى بلغ عددها الآن ١٥٤، وافتتح ١٩ منتدى للشبيبة و١٤ مركزًا رياضيًا و٦ ملاعب(٦٨).

وأدّت سياسة الحكومة الاجتماعية والنهوض الاقتصادي العام، على الرغم من الركود الوقتي، إلى رفع مستوى حياة قسم كبير من السعوديين لدرجة كبيرة. وتبنت فئات اجتماعية معينة نمط المعيشة الاستهلاكي الغربي المتميز بالوفرة والأبهة.

الحياة الاجتماعية

لم تكن مستلزمات التغيير الاجتماعي والاقتصادي في صلب المجتمع السعودي قد اختمرت حتى أواخر السبعينيات. إلا أن أزمة النظام الإقطاعي ومظاهر الحياة في البلدان القريبة والبعيدة، وتطور النموذج الرأسمالي الذي دخل السعودية بشكل موضعي في البداية، ثم على نطاق متسع باتساع قاعدة الصناعة النفطية ـ كل ذلك دفع الحكومة إلى الإصلاحات.

وفي أعقاب سقوط نظام الشاه في إيران، في أواخر السبعينيات، ترددت شائعات وتوقعات كثيرة تقول بتداعي جميع الأنظمة الملكية في الجزيرة العربية قريبًا. واستندت تلك التوقعات والتنبؤات إلى التشابه الظاهري في التطور الاقتصادي، المستند إلى استخراج النفط، وفي البنى السياسية سواء بسواء، وكذلك إلى وجود جماهير غفيرة من السكان المتذمرين من التجديد العصري السريع، وظهور القيم الغريبة والتقليل من شأن القيم التقليدية.

ولكن في الجزيرة العربية اتضح غياب الجماعات المعارضة للنظام القائم نفسه، وليس المعارضة لبعض تدابيره وأعماله. واستجابت القيادة السعودية

لجماهير السكان، وسعت لجعل قسم كبير منها يتحسس ثمار السياسة الاجتماعية للسلطات.

وحدثت في العربية السعودية خلال العقد الأخير صراعات اجتماعية حادة أحيانًا، تتعلق بالمسائل الجذرية للتطور الاجتماعي، لكنها كانت، عادة، محدودة النطاق، ولا تشمل جماهير شعبية واسعة. وطرأت تبدلات ثورية على القوى المنتجة والنقليات، والمواصلات والصناعة والتكنيك والتعليم والصحة العامة. لكن تحركا اجتماعيًا لم يحدث.

فالظروف الموضوعية كأنما افرغت محتوى نشاط القوى اليسارية الراديكالية كالشيوعيين السعوديين. وأشار أحد زعماء الحزب الشيوعي السعودي في حديث نشرته مجلة «ريفوليوسيون» (١٩٨٥/٢/٢٢) إلى انحسار المعنويات الكفاحية للشغيلة بعد الستينيات. وأكد أن السبب هو ظهور المجتمع الاستهلاكي. فالعمال السعوديون يرفلون بالنعيم. لقد فند العمال السعوديون، شأن غيرهم من الشغيلة بعد نضالات نشيطة فعلًا من أجل حقوقهم في مطلع الخمسينيات، العقائد الماركسية. وحصلوا خلال سنوات الازدهار النفطي على كثير مما ناضل في سبيله عمال أوروبا الغربية طوال مائة وخمسين عامًا تقريبًا.

وأعلن برنامج الشيوعيين السعوديين الذي أقر في آب (أغسطس) ١٩٨٥ عن أهدافهم في تحقيق الحريات الديمقراطية، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وتوفير مرافعات قضائية عصرية، والاعتراف بمساواة جميع المواطنين أمام القانون، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية وآرائهم السياسية. وبالإضافة إلى الملاحقة من قبل دوائر الأمن. واجه الشيوعيون نفور السكان من أفكارهم وقيمهم التجريدية من جهة، والغريبة على السعوديين من جهة أخرى. وجرد سقوط الأنظمة الشيوعية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، الشيوعيين السعوديين من كل بادرة للأمل في الاضطلاع بدور ذي شأن في الحياة الاجتماعية للبلاد.

وكانت الخلافات الاجتماعية تحدث في الغالب بين العمال الأجانب وارباب

العمل. ففي بداية الثمانينيات، في ظل ركود النشاطات وإفلاس العشرات من شركات البناء، حدثت اضطرابات بين العمال الأجانب. وطالبوا بتسديد أجورهم واعادتهم إلى أوطانهم. وفي عام ١٩٨٤، ظل أكثر من ألفي باكستاني وكوري جنوبي بدون أي وسيلة للرزق، بعد إفلاس شركة «كارلسون غروب» بسبب تخلي الحكومة عن تشييد مبنى الجامعة الجديدة في الرياض. وأخذت السلطات على عاتقها مهمة تسوية الخلاف، لكن مدبري الاحتجاج طردوا من البلاد في الحال. وكانت السلطات السعودية تعتبر العمال الأجانب بالذات خطرًا على الاستقرار في البلاد. وأعلن وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز ان الوافدين يشكلون خطرًا على الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، ولذا يجب تقليص عددهم إلى حده الأدنى.

وبعد أحداث مكة والثورة الإيرانية أخذت السلطات السعودية تبدي المزيد من الاهتمام بالتقيد بالأصول والمبادئ الإسلامية. وفي عام ١٩٨٤، منع استيراد الدمى (العرائس) وفرضت عقوبة عليه، وتشددت ملاحقة السفارات من قبل الشرطة الإسلامية. وراح الغيارى على الدين من أعضاء الرابطة الأخلاقية يتابعون التقيد باوقات الصلاة، وبلغ الأمر حد تحطيم واجهات استديوهات التصوير وغلق البلاجات المختلطة وعرقلة أحياء الأعياد المسيحية من قبل الخبراء الغربيين.

وفي مطلع عام ١٩٨٤، حذر بعض علماء الدين من اخطار السفر إلى بلاد الكفار، وشجبوا نشاط المكاتب السياحية، التي تدعو الشبان السعوديين إلى زيارة أوروبا الغربية والولايات االمتحدة. وأيد الملك فهد على الملأ هذه الميول التي انتشرت كذلك بين قسم من المثقفين السعوديين الشباب.

وفي أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات ظهرت تنظيمات دينية سياسية غير حكومية مثل «أهل الدعوة» و«الفجر» وحركة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية وغيرها. وكلها تدعو إلى الحفاظ على الأصول الإسلامية، وليس إلى الإصلاح.

وكانت الفئات المتوسطة، وقسم كبير من العاملين يستحسنون الدعوات إلى الحفاظ على القيم التقليدية المتميزة بالمساواة واستنكار نمط الحياة الغربي. وكان

ذلك انعكاسًا لعمق ومتانة التقاليد الدينية، وللخوف من الابتعاد عن الجذور وعن الجماعة في جو التبدلات الصاخبة. وهكذا غدا المجرى الأساسي للتوتر في المجتمع هو التعارض المستتر بين الأفكار والقيم والأصول العصرية البرجوازية (الغربية)، والتقليدية الإسلامية والعشائرية. ودعمت السلطات بهمة، وان بحدود معينة، ردود الفعل السلبية التي أبدتها أغلبية السكان إزاء المستجدات الروحية. ولم يغير في الأمر شيئًا انتفاع المجتمع السعودي من المنجزات التكنيكية الغربية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، على الرغم من الصبغة السياسية، تحليق أول رائد فضاء سعودي في حزيران (يونيو) ١٩٨٥، وهو الأمير سلطان بن سلمان، نجل حاكم الرياض، على متن السفينة الكونية الأميركية.

وكان التعصب الشديد ورفض كل المستجدات والمستحدثات قد جعلا العديد من علماء الدين ينحازون إلى معارضة النظام. وكانت تلك المعارضة تقلق السلطات أكثر من الحركة الدرداء سياسيًا للبراليين السعوديين القليلي العدد، والحركات الراديكالية اليسارية التي انحسرت نهائيًا في أواخر الثمانينيات. وكان اللبراليون يطالبون بإزالة أكثر مخلفات الماضي تحجرًا، وبتخفيف أحكام الشريعة المطبقة في الحياة اليومية. إلا أن المتدينين المتعصبين أكبر عددًا ولديهم سند اجتماعي اوسع، ومطبوعات، وفرص أكثر لنشر دعوتهم.

وحاول الملك ان يحد من الموجة الجديدة للتعصب الإسلامي خشية المخاطر الناجمة عنها، وعمل على وضع عوائق اجتماعية في طريقها. فقد عبر الملك عن دعمه للإسلام إلى جانب تأييده للمعتدلين من دعاة الإصلاحات الاجتماعية.

وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠، عمدت جماعة من ٤٦ امرأة بالثياب التقليدية إلى غلق المرور في أحد شوارع العاصمة السعودية، وطالبن بأن يسمح الملك للنساء بقيادة السيارات. ومن الناحية الرسمية لم يكن هنالك منع بهذا الخصوص، إلا أن رجال شرطة المرور يوقفون النساء اللواتي يقدن السيارات، ويحتجزونهن في مراكز الشرطة، حتى يأتي آباؤهن أو ازواجهن. وجاء رد فعل السلطات على المظاهرة

النسائية سلبيًا. لكن الملك فهد التقى في نيسان (أبريل) ١٩٩١، مع أربع من اللواتي شاركن في المظاهرة. ولمح في الحديث معهن إلى أنه مستعد لفهم اوضاعهن. وبعد ستة أشهر عدن إلى العمل، وتلقين تعويضًا عن الخسائر، واعيدت لهن هوياتهن. ومع ذلك، لم ير أحد سائقات للسيارات في الشوارع.

ان الأغلبية الصامتة في البلاد تتحاشى اللبراليين والمتدينين المتعصبين على حد سواء. فالاغلبية لا تريد للسفينة ان تميل. وكان الانصراف عن السلطة السياسية وأصول الشريعة المتشددة، يحظى بتعويض في الفرص الواسعة لممارسة النشاط التجاري والصناعي، والحصول على التعليم وعلى مناصب الدولة.

وتفهم الأغلبية ان التطور الاقتصادي والاجتماعي الثابت كان ممكنًا في ظل الاستقرار وفي ظل الدولة التي تلعب دورًا حاسمًا تستخدمه «كحكم اجتماعي» لصيانة الوئام في المجتمع. أما التخلي عن الأوضاع القائمة فيمكن أن يستثير اضطرابًا اجتماعيًا، لا أحد يعرف عواقبه.

بعض التبدلات في البنية السياسية

في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، وافت المنون الملك خالد بعد مرض عضال. وحتى ذلك الحين كانت مقاليد الحكم قد انتقلت في الواقع إلى الأمير فهد. وغدا ملكًا ورئيسًا للوزراء باتفاق الأمراء الكبار، وعين أخاه الأمير عبد الله بن عبد العزيز، (قائد الحرس الوطني) وليًا للعهد ونائبًا أول لرئيس الوزراء. كما عين شقيق الملك سلطان بن عبد العزيز، (وزير الدفاع)، نائبًا لرئيس الوزراء.

وأخذت الصحف تلقي بعض الأضواء على قضايا تحسين بنية الدولة. وكشف احتلال المسجد الحرام في مكة المكرمة عن مدى تذمر قسم من السكان من الامتيازات المفرطة للعائلة المالكة. ومن ردود الفعل على ذلك تشكيل، لجنة في آذار (مارس) ١٩٨٠ برئاسة وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز لوضع نظام للإدارة يستند إلى الأصول الإسلامية. وبعد انتظار طويل نشرت أوامر الملك فهد في آذار ١٩٩٢.

وجاء في الأمر الأول ان السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة كاملة، وان دين الدولة هو الإسلام، ودستورها كتاب الله تعالى، وسنة رسوله(ﷺ). ويبقى علم الدولة الحالي وشعارها وشكل الحكم الملكي. ويتزعّم البلاد أبناء واحفاد مؤسس المملكة المغفور له الملك ابن سعود، ويقسم اكثرهم جدارة اليمين الملكية على المصحف الشريف. ويختار الملك ولي العهد، ولا ينحى من هذا المنصب إلا بمرسوم ملكي. وهو يؤدي ما يكلفه به الملك ويقوم مقامه بعد وفاته حتى أداء اليمين واعتلاء العرش.

ويستند نظام حكم السعوديين إلى العدالة والشورى والمساواة. وكل ثروات البلاد برًا وبحرًا. ملك الدولة التي يتكوّن أساسها من الملكية والمال والعمل. وتؤمن الدولة حرية وحرمة الملكية التي لا يجوز انتزاعها إلا بالحكم. وتجبى الزكاة وتنفق وفقًا لأحكام الشريعة.

وتتعهد الدولة بحماية الإسلام وتطبيق أحكام الشريعة التي تؤمن حقوق الإنسان، وتعمل من أجل التضامن ووحدة الأمة العربية والإسلامية. وتدعم الدولة مؤسّسات الضمان الاجتماعي وتشجيع الأعمال الخيرية.

وتؤمن القوات المسلحة السعودية حماية الدين والحرمين الشريفين والأمة والوطن. وان حماية الدين الإسلامي والأمة والوطن واجب على كل مواطن.

والصحافة تتمسك بالنظم التي تقرها الدولة وتسهم في تنوير الأمة وتعزيز وحدتها. ويمنع كل ما يثير الفتن والانقسام ويشكل تطاولًا على أمن الدولة، والعلاقات الاجتماعية، وكرامة الإنسان وحقوقه. وتؤمن الدولة حرمة المراسلات والمكالمات الهاتفية والبرقية. ثم ان أبواب ديوان الملك وولي العهد مفتوحة لجميع المواطنين.

ان السلطات القضائية في البلاد مستقلة تحكم وفقًا لأصول الشريعة. والملك ومن يقوم مقامه مدعوان إلى تنفيذ أحكام المحكمة. ويعين أعضاء المجلس القضائي الأعلى لهذا المنصب ويعفون منه بمرسوم ملكي وبتوصية من المجلس المذكور.

ويوجه الملك سياسة البلاد وفقًا لمبادئ الإسلام، ويتابع التقيد بأحكام الشريعة

والحفاظ على النظام في البلاد، وتأمين الدفاع عنها. ويترأس مجلس الوزراء، ويعين ويعفي نوابه ،واعضاء الوزارة، الذين يتحملون معه مسؤولية الأوضاع في البلاد.

ويتمتع الملك بصلاحية حل الحكومة وتشكيلها.

والملك هوالقائد العام للقوات المسلحة، يعين وينحي الضباط، ويعلن حالة الطوارئ والنفير وحالة الحرب. ويمكنه ان يحيل بعض صلاحياته إلى ولي العهد.

ويشكل الملك مجلس الشورى، ويحدد نظام عمله ويختار أعضاءه، ويحل المجلس ويعيد تشكيله من جديد.

ووفق للمرسوم الملكي يتكوّن مجلس الشورى من رئيس و٦٠٠ عضو يختارهم الملك ويحدد المرسوم الملكي حقوقهم وواجباتهم. ولا يكون عضوًا في المجلس إلا السعودي من حيث الأصل والتربية ممن اشتهروا بالموهبة وكرم المحتد، وفي سن لا تقل عن الثلاثين. ومدة صلاحيات هذا المجلس الحكومي أربع سنوات قمرية.

ويلقي الملك أو من يخوله في مجلس الشورى خطاب العرش سنويًا للبلاد. ويعبر المجلس عن رأيه في المسائل العامة لسياسة الدولة الداخلية والخارجية التي يطرحها رئيس الحكومة على بساط البحث، وكذلك في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وينظر في اللوائح القانونية والمعاهدات والاتفاقيات الدولية والامتيازات، ويناقش تقارير الوزارات والدوائر الحكومية الأخرى، ويقدم اقتراحاته بشأنها. ويتخذ المجلس قراراته بأغلبية الأصوات. ويتكوّن نصابه من ثلثي الأعضاء.

ويقدم مجلس الشورى قراراته إلى رئيس الحكومة الذي يطرحها على بساط بحث مجلس الوزراء. وإذا اختلف الرأي بين الحكومة ومجلس الشورى، يكون القول الفصل للملك. ويمكن لعضو مجلس الشورى ان يقترح مشاريع قوانين جديدة، أو تعديلات على القوانين المرعية إذا أيده في ذلك تسعة أعضاء آخرون. وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢، عين الملك فهد وزير العدلية السابق محمد بن إبراهيم بن جبير رئيسًا لمجلس الشورى.

ويتسم المجلس المذكور ببعض سمات الهيئة التمثيلية التي تحوله في ملابسات معينة إلى جهاز حكومي متنفذ.

السياسة الخارجية.

تعتبر السياسة الخارجية للعربية السعودية في الثمانينيات والتسعينيات استمرارًا للمبادئ الموضوعة سابقًا من جهة، ومن جهة أخرى رد فعل على التحديات التي واجهها أمن المملكة بل حتى وجودها نفسه. وطبقت تلك السياسة في وقت معًا على عدة أصعدة مترابطة ـ على الصعيد الإقليمي المحدود (شبه الجزيرة العربية، الخليج العربي، البحر الأحمر)، وعلى صعيد العالم العربي مع التأكيد على الدور السعودي في النزاع العربي الإسرائيلي، وعلى الصعيد الإسلامي، وعلى الصعيد العالمي.

وورثت القيادة السعودية عن الستينيات والسبعينيات، وعن عهد المجابهة في مصر، مع عبد الناصر، مخاوف بالغة من الحركات الراديكالية اليسارية والأنظمة الثورية الاستبدادية. وبحكم تلاعبات التاريخ والجغرافية، ظهرت على الحدود السعودية أو على مقربة منها آخر اورام النظام الشيوعي المحتضر. وظل قائمًا النظام الماركسي الذي أخذ يتسلح بنشاط في اليمن الجنوبي. وقامت في اثيوبيا ثورة اكتسبت صبغة شيوعية. واستولى الماركسيون الموالون للاتحاد السوفييتي على السلطة في أفغانستان. وعندما دخلت القوات السوفييتية هذا البلد، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، اعتبرت الرياض ذلك نذير خطر. ومع أن القيادة السوفييتية ما كانت تنوي السيطرة بالفعل على الخليج العربي ولا إسقاط النظام السعودي، فقد اعتبرت القيادة السعودية الاتحاد السوفييتي عدوا لها. وهذا هو ما أعاق إقامة العلاقات الدبلوماسية مع موسكو، وبدء حوار سياسي طبيعي.

وكرّست العربية السعودية مواردها، وركزت ثقلها على الدعم المالي والمادي والسياسي للمعارضة المسلحة في أفغانستان، وعبأت الرأي العام وزعماء الدول الإسلامية ضد نظام كابل الموالي للسوفييت، وضد الغزو السوفييتي. وأيدّت الرياض المعارضة في اليمن الجنوبي، كما دعمت كفاح إريتيريا المسلح ضد أديس ابابا.

واشتد الشعور بالخطر الخارجي بازدياد نفوذ البعثيين في العراق الذي ما كان يخفي نيته في منافسة إيران على الزعامة في منطقة الخليج.

الا أن التاريخ حسم القضية، بحيث لم يعد الراديكاليون اليساريون، ولا الماركسيون الموالون للاتحاد السوفييتي يعتبرون مصدر الخطر الرئيسي على النظام السعودي. فإن سقوط الشاه، وقيام نظام «الملالي» في إيران اثارا البلبلة في المنطقة، أكثر من التمارين الماركسية للحكام الثوريين المستبدين في اثيوبيا وأفغانستان. ولقيت الشعارات والدعوات المنطلقة من طهران وقمّ، «لاسقاط الأنظمة المتعفنة الموالية للأميركان»، صدى لدى الشيعة في المنطقة الشرقية من السعودية، ولدى فئات واسعة من السعوديين المتدينين، المحافظين المناوئين للغرب.

ولذا فعندما اندلعت الحرب الدموية الطويلة الأمد. بين العراق وإيران. في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠، بادرت القيادة السعودية إلى تأييد العراق. وغدت الحيلولة دون انتصار إيران وعدم الانجرار إلى النزاع العراقي الإيراني، المهمة الرئيسية للسياسة الخارجية للرياض على مدى عدة سنوات قادمة.

وفي تلك الأثناء، واصلت القيادة السعودية تأكيد وجودها في الساحة العربية. ففي عام ١٩٨١، غدت السعودية من جديد أحد أطراف التوسط في الأزمة اللبنانية. واستمرت جهودها على هذا الصعيد في السنوات التالية. ونشطت الرياض محاولاتها لايجاد حل للمشكلة الفلسطينية والنزاع العربي الإسرائيلي. وفي ٧ آب (أغسطس) ١٩٨١، تقدمت السعودية بخطة فهد، ولي العهد آنذاك، من ثماني نقاط. ولأول مرة ورد فيها الاعتراف بحق دولة إسرائيل في الوجود. ولم تحظ خطة فهد باستحسان العرب قاطبة، زد على ذلك ان إسرائيل رفضتها، ومع ذلك غدت الخطة ورقة عمل لمعظم الدول العربية.

وتلفتت القيادة السعودية حواليها، فتأكدت مجددًا ان الولايات المتحدة ظلّت الحليف الرئيسي لها. ولم يتمكن أحد سواها من إبعاد الخطر الراديكالي اليساري، أو خطر الأصوليون الخارجي عن المملكة. وتعزز التعاون بين الرياض وواشنطن لدرجة

كبيرة جدًا. وصارت الأولوية للميدان العسكري ولمشتريات الأسلحة من الولايات المتحدة الأميركية.

وإبّان ما سمي «بالحرب الخامسة» في الشرق الأوسط، أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان، وحصار بيروت عام ١٩٨٢، استنكرت العربية السعودية فعلة إسرائيل، لكنها لم تتخذ خطوات ملموسة للضغط على الولايات المتحدة الأميركية حتى تؤثر بدورها على إسرائيل.

وفي قمة فاس (أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢)، شارك الملك فهد في وضع خطة عربية موحدة للتسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، واستندت هذه الخطة في الواقع إلى مشروعه السابق.

وظلت الرياض تعلق أهمية كبيرة على الجمهورية العربية اليمنية التي هي أكبر بلد في الجزيرة العربية من حيث عدد السكان، وكذلك اليمن الديمقراطية التي قام فيها نظام حكم ثوري ماركسي. وبعد إقامة العلاقات الدبلوماسية مع اليمن الديمقراطية في عام ١٩٧٥، عرضت السعودية على عدن مساعدات مالية ونفطية على أمل تغيير نهجها السياسي. وعندما اتضح ان هذه الآمال ليس لها ما يبررها تأزمت العلاقات بين البلدين.

وبعد مقتل الرئيس اليمني الشمالي، في حزيران (يونيو) ١٩٧٨، واستلام علي عبد الله صالح رئاسة الجمهورية، وافقت الرياض على تسديد أثمان أسلحة وآليات حربية أميركية اشترتها الجمهورية العربية اليمنية بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار، إلا أنها أصرت على وقف التعاون العسكري بين صنعاء والاتحاد السوفييتي. وأثناء الحرب بين اليمن الشمالي والجنوبي في آذار (مارس) ١٩٧٩، ازدادت المساعدات السعودية إلى صنعاء. إلا أن برودًا أصاب العلاقات بين الرياض وصنعاء بعد الهدنة وتطبيع الروابط بين شطري اليمن، حتى أن المساعدة السعودية إلى اليمن الشمالي توقفت. لكنها استؤنفت في عام ١٩٨٠ . ولم يولد توحيد شطري اليمن في دولة واحدة عام ١٩٩٠، حماسًا لدى الرياض. والذي ظهر في الجزيرة العربية على أثر هذا التوحيد

هو منافس ما يزال فقيرًا جدًا، لكنه قوي في المدى البعيد ولديه تناقضات جوهرية مع العربية السعودية بخصوص القضايا الحدودية.

وفي السبعينيات والثمانينيات اهتمت العربية السعودية بتطوير التعاون الإقليمي في حوض البحر العربي على أمل تقوية نفوذها هناك. وكان رد فعل الرياض سلبيًا للغاية على الثورة الاثيوبية عام ١٩٧٤، وقيام الحكم الثوري الاستبدادي في أديس ابابا. وقدمت العربية السعودية مساعدة مالية إلى الصومال بلغت مئات الملايين من الدولارات في أغلب الظن، وأيدتها في حربها ضد اثيوبيا في ١٩٧٧. إلا أن الزحف الصومالي على اثيوبيا أخفق. واتضح ان دعم الاريتيريين المناضلين في سبيل الاستقلال عن اثيوبيا أكثر ثمرة. وسقط نظام مينغيستو هايلا مريام الماركسي في عام ١٩٩٢ . واستقلت إريتيريا في عام ١٩٩٣ .

لقد طبقت العربية السعودية في السبعينيات والثمانينيات، على الصعيد الدولي، سياسة دعم الأنظمة اليمينية الموالية للغرب. وكانت المساعدات السعودية مشروطة في حالات كثيرة ، بتطبيق نهج معاد للشيوعية وللاتحاد السوفييتي.

وفي عام ١٩٧٦، قدمت الرياض إلى حكومة موبوتو في زائير ٥٠ مليون دولار لخوض الحرب ضد أنغولا. وفي عام ١٩٧٧، أيدّت تدخل بلدان الناتو في زائير لانقاذ موبوتا ودفعت تكاليف انزال القوات المغربية بالطائرات الأميركية في هذا البلد. وفي أعقاب ذلك قدمت العربية السعودية من جديد مساعدة مالية إلى زائير. إلا أن الرياض قطعت العلاقات الدبلوماسية مع كينشاسا في ١٩ أيار (مايو) ١٩٨٢، ردًا على استئناف زائير العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.

ومع ذلك ظل الأمن في منطقة الخليج والعمل على تفادي الخطر، من جانب إيران والعراق، يشغلان مرتبة الصدارة بين مهمات السياسة الإقليمية للرياض.

وفي ٤ شباط (فبراير) ١٩٨١، شكلت الأقطار الخليجية (من دون العراق) مجلس التعاون الخليجي لمواجهة التهديدات الإيرانية. وأفادت البيانات الرسمية ان المهمة الأساسية للمجلس هي التعاون الاقتصادي، وتنسيق خطط التنمية الاقتصادية

والمشاريع الصناعية. وتحققت بعض النجاحات على هذا الطريق بشكل اتفاقيات ثنائية ومتعددة الأطراف، حول المسائل الجمركية، واستخدام الأيدي العاملة، وبناء المؤسسات البتروكيمياوية.

إلّا أن بلدان مجلس التعاون الخليجي اهتمت في جو بداية الثمانينيات بالتعاون العسكري المتعدد الأطراف، وتنسيق الجهود لضمان الأمن الداخلي. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢ ، أعلن عن تشكيل قوات الانتشار السريع لدول الجزيرة العربية على غرار القوات الأميركية. وفي تشرين الأول (أكتوبر) من العام التالي، أجرت تلك القوات مناورات مشتركة في عمان للتدريب على العمليات الدفاعية في حال وقوع عدوان. ومع ذلك كان واضحًا ان الأنظمة الملكية «النفطية» في السعودية وغيرها عاجزة على انفراد أو بصورة مشتركة عن مواجهة إيران أو العراق. لذا تنفست الرياض والعواصم الأخرى الصعداء وهي تراقب ازدياد التواجد العسكري الأميركي في منطقة الخليج. وعندما أعلن رونالد ريغان قائلًا: «لن نسمح بتحول العربية السعودية إلى إيران ثانية»، لم تمر كلماته هذه مرور الكرام، لكن الرياض فضلت علنًا ألّا تربط نفسها بالسياسة الأميركية في المنطقة، وصارت تنتقدها أحيانًا.

وفي نيسان (أبريل) ١٩٨٤، ظهر خطر انجرار العربية السعودية إلى الحرب العراقية الإيرانية. فقد أصاب صاروخ ايراني سفينة تجارية سعودية. وفي أيار (مايو) قصف سلاح الجو الإيراني ناقلتين في المياه الإقليمية السعودية. واتخذت، بمساعدة الولايات المتحدة، آنذاك إجراءات لتعزيز شبكة الدفاع المضاد للجو على الساحل الشرقي، وشيد «خط فهد» الدفاعي، ونظمت خفارة للقوات السعودية في المياه الساحلية.

وهددت إيران بغلق مضيق هرمز أكثر من مرة. وحملت هذه التهديدات على محمل الجد، مع أنه كان واضحًا أن الولايات المتحدة لن تسمح بتطور الأحداث على هذا النحو.

ونظمت القيادة السعودية حملات احتجاجية، وواصلت في الوقت نفسه

الاتصالات مع جارتها القوية. ففي بداية ١٩٨٥، قام وزير الخارجية الأمير سعود بن فيصل بزيارة إلى طهران، لكنها لم تخفف من حدة التوتر بين البلدين.

وفي أيار (مايو) ١٩٨٥، فجرت قنابل في الرياض وقتل شخص، واصيب ثلاثة آخرون بجراح. وأخذت جماعة «الجهاد الإسلامي» المرابطة في إيران مسؤولية الحادث على عاتقها، حيث أعلنت عن بدء «حملة قنابل» في أرجاء البلاد كافة. وبجهود دوائر الأمن السعودية أزيل هذا الخطر.

وفي ٣١ تموز (يوليو) من العام نفسه، حدث في مكة صدام بين الحجاج الإيرانيين ورجال الشرطة السعوديين، أثناء أداء فريضة الحج. وقتل أربعمائة وشخصان بينهم ٢٧٥ ايرانيًا. والقت إيران الجريمة الفاجعة على العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية، واعتبرت ذلك استفزازًا مبيّتًا على حد زعمها. وقامت في طهران مظاهرات واسعة بشعارات معادية للسعوديين. وأعلنت العربية السعودية أن إيران تحاول استخدام الحج لأغراضها السياسية.

وفي آذار (مارس) ١٩٨٨، أعلنت السلطات السعودية عن تطبيق قواعد جديدة للحج، بتحديد عدد الحجاج لكل بلد (ألف حاج لكل مليون نسمة من السكان). وبلغ العدد المقرر للحجاج الإيرانيين ٤٥ ألف شخص. وأصر آية الله الخميني على ١٥٠ ألف حاج. وعندما رفض طلبه أمر الإيرانيين ان يمتنعوا عن أداء فريضة الحج عمومًا. وبالتدريج أمكن فيما بعد تسوية بعض الخلافات بين البلدين. ومع ذلك، حدثت في أيار (مايو) ١٩٩٣ اضطرابات للإيرانيين في العربية السعودية قتل أثناء إخمادها ١٣ شخصًا.

واستقبلت الرياض بشعور متناقض توقف العمليات الحربية بين إيران والعراق في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨، فمن جهة انتهى نزاع حربي كان يهدد باشعال الفتيل في المملكة السعودية نفسها. ومن جهة أخرى خرج نظام صدام حسين الدكتاتوري من الحرب معززًا يستعرض عضلاته، وأعلن في الحال تقريبًا عن نيته في التوسّع والزعامة الإقليمية.

وفي ٢ آب (أغسطس) ١٩٩٠، استولى النظام العراقي على الكويت والحقه بالعراق بعد بضعة أيام. وواجهت العربية السعودية خطرًا فتاكًا باحتمال تجزئتها ومحوها من الخارطة السياسية. وزال الخطر بدحر العراق على يد قوات الحلفاء بزعامة الولايات المتحدة الأميركية، وبتأييد سياسي من الاتحاد السوفييتي.

ان التقلبات المرتبطة بحرب الخليج، والعواقب التي خلفتها على الصعيدين الإقليمي والعالمي، وعلى السياسة السعودية الخارجية والداخلية؛ موضوع خاص كرست له مطبوعات واسعة لا يرى المؤلف موجبًا لتناولها في هذا الكتاب. فالعرض الجامد لهذه المادة يمكن أن يفسد اللوحة ويشوهها، أما العرض المفصل فيؤدي إلى تضخيم حجم الكتاب أكثر من المعتاد. وعلى أي حال يمكن اعتبار حرب الخليج ونتائجها أمرًا جاريًا في السياسة الحالية، نترك للجيل القادم من الباحثين مهمة تحويله إلى تاريخ مدون.

وبعد انتهاء «الحرب الباردة» وسقوط الشيوعية، وتقوض الاتحاد السوفييتي تبدل الوضع في العالم، وفي الشرقين الأدنى والأوسط، لحد يجعل بالإمكان ومن اللازم الكلام عن عصر جديد في تطور البشرية. ويتطلب ذلك بالطبع أساليب جديدة ودراسات جديدة تتجاوز إطار كتابنا هذا.

ويرتبط بحرب الخليج استئناف العلاقات الدبلوماسية بين موسكو والرياض. وهذا أمر يستحق الحديث عنه هنا.

كانت البعثة الدبلوماسية السوفييتية قد غادرت جدة عام ١٩٣٨ (راجع الفصل الثالث عشر)، بعد استدعاء حكيموف، أول سفير لروسيا في السعودية، وتعرّضه للتنكيل الستاليني. ومن الناحية الرسمية لم تنقطع العلاقات بين البلدين، ولكنها ظلّت غائبة في الواقع لأمد طويل.

وفي سنوات «الحرب الباردة» كان الملوك السعوديون يعتقدون ان الاتحاد السوفييتي يشكل خطرًا على العربية السعودية بسبب الارتباط «الوثيق» بين الشيوعية والصهيونية. وأدّت الصبغة الايديولوجية المفرطة للسياسة الخارجية السوفييتية إلى

جعل موسكو بدورها تعلق الآمال على الأقطار العربية التي أعلن زعماؤها عن شعارات اشتراكية، وطبقوا سياسة معادية للأميركان.

وفي الستينيات أدّى دعم الاتحاد السوفييتي للأقطار العربية في مواجهتها لإسرائيل إلى جعل الرياض تبدأ بتغيير موقفها من موسكو. واستؤنف تبادل التهاني بين رؤساء الدولتين بمناسبة الأعياد الرسمية، وغدا أمرًا معتادًا التشاور بالقنوات الدبلوماسية. وأعرب حكام المملكة أكثر من مرة عن تقييم إيجابي لدور الاتحاد السوفييتي في تسوية النزاع في الشرق الأوسط.

وكان دخول القوات السوفييتية إلى أفغانستان قد شدّد من جديد مخاوف الجانب السعودي. إلا أن استبدال القيادة السوفييتية وإعادة النظر في السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، على يد ميخائيل غورباتشوف، كان لهما تأثير إيجابي على طابع العلاقات بين البلدين.

وغدا تبدل سياسة الاتحاد السوفييتي الأفغانية محكًا جادًا للنوايا الحقيقية لجميع الأطراف المشاركة في النزاع بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فمن جهة كانت العربية السعودية أول من اعترف بحكومة المجاهدين في أفغانستان، ومن جهة أخرى ساعدت على إجراء المفاوضات بين السوفييت والقوى الأفغانية المناوئة للحكومة. وفي صيف ١٩٨٨، جرى في الطائف لقاء بين يولي فورونتسوف، النائب الأول لوزير خارجية الاتحاد السوفيتي، وزعماء المجاهدين الافغان. وأزال سحب القوات السوفييتية من أفغانستان آخر عائق في طريق تطبيع العلاقات، لكن تبادل المبعوثين الدبلوماسيين تأجل. وحلّت العقدة إبّان العدوان العراقي على الكويت.

ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠، أعلن رسميًا عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية بالحجم الكامل. وافتتحت السفارة السعودية في موسكو والسفارة السوفييتية في الرياض. ثم زار موسكو وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل، ووزير النفط هشام ناصر، ورئيس المجلس الأعلى لشؤون الشباب الأمير فيصل بن فهد.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي ورثت روسيا كل حقوقه وصلاحياته فيما يخص العلاقات مع المملكة العربية السعودية. وتمت أول زيارة لوزير الخارجية الروسي اندري كوزيريف إلى الرياض، واعقبتها زيارات قام بها زعماء آخرون من روسيا. وبالتدريج نشأت علاقات متنوعة بين البلدين. وفي كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٩١، اعترفت العربية السعودية بـ ١٢ جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. وأبدت اهتمامًا خاصًا بجمهوريات آسيا الوسطى التي يشكل المسلمون السواد الأعظم من سكانها. وبعث الملك فهد إلى هنالك ملايين النسخ من المصحف الشريف، وقدمت السعودية تسهيلات لآلاف المسلمين، من هذه البقاع، لأداء فريضة الحج.

وغدا من الوثائق الهامة في السعودية النداء التقليدي الذي وجهه الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز إلى الحجاج وإلى جميع أهالي المملكة في الواقع عشية موسم الحج عام ١٩٩٢، واشارا فيه إلى أن ظهور الجمهوريات الإسلامية في أراضي الاتحاد السوفييتي، دليل على عظمة الإسلام، وأكدا على دعم هذه البلدان ومساعدة شعوبها في النهضة والصحوة، دون تدخل في شؤونها الداخلية. وبهذه اللهجة تحدث النداء عن الموقف في أفغانستان والبوسنة والهرسك.

الخلاصة

شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تطورًا في استخراج النفط، وزيادة صادراته، وتكريره بقدر ما في المملكة العربية السعودية، مما أحدث تأثيرًا عميقًا متعدد الجوانب، وان كان متناقضًا، في اقتصاد البلد والمجتمع والسياسة، وأدّى إلى تحولات اجتماعية واقتصادية هامة.

لقد نقلت مؤسسة عصرية هائلة عالية التطور، من حيث التكنولوجيا وتنظيم العمل، من أكثر دول العالم الرأسمالي تطورًا إلى بلد تسوده العلاقات الإقطاعية القبلية، لاقتصاده سمات القرون الوسطى أو حتى ما قبلها. وحينما عكفت الشركات الأميركية على إنشاء هذه المؤسسة استنادًا إلى أغنى مصادر النفط في العالم، فانها وضعت نصب عينها مهمة استخراج الخامات الثمينة من جوف أراضي البلد، والحصول على أقصى الأرباح.

بيد أن وجود هذه المؤسسة بحد ذاته أحدث في البلد تغيرات لا نكوص عنها. فقد تكونت في السعودية نواة لطبقة عاملة صناعية عصرية، وفئة هندسية فنية اثبتت، بما قدمته من مطالب اقتصادية وسياسية، أن بواكير الوعي أخذت تظهر لديها، وأنها أدركت دورها الجديد في المجتمع. وقد ظل القطاع الرأسمالي الحديث لفترة من الوقت جسمًا غريبًا في الكيان الاجتماعي الاقتصادي السابق للرأسمالية في البلد. ولكن بدأ، بالتدريج بوتائر متسارعة، تطور التجارة وفروع الاقتصاد الثانوية والمواصلات وبعض المؤسسات الرأسمالية الوطنية، حول هذا القطاع وبتأثيره.

لقد ازداد حجم عوائد الدولة المباشرة في السعودية مرارًا بفعل تنامي استخراج النفط، وارتفاع أسعاره ارتفاعًا كبيرًا منذ بداية السبعينيات. وحتى في الظروف التي

كان إبّانها جزء كبير من هذه الأموال ينفق لأغراض «الاستهلاك»، فانها حفزت تطور العلاقات السلعية النقدية، وهدم الأنماط القديمة، وظهور النمط الرأسمالي. وتسارعت هذه العملية أكثر من ذي قبل عندما أخذ رصيد التراكم الوطني ينمو بسرعة، واضطرت الدولة الإقطاعية إلى الاضطلاع بمهمة إنشاء قطاع الدولة الرأسمالي.

وخلال ثلاثة أو أربعة عقود، حقق البلد نجاحات في تطوير الاقتصاد وتغييره وأنشأ من الأساس نظامًا للتعليم المدني يضم شبكة واسعة من المؤسسات الدراسية على اختلاف مراحلها، بما فيها الجامعات، وأرسى أسّس التطبيب الحديث. ولكن هذه النتائج يمكن أن تكون أكبر، إذا أخذنا في الاعتبار حجم الموارد المالية التي تدفقت على الطبقة الحاكمة في البلد. واقتصرت هذه الطبقة على «استهلاك» مبالغ طائلة، وانفاقها في وجوه لا إنتاجية، على القوات المسلحة وأجهزة الأمن والجهاز البيروقراطي. أما المشاريع الاجتماعية والاقتصادية الحكومية، فقد كان الحافز إليها الطموح إلى التقدم، وكذلك دوافع دعائية لإقناع سكان البلد بأن عوائد النفط ليست من نصيب العائلة الحاكمة وحاشيتها فقط، بل انها تنفق لخير الشعب كله.

ان النظام الاجتماعي السياسي البالي كان عقبة وحائلًا في طريق الاحتياجات الموضوعية لتنمية المجتمع السعودي، ابتداء من بناء الاقتصاد الوطني المتعدد الفروع، المستند إلى التكنولوجيا الحديثة، وانتهاء بتحضر البدو، ومن تعليم المرأة، إلى إعداد الكوادر الوطنية واستخدامها بشكل منتج. ومع أن هذا التعارض كان عميقًا وموجعًا بحد ذاته، إلا أن ما زاد في الطين بلةّ ان النظام البالي كان فتيًا من الناحية التاريخية ولا يتجاوز عمره جيلين. فالدولة الإقطاعية المركزية التي لم يكتمل تكونها إلا في العشرينيات والثلاثينيات، كانت من جهة متماشية مع مستوى مجتمع الجزيرة في ذلك الحين، وكانت بالنسبة له خطوة إلى الإمام بالمقارنة مع التشتّت القبلي الإقطاعي، والاحتراب الداخلي، والنزعات الانفصالية. غير أن المجتمع السعودي وأشكال التنظيم السياسي الجديدة عليه كانت، من جهة أخرى متخلفة عن العصر لقرون طويلة. وقد اقتحمت الرأسمالية الحديثة «الحرم» الإقطاعي القبلي في الجزيرة بما لديها من مؤسّسات عصرية، ووسائل اتصال وإعلام، وعلاقات

نقدية سلعية، وتكنولوجيا عسكرية وتنظيم. وأدّى ذلك كله إلى ظهور طبقات وفئات اجتماعية جديدة وتسرب، أفكار جديدة.

وعلى الرغم من سلفية الطبقة الحاكمة في السعودية، فانها كانت لبعض الوقت مستقرة نسبيًا وقادرة على الاحتفاظ بالسلطة، وحاولت التكيف مع الظروف المستجدة. ومن خصائصها أنها نشأت في رحم مجتمع الجزيرة، ولم تكن مفروضة من الخارج. وتمثلت هذه الطبقة بآل سعود الذين كانوا يمثلون «العشيرة المهيمنة»، وبالصفوة الإقطاعية القبلية والدينية المرتبطة بآل سعود بروابط اجتماعية وسياسية وعلاقات قربى، كما تمثلت أيضًا بالبرجوازية التجارية المضاربة. ويتأتى الاستقرار النسبي لسلطة آل سعود من انهم كانوا ينكلون بالمعارضة، اليسارية خصوصًا، من جهة، بينما تقوم «عشيرتهم» من جهة أخرى بتلبية مصالح الحلقات الأخرى من الطبقة الحاكمة والبيروقراطية ومنتسبي القوات المسلحة، مما يكفل ولاءهم. ولعبت دورًا معينًا رغبة السكان في الاستقرار، وفي رفع مستوى المعيشة. ووازن آل سعود بحذرٍ بين الأوساط السلفية المهيمنة في الطبقة الحاكمة، وبين الأعداد المتزايدة من أنصار الإصلاحات والتحديث النسبي.

امتازت الطبقة الحاكمة في السعودية بسمة خاصة وهي ان الجزء الأكبر من عوائدها لم يكن مستمدًا من الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، سواء أكانت الأرض أم المواشي أم المصانع، وليس من الممتلكات الإقطاعية، ولا عن طريق استغلال جماهير الكادحين من رعايا البلد. بل ان الثروات تدفقت عليها بفضل موقعها كفئة إقطاعية قبلية حاكمة من النمط الشرق أوسطي، تستند إلى ماكنة الدولة التي تشكل هي نفسها الجزء الأعلى منها، وإلى جهاز الأمن والجيش والشرطة والقضاء، وإلى بقايا التنظيم الحربي القبلي. ويتمثل المصدر الرئيسي لدخل هذه الفئة في ريع الأرض الفريد (المنطبق مع الريع ـ الضريبة)، المتكون بفضل وجود كميات هائلة من النفط في البلد. وكانت هذه الخامات تتحول إلى بضاعة ضرورية للجميع في مرحلة معينة من تطور الحضارة البشرية، مع أن مجتمع الجزيرة لا علاقة له بكون البشرية

صارت تلبي حاجاتها إلى الوقود والخامات الكيمياوية استنادًا إلى النفط بالأساس. ولئن كان من المؤكد ممارسة الاستغلال حيال العمال القليلي العدد نسبيًا (بضع عشرات الآلاف في شركات النفط وشركات المقاولات)، فإن نسبة الناتج الفائض من عملهم، إذا استخدمنا المصطلحات الماركسية، كانت ضئيلة جدًا بالمقارنة مع القيمة الإجمالية للخامات المستخرجة. وقد استثمرت الطبقة الحاكمة بشكل غير مباشر عمل الأميركيين والأوروبيين الغربيين واليابانيين، الموظف في معدات النفط والتكنولوجيا. ولكن هذا العمل المجسد ماديًا، بدوره، لم يشكل سوى جزء ضئيل من قيمة النفط المستخرج.

وبمعنى ما يمكن القول بأن الربح النفطي حل محل الواردات السابقة للفئة الإقطاعية القبلية، والتي لم تكن تحصلها مباشرة من البدو أو الحضر التابعين لها، بل عن طريق الاستغلال الخارجي. وبدأت الفئة الإقطاعية القبلية «تتبرجز»، أي تساهم في المضاربة بالأراضي، وتجارة الاستيراد والمقاولات الحكومية. بيد أن هذه النشاطات كانت ثانوية ومعتمدة على المداخيل النفطية.

اكتسبت الطبقة الحاكمة في السعودية، كما هي الحال بالنسبة لسائر الإمارات النفطية في الجزيرة العربية، خاصية متميزة. فقد ظلّت في الغالب طبقة إقطاعية (على الرغم من أنها «متبرجزة») داخل البلد، ولكنها صارت في الخارج جزءًا من الأوليغارشيا المالية العالمية. فإن الثروات الطائلة المستثمرة أو الموظفة في الأوراق المالية أو بنوك الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا الغربية، قد جعلت من وجهاء السعودية مجموعة مالية متنفذة في العالم الرأسمالي، على الرغم من أن غياب الكوادر والجهاز المصرفي والخبرة، أدّى إلى جعل تأثيرها الفعلي ووزنها أقل بكثير من حجم حساباتها المصرفية، وما بحوزتها من أوراق المال. وإن الفرق بين الأموال «الخاصة» لآل سعود وخزينة الدولة، لم يكن قط في هذه المملكة من الأهمية بحيث يدفع إلى طرح تساؤل حول عائدية الأموال المستثمرة في الخارج. وعبر قنوات الهيئات المالية الدولية والشركات المتعددة الجنسيات، تشارك هذه الطبقة الحاكمة في النشاط المصرفي والتجاري والصناعي وغيره في البلدان الرأسمالية

المتطورة والنامية على حد سواء، وإن كانت مشاركتها ثانوية، وغالبًا على شكل مساهمة في الحصص.

من الطابع المزدوج للطبقة الحاكمة في السعودية ـ اقطاع «متبرجز» داخل البلد، وبرجوازية مالية فريدة على النطاق الدولي ـ ينبع تناقض سياستها الخارجية، الوهمي أحيانًا. والفعلي أحيانًا أخرى. فقد تعين على النظام الملكي ، بوصفه حليفًا وزبونًا للولايات المتحدة الأميركية، وجزءًا من الرأسمال المالي الدولي الذي تجمعه به مصالح مشتركة، ان يدعم النشاطات السياسية الخارجية الأميركية. ولكن ملك السعودية (المعبر عن مصالح الأسرة الحاكمة والطامح إلى استقرار النظام داخليًا) بوصفه سادن الحرمين وإمام «الموحدين»، اضطر إلى الوقوف ضد تصرفات إسرائيل والصهاينة في السياسة الخارجية، وإعلان المقاطعة النفطية الموجهة ضد الولايات المتحدة، ومساندة قضية الشعب العربي الفلسطيني العادلة، والمطالبة بتحرير القدس والمسجد الأقصى من «المشركين»، والتنديد باتفاقيات كامب ديفيد واتفاقية «السلام» المصرية الإسرائيلية.

جرى توزيع ريع النفط في السعودية بشكل مركزي، سواء عن طريق الاقتسام المباشر لجزء من العوائد وتوزيعها على أفراد الطبقة الحاكمة، أو عن طريق الاختلاس الذي صار شبه علني رسميًا. ويتدفق سيل الأموال الأساسي من الأعلى إلى الأسفل: من الملك إلى حاشيته والنخبة الإقطاعية القبلية والدينية والتجار. وهذا أيضًا استمرار للممارسة المعهودة، سابقًا، في الدولة الإقطاعية بالجزيرة.

من خلال التجارة والمضاربة بالأراضي والمقاولات وبناء المساكن والصناعات الصغيرة، نشأت في البلد برجوازية سعودية. وعند حلول السبعينيات كان مقام البيوتات التجارية الكبرى، في المجتمع السعودي، مكافئًا لمقام شيوخ البدو المتنفّذين، على الرغم من أن ثروة التجار المستمدة من التجارة والمضاربة أكبر بكثير. وكانت البرجوازية السعودية الكبيرة تتطفل إلى حد كبير على عوائد النفط والريع النفطي، مستأثرة منه بحصة الأسد أثناء إعادة التوزيع، مستغلة تخلف المجتمع

السعودي. وهذا هو سبب تمسكها بالنزعة السلفية في الشؤون الاجتماعية والسياسية. وعلاوة على ذلك، فانها التحمت بوشائج وثقى مع النظام عمومًا، وبشكل مباشر مع آل سعود. وكان النظام القائم ملائمًا لها، نظرًا لانه ساعد على اغتنائها السريع، وضمان الاستقرار، الاجتماعي اللازم لها عن طريق دوائر الأمن أو شراء الذمم. وتولت الدولة تمويل الشركات السعودية، بطريق مباشر أو غير مباشر، وذلك بتزويدها بالقروض والسلف والعقود المربحة، وباعفائها من ضريبة الدخل، وضريبة الشركات، ومن رسوم استيراد المعدات والمكائن والمواد[1].

جرى اتحاد البيوتات التجارية مع الطبقة الإقطاعية القبلية الحاكمة باتجاهين. فقد أخذ عدد متزايد من ممثلي النخبة الإقطاعية القبلية ـ ابتداء من أفراد آل سعود وانتهاء بشيوخ العشائر الصغيرة ـ يمارس التجارة والمضاربة باعتبارهما عملًا مغريًا، وذا مردود كبير. ولكن آل سعود بدورهم اضطروا إلى منح التجار مناصب تعود عليهم بالجاه والمال. فقد أسندت إلى ممثلي عائلتي، علي رضا والغصيبي، التجاريتين الكبيرتين وغيرهم، مناصب مسؤولة في الوزارات والسفارات والمصالح الكبيرة. ولم يجر تصاهر بين أسر التجار التي ليس لها نسب عريق، وبين النخبة الإقطاعية القبلية التي تفاخر بـ «كرم المحتد» وبالأجداد. ولكن ذلك لم يحل دون قيام تعاون عملي واجتماعي وسياسي بين الجهتين.

بيد أن النزعة المحافظة للفئات العليا من البرجوازية التجارية، لم تكن نابعة عن أسباب داخلية فقط. فإن تعاملها التقليدي مع الرأسمال الأجنبي حولها إلى ممثل مباشر له عند استيراد البضائع الجاهزة والخامات والمعدات، ووكيل له في المقاولات. وينسحب هذا التقييم على البرجوازية الجديدة التي نشأت حول أرامكو في المنطقة الشرقية، وعلى فئة التجار التقليدية في الحجاز.

ليست لدينا معطيات حول التناقضات الملموسة بين الصفوة الحاكمة والبرجوازية التي رسخت أقدامها. ولكن يمكن الافتراض بأن البرجوازية التجارية المضاربة قد ساءها ان الحصة الأكبر من الكعكة النفطية من نصيب آل سعود،

وليس من نصيبها. ولما كانت البرجوازية هي، من حيث العموم، أكثر تنورًا وتعليمًا من «العشيرة الحاكمة» فانها أدركت بوضوح أكبر خطر تعمق الهوة بين الفئات «العليا» و«الدنيا»، وتلبسها الخوف من أن سلفية النظام الملكي قد تهدم صرحه مع البيوتات التجارية القديمة والجديدة على حد سواء. لذا فانها، وعلى الرغم من تمسكها بالنزعة المحافظة، دعت إلى الإصلاحات.

كما لم تتوفر معلومات حول أمزجة الفئات الوسطى من البرجوازية الوطنية التي يمكن أن يدرج، في عدادها، تجار الجملة، وشرعت تمارس أعمالها على غرار المزارعين وأصحاب الورشات والمؤسسات غير الكبيرة في مجال الصناعة الخفيفة والخدمات، وتصليح السيارات، والأدوات المنزلية. وبوسعنا الافتراض بأن هذه الفئات، على الرغم من حصولها على عوائد متنامية من النهوض الاقتصادي، قد ساءها غياب الحقوق السياسية. فخلافًا للبيوتات الكبرى لم يكن لهذه الفئات صوت عند اتخاذ القرارات حتى على «المستوى الفني». وهذه الفئات التي لها نصيب أقل من التعليم، والمتمسكة عادة بالتقاليد، والواقعة تحت تأثير المطاوعة وعلماء الدين، كان يمكن أن تشكل معارضة محافظة للنظام، تثير استياءها التصرّفات الخارجة عن المألوف وإسراف الصفوة الحاكمة، وكذلك ما تقوم به من إصلاحات محدودة تعتبرها هذه الفئات من قبيل البدع.

كان جزء من عوائد النفط يصل، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى فئات المدن والمجموعات الوسيطة مثل موظفي الجهاز البيروقراطي ومنتسبي الجيش والشرطة والخبراء الفنيين والمدرسين. وحصل شطر من قبائل البدو «الكريمة المحتد» الموالية للأسرة الحاكمة على منافع كبيرة عبر المخصصات الحكومية ـ وهكذا اتسعت القاعدة الاجتماعية للنظام: إذ ان جزءًا من هذه المجموعات السكانية صار من الفئات الدنيا للطبقة الحاكمة، يحصل لقاء ولائه على مكافآت مجزية. ولكن من بين الفئات المدنية «الوسيطة» أو «الوسطى»، بالذات، ظهرت مجموعات قادرة على التنظيم السياسي. ومن وسطها نشأ ممثلو المعارضة اليسارية للنظام، من الضباط الشباب والصحفيين والمدرسين والموظفين وصغار التجار. وصار هؤلاء، إلى جانب

العمال السعوديين، نواة لعدد من المنظمات الثورية السرية. وكانت طروحاتهم الفكرية مستمدة من الخارج، فعجزوا عن تكوين قاعدة تذكر.

ان إثراء «الصفوة» وازدهار الفئات «الوسيطة» لم ينسحبا على غالبية السكان إلا بنسبة ضئيلة. فإن الذين لا يمتلكون أرضًا على الاطلاق أو أصحاب الأراضي الصغيرة، وكذلك أشباه الرحّل المعدمين أو الفقراء وصغار الحرفيين، ظلوا جميعًا يتحملون عبء التغييرات الرأسمالية في المجتمع. ونسبة ارتفاع مستوى معيشتهم أقل بكثير مما تتيحه عوائد الدولة الهائلة. وقد أدّى استيراد المواد الغذائية والمنتجات الصناعية إلى إفلاسهم، علمًا بأن الانتقال إلى مزاولة أشغال جديدة والانخراط في صفوف الأجراء قد رافقها هدم موجع للنمط القديم، لطراز الحياة، ولم يصحبهما باستمرار، ودفعة واحدة، تحسن في المستوى المعيشي. وعاش قسم كبير من سكان، السعودية في نظام العلاقات ما قبل الرأسمالية، وعلاقات الرأسمالية الجديدة.

في الخمسينيات والستينيات اشتغل في أجهزة الدولة وفي مجال الأعمال والمهن الحرة عشرات الآلاف من الأجانب: مدراء ومهندسون وفنيون ومدرسون وأطباء وصحفيون واقتصاديون. وقد اضطلعوا بالدور الاجتماعي الاقتصادي الذي كان ينبغي ان تقوم به « الفئات الوسطى» من المجتمع السعودي، غير أن أولئك الأجانب ظلوا وكأنهم خارج المجتمع. وتفاقم هذا الوضع في أواخر الستينيات وفي السبعينيات، بعد أن أدّى تنامي المداخيل، وتطور الاقتصاد إلى تدفق مئات الآلاف من الوافدين المؤهلين وغير المؤهلين، الذين أصبحوا يشكلون غالبية العاملين بالأجرة سواء بين «الفئات المتوسطة» أو بين العمال. ولم تحصل الغالبية الساحقة من الوافدين على الجنسية السعودية، بل ان هؤلاء استورثوا، ضمن ظروف اجتماعية واقتصادية وتاريخية جديدة، الدور الذي كان يفرد، تقليديًا، للصناع والمعتوقين في مجتمع الجزيرة. فقد كان بوسع الصانع أو المعتوق ان يصبح من أصحاب الثروة والجاه، ولكنه لا يصبح أبدًا ندًا للارستقراطية الحاكمة، ولا يتمتع بالحقوق السياسية. وخلق ذلك توترًا اجتماعيًا من نوع جديد، على الرغم من أن الوافدين ظلوا سلبيين إزاء

السياسة، لحاجتهم إلى الكسب، وبسبب تعرّضهم لرقابة صارمة من الشرطة وأجهزة الأمن. وظل الحال على هذا المنوال تقريبًا في الثمانينيات والتسعينيات.

يصعب إيجاد سلم معايير لتحديد درجة تطور العلاقات الرأسمالية في المجتمع السعودي إبّان «العصر النفطي». وإذا اعتمدنا، معيارًا، نسبة عوائد مؤسّسات النمط الرأسمالي، بما في ذلك استخراج النفط، في الناتج الوطني الإجمالي، لبدا ان المجتمع السعودي كان يمكن تسميته «رأسماليًا» منذ أواسط الأربعينيات. ومن الواضح ان هذا أمر غير جائز. أما إذا تحدثنا عن عدد أو نسبة المرتبطين بالأنماط السابقة للرأسمالية، فإنهم كانوا حتى بداية السبعينيات يشكلون أكثر من نصف السكان الأصليين في البلد. كما ان شكل توزيع عوائد النفط بين الطبقة الحاكمة كان هو الآخر سابقًا للرأسمالية إلى حد كبير. ويبدو أن من الأرجح اعتبار السعودية في الستينيات والسبعينيات مجتمعًا «إقطاعيًا ـ رأسماليًا» واعتبارها في الثمانينيات والتسعينيات مجتمعًا «رأسماليًا ـ إقطاعيًا». ومن الطبيعي أن تكون الحدود بين الفئات الاجتماعية متعرّجة وهلامية، أحيانًا، في مجتمع مثل هذا تداخلت فيه الرأسمالية مع علاقات إقطاعية قبلية، يزيد من تعقيدها، أن بنيتها تكاد تكون شبه فئوية.

ومنذ الثلاثينيات، بدأ الوهن يدب في البنية القبلية، بفعل قيام دولة مركزية، وحظر الحروب والغزوات بين القبائل، وانتهاء وجود القبائل أو مجموعات القبائل كوحدات سياسية مستقلة. وتسرعت عملية الاستعاضة عن التضامن القبلي بروابط اجتماعية أخرى مع تحضر البدو ونمو المدن، واشتراك أفراد مختلف القبائل في النشاط الصناعي والتجاري، وهجرة السكان من منطقة إلى أخرى[٢].

بيد أن العربية السعودية، شأنها شأن الكثير من البلدان الأخرى التي تسودها تقاليد القرابة والعشيرة القوية، فقد برهنت على أن صلات القربى والدم تبقى في الظروف الاجتماعية الاقتصادية الجديدة، وتدوم فترة أطول بكثير من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وغيرها من الظروف التي نشأت عنها. وظلت

رابطة الدم والانتماء إلى الفخذ أو العشيرة تحدد موقع الفرد في المجتمع ونجاحه (أو إخفاقه) في الارتقاء، سواء في مجالات العمل التقليدية أو الجديدة[٣]. وكانت مصالح وتضامن المجموعة المترابطة، بوشائج القربى تأتي في المجتمع في المقام الأول مقارنة بمصالح الفرد، وكل من هو خارج هذه المجموعة. واستمرت علاقات المحسوبية والمنسوبية، إزاء أفراد العائلة أو الفخذ أو العشيرة، هي السائدة في المجال الاقتصادي، وفي جهاز الدولة البيروقراطي، والقوات المسلحة. واعتبر الحفاظ على شرف العائلة وسمعتها مسؤولية كل فرد، وواجب الثأر لزامًا على الأقرباء مهما نأت علاقات القربى. وظلت سمعة الشيوخ ووجهاء القبائل عالية.

إننا نتحاشى، عن قصد، استخدام اصطلاح «النزعة القبلية» بالنسبة للعربية السعودية، لان الباحثين تعارفوا على اعتماده عند الحديث عن مجتمعات البلدان الإفريقية الواقعة جنوبي الصحراء، بينما نقتصر نحن على استخدام تعبير «روابط الدم والقربى والعشيرة». وعلى الرغم من أن الإسلام أقر مبدئيًا بأن البشر سواسية، إلا أنه ظل طوال قرون متعايشًا مع البنية القبلية شبه الفئوية لمجتمع الجزيرة. وبعد انهيار حركة الإخوان اندمجت العلاقات القبلية وروابط الدم والقرابة ببنية الدولة المركزية. ومن البديهي انه كان من المتعذر اندثار العلاقات المذكورة خلال أربعة أو خمسة عقود من «عصر النفط». فما برحت الروابط العائلية ـ العشائرية تعتبر أهم من الكفاءة والمثابرة وغيرها من الخصال العملية، كما أن الثقة الشخصية والاعجاب يعدّان أهم من الدقة في الحسابات الاقتصادية. ويصعب الجمع بين ذلك كله وبين تطور العلاقات الرأسمالية، أو أي تحديث على العموم. وكان التعاضد العشائري وعلاقات الراعي والرعية والهيبة الأبوية لشيخ القبيلة أو البطن، أقوى في أحيانٍ كثيرة، من الصلات الاجتماعية الجديدة.

ولكن طابع الصلات العائلية تغير تدريجيًا على الرغم من احتفاظها بقوتها في المجتمع السعودي. وأخذت اتحادات القبائل تضمحل شيئًا فشيئًا. مفسحة المجال لمجموعات عائلية أضيق نطاقًا. وتجلت هذه التغيرات بأوضح صورها في الشريحة ذات التحصيل الدراسي، بين أوساط الموظفين والتجار والمثقفين والعمال المهرة.

وأخذ السعوديون المتعلمون يبتعدون أكثر فأكثر عن تعدد الزوجات، ولا يعزى ذلك إلى ارتفاع تكاليف الزواج فحسب، بل يعزى أيضًا إلى أن الزيجة الواحدة تتماشى أكثر مع نمط الحياة ووظائف الإنسان المعاصر. وتميل هذه العوائل إلى منح فرص التعليم ليس للبنات فقط بل للزوجات أيضًا. ويعكس وجود مثل هذه العوائل ارتقاء نمط الحياة والتفكير، النابع من الأشكال الجديدة في التعليم والتجربة ومن صراع الاجيال. غير أن التعليم المدني (الدنيوي) والمداخيل العالية لا تؤدي بالضرورة إلى الروابط العائلية. فإن الشاب، على رغم من ابتعاده عن الاسرة، يستمر في أداء فروض الاحترام والعرفان لوالديه مقيمًا معهما علاقات شخصية قوية. ويؤثر الأقرباء ان يسكنوا في أماكن متجاورة حتى في المدن العصرية. ولم تخلع المرأة العباءة في المحلات العامة، وهي، لا تقبل بأن يراها رجل من خارج نطاق الأسرة الضيق.

نعيد إلى الأذهان ان كلمة «العرب» نفسها تعني، في الجزيرة، البدو في المقام الأول. ولم تكن تشمل الفلاحين الذين توارثوا المهنة والعبيد والمعتوقين و«القبائل الوضيعة» والصناع. أما الآن، فقد صار للكلمة معنى أوسع وهذا من ثمار القرن العشرين.

إن الوعي الوطني، ونقصد وعي الانتماء إلى أمة «عربية سعودية» كان ضعيفًا، الأمر الذي أكده باحثون غربيون أيضًا[٤]. وأن ظهور وسائل الاتصال والاعلام الجديدة، وتنامي الترابط الاقتصادي بين مختلف المقاطعات، والصلات مع الأجانب والسفر إلى الخارج، (مما أدّى إلى تبيان الفرق في الحضارة ونمط الحياة بين العربية السعودية والبلدان الأخرى)، تلك العوامل جميعًا أدّت إلى استحثاث تكون الأمة، وإلى نشوء مشاعر الانتماء القومي. ولكن ليس ثمة شك في ان التكون الفعلي «للأمة العربية السعودية»، حتى في إطار «الأمة العربية»، ما زال بعيدًا جدًا عن المستوى الذي بلغته هذه العملية في مصر أو سوريا مثلًا. وعلى الرغم من وحدة اللغة والثقافة والتاريخ والأرض والوحدة الاقتصادية التي هي في طور التكون، فإن الروابط العائلية ـ القبلية والدينية ظلّت أقوى من الصلات «القومية العامة».

يمكن الموافقة على ما ذهب إليه م. وينير في مقاله «العربية السعودية: استمرارية الصفوة التقليدية»، حين ذكر «ان الروابط العشائرية ووزن القبائل في التنظيم السياسي للعربية السعودية ما برحت هائلة للغاية، لذا يصعب الحديث عن القومية بمعناها المتعارف عليه»[٥]. وكانت فكرة الدولة الوطنية القائمة على أرض واحدة ــ الوطن ــ بحد ذاتها جديدة على مجتمع الجزيرة. فإن فكرة «الوطن» الذي يحرص الإنسان على تأكيد ولائه له بالدرجة الأولى، تناقض روح الإسلام الذي يركز على وحدة الموحدين، ويجعل منهم نقيضًا للمشركين.

وقد اقتصر الوعي الوطني والمشاعر القومية على شريحة صغيرة من السكان المرتبطين بالقطاع العصري في الاقتصاد، وبالبيروقراطية المدنية والعسكرية. أما الذين سموا أنفسهم «قوميين» فإنهم كانوا أقرب إلى دعاة الإصلاح والتحديث، وكانوا يطمحون إلى بناء مجتمع أكثر عصرية. غير أن مشاعرهم كانت مبهمة لدرجة ان الجناح اليساري من «القوميين» رفض حتى تسمية «السعودية» عند الحديث عن الأمة، بسبب الموقف من آل سعود. لذا تثير الاستغراب محاولات بعض الباحثين للربط بين نشوء الأمة في الدولة السعودية، وظهور المشاعر القومية، وبين الولاء للملك بالذات. فقد كتب واضعو «الدليل الإقليمي» في أواسط الستينيات، مثلًا، ان الانتماء إلى الوطن يعني لدى معظم السكان اعترافهم بمليكهم، واعتبارهم إياه إماما وزعيمًا روحيًا.

إلى جانب صلات الدم والقربى، ظل الإسلام قوة تقليدية مهيمنة في المجتمع السعودي، وانتظام البنية الاجتماعية والسياسية التي تكونت بناء على أحكامه وسننه الاجتماعية.

وقد مارس الإسلام في المجتمع السعودي تأثيرًا مكثفًا ومتواصلًا، يفوق تأثيره في أي من بلدان العالم الإسلامي، نظرًا لان هذا البلد كان مهد الإسلام، وظل بمنأى عن التأثيرات الايديولوجية والثقافية المنافسة له. ولم تتعرّض السعودية قط لتأثير ثقافة أجنبية يضاهي تأثير الثقافة الفرنسية في المغرب العربي ولبنان، والثقافة

الفرنسية والإنجليزية في مصر، بل حتى تأثير الثقافة الإنجليزية في إمارات الخليج واليمن الجنوبي. ولكن في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات، بدأ تغلغل التأثير الأميركي بفعل تدفق بعض القيم الاستهلاكية من الطراز الأميركي، وتلقي بضعة آلاف من السعوديين تحصيلهم العلمي في الولايات المتحدة. بيد أن ذلك التأثير كان محدودًا، ولم يمس سوى جزء من الشرائح الموسرة والمتعلمة.

ثمة مسألة ما زالت معلقة في العلم العالي: هل كان الإسلام، بحد ذاته في القرون الوسطى، عقبة أمام نشوء وارتقاء العلاقات الرأسمالية أم لا؟ ولكن في العربية السعودية كان الإسلام، بصيغته الوهابية (الحنبلية)، مرتبطًا بالمؤسسات الاجتماعية التقليدية (كنظام توزيع مداخيل خزانة الدولة)، وبنظام السلطة ممثلًا بآل سعود والمجموعات المرتبطة به، وبنظام القوانين الذي لم يعد مناسبًا للعصر ، وبالتعليم التقليدي الذي يركز على تدريس العلوم الدينية، وبتفكير القرون الوسطى والإيمان بالقدر والمكتوب. لذا فإن دعاة التحديث في العربية السعودية، ابتداء من «الأمراء الأحرار» وانتهاء بالمعارضة اليسارية، طالبوا جميعًا بتحديث الإسلام بما يتماشى ومتطلبات الربع الأخير من القرن العشرين، وإجراء تغييرات اجتماعية واقتصادية سريعة في المجتمع السعودي. إلا أن السعوديين استندوا إلى أحكام الإسلام بالذات، لإثبات شرعية حكمهم والحفاظ عليه. ومن أبرز الأدلة على ذلك رد الأمير عبد الله بن عبد العزيز على «الأمراء الأحرار» وتفنيده لأقوال الأمير طلال بخصوص غياب الدستور والحريات الديمقراطية: ففي العربية السعودية دستور سنه الله وليس الإنسان، ويصعب التصديق بوجود عربي يتصور أن القرآن الكريم ترك فرصة لظهور الظلم والجور، وان جميع القوانين والمراسيم، في العربية السعودية، هي من وحي القرآن، والعربية السعودية تفتخر بدستور من هذا النوع... وإذا كان هناك نظام ديمقراطي حقًا في العالم، فهو موجود في العربية السعودية بالذات.

إن المذهب الوهابي في الإسلام، والروابط القبلية العشائرية، هي من العوامل القائمة، فعلًا، والطويلة الأمد في المجتمع السعودي. وحتى في ظل النمو السريع

للعلاقات الرأسمالية السوقية، فإن هذه العوامل سوف تمارس تأثيرها في تطور البنية الاجتماعية والسياسية، وطابع النزاعات الثورية المحتملة.

جرت التغيرات في المجتمع السعودي بوتائر أسرع مما في سائر بلدان الشرق الأوسط، مع مراعاة نقطة انطلاق كل منها بالطبع. وقد اختل التوازن الاجتماعي القديم وزال إلى الأبد. وواجه البلد تناقضات داخلية حادة لم يعرفها من قبل. وهذه التناقضات نابعة من تغير البنية الطبقية، والتوطد التدريجي لمواقع البرجوازية، ونمو الطبقة العاملة، والوهن الذي دب في روابط الدم والقربى والعشيرة، وتصادم مصالح مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، والتضاد بين المفاهيم التقليدية والأفكار الاجتماعية السياسية الجديدة. ولكن يصعب علينا تقييم درجة التوتر الاجتماعي في البلد. فإن الصحافة السعودية لم تعكس قط المشاكل الاجتماعية، كما ان الأحزاب السياسية والنقابات والنوادي والتجمعات كانت محظورة، والتجأت المعارضة اليسارية إلى العمل السري أو الهجرة، لذا فإن الوقائع والشواهد غير مباشرة، وليست شمولية.

حتى التسعينيات تمكن النظام الاجتماعي والسياسي من النجاح في مواجهة الهزات والعواصف. فقد احتفظت الطبقة الحاكمة ورأس الهرم الاجتماعي الممثل بآل سعود بالسلطة، وبينت أنها لا تعتزم التخلي عنها. وقامت بالنذر اليسير من الإصلاحات هذه الطبقة بالذات، وليس ممثلو «الفئات الوسطى» أو الجيش أو البيروقراطية أو البرجوازية أو اليساريون الذين تسلموا زمام الحكم في عدد من البلدان العربية الأخرى ولم يتمكنوا من الاحتفاظ به في الغالب. وإزاء ضغط الشريحة المتعلمة في الجهاز البيروقراطي، والقوات المسلحة، وأوساط رجال الأعمال شرع آل سعود بتحديث حذر للمجتمع. ففي الستينيات والسبعينيات أقر قانون عمل جديد، وخطط اقتصادية، وبدأ البث التلفزيوني، واعتمد التعليم المدني، بما في ذلك مدارس البنات، وأجريت بعض التعديلات في مجال الأحوال الشخصية. وظهرت في التسعينيات بوادر تطور نحو النظام الدستوري. وكان من المتعذر اعتماد أي من هذه «البدع» سابقًا، ولكن الطبقة الحاكمة حاولت جعل «التحديث» درعًا يقيها

من الهزات الاجتماعية التي تهددها بالخطر. وبعد أن أدركت الأسرة السعودية ان المعارف العصرية أمر لا غنى عنه، طفقت تغدق المال لتوفير التعليم الأرقى لأبنائها، وإلى جانب ذلك شرعت تضم إلى قمة الجهاز البيروقراطي عددًا من أبناء الفئات الاجتماعية الأخرى، وبخاصة البرجوازية التجارية، من المتعلمين، على أن يكونوا موالين لها.

بغية صيانة مواقعها السياسية والاجتماعية وتأمين الاستقرار عمدت الطبقة الحاكمة إلى تعزيز جهاز الأمن والقوات المسلحة. وانفق على الجيش والحرس الوطني والشرطة جزء لا يستهان به من الميزانية، وجرى استيراد الأسلحة الحديثة والمعدات الفنية. وازداد تعداد هذه الأصناف الثلاثة بضع مرات، ولم يتردد آل سعود في استخدام القوة لقمع المعارضة اليسارية، وسائر أشكال المعارضة.

ان عوائد النفط التي بلغت أرقامًا خيالية، مكنت النظام السعودي حتى الآن من «دفع جزية» لاسكات المطالبين باجراء تغييرات جذرية. إذ ان جهاز الدولة المتضخم وغير الفعال، الذي يغدو الانتساب إليه مصدرًا للجاه والمال قد عمل على ابتلاع ذوي النشاط السياسي، ومن يحتمل ان يبدي استياء من الوضع. واغتنت من النهوض الاقتصادي شرائح واسعة. وحتى الآن ضمن النظام لنفسه قاعدة اجتماعية واسعة ومتينة بدرجة كافية، تتكون من الفئات «الوسطى» في المدن، والبيروقراطية، وقبائل البدو «الكريمة المحتد» الحاصلة على مخصصات ملكية، وكذلك من أوساط التجار ذوي النزعة المحافظة والبرجوازية الصناعية الناشئة. بيد أن للمجتمع السعودي خاصية تمثلت في كون جزء لا يستهان به من الطبقات والفئات، التي يحتمل ان تكون معادية للنظام، ظلّت واقعة تحت تأثير شيوخ القبائل، وغيرهم من الزعماء التقليديين وكذلك المطاوعة وعلماء الدين، الأمر الذي جعلها ذات نزعة محافظة، علاوة على أن السلطات عملت على «إطعامها بالفتات».

إن هذه المحصلة من الإصلاحات الفوقية، وتعزيز جهاز الأمن، وتوفير عون اقتصادي معين لجزء غير قليل من السكان، والنزعة المحافظة للمجتمع السعودي، قد

ضمنت الاستقرار لواحد من أقدم أنظمة العالم التقليدية. بيد أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية نفسها، بل حتى عناصر التحديث المعتمدة من الأعلى قد وسعت قاعدة النزاعات في المجتمع السعودي. كما تتعمق، نظريًا، التناقضات بين النظام، والطبقات والفئات الاجتماعية الطامحة إلى إصلاحات اعمق، وإلى الاستيلاء على السلطة في خاتمة المطاف. إلا أن النجاح في السيطرة على عناصر البلبلة السياسية في السعودية، طوال أكثر من ستة عقود، يفند الاستنتاج النظري الأخير.

ان التطور الاجتماعي العالمي في أواخر القرن العشرين ينطوي على مختلف الصيغ والموديلات التي تجعل أي نوع من التخمين مجرد ضرب أخماس في أسداس. وفي العربية السعودية ما تزال قائمة، وان ببعض التغييرات، كثير من قيم الحضارة العربية الإسلامية، وكذلك أنظمة السلطة والإدارة، ويتبنى البلد التكنولوجيا الغربية وبنية السوق والتعليم والتطبيب وغيرها من الخدمات الحكومية والاجتماعية. وتغترف، من منابع العلم والتكنيك والمعارف التطبيقية الحديثة، شريحة اجتماعية واسعة متزايدة، يحتفظ معظم أبنائها بمعتقداتهم الدينية واطروحاتهم الثقافية والقومية السابقة.

ويصعب الجزم الآن بما إذا كان ذلك سيغدو خليطًا مثمرًا من التجديد والتقليد، من البنى الاقتصادية المتباينة، من الحضارة العربية الإسلامية والمدنية الغربية، أم سيكون مجرد تكديس عشوائي لعناصر شتى. الجزم في هذا الموضوع صعب، فلا سابقة تاريخية من هذا النوع أمامنا.

وكل المقارنات مع بلدان أو أنظمة مماثلة يمكن أن تشوه اللوحة إلى أبعد الحدود. فالموديل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في العربية السعودية، (كما في سائر الإمارات النفطية العربية)، فريد من نوعه. ونظرًا لما للعربية السعودية من وزن في عالم النفط والمال والإسلام، فإن أي تبدلات خطيرة أو هزات اجتماعية، في هذا البلد، سيكون لها عواقب دولية بعيدة المدى.

الهوامش

الفصل الأول

١- Doughty Ch. Travels in Arabia Desert. Cambridge, 1688, Vol. 2. p. 355.

٢- Volney C,- F. Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785.. La Haye, 1959, p. 203.

٣- Montagne R. La civilisation du désert, Nomades d'Orient et d'Afrique; Paris, 1947, p. 45.

٤- Wallin. G. A. Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca by Sues, Acaba, Tawila, al-Yauf, Jubbe, Hail and Nejd in 1845, - Journal of thd Royal Geographical Society, London, 1854. Vol. 24, p.198.

٥- Burkhardt J. L. Notes on the Bedouins and Wahabys Collected during his Travels in the East. London, 1831, Vol. 2, p. 32.

٦- Philby H. St. - J. B. The Heart of Arabia, London, 1922, Vol. 2, p. 97.

٧- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, pp. 6, 401.

٨- Mengin. F. Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly. Paris, 1823, Vol. 2, p. 175.

٩- بيرشيتس ا.ي. الاقتصاد والنظام السياسي الاجتماعي في شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين. موسكو، ١٩٦١، (باللغة الروسية)، ص ٤٧-٦٦.

١٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 70.

١١- Montagne R. La civilisation... p. 45.

١٢- Wallin. G. A. Narrative ... p. 125, - Doughty Ch. Travels. Vol. 1, p. 153; Niebuhr C. Voyage de m. Niebuhr en Arabie et en d'autres pays d'Oreint, 1780, en Suisse. Vol. 1, p. 247; Burckhardt J. L. notes... Vol. 1, pp. 42-46, 191, 245-246; Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vo. 2. p. 174.

١٣- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب لمؤلف مجهول. تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمه. بيروت، ١٩٦٧ م. ٤٩٩-٥٠١.

١٤- لمع الشهاب.... ص ٥١٠ - ٥١٧.

١٥- بيرشيتس أ. الاقتصاد.... ص ٥٧ (باللغة الروسية).

١٦- Doughty Ch. Travel.. Vol. 1, p. 480.

١٧- Wallin. G. A. Narrative ... p. 140; Jaussen A. Contumes des Arabes au pays de Moab, Paris, 1908, pp. 236-238.

١٨- بيرشيتس أ. الاقتصاد.... ص ٩٥-٩٦.

١٩- ابن بشر النجدي، عثمان بن عبد الله. عنوان المجد في تاريخ نجد، مكة، ١٣٤٩ هـ، ج١، ص ٤١١؛ Mangin F. Histoire de l'Egypte.. Vol. 2, p. 450

٢٠- لمع الشهاب.... ص ٢٨٧.

٢١- Palgrave W. G. Narrative of Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-1863), London, 1865. Vol. 1, pp. 315-461.

٢٢- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, pp. 355, 388.

٢٣- ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ١٢.

٢٤- Burkhardt J. L. Travels in the Arabia. London, 1829, Vol. 1, pp. 40-41, 91, 436-438.

٢٥- Niebuhr C. Voyage... Vol. 2, pp. 176, 19-20.

٢٦- لمع الشهاب.... ص ٤٤٧ - ٤٦٥.

٢٧- Mengin F. Histoire de l'Egypte.. Vol. 2, p. 164.

٢٨- Montagne R. La civilisation... p. 52.

٢٩- أجمل بيرشيتس هذه المعلومات استنادًا إلى مواد أي. بوركهاردت وتش. دوتي وش. يوبيسر وأ. جوسان وأ. موسيل ور. مونتان وأ. بوشمان وج. فيلبي وأبحاث أخرى (بيرشيتس، الاقتصاد...، ص ٦٩-٧٢).

٣٠- Volney C,- F. Voyage... p. 205.

٣١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 228-229.

٣٢- Huber Ch.. Journal d'un Voyage en Arabia (1883-1884), Paris, 1891. pp. 671, 674; Jaussen A. Coutumes des Arabes.., p. 238.

٣٣- Philby H. The Heart of Arabia, Vol. 2, p. 13.

٣٤- شرباتوف أ، ستروغانوف س. كتاب عن الحصان العربي. سنت بطرسبورغ، ١٩٠٠، ص ٨.

٣٥- Volney C,- F. Voyage... p. 211-212.

٣٦- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, p. 344.

٣٧- Niebuhr C. Voyage... Vol. 2, pp. 210-217.

٣٨- Volney C,- F. Voyage..., pp. 205-206.

٣٩- بيرشيتس أ. الاقتصاد.....، ص ٧٧-٧٩ (باللغة الروسية).

٤٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 167-176.

٤١- Musil A. The Manners and Customs of the Rwala Beduins. New York, 1928, pp. 452-453, 471.

٤٢- Montagne R. La civilisation..., p. 66.

٤٣- Volney C,- F. Voyage..., pp. 208-209.

٤٤- نفس المرجع، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٤٥- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 69.

٤٦- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., p. 273.

٤٧- نفس المرجع، ص ٢٧٨؛ Guarmani C. Northern Nejd. A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim. London, 1938. p.107.

٤٨- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 246.

٤٩- انظر: بيرشيتس أ. الاقتصاد....، ص ١٢٦.

٥٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 317.

٥١- Volney C,- F. Voyage..., p. 207.

٥٢- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., p. 199، 208-220.

٥٣- ك. ماركس. رأس المال. المجلد الثالث. ك. ماركس، ف. أنجلس. المؤلفات، المجلد ٢٥، ج٢، ص ١٦٥

٥٤- راجع بهذا الصدد تطور آراء الباحث السوفييتي بيرشيتس الذي خفف إلى حد كبير، في مجرى دراسته لمجتمع الجزيرة، من رأيه القطعي الأول (وحق المكلية الإقطاعية) عند تقييم طابع ملكية المراعي (أ. ي. بيرشيتس. الاقتصاد... ص ١٢٤). وقد توصل إلى استنتاج مؤداه أن «... أراضي المراعي كانت تعتبر ملكًا جماعيًا للقبائل، غير أن كبار رجال البدو تولوا تنظيم الترحال والرعي» بيد أن واصل التشبث برأيه القائل بأن المقصود هو «تصرف نخبة البدو (بالمراعي) تصرفًا أشبه بالملكية الإقطاعية» (بيرشيتس. بعض خصائص نشوء الطبقات والعلاقات الطبقية المبكرة عند الرعاة الرحّل، ص ٣٠٤، ٣٠٦).

٥٥- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 133.

٥٦- Volney C,- F. Voyage..., p. 211.

٥٧- Niebuhr C. Voyage... Vol. 2, p. 139.

٥٨- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 140-141, 299; Guarmani C. Northern Nejd..., p. 116; Doughty Ch. Travels... Vol. 1, pp..251, 334.

٥٩- Volney C,- F. Voyage..., p. 207.

٦٠- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., p. 124.

٦١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 193-194.

٦٢- Wallin. G. A. Narrative ..., p. 122.

٦٣- نفس المرجع، ص ١٢٢؛ Guarmani C. Northern Nejd..., pp. 109-110; Huber Ch.. Journal..., p.592.

٦٤- Dickson H.R.P. Kuwait and her Neighbours. London, 1968, pp. 102, 622; Dickson H.R.P. The Arab of the Desert. London, 1949, pp. 572, 573.

٦٥- ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ١٢٦.

٦٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 194; Vol. 2, pp. 9, 34.

٦٧- Niebuhr C. Voyage... Vol. 3, pp. 178-179.

٦٨- Musil A. The Manners, pp. 280-282,

٦٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 19-20.

٧٠- Montagne R. La civilisation..., pp 68, 107; Guarmani C. Northern Nejd..., p. 120; Musil A. The Manners..., p. 406.

٧١- Montagne R. La civilisation..., p. 23.

٧٢- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, p. 136.

٧٣- للتفصيل عن الرق راجع، بيرشيتس. الاقتصاد...، ص ٩٧-١٠٧.

٧٤- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, p. 452.

٧٥- نفس المرجع، ص ٤٥٣.

٧٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 181.

٧٧- نفس المرجع.

٧٨- نفس المرجع، ص ١٨١-١٨٢.

٧٩- Wallin. G. A. Notes Taken During a Journey through Part of Northern Arabia in 1848. London, 1850, p. 26.

٨٠- Musil A. The Manners..., p. 277.

٨١-كما يرى بيرشيتس أن «رأس حربة الاستغلال الذي مارسه الشيوخ كان موجهًا ليس فقط إلى داخل القبيلة البدوية أو الجزء المتنقل منها، بل موجهًا وبدرجة أكبر، إلى خارجها» (بيرشيتس. الاقتصاد...، ص ١٤٠).

٨٢- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., pp. 140-145.

٨٣- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 117.

٨٤- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, p. 248.

٨٥- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 117.

٨٦- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, pp. 248-249.

٨٧- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 296.

٨٨- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., pp. 128-129.

٨٩- Volney C,- F. Voyage..., p. 208.

٩٠- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, p. 251.

٩١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 119-123.

٩٢- Volney C,- F. Voyage..., pp. 207-208.

٩٣- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 116-117.

٩٤- بيرشيتس أ. الاقتصاد....، ص ١٥٥.

٩٥- Blunt A. A. Pilgrimage to Nejd, The Gradle of the Arab Race. London, 1881, Vol. 1, pp..260-261, 270.

٩٦- Doughty Ch. Travels..., Vol. 2, p. 50; Guarmani C. Northern Nejd ..., pp. 46-48, 91-92, Montagne R. La civilisation..., pp. 151-158; Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1. pp. 109-113.

٩٧- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, p. 368.

٩٨- Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, pp. 415-417; ابن غنام، حسين. تاريخ نجد المسمّى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام. القاهرة ١٩٦١، ج١، ص ٥.

٩٩- Montagne R. La civilisation..., p. 66.

١٠٠- نفس المرجع، ص ١٤١.

١٠١- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, p. 251.

١٠٢- Volney C,- F. Voyage..., p. 207.

١٠٣- Pelly L. A Visit to the Wohabee Capital Central Arabia. Journal of the Royal Geographical Society, London, 1865, Vol. 35. pp. 189-190.

١٠٤- Montagne R. La civilisation..., pp. 110, 134.

١٠٥- نفس المرجع، ص ١٨.

١٠٦- Wellsted J. R. Travels in Arabia London, 1838, Vol. 2, pp. 258-260; Doughty Ch. Travels... Vol. 1, pp. 280-282; Philby H. The Heart of Arbia Vol. 1. p.268.

١٠٧- Musil A. The Manners..., pp. 136, 281.

١٠٨- بيلايف ي. أ. العرب والإسلام والخلافة في أوائل القرون الوسطى. موسكو، ١٩٦٥، ص ٦٩-٧٨، (باللغة الروسية).

١٠٩- Lammens H. L'Arabia Occidentale avant l'Hégire. Beyrouth, 1928, p. 189.

١١٠- De Gaury G. Rulers of Meca. London, 1951, pp. 147-153.

١١١- Niebuhr C. Voyage... Vol. 2, pp. 16, 26-29 178-179.

١١٢- ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ٦٤-٦٥.

١١٣- نفس المرجع، ص ٦١، ٨٥، ١١٠-١٢٢.

١١٤- نفس المرجع، ص ٢٢٣.

١١٥- نفس المرجع، ص ١٣٨.

١١٦- نفس المرجع، ص ٢١٨.

١١٧- Philby H. St. - J. B. Saudi Arabia, London. 1965, p.30.

١١٨- لمع الشهاب....، ص ٥٨ - ٥٩.

١١٩- العجلاني منير. تاريخ البلاد العربية السعودية. دار الكتاب العربي، بيروت. الجزء الأول، ص ٦٨، ٧٧.

١٢٠- ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ١٥٧، ١٦٠، ٢١٢، ٢٢٣-٢٢٤.

١٢١- نفس المرجع، ص ٢٣٤-٢٣٥.

١٢٢- نفس المرجع، ص ٩٩، ٢٢٤، ٢٢٩.

١٢٣- نفس المرجع، ص ٢٣٤-٢٣٥.

١٢٤- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٥-٦.

١٢٥- Abir M. Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798-1801. - "Journal of the Royal Asiatic Society", London, 1965, p.54.

الفصل الثاني

١- «مجلة المنوعات الأدبية» المجلد ٢، رقم ١، ص ٢٠ (باللغة الروسية).

٢- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٢٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦..

٣- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٢٥-٢٦؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦.

٤- ابن بشر، عنوان المجد...، ج١، ص ٧.

٥- نفس المرجع، ص ٨؛ ابن غنام. تاريخ نجد...، ج١، ص ٢٨.

٦- ابن بشر، عنوان المجد...، ج١، ص ٨.

٧- نفس المرجع.

٨- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٢٩-٣٠.

٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨؛ ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٢٩-٣٠؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 449.

١٠- ذكر منجين أنه مكث في العيينة ثمانية أعوام، أي أنه وصل إلى هناك عام ١٧٢٦/١٧٢٧. (Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 449).

١١- لمع الشهاب....، ص ٧ - ٣٢.

١٢- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام. المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٨٨٨، ص ٢٢٨.

١٣- "The Encyclopaedia of Islam". 1971, Vol. 3, pp.677-679.

١٤- العجلاني منير، تاريخ...، ج١، ص ١٩٦.

١٥- Goldziher I. Le dogme et la loi de l'Islam. Paris, 1920, p.49.

١٦- نفس المرجع، ص ٢٢٤.

١٧- Niebuhr C. Voyage... Vol. 1, pp. 393-394, Vol. 2, pp.21, 204. جرى اللقاء في هذه الديار في القرن العشرين. انظر: .Philby H. The Heart of Arabia, Vol. 2, p.299.

١٨- Niebuhr C. Voyage... Vol. 2, pp. 21, 140; Niebuhr C. Description de L'Arabie d'apré les observations et récherches faits dans le pays même. Copenhague, 1773, p. 298.

١٩- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٥-١٣.

٢٠- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد. المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ص ١١٨.

٢١- انظر: ابن حسن عبد الرحمن. فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، في «مجموعة التوحيد النجدية»، القاهرة، ١٣٧٧ هـ، ص ٦٤.

٢٢- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, pp. 61,68.

٢٣- Volney C,- F. Voyage..., p. 212.

٢٤- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 99-102.

٢٥- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, p. 9.

٢٦- Montagne R. La civilisation..., p. 73-75.

٢٧- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, p. 33.

٢٨- Wallin. G. A. Notes ... p. 21.

٢٩- دافليتشين. تقرير النقيب دافليتشين من رحلة الحجاز، بطرسبورغ، ١٨٩٩، ص ٨.

٣٠- Jaussen A. Coutumes des Arabes.., p. 316.

٣١- نفس المرجع، ص ١٤٧؛ Musil A. The Manners..., pp. 571-573

٣٢- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد، ص ١٣٤.

٣٣- ابن عبد الوهاب محمد. أصول الإيمان، ص ١٦٧-١٧٠؛ ابن عبد الوهاب محمد. الأصول الثلاثة...، ص ٨؛ عبد العزيز الأول. الرسالة، ص ١٩.

٣٤- ابن عبد الوهاب محمد. فضل الإسلام. في مجموعة الحديث النجدية. القاهرة، ١٣٧٥ هـ، ص ١٩٨.

٣٥- ابن عبد الوهاب محمد. كشف الشبهات في التوحيد. المطبعة المنيرية، القاهرة، ص ٢٢٠-٢٢٣؛ ابن عبد الوهاب محمد. مسائل الجاهلية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ، ص ١٢٣-١٢٥.

٣٦- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد، ص ٥٦.

٣٧- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب الكبائر، ص ٢٠٦؛ عبد العزيز الأول. الرسالة، ص ٥.
٣٨- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد...، ص ٦٠، ٧٠، ٨٦؛ ابن عبد الوهاب محمد. الأصول الثلاثة...، ص ٤٢؛ ابن عبد الوهاب محمد. مسائل الجاهلية...، ص ٧٦.
٣٩- ابن عبد الوهاب محمد. مفيد المستفيد في كفر طريق التوحيد. القاهرة، ١٩٥٤، ص ٢٨؛ مسائل الجاهلية...، ص ٧٠؛ عبد العزيز الأول. الرسالة...، ص ٦.
٤٠- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد...، ص ٦٧.
٤١- نفس المرجع، ص ٩٠؛ ابن عبد الوهاب محمد. مسائل الجاهلية...، ص ٢٩، ٧٢، ١١٨؛ كتاب التوحيد...، ص ٥٥، ٩٥، ٩٩؛ كشف الشبهات في التوحيد...، ص ٢٢٦.
٤٢- ابن عبد الوهاب محمد. مسائل الجاهلية...، ص ٩١، ١٢٠؛ كشف الشبهات في التوحيد...، ص ٢٣٠؛ عبد الرحمن بن حسن. فتح المجيد. شرح «كتاب التوحيد»...، ص ١٠٢؛ عبد العزيز الأول. الرسالة...، ص ١٠، ١٣؛ ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد...، ص ٧٤، ٨٧، ٢٠٧-٢٠٩؛ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. الرسالة - في الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية. القاهرة، ١٣٤٢ هـ، ص ٤٧-٤٨.
٤٣- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد...، ص ١١١، ١١٨؛ مسائل الجاهلية...، ص ٣٣، ١٤٤.
٤٤- ابن عبد الوهاب محمد. كتاب التوحيد، ص ٥٢.
٤٥- عبد العزيز الأول. الرسالة...، ص ٥؛ ابن غنام. تاريخ نجد...، ج١، ص ٣٨.
٤٦- Didier Ch. Séjour chez le grand-chérif de la Mekke. Paris, 1857, p. 179; [Rousseau J.]. Description du pachalik de Bagdad suivie d'une notice historique sur les Wahabis. Paris, 1809 pp. 129, 146.
٤٧- عبد الله بن محمد عبد الوهاب. الرسالة...، ص ٥٣.
٤٨- كريمسكي أ. تاريخ العرب والأدب العربي. موسكو، ١٩١١-١٩١٢، ص٢٠١ (باللغة الروسية)؛ أحمد أمين. زعماء الإصلاح في العصر الحديث. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٣.
٤٩- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ١٧، ١٩، ٣٥.
٥٠- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. الرسالة...، ص ٥٣.
٥١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 113.
٥٢- كريمسكي أ. تاريخ ...، ص ١٩٥ (باللغة الروسية).
٥٣- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد. بومبي، ١٢٠٤هـ، ص ٢٢.

٥٤- [Corancez L. A.] Histoire des wahabis depuis leur origine jusqu'a la fin de 1809. paris, 1810. pp. 7, 18.

٥٥- أحمد عبد الغفور العطار، محمد بن عبد الوهاب. مطبعة الاستقامة، ١٩٤٣. ص ١٥١.

٥٦- [Corancez L. A.] Histoire... . p. 168.

٥٧- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 102.

٥٨- ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ٥٣-٥٤؛ ابن حسن. فتح المجيد...، ص ٤.

٥٩- Gibb H.A.R. Mohammedanism. London, 1954. p. 168.

٦٠- أحمد أمين. زعماء الإصلاح....، ص ٢١-٢٣.

٦١- محمد بن عبد الوهاب. ستة الأصول العظيمة. القاهرة، ص ٢٧٥.

٦٢- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر،. ص ٢٢٥.

٦٣- محمد بن عبد الوهاب. مفيد المستفيد...، ص ٢٧؛ عبد العزيز الأول. الرسالة...، ص ٣٣؛ أحمد بن نصير بن عثمان المعماري. الرسالة؛ ص ٦٨.

٦٤- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. الرسالة...، ص ٤٦.

٦٥- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر...، ص ٢٣٨-٢٣٩، ٢٤١.

٦٦- محمد بن عبد الوهاب.نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين. في مجموعة الحديث النجدية.، القاهرة، ١٣٧٥ هـ، ص ٣٢٣-٣٢٤، ٣٢٨.

٦٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨؛ ص١٦٥-١٦٦؛ عبد الرحمن الجبرتي. مصر...، ص ٣٢٦.

٦٨- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر...، ص ٢٤٠.

٦٩- نفس المرجع، ص ٢٤٣.

٧٠- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. الرسالة...، ص ٤٨-٤٩.

٧١- محمد بن عبد الوهاب. نصيحة المسلمين...، ص ٢٨١، ٢٨٦، ٢٩٩.

٧٢- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر...، ص ٢١٣.

٧٣- محمد بن عبد الوهاب. نصيحة المسلمين...، ص ٣٣٢.

٧٤- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر...، ص ٢١٢-٢١٤، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣٠.

٧٥- محمد بن عبد الوهاب. نصيحة المسلمين...، ص ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٧٨.

٧٦- محمد بن عبد الوهاب. كشف الشبهات...، ص ٢٢٧-٢٢٨.

٧٧- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٣٢.

٧٨- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٢٣.

٧٩- بيلايف أ. الطوائف الإسلامية. موسكو، ١٩٥٧، ص ٩٩. (باللغة الروسية).

٨٠- [Corancez L. A.] Histoire... . p. 16.
٨١- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٣٠.
٨٢- Goldziher I. Le dogme... . p. 225.
٨٣- محمد بن عبد الوهاب. كتاب الكبائر،. ص ٢٢١.
٨٤- عبد الله بن محمد عبد الوهاب. الرسالة...، ص ٥٤.
٨٥- نفس المرجع، ص٤٣؛ ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ١٥١؛ [Corancez L. A.] Histoire... . p. 17.
٨٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 102; Vol. 2, p. 115.
٨٧- نفس المرجع، Vol. 2, p. 114.
٨٨- نفس المرجع، ص ١١٠-١١١.
٨٩- Raymond J. Les wahabys. Document Inédit de 1806. Le Caire, 1925, p. 34.
٩٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩؛ انظر أيضًا: ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٣٠.
٩١- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ٣٠-٣١؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩.
٩٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩-١٠.
٩٣- نفس المرجع، ص ١٠؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 449-450.
٩٤- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٢.
٩٥- نفس المرجع.
٩٦-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠-١١؛ لمع الشهاب....، ص ٦٢ - ٦٥. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 450.
٩٧- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 450.
٩٨-يشير ابن غنام، إلى عام ١١٥٧ هـ (ج٢، ص٤)؛ وابن بشر. إلى عام ١١٥٨ هـ، ج١، ص ١٥، انظر أيضًا؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 452
٩٩- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١١.
١٠٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢؛ ابن غنام يشير إلى الشرط الأول فقط (ج٢، ص ٣).

الفصل الثالث

١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣.
٢- نفس المرجع، ص ١٤.

٣- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٩-١٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١.

٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٣.

٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٣-٢٤؛ ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٣-١٤؛ لمع الشهاب....، ص ٧٥.

٦-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٥٧؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 457 .

٧-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٦، ٩، ١٢، ١٥، ١٧، ١٨؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨-٢٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 451-454. يقول منجين إن هذا الحدث وقع في النصف الثاني من الأربعينيات.

٨- ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٢٠.

٩- نفس المرجع، ص٤٥؛ ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ٢٩-٣٠.

١٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٦٥-٦٦؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٧-٤٨؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 462.

١١-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٦٦-٦٨؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٨-٤٩؛ لمع الشهاب....، ص ٧٧. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol 2, pp. 463-464 كما تحدث نيبور الذي زار الأحساء في أواسط الستينيات عن الهزيمة التي ألحقها النجرانيون بالوهابيين، وعن غزو هرير لنجد. ولكنه يقول إن النجرانيين كانوا بزعامة شخص يدعى مكرمى، ويذهب إلى أن الاشتباكات بين الوهابيين وأهالي الأحساء جرت قبل المعارك بين الوهابيين والنجرانيين. (Niebuhr C. Description..., pp,299-300)

١٢-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٧٥-٨٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٩-٥٨؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 465-470.

١٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٨٢-٨٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦٠-٦١؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 473-474.

١٤- Philby H. Saudi Arabia, p. 62.

١٥-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٨٨-٩٠، ٩٤؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦١-٦٢؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 475-478. لمع الشهاب...، ص ١٥٦-١٥٩.

١٦- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 483-484.

١٧-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٩٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦٥؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 479.

١٨-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٩١-١١٤؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٥-٧٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 485-486.

١٩-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١١٩؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٨.

٢٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٠-١٢٤، ١٣٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٨-٨٠؛ يقول منجين ان إلحاق الخرج والدلم تم عام ١٧٨٣.
Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 492.

٢١-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٤-١٣١، ٩٤؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٩-٨٠، ٨٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 496-499.

٢٢-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٧٥؛ لا يورد ابن غنام أية أرقام في معرض حديثه عن هذه الواقعة (تاريخ...، ج ٢، ص ١١٠-١١١).

٢٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٦-١٣٠؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٧-٨٢؛ كما يتحدث منجين عن إلحاق جبل شمر، ولكنه يقول إن ذلك جرى عام ١٧٨٥. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 496.

٢٤-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٣٦؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص٨٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 499.

يبدأ الاختلاف بين المؤرخين العرب ومنجين في تحديد التواريخ ابتداء من عام ١٧٨٣.

٢٥-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٣٧؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٣؛ يؤرخ منجين هذا الحدث في عام ١٧٨٧. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 499-500.

٢٦-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٤-١٢٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٠؛ يؤرخ منجين هذا الحدث في عام ١٧٨٤. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 492-493.

٢٧-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٧-١٢٩؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨١؛ يشير منجين إلى عام ١٧٨٥. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 494-495.

٢٨-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٩-١٣٠؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨١-٨٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 496.

ولكن منجين يذهب إلى أن هذا الحدث وقع خريف عام ١٧٨٥، كما أن هناك اختلافًا مع مؤرخي الجزيرة في بعض التفاصيل.

٢٩-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٣٨-١٣٩؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٤-٨٥؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 500-501.

٣٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص١٤١.

٣١-نفس المرجع، ص ١٤٢-١٥٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٥-٨٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 502-503.

إن تتابع الأحداث السريع وتنقل بعض الأشخاص من معسكر إلى آخر أحدثا تعقيدًا في صورة تلك الأحداث. وتختلف تفاصيل هذه الصورة في المصادر الثلاثة وفي «لمع الشهاب».

٣٢-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٥٢- ١٥٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٨.

٣٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٥٧-١٦٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩٧-٩٩؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 507-509.

٣٤-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٥٤؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٩؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 506.

٣٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩٠.

٣٦- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 506.

٣٧-لمع الشهاب....، ص ٦٧.

٣٨- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 506. يشير لمع الشهاب....، (ص ٢٦٥-٢٦٦) إلى أن محمد بن عبد الوهاب خلف أربعة أبناء وست بنات. وهذا لا يخالف ما ذكره منجين لأن من المحتمل أن بعض الأولاد قد توفوا قبل وفاة أبيهم.

٣٩-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٥٨-١٦٦؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٩٧-١٠١؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 508-509.
لا يورد منجين كل التفاصيل، غير أن ابن غنام عاصر الأحداث المذكورة وهو موضع ثقة أكبر.

٤٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٧٤- ١٧٥.

٤١- نفس المرجع، ص ١٨٤-١٨٥؛ ابن بشر. عنوان المجد... ، ج١، ص ١٠٥- ١٠٦.

٤٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٦.

٤٣-لمع الشهاب....، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

٤٤- Volney C.- F. Voyage..., pp. 81-82, 88; Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, p. 412.

٤٥- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٢٨؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٣.

٤٦- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 490.

٤٧-محمد بن علي الشوكاني. البدر الطالع، مصر، ١٣٤٨؛ ج ٢، ص ٤؛ Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, pp. 410-413; Didier Ch. Sejour... p. 171-172.

٤٨- Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, pp. 415-417.

٤٩- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٦١-٢٦٢؛ ابن غنام، تاريخ

نجد...، ج٢، ص ١٤٥-١٥٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٦-٨٧؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 502-505.

٥٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٧١؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٢-١٠٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 510.

٥١-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٧٣؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٣-١٠٥؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 510-511.

٥٢- المعمري،. الرسالة...، ص ٥٥؛ ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٢٠٠-٢٠٣.

٥٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٧٤؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٥.

٥٤- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 514. ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص٢٤٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١١١.

٥٥-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ٢٤٢-٢٤٧؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١١٢-١١٧، ص ١٢٠؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 516-517.

٥٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٠-١٢١.

٥٧- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 521.

٥٨- Longrigg S. H. Four Centuries of Modern Iraqe, Oxford, 1925, p. 202.

٥٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٥.

٦٠- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 511. ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٨٦- ١٨٧.

٦١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٧-١٠٨.

٦٢-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٩٣-١٩٩، ٢٣٣-٢٣٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٠٧-١١٠؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 511-514. عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد، ص ٢١-٢٣.

٦٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١١١-١١٢؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 517. ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١١٨-١١٩.

٦٤- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 518-521. Raymond J. Les Wahabys Document inédit de 1806. Le Caire 1925, pp.12-15. لمع الشهاب، ص ٣٤٢-٣٦٦.

٦٥- Brydges H. J. An Account of the Transactions of His Majesty's Mission to the Court of Persia (1807-1811), to which is Appended a Brief History of the Warauby, London, 1834. Vol. 2, pp. 24-27.

٦٦- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٢٧.

٦٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢١-١٢٢.

٦٨- [Rousseaui J.] Description.... p. 73.

٦٩- [Corancez L. A.] Histoire.... p. 27.

٧٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 186.

٧١- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 522-524.

٧٢- Philby H. Saudi Arabia, p. 93.

٧٣- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٢٨.

٧٤- Raymond J. Les Wahabys ..., p. 16.

٧٥- «مجلة المنوعات الأدبية»، ١٨٠٥، مجلد ٢، ص ٢٥.

٧٦- [Rousseaui J.] Description.... p. 72-75.

٧٧- انظر: Raymond J. Les Wahabys ..., p. 1.

٧٨- يورد روسو في كتابه رقمًا أقرب إلى الحقيقة، وهو ٢٠٠ رأس من الإبل. Rousseau J.] Description.... p. 74.

٧٩-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٣٨-٤٠.

٨٠- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 522-524.

٨١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢١-١٢٢.

٨٢- Longrigg S,H. Four Centuries..., p. 217.

٨٣- Raymond J. Les wahabys..., p.21; Brydges H. J. An Account..., Vol. 2, p. 28; [Corancez J.] Histoire.... pp. 28, 186.

٨٤- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p.525.

٨٥- G. de Gaury. Rulers of Mecca, pp.181-182.

٨٦- Abir A. Relations..., pp.34-40.

٨٧- Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, pp. 440-441.

٨٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١/١٢٢؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p.526.

٨٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١/١٢٢-٣؛ Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, pp. 154. يقول أحمد بن زيني دحلان. إن الاستيلاء على الطائف كان في مطلع عام ١٨٠٣. (خلاصة الكلام....، ص ٢٧٤-٢٧٥).

٩٠-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «ديوان»، الإضبارة ٢٢٣٤، ص ٣٠٠.

٩١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢/١٢٢-٣؛ Mengin. F. Histoire de

l'Egypte..., Vol. 2, p. 527 ؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٧٧. Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 184.

٩٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٢/٢-٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 527-528؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٧٧-٢٧٩. Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 195-196.

٩٣-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، ١٨٠٤، «الديوان»، الإضبارة ٢٢٤٢، ص ٢٠٢.

٩٤-نفس المرجع، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٢٤٩.

٩٥-نفس المرجع، ص ١٨٤-١٨٦.

٩٦-نفس المرجع، ص ٢١١-٢١٤.

٩٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٠؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٨٠-٢٨٥.

٩٨-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٤٠٧. Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 196.

٩٩-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨٠٣، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٢٦٠.

١٠٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٣.

١٠١-Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 201-202; Brydges H. J. An Account... Vol. 2, pp. 32; [Corancez L. A.] Histoire.... p. 42. أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨٠٤، الإضبارة ٢٢٤١، ج١، ص ٩٥.

١٠٢- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 529.

١٠٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٤.

١٠٤-لمع الشهاب....، ص ٢٧٣ - ٢٧٦.

١٠٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٢-١٣٣؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 531;. أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٨٥.

١٠٦- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٨٥.

١٠٧-نفس المرجع، ص ٢٨٥-٢٩٢؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٣-١٣٤، ١٤٤؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 533.

١٠٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٣-١٣٤؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٢.

١٠٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٥؛ يؤرخ منجين هذا الحدث في عام ١٨٠٩ تقريبًا. Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 534;.

١١٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 203.

١١١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٧-١٤٥، ١٥١؛ تختلف معلومات منجين عما ذكره ابن بشر (Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 554-535).

١١٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥١.

١١٣- [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 34-35, 74-81.

١١٤- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٨٥.

١١٥- [Corancez L. A.] Histoire... . p. 102.

١١٦- بازيلي ك. م. سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين التاريخية والسياسية. موسكو، ١٩٦٢، ص ٧٩ (باللغة الروسية).

١١٧- [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 126-132.

١١٨- انظر: Winder R. B. Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New York, 1965, pp. 92-93.

١١٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٢.

١٢٠- Salil-ibn-Razik. History of the Imame and Seyyids of Oman (661-1856). London, 1871, pp. 248-250.

١٢١- نفس المرجع، ص ٢٢٩-٢٣٠.

١٢٢-لمع الشهاب....، ص ٢٠١ - ٢٠٦.

١٢٣- Salil-ibn-Razik. History..., pp. 229-230; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p.522. Lorimer J. G. Graztteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia. Calcutta. Vol. 1, 1915, pp. 424.

١٢٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣١؛ Salil-ibn-Razik. History..., pp. 169-170, 238-239; Raymond J. Les Wahabys ..., p. 29; [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 56-59.

١٢٥- Miles S. B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf. London, 1919, Vol.2, pp. 305-309.

١٢٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣٦.

١٢٧- Salil-ibn-Razik. History..., pp. 307-308, 314.

١٢٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤١-١٤٢.

١٢٩- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 181.

١٣٠- Brydges H. J. An Account..., vol, 2, p. 15.

١٣١- نفس المرجع؛ [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 49-50.

١٣٢- Brydges H. J. An Account..., vol, 2, p. 16.

١٣٣- [Reinaud], Auszug aus dem Briefe des Hrn. Reinaud au Dr. Seetzen, Haleb, 2. Apr. 1805. - "Monatliche Correspondenz sur Beförderung der Erd-und Himmelskunde", h rsg. von Zach. Gotha, 1805, Br. 12, N 22, p. 235.

١٣٤- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥-١٨١٨ م/١١٥٨-١٢٣٢ هـ. معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٩١.

١٣٥- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 181.

١٣٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 541; [Corancez L. A.] Histoire.... pp. 142-145. Brydges H. J. Account..., vol, 2, pp. 38-44.. Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 208. Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 183-185.

١٣٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٧-١٤٨، ١٥٣-١٥٤.

١٣٨- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 38.

١٣٩- Cevdet Ahmed. Tarih-i-Vekayi- i- Devlet-i Aliyye. Istanbul, 1271-1292, VI, p. 353.

١٤٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٦-١٤٧؛ Salil-ibn-Razik. History..., pp. 324-326, Memorial of the Government of Saudi Arabia. Arbitration for the Settlement of the Territorial Dispute. Cairo, 1955, Vol. 1,. pp. 111-112.

١٤١- محمد بن هاشم. حضرموت، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ص ١٢٠-١٢٢.

١٤٢- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 525. ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢١؛ محمد بن علي الشوكاني. البدر الطالع...، ج ٢، ص ٦-٨.

١٤٣- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الدولة السعودية ... ص ١٤٥-١٤٦.

١٤٤- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 533.

١٤٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٤-١٤٥ يورد منجين تفصيلات أخرى عن هذا الحدث ويؤرخها في عام ١٨١٠.: (Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 541) ؛ انظر أيضًا: Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 208-209.

١٤٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٦.

١٤٧- [Corancez L. A.] Histoire.... pp. 133-135.

١٤٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٨-١٤٩؛ Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 209-210; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 542-544. (منجين على خطأ حينما يؤرخ هذه الحملة في عام ١٨١١).

١٤٩-لمع الشهاب....، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

الفصل الرابع

١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٣.

٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 151.

٣-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج١، ص ١٧٣.

٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٨٧.

٥-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٣٦.

٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٢.

٧- نفس المرجع، ص ٥١-٥٢.

٨-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٢٤.

٩- نفس المرجع، ص ٢٤٥.

١٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦١.

١١- نفس المرجع، ص ٧١-٧٢.

١٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 154-155.

١٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٤٠-٤١.

١٤- نفس المرجع، ص ٩٠.

١٥- نفس المرجع، ص ١٧٣.

١٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 158.

١٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٣.

١٨- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 152.

١٩- نفس المرجع، ج١، ص ١٠٤.

٢٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٦-١٢٧.

٢١- نفس المرجع، ج١، ص ١٧٣.

٢٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 161.

٢٣-لمع الشهاب....، ص ٤٦٦ - ٤٦٩.

٢٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٤.

٢٥- نفس المرجع، ص ١٧٣.

٢٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 121-123.

٢٧- [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 66-.67.

٢٨-لمع الشهاب....، ص ٤٨٠ - ٤٨٦.

٢٩- Raymond J. Les Wahabys ..., p. 26.

٣٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧١؛ Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 129.

٣١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧١.
٣٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 129.
٣٣- نفس المرجع، ص ١٥٩-١٦٠.
٣٤- نفس المرجع، ص ١٣٠.
٣٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٠-١٧١.
٣٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 131.
٣٧- نفس المرجع، ص ١٣٠.
٣٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧١.
٣٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 169.
٤٠- نفس المرجع، ص ١٢٨.
٤١- [Corancez L. A.] Histoire... . pp. 21-.23.
٤٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 126.
٤٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٨-١٧٠.
٤٤- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 158.
٤٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٧.
٤٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 155-157.
٤٧- نفس المرجع، ص ١٥٧.
٤٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٣.
٤٩- نفس المرجع، ص ١٢٧-١٢٨.
٥٠-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٩٩.
٥١- نفس المرجع، ص ٩.
٥٢- نفس المرجع، ص ٩٠.
٥٣- Pelly L. A Visit..., p. 187.
٥٤- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 138-139.
٥٥- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, pp. 287-288.
٥٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٦٧، ١٣٠.
٥٧- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 172.
٥٨- نفس المرجع، ص ١٣٢-١٣٣.
٥٩- نفس المرجع..
٦٠-لمع الشهاب.....، ص ١٠٢ - ١٠٤.
٦١- نفس المرجع، ص ١٠٥-١٠٧.

٦٢-ابن غنام، تاريخ نجد...، ج٢، ص ١٨٥.
٦٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٦.
٦٤- نفس المرجع، ص ٩١.
٦٥- نفس المرجع، ص ١٥.
٦٦- نفس المرجع، ص ٩٣-٩٤.
٦٧- نفس المرجع، ص ١٢٧.
٦٨- نفس المرجع، ص ٩٢.
٦٩- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 176.
٧٠-لمع الشهاب.....، ص ١١١، ٢٦٧.
٧١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 249-250.
٧٢- نفس المرجع، ج٢، ص ١٣٦.
٧٣- نفس المرجع، ج١، ص ٣٧٩-٣٨٠.
٧٤- نفس المرجع، ج٢، ص ١٤٥.
٧٥- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد.....، ص ٣١.
٧٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٥.
٧٧- نفس المرجع، ص ١٢٦.
٧٨- نفس المرجع، ص ١٢٤.
٧٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 143.
٨٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٤-١٢٦.
٨١- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام.....، ص ٢٧٩-٢٨٠.
٨٢- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 174.
٨٣- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 149-150.
٨٤- نفس المرجع، ص ١٥٠؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 452.
الجبرتي. مصر...، ص ٣٢٥-٣٢٦.
٨٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣.
٨٦- نفس المرجع، ص ٢١٤.
٨٧- نفس المرجع، ص ٤.
٨٨- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد.....، ص ٣١.
٨٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 171.
٩٠- نفس المرجع، ص ١٦٣.
٩١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٢٨؛ انظر أيضًا؛ Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 163.

٩٢- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٣٢.

٩٣- Ali bey. Travels. London, 1816, Vol. 2, p. 136.

٩٤- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 177.

٩٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٢.

٩٦- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 177.

٩٧- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 165.

٩٨- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٣٢.

٩٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 164.

١٠٠- Raymond J. Les Wahabys ..., pp. 24-25.

١٠١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 171.

١٠٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٧-١٦٨.

١٠٣- نفس المرجع، ص ١٦٦؛ انظر أيضًا: Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 170.

١٠٤- كان من الممكن أن يستخدم حداة إبل مختصين لإداء هذه الأعمال. فمن المتعارف عليه لدى البدو أن الراكب إلى الخلف يتولى حراسة الإبل أثناء المعركة أو يقود الغنائم. ومن المحتمل ان الوهابيين غيروا هذا التكتيك وجعلوا من الراكبيين مقاتلين. وعلى أي حال فإن معاصري الحركة الوهابية في تلك المرحلة لم يوردوا شيئًا عن استخدام الراكب إلى الخلف في أعمال غير قتالية.

١٠٥- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 178-179.

١٠٦- نفس المرجع، ص ١٧٩-١٨٠.

١٠٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٤٠.

١٠٨- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 53-56.

١٠٩- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 179. Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 179.

١١٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 58.

١١١- نفس المرجع، ص ٢٣٧.

١١٢- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, p. 179.

١١٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧١.

١١٤- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٣٢. يورد ابن بشر الرقم ذاته.

١١٥- مجلة المنوعات الأدبية،المجلد ٢، رقم ١، ص ٣٠؛ [Reinaud]. Auszug aus dem Briefe..., P. 241; [Corancez L. A.] Histoire... . p. 118.

١١٦- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 1, p. 106.

١١٧- نفس المرجع، المجلد ٢، ص ١٦٨.

١١٨- نفس المرجع، المجلد ٢، ص ١٤٠-١٤١.

١١٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٧٩؛ Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 140-141.

١٢٠- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 141-214.

١٢١- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد....، ص ٣٥.

١٢٢- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 355-360.

١٢٣- الجبرتي. مصر...، ص ٢١١؛ انظر أيضًا: Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, p. 349.

١٢٤- Burckhardt J. L. Travels... Vol. 1, p. 25.

١٢٥- نفس المرجع، المجلد ٢، ص ٢٠٨-٢٠٩.

١٢٦- نفس المرجع، المجلد ١، ص ٢٣٣-٢٣٤، ٣٦١-٣٦٣؛ ٣٧٧.

الفصل الخامس

١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 219; عبد الرحيم، الدولة... ص ٢٨٤-٢٨٥.

٢- Burckhardt J. L. Notes. Vol. 2, pp. 218-219; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 342-343, 450; Sabry M. L'Empire Egyptien sous Mohammed-Ali et la question d'Orient (1811-1849). Paris, 1909, p.46. عبد الرحيم، الدولة...، ص ٢٨٦-٢٨٧.

٣- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 342-343; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 220.

٤- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 220-221; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 343-344,

٥- نفس المرجع، Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 223; الجبرتي. مصر...، ص ٣٠٠؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠١.

٦- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 359, 373; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 221.

٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٣١-١٣٤؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٨٥-٢٩٢. [Corancez L. A.] Histoire... . p. 140.

٨- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 225; الجبرتي. مصر...، ص ٣١٧.

٩- الجبرتي. مصر...، ص ٣١٧؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 375-376.

١٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٥.

١١- Finati. G. Narrative of the Life and Adventures of Giovanni Finati. Native of Terrara. London, 1830. Vol. 1, p. 136.

١٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٥-١٥٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, p. 382.

١٣- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 384-385; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٥-١٥٦؛ Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 230-232.

١٤- الجبرتي. مصر...، ص ٣٢٠.

١٥- نفس المرجع، ص ٣٢٥-٣٢٦.

١٦-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨١٢، الإضبارة ٢٢٨٢، ص ١٢٨.

١٧- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 384-388; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 237 ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٧-١٥٨؛ الجبرتي. مصر...، ص ٣٢١، ٣٩٠.

١٨- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٥.

١٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 237-240; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 390-396; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٨-١٥٩؛ الجبرتي. مصر...، ص ٣٤٦.

٢٠- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, p. 390.

٢١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 240-243.

٢٢-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨١٣، الإضبارة ٢٢٨٥، ص ٦٧-٦٨؛ يذكر عبد الرحيم أن ثلاثة آلاف اذن قطعت (الدولة...، ص ٢٩٦).

٢٣- Burckhardt J. L. Travels... Vol. 2, p. 286.

٢٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٩؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٥.

٢٥- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 391-399; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 244-247; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٥٩-١٦٠؛ الجبرتي. مصر...، ص ٣٩١-٣٩٣.

٢٦-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «الديوان»، ١٨١٣، الإضبارة ٢٢٨٥، ص ٣٢٥.

٢٧- Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 399-403. الجبرتي. مصر...، ص ٣٩٣-٣٩٨؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٦.

٢٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦١؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 403-407; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 248-250.

٢٩- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, p. 248; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٢؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٦.

٣٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٣؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٦؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 1, pp. 407-408; Vol. 2, pp. 1-2; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 251.

٣١- Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 251-260; Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 2-3; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص١٦٣؛ الجبرتي. مصر...، ص ٤٥٠-٤٥١.

٣٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٣؛ الجبرتي. مصر...، ص ٤٥١-٤٥٦، ٤٧٧؛ Mengin. F. Histoire de l'Egypte..., Vol. 2, pp. 3-16; Burckhardt J. L. Notes... Vol. 2, pp. 260-262.

٣٣- Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp- 3-16; Burckhardt J. L. Notes Vol. 2, pp, 264-267; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٤-١٦٥؛ عبد الرحيم. الدولة...، ص ٣٠٢-٣٠٤

٣٤- Finati G. Narrative ... Vol. 1, pp. 222-223; أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٠.

٣٥- Finati G. Narrative... Vol. 1, pp. 226-232; Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 17-19; Burckhardt J. L. Notes..., Vol. 2, pp. 274--277; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٧.

٣٦- Burckhardt J. L. Notes .. Vol. 2, pp. 252, 278, 280-284, 290-294, 303-.305; Mengin F. Histoire de l'Egypte . . . Vol. 2,pp.26-29.

٣٧- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٠.

٣٨- نفس المرجع Burckhardt J -. L. Travels ... Vol. 1, p, 82, Vol. 2, p. 33.Burckhardt J. L. Notes .. , Vol. 2, pp 286.287, 306.

٣٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٦؛ الجبرتي. مصر...، ص ٦٦٤؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, p, 20.

٤٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٦٥-١٦٦.

٤١- نفس المرجع، ص ١٧٨.

٤٢- Burckhardt J. L. Notes ... Vol. 2, pp. 290 -292.

٤٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٧٩-١٨١؛ الجبرتي. مصر...، ص ٤٨٧-٤٩١؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٢٩٨-٣٠١. Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp, 30-32; Burckhardt J. L. Notes Vol. 2, pp, 310-332.

٤٤- Burckhardt J. L. Notes ... Vol. 2, pp. 338-339; Burckhardt J. L. Travels ... Vol. 1, pp. 133-136; Sabry M. L'Empire Egyptien ..., p. 48.

٤٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨١-١٨٢؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp. 32-34; Burckhardt J. L. Notes ... Vol. 2, pp. 339-- 343.

٤٦- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠١.

٤٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٢-١٨٣؛ Burckhardt J. L. Notes ... Vol. 2, pp.. 343 - 345; Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 34-48; عبد الرحيم. الدولة...، ص ٣١٢.

٤٨- Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, p, 57; الجبرتي. مصر...، ص ٥١٠-٥١١.

٤٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٤-١٨٥؛ Burckhardt J. L. Notes ..., vol. 2, pp. 346-356; Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 55-57.

٥٠- Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp. 56-57. 67-71.

٥١- Sabry M. L'Empire Egyptien ..., pp. 44-46.

٥٢- نفس المرجع، ص ٤٩-٥٠.

٥٣- Burckhardt J. L. Notes ... Vol. 2, pp, 356 - 357; عبد الرحيم. الدولة...، ص ٣١٨.

٥٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٧-١٨٨؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp. 98 - 104.

٥٥- Sadlier G. F. Account of a Journey .from Katif on the Persian Gulf to Yamboo on the Red Sea (Rear 24.4.1821). Transactions of the Literary Society of Bombay". Vol. 3. London, 1823, p. 486.

٥٦- Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, p, 105; Sadlier G. F. Account..., p. 486; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٨.

٥٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٨-١٨٩؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 106-107.

٥٨- Sabry M. L'Empire Egyptien . . ., p. 52.

٥٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٩٧.

٦٠- Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 107 - 111.

٦١- نفس المرجع، ص ١١١-١١٢؛ Sadlier G. F. Account... pp. 487- 488; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٨٩-١٩١.

٦٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٩٠-١٩٢.

٦٣- نفس المرجع، ص ١٩٢-١٩٤؛ Sadlier G. F. Account ..., p. 488; Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp. 115-117.

٦٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٩٤-١٩٥.

٦٥- Sadlier G. F. Account ..., p. 488.

٦٦- Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp., 118-131; Sadlier G. F. Account ..., p, 488; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١٩٦-٢٠٣؛ الجبرتي. مصر...، ص ٦٣٤؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٢.

٦٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٠٦-٢٠٧. إن التفاصيل الدقيقة عن واقعة الدرعية التي استمرت بضعة أشهر تدل على أن ابن بشر كان في العاصمة آنذاك، أو أنه جمع معلومات عن هذا الحدث من أشخاص كثيرين. واعتبر منجين أن عبد الله استسلم في ٩ أيلول (سبتمبر) Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, pp., 139-140; وهذا ما تؤكده معلومات ابن بشر، لأن من المحتمل أن المصريين اعتبروا ذلك التاريخ يومًا للنصر. ويورد سيدلير يوم ٤ أيلول، (Sadlier G :F. Account..., p. 488). أما صبري فيورد تاريخ ١٥ أيلول، استنادًا إلى مصادر لم يرد ذكرها (Sabry M. L'Empire Egyptien... p. 55).

٦٨- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٠٧.

٦٩-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «ديوان»، ١٨١٨، الإضبارة ٢٣٢١، ص ٤٣٩.

٧٠- الجبرتي. مصر...، ص ٦٣٦-٦٣٧.

٧١-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «ديوان»، ١٨١٨، الإضبارة ٢٣٢١، ص ٤٣٥.

٧٢- عبد الرحيم. الدولة...، ص ٤٠٠-٤٠١.

٧٣-أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «ديوان»، ١٨١٨، الإضبارة ٢٣٢١، ص ٤٧٩-٤٨٠.

٧٤- Rehatsek E. The History of the Wahhabys in Arabia and in India. - «The Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatci Society». Vol. 14, 1878-188. Bombay, 1880, p, 361.

٧٥-انظر: إشراف ك. م. ممثلو النهضة الإسلامية وأحداث عام ١٨٥٧. ـ التمرد الشعبي بالهند في أعوام ١٨٥٧-١٨٥٩. موسكو، ١٩٥٧.(باللغة الروسية).

٧٦-كما جاء في نفس المرجع، ص ١٤٥.

٧٧-محمد عبد الله ماضي. النهضات الحديثة في جزيرة العرب، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٢، ج١، ص ٦٢-٦٨.

٧٨-إيفانوف ن. أ. المغرب. ـ تاريخ النضال التحرري الوطني لشعوب أفريقيا في العصر الحديث، موسكو، ١٩٧٢، ص ٣٠-٣٤ (باللغة الروسية).

الفصل السادس

١- Mengin F. Histoire de l'Egypte ...Vol. 2, p. 136 ; ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص٢٠٢، ٢١٠، ٢١٢-٢١٣.

٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ١١٥؛ Sadlier G. F. Account ..., p. 471.

٣- Sadlier G. F. Diary of a journey across Arabia. - Selections from the Records of the Government. Bombay, 1866, p. 158.

٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٣؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte ... Vol. 2, p. 231; أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٣ Wallin G. A. Narrative ... p. 186.

٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٣؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 151, 158 - 162. Sadlier G. F. Account... pp. 474, 486.

٦- عثمان بن سند البصري. تاريخ بغداد، ص ٥٠؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٢-٢١٣.

٧- Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 160-162; Weygand, le general. Histoire militaire de Mohammed Aly et de ses fils. Paris, 1936, vol. I, pp. 113-114.

٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 148.

٩- Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 160-162; Weygand. Histoire ... Vol. I, pp. 113 - 114.

١٠- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. I, pp. 197 - 200, 658 - 677. انظر أيضًا: Winder R. B. Saudi Arabia, pp. 46 - 49.

١١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٢.

١٢- Sadlier G. F. Account , p. 469.

١٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٠، ٢١٢-٢١٧؛ Mengin F. Histoire de l'Egypte... Vol. 2, pp. 158 - 159.

١٤- أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٣: Hurgronje C. S. Mekka. Haag, 1888, p. 161; Tamisier M. Voyage en Arabie. Séjour dans le Hejaz. Campagne d'Assier. Paris, 1840, vol. I, pp. 144 - 149.

١٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٧-٢١٩.

١٦- نفس المرجع، ص ٢١٨-٢١٩؛ Musil A. Northern Neĝd. New York, 1928, p, 270.

١٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٥٦.

١٨- نفس المرجع، ص ٢١٧-٢١٩؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٣.

١٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٢٢؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٣.

٢٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣٠٣؛ Cevdet A. Tarih ... Vol. II, pp. 190 - 191.

٢١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ Musil A. Northern Neĝd, p. 270.

٢٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٢٧.

٢٣- نفس المرجع، Musil A. Northern Neĝd, p. 270.

٢٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢٣٠-٢٣٢؛ Musil A. Northern Neĝd, p. 271.

٢٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١، ٥٦.

٢٦- نفس المرجع، ج١، ص ٢٣١-٢٣٢.

٢٧- نفس المرجع، ج٢، ص ١١-١٢.

٢٨- نفس المرجع، ج ١٢؛ PalgraveW. G. Narrative. .. Vol. 2, p. 62.

٢٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١٣-١٧؛ ٢٧.

٣٠- نفس المرجع، ج ١٧-١٩؛ Palgrave W. G. Narrative ... Vol. 2, p. 62-63.

٣١- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1094. Winder R. Saudi Arabia ..., p. 65.

٣٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١٩-٢٢، ٦٢.

٣٣- نفس المرجع، ج ٢ ص ٢٣-٢٦.

٣٤- Wallin G. Narrative.., p. 186.

٣٥- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 2, p, 18.

٣٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٢٦-٣٠؛ ٢٢-٢٣.

٣٧- نفس المرجع.

٣٨- نفس المرجع، ج ٢ ص ٣٢، ٦٢؛ Musil A. Northern Neĝd, p, 271.

٣٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص٣٢؛ فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية. المطبعة السلفية الكبرى ومكتبتها، ١٩٣٣، ص ١٤١، ٣٣٦؛ Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1161.

٤٠- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 950-951, 954.

٤١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٣٥-٣٧؛ Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. I, p, 954.

٤٢- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. I, pp. 954-955.

٤٣- نفس المرجع، ص ٨٥٦-٨٥٧، ٩٥٥-٩٥٦، ١٠٩٥؛ Winder R. B. Saudi Arabia .., pp. 78-79.

٤٤- Salil-ibn-Razik , History... pp. LXXXI·LXXXII.

٤٥- Lorimer J. G.Gazetteer .. . Vol. I, p. 687.

٤٦- Winder R: B. Saudi Arabia ..., p. 79.

٤٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٣٣-٣٨.

٤٨- Precis Regarding Muscat and its Realtions with the Wahabee Power. أوردها بدجير في مقدمته .Salit.ibn-Razik, History.., p. LXXXVI-LXXXVII

٤٩- Wilson A. J. The Persian Gulf. An Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century, Oxford, 1928, p. 198.

٥٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٣٨-٣٩: ٤٥، ٤٨-٤٩، ٥٤؛ Lorimer J. G. Grazetteer ... Vol. 1, p. 1094.

٥١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص٤.

٥٢- محمود شكري الأوسي، تاريخ نجد، تحقيق محمد بهجت الأثري. المطبعة السلفية الكبرى القاهرة، ١٣٤٣ هـ، ص ٩٧ - ١٠٠.

٥٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج١، ص ٢١٩؛ ج٢، ص ٢٨-٣٠، ٣٤، ٣٨، ٤٥.

٥٤- نفس المرجع، ج٢ ص٣٣، ٣٩، ٤١؛ Lorimer J . G. Gazetteer Vol. 1, pp. 2518 - 2519: Wellsted J. R. Travels in Arabia Vol. 2, p. 253.

٥٥- محمد بن خليفة النبهاني. التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، القاهرة، ١٢٣١ هـ، ص ١٥٤-١٥٥؛ ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٤٨.

٥٦- Lorimer J. G. Gazetteer ... Vol. 1, pp. 857 - 1095.

٥٧- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٤٩.

٥٨- Winder R. B. Saudi Arabia. p. 95.

٥٩- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٥١-٥٣.

٦٠- نفس المرجع، ص ٦٥-٦٦؛ Memorial ... Vol. 1, pp. 170 -171.

٦١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٦٨-٦٩؛ Lorimer J. G. Gazetteer .. Vol. 1, pp. 858, 956 - 957, 1097 - 1098.

٦٢- Wellsted J . R. Travels in Arabia. Vol. I, pp. 54--65, 96-97. 219, 223 - 224, 231.

انظر أيضًا: Lorimer J. G. Gazetteer Vol. 1, p. 454, 1098 - 1099; Memorial... Vol. 1, p. 173.

٦٣- Wallin G. A. Narrative... pp. 180 - 184; Guarmani C. Northern Neĝd..., pp. 88, 92; Huber Ch. Journal..., p, 151.

٦٤- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp, 101-104.

٦٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٦٨-٧٠؛ Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1097; Cevdet Ahmed. Tezâkir 1 - 12. Ankara, 1953, p. 139.

٦٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٦٨-٦٩.

٦٧- نفس المرجع، ص ٧٠.

٦٨- Philby H. Saudi Arabia, p . 176.

٦٩- انظر: Winder.R. B. Saudi Arabia..., pp. 110-111; ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٧٢؛ فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية...، ص ٣٤٢؛ Musil A. Northem Neĝd, p., 272.

٧٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٧٢.

٧١- نفس المرجع، ص ٧٣-٧٤؛ ٧٩-٨٠.

٧٢- نفس المرجع، ص ٧٧.

٧٣- نفس المرجع، ص ٨٠-٨١؛ فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية...، ص ٣٣٦، ٣٤٢؛ Musil A. Northem Neĝd, p. 272.

٧٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٨١-٨٢؛ Jomard E. F. Études géographiques et historiques sur l'Arabie. Paris, 1839, pp. 239-241; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 118 - 120.

٧٥- Lorimer J . G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1099.

٧٦- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 122-123.

٧٧- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, p, 862.

٧٨- نفس المرجع، ص ٨٦٢-٨٦٥؛ Winder R. B. Saudi Arabia ...., pp. 125 - 128.

٧٩- Fresnel F. l'Arabie. «Revue de deux mondes». Sér. 4, 1839, vol. 17, p. 250; Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 131.

٨٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٨٩؛ Driault E. l'Egypte et l'Europe. La crise de 1839-1841. Cairo, 1930-1933. Vol. 2, pp . 176, 190, 323; Lorimer J. G. Gazetteer.... Vol. 1, pp. 1104-1105; Cevdet A. Tezâkir... 1-12, pp. 139-140.

الفصل السابع

١- Cevdet A. Tezâkir... 1-12, pp. 139-140.

٢- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, pp. 1104 - 1105; Winder R: B. Saudi Arabia, p. 112.

٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٩٢-٩٣، ٩٥: Blunt A. A. Pilgrimage..., p. 263; Musil A. Northen Neĝd, p. 273; فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية...، ص ٢٧٢-٢٧٣.

٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٩٦: Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, pp. 1105 - 1106; Musil A. Northen Neĝd, p. 273; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 139 - 140. أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣١٢.

٥- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 142.

٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٩٩: أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص ٣١٢-٣١٣؛ Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 142.

٧- Wallin G. A. Narrative..., p, 179.

٨- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp, 143 - 147; ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ٩٩-١٠٣: أحمد بن زيني دحلان. خلاصة الكلام....، ص٣١٣؛ أمين الريحاني. تاريخ نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز عبد الرحمن آل فيصل آل سعود. بيروت، ١٩٢٧، ص ٨١.

٩- Pbilby H. Saudi Arabia, pp - 193 - 194.

١٠- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١٠٨-١١٠: Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 866-875.

١١- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١١-١١٠: Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 152 - 153.

١٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١١، ١١٣.

١٣- Doughty Ch. Travel... Vol. 2, p, 42.

١٤- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١٢؛ Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 154 - 155.

١٥- Lorimer J. G. Gazetteer .. . Vol. 1, P. 1111.

١٦- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١٤، ١١٧؛ Wallin G. A. Narrative..., pp. 146, 149; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp, 155-156.

١٧- Huber Ch. Voyage dans l'Arabie centrale, Hammôde, Sammar, Kesîm, Hedjâs, - «Bulletin de la société géographique»; Paris, 1884 - 1885, vol. 6, p, 147.

١٨- نفس المرجع، المجلد ٥، ص ٤٩٤؛ المجلد ٦، ص ١٤٧-١٤٨.

١٩- نفس المرجع، المجلد ٥، ص ٤٩٤؛ Doughty Ch. Travels ... Vol. 2, pp. 340-341, 357.

٢٠- Doughty Ch. Travels... Vol. 1, pp, 337, 395, 416, 433-434, 443-444; Huber Ch. Voyage... BSG. Vol. 5, p. 494.

٢١- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, p, 357.

٢٢- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١٤-١١٥.

٢٣- انظر بشأن القصيم: ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١٩-١٣٠؛ Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, pp. 168-169; Winder R. B.Saudi Arabia..., pp. 157-165.

٢٤- Doughty Ch. Travels..., Vol. 2, p. 458.

٢٥- Huber Ch. Journal..., p, 493; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp, 165 - 168.

٢٦- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp 170 - 171; يؤرخ فيلبي هذه المعركة في عام ١٨٥٩: (Philby H. Saudi Arabia..., p. 208)

٢٧- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 171-172.

٢٨- Doughty Oh. Travels... Vol. 2, p. 459; Philby H. Saudi Arabia..., p . 313; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 173-174.

٢٩- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, pp. 459 - 463.

٣٠- Palgrave W. G. Narrative ... Vot. 2, p. 109.

٣١- للتفصيل عن الحرب الثانية راجع: Palgrave W. G. Narrative ... Vol. 2, pp. 108. 111, 171-174, 249-250; Guarmani C. Northern Najd..., p. 93; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 174-178.

٣٢- Hurgronje C. S. Mekka (1888), p. 164.

٣٣- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١١٤-١١٥.

٣٤- نفس المرجع.

٣٥- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1 . pp. 1110 - 1111; Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 182.

٣٦- De Gaury G. Rulers of Mecca, pp. 248-249.

٣٧- Marston T. E. Britain's Imperial Role in the Red Sea Area (1800-1878). Hamden. (Connecticut), 1961, pp. 162-163. 216-217; Cevdet A. Tezâkir..., 1-12, pp. 101.129.

٣٨- De Gaury G. Rulers of Mecca. p. 252.

٣٩- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 207.

٤٠- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, p. 1116.

٤١- Pelly L. Report on a Journey to the Wahabee, Capital of Riyadh in Central Arabia. Bombay, 1866, p. 51.

٤٢- نفس المرجع، ص ٥٢.

٤٣- Pelly L. Report on the Tribes, Trade and Resources around the Shore of the Persian Gulf. - Transactions of the Bombay geographical Society, XVII. (1863), pp, 65. 69.

٤٤- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1 , p. 1111.

٤٥- ابن بشر. عنوان المجد...، ج٢، ص ١٣٠-١٣٢: Memorial... Vol. 1, p. 207; Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1. pp. 800, 961 - 962; 1112; Salil-ibn-Razik. History..., p. XC; النبهاني. التحفة...، ص ١٦٣-١٦٤.

٤٦- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 189.

٤٧- Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1. p. 887 - 890; Aitchison C.U. A Collection of Treaties, Engagements and Sanads. Vol. 11, Delhi, 1933, pp. 185, 192; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 190-191.

٤٨- نورد الأحداث المتعلقة بعمان وفقًا لويندر الذي اعتمد على مصادر لم يفلح المؤلف في العثور عليها. (Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 192-203).

٤٩- Pelly L. Report on a Journey..., pp. 35; 49; Palgrave W. G. Narrative... Vol. 2, p. 98.

٥٠- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1; p, 99; Philby H. St.-J. Arabia of the Wahhabis. London, 1928, p. 141.

٥١- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 225.

٥٢- Pelly L. Repprt on a Journey..., p. 7.

٥٣- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 225 - 226.

٥٤- Pelly L . Report on a Journey..., p. 55.

٥٥- Philby. Saudi Arabia, p. 194-195; Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 209.

٥٦- Palgrave W. G. Narrative...Vol. 1. p. 399; vol. 2, p. 189.

٥٧- Pelly L. Report on a Journey..., p. 92-93; Memorial Vol. 2, pp. 323-330.

٥٨- Pelly L. Report on a Journey..., pp. 92-93.

٥٩- نفس المرجع، ص ٣٤.

٦٠- Palgrave W. G. Narrative..., Vol. 2, p. 86.

٦١- Pelly L. A Visit..., p. 188.

٦٢- Pelly L. Reort on a Journey ..., pp. 11, 91; Palgrave W. G. Narrative... Vol. 2, pp. 178-179; Zwemer S. M. Arabia: The Cradle of Islam. London. 1900, pp. 115-116.

٦٣- Hogarth D; G. The Penetration of Arabia. London, 1905, pp. 150, 160, 267, 277; Pelly L. A. Visit..., p, 188; Guarmani G. Northern Najd..., p. 42; Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, p. 2335-2340; Blunt A. A Pilgrimage... Vol. 1, p. 255; vol, 2, pp. 2-3.

٦٤- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 2220-2293.

الفصل الثامن

١- حافظ وهبة. جزيرة العرب في القرن العشرين. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٤٤.

٢- Palgrave W. G. Narrative... Vol. 2, pp. 73-74.

٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 218.

٤- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1. p. 99; Philby H. Arabia of the Wahhabis, p. 141.

٥- Pelly L. Report on a Journey..., pp- 33-34.

٦- Winder R. B. Saudi Arabia , p. 231.

٧- Pelly L. Report on a Journey..., p. 52.

٨- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 473 - 476, 1121·14125; Salil-ibn-Razik. History..., pp, C-CIV; Aitchison C. U. A Collection..., p, 185; Winder R. B. Saudi Arabia ..., pp. 232- 234.

٩- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 234-237.

١٠- Philby H. Saudi Arabia, p. 218.

١١- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 892 - 902 ; النبهاني. التحفة...، ص ١٩١؛ Winder R. B. Saudi Arabia...,p. 245.

١٢- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp, 726 - 727; Memorial... Vol. 1, p. 244; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 245-247.

١٣- Winder R. B. Saudi Arabia..., p, 247.

١٤- نفس المرجع.

١٥- الريحاني. تاريخ...، ص ٨٤؛ النبهاني. التحفة...، ص ٢٣٩-٢٤٠؛ Salil-ibn-Rasik, History..., pp. CXV·CXVI; Pelly .L. Report on a Journey..., p. 76; Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1128.

١٦- Winder R. B. Saudi Arabia...,p. 242.

١٧- Palgrave W. G. Narrative.... Vol. 1, p. 203.

١٨- Blunt A. A. Pilgrimage p. 194.

١٩- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, pp. 41-42.

٢٠- Musil A. Northern Neĝd, p, 239.

٢١- Palgrave W. G. Narrative .. . Vol. 1, p. 130.

٢٢- نفس المرجع، ص ١٢٨؛ Guarmani C. Northern Neĝd ..., pp. 53 - 54; Huber Ch. Voyage... BSG. Vol. 5, p. 357.

٢٣- Wallin G. A. Narrative..., p. 179.

٢٤- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 1163 - 1165; Huber Ch. Journal..., p. 190; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 242-244.

٢٥- Philby H. Saudi Arabia, p. 224.

٢٦- Guarmani C. Northern Neĝd..., pp. 90-91; Doughty Ch. Travels... Vol. 2, p. 20; Philby H. St.-J, Arabia, London, 1930, p. 196; Huber Ch. Voyage... BSG. Vol. 6, p, 140, 141, 146.

٢٧- Blunt W. F. A Visit to Jebel Shammar (Neĝd), - Proceedings of the Royal Geographical Society, London, 1880, vol. 2, p.88.

٢٨- Wallin G. A. Narrative..., p, 180. Guarmani C. Northern. Neĝd..., p. 91; Doughty Ch. Travels...,Vol. 1, pp. 23, 33, 35, 52; Huber Ch. Voyage... BSG. Vol. 5, p. 354.

٢٩- Montagne R. Notes sur la vie sociale et politiquc de l'Arabie du Nord : les Sammar du Neĝd. - « Revue des Etudes Islamiques», 1932, cah. 1, p. 78; Montagne R. La civilisation..., p. 156.

٣٠- Doughty Ch. Travels...,Vol. 1, p. 588. Nolde E. Reise Nach Innerarabien, Kurdist und Armenien, 1892. Braunschweig. 1895, pp. 80, 86, 89; Montagne R. Notes..., p. 78; Montagne -R. La civilisation..., pp. 155-156.

٣١- Wallin G. A. Narrative..., p. 180; Euting J. Reise in Innerarabicn 1883/84 -«Verhandlungen d. Gessellschaft f. Erdkunde zu Berlin». 1886, vol. 1, pp. 200-201. Doughty Ch.Travels... Vol. 1, p. 610.

٣٢- Wallin G. A. Notes..., p. 43; Wallin G. A. Narrative..., pp. 179-180.

٣٣- Wallin G. A. Narrative..., p. 80; Guarmani C. Northern..., Neĝd..., pp. 46-48; Euting J. Reise in Innerarabien...Vol. 1, p, 203.

٣٤- Nolde E. Reise Nach Innerarabien..., p. 34; Palgrave W. G. Narrative... Vol. 1, p. 109.

٣٥- Guarmani C. Northern Neĝd..., p- 91.

٣٦- Nolde E. Reise Nach Innerarabien..., p. 84.

٣٧- Huber Ch. Voyage..., BSG Vol. 5, p. 357; Euting J. Reise in Innerarabien...Vol. 1, p, 177; Nolde E. Reise Nach Innerarabien..., p. 36.

٣٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 219; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 248-249.

٣٩- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 250-251.

٤٠- نفس المرجع، ص ٢٥١.

٤١- Longrigg S. H. Four Centures..., p. 302; Midhat Ali Haydar. The Life of Midhat Pasha. London, 1903, pp. 56-57; Blunt A. A Pilgrimage .. . Vol. 2, p- 266; Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 252.

٤٢- Blunt A.. A Pilgrimage... Vol. 2, pp. 266-267.

٤٣- نفس المرجع، ص ١٦٦ .Memorial... Vol. 1, p. 257; Minder R. B. Saudi Arabia..., p. 255.

٤٤- Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 256.

٤٥- Doughty Ch. Travels... Vol. 2, p, 368; Musil A. Northern Neĝd, p, 274; Lorimer; J -G. Gazetteer..., Vol. 1, pp. 1132-1133. الريحاني. تاريخ...، ص ٨٥.

٤٦- Philby H. Saudi Arabia, pp. 224-225.

٤٧- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 914, 917; الريحاني. تاريخ...، ص ٨٥؛ Blunt A. A. Pilgrimaae... Vol. 2, p. 267; Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 259-260.

٤٨- Lorimer J . G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1132; Doughty Ch. Travels.., Vol. 2, pp. 51, 453-455; Winder R. B. Saudi Arabia.., pp. 260-261.

٤٩- الريحاني، تاريخ...، ص ٨٦. Philby H. Saudi Arabia, p. 226; Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, pp, 1134, 1137.

٥٠- Philby H. Saudi Arabia, p. 226.

٥١- Lorimer J. G. Gazetteer...Vol. 1, p. 983; Memorial... Vol. 1. p. 267.

٥٢- Doughty Ch. Travels...,Vol. 2, p..455.

٥٣- Winder R. B. Saudi Arabia..., p, 266.

٥٤- فؤاد حمزة. البلاد العربية السعودية. مكة المكرمة، ١٣٥٥ هـ/١٩٣١-١٩٣٢، ص ٣، ٥-١٠؛ صلاح الدين المختار. تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، بيروت، ١٩٥٧، ج ٢ ص ١٨؛ Kheirallah G. Arabia Reborn. - Albuquerque, New Mexico. 1952, p. 74.

٥٥- Huber Ch. Journal..., p. 162; Doughty Ch. Travels..., Vol. 2, pp. 38, 51, 307, 315. 338, 394, 456; Winder R. B. Saudi Arabia..., p. 267. الريحاني، تاريخ...، ص ٨٧.

٥٦- Philby H. Saudi Arabia. p, 229; الريحاني. تاريخ...، ص ٨٧.

٥٧- Philby H. Saudi Arabia. p. 230.

٥٨- الريحاني. تاريخ...، ص ٨٨؛ Lorimer J. G. Gazetteer..., Vol. 1, p. 1137: Musil A.Northern Neĝd, p. 278: فؤاد حمزة. البلاد العربية السعودية. ص ٦؛ حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٣٥-٢٣٦. يقع فيلبي في خطأ فاحش بتاريخه هذه الأحداث عام ١٨٨٥ (Philby. Saudi Arabia..., p. 231) فقد أرخها آداموف، قنصل روسيا في البصرة في عام ١٨٨٦. (أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «سفارة في الآستانة»، ١٩٠٢، الإضبارة ١٢٦٥، ص ٨٤.

٥٩- الريحاني. تاريخ...، ص ٨٨.

٦٠- Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 272-273.

٦١- Philby H. Saudi Arabia. p. 232: Winder R. B. Saudi Arabia ..., p. 273.

٦٢- Philby H. Saudi Arabia, p. 232.

٦٣- الريحاني، تاريخ...، ص ٨٨-٨٩. Musil A. Northern Neĝd. pp. 278-279: Winder R. B. Saudi Arabia..., pp. 274-275.

٦٤- Musil A. Northern Neĝd, p. 279.

٦٥- نفس المرجع، ص ٢٧٩-٢٨٠؛ Philby H. Arabia of the Wahhabis . pp. 272-273: Lorimer J. G. Gazetteer...Vol. 1; p, 1177; حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٣٧.

٦٦- الريحاني. تاريخ...، ص ٩١؛ Philby H: Saudi Arabia, pp. 235-239; Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1140; Winder R. B Saudi Arabia..., pp , 277 - 278.

٦٧- Rihani Ameen. Ibn Saoud of Arabia, Maker of Modern Arabia. Boston-New-York, 1928, p. 218.

٦٨- Musil A. Zur Zeit geschichte von Arabien. Leipzig-Wien, 1918, p. 68.

٦٩- خير الدين الزركلي. شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز. بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٥.

٧٠- نفس المرجع، ص ١١٩.

٧١- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية والعلاقات الدولية في حوض الخليج (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)، موسكو، ١٩٦٨، ص ١٧ (باللغة الروسية).

٧٢- نفس المرجع، ص ٣٤.

٧٣- Troeller G. The Birth of Saudi Arabia. London, 1976, p. 3.

٧٤- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ٢٠٨؛ Troeller G. The Birth of Saudi Arabia, p. 3.

٧٥- De Gaury G. Rullers of Mecca, p. 253.

٧٦- نفس المرجع، ص ٢٥٤-٢٦٠.

٧٧- نفس المرجع، ص ٢٦٠.

٧٨- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ٨٩؛ (Philby H. Saudi Arabia, p. 236).

٧٩- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ١٠٥-١٠٧.

٨٠- نفس المرجع، ص ١٠٩-١١٤؛ حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٨٥-٨٦؛ Aitchison C. U. A Collection..., Vol. 9, p. 262; Lorimer J . G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 1049.1050.

٨١- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ١٤٣-١٤٨.

الفصل التاسع

١- Pbilby H. Saudi Arabia, p. 238.

٢- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ١٦٨-٢٢١؛ أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «السفارة في الآستانة»، ١٩٠١، الإضبارة ١٢٤٤، ص ٢٢١-٢٢٤.

٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 238.

٤- أداموف أ. العراق العربي. ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، بطرسبورغ، ١٩١٢، ص ٤٧١ (باللغة الروسية).

٥- بونداريفسكي غ. السياسة البريطانية...، ص ٢٣٤-٢٣٥.

٦- ضاري بن فحيد آل رشيد. نبذة تاريخية. عن نجد الرياض ١٩٦١، ص ٥٨-٦٠؛ حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٨٦؛ أداموف. العراق العربي... ص ٤٧١، أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠١، الإضبارة ٣٦٤، ٣١. Lorimer J. G. Gazetteer Vol. 1, . p. 1029; Philby H. Saudi Arabia, p. 238.

٧- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «سفارة في الآستانة»، ١٩٠١، الإضبارة ١٢٦٥، ص ٩٤.

٨- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠١، الإضبارة ٣١٩٥، ص ٣٤؛ «سفارة في الآستانة»، ١٩٠١، الإضبارة ١٢٤٥، ص ١٧٢.

٩- بونداريفسكي. السياسة البريطانية...، ص ٢٩٢.

١٠- أرشيف السياسة الخارجية، «أرشيف سياسي»، ١٩٠١، ج ٤٨٢؛ الإضبارة ٣٦٤، ص ٧.

١١- سعود ابن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود. مطابع الرياض، ١٩٦١، ص ٥٧-٦٠؛ الريحاني. تاريخ....، ص ١١٠.

١٢- سعود ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٥٧-٦٠؛ فؤاد حمزة. البلاد...، ١٢-١٦؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٩٧-١٠٢؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 239.

١٣- آل رشيد. نبذة...، ص ١١٧-١١٨.

١٤- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٢-٦٣؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٢٩-١٣٠؛ محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصاري الأحسائي؟ تاريخ الأحساء تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والحديث. الرياض ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠، ص ١٩٩؛ Philby H. Saudi Arabia, pp. 239-241.

١٥- Bell G. The Arab War. London, 1940, p. 9.

١٦- بونداريفسكي. السياسة البريطانية...، ص ٤١٨-٤١٩.

١٧- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٢-٦٣؛ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البسام. تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، ص ٣٦١-٣٦٢.

١٨- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٣-٦٤؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٦٢-٣٦٣؛ الريحاني. تاريخ...، ص ١١٥-١١٨؛ Philby H. Saudi Arabia, pp. 240-242.

١٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٤-٦٥؛ البسام. تحفة ....، ص٣٦٣؛ الريحاني. تاريخ...، ص ١٢٣؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 242.

٢٠- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «سفارة في الآستانة»، ١٩٠٣، الإضبارة ١٢٦٦، ص٣٦-٣٨.

٢١- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠٢، رقم ٤٨٢ الإضبارة ٣٦٥، ص ١٣-١٤. Lorimer J. G. Gazetteer . . . Vol.. 1, pp. 1145-1146.
زعم لوريمير أن اللقاء جرى مع عبد العزيز.

٢٢- بونداريفسكي. السياسة البريطانية...، ص ٣٩٣-٣٩٤.

٢٣- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠٣، رقم ٤٨٢ الإضبارة ٣٦٦، ص ٢.

٢٤- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٥-٦٦؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٦٤-٣٦٨.

٢٥- الأحسائي. تاريخ الأحساء ....، ص ٢١٠-٢٠٢؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٦٩-٣٧٠؛ Philby H. Saudi Arabia, pp. 244-245.

٢٦- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٩.

٢٧- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٠؛ Philby H. Saudi Arabia, p.245.

٢٨- الأحسائي. تاريخ الأحساء ....، ص ٢٠٢.

٢٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٩؛ الأحسائي. تاريخ الأحساء ....، ص ٢٠٢؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٧١؛ Philby H. Saudi Arabia, p- 245.

٣٠- بونداريفسكي. السياسة البريطانية...، ص ٤٣١.

٣١- Philby H. Saudi Arabia, p. 245. البسام. تحفة ....، ص ٣٧١.

٣٢- الريحاني. تاريخ...، ص ١٢٥-١٢٦؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٧١.

٣٣- البسام. تحفة ....، ص ٣٧٧-٣٧٩: الزركلي. شبه الجزيرة....، ص ١٥٥-١٥٧.

٣٤- بونداريفسكي. السياسة البريطانية...، ص ٤٣٢-٤٣٣.

٣٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٦٩-٧٠.

٣٦- آل رشيد. نبذة...، ص ١٢٠.

٣٧- الريحاني. تاريخ...، ص ١٢٦؛ الأحسائي. تاريخ الأحساء ....، ص ٢٠٣.

٣٨- Lorimer J. G. Gazetteer . .. Vol. 1, pp. 1147-1148.

٣٩- Philby H. Saudi Arabia, p. 246. ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧١؛ الأحسائي.

تاريخ الأحساء ....، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ الريحاني. تاريخ...، ص ١٢٦-١٣١؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٥٠-١٥١. Philby H. Saudi Arabia, pp. 246-247.

٤٠- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧١-٧٣؛ الأحسائي. تاريخ الأحساء ....، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٧٣.

٤١- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠٥، رقم ٤٨٢ الإضبارة ٢٦٨، ص ٢-٣. Lorimer J. G. Gazetteer...Vol. 1, p. Arabia, pp. 1148-1149.

٤٢- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠٥، رقم ٤٨٢ الإضبارة ٣٦٨، ص ٤.

٤٣- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٤؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٧٤-٣٧٥؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٦٧.

٤٤- أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، «أرشيف سياسي»، ١٩٠٥، رقم ٤٨٢ الإضبارة ٣٦٨، ص ١٠؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٣؛ البسام. تحفة ....، ص ٣٧٥؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٦٧.

٤٥- Lorimer J. G. Gazetteer . .. Vot. 1, pp. 1149·1150.

٤٦- نفس المرجع، ص ١١٥٠.

٤٧- Philby H. Saudi Arabia, p. 248; ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٣-٧٤.

٤٨- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٣-٧٤؛ البسام. تحفة ....، ص٣٧٥.

٤٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٧٦-٧٧.

٥٠- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, p. 1152; Philby H. Saudi Arabia, p. 250.

٥١- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٨٠؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 250.

٥٢- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol, 1, pp. 1152 - 1153.

٥٣- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٨٠-٨١.

٥٤- نفس المرجع، ص ٨٢.

٥٥- نفس المرجع.

٥٦- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 1154-1155.

٥٧- البسام. تحفة ....، ص ٣٨١.

٥٨- Lorimer J. G. Gazetteer... Vol. 1, pp. 1155.1156.

٥٩- الريحاني. تاريخ...، ص ١٤٣-١٥٠.

٦٠- Philby H. Saudi Arabi. , pp. 251 - 253. سليمان بن صالح الدخيل. مقتطفات من القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد. الرياض، ١٩٦٦، ص ١٥٥-١٥٦؛ الريحاني. تاريخ...، ١٦٠، Butler S. S. Baghdad to Damascus via el-jauf .Northern Arabia. - «Geographical Journal», 1909, vol, 33-,pp. 517..535

٦١- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ٨٥؛ Pnilby H. Saudi Arabia, p. 252.

٦٢- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ٨٦-٨٧؛ البسام. تحفة ...، ص ٣٨٤-٣٨٥.

٦٣- يؤرخ فيلبي وفاته في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٨، Philby H. Saud i Arabia, p. 251 ولكن البسام يذكر تاريخًا آخر، حزيران/يونيو ١٩٠٨. البسام. (تحفة ...، ص ٣٨٧).

٦٤- Philby H. Saudi Arabia, p. 254.

٦٥- البسام. تحفة ...، ص ٣٨٥-٣٨٨.

٦٦- Musil A. The Northern Heĝaz, New York, 1926, pp, 22-23.

الفصل العاشر

١- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٠٣-١٠٤؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢١٦، ٢٨٦.

٢- انظر: Philby H, Saudi Arabia, p. 271; Carruthers D. A. Captain Shakespear's Last Journey. - «The Geographical Journal», 1922, vol. 59 (N 5, pp. 330-334; N 6, pp. 401-402).

٣- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٠٤.

٤- Troeller G. The Birth of Saudi Arabia, p. 81.

٥- Philby H. Saudi Arabia, p. 272.

٦- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٠٤-١٠٥؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٢٢؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٢٠٠.

٧- الريحاني. تاريخ...، ص ٢٢١؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٢٢.

٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 272.

٩- Troeller G. The Birth of Saudi Arabia, p. 83.

١٠- Graves Ph. The Life of Sir Percy Cox. London, 1941, p. 187; Musil A. Northern Neĝd, pp. 42, 50, 52, 179, 180, 249: Philby H. Arabian Jubilee, pp. 40-41.

١١- Philby H. Saudi Arabia, pp . 272-273.

١٢- Aitchison C. U. A Collection..., vol. 11, pp. 206-208; حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٣٣٤-٣٣٥. Troeller G. The Birth of Saudia Arabia, p. 244.

١٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 274; الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٨٦.

١٤- الأحسائي. تحفة ...، ص ٢١٣؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٢٧.

١٥- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٢٧.

١٦- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٠٥-١٠٨؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٣٠.

١٧- يستند هذا الفصل إلى عدد من المؤلفات المعروفة لمدوني تاريخ الشرق الأوسط والجزيرة العربية : Antonius G. The Arab Awakening. London, 1945; Brémond E. Le Hedjaz dans la guerre mondiale. Paris, 1931; De Gaury G. Rulers of Mecca; Jung E. La révolte arabe. Vol. 1-2, Paris, 1924-1925; Lawrence T. E. Seven pillars of Wisdon. London. 1942; [Storrs R.] . The Memoirs or Sir Ronald Storrs. New York 1937; Troeller G. The Birth or Saudi Arabia; حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٥٠؛ سقوط السيطرة العثمانية في العالم العربي (١٩١٤-١٩١٨). موسكو، ١٩٦٠ (باللغة الروسية).

١٨- Lawrence T. E. Seven Phillars of Wisdom, p. 283.

١٩- Philby H. Arabian Jubilee, p. 44 شبه الجزيرة...، ص ٢٠٨.

٢٠- Musil A. Northern Neĝd, pp. 288-289.

٢١- Philby H. Arabian jubilee, p. 45.

٢٢- الريحاني. تاريخ...، ص ٢١٠-٢١١.

٢٣- Philby H. Saudi Arabia, pp. 273-274; Troeller G. The Birth of Saudi Arabia, pp, 99-101.

٢٤- Graves Ph. The Life of Sir Percy Cox, p. 214.

٢٥- Philby H. Saudi Arabia, p. 274; الريحاني. تاريخ...، ص ٢١٥-٢١٦.

٢٦- Philby H. Arabian Jubilee, pp. 46-48.

٢٧- Troeller G. The Birth of Saudi Arabia, p. 83.

٢٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 275.

٢٩- نفس المرجع، ص ٢٧٥-٢٧٦.

٣٠- Philby H. Arabian Jubilee, pp. 52-54.

٣١- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1, pp . 284-285.

٣٢- Philby H. Arabia of the Wabhabis, pp. 223-224, 296, 100-101, 258, 331-335; Philby H. Arabian Jubilee, p. 59.

٣٣- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١١٤.

٣٤- القبلة، ١٩١٧/٩/٢٤.

٣٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١١٣.

٣٦- Philby H. Arabia of the Wahhabis, p. 19.

٣٧- نفس المرجع، ص ١٩-٢١؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١١٤-١١٥.

٣٨- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٣١٧.

٣٩- مثل من تاريخ الأقطار العربية المعاصر، موسكو، ١٩٦٨، ص ٨. (باللغة العربية).

٤٠- Philby H. Saudi Arabia, p. 277.

٤١- القبلة، ١٩١٨/٨/٣ص ٢٧٧؛ البسام. تحفة ...، ٣٩٨؛ ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١١٦-١١٧.

٤٢- Philby H. Saudi Arabia, p. 277.

٤٣- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١١٨-١١٩.

٤٤- نفس المرجع، ص ١١٩-١٢٠.

٤٥- عبد الله. مذكرات الملك عبد الله بن الحسين. عمان ١٩٦٥، ص ١٥٠-١٥١؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٢١٩-٢٢٦.

٤٦- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٢١-١٢٢.

٤٧- Philby H. Saudi Arabia, p. 278; حسين بن محمد نصيف، ماضي الحجاز...، ص٦٥.

٤٨- لويد جورج د. حقيقة من معاهدات الصلح. موسكو، ١٩٥٧، مجلد ٢، ص ٢٢٢ (باللغة الروسية).

الفصل الحادي عشر

١- Dickson H. Kuwait..., p. 250.

٢- نفس المرجع، ص ٢٥٠-٢٥١؛ ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١١٢.

٣- Dickson H. Kuwait..., p. 251.

٤- Aitchison C. U. A Collection... Vol. 11, p. 208.

٥- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٢٢-١٢٣؛ Dickson H. Kuwait..., p. 251.

٦- Dickson H. Kuwait ..., p. 251.

٧- ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٢٥-١٢٦؛ Dickson H. Kuwait..., p. 253.

٨- سيف الدين مرزوق الشملان. من تاريخ الكويت، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩م، ص ١٨٦.

٩- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٣٨-٢٣٩; Dickson H. Kuwait..., pp. 253-255; مرزوق الشملان. من تاريخ...، ص ١٨٨؛ ابن هذلول. تاريخ ...، ص ١٢٧-١٢٨.

١٠- Dickson H. Kuwait..., p. 257. الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٢٣٩.

١١- فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية...، ص ١٦٦-١٦٧.

١٢- البسام. تحفة ...، ٤٠٠-٤٠١ Philby H. Saudi Arabia, p. 280; الريحاني. تاريخ...، ص ٢٦٦؛ فؤاد حمزة. قلب الجزيرة العربية...، ص ١٦٧.

١٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 280.

١٤- البسام. تحفة ...، ٤٠٢.

١٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٢٩-١٣١.

١٦- نفس المرجع، ص ١٣١-١٣٣.

١٧- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٣٣-١٣٦؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 281.

١٨- البسام. تحفة ....، ٤٠٤؛ الريحاني. تاريخ....، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ Harrison P. W. The Arab at Home. New York, 1924, pp. 131-132.

١٩- Philby H. Arabia or the Wahhabis, p. 102.

٢٠- Bell G. The Letters of Gertrude Bell. New York, 1927, Vol. 2, pp. 534-535.

٢١- Glubb J. B. War in the Desert. London, 1960, p. 62.

٢٢- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٦٢؛ Bell G. The Letters, Vol. 2, pp. 635-636.

٢٣- وزارة الخارجية. مجموعة المعاهدات من ١٣٤١ إلى ١٣٧٠. دار الاصفهاني، جدة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥/١٩٥٦، ص ٢٧٤؛ Bell G. The Letters... Vol. 2, p, 659; Musil A. Northern Negd, p. 293.

٢٤- Musil A. Northern Neĝd, p. 292.

٢٥- Philby H. Saudi Arabia, p . 283; Jarvis C. S. Arab Command. London. 1942, pp. 101-102.

٢٦- Dickson H. Kuwait..., pp. 267-268; Philby H. Saudi Arabia, p. 284.

٢٧- وزارة الخارجية. مجموعة المعاهدات ....، ص ٥-٩.

٢٨- Dickson H. Kuwait , pp. 272-275.

٢٩- نفس المرجع، ص ٢٧٢-٢٧٣.

٣٠- Jarvis C. S. Arab Command, p, 106.

٣١- Glubb J. B. War in the Desert, pp. 74-78.

٣٢- Philby H. Saudi Arabia, p. 285; Musil A. Northern Neĝd, p. 295.

٣٣- Philby H. Saudi Arabia, pp. 265-266; نصيف. ماضي الحجاز...، ص ٩٧-٩٨؛ سلطة نجد. الكتاب الأخضر النجدي. مكة، ١٩٢٥، ص ١-٧٦؛ Glubb J. B. War in the Desert, pp. 107-110.

٣٤- Jarvis C. S. Arab Command, pp. 115-118; الريحاني. تاريخ....، ص ٢٩٦-٢٩٨.

٣٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٤٤-١٤٥.

٣٦- Rutter E. The Holy Cities of Arabia. London, 1928, vol, 1, p. 63.

٣٧- «Oriente Moderno». Roma, 1920, vol. 4, N 10, p. 647.

٣٨- فؤاد حمزة. البلاد...، ص ٥٣.

٣٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٤٥-١٥٠.

٤٠- Musil A. Northern Neĝd, pp, 294.295; عبد الحميد الخطيب. الإمام العادل. القاهرة، ١٩٥١، ص ٤٢.

٤١- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٧٠.

٤٢- Toynbee A. J . Survey of International Affairs. 1925. Vol. 1. The Islamic World. Oxford, 1927, pp. 290-293.

٤٣- Antonius G. The Arab Awakening, p. 331.

٤٤- نفس المرجع، ص ٣٣١-٣٣٥؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٢٩٢-٢٩٣.

٤٥- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٧١؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٤٣-٤٤؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 285.

٤٦- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ١٤٧-١٤٩؛ حافظ وهبة. خمسون عامًا في جزيرة العرب. القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٤٠؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٤١؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٥٠-١٥١.

٤٧- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٥١-١٥٣؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٢٩٩-٣٠٣؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٤٥-٤٧؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 287.

٤٨- حافظ وهبة. خمسون عامًا في جزيرة العرب. ص ٥٧-٦٠.

٤٩- Rutter E. The Holy Cities of Arabia, vol, 2, pp. 29-33.

٥٠- Philby H. Saudi Arabia, p, 287.

٥١- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٥٤-١٥٥؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٥٥-٦٥؛ نصيف، ماضي الحجاز...، ص ١٤٣؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٣٠٤-٣٠٩؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 288.

٥٢- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٥٦؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٦٩؛ حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٧٣.

٥٣- نصيف، ماضي الحجاز...، ص ١٤١-١٤٣؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٧٢-٧٩.

٥٤- نصيف، ماضي الحجاز...، ص ١٥٦-١٦٧؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٧٥-٧٦.

٥٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٦٦-١٦٧.

٥٦- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٦١.

٥٧- «أم القرى»، ١٩٢٤/١٢/١٢.

٥٨- الخطيب. الإمام العادل. ص ٩٢-٩٤.

٥٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٦٨-١٦٩.

٦٠- «أم القرى»، ١٩٢٥/١/١٠؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٦٦.

٦١- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٠١.

٦٢- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٣٤٤
٦٣- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٠٦.
٦٤- نفس المرجع، ص ١٠٣-١٠٧.
٦٥- نفس المرجع، ص ٩٨-٩٩؛ وزارة الخارجية. صحيفة تاريخية من المفاوضات الأخيرة. مكة، ١٩٢٥؛ حافظ وهبة، جزيرة العرب...، ص ٢٧٥.
٦٦- Clayton G. An Arabian Diary. Berkley. Los Angelos 1969, pp. 130-131.
٦٧- Dickson H. Kuwait..., p. 284.
٦٨- Clayton G. An Arabian Diary, pp. 99-129; وزارة الخارجية. مجموعة المعاهدات...، ص ١٠-١٧.
٦٩- الريحاني. تاريخ...، ص ٣٨٣-٣٨٧ Philby H.Saudi Arabia, p. 290; نصيف، ماضي الحجاز...، ص ٢٠٤-٢١٣.
٧٠- ابن هذلول. تاريخ...، ص ١٧٣-١٧٧؛ «أم القرى»، ١٩٢٥/٩/١٣؛ الريحاني. تاريخ...، ص ٣٩٢؛ Philby H. Saudi Arabia, pp. 289-290.
٧١- أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ١٩٢٦، الإضبارة ١٢٧، رقم ١، كراسة ٦، ص ٤-٦.
٧٢- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٣٣-١٣٥؛ «أم القرى»، ٨، ١٩٢٦/١/١٥.
٧٣- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٣٧.
٧٤- Philby H. Saudi Arabia, p. 301.
٧٥- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٤٣؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 301.
٧٦- وكالة تاس، ١٩٢٦/٩/٢٧، النشرة اليومية، رقم ١٥.
٧٧- أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ١٩٢٩، الإضبارة ١٢٧، رقم ١، كراسة ٢-١٨، ص ٣-٥؛ ١٠.

الفصل الثاني عشر

١- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٢٦٤-٢٧١.
٢- Philpy, H. Arabian Jubilee, p. 82.
٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 305.
٤- نفس المرجع، ص ٣٠٤-٣٠٥.
٥- نفس المرجع.
٦- «أم القرى»، ١٩٢٦/٩/١٣؛ Laoust H. Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimija. Le Caire, 1939, PP. 624-630.
٧- «أم القرى»، ١٩٢٥/٤/١.

٨- Wahba Hafiz. Arabian Day, London, 1964, p. 98.

٩- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٢.

١٠- Philby H. St. - J. A. Pilgrim .in Arabia, London, 1946, pp. 60-63.

١١- Wahba H. Arabian Days, p. 20.

١٢- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٦٦-٦٩؛ Wahba H. Arabian Days, pp. 95-96.

١٣- «أم القرى»، ١٩٢٥/٩/٢٥.

١٤- حافظ وهبة، جزيرة العرب...، ص ٣٠٩-٣١٢.

١٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٨٤-١٨٥.

١٦- Toynbee A. J. Survey of International Affairs. pp. 312-319.

١٧- محمد شفيق مصطفى. رحلة في قلب نجد والحجاز. القاهرة، ١٩٢٧، ص ٤١.

١٨- «أم القرى»، ١٩٢٦/٤/٢٣.

١٩- حافظ وهبة، جزيرة العرب...، ص ٣٠٩-٣١٢.

٢٠- فؤاد حمزة. البلاد...، ص ٢١٦؛ حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٢٧١.

٢١- «أم القرى»، ١/٢٨، ١١؛ ٢/٢٥، ٤؛ ١١، ١٩٢٧/٣/١٨؛ ١٩٢٨/٨/٢٧.

٢٢- «أم القرى»، ١٩٢٩/٨/٢.

٢٣- أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ١٩٢٩، الإضبارة ١٢٧-١-٢، كراسة ١٨، ص ١٩.

٢٤- Dickson H. Kuwait..., pp. 285-286; Dickson H. The Arab or the Desert. p. 353; Rihani A. Ibn Saoud..., pp. 192-193.

٢٥- Dickson H. Kuwait..., p. 281.

٢٦- Glubb J. B. War in the Desert, p. 178; الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٧٠.

٢٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٦٤-٤٦٥.

٢٨- نفس المرجع، ص ٤٦٨-٤٦٩.

٢٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٨٥-١٨٦؛ حافظ وهبة، جزيرة العرب...، ص ٢٩١؛ Armstrong H. Lord of Arabia. p, 216.

٣٠- «أم القرى»، ١٩٢٧/٤/٨؛ حافظ وهبة، جزيرة العرب...، ص ٢٩٣.

٣١- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٨٧-١٩٠.

٣٢- «لغة العرب»، آب/أغسطس، ١٩٢٧، ص ١٢٣، تشرين الثاني/نوفمبر، ص ٥٧٤-٥٧٥.

٣٣- Dickson H. Kuwait..., p. 287. غير أن الزركلي يشير إلى أن خالد بن محمد حارب الإخوان، وإن كان من المحتمل أن ابن سعود «عفا عنه» وأعطاه فرصة لإثبات ولائه. (شبه الجزيرة...، ص ٤٩٤).

٣٤- Great Britain. Colonial Office. Report by His Britannic Majesty's Government on the Administration of Iraq for the Period April 1923 - November 1924, London, 1925, p. 24.

٣٥- Glubb J. B. War in the Desert , p. 193.

٣٦- Philby H. Saudi Arabia, p. 306; Dickson H. Kuwait...,p. 294.

٣٧- Philby H. Saudi Arabia, p. 306 ; حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٩٠.

٣٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 306; Dickson H. Kuwait..., p. 287.

٣٩- Dickson H. Kuwait..., pp. 288-289.

٤٠- Glubb J. B. War in the Desert, p. 195.

٤١- نفس المرجع، ص ٢٠٠.

٤٢- نفس المرجع، ص ٢٠١-٢٠٢.

٤٣- «Daily Telegraph», London, 27. 3. 1928.

٤٤- «أم القرى»، ١٩٢٨/٤/١٣.

٤٥- Philby H. Saudi Arabia, p. 307; Glubb J. B. War in the Desert, pp. 209-225.

٤٦- Philby H. Saudi Arabia, p, 308.

٤٧- Glubb J. B. War in the Desert, p. 267.

٤٨- «أم القرى»، ١٠/٢، ١٩٢٨/١٢/١٨.

٤٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩١؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٧٧.

٥٠- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٣٠٢.

٥١- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٢.

٥٢- Glubb J. B. War in the Desert, pp. 236-247, 264-267, 281- 284; «لغة العرب»، أيار/ أبريل ١٩٢٩، ص ٣٥١-٣٥٢.

٥٣- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٢.

٥٤- نفس المرجع، ص ١٩٣.

٥٥- Glubb J . B. War in the Desert, pp. 287-289; Philby H. Saudi Arabia, p. 309.

٥٦- Dickson H. Kuwait..., pp. 302-303; Philby H. Saudi Arabia, p. 309.

٥٧- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٣-١٩٤؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 309.

٥٨- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٣٠٤.

٥٩- الأحسائي. تاريخ ....، ص ٢٣٠؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 310.

٦٠- Dickson H. Kuwait..., pp. 305-306.

٦١- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ٢٩٣-٣٠١.

٦٢- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٩١.

٦٣- Philby H. Saudi Arabia, pp. 309-310.

٦٤- Dickson H. Kuwait..., pp. 313-315.

٦٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٥-١٩٦.

٦٦- Glubb J. B. War in the Desert, p. 306.

٦٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٩٦.

٦٨- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٦-١٩٩؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٩٩-٥٠٤.

٦٩- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٩؛ Glubb J. B. War in the Desert, pp. 313-314; Dickson H. Kuwait..., pp. 306-318.

٧٠- Glubb J. B. War in the Desert, pp . 320-326; Dickson H. Kuwait..., pp . 317-320.

٧١- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ١٩٩.

٧٢- Dickson H. Kuwait..., pp. 319-320.

٧٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 311; Dickson H. Kuwait..., pp. 323-324; الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٠٤-٥٠٥.

٧٤- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٢٠١-٢٠٣؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٠٧.

٧٥- Dickson H. Kuwait..., pp. 326-327.

٧٦- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٠٧.

٧٧- Wahba H. Arabian Days, p. 145.

٧٨- ذهب بيرشيتس إلى أن هزيمة الإخوان كانت ضربة تلحق بدسائس الرجعية المحلية والأجنبية (بيرشيتس، الاقتصاد...، ص ٢١٨)

٧٩- Philby H. Saudi Arabia, p. 312; وزارة الخارجية. مجموعة المعاهدات ....، ص ٦٨-٧٢.

٨٠- المملكة العربية السعودية في عهدها الحاضر. المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر، جدة، ص ٢٥٨.

٨١- Philby H. Saudi Arahia, pp, 314-315; صلاح الدين المختار. تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، بيروت، ١٩٥٧، ج ٢، ص ٤٥٣.

٨٢- الخطيب. الإمام العادل. ص ١٦١-١٦٣.

٨٣- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٢٠٤-٢٠٧.

٨٤- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٥٧-٥٥٩.

٨٥- ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٢٠٧-٢١٣.

٨٦- «أم القرى»، ١٩٣٢/٨/٥؛ الخطيب. الإمام العادل. ص ٢٠٤.
٨٧- «أم القرى»، ١٩٣٢/٨/٥؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٢١٢-٢١٣..
٨٨- انظر: لوسنكو ف. ي. الصراع السعودي اليمني حول عسير. تاريخ واقتصاد بلدان المشرق العربي وافريقيا الشمالية، موسكو ١٩٧٥، ص ٢٩٤-٢٩٨ (باللغة الروسية)؛ «لغة العرب» تموز/يوليو، ١٩٢٦، ص ٥٤؛ أمين سعيد. ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم. القاهرة، ١٩٣٣، ص ١٣٦-١٣٨؛ Philby H. Arabian Jubilee, pp. 127-128.
٨٩- أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ١٩٣٢، الإضبارة ١٢٧، رقم ١، كراسة ٣-٢٩، ص ٣-٤.
٩٠- الخطيب. الإمام العادل. ص ٢٠٧؛ ابن هذلول. تاريخ ....، ص ٢١٣-٢١٦.
٩١- دساتير دول الشرقين الأوسط والأدنى، موسكو، ١٩٥٦، ص ٤٣٧-٤٣٨ (باللغة الروسية).
٩٢- فؤاد حمزة. البلاد...، ص ٨٤-٨٧؛ دساتير دول...، ص ٤٣١-٤٣٧؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 325.
٩٣- الخطيب. الإمام العادل. ص ٢٢١-٢٢٣.
٩٤- حول تفاصيل الأزمة السعودية اليمنية انظر: لوسنكو ف. الصراع السعودي اليمني...؛ Wenner M. W. Modern Yemen, 1918 -1966, Baltimore, 1967; Faroughy A. Introducing Yemen. New York, 1947; De Gaury G. Faisal سليم رشيد مصطفى...، تكوين اليمن الحديث. القاهرة، ١٩٦٣.
٩٥- أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ١٩٣٤، الإضبارة ١٢٧، رقم ١، كراسة ٣-٣٤، ص ١.

الفصل الثالث عشر

١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٦٥٠.
٢- Lipsky G. A. Saudi Arabia. Its People, Its Society, Its Culture, New Haven, 1959, p. 311.
٣- Laoust H. Essai..., p. 294.
٤- نفس المرجع، ص ٣١٠.
٥- نفس المرجع، ص ٣٠٠-٣٠١.
٦- Laoust H. Le traité de droit public d'Ibn Taimiya. Beirut, 1948, pp. 169-170.
٧- محمد فتيح المدني. فرقة الإخوان الإسلامية بنجد. القاهرة، ١٣٤٢ هـ، ص ٣٥.
٨- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٢٩٠-٢٩٢.

٩- Rihani A. Ibn Saoud..., pp.. 204 - 206.

١٠- Laoust H. Essai..., pp. 316-317.

١١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٧٥.

١٢- نفس المرجع، ص ٧٤٣-٧٤٤.

١٣- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1, p. 297.

١٤- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ١٢٩-١٣٢.

١٥- ARAMCO. The Royal Family, official. of the Saudi Arab Government List and Prominent Saudi Arabs. Dhahran, 1953, pp. 30-31.

١٦- الزركلي. الأعلام ـ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب. القاهرة، ١٣٧٦ هـ، مجلد ١، ص ٢٧٧.

١٧- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1, pp. 76, 360.

١٨- فؤاد حمزة. قلب...، ص ٧٢.

١٩- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٣٥٥-٣٥٦.

٢٠- Nallino C. Raccolta di Scritti. Vol. 1. L'Arabia Sa'udiana. Rome, 1939, pp. 20-22.

٢١- فؤاد حمزة. قلب...، ص ٧٣.

٢٢- نفس المرجع، ص ٧٤.

٢٣- Nallino C. Raccolta..., Vol. 1 , pp. 66-68, 74-76.

٢٤- Mac-Kie Frood A. Recent Economic and Social Developments in Saudi Arabia, - «Geographp» 1939, vol. 24, pp. 166-167.

٢٥- محمد توفيق صادق. تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية. معهد الإدارة العامة. الرياض، ١٩٦٥، ص ٢٥-٢٦.

٢٦- دساتير دول الشرقين الأوسط والأدنى، ص ٤٢٦-٤٢٧.

٢٧- نفس المرجع، ص ٤٢٧، ٧٣٠.

٢٨- نفس المرجع، ص ٤٣٠-٤٣٥.

٢٩- انظر: Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 114.

٣٠- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٧١-٥٧٢.

٣١- نفس المرجع، ص ٥٧٣.

٣٢- Lipsky G. Saudi Arabia..,, pp. 114-115.

٣٣- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٥٧٧.

٣٤- نفس المرجع، ص ٣٦٨.

٣٥- نفس المرجع، ص ٣٨٢-٣٨٣.

٣٦- نفس المرجع، ص ٣٧٥.

٣٧- نفس المرجع، ص ٢٧٦.
٣٨- نفس المرجع، ص ٣٧٧-٣٧٨.
٣٩- فؤاد حمزة. قلب...، ص ٧٨؛ صبحي المحمصاني. الأوضاع التشريعية في الدول العربية ماضيها وحاضرها. الطبعة الثانية. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢، ص ٣١٩-٣٢٠.
٤٠- فؤاد حمزة. قلب...، ص ٧٨.
٤١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٥٤.
٤٢- نفس المرجع، ص ٣٥٨.
٤٣- نفس المرجع، ص ٣٥٩.
٤٤- نفس المرجع، ص ٤٠٢.
٤٥- نفس المرجع.
٤٦- نفس المرجع، ص ٤١٢.
٤٧- بروشين ن. ي. العربية السعودية. موسكو، ١٩٦٤، ص ٨٧ (باللغة الروسية).
٤٨- Mac-Kie Frood A. Recent..., pp. 166-167.
٤٩- دساتير دول الشرقين الأوسط والأدنى، ص ٤٣٧.
٥٠- Philby.H. Saudi Arabia, p. 294.
٥١- نفس المرجع، ص ٢٩٤-٢٩٥.
٥٢- نفس المرجع، ص ٢٩٦؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٣٦٧.
٥٣- «لغة العرب»، ١٩١٤،كانون الثاني/يناير، ص ٣٥٥.
٥٤- خير الدين الزركلي. ما رأيت وما سمعت، رحلة من دمشق إلى مكة ومصر. القاهرة، ص ٢٧-٢٨.
٥٥- Musil A. The Manners..., p. 431.
٥٦- Dickson H. The Arab..., pp. 118-132; Musil A. The Manners..., pp. 438-452; Wahba H. Arabian Days, p. 14.
٥٧- Dickson H. The Arab..., pp. 431-440; Hess J. J. Von den Beduinen des innern Arabiens. Luerick, 1938, p. 90; Musil A. The Manners..., pp. 489-503.
٥٨- «لغة العرب»، ١٩١٤،كانون الثاني/يناير، ص ٣٥٦؛ الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٢٠.
٥٩- Memorial..., Vol. 2, pp . 226-231,
٦٠- Harrison P. W. The Arab at Home, p. 150.
٦١- فؤاد حمزة. البلاد...، ص ١٨٨.
٦٢- Vidal F. S. The Oasis of al - Hasa. Dhahran, 1955, p. 34.

٦٣- نفس المرجع، ص ٢٠٩.
٦٤- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٧١-٧٥.
٦٥- Vidal F. S. The Oasis..., p. 34.
٦٦- Harrison P. W. The Arab..., pp. 229-230.
٦٧- Vidal F. S. The Oasis..., p. 96.
٦٨- عبد الله عبد الجبار. التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية. القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٢٥-١٢٦.
٦٩- المجموعة العلمية السعودية، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١-١٥.
٧٠- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٣٠٠-٣٠١.
٧١- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1, pp, 294-295.
٧٢- فؤاد حمزة. البلاد...، ص ١٩٠-١٩١.
٧٣- «أم القرى»، ١٩٢٧/٨/١٩؛ المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٢٨-٣٢٩.
٧٤- المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٢٧.
٧٥- نفس المرجع، ص ٣٢٩.
٧٦- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٢٦.
٧٧- «أم القرى»، ١٩٢٧/٨/١٩.
٧٨- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٤٢٥؛ المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٢٨-٣٢٩.
٧٩- عبد الجبار. التيارات...، ص ١٢٦.
٨٠- «لغة العرب»، كانون الثاني/يناير، ١٩١٤، ص ٣٥٥-٣٥٦؛ المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٢٩-٣٣٢.
٨١- «أم القرى»، ١٩٢٧/٨/١٩.
٨٢- المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٣٠-٣٣١.
٨٣- Baroody G. M. Grime and Punishment under Haubali Law. Dhahran, 1961, pp. 35.41.
٨٤- Hart P. Application of Haubali Law and Decree Law to Foreigners in Saudi Arabia. - «The George Washington Law Review», vol. 22, December 22, 1953, pp. 165-173; Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 122.
٨٥- Baroody G. M. Crime..., pp. 89-101.
٨٦- Area Handbook for Saudi Arabia. Washington, US Government, 1966, p. 194.
٨٧- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 122.
٨٨- Baroody G. M. Crime..., pp, 105-107; Area Handbook..., p. 194.

٨٩- Memorial... Vol. 2, pp. 291-292.

٩٠- نفس المرجع، ص ٣٢٩؛ «أم القرى»، ١٩٢٥/٩/١٨.

٩١- Memorial... Vol. 2, pp. 292-293.

٩٢- نفس المرجع، ص ٣٠٦-٣٠٨.

٩٣- نفس المرجع، ص ٣٢٠-٣٢١.

٩٤- Rihani A. Ibn Saoud..., pp. 202-204.

٩٥- Philby H. Arabia of the Wahhabis, p . 21.

٩٦- نفس المرجع، ص ٢١٧-٢١٨.

٩٧- Dickson H. The Arabs..., pp. 442-443.

٩٨- نفس المرجع، ص ٤٤٠.

٩٩- Memorial..., Vol. 2, p. 318.

١٠٠- Philby H. The Heart of Arabia. Vol. 1, p. 6.

١٠١- المدني. فرقة الإخوان...، ص٤٢ ـ ٤٣.

١٠٢- Wahba H. Arabian Days, pp. 67-69.

١٠٣- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٧٥٨.

١٠٤- نفس المرجع، ص ١٤٢٠.

١٠٥- المدني. فرقة الإخوان...، ص ٤٣.

١٠٦- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ١٤٥-١٤٧.

١٠٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٤١٩.

١٠٨- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ١١٠-١١٣.

١٠٩- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٨٧.

١١٠- نفس المرجع، ص ١٧٧-١٧٨.

١١١- Lebkicher R. Rents G. and Steinekc M. The Arabia of Ibn Saud. New York, 1952, pp. 86-88..

١١٢- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٧٨.

١١٣- نفس المرجع، ص ٤٥٨.

١١٤- «أم القرى»، ١٩٥٠/٧/٢٠.

١١٥- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٩٩١.

١١٦- نفس المرجع، ص ٩٨٩، ٩٩٠-٩٩١.

١١٧- نفس المرجع، ص ٧٥١.

١١٨- نفس المرجع، ص ٤١٢.

١١٩- «لغة العرب»، ١٩١١، حزيران/يونيو، ص ١٦-٢٥.

١٢٠- Rihani A. Ibn Saoud..., p. 207.

١٢١- حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ٥٠.

١٢٢- فهد المارك. لمحات من التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين. دمشق، ١٩٦٢، ص ١٥-١٦.

١٢٣- Rihani A. Ibn Saoud..., pp. 96-99.

١٢٤- Wahba H. Arabian Days, p. 77.

١٢٥- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٠٢٣، ١٠٢٥.

١٢٦- عبد الجبار. التيارات...، ص ١٥٥-١٥٦.

١٢٧- نصيف، ماضي الحجاز...، ص ١١٢.

١٢٨- نفس المرجع.

١٢٩- المارك. لمحات...، ص ١٥٦-١٥٧.

١٣٠- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٠٢٥.

١٣١- «أم القرى»، ١٩٢٩/١/٢٥؛ ١٩٢٩/٢/١ فؤاد حمزة. البلاد...، ص ٢٢٠-٢٢٣.

١٣٢- Trial G. and Winder R. Modern Eduation in Saudi Arabia. « History of Education Journal» (Spring, 1950), pp. 121-134.

١٣٣- Wahba H. Arabian Days, pp, 173, 49-51.

١٣٤- Vidal F. S. The Oasis..., p. 33.

١٣٥- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٠٢٦-١٠٢٨.

١٣٦- نفس المرجع، ص ٦٣٥-٦٣٦.

الفصل الرابع عشر

١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٣٧؛ حافظ وهبة. جزيرة العرب...، ص ١٣٦؛ Philby H. Arabian Jubilee, pp. 170-175; Tomishé F. - J. L'Arabie Séoudite. Paris. 1962 p.., 56.

٢- Philby H. Saudi Arabia, p. 330.

٣- Philby H. Arabian Jubilee, p. 177; Philby H. Saudi Arabia, p.330.

٤- Klebanoff Sh. Middle East Oil and US Foreign Policy. NewYork, 1974, p. 4.

٥- نفس المرجع، ص ٥.

٦- نفس المرجع، ص ٧.

٧- Philby H. Saudi Arabia, p. 329; Rihani A. Ibn Saoud..., pp. 79-88; Knauerhase R.

The Saudi Arabian Economy. New York, I975, p. 157; Philby H. Arabian Jubilee, p. 177.

٨- Philby H. Saudi Arabia, p. 329.

٩- ARAMCO .Handbook; Oil and the Middle East. Dhabran, 1968, pp. 108-109.

١٠- نفس المرجع، ص ١٠٩-١١٠.

١١- Twitchell K. S. Saudi Arabia. Princeton, 1958, pp. 220-224.

١٢- Philby H. Saoudi Arabia, p. 331; Philby H. Arabian Jubilee, pp. 177-178; Longrigg G. H. Oil in the Middle East. London, 1965, pp. 107-108.

١٣- Howarth D. The Desert King. London, 1964, p. 182.

١٤- ARAMCO Handbook..., p. 111.

١٥- Philby H. Saudi Arabia, p. 331.

١٦- «أم القرى»، ١٩٣٣/٧/١٤.

١٧- ARAMCO Handbook ..., p. 113-114.

١٨- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy. p. 163.

١٩- نفس المرجع، ص ١٩٤.

الفصل الخامس عشر

١- بروشين ن. العربية السعودية، ص ٩٨-١١٢.

٢- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ١٢١.

٣- بروشين ن. العربية السعودية، ص ١٠٠.

٤- مينايف. النشاط التخريبي للفاشية الألمانية في الشرق الأوسط. موسكو، ١٩٤٢، ص ٤٧ (باللغة الروسية).

٥- حافظ وهبة. خمسون عامًا...، ص ١٠٨-١٠٩.

٦- نفس المرجع، ص ١١١.

٧- Twitchell K. S. Saudi Arabia, pp. 167-168 ; Assah Ahmed. Miracle of the Desert Kingdom. London, 1969, PP. 64-65.

٨- انظر: بروشين. العربية السعودية، ص ١٠٣.

٩- مينايف. النشاط التخريبي...، ص ٤٨.

١٠- بروشين. العربية السعودية، ص ١٠٤.

١١- نفس المرجع.

١٢- مينايف ف. النشاط التخريبي...، ص ٤٨.

١٣- Philby H. Saudi Arabia, p. 337.

١٤- بروشين. العربية السعودية، ص ١٠٦.

١٥- Shwadran B. The Middle East, Oil and the great Powers, New York, 1956. pp, 318-319, 324,

١٦- Klebanoff Sh. Middle East Oil.., p. 14.

١٧- نفس المرجع، ص ١٠.

١٨- نفس المرجع، ص ١٧.

١٩- بيرلوف. الإمبريالية الأميركية. موسكو، ١٩٥١ (ترجمة من الإنكليزية إلى الروسية)، ص ٢٢٧.

٢٠- Shwadran B. The Middle East..., p. 319.

٢١- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 194.

٢٢- De Gaury G. Faisal..., p. 68; Klebanoff Sh, Middle East Oil..., p. 21; Lenczowsky G. The Middle East in World Affairs. New York, 1956, p. 442.

٢٣- Klebanoff Sh. Middle East Oil..., p. 22,

٢٤- نفس المرجع، ص ٢٣؛ ARAMCO Handbook..., p. 86.

٢٥- ARAMCO Handbook..., p. 113.

٢٦- Lenczowsky G. The Middle East..., p, 442; بروشين. العربية السعودية، ص ١٠٩.

٢٧- تفاصيل اللقاء مذكورة في كراس إيدي؛ (Eddy W. A. F. D. R. Meets Ibn Saud, New York, 1954).

٢٨- Eddy W. A. F. D. R. Meets Ibn Saud, p. 35.

٢٩- نفس المرجع، ص ٤٢.

٣٠- Area Handbook..., p. 172.

٣١- Klebanoff Sh. Middle East Oil..., p. 57.

الفصل السادس عشر

١- ARAMCO Handbook..., p. 113.

٢- أوزلنغ ف. اقتصاد العربية السعودية، موسكو، ١٩٧٥، ص ١٣١ (باللغة الروسية). Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 196.

٣- ARAMCO Handbook..., p. 77.

٤- أوزلنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١١١. Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 168.

٥- ARAMCO Handbook..., p. 148.

٦- Longrigg S. H. Oil..., p. 208.

٧- ARAMCO Handbook..., pp. 111-112; Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 193.

٨- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 180.

٩- نفس المرجع، ص ١٦٣.

١٠- انظر: فاسيليف أ. «مشاعل الخليج»، موسكو، ١٩٧٦، ص ٨٧-٩١.

١١- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, pp. 180-181; Area Handbook..., p. 246.

١٢- Area Handbook..., p. 246..

١٣- أوزلنغ. اقتصاد العربية السعودية...، ص ١٢٣؛ Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 181.

١٤- أوزلنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٥٣-١٥٤.

١٥- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, pp. 164-165.

١٦- بروشين. العربية السعودية، ص ١١٧.

١٧- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 168.

١٨- Kesing's Contemporary Archives (KCA). Bristol, p. 13655.

١٩- بروشين. العربية السعودية، ص ١١٣.

٢٠- Howarth D. The Desert King, p. 214; Philby H. Forty Years in the Wilderness. London, 1957, pp. 8, 38-39.

٢١- أمين سعيد. تاريخ الدولة السعودية. بيروت، ١٩٦٤، ج٣، ص ٢٣.

٢٢- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٩٨٦.

٢٣- نفس المرجع، ص ١٤٣٣.

٢٤- نفس المرجع، ص ١٤٣٣؛ De Gaury G. Faisail..., p. 78.

٢٥- أمين سعيد. تاريخ...، ج٣، ص ٥؛ Philby H. Saudi Arabia, p. 358; De ·Gaury G. Faisal..., pp. 78-80.

٢٦- De Gaury G. Faisal..., p. 80.

٢٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٤٠٢.

٢٨- نفس المرجع، ص ٩٥٤.

٢٩- Howarth D. The Desert King, p. 231.

٣٠- أمين سعيد. تاريخ...، ج٣، ص ١٦-١٧.

٣١- نفس المرجع، ص ٤٠.

٣٢- «الحركة النقابية العالمية»، موسكو، ١٩٥٤، رقم١، ص ١٧ (باللغة الروسية).

٣٣- Cheney M. S. Big Oilman from Arabia. London - New York, 1958, p. 266; بيلايف

أي. الإمبريالية الأميركية في العربية السعودية. موسكو، ١٩٥٧، ص ١٧٨-١٨٥ (باللغة الروسية)؛ بروشين. العربية السعودية، ص ٢٨٤-٢٨٦.

٣٤- جحيم الحكم السعودي. جبهة الإصلاح الوطني في السعودية، ١٩٥٧، ص ٣٢، ١٠٦، ٣٠٩، ٣١٩.

٣٥- نفس المرجع، ص ١٠٨، ١٢٥. Cheney M. Big Oilman..., p. 69. بروشين. العربية السعودية، ص ٢٧٧، ٢٨٩-٢٩٠.

٣٦- جحيم الحكم السعودي. جبهة الإصلاح الوطني في السعودية، ١٩٥٧، ص ٨٢-٨٣، ٩٤-٩٥، ١٠٦-١١١، ١٢٥-١٣٠، ٣٠٩، ٣١٩؛ «قضايا السلم والاشتراكية»، براغ، ١٩٦٢، رقم ٥، ص ٩٢ (باللغة الروسية).

٣٧- Labor Law and Practice in the Kingdom. of Saudi Arabia. U.S. Department of Labor. Bureau of Labor Statisitcs. Washington, 1972, p. 58.

٣٨- Howarth D. The Desert King, p. 231.

٣٩- نفس المرجع، ص ٩٩-١٠٠، ١٧٩.

٤٠- جحيم الحكم السعودي، ص ١٢؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٤٤.

٤١- جحيم الحكم السعودي، ص ١٣-١٤؛ «Arab Observer», Cairo, 13. 9. 1961, pp. 7-8.

٤٢- Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 175-177; Philby II. FortyYears..., pp. 168-169; «Newsweek», New York, 8.7.1963. p. 40; «Saturday Evening Post», Indianopolis, 30.9.1957. جحيم الحكم السعودي، ص ٤٨، ٢٥٥-٢٧٣.

٤٣- Philby H. Forty Years..., p. 171.

٤٤- بروشين. العربية السعودية، ص ١٦١.

٤٥- نفس المرجع، ص ١٦١.

٤٦- جحيم الحكم السعودي.

٤٧- نفس المرجع، ص ٢٢٩.

٤٨- نفس المرجع، ص ٦، ٦٥-٦٦، ٢٣٢.

٤٩- Cheney M. Big Oilman..., p. 282; Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 282.

٥٠- Philby H. Forty Years..., p. 34.

٥١- Twitchell K. S. Saudi Arabia, p. 187; «أم القرى»، ١٩٦٢/١٢/٣٠.

٥٢- Toy B. A. Fool Strikes Oil Across Saudi Arabia. London, 1957, p. 134; Cheney M. Big Oilman..., p. 284.

٥٣- جحيم الحكم السعودي. ص ١٣٩؛ «Arab Observer», 13.11.1961; p. 8; Cheney M. Big Oilman..., pp. 284-285.

٥٤- بروشين. العربية السعودية، ص ١٥٧.
٥٥- نفس المرجع، ص ١٤٣-١٤٤؛ «المصور»، القاهرة، ١٩٦٢/١٠/١٣، ص٣١.
٥٦- جحيم الحكم السعودي. ص ٦٦؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٦٤-١٦٥.
٥٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٧٧٣-٧٧٨.
٥٨- محمد عبد الله ماضي. النهضات الحديثة في جزيرة العرب. القاهرة ١٩٥٢، ص ٢٢٧-٢٥٣، ٢٥٩-٢٧٤.
٥٩- Dickson H. Kuwait...,p. 391.
٦٠- Philby H. Arabian Jubilee, pp. 212-214.
٦١- Eddy W. A. F.D.R. Meets Ibn Saud, p, 37. Howarth D. The Desert King, p. 253.
٦٢- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 17; Philby H. Forty Years..., p. 202.
٦٣- بروشين. العربية السعودية، ص ١٢٣.
٦٤- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 173; Area Handbook..., p. 173.
٦٥- سياسة الولايات المتحدة الأميركية في الشرق العربي. موسكو، ١٩٦١، ص ٢٣٨-٢٣٩ (باللغة الروسية).
٦٦- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٩٣.
٦٧- نفس المرجع، ص ١٣٩٤.
٦٨- نفس المرجع، ص ١٣٩٥.
٦٩- نفس المرجع.
٧٠- Hurewitz J. C. Middle East Politics: the Military Dimension. New York, 1969, p. 251.
٧١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٩٦-١٣٩٧.
٧٢- نفس المرجع، ص ١٣٩٨؛ سياسة الولايات المتحدة الأميركية ص ٢٤٤-٢٤٥.
٧٣- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٩٩.
٧٤- نفس المرجع، ص ١٢٩٩؛ أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ١٠٧.
٧٥- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ١٠٩. الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٤٠٠.
٧٦- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ١٢٠-١٢١؛ سياسة الولايات المتحدة الأميركية ص ٢٤٥-٢٤٦.
٧٧- Area Handbook..., p. 169.
٧٨- عن الوضع في عمان إبّان تلك المرحلة راجع: كوتلوف ل. الثورة التحررية في عمان في أعوام ١٩٥٧-١٩٥٩.. البلدان العربية، تاريخها واقتصادها. موسكو، ١٩٧٠، ص ٤٨-٧٨ (باللغة الروسية)؛ The Arabian Peninsula: Society and Politics. Ed by Derek Hopwood. London, 1972, pp. 107-141.

٧٩- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٦٨؛ كوتلوف ل. الأردن في العصر الحديث. موسكو، ١٩٦٢، ص ٧٤-٧٧، ٨٠-٨١ (باللغة الروسية).

٨٠- ماضي. النهضات...، ص ٢٠٧.

٨١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٦٨.

٨٢- كوتلوف. الأردن...، ص٩٩.

٨٣- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٦٨؛ كوتلوف. الأردن...، ص٩٩.

٨٤- Lipsky G. Saudi Arabia..., pp, 141-142.

٨٥- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ١٦-١٧.

٨٦- نفس المرجع، ص ١٢٣-١٢٤.

٨٧- نفس المرجع، ص ١٢٨؛ Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 143.

٨٨- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ١٢٩-١٣٤.

٨٩- نفس المرجع، ص ١٣٩-١٤٤.

٩٠- نفس المرجع، ص ٨٩.

٩١- نفس المرجع، ص ١٦٤-١٦٩.

٩٢- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 142.

٩٣- انظر: كولينا أ. مذهب أيزنهاور؛ إخفاق مذهب أيزنهاور. موسكو، ١٩٥٧ (باللغة الروسية).

٩٤- توغانوفا أ و سياسة الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا...، ص ١١١ (باللغة الروسية).

٩٥- «New York Herald Tribuue», 2.9.1957: Area Handbook..., p. 173: Halliday F. Arabia Without Sultans. Londoo, 1974, p. 54-55: de Gaury G. Faisal..., p, 83.

٩٦- De Gaury G. Faisal..., p. 83.

٩٧- «برافدا»، موسكو، ١٩٥٧/٣/٢ (باللغة الروسية).

٩٨- Area Handbook..., p. 165.

٩٩- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٢٠٧-٢٠٨.

١٠٠- كوتلوف. الأردن...، ص ١٩٦-٢٢٠.

١٠١- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٢١١.

١٠٢- نفس المرجع، ص ٢٠٣-٢٠٥.

١٠٣- سياسة الولايات المتحدة الأميركية...، ص ٢٤٧.

١٠٤- كوتلوف. الأردن...، ص ٢٢٩.

الفصل السابع عشر

١- Lipoky G. Saudi Arabia..., p. 139.

٢- De Gaury G. Faisal..., p. 92.

٣- نصير السعيد. الرسالة...، ص ٤٨-٥٦، ٦١-٦٢.

٤- De Gaury G. Faisal..., p. 91-92.

٥- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٢٣٩.

٦- بروشين. العربية السعودية، ص ١٦٦.

٧- De Gaury G. Faisal..., p. 93.

٨- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٢٣٩.

٩- سياسة الولايات المتحدة الأميركية...، ص ٢٥٣.

١٠- بروشين. العربية السعودية، ص ١٦٩.

١١- نفس المرجع.

١٢- نفس المرجع، ص ١٧٠-١٧٦.

١٣- أوزولنغ. العربية السعودية، ١٩٦٨، ص ١٠٦-١٠٧ (باللغة الروسية)؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٧٢.

١٤- «Middle East Record». Jerusalem, 1960, vol. 1, p. 372

١٥- أوزولنغ. العربية السعودية، ص ١٠٧-١٠٨؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٧٢-١٧٣.

١٦- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٢٣٥.

١٧- «Middle East Record». vol. 1, p. 373.

١٨- نفس المرجع، ص ٣٧٤.

١٩- الجمهورية، القاهرة، ١٩٦٠/٥/٢٥.

٢٠- Area Handbook..., p. 153.

٢١- «الحياة»، بيروت، ١٩٦٠/٩/٩؛ «Middle East Record». vol. 1, p. 375.

٢٢- «Middle East Record». vol. 1, pp. 375-376.

٢٣- نفس المرجع، ص ٣٧٦؛ Area Handbook..., p. 153.

٢٤- «Middle East Record». Vol. 2, p. 428; Halliday F. Arabia Without Sultans, p. 59; Area Handbook..., p. 173.

٢٥- Area Handbook..., p. 153.

٢٦- «Middle East Record». vol. 1, p. 327.

٢٧- نفس المرجع، مجلد٢، ص ٤٢٠.

٢٨- نفس المرجع، مجلد٢، ص ٤١٧، ٤٢٠.
٢٩- بروشين. العربية السعودية، ص ١٧٥.
٣٠- «Middle East Record». vol. 2, p. 425.
٣١- نفس المرجع.
٣٢- نفس المرجع، ص ٤٢٦.
٣٣- بروشين. العربية السعودية، ص ١٧٨.
٣٤- نفس المرجع، ص ١٧٧.
٣٥- نفس المرجع، ص ١٧٧.
٣٦- «Middle East Record». vol. 2, p. 422-423.
٣٧- نفس المرجع، ص ٤٢٣.
٣٨- نفس المرجع، ص ٤٢٤.
٣٩- بروشين. العربية السعودية، ص ١٧٩.
٤٠- De Gaury G. Faisal..., pp. 105-107.
٤١- «Middle East Record». vol. 2, p. 424.
٤٢- نفس المرجع، ص ٤٢٧.
٤٣- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٦٦-٦٧؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٨٠؛ Area Handbook..., p. 166.
٤٤- Area Handbook..., p. 170.
٤٥- Schmidt D. A. Jemen: The Unkown War, London, 1968, p. 52.
٤٦- نفس المرجع، ص ٥٢-٥٦.
٤٧- نفس المرجع، ص ٥٠-٥١.
٤٨- نفس المرجع، ص ٥١؛ بروشين. العربية السعودية، ص ١٨٢.
٤٩- أمين سعيد. تاريخ....، ج ٣، ص ٣٠١-٣٠٩.
٥٠- «News week», New York, 8.7.1963, p. 40.
٥١- نفس المرجع.
٥٢- «أم القرى»، مكة، ١٩٦٢/١١/٣٠؛ أوزولنغ. العربية السعودية، ص ٦٨-٩٨.
٥٣- بروشين. العربية السعودية، ص ١٨٦.
٥٤- نفس المرجع.
٥٥- Area Handbook..., p. 154. بروشين. العربية السعودية، ص ١٨٨.
٥٦- «New York Times», 3.11. 1963.
٥٧- Area Handbook..., p. 155.

٥٨- نفس المرجع، ص ١٥٦.

٥٩- نفس المرجع.

٦٠- De Gaury G. Faisal..., pp. 130-135.

٦١- نفس المرجع، ص ١٣٤-١٣٥؛ Area Handbook..., p. 156. Assah A. Miracle, pp. 75-76.

٦٢- «Middle East Record». Vol. 3, p. 452; Halliday F. Arabia..., p. 67; بروشين. العربية السعودية، ص ١٩١.

٦٣- بروشين. العربية السعودية، ص ١٩١.

٦٤- «الكفاح»، بيروت، ١٩٦٣/٥/١٣.

٦٥- Keesing's Contemporary Archives, p. 1965. بروشين. العربية السعودية، ص ١٩٤

٦٦- بروشين. العربية السعودية، ص ١٩٥.

٦٧- Labor Law..., pp. 57-58; Area Handbook..., p. 264.

٦٨- Area Handbook..., p. 198.

٦٩- «Middle East Record». Vol. 3, p. 455; Halliday F. Arabia..., p. 67.

٧٠- «Middle East Record». Vol. 5, pp. 1026-1027.

٧١- نفس المرجع، ص ٤٥٦.

٧٢- نفس المرجع، مجلد ٥، ص ١٠٢٧.

٧٣- نفس المرجع، ص ١٠٢٨-١٠٢٩; Halliday F. Arabia..., p. 69.

٧٤- Halliday F. Arabia..., p. 68; «Middle East Record». Vol. 5, p. 1030.

٧٥- «Middle East Record». vol. 5, p. 1031.

٧٦- Halliday F. Arabia..., p. 69.

٧٧- «Middle East Record», Vol. 5, pp. 1033-1036.

٧٨- نفس المرجع، ص ١٠٢٩.

٧٩- «The Middle East Journal», Washington, 1963, vol. 17, N 1-2, pp. 150-151; Wenner M. W. Modern Yemen..., p. 198.

٨٠- العصر الحديث، موسكو، ١٩٦٣، رقم ٢، ص ٢٢، (باللغة الروسية).

٨١- بروشين. العربية السعودية، ص ١٨٣-١٨٤.

٨٢- Ingrams H. The Yemen. Imams, Rulers and Revolution, London, 1963, pp. 135-137; Wenner M. W. Modern Yemen..., p. 198.

٨٣- Wenner M. W. Modern Yemen..., pp. 199-201; «الأهرام»، القاهرة، ١٩٦٢/١١/٢٩.

٨٤- «The Middle East Journal». 1963; N 1-2, p. 151; Wenner M. W. Modern yemen ..., p, 202.

٨٥- Schmidt D. A. yemen..., pp. 163-164 ; Hurewitz J. C. Middle East Politics..., p, 249.

٨٦- Schmidt D. A. yemen..., p. 163.

٨٧- «The Middle East Journal». 1975; N 1, p. 52; Wenner M. W. Modern yemen..., p, 207.

٨٨- انظر: فالكوفا ل. العربية السعودية في العلاقات الدولية. موسكو، ١٩٧٩، ص ١٢٩-١٣٠ (باللغة الروسية).

٨٩- Schmidt D. A. yemen..., pp. 206-207.

٩٠- «الأهرام»، بيروت، ١٩٦٤/٩/١٥.

٩١- Schmidt D. A. yemen..., p. 207; غيراسيموف أو. غ. الثورة اليمنية ١٩٦٢-١٩٧٥، موسكو، ١٩٧٩، ص ١٢٩-١٣٠، (باللغة الروسية).

٩٢- Halliday F. Arabia..., p. 111.

٩٣- «US News and World Report», Washington, 1965, N 21, pp .67-69.

٩٤- De Gaury G. Faisal..., p. 126; Sullivan R. R. saudi Arabia in International Politics. «Problèmes politiques et sociaux». 1974, N 230, p. 29.

٩٥- انظر: فالكوفا. العربية السعودية ....، ص١٣١.

٩٦- The Times, 4.8.1965.

٩٧- Halliday F. Arabia..., pp, 112-113; غيراسيموف أو. غ. الثورة اليمنية، ص ١٣٠-١٣٢.

٩٨- فالكوفا. العربية السعودية ....، ص ١٣١-١٣٢.

٩٩- Assah A. Miracle..., pp. 88-91; Schmidt D. A. Yemen..., pp .238-239; 275-276; غيراسيموف أو. غ. الثورة اليمنية، ص ١٣٤-١٣٥.

١٠٠- Area Handbook..., p, 172; Halliday F. Arabia..., p. 59. الأمم المتحدة. الجمعية العامة. الدورة السادسة والعشرون، وثيقةأ/رو، ١٩٦٦، ص ٢.

١٠١- غيراسيموف أو. غ. الثورة اليمنية، ص ١٣٦؛ «The New York Times», 25.2.1966; «The Times», 14.6.1966.

١٠٢- «The Egyptian Gazette», Cairo, 23.6.1966..

١٠٣- «أم القرى»، ١٩٦٦/٥/٢.

١٠٤- «The Daily Telegraph and Morning Post», 18, 27.8.1966; «The Guardian». Manchester, 5.10.1966; غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٣٧.

١٠٥- فالكوفا. العربية السعودية ....، ص ١٣٦.

١٠٦- Keesing's Contemporary Archives, p. 22271.

١٠٧- نفس المرجع، ص ٢٢٢٧٦.

١٠٨- نفس المرجع، ص ٢٢٥٤٧.

١٠٩- انظر: فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٣٨.

١١٠- «الأهرام»، القاهرة، ١٩٦٧/١١/١٢؛ Keesing's Contemporary Archives, p. 22547; غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٢٤.

١١١- Keesing's. Contemporary Archives, p. 22548.

١١٢- نفس المرجع، ص ٢٢٥٤٨-٢٢٥٤٩؛ «الأهرام»، القاهرة، ١٩٦٨/٣/١؛ Hurewitz J. C. Middle East Politics..., p. 257; Haliday F. Arabia, pp. 118-122.

١١٣- Halliday F. Arabia..., pp, 122-126; غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٤١-١٥٤.

١١٤- غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٥٦-١٥٧.

١١٥- «International Herald Tribune», 24.7.1970.

١١٦- «The Times», 30.7.1970.

١١٧- غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٥٧-١٥٩.

١١٨- فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٤٥-١٤٦.

١١٩- انظر: غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٨٠-١٨١.

١٢٠- «برافدا»، ١٩٦٩/١٢/٢٨؛ غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٨٠-١٨٢.

١٢١- غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٨٢-١٨٤؛ فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٥٤.

١٢٢- غيراسيموف. الثورة اليمنية، ص ١٨٦-١٨٨.

١٢٣- De Gaury G. Faisal..., p. 98.

١٢٤- Area Handbook..., p. 172; Halliday F. Arabia..., pp. 59-60; «The Gurdian», 15.3.1974.

١٢٥- «The Guardian», 5.3.1974; Halliday F. Arabia..., pp. 59-61.

١٢٦- Sullivan R. R. Saudi Arabia..., p. 29.

١٢٧- «International Herald Tribune», 2.3.1971. ميدفيد كول. رياح في الخليج، موسكو، ١٩٧٥، ص ١٧١.

١٢٨- «The Economist». London, 15.4.1969, p. 24.

١٢٩- Keesing's. Contemporary Archives, p. 23072-A.

١٣٠- «The Times», 21.11.1971.

١٣١- «The Times»., 21.12.1971; «International Herald Tribune» 2.12.1971.

١٣٢- فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٩٤.

١٣٣- «The Economist», 2.1.1972, p. 35.

١٣٤- فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٩٥

١٣٥- فاسيليف أ. «مشاعل الخليج»، ص ١٥٧-١٧٣.

١٣٦- «Economist», 21.2.1973; pp. 34-35; Sullivan R. R. Saudi Arabia..., p. 33.

١٣٧- Keesing's Contemporary Archives, p. 24629.

١٣٨- «The Times»..., 3, 4, 6.1.1970.

١٣٩- «الأهرام»، بيروت، ١٩٧١/٧/٢؛ انظر أيضًا: «شعوب آسيا وافريقيا»، موسكو، ١٩٧٥، عدد ٦، ص ٤٥ (باللغة الروسية).

١٤٠- «The Times»..., 31, 8; 9.9.1973; «The Economist», 9.6.1973, pp. 35-36..

١٤١- Assah A. Miracle..., pp. 96-98; «The Economist», 4.4.1966, pp. 1077-1078; «The Egyptian Gazette», 1.2.1966.

١٤٢- «The Times»..., 13.4.1966.

١٤٣- «الأهرام»، ١٩٦٦/٢/٢٣.

١٤٤- فالكوفا. العربية السعودية ...، ص ١٦٨.

١٤٥- «The Times»..., 22.8.1969.

١٤٦- «International Herald Tribune», 1.9.1969.

١٤٧- «Middle East Record». Vol. 5, p. 578. «The Times», 25.9.1969.

١٤٨- «Middle East Record». Vol. 5, p. 578.

١٤٩- «الأهرام»، ١٩٧٠/٣/٢٧.

١٥٠- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, pp. 165-166.

١٥١- نفس المرجع، ص ١٧٠.

١٥٢- انظر: فاسيليف أ. «مشاعل الخليج»، ص ٩١-٩٤.

١٥٣- نفس المرجع، ص ٩٤-٩٧.

١٥٤- «Middle tast Economic Survey», 1972, N 48, p. 1.

١٥٥- Klebanofl Sh. Middle East Oil..., p. 150.

١٥٦- «International Herald Tribune», 7, 8.7.1973.

١٥٧- «The Times» 28, :31.8.1973; «The Economist», 1.9.1973, pp. 15-16; 34-35; 22.9.1973, p. 64; «Intemational Herald Tribune», 31.8.1973.

١٥٨- انظر: فاسيليف أ. «مشاعل الخليج»، ص ١٠٠-١٠٢.

١٥٩- «The Times», 8.10.1973.

١٦٠- «The Times», 10.10.1973.

١٦١- «The Times», 15.10.1973.

الفصل التاسع عشر

١ - Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 89.

٢ - Philby H. Forty Yean..., pp. 38-39.

٣- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 178.

٤- نفس المرجع، ص ١٧٩.

٥- نفس المرجع.

٦- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٠٥-١٠٦؛ Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 195.

٧- المملكة العربية السعودية في عهدها الحاضر، المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر. جدة، ١٩٥٦، ص ١٠٣-١٠٤؛ أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٠٦-١٠٧؛ Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 195.

٨- نشرة الأخبار التجارية العالمية. موسكو، ١٩٧٢، عدد ١٣، ص ٨، (باللغة الروسية).

٩- نشرة الأخبار التجارية العالمية. ١٩٧٣، عدد ٩٨، ص ٨.

١٠ - Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 198.

١١ - «أم القرى»، ١٩٦٠/١/٨؛ أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٦٤.

١٢ - Area Handbook..., p. 294; Lipsky G, Saudi Arabia..., p. 198.

١٣- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٦٥.

١٤ - Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 198.

١٥ - Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, pp. 250-252.

١٦ - Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 189-190.

١٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٧٥٨.

١٨ - Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, pp. 316-320, Area Handbook..., p. 210.

١٩- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٧٤.

٢٠- نفس المرجع.

٢١- نفس المرجع.

٢٢ - Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 301.

٢٣- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٦٦.

٢٤ - «Middle East Reporter», 16.7.1977.

٢٥- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٥٧.

٢٦ - Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 232-233.

٢٧- لينين ف. أ. الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. المؤلفات الكاملة، المجلد ٢٧، ص ٣٦٢.
٢٨- بروشين. العربية السعودية ...، ص ٢٤٢-٢٤٣.
٢٩- Kheirallan G. Arabia Reborn. New Mexico, 1952, pp. 202 - 204.
٣٠- أوزولنغ. العربية السعودية، ص ٥٩.
٣١- نفس المرجع، ص ٥٩-٦٠.
٣٢- المملكة العربية السعودية في عهدها الحاضر، ص ١١٢.
٣٣- استخدم هذا المصطلح لأول مرة في مقال أندرياسيان الموسوم «الازدهار النفطي» والتحولات الرأسمالية للأنظمة الملكية في شبه الجزيرة العربية (مجلة «آسيا وافريقيا اليوم»، ١٩٧٩،رقم ١).
٣٤- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٦٩-٧٠.
٣٥- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 136
٣٦- نفس المرجع، ص ١٤٢.
٣٧- نفس المرجع، ص ١٤.
٣٨- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٧٢.
٣٩- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 132
٤٠- نفس المرجع، ص ١٣٦.
٤١- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 235.
٤٢- «Middle East Economic Digest». 1964. Vol 8, N 10, p. 117.
٤٣- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 144 أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٧٦.
٤٤- أوزولنغ. العربية السعودية، ص ٦٦-٦٧؛ أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٧٤.
٤٥- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 144
٤٦- قافلة الزيت. ١٩٧٠، مجلد ١٨، عدد ٧، ص ٣٩؛ أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٧٤.
٤٧- «أم القرى»، ١٩٦٥/٧/٢٣؛ «الوقائع العربية». بيروت، ١٩٦٥، عدد٣، ص ٣٦٢.
٤٨- Area Handbook..., p. 238; أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٩٣-٩٤.
٤٩- نهاد الغادري. التحدي الكبير، بيروت، ١٩٦٥، ص ٩٦.
٥٠- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٩٥.
٥١- «Middle East and North Africa». London, 1964-1965, p. 471.

٥٢- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٩٩-١٠٥.

٥٣- نفس المرجع، ص ١٦١.

٥٤- نفس المرجع، ص ١٨١-١٨٣.

٥٥- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 239.

٥٦- بروشين. العربية السعودية، ص ٢٥١؛ أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ١٢٧.

٥٧- «International Herald Tribune», 1978, February, p. 2.

٥٨- Bonnenfaut P. Utilisation del recettes petrolieres, et stratégie des groupes sociaux on Péninsule. Arabe. - «Maghreb» Paris, 1979, N 83, p. 61.

٥٩- نفس المرجع، ص٦٢.

٦٠- «International Herald Tribune», 1978, February, p. 2.

٦١- فؤاد شاكر. دليل المملكة العربية السعودية ١٩٤٨، ص ٣٢٢.

٦٢- Philby H . Forty years..., p. 33; Van der Meulen D. The Wells of Ibn Saud, p. 217.

٦٣- Bonnenfaut P. Utilisation..., p. 62.

٦٤- Jeddah 68/69. Nairobi, 1968, p. 109.

٦٥- Hobday P. Saudi Arabia Today. London, 1978, pp. 83-84.

٦٦- «Middle East Economic Digest» Saudi Arabia, Special Issue. 1978, p. 75.

٦٧- Area Handbook..., pp. 218-219.

٦٨- نفس المرجع، ص ٢٢٠.

٦٩- نفس المرجع، ص ٢٢٠-٢٢١.

٧٠- Knauerhase R. The Saudi Arabia Economy, p. 120. Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 210-211.

٧١- Area Handbook..., pp. 221.

٧٢- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 210.

٧٣- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٢٥.

٧٤- الكتاب الإحصائي السنوي، ج ٣, ص ١٣٧.

٧٥- Labour Law..., p. 9.

٧٦- Area Handbook..., p. 222.

٧٧- نفس المرجع.

٧٨- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٤١.

٧٩- Area Handbook..., p. 222.

٨٠- نفس المرجع، ص ٢٢٣.

٨١- نفس المرجع.

٨٢- نفس المرجع، ص ٢٢٤.

٨٣- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 120

٨٤- Labour Law..., p. 9.

٨٥- Area Handbook..., pp. 226.

٨٦- نفس المرجع.

٨٧- نفس المرجع.

٨٨- «Labour Development Abroad» Washington, 1969, N 8, p. 2.

٨٩- الكتاب الإحصائي السنوي، ج ٣, ص ١٢٨.

٩٠- نفس المرجع، ج ٢، ص ١١٠-١١١.

٩١- نفس المرجع، ج ٣، ص ١٣٧-١٣٨.

٩٢- انظر: Labour Law..., p. 9.

٩٣- انظر: خروستاليف م. التركيب الاجتماعي للمجتمع السعودي - «شعوب آسيا وافريقيا»، موسكو، ١٩٧٢، رقم ٤، ص ٣١. (باللغة الروسية).

٩٤- انظر: بروشين. العربية السعودية ....، ص ٢٣٠.

٩٥- نفس المرجع؛ «The Times»..., 29.11.1971.

٩٦- «أم القرى»، ١٩٦٨/٩/١٩؛ «The Economist» 1971, 7-13 August, p. 25.

٩٧- «أم القرى»، ١٩٦٨/٩/١٩.

٩٨- عبد الرحمن صادق الشريف. منطقة عنيزة، دراسة إقليمية. القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٢٠-١٢٤.

٩٩- انظر: Katakura Motoko. Bedouin Village : A Study of a Saudi : Arabian People in Transition. Tokyo, 1977.

١٠٠- استنادًا إلى: Area Handbook..., p. 213; Asfour E. G. Saudi Arabia. Long-term Projections of Supply and Demand for Agricultural Products. Beirut, 1965, p. 15; Knauerhast R. The Saudi Arabian Economy, p, 113: Twitchell K. S. Saudi Arabia, p. 21; «Le Monde diplomatique», 1974, février, pp. 26-27; أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٤.

١٠١- Asfour E.-G. Saudi Arabia..., p, 57: «Geography» 1970. Vol. 55, N 4, p. 415: أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٢٤.

١٠٢- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 113

١٠٣- Area Handbook..., p. 238, Lipsky G. Saudi-Arabia..., p. 214.

١٠٤- Area Handbook..., p. 237.

١٠٥- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 126

١٠٦- نفس المرجع، ص ١١٣.

١٠٧- Labour Law..., p. 9.

١٠٨- Area Handbook..., p. 227.

١٠٩- Bonnenfant P. Utilisation..., p. 64.

١١٠- نفس المرجع، أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٢٨-٢٩.

١١١- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٥٩-٦٢.

١١٢- «Financial Times», 19.12.1972; Area Handbook..., p. 227.

١١٣- The Kingdom of Saudi Arabia. London, 1978, p. 138.

١١٤- جامعة الدول العربية، إدارة الشؤون الاجتماعية والعمل، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤١١-٤١٢.

١١٥- Area Handbook..., p. 233.

١١٦- نفس المرجع: Asfour A. Saudi Arabia..., p. 98. The Middle East And North, Africa 1965-1966, p. 491. أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٩٣.

١١٧- Area Handbook..., p. 213.

١١٨- «العربية السعودية»، ١٩٦٧/٨/١١.

١١٩- Labour Law..., p. 39; «Le Monde Diplomatique». 1974, février; «شعوب آسيا وافريقيا»، موسكو، ١٩٧٥، عدد ٦، ص ٤٢-٤٣ (باللغة الروسية).

١٢٠- Philby H. Forty Years..., p. 57.

١٢١- Sanger R. H. The Arabian Peninsula. New York, 1954, PP. 111-112.

١٢٢- جامعة الدول العربية...، ص ٣٨٣.

١٢٣- Vidal F. S. The Oasis..., p. 94.

١٢٤- Cole D. P. Bedouins of the Oil Fields. - «Problmes politiques et Sociaux», 1974, N 230, p. 25.

١٢٥- نفس المرجع، ص ٢٥-٢٦.

١٢٦- كتب عن بداية هذه العملية م. تشيني؛ (Cheney M. S. Big Oilman..., p. 300).

١٢٧- جامعة الدول العربية...، ص ٤٠٨.

١٢٨- Area Handbook..., p. 60.

١٢٩- جامعة الدول العربية...، ص ٤٠٧-٤٠٨.

١٣٠ - Area Handbook..., p. 56. Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 186; Tomishé F.-J. - L'Arabic Séodite. Paris, 1962 p. 87.

١٣١ - Vidal F. S. The Oasis..., p. 101; Cheney M. S. Big Oilman..., p. 300.

١٣٢ - Katakura M. Bedouin Village..., p. 167.

١٣٣ - بروشين. العربية السعودية، ص ٢١٩.

١٣٤ - Philby H. Forty Years..., p. 57.

١٣٥ - Aria Handbook..., p. 56; Kheirallah Arabia Reborn, p . 161; Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 78, 264.

١٣٦ - Labour Law..., p. 14.

١٣٧ - Lipsky G. Saudi-Arabia..., p. 79, 91.

١٣٨ - نفس المرجع، ص ١٦٢؛ Cheney M. S. Big Oilman..., p. 293.

١٣٩ - Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 207

١٤٠ - جحيم...، ص ٢٠٨.

١٤١ - Cheney M. S. Big Oilman..., p. 240, Rugh W. Emergence of a New Middle Class in Saudi Arabia. - «Problemes politiques et sosiaux». 1974, N 23, p. 16.

١٤٢ - Rugh W Emergence..., p. 16.

١٤٣ - «قافلة الزيت». ١٩٧١، مجلد ١٩، عدد ٣، ص ٢٨.

١٤٤ - «البترول والغاز العربي».١٩٦٩ عدد ٨، ص ٤٧؛ Labour Law..., p. 36.

١٤٥ - Rugh W. Emergence..., p. 16.

١٤٦ - Labour Law..., p. 39.

١٤٧ - «قافلة الزيت». ١٩٧١، مجلد ١٩، عدد ٣، ص ٣٠.

١٤٨ - خروستاليف. التركيب الاجتماعي...، ص ٣١.

١٤٩ - «Labour Development Abroad». 1969, N 8, p. 10.

١٥٠ - الشريف. منطقة عنيزة...، ص ١٥٨.

١٥١ - Labour Law..., p. 53.

١٥٢ - الشريف. منطقة عنيزة...، ص ١٦٨، ١٩٥.

١٥٣ - نفس المرجع، ص ١٦٨.

١٥٤ - نفس المرجع، ص ١٩٨-١٩٩.

١٥٥ - نفس المرجع، ص ٢٣٨-٢٣٩.

١٥٦ - نفس المرجع، ص ٢٣٩-٢٤٠.

١٥٧ - Lipsky G. Saudi Arabia..., pp. 157- 158.

١٥٨- نفس المرجع، ص ١٦٥.

١٥٩- نفس المرجع، ص ١٦٦-١٦٧.

١٦٠- Area Handbook..., p. 262.

١٦١- نفس المرجع، ص ٢٥٩.

١٦٢- Area Handbook..., p. 19; «Middle East Economic Digest». 1971. Vol. 15, N 16, p, 398; «Overseas Business Report». 1971, N 25, p. 4.

١٦٣- Area Handbook..., p. 259.

١٦٤- نفس المرجع.

١٦٥- Labour Law..., pp. 34-36.

١٦٦- أوزولنغ. اقتصاد العربية السعودية، ص ٦.

١٦٧- Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 170.

١٦٨- Labour Law..., pp. 63-64.

١٦٩- نفس المرجع، ص ٦٤.

١٧٠- Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 171.

١٧١- Long D. E. Saudi Arabia. London, 1976, p. 50.

١٧٢- أندرياسيان. الازدهار النفطي والتحولات الرأسمالية للأنظمة الملكية في شبه الجزيرة العربية. - مجلة «آسيا وافريقيا اليوم »، ١٩٧٩، رقم ١، ص ١١ (باللغة الروسية).

١٧٣- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 169.

١٧٤- Bonnenfant P. Utilisation..., pp. 65-66.

١٧٥- «The Gurdian», 2-5. 1973.

١٧٦- نفس المرجع.

١٧٧- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ١٣٤٩-١٣٥٧.

١٧٨- Area Handbook..., p. 261.

١٧٩- نفس المرجع، ص ٢٦٢.

١٨٠- «The Times»..., 28.1.1974.

١٨١- Lipsky G. Saudi-Arabia..., p. 168.

١٨٢- بروشين. العربية السعودية، ص ٢٧٢.

١٨٣- Labour Law..., p. 56.

١٨٤- نفس المرجع.

١٨٥- نفس المرجع، ص ٥٧.

١٨٦- نفس المرجع، ص ٦٠-٦١.

١٨٧- نفس المرجع، ص ٨٢.

١٨٨- نفس المرجع، ص ٥٦.

١٨٩- نفس المرجع، ص ٥٥-٥٦.

١٩٠- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 277.

١٩١- نفس المرجع، ص ٣٧٩.

١٩٢- Labour Law..., p. 14.

١٩٣- Rugh W Emergence..., p. 17.

١٩٤- Area Handbook..., p. 102.

١٩٥- Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 176.

١٩٦- «The Times»..., 28.1.1974.

١٩٧- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 211.

١٩٨- نفس المرجع، ص ٢١٨.

١٩٩- نفس المرجع، ص ٢٢١؛ Labour Law..., p. 25.

٢٠٠- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 221. «The Times»..., 28.1.1974.

٢٠١- Long D. E. Saudi Arabia..., p. 14.

٢٠٢- Area Handbook..., p. 97.

٢٠٣- «The Times»..., 28.1.1974.

٢٠٤- The Kingdom of Saudi Arabia..., p. 200.

الفصل العشرون

١- «Time», 19.11.1973, pp. 90-91: Labour Law..., p. 13.

٢- انظر: Lipsky G. Saudi-Arabia..., p. 116.

٣- Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 168.

٤- «Le monde diplomatique». 1974, février, p. 26-27.

٥- Area Handbook..., p. 157.

٦- International Herald Tribune. 1978, February, p. 2.

٧- نفس المرجع.

٨- نفس المرجع.

٩- Long D. E. Saudi Arabia..., p. 29.

١٠- International Herald Tribune. 1978, February, p. 2. Hobday P. Saudi Arabia Today, p. 65.

١١- Soulié Y. - L. et Champenois L. Le Royaume d'Arabia Saoudite face a l'islam révolutionnaire (1953-1964). Paris, 1966, p.59.

١٢- International Herald Tribune. 1978, February. p. 2.

١٣- Long D. E. Saudi Arabia, p. 29-30.

١٤- Kelidar A. R. The Problem of Succession in Saudi Arabia. «Asian Affairs», London, 1978, vol. 9, p. 30.

١٥- International Herald Tribune. 1978, February. p. 2.

١٦- Long D. E. Saudi Arabia, p. 29.

١٧- International Herald Tribune. 1978, February. p. 2.

١٨- نفس المرجع.

١٩- نفس المرجع.

٢٠- نفس المرجع.

٢١- نفس المرجع.

٢٢- انظر: Area Handbook..., p. 143.

٢٣- نفس المرجع، ص ١٩٣.

٢٤- Soulié J. - L. et Champenois L. Le Royaume..., p. 80.

٢٥- Bonnenfant P. Utilisation..., p. 69.

٢٦- Long D. E. Saudi Arabia, p. 41.

٢٧- «The Financial Times», 24.1.1973.

٢٨- Area Handbook..., p. 35.

٢٩- نفس المرجع: Lipsky G. Saudi-Arabia..., p. 124.

٣٠- Area Handbook..., p. 191.

٣١- الزركلي. شبه الجزيرة...، ص ٩٩٢-٩٩٣.

٣٢- Area Handbook..., p. 321.

٣٣- نفس المرجع، ص ٣٢٤-٣٢٥.

٣٤- نفس المرجع، ص ٣٢٥.

٣٥- نفس المرجع، ص ٣٢٦-٣٢٧.

٣٦- نفس المرجع، ص ٣٣٠-٣٣١.

٣٧- Long D. E. Saudi Arabia, p. 37.

٣٨- The Kingdom of Saudi Arabia..., p. 127.

٣٩- خروستاليف. التركيب الاجتماعي...، ص ٣٤-٣٥.

٤٠- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 115.

٤١- نفس المرجع، ص ١١٦.

٤٢- أمين سعيد. تاريخ...، ج٣، ص ٧٠.

٤٣- نفس المرجع.

٤٤- Area Handbook..., p. 139.

٤٥- Soulié J. - L. et Champenois L. Le Royaume..., p. 123.

٤٦- نفس المرجع: Area Handbook..., p. 145. Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 33

٤٧- Soulié J. - L. et Champenois L. Le Royaume..., p. 123.

٤٨- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 126.

٤٩- Area Handbook..., p. 148.

٥٠- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 126.

٥١- Long D. E. Saudi Arabia..., p. 41.

٥٢- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 33

٥٣- Long D. E. Saudi Arabia..., p. 33.

٥٤- Lipsky G. Saudi Arabia..., p. 127.

٥٥- نفس المرجع، ص ١٢٨.

٥٦- انظر: Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 180.

٥٧- Rugh W. Emergence..., p. 15-17.

٥٨- نفس المرجع، ص ١٧-١٨.

٥٩- Long D. E. Saudi Arabia..., p. 16.

٦٠- The Kingdom of Saudi Arabia..., p. 124.

٦١- نفس المرجع.

٦٢- Knauerhase R. The Saudi Arabian Economy, p. 25

٦٣- نفس المرجع.

٦٤- نفس المرجع.

٦٥- «Middle East Record», Vol. 2, p, 424.

٦٦- The Kingdom of Saudi Arabia..., p. 124.

٦٧- المحمصاني. الأوضاع...، ص ٣٢٥-٣٣٠.

٦٨- Area Handbook..., p. 193.

٦٩- The Kingdom of Saudi Arabia..., p. 125.

٧٠- Long D. E. Saudi Arabia, p. 39; The Kingdom of Saudi Arabia, p. 124; Area Handbook..., p. 124.

الخلاصة

١- انظر: «Middle East Economic Digest ». 1964, vol, B, N 10, p. 117.

٢- انظر: Area Handbook..., p. 5.

٣- نفس المرجع، ص ٦٥.

٤- نفس المرجع، ص ٢٠١.

٥- انظر: Wenner M. W. Saudi Arabia..., p. 167.

الفهرس



أليكسي فاسيلييف مؤرخ ومستشرق معروف وكاتب مهتم بقضايا الشرقين الأوسط والأدنى. عمل مرسلاً لصحيفة «البرافدا» وطاف العديد من بلدان آسيا وافريقيا. وأمضى زهاء عشر سنوات في بلدان الشرقين الأوسط والأدنى. كتب بالإضافة إلى هذا الكتاب مئات المقالات وعدداً من الكتب العلمية والصحفية بينها «الوهابية والدولة السعودية الأولى في الجزيرة العربية» و«ببليوغرافيا العربية السعودية» و«مشاعل الخليج» و«النفط: الاحتكارات والشعوب» و«الخليج في قلب العاصفة» و«رحلة إلى الجزيرة العربية السعيدة» و«جسر عبر البوسفور».

تاريخ العربية السعودية

صدر هذا الكتاب باللغة العربية لأول مرة عام ١٩٨٢، وكان صدوره حصيلة جهد بحثي قام به المؤلف خلال عشرات السنين، واعتُبر منذ ظهوره وحتى الآن، الكتاب الأكثر توثيقاً، وبالتالي أهمية، لتاريخ العربية السعودية، حيث يعرض المؤلف فيه وبالتفصيل مختلف مراحل تكون الدولة وتطورها، مستنِداً في ذلك إلى جهد توثيقي ضخم يغطي أكثر من ١٧٠ صفحة تحوي أكثر من ١٧٠٠ هامش توثيقي.

وفي هذه الطبعة الجديدة المنقّحة والمزيدة، يتابع المؤلف رصد الأحداث والتوقعات في العربية السعودية، انطلاقاً من التغيرات التي حدثت على الصعيد العالمي خلال الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. إنه بحق الكتاب الجامع عن العربية السعودية، ولن يكون الكتاب المانع عنها.

ISBN 978-9953-88-391-5

9 789953 883915

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب. ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر